رواية

صلاة خاصة

صبحي موسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٨

صلاة خاصة



رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخراج الفني
أحمد طه محمود

التدقيق اللغوي
مروان حماد

صلاة خاصة

صبحي موسى

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C. : 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.



الإهداء . . .

إلى آيات وعبير

علَّهما يتقبلان عذري

تنوية

أي تشابه بين الأسماء والأحداث المذكورة فى هذا العمل وبين الواقع ما هو إلا محض مصادفة.

الجزء الأول

أنطونيوس
الجسد الذي يبذل

- ١ -

ـ لا أعرف لمَ أتوا بك؟

قالت وهي تنظر إليه كما لو أنَّها تعتذر عن أمر غير مقصود، غير أنَّها سرعان ما استدركت:

– لكن لا بدَّ من التحقيق.

لم يكـن أمامه سوى أن يحني رأسه موقنًـا أن الليالي العصيبة قد بدأت تطـل برأسهـا، فرحيل الأب إيمانويـل ليس انتهاء لزمـن البركات على الأرضـ ولكن بدايـة الشرور التي ستعصف بكل شــيء، هزَّ رأسه كمن يضع توقيعه على اتفاقية استسلام مخزية:

– ليكن.

بالكاد وصلها صوته، فرفعت رأسها مومئة لكاتبها أن يفتح دفتره ويبدأ في تسجيل وقائع التحقيق، كتب خلفها:

– إنــه في تمــام العاشــرة مــن صبــاح يــوم ٨ مارس عــام ٢٠١٦، وبحضورنا نحن دميانة صــلاح متري تم فتح محضر التحقيق رقم واحد لمواجهة القس أنطونيوس بالاتهام المحال إلينا بشأنه.

جلســ أنطونيوس بردائه الكهنوتي الأســود ينتظر ما تجري به مشيئة الــرب عليه، علَّمه الآباء أن الصبر هو أول الطريق نحو الفردوس، من قبله نــال قسيسون ورهبان ملكوت الرب بصبرهــم، وجهادهم لأنفسم، وانتصارهم على وساوس الشيطان.

ـ اسمك وعملك؟

ـ أنطونيوس عبد المسيح إبراهيم، قس في دير الملاح، كنت مشرفًا على مطبعة الدير، والآن مسئول عن العيادة بالدير.

رفـع الكاتب وجهه عـن الدفتر الطويـل الذي يكتب فيـه متأمِّلاً وجه أنطونيوسـ وهـو يتحـدث عـن عمله بصـوت هـادئ كما لـو أنه يترنم بالمزامـير. بينما ظلت أصابعه تتحرك بالقلم على وجه الدفتر كرجل خبير بالكتابة في الظـلام، طرقت المحققة بإصبعها على قشـرة الفورمايكا التي تكسـو سطح المكتب، نظر الكاتب تجاهها معتذرًا عن خطئه غير المقصود، فهزت رأسهـا إشارةً على قبول اعتذاره، ومطالبـة بالتركيز في العمل. وضع الكاتب قلمه على وجه الورق في انتظار سؤالها:

ـ كم سنة كنت مسئولاً عن المطبعة؟

كان أنطونيوس قد احتل موقعه كمسئول عن الطباعة لمدة خمسة أعوام، وهـي فترة أقل مـن ربع عمره في الديـر، فمنذ دخل سلـك الرهبنة وهو مـلازم للمكان، لا يكاد يخرج منه، يتـوزع يومه بين الرهبان المتفرقين في أعمالهـم والمعتكفـين في قلاليهم، يتنقَّل كنحلة مـن أب إلى آخر، يضع الشموع في الشمعدانـات والزيت المقدس في الأواني، ويرفع التراب عن الأرضـ وينفض الغبار عن الستائر، ويتأكد مـن ليونة مفاصل الأبواب وسهولة دق الأجراسـ، وإذا طُلبت منه المساعدة في فلاحة الأرض فإنه يـروي الزرع ويطعم الماشيـة ويجمع الثمار ويغسـل الثياب، كان يجيد الاندمـاج في أي عمل، لم يسأله أحد عن سبب دخوله الدير، لكن الجميع كان بـوده أن يعرف السبب الـذي دفعه للمجيء إلى هذا المكان النائي عن أهلـه وكل من يعرفهم في الشمـال، الجميع كان يعلـم أن الدير قد توقف عن استقبال رهبان جدد، فمـاذا جعل الأب إيمانويل يسمح له بالدخول، ظل هذا الأمر سرًّا لا يتحـدث به أحد، لا أنطونيوس ولا إيمانويل، ومع مرور الأيام نسي الجميـع السؤال وتعلقوا بهذا الذي يجيد كل شيء، ولا يستعلي على شيء، هذا الذي يبدو كأنه أكثر تعليمًا وثقافة من شمَّاس، حتى فوجـئ الجميع برسمه قسًّا، بعدما نال شهـادة في اللاهوت، وأصبح أحدَ الباحثين في تاريخ الهراطقة، ليجلسـ في مقدمة كنيسة الأب ديميتريوس يلقـي عظاته على الوافدين كي يعلمهم مبادئ الديـن، والبعد عن الوقوع في خطايـا الوثنيين، كان ذلك قبل توليـه الإشراف على مطبوعات الدير من قبل إيمانويل، ذلك الذي تنيح بعد أعوام قليلة من الثورة، فاتحًا بموته مصاريع الأبواب لدخول الشيطان، وبدء الصراعات التي لم تنتهِ.

ـ منذ خمسة أعوام.

هكذا جاءت إجابته مختصرة لا تفيد المحققة الجالسة أمامه في انتباه تام، التي لم تستطع أن تستوعب أن الواقف أمامها هو القس أنطونيوس، وأنه جاءها متهمًا بنشر الهرطقات وإهدار أموال الكنيسة، فهل جن جنون العالم أم أنها لم تعد لديها الخبرة لمعرفة المذنب من البريء. كانت عشرات الأسئلة تجتاحها وهي في الطريق إلى مكتبها بغرفة التحقيقات بالدير، بالأمس قرأت مذكرة الإحالة، مذكرة لا تزيد عن خمس صفحات لكنها محمَّلة باتهامات أقلها يكفي لشلحه وحرمانه، لم تكن لتجيبه حين سألها عن سبب استدعائه إليها، وضعت عينيها في الأرض محاولة التخفيف من وقع الإجابة عليه، تساءلت بدهشة وكأنها لا تعرف سببًا لمجيئه، موضحة أنها مجبرة على التحقيق معه ما دام قد أحيلت إليها مذكرة بشأنه.

ـ كم عمرك؟

هكذا استعادت نفسها من الشرود، وتركته ينظر في جانب من الغرفة المدهونة بطلاء زيتي حديث، ثم دار بعينيه كما لو أنه يبحث عن تاريخ ميلاد مدوَّن أسفل أيقونة المسيح، وبدا كما لو أنه نسي تاريخ ميلاده، فمنذ سنوات وهو يدبُّ بأقدامه على الأرض، سنوات جاب فيها الأخضر واليابس ولم يسأله أحد عن سنه، أعملَ ذهنه قبل أن يبتلع ريقه:

ـ خمسة وأربعون.

لسبب ما كانت أنامل الكاتب ترتعش على وجه الورق، بدا كما لو أنه أصيبَ بشيء ما، فتوقف عن عمله فجأة وأخذ يفرك الخدر الذي دب في عروقه، ثم عاد ليعتذر إلى المحققة عما يجري، لكنه نظر بغرابة إلى وجه القس الحزين الواجم أمامه، وشعر برعشة طفيفة تنتاب فرائصه، تمتم باسم المسيح وحاول أن يمسك بالقلم من جديد، لكن محاولته باءت بالفشل، حاول أن يضبط أعصابه ليقبض عليه بمهارة أفضل لكن يده اصطدمت به فسقط على الأرض، حينها رفع وجهه بحزن مماثل لحزن القس، ونظر في عين المحققة خوفًا إن لم يكن فزعًا، وانتاب الأخيرة شعور بالأسى من أجله، وربما اليأس وخيبة الأمل أيضًا، فرفعت رأسها نحوه:

– أدفئ أصابعك، وإن لم تستطع فسنؤجل التحقيق.

-٢-

لسنــوات كان أنطونيوســ يعتقد أن أحدًا لن يعــرف سره، لكن ها هو التحقيــق قد بدأ وشيئًا فشيئًا ستتسرب الحقيقة من جوفه كخيط تريكو، زفر هــواءً مكتومًا من صدره وهو خارج من غرفــة التحقيق متجهًا إلى قلايته بالديــر، سنوات طويلة وهو يتوارى بين أشجار المكان ورهابنه عسى أن ينســى حقيقته، وعســى أن يصل يومًا إلى اليقين، لكــن الأخير لم يحدث بعد، والأول ما زال يلمع أسفل الرماد القليل.

ألقــى في طريقه بتحية الصباح على الخادم ميــلاد العجوز وعبَر الممر المــؤدي إلى بوابــة المبنى، هذا المكان رغم جماله مبالــغ فيه، كل شيء به مبالــغ فيــه: السياج الحديــدي، الدرجــات الرخامية الطويلــة، الأعمدة الشاهقة، السيراميك اللامع البارد، الأبواب الخشبية والنوافذ الألوميتال والمكاتب الإيديــال وطيات الكرانيش وصور القديسين المتضرعين بحزن عميق. كل شيء يشعــره بالبرد والارتجاف، لم يدخل هنا من قبل سوى مرة واحدة مــع صديقه المتنيِّح الأنبا إيمانويل، كان الأخير قد جاء للسلام علــى بيشوي المحقــق السابق بالديــر. يتذكر ذلك اليــوم بوضوح، كان يمشــي إلى جانبه كما لو أنه يسير إلى جانــب شجرة شائخة في طريقها إلى القــبر، لم يكن يعرف ما الــذي ينبغي عليه عمله كي يســرع به إلى حيث يريــد، كل ما فيه كان يرتجف كورقة شجــر في عز الخريف، فكَّر لو أن بالإمــكان حمله والهرولة به من بين كل هذه الردهات الباردة، لكن ذلك لم يكن مسموحًا، الحالة الوحيدة المسموح بها هي الحمل على المحفة، وتلك مخصصــة للأساقفة المصابــين بعجز واضح، ظل يتهــادى بجانبه إلى أن وصل إلى المكتب الكبير الذي يجلس خلفه بيشوي، حين رآه الأخير نهض مــن كرسيــه بعجز أكبر من عجــز إيمانويل كي يلتقيــا في منتصف المسافة بــين الباب والمكتــب، حينها اختار أنطونيوس لنفســه كرسيًّا في ركن بعيد وترك العجوزين يتحدثان عن رفض كاهن في كنيسة بالشمال إقامة إكليل

لعروسين، لأن العروس تتبع الكنيسة الكاثوليكية في العماد.

عند بوابة المبنى المخصص للتحقيقات لمح أنطونيوس القس يوساب قادمًا بصحبة ثلاثــة من الشمامسة التابعين له، حاول أن يسرع في سيره متجهًا إلى الجانب الأيسر من المبنى، لكن يوساب هتف فيه:

– كيف حالك يا أنطونيوس؟

توقف الأخير واستدار بهدوء مبالغ فيه ليواجه يوساب وتلامذته الذين يتمتعون بطول واضح:

– نحمد الرب يا يوساب.

لكن الأخير لاحقه:

– ماذا تفعل هنا؟

هز أنطونيوســ رأسه وكأنه لم يسمع جيدًا، فهو لا يريد أن يحكي لكل عابــر عن كونه متهمًــا في قضية لم يعــرف أبعادها بعد، فقـد شعر كاتب التحقيقًـات بتوعـك قبل أن تواجهه المحققة بمــا في أوراقها، حمد الله حين أبلغـت الكاتب أنه يحتاج إلى الراحة، ولن يستطيع أن يكمل العمل اليوم، شكرهــا أنطونيوس ونهض من مكانه معتبرًا ذلك علامة خير، ولا بدَّ أن السمــاء تنظر إليه، وستقف بجانبه مثلما وقفت إلى جانب كل القديسين من قبل، لكنه في قرارة نفسه لم يكن موقنًا أن السماء تنظر إلى أحد، نهض من مكانــه كمن جاء دوره لدخــول دورة المياه، وفر من أمامها متعجلاً دون مراعاة الحفاظ على الهيبة التي تركها في مخيلتها، فقد شعر أن المحققة التي بدأت عقدها الثالــث دون أن تتزوج تكنُّ له قدرًا من الإجلال والتوقير، ولوهلــة تسرَّب إليه شعور أنه سيمثل في حياتها شيئًا كبيرًا، فالتزم الهدوء مضفيًا على صوته نبرة مليئة بالرضا والطمأنينة، وبدا له أن ذلك ما تفتقر إليه المحققة الجالسة أمامه بتواضع وخجل، فقرر أن يركز عليه كي يكسب تعاطفها.

لم يعــرف مــا الاتهامــات الموجهة إليه، لكــن عينه تدرجت علــى جسدها المشوق أمامه، وبخجلٍ شديد ألقى بنظره على الأرض، وإن كانت هي أيضًا

لم تغفل تسحُّب عينيه نحوها كقطٍّ مسكون برائحة لحم لا يعرف كيف يناله.

– لا شيء، كنت أسلم على صديق.

رد علــى يوساب وكأنه يبلغه أن ذلك أمر لا يعنيه، ثم سرعان ما باعد في خطواتــه قاطعًا الطريق المـؤدي إلى الكنيسة الكبــيرة في الدير، ومن أمامهــا عبَر منحنيًا تحت أشعة شمس مارس الدافئة كي يذهب لأداء صلاة الظهيرة، لكنه ما إن وصل إلى القلالي البعيدة حتى لمح عددًا من الرهبان طــوال القامة يخرجــون بصحبــة شمَّاس لا يعرفــه، بدا أنهــم لم ينتبهوا لحضوره، وهو بدوره لم يشأ أن يناديهم، فهو متعب وضجِر من التحقيق معــه، ومما قد تــؤول إليه الأحــوال. عبر المدخل المــؤدي إلى تجمع من القلالي المبنية على حافة الهضبة منذ نهاية العصور القديمة، فقد كان الدير في بدايته قلايــة للأب جبرائيل الملاح الهارب مــن ملاحقة الرومان له، وسرعــان ما لحقه آخرون ليقيموا بجانبه، فتركهم وبحث لنفسه عن قلاية فــوق الهضبة، تسلق مخر المياه القديم وجلس وحــده بلا طعام أو شراب أكــثر من ثلاثة أشهر، بعدها نزل يمشــي هو ولبؤته وأشبالها الأربعة بين هؤلاء المقيمين أسفل الهضبة وكأنه يباركهم، ظل بينهم مدة أسبوع ثم عاد فاعتكــف من جديد أعلى الهضبة، وظــل الأمر على هذا النحو حتى ماتت اللبــؤة وأشبالها، فسمح للناس بالصعود والبقاء إلى جانبه، وجاء مِن بعده مَن بنى على الهضبة قلالاً للرهبان كي يقيموا ويتعبدوا فيها.

حين وقعت عيناه على قلايته لم يجد شيئًا في مكانه، كل شيء كان ملقى علــى الأرض بطريقة معلنة، وكأن من دخل الغرفة جاء ليخبره أنه كان هنا، أخذ ينظر إلى الفراش المتناثر، والدولاب الصغير منزوع الأبواب، والملابــس التي تركت الأقدام الكبيرة بصماتها عليها، بدا الأمر كما لو أنه نوع من الترهيب والانتقام. ترك أنطونيوس كل شيء على حاله وجلس علــى الكرسي الجريد يصلي، وما إن استحضــر الرب في قلبه حتى وجد نفسه يقول:

– أنت تعلم أنهم يريدونني أن أعود إلى ما كنت عليه، لكنني لا أريد.

-٣-

لا أحـد يعرف أنني الـذي أسجِّل كل شـيء، أدون في دفاتري كل ما يحـدث، فمهنتـي أن أحتفظ بكل كبـيرة وصغيرة، أن أرصـد كل شيء في الدفاتـر الخضـراء والسوداء والبيضـاء، الدفاتر الكبـيرة والصغيرة والمتوسطـة، الخفيفـة والثقيلـة والتي بـلا وزن، كل هـذه التركة ملكي وحـدي، فأنا المنـوط به تسجيـل التحقيقات وحفظها، يمكننـي التغيير في الصياغـات، يمكنني إضافـة العديد من الكلمات التـي أدسها بين السطور دون أن ينتبـه أحد، فكل شيء يُحفظ، ونـادرًا ما يأمر المحقق بإعادة فتح التحقيـق، نادرًا مـا تخرج التحقيقات من بين جدران هـذا الدير بكنيستيه ومزرعتـه وقلاليه، ونادرًا ما يطلب رئيس الدير إعادة النظر في تفصيلة مـا، دائمًا ما يكتفي بالتقرير المبسَّط الـذي يعده المحقق، هذا الذي عادة ما يأمـرني بكتابته فور انتهائنا من أي تحقيق، حيث نشرح فيه لرئيس الدير مـا توصلنا إليه، وما نوصي به، وله أن يأخـذ بتوصياتنا أو يرفضها، له أن يستبعـد من حققنـا معهم من دائرة الاتهام أو يرفـع أمرهم إلى مجلس الأساقفة، حيث أسقف التحقيقات الكنسية في الكنيسة الأم.

هكـذا حدَّث الكاتـب نفسه بعدما عـاد إلى غرفة نومـه، لم يكن المكان محضـ غرفة نـوم، لكنه مخزن علـى مساحة كبيرة امتـلأت بالدواليب الخشبيـة التي امتلأت بدفاتـر تلو دفاتر، كان الكاتـب، الذي ورثها عن أستاذه الكاتب السابـق إدورد حنا الذي ورثها بدوره عن كتَّاب سابقين، قد وجدها موزعة على عدة أقسام، كل قسم منها يشتمل على دفاتر عقدين أو ثلاثـة، كان الكتبـة السابقون يضعون ورقة علـى كل دولاب توضح عدد السنوات التي يشتمل عليها، بينما يقسمون الدفاتر نفسها باسم رؤساء الديـر المتعاقبين، ويمكن لدفتر واحد أن يحمل اسم رئيسين، ويمكن لاسم رئيسـ واحد أن يوضـع على أكثر من دفتر. متاهة كبـيرة من الدواليب

والأقسام والدفاتر والسنوات والعقود وأسماء الرؤساء، متاهة أكبر وأعقد مئات المرات حين نفتح الدفاتر ونغوص في التحقيقات والقضايا التي مرت بتاريخ هذا المكان.

كل هذه المتاهة لم يعد مسئولاً عنها سوى ذلك الكاتب الذي يعيش في مطلع الثلاثينات من عمره، الذي تولَّى مسئوليتها منذ نحو عشرين عامًا، لكنه في العموم نشأ وتربى داخل هذه الغرفة أو المخزن، فقد وجده الخادم ميخائيل أمام البوابة الكبيرة قبيل شروق الشمس في لفافة من قماش، تلفَّت مرتين نحو الخلاء الواقع على جانبي السور الخارجي بحثًا عمن تركه في هذا المكان، لكن عينيه لم تلمحا أحدًا في ضباب الصباح المتكاثف، دقق النظر من جديد مرتين وثلاثًا، وحين أيقن أن الطفل تُرك عن عمد خرجت منه زفرة مليئة بالأسى، ثم انحنى وحمله عائدًا إلى الداخل.

الدير كله علم بتلك الحكاية، فحين صعد الخادم العجوز الدرجات المؤدية إلى غرفة رئيس الدير الأب إستيفانوس، كان الروماتيزم والتهاب المفاصل قد أخذا به كل مأخذ، فلم يستطع الحفاظ على توازنه وهو يحمل الطفل بين يديه، خاصة بعدما زلت قدمه عن الدرجة الأخيرة، فترك اللفافة وبها الطفل ليتشبث بكلتا يديه في السور الخشبي، ولولا أن الكاتب إدورد حنا كان في طريقه آنئذ لقلاية إستيفانوس لواصل الطفل سقوطه حتى ارتطم رأسه بصخر الهضبة، يومها خرج إستيفانوس من غرفته ليطمئن على الخادم العجوز، وسرعان ما جلس بجانبه على نفس الدرجة التي زلت قدمه عنها، لينصت إلى الحكاية التي جعلته يترك مكانه خلف البوابة ليأتي إليه في ذلك الوقت، كان إدورد ينصت بقلب منفطر من قسوة القلوب التي جعلت البشر يحملون سفاحًا كالكلاب، ويلقون بأبنائهم في الشوارع بجفوةٍ لا تعرفها الحيوانات الضالة.

كانت هذه سابقة غريبة على الدير، فعادة ما تلقي الأمهات بأبنائهن أمام الكنائس في المدن والقرى، وليس أمام دير على هضبة في جبال القلزم، لكن الأكثر دهشة بالنسبة لميخائيل أن والدة الطفل تركت منطقة

المطبعــة والمقابــر والأرض المنزرعــة أسفل الهضبة، وصعــدت كل هذا الــدرج الرخامي كي تضع ابنها أمام البوابة الحديدية، ثم تهرب دون أن يراهــا أحد، حكى ميخائيل ملحوظته ببساطة كما لــو أنه يبلغ رئيس الدير أن هــذا الطفل مقدس ولا ينتمي إلى عالم الأرض، ظل إستيفانوس مبتسمًا طيلة شرح ميخائيل وتحليله للأمر، ثم سأله ببساطة مشابهة:

– وماذا نفعل يا ميخائيل؟

صمت الأخير كمن أنهى المهمة التي جاء من أجلها، متأثرًا بثقلها عليه، ثــم مال بفمــه ليقبل يــد الأب إستيفانوس وصليبه، عازمًــا على النهوض والعــودة إلى عمله من جديد، غــير أن الأخير أمسك بذيل جلبابه قائلاً إنه لا يثــق بأحد لرعاية الطفل المقدَّس أفضل من الرجل الذي اختارته السماء كي يكون أبًا له، فقد جعلته ينحني في الصباح البارد ليحمله من أمام بوابةٍ كان من الممكن أن تظل مغلقة طيلة اليوم.

لم يستوعــب ميخائيل الجملة المرتَّبة التي نطقهــا إستيفانوس كما لو أنه ينطق نصًّا مقدسًا، فتصوَّر أنه يشكره على عمله، وأخذ يلهج له بالدعاء، واضعًــا يديــه على الأرض كــي يساعد نفســه في النهوضــ والعودة إلى بوابته، لكن الكاتب إدورد ضحك موضحًا:

– يا ميخائل.. أبونا يبلغك أنك ستربي الطفل.

توقــف ميخائل منحنيًــا، فلا هو ظــل جالسًا ولا هو أكمــل النهوض، ونظــر في عيني إستيفانوســ بنوع من الدهشة والعتــاب، فزفر إستيفانوس حزنًــا على عطية السمــاء الغريبة، ويأسًا من الحــيرة التي ارتسمت على وجه ميخائيل. التفت إلى الكاتب إدورد قائلاً:

– وأنت معه إلى جانب عملك.

كان إستيفانوســ يعلم أن عمل كاتــب التحقيقات قليل، وأنه يكاد يكون جالسًــا طيلة الوقت في مخــزن دفاتره، ينقلها من صنــدوق لآخر، ومن دولاب لآخــر، وكأنــه يحرصــ علــى تهويتها كــي لا تصيبهــا البرودة

بالعطب، كان يعلم أيضًا أن ميخائل قد أصبح عجوزًا بما يكفي، وأنه لم يعد قــادرًا على النهوض لفتح البوابة أو تأدية الحراسة عليها، فأمر له بمساعد يعاونه، ويساعده على التفرغ لإطعام الصغير والبحث عن غيارات له، ومع الوقــت أصبح الطفل معروفًا بأنه ابن ميخائــل، ويوم عمادته منحه الأب إستيفانوس اسم ملاك ميخائيل، وفي يوم أحد الشعانين رشم له أحد القساوسة صليبًا على رسغه الأيمن وكتفه الأيسر، لكنه في الأخير كان ابنًا للدير كله، وسرعان ما انتقل ليقيم مع إدورد حنا في مخزن كتبه ودفاتره بعدما تنيَّح ميخائيل الخادم في ليلة شتوية باردة.

-٤-

أبانا الذي في السمــاوات ليتقدَّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

كانــت صلاة أنطونيوس سريعة ومقتضبــة بعدما استيقــظ ووجد أن الظهيرة قد مرت سريعًا، فقد كان عليه أن ينهض لملاقاة الأب باخوميوس كاهــن الاعتراف في الديــر، مر عليه أسبوعان ولم يعــترف له، ويشعر الآن أنه ارتكب خطيئة تستوجب الاعتراف، فما إن أعاد ترتيب مفردات الغرفــة كمــا كانت حتى شعــر أنه يرغب في نــوم القيلولــة، ألقى بجسده الطويل على السرير المبني مــن أحجار الهضبة، واستسلم لرطوبة الهواء القــادم من فرج النافذة الوحيدة في قلايته، ما إن غمس عينه في بئر النوم اللذيذ حتــى رأى المحققة دميانة متجسدة أمامه، رآها واقفة بقدها المشوق كرمح منتصب في وجه الريــح، لم يستطع أن يمنع نفسه من تمرير عينيه على هــذا الفرع من الجازوريــن الواقف في مواجهته، تمهــل قليلاً أمام صدرهــا المكور كثمرتــي باذنجان شهيتين أسفل فتحــة صدر تنبئ بمنحدر عظيم، لوهلة قاومت عينه رؤية الانحدار، لكن الشرير أقنعه بإلقاء نظرة واحدة للتعرف على ما قد تخفيه الملابس الصوف السميكة، فرفض بورع وإبــاء، رفض بقوة وهو مغلــق عينيه حتى سمع صوت جــرار السوستةَ ينطلق من مكانه، حين فتحهما وجد دميانة تخرج من ملابسها كيوم ولدتها أمهــا، وجد عينه تستقر على بطن كطشت الخمير الفائر، مغطية على دلتا ذات مستنقــع مليء بالعشب الأسود الكثيف، في تلك اللحظة كان جسده قد انفرط من هول المفاجأة وشعــر أن ملابسه الداخلية انغمرت بفيض سائل لزج كثيف، انتفض من نومه واضعًا يده على سرواله وأعضائه موقنًا أن الشرير أخذ في مطاردته من جديد، وأنه ما زال غير مؤمن. كان غضبه من نفسه يزداد كلما شعر أن لديه رغبة في إعادة استحضار المشهد، لم يكن

نافـرًا مما رأى، وشعر لوهلة أنه كان يتمنى أن يمتد الحلم ساعة أخرى، شعـر أنه شخص عاشـق للرذيلة، ولن يصيبه خبـز الرب ببركته، فلعن الشيطان وقرر الذهاب للقاء الأب باخوميوس.

كانت السماء قد اكتست بشفق خفيف، فالشمس مالت في ربعها الغربي لكنهـا لم تسقط بعد في البئر السحيق، كان الفلاحـون ينهون أعمالهم قبل أن يحـط الظلام على الرءوس، البعض يسحـب البهائم من المراعي إلى الحظائـر، والبعض يطـوي أدوات الحـرث والري ليضعهـا في مكانها اليومـي، وكان علـى أنطونيوسـ أن يلقي عليهم بالتحية كلمـا التقى بأي منهـم، فرتبته كقس تسمح لـه بتلقي التحية مـن الشمامسة لكنه لا يعترف بذلـك، "أنا أكـثر خطيئة منهم، أكثر جهلاً وضعفًـا"، هكذا كان يقول في نفســه راغبًا في هزيمة الشيطان بداخله، فهو لا يريد أن يصيبه الكِبر مثلما أصــاب عزازيل في بدء الخليقة، لا يريد أن يكـون جاهلاً مرتين، فيلقي بنفســه في نيران اللذة مرة وفي نيران الاستعلاء علــى الشمامسة الضعفاء مرة أخرى.

مـا إن اقترب من الكنيسة ذات الشـكل المستطيل حتى تأكد من وضع غطـاء رأسه بالشكل الصحيح، ولمحت عيناه الـبرج الكبير للكنيسة حيث الخادم سعيـد سيجذب الحبال ليطلق الجرس العملاق رنينه المعتاد، فعما قليل سينطلق قداس الخامسة، نزل بعينيه إلى تمثال المسيح المصلوب على واجهـة مدخل الكنيسة عاريًا إلا من مئزر ملتف على وسطه ليمنع الناس مـن رؤيـة أعضائه، قال في نفســه إن الرب نفسه تمتــع بوجود أعضاء حسيـة في جسده، اللـه لم يمنع هذه الأعضاء من الوجـود، طأطأ رأسه بحزن وهو يمر مـن أسفل قوس الكنيسة محييًـا القساوسة الذي يتهيأون لحضــورالصــلاة.

على البعـد لمح الأب باخوميوسـ يحمل مبخرة ويدلـف إلى المذبح في نهايـة الكنيسة، اتجه نحوه سائـرًا بين صفي الأعمـدة الطويلة الممتدة من باحة الدخـول إلى الهيكل، للحظة انتابه الكبر حـين رأى كأنه ملك وتلك الأعمـدة الطويلـة صفان مـن الجنود المشدوديـن في استقبالـه، شعر أن

خطاه انتظمت في مشيـة عسكرية كما لو أنه يوليوس قيصر في طريقه إلى كليوباترا بمخدعها المخملي، غاصت أقدامه في وبر السجاد الأحمر مدركًا أن الخطيئة طعمها ناعم ولذيذ، الخطيئة التي رآها في حلمه كانت حشائشها السوداء هشة وكثيفـة، وكان بوده أن يمد يده ليعرف كم كانت ستغوص بـين الأحراش، انتبه من شـروده على وجـه الأب باخوميوس العجوز واقفًا أمامه في ثيابه السوداء، جفل من المفاجأة ووقف في مكانه كما لو أنه رأى الشيطـان، حين رفع عينيه ليتطلع في وجـه من كان سيصطدم به، وجده يبتسم له قائلاً:

– صح النوم يا أنطونيوس.

– معذرة يا أبونا...

– جئت للقداس أم لأمر آخر؟

– للقداس بالطبع، لكنني أحتاج أيضًا..

– اعتراف؟

هـز أنطونيوس رأسـه باستسلام كمن سيعـترف بجرم مـا، فتنهد باخوميوس وحمل مبخرته مـن جديد وأخذ يؤرجحهـا أمامه تاليًا بعض التراتيل، فيما انطلقت الأيدي الكبيرة للخادم سعيد في جذب حبال الجرس لينطلق رنينه العـالي في فضاء الدير وما حوله، مؤذنًا بأن هذا العالم ملك السيـد في الأعالي والآباء المعظمين على الأرض، وللجميع المحبة وعلى العالم السلام.

حين انتهت الصـلاة وخرج القساوسة والشمامسة مـن الكنيسة باتجاه قلاليهـم ظل أنطونيوس جالسًا في مكانه، بينما نهض الأب باخوميوس بتكاسـل رجـل عجـوز ليدخـل الغرفـة المخصصـة للاعـتراف، تلـك الغرفـة التي صار سيدهـا منذ نحو عشرين عامًا، فحـين رفضت الكنيسة الاعتراف بإيمانويل الطيب قديسًـا للعذراء رأى الأب صاموئيل الشكاك أن يستحـدث درجة نائب رئيس للدير، ويمنحهـا لإيمانويل تخفيفًا له من آلامـه وأحزانه، قبلها إيمانويـل محبةً في أستاذه الشـكاك الذي تولى بعد

إستيفانوس رئاسة الدير، لكن نفس إيمانويل كانت ممتلئة بالحزن، وتتوق إلى رحلة طويلة يدور فيها على الأديرة والكنائس بمختلف ربوع البلاد، كان يبحث عن نفسه بحسب ما قال للشكاك، فأمضى نحو ثلاث سنوات في تلك الجولة التي لا يعرف سوى الله أين كانت حدودها، لكنه حين عاد منها عاد ليُخلص لشئون الدير، فترك له الشكاك إعادة ترتيب المناصب والأماكن حسبما يريد، حينها تنازل لصديقه باخوميوس عن منصب كاهن الاعتراف، وهو المكان الأكثر أهمية لكل من بالدير وخارجه من شعب المؤمنين بالسيد المسيح، لأنه مجمع الأسرار، وبدونه تسقط هيبة الكنيسة وسرها الأقدس، هنا تُمنح البركة والغفران، هنا يتجسد المسيح عبر شخص باخوميوس الحباك، هنا يعترف المؤمن بذنبه ويتجلى عليه الرب بعفوه ليبدأ من جديد صفحة جديدة يهزم فيها الشرير، لكن أنطونيوس لم يستطع ذلك، وظل في كل مرة يهزم ويهزم، وكأنه خلق من ضعف على ضعف، أو أنه ليس مؤمنًا من الأساس، رغم أن الأب إيمانويل حين رسمه كاهنًا أكد أنه أفضل الجميع، وأنه يأمل أن يتطور نظام الرهبنة وفكر الكنيسة على يديه. أنطونيوس الذي لا ينفك ينهزم أمام الشرير، ويخرج من رذيلة نفسية ليسقط في أخرى، هو المأمول منه تطوير فكر الكنيسة وحياة الرهبنة، فليحفظنا المسيح من الزلل وليحفظ عقولنا في مكانها. هكذا قال أنطونيوس في نفسه، بينما باخوميوس يتمتم بمثلها وهو جالس في الكرسي المخصص له بغرفة الاعتراف، هامسًا في أذن شماس صغير بالسماح لأنطونيوس بالدخول.

كان الهدوء قد نزل على الكنيسة كما لو أنها رفعت من الملكوت الأرضي إلى ملكوت السماء، وشعر أنطونيوس أن أنفه يتشمم روائح عطرية جميلة، روائح لا تخرجها مباخر الأب باخوميوس ولا عطره المقدس، شعر أن هواء باردًا يملأ صدره وهو يقطع الخطى الوئيدة في اتجاه الغرفة شبه المظلمة، هدوء شديد أعقبته رجفة كهربية مفاجئة انتابت أوصاله، فارتعد معها منتفضًا كما لو أن الشرير يخرج من جسده، "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا"، "من

غفرتم خطايـاه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكـت" هكذا تمتم بالآيات فـور أن أصابته تلك الانتفاضة المفاجئة كما لـو أنه يلاحق الشرير ليحرقه بنيران الصلاة، بعدها جثا على ركبتيه أمام الستارة السوداء راسمًا علامة الصليب على وجهه وصدره قائلاً:

– باسـم الآب والابـن والروح القدس إله واحـد أمين، أعترف للإله القدير ولمريم العـذراء البتول، ولميخائيل رئيس الملائكة وليوحنا المعمدان المغبوط، وللقديس مرقس الرسول، ولجميع الآباء القديسين، ولك يا أبي الروحي، أعترف بأنني أخطأت.

اليـوم حلمت بسيـدة رأيتها في مركـز التحقيق بالديـر، فضعفت وتسحب نظري رغمًا عني على جسدها، استعذت حينها من الشرير، وطردت وجهها من عيني، لكنني بمجرد أن دخلت في نوم القيلولة رأيتها عارية كيوم ولدتها أمها، فلم أستطع المقاومة، وانساب ماء اللذة على ملابسي، نعم أخطأت يا أبتِ، وأنا الملوم؛ لذا ألتمس من مريم العذراء البتول ومن ميخائيل رئيس الملائكة ومن يوحنا المعمدان ومرقس الرسول ومن جميع القديسين ومنك يا أبي الروحي أن تصلوا من أجلي، فأنا حزين من القلب، وأعتزم تحسين حالتي في المستقبل، وبكل خضـوع الآن ألتمس العفو من الله، والغفران والتحليل منك يا أبي.

بعدهـا نهضـ باخوميوس عـن كرسيه ورسـم بالصليـب على وجه أنطونيوس ثلاث مرات قائلاً:

– انهض مغفورة لك خطاياك.

لكـن أنطونيوس الذي نهض لم يتحرك من مكانه، وظل واقفًا كتمثال يتطلع إلى جدارية المسيح البـارزة أمامه، المسيح المصلوب الأبدي في هذا العـالم من أجل تخليص الآدميين من خطيئة أبيهـم آدم، من زلته الأبدية التي جعلت زلاتهم لا تنتهي منـذ خلق الله العالم حتى وقتنا الراهن، أبناء الخطيئة يتناسلـون في الخطيئة من مولدهم حتى مماتهم، دماؤهم الخاطئة

تسـري في العـروق التي لا تطهرهـا صلوات ولا تراتيـل، "تقدست في السماوات يا أبانا".

تطلع باخوميوس في وجهه سائلاً:

- هل تريد الاعتراف بأمر آخر؟

انتبه أنطونيوس من شروده قائلاً:

- نعم . . . الكلب السماوي لم يعد يأتيني.

-٥-

لا أعرف مـا الذي يجعلني أعكف على الكتابـة في مثل هذا الوقت من الليـل، فكل الكائنات نائمة، الجميع غارق في نوم عميق، نوم لا يتناسب مـع كونهـم رهبانًـا أو مقيمين في رحـاب المسيح، طالبين بركـة أمجاده السماويـة، وكأنهم بشر عاديون لا يطاردهم كلـب السماء شاعرين أنهم أبعـد ما يكونون عن الخطيئة، وأن عليهـم أن يبتهلوا إلى المسيح كي يغفر لهم ويقبلهم في ملكوته، لا أعتقد أن ثمة فرقًا بينهم وبين هؤلاء اللاهين في ملذاتهـم، المطمئنين بجهلهم لرحمة السمـاء، وكأني وحدي الذي يطارده كلب السماء العتـي، فكلما أغمضت عيني شعـرت بأقدامه الثقيلة تضرب الأرض في اتجاهي من بعيد، بينما صوته اللاهث ينبئ عن وجه غاضب، أشعر باندفاعة صدره للأمام وارتكاز عجزه على قدميه الخلفيتين في تأهب واضـح للقفز، ينتابنـي الفزع من أن أصبح في متنـاول أسنانه ومخالبه، فأنطلق في الفرار من أمامه، دون أن أدري إلى أين تأخذني قدمي، غير مبالٍ بحفر أو سدود أو جدران بيوت أو صخور جبال، مصطدمًا بكل ما في طريقي، لا يسيطر عليَّ غير حتمية الجري والهرب قبل أن يلحق بي، صارخًـا في كل مـن حولي أو يرد في ذهني بالنجـدة، صارخًا في الجميع بالنهوضـ من سُباتهم من أجلي، لكن الجميع يغط في نوم عظيم وبضمير مستقر لا أعرف من أين تحصَّلوا عليه، وكأن الفناء قد سيطر على الوجود كلـه وتركني وحدي أصـرخ فيه بالنهوض، فأظل ألهـث وألهث إلى أن أنتفض من نومي متمتمًا باسم المسيح الذي وسعت رحمته كل شيء، أردد اسمـه وما يرد على قلبي مـن آيات لطرد المردة والشياطـين، أظل أتمتم وكأننـي أطردهم بعصا الله من أمامـي، حين أشعر أنني صرت في مأمن من الخوف والفزع الذي تلبَّسني من رؤية وسماع صوت الكلب السماوي تسري في نفسي الراحة وأشعر بالخدر يغلب على أعضائي، فتهدأ أنفاسي

ويبدأ النوم من جديد في مداعبة أجفاني، دون أن أدري إن كنت مستيقظًا لا يرغب في النوم، أم أنني نائم لا يرغب في الاستيقاظ، وأن حياتي كلها ليست أكثر من حلم طويـل أدور فيه، حلم أتصور في بعض لحظاته أنني مستيقـظ وفي بعضها الآخر أنني نائم، وما بين النـوم والصحو أشعر أن كلـب السماء يطاردني من مكان لآخر، ومن عالم لآخر، وأنني الهارب الوحيد من حظيرة الإيمان.

– أنا يسوع المسيح.

هكـذا قالها بوداعة وهو يرسل عينيه نحـو السماء، رأيته كما هو دون أنوار أو هالات، دون ملائكة تحفُّه أو خنازير يطاردها، بدا لي كشخص عـادي للغاية، بشري تمامًا، بشري لدرجـة أشعرتني أنه غير قادر على الإتيـان بكرامة واحدة وليس معجزة كبيرة، (أنـا يسوع)، هكذا كررها من جديد، وحين نظرت في وجهه مستطلعًا أو مستنكرًا، رفع سبابته نحو السمـاء سائـلاً (ألا تؤمن بي)، لم أعرف بم أجيبه، فلـم أتوقع في يوم ما أن ألتقـي بالرب الإله، أو أن أجد نفسي في مواجهته وعليَّ أن أجيب عن أسئلته! كان من المفترضـ أن أركع على ركبتي واضعًا يدي أمام وجهي قائـلا (نعم أؤمن بك يا رب، أؤمن بمعجزاتك وقدرتك على إحياء الموتى وشفاء المرضى وغفران الذنوب)، لكنني لم أفعل، فقط وقفت متسمِّرًا في مكاني كصبي أبله، حينها ابتسم في وجهي (لن تدخل حظيرتي ما لم تؤمن بـي، لن تدخـل ملكوتي، فجنتـي للمؤمنين)، ثم ضرب الهـواء بإصبعه فاختفى في السماء.

هكـذا رأيت يسـوع، وجدته أمامـي دون أن أدري أين ولا متى، لا أستطيع أن أتذكر علامة واحدة تدلني على المكان أو تخبرني في أي ساعة كنت من الليل أو النهار، لكنني موقن أنني التقيت به، وأن المفاجأة أمسكت لسـاني، وأنني كنـت أتمنى أن أركع أمامه لكننـي لم أفعل، بعدها سمعت أقـدام الكلب الكبـير ينطلق من سلسلتـه، شعرت بلهاثـه المتوالي وصوته النابح وقـوة اندفاعه، شعرت أن الأرض ترتجُّ من تحتي وأنني لا بدَّ أن أهرب من أمامه، فتركت لأقدامي العنان.

سنــوات تلو سنوات وأنا أهــرب وأهرب، ولم يُجـدِ دخولي الدير في شيء، حتــى الآن لم أستطع الوصول من جديـد إلى الله كي أركع أمامه طالبًا الغفران وحبس كلبه الكبير عني، وبمجرد أن أغفو أو أغمض عيني أجـدني في مواجهة ذلك الغاضب الأبـدي، فأنطلق في الهرب وينطلق في أثــري، لا يمنعه شيء ولا يعيق حركته شــيء، وكأنه خُلق من صخر أو حديـد، خلق من نار مشتعلة لأجل مهمة واحــدة، ولولا أنني لم يُكتب لي المـوت بعد لكنت قد مُزِّقت منـذ أمد بعيد بين نابيــه البارزين كخنجرين، ولا أعلــم أذلك رحمة بي أم جزء من عذابي، غير أنني أوقن أنني الشقي الوحيـد الذي عرفته السماء، فلم أسمع بأحد تحدث عن مطاردة كلبها له، ولم أر أحــدًا مستيقظًا في الليل بسببه، فالكل يغطُّ في نوم عظيم متواصل، كأنهم ينعمون من الآن برضا الله في ملكوته العظيم.

أنــا الآن أسعى للهــروب من النــوم، الهروب من المطــاردة التي لا تنتهي، والرعب الذي لا يتوقف، أسعى للتخلص من مخاوفي وعذاباتي، ملقيًــا بكل ما يعنُّ لي من صــور وأفكار على وجه الورق، ليخرج الكلام كيفما اتفــق، وكأنني لست أكثر من محض آلة كاتبــة، آلة تسجل ما يُملى عليها من كلمات، إلى أن يحين وعد السماء، إما بموتي أو بانتهاء عذابي، وشعوري براحة وطمأنينة الغفران.

-٦-

كان الديـر في هذه الآونة يمر بحالة من الاضطـراب، فقد تنيح الأب إيمانويـل، وتصارع على الرئاسة من بعـده ثلاثة من كبار الأساقفة، لو كان أي منهـم منفردًا لحقَّت لـه الرئاسة دون منازع، لكن في ظل وجود الآخريـن فالأمر بالغ الصعوبة، خاصة وأن إيمانويل لم يرشح أيًّا منهم، وترك الأمـر للتوافق بين الآباء، وحكمة المطرانية في الاختيار، غير أن المطرانيـة نفسها كانـت منشغلة بمرض البابا في الشمـال، وكانت العيون تتطلـع نحو من سيصل إلى كرسـي الكرازة، فلم تكن لدى أحد الرغبة في أن يشغـل نفسه بالتفكير في ضبـط أمور دير على يسـار العالم، حتى إن الكثيرين كانوا ينسون انتماءه إليهم، رغم أنه من أقدم الأديرة التي عرفها الشعـب، ومن أكـثر البقاع التي شهدت الصراع علـى الرب في القرون الأولى، وضمـت مقابـره جثامين قديسـين وآباء كاد بعضهـم أن يكون كروزًا للديار، لكن الزمان تغير ولم يبق شيء على حاله.

حـين نهضـ الكاتب عـن سريره كان الغـروب قد كسـا الدير بقشرة ذهبية جميلة، فألقى من شبـاك غرفته نظرة على قلالي الرهبان البعيدة، وجدها تذوب في حمرة شمس الأصيـل، وأيقن أن جرس الكنيسة سوف ينطلق بعد قليل معلنًا عن قداس الخامسة، كل شيء في الوجود يتم بعد هذا القداس، الرحمة والعذاب، المغفرة والشقاء، الحب والكراهية، الوصول إلى اللـه والغيـاب عنه، كل شـيء يحدث في الأرضـ والسماء على قدم وسـاق في لحظة واحـدة، الملائكة تتنزل بـبركات أم النور على المؤمنين وغير المؤمنـين، والشياطين تأوي إلى أجساد الخنازيـر والكافرين، فما الذي تخبئه الليلات السوداء؟

تسـاءل الكاتب في نفسه موقنًـا بما يراود قلبه من خـوف، شاعرًا أن ثمـة خطبًا جليلاً إن آجلاً أو عاجـلاً سيقع على الأرض، تمتم باسم المسيح طالبًـا الرحمة من أم النوم، ومغلقًـا نافذة غرفته متَّجهًا إلى مكانه الأثير، مجموعـة من قطع خشب الكافور والجازورين التي حولتها يد المعلم نقولا إلى مكتـب خشبـي صغير، ألح عليه كثيرًا حتى أقنعـه بجعلها مكتبًا له، لم يكـن نقولا يريـد أن يزج بنفسه في مساءلات لا يعـرف إجابات لها، قال إنـه لا يستطيع أن يضع منشاره في قطعة خشـب لم يأته أمر بها من الأب إستيفـان المسئـول عن ورش النجـارة والحدادة وأعمـال البناء والطلاء في الديـر، وكان من الصعوبة على الكاتـب أن يقنع إستيفان بحاجته لهذا المكتـب في مخزن الكتب والدفاتر القديمة، في النهاية أمكنه أن ينقل لنقولا خبر غياب إستيفان مدة أسبوع كامل عن الدير، فقد سمع أن المطرانية في أسيوط أرسلت للاستعانة به في تجهيز احتفالاتها بميلاد السيد المسيح، كان الجـو قارس البرودة والكاتب يلح على المعلم العجوز أن يبدأ في عمله قبل أن ينتهي الوقت ويفاجئهما إستيفان بحضوره، في النهاية وافق نقولا على رجاءاته شريطة ألا يعلم أحد بسر المكتب.

حين وضـع ملاك مكتبه في الحنية الأخيرة للمخـزن أحضر عددًا من قوالب الطوب وجعلها كرسيًّا له، قال إنه الآن أصبح بمثابة قس، فهؤلاء هم المسموح لهم بتعليم الشمامسة والرهبان الجدد، المسموح لهم بالجلوس إلى المكاتب وارتداء المسوح السـوداء والتجول تحت أشعة الشمس في أي وقـت، كان مـلاك يشعر أن نقولا قـد رسمه اليوم قسًّـا، وأن شمامسته هـم الدفاتر والكتب القديمة، وعليه مـن الآن أن يتفقد أحوال رعيته ويعد تقريرًا يوميًّا عن حياتهم، عليه أن يعيد تنظيمهم وترتيبهم واستخراج أهم الحـوادث من صدورهم، قال إنه يمكنه أن يؤلف كتابًا خاصًّا عن آباء هذا الدير، وأن ينسخ منه مخطوطـات يقدمها لرؤساء الدير عسى أن يحظى برضـا أي منهم، كانت تطلعات ملاك واضحـة وكبيرة، ولم يكن ينظر خلفه علـى أيقونة المسيح التي وضعها على الجـدار منذ عامين، لكنه حين رفـع نظره إليهـا ورأى الدماء تسيل مـن معصم السيـد أدرك أن الحياة ليست سوى فخٍّ كبير.

في الطريــق إلى الكنيســة تعــثر بكومة الخشب التي تركهــا نقولا دون تنسيق أو اعتناء، لا يعرف ما الذي جعل الآباء يتركون مخزنه الكبير وما به من كنــوز في طرف ناء من الدير بجوار ورشتــي الخشب والحدادة، أمر مؤســف أن يضطر كاتب يتعامل مع الدفاتر والأقلام إلى التعامل مع الفئوس والمناشير ومطارق الحديد، نفض التراب عن ملابسه وذهب إلى بــاب الكنيسة المفتوح للجميع، كان السكــون واضحًا كسحابات تتنزل من السقــف المرسوم بصور الملائكة والقديسين، وضــع نفسه في أقرب صف ورفع يــده نحو وجهه وصــدره متمتمًــا بالصلاة، تلك التــي سرعان ما انتهــت كلماتها وجف حلقه فلم يعرف بمــا يمكنه أن يطيلها، أغمض عينيه فــترة وثبتهما علــى أيقونة للعذراء فترة أخــرى، وفي النهاية مسح وجهه وهمَّ بالخــروج، لكن الأرض انشقت عن الأب يوســاب واقفًا أمامه، لا يعــرف لمَ ارتجف حــين رآه، حاول جاهدًا أن يتجنــب عينيه الحجريتين لكنه لم يستطــع فذهب نحوه مستسلمًا، وبدون كثــير من اللف والدوران سأله يوساب:

– لمَ ذهب أنطونيوس إليكم اليوم؟

هــز ملاك كتفيه بمــا يعني أنه لا يــدري، لكن عيني يوســاب لاحقتاه بحدة، فطأطأ رأسه قائلاً:

– كان مطلوبًا للتحقيق.

حكــى ملاك ما جــرى في الصباح، مؤكــدًا أنه حتــى الآن لا يعرف السبب بالتحديد، وإن كانت دميانة فيما يبدو من ملامحها غاضبة عليه.

تمتــم يوساب بكلمات لم يسمعها ملاك، ثم أزاحه بذراعه قليلاً كي يمر من أمامه هامسًا في أذنه:

– أبلغني بالجديد.

تمتــم ملاك بمــا يفيد أنه سيفعــل، وخرج مسرعًا نحــو مكتبته في ذلك المــكان النائي علــى الهضبة، حيــث ورشتي النجارة والحــدادة، وحيث تطــل صخرة من جدار القلزم لتنام الدفاتــر والكتب القديمة أسفل جناحها الواسع.

-٧-

تأثــر كلٌّ من في الدير برحيــل الأب إيمانويل، وأغلقــوا أبوابهم على أنفسهم ثلاثة أيام، لا يخرجون من صلواتهم لأجل ذلك العجوز، فقد كان بمثابة قديس كَرَّس حياته للدعــوة والسلام، كان منهاجه أن يغفر الجميع لبعضهم مثلما غفر المسيح ليهوذا.

- مــن لم ير القذى في عينه فإنه لن يعــرف الحكمة من الخشبة التي في عين أخيه.

هكــذا كان يــردد في عظاته ملقيًــا اللوم على كل من يشكــو أو يتذمر، مطالبًــا الجميــع بالصبر على الآلام مثلمــا فعل السيــد، وأن يكون اليقين واضحًــا بأنــه كلمــا زادت الآلام زاد الخلاصــ اقترابًا. كثــيرون كانوا يبكــون أمامه طالبين أن يصلي من أجــل خطاياهم، وكان يسهر الليل في غرفته علــى سريره الخشبي وكرسيه الجريد يبكــي من أجل الخطايا التي على الأكتاف، وظل في ليلة يبكي حتى ظهرت له العذراء بجلاء في طاقة غرفته، كانــت بهية وجميلة وتشبــه الأيقونات القديمة، كانــت ابتسامتها أوضــح ما رأى، ولم يستطع أن يفعل أكــثر من النظر مبتسمًا نحوها بينما الدموع تنهمر من عينيه، فأومأت برأسها كأنها تخبره برضاها عنه طالبة منه العودة لاستكمال صلاته.

لم يعلــم بهــذا الأمر سوى قلة مــن الآباء في الدير، أغلبهــم تنيَّح دون أن يفتــح فمه بشــيء، وإن ظل طيلة الأيــام والسنوات التــي قضاها فيما بعــد يحمل في قلبــه قداسة كبرى تجــاه إيمانويل الطيب، ذلــك الذي جاء مــن العاصمــة البعيدة ليقيم في دير نــاءٍ قديم، لكنه سرعان مــا تقدَّم على الجميــع، وصار موضــع الثقة، والمؤتمن على كل الأســرار، خاصة أن كثــيرًا ممن تحدثوا عنه في القــلالي المقدسة أكدوا صــدق رؤياه، وكأنهم

جميعًـا كانوا في حاجة إلى معجـزة يمكنها أن تعيد لديـر القديس جبرائيل الملاح بهاءه وحضـوره القديم، فخفَّت الأقدام في الليل لتنزل من الهضبة إلى السفح العميق، مترجلة تارة وراكبة الحمير والجياد وعربات الكارو والقطـارات والمعديـات الحديدية التي تربط بين ضفـاف وفروع النيل، لتصل في النهاية إلى رأس الكرازة في الكنيسة الكبيرة، مقسمة على صحة الرؤيا وصدق الإيمان وحسن السيرة، وليهز صاحب الكرسي الرسولي رأسه في النهاية قائلاً:

– لا ضير من لقائه.

كان ذلك بمثابة أكبر انتصار تحقق في القرون الأخيرة للدير العجوز، فقد شعر الجميع أنـه آن الأوان كي يكونوا محط أنظار العالم، وأنهم عما قريب سينتقلون فـرادى وجماعات إلى حيث الكرسي الرسولي في المدينة الشهـيرة، ومن ثم تزيَّنت الأقبيـة بأيقونات جديدة، وأمـر رئيس الدير الأب صاموئيـل الشكاك بتغيير الزيت المقدس في الأواني، وشراء عدد مـن المباخر والقناديل والمشكاوات، وتغيـير رخام المذبح وطلاء جدرانه بملاط جديـد، وعلى مـدار أربعين يومًا أقـام الرهبان تقدِمـة للمسيح، واجتمعـوا في صلواتهم على قداسة الأب إيمانويل ورسامته قديسًا من قبل الكرسي الرسـولي، لكن الساعات أخذت تجر بعضهـا، والفتور تسرب إلى الهمم والقلوب يومًـا بعد يوم، وطال الانتظار دون أن يأتي أحد من العاصمة لينظر في أحوال الدير أو حتى يسأل عن إيمانويل الطيب، وكأن أحدًا لم يصدق أن العذراء يمكنها أن تظهر لرجل في كوة غرفته بدير على هضبـة نائية، فيحادثها وتحادثه طيلة الليل، ثم تطلب منه أن يكمل صلاته من أجلها، أجلها فقط.

حين طال الوقت وبهتت وجاهة أن يكون من بين أبناء هذا الدير قديسًا يتحـدث باسمه في المحافل ويعيد لـه وهجه القديم، قـرر الأب صاموئيل الشـكاك أن يرسـل واحدًا من رجالـه ليسمع ويعلم ما يجـري في أروقة الكـرازة، تلك المغلقة جدرانها بالأسرار ليل نهار، فاستدعى الأب هيدرا وكان قسًّـا بليغًـا وقارئًـا مطلعًـا على القوانـين الكنسية في ترسيـم الآباء

والقسيســين، فنزل من فوره من قمة الجبل متبعًا النجوم على مدق بالكاد يتسـع لقدمين يمران مــن عليــه في آن واحد، وقف هيـدرا بشموخ على أبــواب الكردينالات سائلاً عن سر تأخر رسامــة صديقه إيمانويل الطيب قديسًا، لكن العيــون كلها كانت تطرق إلى الأرض دون إجابة واضحة، لم تكــن في الأفواه كلمات شافية فيما يخص الطيب، البعض نظر بسخرية لا معنــى لهــا، والبعض قال إن الشيطــان يمكنه أن يتمثل بــأم الإله لكنه لا يستطيــع عمــل ذلك مع الإله ذاته، وشعر هيـدرا أن ثمة خلافات تطل برأسها من دير الملاح لتصل إلى جدران الكنيسة الأم، خلافات تشبه فتنة أريوســ، لكنها هذه المرة ستكون عن العــذراء وطبيعتها، فآثر هيدرا أن ينسحــب من بين الردهــات المعبقة بروائح البخور المقدســ مطأطأ الرأس كاســف البال منكسر القلب، لكنه عاقد العزم على أن يبلغ الأب صاموئيل بما رأى وسمع.

كان علــى الدير ورهبانه أن ينتظروا مرور عشر سنوات كانت متبقية في عمر صاموئيل الشكاك كي يجتمع الآباء ليلاً ليعلنوا اختيارهم بالإجماع الأب إيمانويــل رئيسًا لهم، وأن يرسلوا باسمــه وحده فقط إلى الكرازة، وليســ بثلاثة أسماء كما هــو المتبع، وكان الجميع يتوقعــون أن يخوضوا معركة ضد الكرازة التي رفضت أن تعيد لديرهم مكانته وبهاءه من خلال رسامة صديقهم الطيب قديسًا تابعًا للعذراء، لكن احتشادهم للمعركة انتهى فجــأة حين جاءهم رسول الكرازة معلنًــا موافقة الآباء الكرادلة على رسم إيمانويل الطيب رئيسًا لدير الملاح.

-٨-

يقـف دير الملاح شامخًـا كمجموعة من القباب المتكاتفـة على هيئة قلعة قديمة، هكـذا يراه الصاعدون لذلك المنحدر الصخـري الرابط بينه وبين الـوادي الفسيح، فقد أرادت مشيئة الرب لخطى جبرائيل الملاح أن يصل إلى هضبة عالية يربطها مخر سيول قديم بالوادي الرملي المنبسط أمامها، هنـا رأى الملاح أنه قـد وصل آخر الدنيـا، وأن بإمكانـه أن يضع رحله البسيط عن كتفه ويأوي إلى بطن الجبل العالي، ما زالت المغارة الصغيرة التي اتخذها الملاح قلاية له مزارًا لكثير من رواد الدير، خاصة أن الآباء درجوا على تنظيفها وتزيينها وترتيب أوضاعها لتكون خلوة قدسية لكبار الزائرين، فلا يدخلها إلا رئيس الدير وبعض المسموح لهم بإذنه.

كان الإمبراطور ديسيوس حين تولى عرش الإمبراطورية الرومانية قـد رأى أن المسيحية اجتاحـت البلاد، حتى أن كثيرًا من جنوده دخلوا في حظيرة إيمانها، فقرر إعادة إحياء العادات الرومانية القديمة، وإلزام كل مـن في الإمبراطورية بذلك، فأصدر مرسومًـا بتقديم الأضاحي للآلهة، وأمر موظفـي الإمبراطورية بمنح كل من يقدم أضحية شهادة تفيد ذلك، فتنافسـ الجميع في الذهـاب إلى المعابد وتسجيل أسمائهـم والسجود للآلهة وتقـديم الأضحيات لهـا، البعض فعلوا ذلـك بحماس ليقـروا أنهم ليسوا مسيحيـين ولم يكونـوا يومًـا من بينهـم، والبعض كان يذهب كمـا لو أنه ذاهب إلى حتفه كي يحصل على شهادة من الموظفين، لكن ذلك لا يعني أن الجميـع استسلم للأمر، فهناك من جعـل خدمه يقومون بالذبح نيابة عنه، وهنـاك من قام برشوة الموظفين والحصول علـى شهادتهم، لكن ثمة من قـرر أن يفر بدينه إلى أبعد مكان في العـالم، كان من بين هؤلاء جبرائيل المـلاح الذي رفض أن يحرق أناجيله أو يطلق البخور في المعابد، وبلغت

بــه الشجاعــة أن فتح بيتــه لأصدقائه كي يصلوا فيه، فلمــا جن الليل دخل عليهــم الجنود وحملوهم إلى السجن، قضى جبرائيل ليلته يبتهل إلى الرب أن يخرجه من محنته، وفي الصباح أعلن للجنود أنه سيطلق البخور ويقدم الذبائح، فتوقف التعذيب عنه، وتركوه يرتدي ملابسه ويذهب بصحبتهم إلى المعبــد، لكنه في الطريق شعر أن إيمانه ليس حقيقيًّا، فأخذ الندم يجتاح قلبه، وكلما تقدم خطوة إلى المعبد صرخ في داخله:

– ربِّ إني لا أعبد جوبتر ولا أعظِّم ديسيوس، ربِّ إني أريد أن أكون عبدًا مخلصًا لكنيستك في أي مكان.

ـ حينها سمع صيحة تأتيه من بعيد:

– اهرب يا جبرائيل.

سمعهــا قوية ومدويــة دون أن يعــرف مصدرها أو يــرى صاحبها، ولم ينتظــر كي يــراه، فقد وجد ساقيــه تقفزان كأنما أصابهمــا الشيطان، ظــل يخرج من شارع إلى آخــر ويعبر من ممر إلى غــيره، ويدخل من الســوق إلى الشاطئ ليتــوه بين العابريــن في الميناء الكبــير، أمضى ليلته الأولى لا يعــرف إلى أيــن يذهب، موقنًا أنه مقتــول لا محالة، وأنه لا بدَّ لــه من الخروج بعيدًا عن المدينة وجندها، سحبته أقدامه إلى الطريق الذي اعتــاده لجلب الملح مــع أبيه من البحيرات، فسلكه عســى أن ينتهي به إلى مكان يختفــي فيه عن العيون، لكن رحلته طالــت لسنوات دون أن يعود إلى المدينة التي فارقها في ذلك الصباح.

كانــت الكلمات تتوالى من قلم الكاتب وهو يدوِّن ملاحظاته عن الدير، متذكــرًا المخطوط الذي وجده ضمــن الممتلكات التي آلــت إليه بعد رحيل إدورد حنا، ذلــك الذي تحمل مسئولية تربيته وحــده بعد رحيل الشماس ميخائيل في ليلة شتوية باردة، ورغم أن الطفل عُرف باسم ملاك ميخائيل فإن الجميع كان يعلم أن إدورد هو والده ومعلمه وكل ما يخصه في الدنيا، نشأ ملاك لا يعرف أبًا سوى ميخائيل، ولم يسأل نفسه يومًا عن والده ولا

عــن أمه، وحين ســأل إدورد ذات يوم أجابه أن الــرب له معجزات في كل شــيء، وأن حياتــه في حد ذاتها هي إحدى هــذه المعجزات، فقد مات أبواه على باب الدير ولم يدخلاه، لكنه دخله بفضل إرادة الرب، فقد هبت الريح وفتحت باب الدير، فنهض ميخائيل من غرفته المجاورة كي يغلقه، حينها سمع صراخه ووجد أبويه قـد أسلما الروح بجانبه، فحمله وعاد به إلى الداخل ليخبر الآباء بما حدث، ولم يجد الأب إستيفانوس رئيس الدير وقتئــذ سوى أن يحكم بــأن اللقية لصاحبها، حتــى وإن كان خادمًا لبوابة دير قديم.

تعلــم ملاك مــن إدورد المهنة التي وجده عليها، تعلــم منه ما لم يتعلمه الكثــيرون من أقرانه، فقد علمه القــراءة والكتابة ورسم الخط قائلاً إنه لا يوجـد كاتب لا يعـرف القراءة ولا الكتابة ولا يكــون ذا خط حسن. كان إدورد يعشق مهنته ويرى أنها أفضل سر تقوم عليه الكنيسة، لكنه لم يكن يصــرِّح بهذا لأكثر من أذني مــلاك، وكان الأخير يعتــبر ذلك نوعًا من المداعبة والترفيه له في الليــالي المظلمة الطويلة، وأحيانًا كان يسمع الكلام كما لو أنه يخرج من أعماق واحد من ملائكة الرب المعنيين بجمع الأعمال الخــيِّرة. عاش معه الحقيقة التي لم يعشها غــيره، وهي أن مخزن الكتب والدفاتر القديمة هو قدس الأقداس، وأنه الكاهن الأكبر الذي لا يحق إلا له وحده دخول هذا المكان ومعرفة أسراره، كان يتعامل مع المخطوطات كما لو أنه يتناول من جسد المسيح، بحرص شديد كان يحمل الدفتر ويضعه فــوق أخيه، وبحرص أشد يخرج الكتــبَ من الصناديق الخشبية القديمة، تعلــم تصنيف المخطوطات بحسب السنين والرؤســاء المتعاقبين على الدير والبطاركة المتولــين كرسي الكرازة، وأتعبه البحث كثيرًا من أجل إكمال الخانــة الأخيرة، فقــد تغاضى الكتبــة في كثير من العصــور عن صرامة إثباتهــا. وأيقن ملاك أنه كان مــن الممكن لهم بقليل من الجهد أو كثيره أن يضبطوا عملهم ويكملوا التصنيف الناقص، لذا قرر أن يتصدَّى لإكمال ما لم يكتمل، وفي أثنــاء جرده لما اشتمل عليه المخزن من أعمال ودفاتر كان عليه أن يطالع ما تقع عليه عيناه، فوجد نفسه أمام فصول كاملة من تاريخ الدير الممتزج بتاريخ الرب.

-٩-

في الصبــاح نشطــت الأقــدام الخفيفة والثقيلــة في اتجاه الدير صعودًا ونــزولاً، أغلبهــم كان يقول لنفســه "لم لا أذهب وأحضــر القداس وأمر علــى عيادة القديســ أنطونيوســ". لم تكن عيادة بالمعنــى المعروف لدى الجميــع، لكنها مــكان فسيــح يتجمع فيــه المصابــون منتظريــن بركة أو مسحــة زيت القديسين من يد أنطونيوســ، فقد شاع لدى الجميع أن الأب إيمانويــل أعطى سره لتلميذه، فانتقلت البركة مــن يده وقلبه إلى يد وقلب أنطونيوســ، بدأ ذلك قبلما يتنيَّح إيمانويــل بأسابيع قليلة، فقد وقف الناس منتظريــن أن يخرج عليهم رئيس الدير ليلقــي موعظته الأسبوعية، لكن إيمانويــل الذي خــرج متوكئًا على كتف أنطونيوســ لم يستطع الوقوف، ولم يستطــع الكلام، فأشار نحوهم بصليبه ثم همس في أذن أنطونيوس أن يعظهــم، كان ذلك مفاجأة له، فلم يكن يتوقــع أن يكون صاحب الموعظة الكــبرى، ولا أن يكــون نائبًا عن أستاذه في يومــه المشهود، نظر بوجوم لأستــاذه، لكن الآخر هز رأسه مبتسمًا وهو يضــرب بأنامله الواهنة على صدره، طالبًا أن يجلسه على مقعد قبل أن يبدأ في كلامه.

شعــر أنطونيوس لوهلــة أن الدنيا تدور بــه، وأن كل العيون تكاد أن تخترقــه، ودماء رفاقه من القساوســة والشمامسة تغلي في عروقها، لكن أذنه التقطــت تمتمات رددتها شفتا إيمانويــل، لا يعرف كيف صار لأذنه كل هــذه الرهافــة كي تتسمَّــع الهمهمــات التي لم تخرج من فــم الرجل، ظــل ينصت حتى غامت الدنيا من حوله وانمحــت صور البشر، صارت هضبــة الملاح بمثابة سفينة تقف على مــوج هادر من تحتها، مرر يديه في الهــواء مثلثًا حتى هدأ الموج، مسح بأنامله علــى الوجوه فاستكانت السفينة

في مكانهـا، وأشرقت الشمس عالية في جوف السماء، حينها مرت سحابة مكتوب عليها رسالة بطرس الرسول الأولى، فرفع صليبه نحوها قائلاً:

– اصحـوا واسهروا، لأن إبليس خصمكـم كأسد زائر، يجول ملتمسًا مـن يبتلعه، فقاومـوه، راسخين في الإيمان، عالمـين أن نفس هذه الآلام تجري على إخوتكـم الذين في العالم، وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبـدي في المسيـح يسوع، بعدمـا تألمتم يسـيرًا، هو يكملكـم، ويثبتكم، ويقويكم، ويمكِّنكم، له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين. أمين.

رأى القلـوب وهي تردد قبل الأفواه "آمـين"، رأى إيمانويل يشد من أزره وعيون الحاقدين تنطفئ عنه، فابتلع ريقه وأخذ يعظهم بما يرد على قلبـه وعقله، لم يكن يعـرف ما الذي يقوله، ولا ما الـذي عليه أن يرتب لأن يقولـه، فقط كانت الكلمات تخرج من فمه هادئة وواثقة، كأنها خيط تريكو يتسلل من جسد قميص صوف، أخذ يعظ حتى شعر أن الذين حوله ينفطرون من البكاء، فرفع يديه لاهثًا بالدعاء من أجلهم.

لم يكن يدرك في تلك اللحظة أن القلوب قد آمنت به مثلما آمنت بأستاذه من قبـل، فتركهم ونزل عن الحجر الذي اعتـلاه ليراهم، لكنهم لاحقوه مطالبينـه ببركة زيـت القديسين، كان يهتـف فيهم أنـه لا يستطيع، لكن إيمانويـل هز رأسـه مبتسمًا وهو يمـده بقنينة الميرون، فرفعهـا بطمأنينة قديس استمد قواه لسنوات من محبة العذراء، لكنه حين استدار إلى الشعب ليباركـه وجد أمامه طفلاً مصابًا بالحـول والخرس، فاستحضر المسيح في قلبـه ونظر إلى السحابة التي تحركت عن رأسه إلى زاوية الجبل، علم أن الأمر أوشك على الانتهاء، لكنه طالبها بالانتظار قائلاً:

– لم كل هـذه العجلـة، وهذا المسكين يقف عاجـزًا، لا يبصر جيدًا ولا يتحدث، وأنت قلت: تعالوا إليَّ أيها المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. فتحـنن عليه يا الله برحمتك، وأزح عنه حملـه، لأنك الذي قلت، ونحن الذين أنصتنا إليك، فهل تخذل المساكين الذين صدقوك في مثل هذا اليوم؟

تجاوزت السحابـة قمة الجبل وأنطونيوس يرشـ رءوس الحاضرين بالزيـت المقدس، ماسحًا على رأس ذلك المسكين طالبًا له الشفاء، موضحًا

أن الدعــاء ببركة قديس العذراء إيمانويــل الطيب، وأنه لا يحق له العظة تاركًا الرجل غير مستريح في جلوسه، فتراجع الناس عنه وهو يكاد يحمل إيمانويل مــن أسفل ذراعه، ليمشيا حثيثًا أمــام العيون التي تنظر نحوهما ببــطء مماثل، كأنما تشكُّ في الموعظــة وجدواها، والدعاء ونفعه، فلو أن لأي منهمــا القدرة علــى إبراء أحد مــن مرضه لأبرأ إيمانويــل نفسه مما أصابه، لكن الله يشفي ويمرض وله كل الأمر.

مــرت ثلاثة أسابيــع على الأقل قبل أن يظهر الطفــل ووالده من جديد باحثين عن أنطونيوس كي يبلغاه أن الله استجاب لدعائه، لكنَّ أنطونيوس كان قــد ثقل عليه الحزن، فأغلق على نفســه قلايته، حابسًا إياها في صوم طويل من أجل أستاذه، ظل الرجل يسأل ويبلغ كل من يسأله بشفاء ابنه، هــذا الــذي أصبح يتحدث وينظــر كأنه لم يمرض من قبــل، ورغم أنه لم يصــل إلى أنطونيوس فإن حديثه كان قد وصــل إلى رئيس الدير الجديد، فوقــف لا يعلم ماذا يمكن أن يفعله تجاه ما سمع، لو رفضه لفتح الباب من جديــد للعديد من الأسئلة عن قداسة إيمانويل وعدم الاعتراف بها، ولو لم يقــف أمام هذه الخرافات لانتشرت ولأصبــح أنطونيوس في نظر الجميع قديسًا.

– وما لم يبلغه أستاذه فسوف يبلغه هو.

هكذا حدث جورج المنحني نفســه في غيرة واضحة من صديقه القديم، وقرر أن يتخلص منه ومن تلميذه في ضربة واحدة، أمر بتخصيص مكان بجانب ورشــ الحدادة والنجارة ليلتقي فيــه أنطونيوس بمرضاه، وحين يفشل في تقديم رعاية حقيقية لهم فإن هؤلاء المساكين سيبحثون عنه في كل مــكان ليلعنوه، وبدلاً من القول بسر الأستاذ الــذي انتقل إلى تلميذه فإنهم سيتحدثون عن الهرطقة التي مارسها هو وأستاذه.

كان ذلــك ما تفتَّــق عنه ذهن يوســاب العجوز فأقنع بــه الأب جورج المنحنى ليتخلصــا من حضور إيمانويل وقداسته، لكــن الرياح لم تأتِ بما تشتهــي السفــن، فقد نهضــ أنطونيوس لمهمتــه الجديدة، تــاركًا عملَه في نشــر كتب الآباء والقديســين وبيعها لرواد الدير مــن الأقباط والمسلمين،

كانـت المهمة بسيطة وفقيرة للغاية، فقد منحـوه مكانًا صغيرًا وضعوا عليه لافتـة أصغـر كتبوا عليها "عيـادة القسيسـ أنطونيوسـ"، وأحضروا له مكتبًا وعـدة أكياس من القطن والميكركروم وزجاجـات السُّعال وبعض المضادات الحيوية، في البدء رفض أنطونيوس تسلُّمها لأنه لا يعرف كيفية استخدامهـا من الأصل، لكن يوساب نشط في محاصرته، آخذًا في توسيع دائرة الحديث عن سر إيمانويل وقدرات أنطونيوس في العلاج، وأجلس الطفـل وأباه على بوابة الدير كي يشرحا للناس كيف أصبحت حالته بعدما دعـا له أنطونيوس، هكذا وجـد الأخير نفسه محاصرًا من قبل الجميع كي يجلسـ في عيادته، فخلع جبته وارتدى بالطو أبيض على قميصه الداخلي وجلس خلف المكتب ينصت إلى شكوى المرضى ويمنحهم علاجًا لا يعرف دواعي استخدامه، لكنه كان يتمتم باسم الأب والابن والروح القدس كلما هـمَّ بإعطاء أحدهم شيئًا، ويظل طيلة الليل باكيًا نادمًا على ما يفعله بهؤلاء المساكين الذين وثقوا به، طالبًا عفو الرب عنه وعنهم في آلامهم العظيمة، ولدهشتـه ودهشة يوسـاب والمنحني أن الأدوية كانـت تشفي الناس، ولم يشتكِ أحد منها أو يدعو عليه، بل لهج الجميع بالدعاء له، مما نقله من قس لا يعرفه غير الرهبان إلى رجل يجزم الجميع بمعرفته بالطب.

وقـف أنطونيوس يستقبـل رواد عيادته أقباطًـا ومسلمين، فقد زادت شهرتـه بعـد أسابيع من وقوفه كبقال أمام دكانـه الصغير، لم يكن برفقته غـير الشماس أبانوب الـذي التحق بالدير منذ شهـور، وكانت مهمته أن يأخـذ من الجمهور البركة التي تتنوع ما بـين المال والهدايا العينية كالقمح والـذرة، وفي بعض الأحيـان كانت تصل إلى بيضـة صغيرة، ولم يكن أنطونيوس يرفضـ شيئًا، أو يضغط على أحد بشيء، ونهر أبانوب حين رفضـ ذات يوم أن يأخذ من امرأة حزمـة فجل، كان أنطونيوس مؤمنًا أن البركة ضرورة، وأن الناس لا بدَّ أن يتعبوا في شيء كي تتعب السماء مـن أجلهم في أشيـاء، كان يؤمن أن الحياة مشاركـة بين الرب والبشر، ولا بـدَّ أن يفعل ابن الانسان ما يجعل الـرب يُقدم على مساعدته، لكن لا ينبغـي تكليف ابن الانسان بأكثر مما يطيق، لأن ما يقدمه من بركة للرب لا ينفعـه بشيء، وهو غير محتاج إليـه، ويمكنه بدونه أن يفعل المعجزات

كلها، لكنه يرغب في رؤية عزمه ورغبته وإصراره على تحقيق طلبه.

هكذا كان يقول لمن يجيئه يشتكي بشيء، كان يوقفه أمام الجميع ويسمع منه شكواه ويبلغه بضرورة أن يفعل شيئًا من أجل أن يستجيب الله لطلبه، كان يحفز الناس على الإيمان بأفعالهم وقدرتهم على تغيير مسارات حياتهم، وكثيرًا ما كانت وصاياه تأتي بثمارها، وكثيرًا ما كان يعطي الدواء بعد النصيحة، لكنه لم يكن يمسح بزيته على رأس متشكِّك أو حاقد، وكلما رأى شخصًا مزهوًّا بنفسه كان يرجئه حتى ينطفئ زهوه، ويدرك أنه لا يتميز عن غيره في شيء، ويطيل في عظته قبل أن يمنحه دواءه، وأحيانًا يطلب منه القدوم في يوم آخر، كثيرون أحبوه، وقلة حقدت عليه، لكن جمهوره من المسيحيين والمسلمين كانوا يطلبونه منذ الصباح حتى قدَّاس الخامسة، بعدها يغلق عيادته ويذهب للصلاة.

- كيف حال اليوم معك يا أنطونيوس؟

هكذا كان يسأله الأب جورج، وكان يجيبه في هدوء:

- نشكر الرب.

لم يكن يزيد في حديثه عن هذه الكلمة، وكان جورج يشعر أنه يستولد الكلمات من جوفه، فيهز رأسه موقنًا أنه لا يعيره الاهتمام الواجب، وربما لا يراه رئيسًا عليه، وكان يوساب يغذي هذا الشعور لديه، ولا ينفك ينقل إليه كل ما يحدث، فقد زرع له شماسة بين القادمين للعلاج، وآخرين يعدون عليه أنفاسه أثناء نومه، لذا لم يسعَ أنطونيوس لإيقاف أي من طوال القامة الذين رآهم خارجين من بين قلالي الرهبان، وحين دخل قلايته ووجد كل ما بها على الأرض لم ينزعج، بل شرع بهدوء شديد في ترتيبها، دون أن يبلغ أحدًا بشيء، لأن ما حدث لم يكن أكثر من رسالة وضعها يوساب في طريقه.

في ذلك اليوم كانت الشمس قد توسطت السماء، وكان الكل يتعرق باحثًا عن ظل عمود أو سحابة عابرة كي ترفع عنه وهج الشمس، حينها نادى أبانوب الرجلَ التالي، فوجد أنطونيوس نفسه في مواجهة الكاتب بوجهه الهزيل، ولحيته النابتة، وعينيه العميقتين، وحاجبيه الكثيفين،

واحتاج للحظات كي يتذكر آخر مرة رآه فيها، وكان الكاتب على استعداد للمساعدة.

– أنا الكاتب ملاك.

هرب أنطونيوس نفسه من الاعتراف بأنه تذكره، وأنه كان في انتظار هذا اللقاء منذ رآه في مكتب التحقيق، فسأله بحياد واضح:

– ممَ تشتكي؟

هز الكاتب كتفيه كمن يقول لا أدري، لكنه سرعان ما أوضح:

– بطني تتمزق.

صـدرت ظلال ابتسامة عن أنطونيوس، لكنـه سرعان ما خنقها وهو يراجع بعض الأوراق التـي أمامه، ثم رفع رأسه عنها طالبًا من أبانوب زجاجـة مطهِّر معوي، ومستديرًا ليقرأ على رأس الكاتب بعضًا من آيات الكتـاب المقدس، مذكرًا إياه بضرورة أن يفعل شيئًـا من أجل نفسه، كي يفعل الله شيئًا من أجله، فهز ملاك رأسه قائلاً:

– غدًا لدينا تحقيق.

ابتسم أنطونيوس هذه المرة بالفعل، ومسح بكمه حبات العرق المتناثرة علـى وجهه، ثم أشار إلى أبانوب أن يخـبر الناس أن العيادة غدًا ستكون بعد الظهر، فلا يتعبوا أنفسهم بالوقوف في الشمس.

- ١٠ -

جلس الملاح في مغارته مختفيًا عن أعين الرومان، لكن الجوع والعطش اشتدا عليه، فاضطر للنزول منها بحثًا عن شيء يساعده على مواصلة الحياة، كانت الصخور قاسية وزلقة، إلا أنها حملت في باطنها شريان الحياة، فمع الشتاء تأتي الغيوم محملة بالثلج والماء العذب، فتهطل بغزارة كما لو أنها تريد أن تعمِّد كل شيء بالماء والبرد، حينها تتدفق المياه في شرايين صغيرة، سرعان ما تتجمع في مجرى كبير، فتهدر في طريقها إلى الرمال المنبسطة أمام الهضبة التي أخذها الملاح ملجأ له.

كانت رغبة الملاح في الحفاظ على إيمانه قد جعلته يحمل صليبه ويأتي إلى هذا المكان الذي تصوَّر أنه آخر حدود العالم، تطلع إلى الهضبة العالية، وإلى مجرى السيل الرابط بينها وبين السفح، تطلع بنظره إلى قسوة الصخور وحمرة الشفق المنساب عليها، هز رأسه واستحضر المسيح في نفسه وضرب بأقدامه في الصخر طارحًا جسده نحو الأمام، كان كلما صعد خطوة شعر كأن الشوك ينغرز في أقدامه والسكاكين تمزقها، شعر كأن المسيح قد بعث ليصلب ويعذب من جديد، كان يقول لنفسه إنه ليس أقل من الشهداء الذين ماتوا محتملين إيمانهم العظيم في قلوبهم، دون أن يفكروا في قدر العذاب النازل على أجسادهم.

حين وصل إلى مبتغاه واستقر في مكانه على الهضبة العالية شعر أنه يجلس أمام بوابة السماء، فلا شيء يحول بينه وبينها سوى ظل القلزم العظيم، شعر أنه على مقربة من الرب، ويمكنه أن يرى بعينيه كل ما يجري أمامه في السفح الواسع، نام ليلته الأولى كما لو أنه وصل إلى العالم الآخر، لم يستيقظ إلا على لسعة البرد في منتصف الليل، كانت

أعضــاؤه تكاد أن تتجمد، ولم يكن أمامه سوى أن يبحث عن ظل صخرة يحتمي بــه، كلما وجد واحدة رأى أنها لا توقـف ارتجاف أطرافه، حين وصــل إلى نهاية الهضبة من جهة الشرق شعر براحة الدفء والطمأنينة، فاستلقى على الأرض ونام.

في الصبــاح انتبــه المــلاح إلى أنــه أمضــى ما بقــي من ليلــه في كهف علــى الهضبة، كان الضــوء في الخارج مبهرًا كما لــو أنه بعض من منح الفردوســ، لكن حين صعدت الشمس إلى كبــد السماء تحول الصخر إلى قطع من جمر، واشتد الجوع والظمأ بالرجل، ومع انكسار الشمس خرج مــن كهفه يبحث عن مصــدر الحياة في المكان، لم يكن هنــاك ما ينبئ عن وجــود ماء، حين اشتد به الظمأ أيقن أنــه موشك على الموت، فاستلقى في ظــل صخرة ونام، حين استيقظ من نومه وجــد أمامه لبؤة تعوي، رسم الصليــب على وجهه طالبًا من المسيح النجاة، بعدها انتبه إلى أن اللبؤة تنام على جنبها، مستسلمة لأربعــة أشبال يرضعون من حلماتها، وأنها ليست غاضبــة ولا خائفة، لكنها تعوي كمن يتوجــع، فأدرك أنها مصابة، وأن عليه أن يفعل شيئًا من أجلها، فاقترب منها حتى رأى بؤرة دم نازف على الرمــل، وسهمًا غائرًا يلتصق بالبطن، قرأ صلاة سريعة طالبًا من المسيح أن يكــون في عونه، رفعــت اللبؤة رأسها نحوه كمــن يطلب منه أن يقوم بعملــه، فتقدم نحوها وأخــرج السهم من مكانه، مدركًا كــم غالبت نفسها كي لا تمــد أنيابها لتنهشه، مزق ثيابه وربط الجــرح وسهر بجانبها طيلة الليل، ومع تباشــير الصباح استسلمت أعضاؤه للنــوم، ليستيقظ فيما بعد على صوتها وهــي تزأر على أربعة جنود يتشــاورون في أمرها، نهض مــن مكانه وصاح فيهم أن يرجعــوا وإلا أطلقها عليهم، ثــم استدار طالبًا منها الهدوء، فالتزمت الصمت وجلست في مكانها، وبدا على الجنود أنهم فهموا الرسالة، فلوحوا بأيديهم وتركوه عائدين.

أدرك المــلاح أن المسيح ساقه إليها مثلما ساقهــا إليه، فنهض باحثًا عن بقايــا شجر قديم وصنع لها تعريشة أمام مخر السيــل لتحميها وأشبالها من الشمســ، وتابع جولاته من أجل البحث عــن الماء، كانت أقرب بئر على مبعــدة ساعة من مغارتــه، هناك رأى بعضًا من البــدو يسقون أغنامهم، ناظريــن إلى حاله مــع اللبــؤة وأشبالها، قائلــين "نرعى الأغنــام وأنت

ترعــى الأسد". فضحــك قائلاً "أغنامكم على قــدر طاقتكم، وأسدي على قــدر طاقتي". يومها انجذبــوا إلي حديثه، وتبعــوه إلى حيث بنى تعريشة اللبؤة، لكنهم كانوا يذهبون ويجيئون، وكلما ذهبوا أو جاءوا انتشر معهم خــبر الملاح ولبؤته ومسيحه، وكــثر الباحثون عن الأمان في الصحراء، فأتــوا ليقيموا في معيته، بينما صوت اللبؤة وأشبالها يملأ المكان، لكنه وجد نفسه غير قادر على الاختلاء بذاته، فهجر الذين جاءوا يأتنسون بوجوده وصعد إلى المغــارة طالبًا من اللبؤة أن تكون بجانبه، ظل في خلوته ثلاث سنوات كاملة، بعدها ماتت اللبــؤة، وأصابه شعور باليتم، ظل أسبوعين لا يكلــم أحــدًا، وفشل مريــدوه في إخراجه من حالتــه، وراحوا يصلون لأجله حتى جاءه الرب قائلاً:

- قــم يا جبرائيل للناس، فماء لديهم ستجد، وطعامًا سترزق، وأرضًا ستزرع، فلأجلك باركنا المكان.

نهض جبرائيل من نومه موقنًا أن ما رآه حق، نزل من مغارته كشبح موشك على التلاشي، فاستقبله مريدوه بالتهاليل والأغاني، حينها بشرهم بأنهم سيقيمون في هــذا المكان لأيام طويلة، وعليهم أن يحفروا الآبار كي يزرعوا الأرض مثلما أخبره الرب في رؤياه.

رحل الإمبراطــور ديسيوس إلى الجحيم، وهــدأت موجة الاضطهاد الطويــل بعدمــا أودت بحيــاة الكثيرين، فقد ألقــي القبض علــى فابيوس أسقف روما، وسجــن ألكسندروس أسقف أورشليــم، كما سجن العلامة أوريجانوســس مع أصدقاء له في قيصرية، فاستشهد بعدها متأثرًا بجراحه، كما استشهد بابيلاس أسقف أنطاكيا، ونجا ميخائيل الملاح وديونسيوس أسقف الإسكندرية من الموت باللجوء إلى الصحارى والجبال، وفي الوقت الذي اهتــم فيه الملاح بحمايــة المؤمنين المتجمعين على هضبتــه كان ديونسيوس يــوزع رسائلــه على الجميع من مخبئــه، يحثهم على الصــبر والاحتمال وطلــب الشهــادة كالمسيح، وظــل مختفيًا حتى مــوت ديسيوســس وانتهاء اضطهاده للناس، فتساءل البعض عن أهمية رئاسته للكرازة بعدما فر إلى الجبال ولم يتحمل الآلم، فوزع رسائله وعظاته بأنه لم يجبن ولم يهرب،

بـل سعى لنيل الشهـادة في كل خطوة خطاها، ووحدهـا عناية المسيح هي التي أنقذته.

لم يفكـر الملاح في العـودة إلى المدينـة ولا تبرير موقفـه من الهروب كما فعل ديونسيوس، واكتفى برعايـة الذين جاءوا ليقيموا بجواره بعدما اشتعل الخلاف في المدينة من جديد، فقد انقسمت الآراء حول الذين أنكروا مسيحيتهم، وقدمـوا الذبائح والبخور لآلهة الرومان، فهل تقبلهم الكنيسة في شركتهـا من جديد؟ كان ديونسيوس أميـل لقبولهم، فالرحمة للجميع، وآلام الاضطهـاد أقوى من احتمـال المؤمنين، لكنهم لا يمكنهم أن يكونوا في مصاف الذين استشهـدوا، ولا الذين تحملوا ما لاقوه من عذاب لأجل المسيح، إلا أن الذين تعذبوا رأوا أنه لا ينبغي لمن أنكر وجود الله أن يكون له حق في كنيسته.

ظل ديونسيوس يراسل الأساقفة في روما وأنطاكيا وقرطاجة وطليطلة مؤكدًا على اتسـاع ملكوت الرب وقبوله المعترفين بخطاياهم، لكن الأيام لم تعطهـم فسحـة من الوقت لحسم هـذا الخلاف، فقد تـولى الإمبراطور فاليريان الحكم، ونزل بظلمه يطارد المسيحيين في كل مكان، ولم يتوقف جبروته إلا بعدما أسره الفرس، فاعـترف خليفته جالينوس بحق الكنيسة في استعـادة أملاكهـا، حينها عم السـلام وسادت الطمأنينـة مدة أربعين عامًا، تولى فيها شئون الكرازة كل من مكسيموس وثاؤنا، لكن مع تولي بطرس الأول الأمر جاء اضطهاد دقلديانوس.

كان دقلديانوس قـد تـولَّى الحكـم وفكـر في حماية الحـدود الجنوبية لإمبراطوريته من غـارات البدو والبلاعمة، فأمر نائبه على الإسكندرية أكليوس بمطـاردة هذه القبائـل وبناء سـور يحول بينهـم والدخول إلى بلاده، فنهض أكليوس بعدد من الحـروب التي أدهشته هو نفسه، وشعر أنه الإمبراطـور الحقيقي للبلاد، وضخم أصدقاؤه هذا الشعور في عينيه، حتـى أنه أعلن انفصاله عن روما، متخـذًا الإسكندرية عاصمة له، فجمع دقلديانوس جيوشـه وخرج غاضبًا إلى الإسكندرية، حاصرها نحو ثمانية أشهـر قبل أن يدخلهـا منتصرًا، فأمر بقتل قائدها أمـام الجميع، وتصور الكل أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكن دقلديانوس لم يستطع أن ينسى أن

هذه المدينة استعصت عليه ثمانية أشهر كاملة، فقرر أن يدمرها ويهلك كل شيء له خصوصية فيها.

أخذ جنود دقلديانوس يفرطون في طلب الطاعة للآلهة، لكن المسيحيين رفضوا التنــازل عن دينهم، فتحول غضب دقلديانوســ من أكليوس إلى أبنــاء المدينة، فأمر بإحــراق كل من يخالف أوامــره، ومطاردة كل من لا يقدم الهدايا للآلهــة، فوجد أبناء الرب أنفسهم مطاردين في كل مكان، وسرعان ما سقطت الرءوس عن الأكتاف، فحملوا صلبانهم على ظهورهم وفروا في الصحارى والجبال، باحثين عن آخر مكان في العالم كي يفروا إليــه بدينهــم، ودائمًا كان المــلاح في انتظارهم، فتوافــدوا عليه خائفين، طالبين الأمــن والعزلة بعيدًا عن الشرور والآثــام، ولم يكن أمام الملاح ولبؤته سوى أن ينهض لحمايتهم، ومنحهم ما قطعوا كل هذه المسافات من أجله، لم يكن أمامه سوى أن يصلي للرب على رءوس الجبال كي يترفق بشعبه، ويخرجهم من البلاء الذي وقعوا فيه على يد دقلديانوس وخليفته:

– يا أبانا الذي في السماء، ارحم واعفُ، وتجلَّ بحكمتك على الكافرين قبل المؤمنين، يــا أبانا أعطنا خبزنا كفاف يومنا، وارحمنا من دقلديانوس وأتباعــه الذيــن سلطهم على شعبــك، يا أبانا إنــا حملنــا صلباننا وخرجنا من ديارنا لأجلك وحــدك، قطعنا أوصالنا، ومزقنــا أقدامنا على أحجار دربــك، فارحمنا من أعدائــك، واجعلنا في ملكوتك، وتقبــل شهداءنا في أمجادك العلوية. آمين آمين.

ظلت الكلمات تخرج حارقة من صدره، والدموع تنساب على وجوه الرهبان أمامه، حتــى استجاب لهم الرب، ووصل قسطنطين العظيم إلى عرشــ الإمبراطورية، فنزلوا مــن على الجبال، وعــادوا إلى بيوتهم، ليشعلوا شموع أفراحهم بأيديهم، ويقدموا صلواتهم للقديسين والأبرار.

-١١-

لاحظـت دميانة عين أنطونيوس حين سرحت على صدرها، يومها لم تستطع أن تمنع اشتعـال الحريق في جسدها، لكنها تماسكت بقدر الإمكان كـي لا تفسد التحقيق، نظرت نحو كاتـب التحقيقات ملاك ميخائيل بقسوة لتمنـع نفسها من التفكـير في تلك النظرة، هو نفسه تعجَّـب من الحدة التي تعاملت بها معـه، وانصاع فاتحًا دفتره ليكتب ما تمليه عليه، لكنه لم ينس أن أنطونيوس هو الشخصـ الوحيد الذي أصاب المحققة بالارتباك، كان صوته هادئًا وهو يتحدث عـن نفسه كما لو أنه يترنم بالمزامير، لم يستطع مـلاك أن يعزل نفسه عـن كونه جالسًا أمـام القسـ أنطونيوس صاحب الحظـوة من قبل الأب إيمانويل، فرفـع رأسه وهو يكتب وأخذ يتطلع إلى ملامحه وهـو يتحدث، حين التقـت عيناهمـا أدرك أن أنطونيوس يتمتع بطاقـة روحيـة كبيرة يمكنهـا أن تتحكـم في كل ما حولـه، كان بوده أن يصرخ فيه أن يتركه وشأنه، لكنه لم يستطع، ودميانة لم تترك له الفرصة لأن ينطـق بشيء، فقد تصاعد الغضب بداخلها، ولاحقته بطرقات أناملها علـى المكتب، حين نظر في عينيهـا أدرك كم تعاني، شيء ما بداخلها كان يعتمـل بقوة وكأنه بخار ماء يتصاعد، لم يكـن أمامه سوى أن يعتذر عن خطئه ويعود إلى دوره الطبيعـي ككاتب للتحقيق فقط، فراح يكتب خلف المحققة الغاضبة والمتوترة، ولم يمض قليل من الوقت حتى شعر بأن خدرًا يسري في أنامله، شعر بأنه غير قادر على الإمساك بالقلم، لا يعرف من أيـن أتت كل هذه البرودة ليديه، فأخذ يدلـك أصابعه وينفخ فيها عسى أن تتـوزان درجة حرارتها من جديد، منحته المحققة خمس دقائق ليدفئ يديه علـى نار الموقد في البوفيه، لكن البرودة التي تدفقت من داخله كانت أكبر من قدرة الموقد على تشتيتها، فعاد للمحققة معلنًا عدم قدرته على العمل.

كانت دميانـــة تتمنى أن توقف التحقيق لتهرب مــن سطوة أنطونيوس عليهــا، فأبلغت الأخير بتأجيل التحقيق لحين تحديــد موعد آخر، وأخذت تحاكــم نفسهــا على ما فكــرت فيه، ظلت تصلـــي طالبة الغفــران، عاقدة العزم على أن تتنحَّى عن هذا التحقيق، لكنها في اليوم التالي وجدت نفسها مشتاقة لرؤية وجه أنطونيوس ذي الملامح الدقيقة والعينين العميقتين، بعد وهلـــة تأكد لها أنها تريد النظــرة التي مسح بها جسدها فأشعل النيران فيه، انتفضت من مكانها وخلعت ثيابها متطلعة إلى ثدييها الناهدين بقوة، شعرت أن عبورهــا الخامســة والثلاثين دون زواج لم يؤثــر في قوتها الداخلية، نظــرت إلى بطنها وساقيها والتفتت إلى مرآتها باحثة عن ردفيها، لم يكونا هزيلين ولا عامرين، قرصــت أحدهما لتتأكد أنه ما زال على قيد الحياة، ثم حملت ملابسها ودلفت إلى الحمــام، بعدها اتخذت قرارها بالاستمرار في التحقيق.

لم يكن أمام مبنـــى الضيافة الذي يشتمل في دوره الأرضى على غرفة التحقيقات غير الخادم ميلاد العجوز، جالسًا على كرسيه الخشبي، كما لو أنـــه تُرك في مكانه هذا منذ أمد بعيد، فلم يتحرك ولم يتكلم وربما لم يتنفس أصلاً حـــين ألقى عليه أنطونيوس تحية الصبــاح، حين وصل الأخير إلى غرفــة التحقيق التي كان بها منذ عدة أيام وجد دميانة في انتظاره، للحظة شعــر بالتردد ورغــب في العودة من حيــث أتى، لكنها كانــت قد رفعت وجهــه نحو الباب فــرأت طلته الوديعة عليها، هنالــك انتفضت من مكانها وعلـــى وجهها ابتسامة كبرى، هي نفسها لا تعرف ما الذي شرح صدرها لرؤيتــه، وجعلها في هــذه الحالة من النشوة، رحبت بــه ودعته للجلوس في الكرســـي المجاور، وظلا كلاهما صامتًا لا يعرف بمَ عليه أن يتحدث، كلاهما كان ينتابه نوع من الخجل، كأنهما ما زالا مراهقين يتعرفان على بعضهمــا، كسر إيقــاع الصمت في الغرفة دخول الكاتــب بدفتره الطويل وقميصــه ذي المربعات الخضــراء والبيضاء، ابتســم أنطونيوس لرؤيته وتجاوبــت دميانة ببهجة أكبر، لكنها سرعان ما اعتدلت في جلستها راسمة بملامح جادة حالة من الحياد على المكان، بدوره ألقى ملاك التحية وجلس

على كرسيــه متطلعًا إلى حيث جلس أنطونيوس بجــوار المحققة، وأدرك الأخير أن ملاك تداعبه أفكار شريرة فأسرع في بترها بنقل الكرسي أمامه سائلاً:

– كيف حالك اليوم؟

تذكر ملاك لقاءهما بالأمس في العيادة، وانتبه إلى آلامه التي كان يعاني منها وكأنها تراوده من جديد، فارتسمت على وجهه ابتسامة امتنان قائلاً:

– نحمد الرب.

هز أنطونيوســ رأسه متمتمًا بالشكر، وبذلت دميانة جهدًا واضحًا كي تخرج صوتًا تستأذنهما من خلاله للبدء في التحقيق، فاستجاب أنطونيوس لرجائها وهــز رأسه بابتسامة خفيفة تجاه الكاتب، كمــا لو أنه يطمئنه بأنه لن يحدث له شيء اليوم، حين شرعوا جميعًا في ممارسة أدوارهم فوجئ أنطونيوس أن المذكرة المقدمة ضده تتهمه بإهدار مال الدير في طباعة كتب للخارجين عن الكنيسة، بدا على وجهه الغضب، وساد الصمت في الغرفة التــي لا تحتوي إلا على مكتب وحيد، أمامــه كرسيان ومنضدة صغيرة، وفي جانــب بعيد وقفت شماعــة خشبية علقت عليها دميانــة معطفها، بينما توزعــت ثلاث أيقونــات على حوائطهــا، فرفع أنطونيوســ وجهه نحو أيقونــة العذراء المواجهة لــه وكأنه يسألها عما يحــدث، مرت لحظات لم يجرؤ فيها أي من ملاك أو دميانة على الكلام، تركاه ينقل وجهه في حنق وغضب ما بين العذراء والمسيح المصلوب، وفي النهاية وضع راحته أسفل جفنــه ومسح دمعة كانت قد انسابت رغمًــا عنه، ثم زفر هواء ساخنًا وهو يستجمع قواه قائلاً:

– كان الأب إيمانويــل قــد كلفنــي بمسئولية الإشراف علــى المطبعة، وأن يكــون مــن مهام عملي طباعــة الكتب المهمة التــي يحتاجها المؤمنون بالــرب سواء في الديــر أو خارجــه، ولم أفعل أكثر من هــذا طيلة عملي ومسئوليتــي عن المطبعــة، فقد عكفت بالساعات علــى ضوء مصباح قديم لمطالعة عشرات المخطوطات والكتب ورؤية ما يصلح منها للطباعة، حتى أنني ترجمت بعض الكتب من الديموطيقية واللاتينية إلى العربية، وكلفت

بعضـ القساوسة والرهبان المهتمين بالأمر بعمل ترجمات أخرى، وكلما سمعـت بكتاب مهـم في دير أو كنيســة كنت أرسل في إحضــار نسخة منه لإعــادة طبعه، كنت على تواصــل دائم بالأب إيمانويل في شأن كل ما يتم الدفع به للمطبعة، وفي أثناء بحثي عن الكتب المهمة وقعت يدي على نسخة من كتــاب الرسائل للعلامــة أوريجانوس، كانت نسخــة قديمة ومكتوبة بعنايــة كبيرة، حتى أن صاحبها صنع لها صندوقًــا خشبيًّا صغيرًا وضعها فيــه، وحفر اسم الكتاب ومؤلفه على غلاف من جلــد الماعز، أما الورق فقد تفنن الخطاط في رسم حروفــه وهوامشه، كانت روائح السنين تفوح من المخطوط الذي عثرت عليه بمحض الصدفة بين بعض الكتب القديمة، حين فتحتــه لم أستطع أن أمنع نفسي عن قراءته، اعتكفت في قلايتي حتى انتهيــت منه، ثم حملته وذهبت به لــلأب إيمانويل مقترحًا نشره، فضحك قائلاً أن أحدًا لا يمكنه أن يسمح لي بذلك، وعلى أقصى تقدير لهذا الكتاب أن يتم تداوله بين كبــار الأساقفة للدرس والفهم، وليس الإتاحة للشعب، وكــي لا يغازلنــي شيطاني وأدفع بــه لماكينات الطباعة فقد قــرر أن يبقيه عنــده، ومع الوقت والأحــداث نسيت الأمر كله، لكننــي فوجئت به قبل رحيله يخبرني بحــزن شديد أن ثمة كبيرة ارتكبت، فقد سُرق الكتاب من قلايته.

كان مرضــ إيمانويــل شديــدًا، وفي الأسابيــع الأخيرة تزايــد بشكل مدهش، حتى أننا ما كنا نفكر في شيء سواه، كنا نلازم قلايته طيلة الوقت لنأخذ بيده ونسكن من آلامه، وقتهــا كنا نطبع سيرة القديس أنطونيوس، فقــد أعد لها إيمانويل مقدمة جديدة تليــق بتاريخ القديسين وجهادهم، لكنه تنيَّح قبل أن يراها تخرج للنور، وحين خرجت كنت قد اعتزلت في قلايتي حزنًا عليه، فلا يمكنني أن أواجه الحياة وحدي من دونه، فهو الأب الذي تعلمــت منه كل شــيء، وهو الباب الــذي دخلت منــه إلى الرهبنة، ربما لــولاه لظللــت هاربًا في الصحــراء، لا عمل لي سوى أننــي قاطع طريق وقاتــل تعودت أنامله الضغط على الزناد، مثلما تعودت آذانه سماع أزيز الرصاصــ، وحده إيمانويل الذي قــال لي "دع عنك هذا واتبعني"، قالها كما فعل المسيح مع بطرس وأخيه، وكما قالها مرقس للخراز، ومن يومها

وكلب السماء يطـاردني، يلهث خلفي كلما وضعـت رأسي ونمت، كنت أهـرول على الحصى كما لـو أن كل جيوش الأرضـ تطاردني، وحين رأيـت علي البعد القباب البيضاء لهذا الديـر كرهت أن أدخل على الله في بيته حامـلاً سلاحي، فحفرت له أسفل الهضبـة ودفنته بيدي، لكن ها هم الآن يدفعونني بكل ما يملكون كي أعود فأخرجه من قبره.

أفـاق أنطونيوس من ثـورة غضبه ليطالع الذهول الـذي ارتسم على وجه دميانة، بينما لم يستطع الكاتب أن يرفع وجهه عن الورق، ظنًّا منه أن ما يقوله أنطونيوس اعترافات مهمة ستلومه المحققة على عدم تسجيلها، وحين طال الصمت في الغرفة رفع الكاتب عينه خلسة ليعرف ماذا حدث.

أدرك أنطونيوسـ أن غضبه جعله يعترف بالأمر الذي أخفاه لسنوات طويلـة في صـدره، ظلت عينـاه تتنقلان ما بـين الأيقونـات المعلقة على الجـدران وما بـين بلاط الغرفة الكبـير ذي اللونين الأبيضـ والأسود، ودميانة لا تعـرف ماذا ينبغي عليها حيال المفاجـأة التي لم تتوقعها، رغم أنها لا تؤثر في سير التحقيق، ولا تدين أنطونيوس في شيء، إلا أن الأمر كان مفاجـأة أشعرت الجميع بالحرج، ظلا ينظران لبعضهما في حالة من الصمت والوجوم، حتى طرق الساعي باب الغرفة سائلاً دميانة إن كانت تريـد شيئًا، بدا لها كما لـو أنه رسول السماء الذي جـاء لينهي ذلك اليوم العصيـب، فطلبت منـه أن يحضر ماء وبعض القهـوة، وأومأت برأسها تجاه رفيقيها في الغرفة مقترحة تأجيـل التحقيق ليوم آخر، فأغلق الكاتب دفتره متنهدًا، بينما هز أنطونيوس رأسه وخرج دون أن ينظر لأحد.

-١٢-

قضـــى أنطونيوس عـدة سنوات من حياته فيما اعتــاد أهل القرى على تسميتــه بالجبل، لم يكن جبلاً بالمعنى المعروف، لكنه منطقة صحراوية في ظهــر مجموعة من القرى، تتخللها تِباب صغيرة من الرمل وقطعة كبيرة مــن الصخر، بدا كما لــو أنها قطعة اجتزأت من طود عظيــم، أوى إليها أنطونيوســ باحثًا عن النوم المحصن بالخــوف، خوفه من الناس وخوف الناســ منه، وظــل لسنوات ضاربًــا هذا الحصار حــول نفسه حتى جاءه إيمانويل، وجده واقفًا على رأسه طالبًا منه بعض الماء، انتفض أنطونيوس مــن نومه واضعًا يده علــى زناد بندقيته، لكن إيمانويــل المبتسم هز رأسه ليخبره أنه عابر سبيل ولا يريد شيئًا، بدا إيمانويل في وقفته وبزيه البسيط أشبه ما يكون بالمسيح الذي رآه أنطونيوس في منامه منذ أيام فاردًا ذراعيه على الجبل، تراخت أعضاؤه ووضع سلاحه إلى جانبه مبتسمًا:

- انت راهب؟

هز إيمانويل رأسه بنفس الابتسامة المطمئنة:

- أنا مجرد راهب، يبحث عن مأوى من الجوع والعطش.

فهم أنطونيوس أن محدثه يبحث عن مكان يستريح فيه، وأنه منهك من الداخل أكــثر من الخارج، أحضر له أنطونيوس الماء والطعام واستضافه كملك هبط إلى مغارته، وحين حل الظلام وارتفع القمر في السماء استأذنه في الذهاب إلى عمل بسيط، لكن إيمانويل ابتسم:

- لم يعد لك عمل.

رفع أنطونيوس حاجبيه:

- هل تعرف عملي؟

– نعـم. . أنت قاطـع طريق، وفي بعض الأحيـان قاتل مأجور، من يدفع لـك تقتل له، والمحصلة لديك أن رصاصة تخـرج من بندقية لتسكن في تجويف صدر.

رغب أنطونيوس في مجاراة ضيفه في لغته الحكيمة، محاولاً أن يخبره أنه ليس مجرد قاطع طريق، وأنه كان من الممكن أن يكون قسًّا في كنيسة لولا ما حدث له في قريته:

– المسيح لم يتحدث عن الصدور، لكنه شغلنا بالآلام، المسيح نفسه مات مصلوبًا، فما العيب في أن أكون الملاك الذي سخَّره الرب لتنفيذ حكمته في البشر.

– العيب أنك اخترت أسـوأ الأدوار على المسرح وقررت أن تؤديه، كان يمكنك أن تختار دورًا آخر.

– كأن أصبح أميرًا أو ملكًا!

– كأن تكـون قلبًا ممتلئًا بالخير، وليس قبضـة ينفذ الإله من خلالها ما يشاء.

– هل تعتقد أن بإمكاننا أن نعترض على مشيئته؟

– السؤال هو: هل تعتقد أننا بما نفعل ننفذ حكمة الرب؟

شعـر أنطونيوس أن هذه المحاورة ليس لها هدف سوى أن تضيع عليه الوقـت، لكن ثمة ضحيـة تنتظره من أجـل أن يُسكـن صدرها رصاصة أوشـك وقتها على النفاد، فقد عبر القمـر نصف مداره، وعما قليل سوف يختفـي من الأفق، ترك إيمانويل منتظرًا إجابة عن سؤاله ونزل مهرولاً مـن المغارة التي تحتويها الصخرة الواقفة على هوامش القرى كضلفة باب موارب، لكن صوت إيمانويل لاحقه:

– لا عمل لك الليلة. . فالذبيحة ماتت دون احتياج لرصاصتك.

كان شيـخ البلد هـو المطلوب إراحتـه في تلك الليلة، هكـذا دفع الحاج حسـن المسكوتي لأنطونيوس القبطي كي يقتل شيـخ البلد، لا لشيء سوى

أن الأخير رفض أن تتزوج ابنته من حامد المسكوتي الذي أمضى ثلاثة أرباع عمره على مقهى النفراوي، واصفًا إياه بأنه "صايع" ولا يعرف غير معاكسة النسوان، اعتبر المسكوتي ذلك إهانة شخصية له، إهانة لا يمحوها سوى الدم، فأرسل إلى أحد الرجال الذين اشتهروا بأنهم أصدقاء أنطونيوس، طالبًا منه التنفيذ مقابل ثلاثة آلاف، نصفها قبل القتل ونصفها بعده، فهز الرجل رأسه وانتظر الوقت المناسب لملاقاة أنطونيوس، وكان من المفترض أن يتم التنفيذ الليلة.

حمل أنطونيوس بندقيته وتسلل مع الظلام وحنياته تحت الجدران وأسفل الأشجار وفي باطن الترع والمساقي حتى وصل إلى بيت شيخ البلد، ولم يكد يتسلق الجدران ليصل إلى السطوح حتى سمع عويلاً متزايدًا في ظلمة الليل، عويل أطلقته ابنة شيخ البلد التي وجدته ممددًا على المصطبة الكبيرة بلا حراك ولا نفس، لزم أنطونيوس مكانه وهو يرى تدفق الناس إلى بيت الفقيد، ولم تمضِ ساعة حتى وجد صوانًا قد نصب بينما وقف حسن المسكوتي في مقدمته لاستقبال الجموع التي توافدت عقب سماع الخبر، فما كان من أنطونيوس سوى أن تسلل من صومعة القمح إلى درجات السلم عابرًا باحة الدار من بين النسوة النائحات حتى وصل إلى طابور العزاء، ليكشف عن وجهه لحسن المسكوتي، مقدمًا له ولبقية أبناء الفقيد المواساة، ثم ساحبًا المسكوتي من يده لينتحي به مطالبًا ببقية الاتفاق، فمد المسكوتي يده إلى جيبه مخرجًا ما معه من مال طالبًا عدم فضحه، وبينما مال أنطونيوس ببندقيته إلى حقول الذرة الخضراء بشواشيها البيضاء ليختفي كنقطة في بحر من الظلام، أخذ الأهالي يضربون كفًّا بكف متسائلين عن علاقة المسكوتي بأنطونيوس وبموت شيخ البلد في هذا الوقت من الليل.

-١٣-

أصبــح قسطنطين العظيم كلمــة السر بين الرهبــان في الصحراء، فقد أصدر قــراره بالتسامح بين الجميع، وقبول المسيحيــة دينًا رسميًّا للبلاد، هنالــك بدا للملاح أنه قد وصل بمن معه إلى بــر الأمان، وأنه ليس أمامه ســوى القليــل لأن يغادرهم إلى الأمجــاد السماوية، فجمــع من في الدير وطالبهــم أن يختاروا واحدًا من بينهم ليكون رئيسًا عليهم، فجلسوا يومين يتشــاورون حتى انتهــوا إلى اختيار تلميذه ديمتريوســ، فوعظهم طويلاً بالسمع والطاعة له، ثم رسمه قسًّا لهم، ولقبه بديمتريوس الصغير، تيمنًا بالبطريرك ديمتريوس الكرَّام.

لم يكــن ديمتريوس عــبرَ عامه الثلاثين حــين تحمل مسئوليــة الدير، كانــت فترة هادئة لكنها حملت أوجــاع الماضي، فمع اضطهاد دقلديانوس للمسيحيــين لم يجد بطرســ الأول أمامه سوى أن يفر بنفســه إلى أنطاكيا وبــلاد الرفديــن، فتغيب عن كرسيــه نحو ثلاث سنــوات، وغيَّب الموت وظلام السجون كثيرًا من الأساقفة والقساوسة، مما جعل ميليتوس أسقف ليكوبوليســ في الجنوب ينزل الإسكندرية ويقوم بترسيم أساقفة وقساوسة جــدد، وهــو الأمر الذي اعتبره بطرســ تدخلاً في أسقفيتــه، فأرسل من منفاه إلى ميليتوس رافضًا ما يفعله، ومحذرًا من التمادي فيه، لكن الأخير لم يهتم، مما جعل بطرســ يصدر قراره بحرمان ميليتوس، فرد الأخير أيضًــا بحرمان بطرس، معتبرًا أنه لا يصلح لأبوة الكنيسة الروحية، لأنه فضــل الفرار بنفسه مــن أمام الرومان على الشهــادة والتضحية في سبيل المسيح.

سرعان مــا لقيت دعوة ميليتوســ وآراءه قبولاً لــدى أساقفة الجنوب ورهبــان الأديرة في الإسقيط والقلمون، وغير كثير من الرهبان ولاءهم

مـن بطرسـ إلى ميليتوسـ، وكان من بينهـم آريوس الـذي كان تلميذًا لبطرس ومقربًا منه.

نشط ميليتوس في زيارة الأديـرة والكنائس، داعيًا الرهبان لمؤازرته والدخول في معيَّته، كانت هضبة الملاح من بين الأماكن التي حرص على زيارتها برفقة بعض مـن أساقفته، فأمضى ليلة كاملة في نقاش طويل مع جبرائيـل الملاح، طالبًا منه أن ينضم إلى دعوته هو ورجاله، لكن الأخير رأى أن ذلـك لا يفيـد إلا الرومـان في حربهـم على المسيحيـة، ورفض أن يكـون جزءًا من الصـراع، وظل يتابع أصـداء الشقاق بين ميليتوس وبطرسـ دون أن ينحـاز لأي منهمـا، ومات وهو يوصـي ديمتريوس الصغير بألا يخرج عن الكنيسة الأم، كي لا تتوه أرواح المؤمنين في فيافي الصحراء.

كان ديمتريوسـ طالبًـا في مدرسـة الإسكندريـة حـين شـده الجـدل بـين الأديان والمقارنـة بينها، وجد فكـرة المسيح أنقى مـن فكرة زيوس وسيرابيسـ، وجد نفسه ينحاز بعـد جدل سوفسطائـي طويل إلى دخول الكنيسـة عـن المعبد، رغم أن كلا الأمرين بدا في عينيـه بلا فرق، إلا أنه توقـع أن الكنيسة في حاجة إلى رجل يمكنه أن يوظف فكره لصالحها، أما المعبد فلا يحتاج إلا إلى رجل يحمل عنه أسراره ويمضي، هكذا خرج من السيرابيوم ليدخل الكنيسة متطلعًا إلى صورة المسيح، ولم تمض أيام حتى قبض عليـه الجنود، فما كان منه سوى أن انتظر خروجه من السجن كي يودع والديه، ثم خرج إلى الصحراء بحثًا عن الله.

في البـدء أخذتـه قدماه إلى وادي النطـرون فأقام عامًـا بين رهبانه، لكنـه سرعان ما شعر بضرورة الذهاب أعمق من ذلك، فاتخذ طريقه إلى الجنـوب عبر ترحال طويـل ما بين القرى الكبـيرة والصغيرة، وما بين الحصـون والمدن، تارة يعبر ككاهن في معبـد مصري حين يصبح المكان تابعًا للمصريين، وتارة يوناني يجيد لغة المصريين حين يصبح المكان تابعًا للرومـان، وحين يخلو إلى نفسـه يتطلع إلى الغيم محادثًـا النجوم متفكرًا في شـأن الله وخلقه، وبعد شهور طويلـة انتهى به المطاف إلى دير الملاح علـى تلك الهضبة الناتئة من جبال القلزم، أعجبه المكان بضيقه واتساعه،

بسكونــه وضجيج الوافديــن إليه، أعجبته الأسطــورة وجاء كغيره يبحث عــن اللبؤة وأشبالها، لم يجد أيًّــا منهم هناك، فقط كان الملاح وحده يرشد الناس لمعرفة الله بالقلب والعقل، فطلب منه أن يكون تلميذه فوافق.

كان أول شخصــ يطلــب صراحة من الملاح أن يكــون تلميذًا له، ولم يكــن الملاح بأي حال يرى أنه معلم ولديه ما ينقله للناس، فقط كان متعبدًا صادقًا، قلبه، على مدار أربعــين عامًا قضاها بين هذه الصخور، لم يكن يعــرف إلا المحبة، كان موقنًا أنه يرى الله في الناس، وليس في الأماكن، اللــه هو نحن، ومــن أراده فلينظر إلى أخيه، هكــذا كان يقول ممتنعًا عن الجــدل، سامحًا بــأن يكون مكانــه مأوى للطيــور والحيوانــات والبشر ومختلــف الأفــكار والطموحات، شرطــه الوحيــد: لا أذى ولا ترهيب. لم يكــن أحد يســأل عن طعام ولا يجــده، أو ماء ولا يجــده، لم يكن أحد يدخل في ظلال الدير ولا يشعر بالأمان، الجميع كان يأتنس بمحبة الملاح وسطوته على القلوب، لذا حين مات شعر الكثيرون باليتم، وأنه لا حاجة لهم بالمكان.

جمــع ديمتريوس من حوله الشيــوخ مستفيدًا مــن حكمتهم وزهدهم، ووضع خططه للمستقبل على كاهل الشباب، مستطلعًا ما يجري حوله من جدل بين أنصار بطرس وأنصار ميليتوس، ورأى أن كثيرًا من الوثنيين الذيــن احتموا بالمكان في أيام الملاح يريــدون العودة إلى قراهم وقبائلهم، أغلبهــم كان يدين بديانات المصريــين، قلة هي التي كانــت تدين بديانات الرومان والإغريق، جميعهم جــاءوا هربًا من الجنود وطغيانهم، وكان السلام الذي وضعه قسطنطين قد شجع الكثيرين على الخروج من القلالي والعــودة إلى الحياة في القرى والمدن، حيــث الحقول والبيوت والمزارع والمتاجــر التي خلفوها وراءهم، هز ديمتريوس رأسه باسطًا يديه لمن يريد الخروج، مؤكدًا أن الدير بيته في أي وقت، ولا بدَّ أن يأتي لزيارة إخوته من النساك، كان الجميع يمتن لسماحته، موقنًا أنه سيكون خير خلف لخير سلف.

لم تمضــ أيام حتى مسح ديمتريوس بالزيــت المقدس على رأس ثلاثة مــن الشيــوخ، راسمًا إياهــم قساوسة في معيته، ثم طلب مــن الشباب أن يختــاروا رئيسين لهم، كانوا جميعًا لم يتخطوا العقد الثاني من العمر، لكن الحماســ كان يشتعل في صدورهم، خاصة أنهم قــرروا أن يهبوا حياتهم مبكــرًا للديــر، وكان على ديمتريوســ أن يفكر في كيفيــة الإبقاء عليهم، فلــو تركوا المكان فســوف تتحول الحياة إلى جحيم كامــل، ومن ثم فلا بدَّ مــن خلق قضيــة تخصهم، لا بدَّ مــن جعلهم في مركز القيــادة. هكذا فكر ديمتريوســ وهو يختار نائبين عنه، في النهايــة توصل إلى شابين أحدهما قوي البنيــة يدعى أبانوب، قادم من معبد حورســ في الجنوب، والثاني يوناني الأصل اختلطت دماؤه بدماء المصريين، ويدعى رفائيل. قال لهما إنــه لا يستطيع أن يدير الدير وحده، فلديــه مهام روحية عديدة، والمكان في حاجة لأن يكون مستعدًّا لاستقبال الباحثين عن الأمان.

قال ديمتريوس أن المؤمنين يصلــون في الدير حسبما اتفق، فلا كنيسة تجمعهم ولا مذبح يؤدون عليه قرابينهم، الكل كان يعتمد على قداسة الأب جبرائيــل وصلواتــه من أجلهم، لكــن أحدًا لم يفكر فيما ينبغــي عليه بعدما تنيح الملاح وانقطعت صلواته عن المكان، لذا لا بدَّ من كنيسة تضم جثمانه وعظــام لبؤته وأشبالها، كنيسة يمكننا أن نتقرب إلى الرب بأعطياتنا على مذبحها، ونتناول فيها معًا خبــز المسيح وخمره، ونقيم صلواتنا وأناشيدنا بين جدرانها، متأملــين شروح الآباء والقديسين لكتابنــا المقدس ورسائل الرسل.

وجودنــا في هذا المكان يلزمه أمران، الأول يحتــاج إلى رجال أشداء يسوون الهضبــة على هيئة بساط ناعم، وينتزعــون الأحجار من القلزم لقيمــوا بها قلالا للعجائز كي تحميهم من البرد والمطر، بحاجة إلى نجارين وحدادين وحراس يمنحون المكان أرواحهم وقلوبهم، وهذا الأمر ليس له سوى أبانوب ومن يختارهم معه.

أمــا الثاني فهو أكثر صعوبة من ذلك، لأننا في حاجة لمن يدرس الفلسفة والعلوم كــي نكون قبلة للراغبــين في المعرفة والدين، قبلــة للباحثين عن

أسـرار الخلـق والوجود، نريـد أن يكون لنـا في ديرنا أساتـذة وفلاسفة كهؤلاء الذين في المدينة العظيمة، ولهذه المهمة اختار رفائيل السكندري.

كانـت السنـوات التـي قضاهـا ديمتريوسـ في مدرسـة الميوزيـوم بالإسكندريـة قد أثـرت على طريقة تفكـيره، فعشـق الفلسفة ورغب في المـزج بينها وبين قراءة التفاسير، وهو ما أغـراه أن يختار تلميذه رفائيل كي يذهـب إلى الإسكندرية التي أتى منها، ليدرسـ في مدرستها الشهيرة علـوم المنطق والطـب والفلسفة والفلك، ويحـاور أساتذتها بالمنطق الذي يدرسونـه، كي يكون رافدًا من نبعهم الكبـير، وكي يمزج بدوره رؤية اللـه برؤية الفلاسفـة والعلماء، فالكون واسع ولا تحكمـه كلمة واحدة أو أخيرة.

-١٤-

كانت الساعة قد صارت العاشرة صباحًا حين قطعت خطى الكاتب المسافة التي تفصل بين مخزن الكتب والمخطوطات الذي يقيم فيه وبين مقرِّ العيادة التي يعمل بها أنطونيوس الآن، رأى بشرًا كثيرين ينتظرون أن يناديهم الشماس أبانوب، فقد أبلغوه باسم المريض أو المريضة وجلسوا ينتظرون أدوارهم، رأى مسلمين جاءوا من أسيوط وسوهاج وبعضهم جاء من السويس والإسماعيلية بحثًا عن الشفاء على يد القسيس أنطونيوس، لا يعلم كيف انتشرت سمعته بهذا الشكل بين الجميع حتى وصلت إلى تلك الأماكن البعيدة، رأي عميان وبرصان ومشلولين، رأي باحثات عن الحمل وباحثين عن الخلاص من المسِّ، أبلغ اسمه لأبانوب كغيره من الراغبين في العلاج، وجلس ينصت إلى هموم الناس ومشكلاتهم، كان الجميع موقنًا بقدرة أنطونيوس على تخليصهم من الآلام، ظل ينصت إلى الحكايات التي تتناسل من مخيلاتهم وأفواههم حتى عبرت الظهيرة ولم يبق سوى نفر قليل، حينها ذهب إلى الشماس طالبًا منه أن يؤجل دوره ليكون الأخير، هز الرجل رأسه ونادى من بعده.

كان الشماس يسأل الداخل عن مرضه أو سبب مجيئه، ثم يدخل المريض وأهله على أنطونيوس، ذلك الذي يقف إلى جانب سرير ينام عليه المريض، لا ليفحصه ولكن ليمسح على مكان ألمه بالزيت المقدس، ثم يتمتم بما يتناسب مع حالته من آيات الكتاب المقدس، ويمنحه أيًّا من الأدوية التي يتوقع أن تساعد على شفائه إن توافرت لديه، حين جاء دور الكاتب سأله أبانوب عما يشتكي منه، فأجابه بأنه لا يشتكي إلا من أبانوب ذاته، فرفع الأخير حاجبه معترضًا، لكن الكاتب عاجله:

- أوريجانوس أدمانتيوس.

من جديد فتح أبانوب فمه معبرًا عن عدم الفهم:

- هذا مرض جديد.

هكـذا أوضح له الكاتب، فكتب الشماس اسـم الكاتب وما يشتكي منه، ومنحـه ورقـة ليدخل بها علـى أنطونيوس، وما إن انتهـي الأخير من المريضة التي أمامه حتى استدار ليجد الكاتب في مواجهته:

- أما زلت تعاني الإسهال؟

هكذا تساءل أنطونيوس مبتسمًا وكأنه يقطع على الكاتب طريق التفكير في الكـذب عليه، لكن الأخير هز رأسه منـاولاً إياه ورقة الشماس، حين نظر فيهـا قرأ اسم القس الذي تم الزج برسائله لتنشر ضمن سيرة القديس أنطونيوس، ويتم الآن التحقيق معـه بشأنها، هـز أنطونيوس رأسه في هدوء، طالبًا من أبانوب أن يغلق العيادة ويذهب ليلحق بقدَّاس الخامسة، ثم اصطحب الكاتب وخرجا من المكان.

ضحك أنطونيوس قائلاً:

- وما يشغلك بأوريجانوس؟

- أظنني قرأت عنه.

كان قرص الشمس قد انزوى بعيدًا في أقصى جنبات العالم، حتى أنه بـدا في أسفل السفح بالنسبة للهضبة التي بني عليها الدير، تأمل أنطونيوس الحضـور المتتالي للقبـاب بطول الهضبة، وتيقـن أن الملاح لم يكن مجرد مؤمـن هـرب من يد الطغـاة إلى هذه الهضبـة، لكنه أتى لأمـر أكبر من ذلك، ولو لم يكن ثمة مـلاك يقود خطواته في ظلمات الفيافي لقضت عليه الضواري، هز رأسه متمنيًا أن تكون بعض من بركة الملاح في معونته، وحـاول أن يطمئن نفسه أن ذلك سيحدث ببركة السيد المسيح، فوضع يده علـى صدره كمـا لو أنه يمسحها مـن التراب والعـرق في ثيابه الكهنوتي الأسـود، رغم أنـه في الواقع كان يضم الصليـب المتأرجح على بطنه إلى شرايـين قلبـه، ولم يُنزل عينيه عن قرص الشمس المعلق مـا بين السفح والأفـق البعيد في الغرب، فظل شـاردًا ببصره في السحابات الخفيفة التي

في طريقهــا لأن تمر من أمامه، لمح شيئا يتحرك فيها، بدا كما لو أنه طائر عجــوز يضرب جناحيه بقوة في الهواء من خلــف الغمام، حدق فيه حتى رآه علــى هيئة سيدة تحمل طفلاً بيد وتلوح له بالأخرى، بدا الأمر كما لو أنه أيقونة سماوية للعذراء، وأنها الملاك الحارس للهضبة ومن عليها، هز رأســه موقنًــا أن السماء لن تتركه في محنته، ثم عــاد فوضع ذراعه على كتف الكاتب قائلاً:

- سيفوتنا القداس.

لم يكــن أنطونيوس يعلــم أن دميانة مهتمة به مثلما هــو مهتم بها، لكن لقاءه مع الكاتب ألمح له بذلك، ففي الطريق إلى الكنيسة التي أقامها القديس ديمتريوســ، حيث دفــن جبرائيل الملاح إلى جانب لبؤتــه وأشبالها، قال ملاك، الذي لم يعرف له مهنــة غير الكتب وكتابة التحقيقات، إن دميانة في المرة الأخيرة سألته إن كان يصدق أن أنطونيوس قاتل وقاطع طريق؟

أدرك أنطونيوســ مــن الجملة مدى اهتمامها به، حتــى أنها لا تصدق مــا اعترف به على نفسه، لكن شعورًا انتابه بــأن هذا الأمر بات مشكوكًا فيــه، فبعدما كان في عينيها الراهب الــذي رأى المسيح والسيدة العذراء، أصبــح الرجل الذي اعترف بكونه قاتــلاً وقاطع طريق، وعمَّا قليل يسير التحقيــق في اتجاه اتهامه بالزندقة ونشــر كتب المهرطقين. بدا له أنه خسر كل أسهمه، وأن الأمر ليس كما يحاول الكاتب أن يبرزه.

مــا إن اقتربا مــن الكنيسة حتى طلــب من أنطونيوســ أن ينفصلا عن بعضهمــا، فثمة عيون تترصد الداخل والخارج ولا ينبغي لهما أن يتحركا معًا، هز أنطونيوس رأسه متمتمًا بالموافقة، لكنه استدرك سائلاً عن المكان الــذي يجده فيه، فأشار بطرف إصبعه نحو مخزن المخطوطات والكتب، ثم هم الخطى ليعبر من الباب الخلفي تاركًا أنطونيوس يتجه بطوله الفارع نحو البــاب الكبير، حيث يمر من أسفل الأقواســ الحجرية المتوالية، تلك التي بناها أبانوب على هيئة عتبات لأقبية حجرية مرفوعة على صفين من الأعمــدة الطويلة ذات الرءوســ الكبيرة، كانت رءوسهــا بطبيعة الحال على هيئة أشبال صغيرة للبؤة كبيرة تنام على مدخل المذبح القابع في نهاية

ممر الأعمدة، حيث لا يوجد في نهاية الكنيسة العجوز سوى المذبح وقدس الأقداس المشتمل على قبرين أحدهما لجبرائيل الملاح والثاني لما تبقى من عظام اللبؤة وأبنائها.

حرص أنطونيوس على أن يبدي لا مبالاته بوجه صديقه يوساب المتجه نحوه بابتسامة هادئة.

- مساء الخير يا أنطونيوس.

هكذا اعترض طريقه ببرود واضح وهو يلقي بالتحية عليه، ولم يجد أنطونيوس أمامه سوى أن يتوقف ليجيبه بنفس الهدوء إلى أن يفهم ما الذي يجري من حوله.

- وأنت من أهل الخير.

- سمعت أن قضيتك أخذت منحًى غريبًا، هل نشرت حقًّا كتبًا للمهرطقين؟

- لقد جئت لحضور القداس.

- ألا تريد الحديث معي؟

نظر إليه أنطونيوس مستنكرًا أن يسأله يوساب عن نيته وما بها، لكن الآخر ابتسم مردفًا:

- على أية حال، أحببت أن أبلغك أنني صرت كاهن الاعتراف.

للحظة شعر أنطونيوس أن يوساب وجَّه إليه صفعة لم يتوقعها، وأنه صار محاصرًا من كل الجهات، فكل الرجال الذين يثق بهم في الدير يتوارون، لتظهر بدلاً منهم وجوه لم يكن يريدها، ازدرد ريقه قائلاً:

- والأب باخوميوس؟

أطلق يوساب ضحكة من النوع الخبيث:

- صار عجوزًا، فقرر الأب جورج معاونته على التفرغ لأداء الصلوات في قلايته.

بدا جليًّا أن يوساب أراد أن يوضح لأنطونيوس رسالة لم يرد أن ينتبه إليهـا منذ تنيَّح الأب إيمانويـل، فقد سقط الدير في حجره هو قبل أن يسقط في يد جورج المنحنـي، وأنه أصبح المتحكم في شئونه، وليس على الجميع سوى أن يذعنـوا له كي ينجوا من شروره، لكـن أنطونيوس الذي شعر بانقباضـ صـدره لم يستطع إعلان قبولـه أو رفضه للرسالـة، وآثر أن يستدير خارجًا من الكنيسة، فلاحقته كلمات يوساب:

- ألن تشارك في القداس؟

كان صـوت الكلب السماوي قد بدأ يـرن في أذنه، بينما أقدامه الكبيرة قد أخذت تضرب الأرضـ بقوة متصاعدة في اتجاه أنطونيوس، فاستدار متجهًا إلى الشارع دون أن يلتفت ليوساب وكلماته.

-١٥-

رسائل أوريجانوس (١)

أخـــي وتلميذي وصديقــي ديونسيوس، بطريرك كنيســة الإسكندرية الجليل، لك السلام على الأرضـ وفي ملكوت السماء العظيم، أرسل لك الآن يــا صديقــي لأنني لا أعرف مــا الذي يمكنني فعله بالأيــام المتبقة من حياتــي، أقول هذا وأنــا أوريجانوس بن ليونيدســ السكندري المعروف بأدامانتيوســ أو الرجل الفولاذي، فقــد عشت حياة طويلة حافلة بالمتاعب والآلام، كنــت واحدًا في مواجهــة الجميع، ولم تتبعني ســوى قلة قليلة، لكــن الغالبية لعنتنــي، ورأوا أنني خطر على كنيستهــم أكثر من الشيطان ذاتــه، رغم أنني لم أقدم سوى تفسيراتي الداعمــة لوجود الكنيسة وبقائها علــى الأرض، إلى أبعد مما تظن مخيلاتهــم القاصرة، وعزائي الآن أن المسيــح ذاته لاقى نفس آلامي، وكم كنت أشتــاق لأن أنال نفس المصير، كم كنت أحلم أن يكون خلاصي على نفس الصليب، أو تحت نير السيوف والحــراب، فكم حلمت بالشهــادة، وكم كتبت في حــث الآخرين عليها، حتى أنني جعلــت قمة الخلاص فيها، وقلت إن ملكــوت السماء يُفتح أولاً للشهــداء، وأن المسيح يقف في استقبالهــم، لأنهم ساروا على نفس دربه، وشربوا من نفس كأسه.

أنــا الآن أجلس وحدي في صور بفلسطــين، أجلس بعيدًا عن وطني، منبوذًا من قبل أساقفتــه ورهبانه، لكنني قريب من الرب وبقعته الطاهرة في بيــت لحــم، وعزائــي أن كنيسته تقبلت أفــكاري، ومــا زال رهبانها وقساوستها يفردون ظلال أجنحتهم لأستريح تحتها من الآلام، فقد رأيت وأنــا الشيخ العجوز في ظلمــات السجن عذابات لم ينلهــا عتاة المجرمين، وحده المسيح كان ينظر لي مبتسمًا من سقف الحفرة التي ألقيت فيها، طالبًا

منـــي التشجع، فقــد نلت من المكان والمكانة الكثــير، كان يفرد يديه لأرى باتســاع الأفق قصورًا وجنانًــا وأنهارًا قائلاً: كلها لــك، وأنا أهتف: أمن أجلي هذا؟ وهو يشير إلى السلاسل والقيود قائلاً: من أجل هذا.

كنت كلما رأيت الجلاد أهتــف فيه بأن يشد قيوده على، ويضرب بكل قوتــه على ضلوعي، غير عابئ بجروحي وقيحــي وأورامي، كنت أقبِّل يديه باكيًا لا من أجل أن يتوقف عن فعله ولكن من أجل مزيد من الآلام، أطلب منــه أن يلقي علي بشوكــه، أن يحمي أسياخــه ويضربني بها، أن يجرجــرني على الزجاج والحصى المسنن، حتى ظنَّ الجميع أنني جُننت، لكــن بعضهم كان يراني ذلك الفولاذي الذي يختبر قوتهم في مواجهة قوة احتماله، كانوا يزيدونني تعذيبًا وأزيدهم ابتسامًا، وكلما زدت نزفًا رأيت الرب يلوح لي من سمائه أن هأنت تقترب، هأنت تولد من جديد، وها نحن نجهز مركبك السماوي، فربما تجيئنا في المساء، وربما تجيئنا في الصباح، فانظر بعينك نحو الجنان والأنهار والبيوت والقصور، انظر.. كل ما هنا ينتظر عبورك السامي نحو الأفق الآخر من الملكوت.

كان داكيوس قد تولى حكمــه منذ ثلاثة أعوام، وكانت الإمبراطورية على وشــك الانقسام، فقد تزايد حضورنــا كمسيحيين، ودخل الكثيرون حظيرة الــرب، وشاء المسيح للبشــر أن يؤمنوا، فتوافــدوا على الكنائس والأساقفــة والقساوســة معلنين إيمانهــم، فخفت الأقدام عــن معابد أبولو والسيرابيــوم وأفروديت، وقلَّت العطايا للكهــان، فضجوا لداكيوس بأن بلادهــم في خطر، وأن سلطته كحامٍ لوجــود الآلهة على الأرض تتقلص كل يــوم لصالح هؤلاء التابعين لنبيٍّ الناصرة، ولا بــدَّ أن يضع حدًّا لهذا المــوج الهــادر، ولأن داكيوس من الأباطرة محــدودي الوعي فقد رأى معاندة الرب في حكم رعيتــه، وأعلن أن على الجميع الركوع للأوثان، ومــن لم يقدم أضحياته علــى مذابحها فإنه يسجن ويعــذب ويذبح، هنالك اشتط رجاله في إعلان حربهم على المؤمنين.

أعــرف يا صديقي ديونسيوس العظيم أنــك منذ توليت كرسي الكرازة بالإسكندريــة خلفًــا لصديقنــا هيراقلاس وأنــت تتمنى علــيَّ أن أعود إلى

بــلادي، لكنني قضيت أعوامي كلها ما بين الناصرة وأنطاكيا وروما أقدم عظاتي للجميع، وأنهــى الجميع عن الخلاف والتفكير في الصغائر، كنت مــا بين كنائســ تدمر والعراق واليمــن والبحرين أقــدم شروحي للكتاب المقدس وأسفــاره وأصحاحاته وآياته ورسائلــه، كنت أتحاور مع الجميع وأقنــع الجميع بطبيعة الربِّ الإله، بأنه واحــد ذو أقانيم ثلاثة، هي الآب والابن والروح القدس، وأنها لا تنفصل عن بعضها بعضًا، جميعها أقنوم واحد، يجتمعــون في مركز واحد، كنت أضرب لهــم المثل بالشمس التي ينبثــق عنها الشعاع الذي ينبثق عنه الضوء، فــدون الضوء ما كنا سنرى الشعــاع ولا نشعر به، ودون الشعاع مــا كنا سنعرف الشمس ولا ندرك وجودهــا، والعكس يا صديقــي، دون الشمس مــا كان الشعاع، ودون الشعــاع ما كان الضوء، فهل يمكننا فصــل أقنوم عن الآخر، وهل يمكننا القول بأن أيًّا منهم وحده يمكنه أن يتحقق حضوره، هذه وجوه إله واحد، جميعها تتحد في مركز واحد، جميعها الإله.

كنت أبشر في كل مكان بما أرسلنا المسيح من أجله، أبشر بدينونة الرب وملكوتــه وخيراتــه وسلامه الذي يتنزَّل على الأرضــ في كل مكان، لم أكــن أصطحب معي أكثر مــن صديقي أمبروسيوســ أو راهب يساعدني في حمــل مخلاتــي الصغيرة، فلا أغراض لي في هــذه الدنيا، ولا أهداف لي ســوى الوصول إلى الملكوت السماوي الواســع البهي، كنا ندخل على الملــوك والأساقفة بنفس هيئتنا البسيطة، ثيابنا المغبرة ووجوهنا التي علاها التراب والرمــل والظمأ والتعــب، نقطع مئات الهكتــارات على مدقات في الصحــراء، لا نحمــل جرة مــاء معنــا، ولا كسرة خبز تســد رمقنا، كان الرفقــاء يتغــيرون في الطريق، ووحدي أكمــل مسيرتي نحو أعمق أعماق الصحراء، هذه المبهــرة المضيئة كأنها ملكوت الله، لم يكن أي من الشمامسة يعي ما الذي نفعله، ولم تكن أي الضواري تقترب من مسيرتنا ولا مجلسنــا، كانت تنظرنا من بعيــد كأنها تحرس ركبنا المكون مني ومن شماســي ومن بغلينا الصغيرين، هكذا أمضيــت سنوات يا صديقي، سعيدًا بأننــي رغم كل ما مر بي كنت الأقــوى، وأن الأيام أثبتت صحة إيماني،

وأن تلامذتي صاروا في كل مكان يبشرون بما كنت أحلم به، وما تركته من أفكار في كتبي ورسائلي.

كنت كلما رأيت شخصين يتجادلان حول ما طرحته من آراء أتعجب من قدرة الأفكار على التنقل أكثر من أصحابها، لم أكن أتدخل في حوار طالما ليس مطلوبًا مني التدخل، فالفكرة وحدها قادرة على محاورة غيرها، لكن على أصحاب الفكر أن يعدوا نفسهم للاستشهاد، وأن يوقنوا أن الشهادة هي أعلى المراتب التي ينالها المؤمن، لأن الرب نفسه لم يجد أفضل منها ليضع نفسه في موضعها، فطلبها لنفسه قبل أن يطلبها لمؤمنيه، فليجهز الجميع نفسه للشهادة على يد أعدائه في حماية دينه، فمع المسيح ذلك أفضل.

-١٦-

كانـت مئات الأسئلة تجتـاح دميانة عن كيف خدعهـا إحساسها بالبشر فـرأت قاطع الطريـق في صورة ملاكٍ حارسٍ، كان الجنون يكاد يفتك بهـا. نهضت مـن سريرها، أجرت عـددًا من الاتصـالات بزملاء لها، أكدت للبعضـ أنها ستحضر قداس الأحد في الكنيسـة الأم، وأجَّلت عددًا من المواعيد الأخرى لانشغالها في قضية معها، وشردت بذهنها في القديسة دميانـة، تلـك التي طالما استمعـت في عظات الأحد عـن صبرها وتحملها العـذاب في سبيل المسيـح، متسائلة عن حجم الآلام التـي يمكن لجسد فتاة صغـيرة أن يتحمله، وما الـذي جنته من عذابها، كانـت دميانة للحظات تشك في كل مـا يقوله القساوسة، وتشعر أنها أساطـير اعتادوا ترديدها، وأفنـوا مخيَّلاتهـم في صياغاتها على هذا النحـو الدرامي، كانت تنظر في عـين الجالسين على كراسيهم أمام الراعـي باكين، مستحضرين كل آلام الجسـد الرقيق في أذهانهـم، كما لو أنهم يعيشون نفسـ حالة التعذيب من جديد، يعيشون نفس الآلام، ونفس الشعور المتأرجح ما بين الوجع واللذة بالوجع، كانت دميانة تقول لنفسهـا إن ثمة مازوخية في النفس البشرية، وإن هـذه الأساطير ليست سوى حيلة ابتكرها العقل ليشبع رغبة الذات في تعذيب نفسها.

مـا كان لدميانـة أن تتخيل أنها في يوم ما ستعجـب بقس، وستراودها صورتـه في منامهـا كل ليلـة، ويطاردهـا طيفـه في بيتهـا وعملها وبين أصدقائها، كانت ترى نفسها علمانية لا يمكن لخرافات الوعَّاظ أن تسيطر عليهـا، لكنها من داخلها كانت تعتقد في الملكـوت السماوي، تضع الكتاب المقدس في حقيبتهـا، وعلى المنضدة المجاورة لبـاب شقتها، وتحمل صليبًا

ذهبيًّا صغيرًا على صدرها، وتنشر أيقونات القديسين على حوائط البيت، وتحرص علــى الصيامين الكبير والصغير، والذهاب في الآحاد والأعياد إلى الكنيســة، فكل هــذه مفردات الإيمان الحقيقــي في اعتقادها، فما الذي يجذبها الآن نحو قاطع الطريق الذي أصبح قسًّا؟!

كانــت قد نشأت في مدرسة للراهبات، لكنها التحقت في تعليمها الثانوي بالتعليــم العــام، وسرعان ما التحقت بكلية الحقــوق، فقد أصرت والدتها تريزا علــى ذلك، وما إن حصلت على الليسانــس حتى أخذتها تريزا من يدها وذهبت بها لمكتب سعد الله خليل للمحاماة، صديق والدها وزميله، لم تطلــب منه سوى أن تكمل دميانة مســيرة والدها من خلال مكتبه، فوافق الرجــل وبدأ في تدريبها، لكــن حين ظهر إعلان يطلــب دفعة جديدة من خريجي الحقوق للعمل في النيابة الإدارية جاءتها بالإعلان قائلة:

- ما تقدمي فيه.

وظلــت تلــح عليها حتى تركــت ما لديهــا وأخذت تسعــى في استكمال الأوراق وتقديمهــا، ثم أخذت تنتظر امتحــان القبول حتى نسيت الأمر، وتحولــت عضويتهــا في النقابة من الجدول العــام إلى الجدول الابتدائي، حينها تم تحديد موعد لاختبــار شفاهي، لم تعرف ما الذي أصابها بالتوتر حين علمت بالمقابلــة الشفاهية، وظلت تسأل نفسها عما يمكن أن يختبروها فيــه، في النهايــة أشعلت شمعــة أمام أيقونــة العذراء مطالبــة إياها بنصر الضعفــاء، وحين لمحت أيقونة القديسة دميانة تبتســم لها هدأت أعصابها، ومالت إلى صندوق الشموع والبخور وأشعلت لأجلها قائلة:

- بركاتــك يا قديســة دميانة، أشعــل دستة شمع وأطعــم عشرة فقراء لأجلك.

حين ذهبــت إلى الاختبار شعرت بثقة كبيرة بأدائها، حتى أنها فوجئت بأن أحد المستشارين نهض من مكانه وشد على يدها وكأنه يهنئها، فربطت ذلك كله برضــا القديسة دميانة عنها، كانت في ذلك اليوم مؤمنة أكثر من

أي يوم آخر، وعادت تحكي لأمها عما حدث، مطالبة إياها بإشعال الشموع وإطعام الفقراء العشر كي لا تغضب دميانة عليها، لكن تريزا التي لم تكن تمتلك ثمن الشموع قدمت مشيئة الرب، وربَّتت على كتف ابنتها قائلة:

– أنت مؤمنة، وربنا لن يتركك.

كان عليها أن تنتظر نحو عام كامل قبل أن تظهر النتيجة، لكنها في كل يوم يمر كانت تشعر أن نظرات القديسة دميانة ستخرج من أيقونتها لتحرقها في صالة البيت أو غرفة النوم، وباتت تشعر أنها مذنبة ولا تستحق عطف القديسين عليها، وتأكد لها الأمر حين لم تجد اسمها في كشوف المقبولين، وحين خسر سعد الله خليل قضية كبيرة شعرت أنها السبب، فعدم رضا القديسة يطاردها في كل ما حولها، وزاد الأمر صعوبة حين تحرش بها أحد زملائها في العمل.

كانت يومها تبحث في غرفة الملفات عن أوراق قضية قديمة، ودخل يوسف حنا بحجة أنه سيبحث أيضا عن قضية أخرى، لم تفكر تجاهه في شيء، وتعاملت معه على أنه غير موجود، وانهمكت في البحث واستخراج ملف من درج الشنن العتيق، رأى يوسف أن الفرصة مواتية لشحن نفسه عاطفيًا، فتسحب من خلفها مدعيًا أنه يسعى للمرور إلى الجانب الآخر، وآن عبوره مد يده على ردفها، لكنها تعاملت على أنه خطأ غير مقصود، فتغاضت عن الأمر والتزمت الصمت، اعتبر يوسف ذلك دعوة للتمادي الصريح، فدفعها نحو الدولاب وضغط جسدها بجسده، وسرعان ما التفت يده لتقبض على ثديها، لكن على غير ما توقع فاجأته دميانة بصراخها، ثم سرعان ما أهالت عليه الملفات كما لو أنها تقذف الشياطين، يومها خرج زملاؤها من مكاتبهم وأخذوا يهدئونها، لكنها كانت قد دخلت في نوبة من البكاء والتشنج، ونزلت من المكتب ولديها شعور بأنها تعرَّت أمام الجميع، وأن النجاسة طالت كل ذرة فيها.

ورغم أن سعد الله خليل طرد يوسف من العمل في مكتبه، وأن أمها باعت كنبة الصالون ومنضدة المطبخ كي تشعل الشموع للقديسة وتطعم

الفقـراء العشـر، لكنها لم تفلح في طرد شعورها بغضـب القديسين عليها، ولا تطهيرها من فكرة النجاسة التي لحقت بها، وظلت تنظر للرجال على أنهـم طحالب لزجة، ودخلت في نوبـة اكتئاب رفضت خلالها العودة إلى العمل، ولم تخرج منها إلا بعدما وفَّرت لها تريزا فرصة العمل محقِّقة في بعض الكنائس والأديرة.

كانـت تريزا قد شعرت بالذنب تجاه ابنتها، موقنة أن تأخرها في إنجاز نذرهـا للقديسة دميانة كان السبـب في كل ما جرى لها، وظلت أيامًا تفكر في مساعدتها على الخروج مما أصابها، في النهاية فكرت في اللجوء لواحد من أصدقاء زوجها صلاح متري، هؤلاء الأصدقاء القدامى الذين جاءوا إلى هذا البيت وأكلـوا وشربوا فيه مرات عدة، فارتدت ملابس خروجها وذهبـت لواحد منهـم، كان يعمل في دير خارج حـدود العاصمة، يومها استقبلهـا الرجل كسيدة ذات أفضـال عليه، واستمع لهـا بهدوء ومودة، مبديًا حزنه لما تعانيه دميانة، ثم أوضح أن الكنيسة ليس بها إدارات قانونية كي يتم تعيينها فيها، فالتحقيقات دائمًا ما يقوم بها المجلس الملي، لكن بعض رؤسـاء الأديـرة والكنائس يسعون لتحـري الدقة قبـل أن يرفعوا الأمر للمجلـس، فيستعينون بشخص له خبرة في أمـور التحقيق كي يساعدهم، يحيلـون له مذكرة بالمتَّهمين وهو يجلس ليحاصرهـم بأسئلته حتى يتوصل إلى صـورة واضحة ينقلها إليهـم، فيرفع إليهم مذكرة بهـا توصياته التي يحق لرئيس الدير أو الكنيسة أن يأخذ بها أو يرفضها، فهو صاحب السلطة الروحية علـى المكان، وهو الذي يقرر العقوبات الصغيرة: الحرمان من الصلـوات أو التناول، لكن إذا كان الأمر يستحق أكثر من ذلك فلا بدَّ من رفعه للمجلس.

أمضـت دميانة عشر سنـوات من العمل في كنائـس وأديرة قريبة من القاهرة، كانـت تحقق مع من تحال بشأنهم مذكـرات اتهام لها، فتنصت إلى أقوالهـم وتحاصرهـم بأسئلتها، حتى تصل في النهايـة إلى الحقيقة من أفواههـم، فتكتـب مذكرتها وتوضـح توصياتها بشأنهم، وعـادة ما كان

رؤساء الأديرة يأخذون بما توصي به، فقد أظهرت موهبة كبيرة في التحقيق مع الرجال، كما لو أنها ولدت من أجل أن تحاصر أفكارهم، وتكشف عما يعتمل في رءوسهم، مما يجعلهم يعترفون بما فعلوا وبما كانوا يخططون لفعله، كانت تحفظ قوانين الرهبنة مثلما تحفظ القانون المدني، وتتابع بشغف ما يجري من تحقيقات في المجلس الملي، وما توصل إليه محققون آخرون من طرق لاستخراج الحقائق من بطون الرهبان، كانت تشد الرحال بالأميال إليهم، فتسأل وتتقصَّى وتعرف، وتضيف إلى معارفها معارف جديدة، حتى بدت كما لو أنها وهبت نفسها للتحقيق مع الكهنة والرهبان، فنسيت قطار الزواج الذي توقف عن المرور أمام بيتها، فقد شاع في مجتمع الخاطبين أنها تمارس عملها على من يتقدمون لزواجها، فكل خطيب لديها متَّهم إلى أن تثبت براءته، وكل براءة ليس لها طريق غير الهروب من أمامها.

لا تعرف دميانة إن كان أنطونيوس هو القدر الذي خبأته السماء لأجلها كل هذه السنوات أم لا، فقد ظلت تشعر أنها تخلصت من فكرة الجسد ورغباته، حتى عرض عليها أسقف التحقيقات في الكنيسة أن تلتحق بدير جبرائيل الملاح، حدثها عن قداسة إيمانويل الطيب، وتمسكه بأن يستعين بها، حدثها عن المكان وتاريخه وارتباطه المباشر بالكنيسة الأم رغم بعد المسافة بينهما، وأن الأمر لن يستدعي وجودها أكثر من يومين، يوفر الدير خلالهما إقامة ووسيلة انتقال.

حين حدثت تريزا عن الأمر أخبرتها الأخيرة أنها لم يبق لها في الدنيا الكثير، وأن عليها أن تفكر من الآن في مستقبلها جيدًا، فظلت تفكر حتى اتخذت قرارها بأن تجرب العمل معهم لمدة شهر، لكنها لم تتخيل أنها ستبقى نحو ثلاث سنوات في هذا المكان، فقد شعرت بأبوة حقيقية من قبل إيمانويل الطيب تجاهها، شعرت كما لو أن صلاح متري بعث من جديد لينظر في عينيها ويربت على كتفها، وكأنه يطلب منها البقاء معه من أجل حمايته على الأقل، فتوالت الأيام وهي في الدير، تسمع بأخبار كل من

بــه ولا تلتقي بأي منهم، سمعت بأنطونيوس المقرب من إيمانويل الطيب، وأدهشهــا مــا تردد عن أنــه رأى المسيح في يــوم ما، مثلمــا رأى أستاذه إيمانويــل العذراء في كوة بجدار قلايته، ولم تتوقــع يومًا أن تجده أمامها متهمًا في قضية أشبه برأس مسمار يطل من جدار صخرة في جبال القلزم، شعــرت أن آلاف الشعــيرات تحترق في ذهنهــا دون أن تدري لأي قدر أتت لهذه الهضبة القاسية، زفرت بحرقة في الهواء المتراكم أمام أنفاسها، مستحضرة نظرة أنطونيوس وهو يلقي بعينيه على جسدها الخامل فتشتعل فيه النيران، وتسقط عنه مئــات التمائم والأسوار التي حصَّنتها بها، فهل آن الأوان أن ترفــع القديســة دميانة عنها غضبهــا، أم أنه الشيطان الذي نشط في نسج حبائله كي ترى قاطع الطريق في صورة ملاكها الحارس.

-١٧-

للكنيسة سبعة أسرار: المعمودية والميرون والتناول والاعتراف ومسحة المرضى والزواج والكهنوت. لكل سر كاهن كبير، ولرئيس الكنيسة أن يأتمن من يراه مؤهلاً للحفاظ على الأسرار المقدسة، هكذا دارت الدورة وخرج باخوميوس الحباك من منصبه لصالح كاهن الحراسة والتأمين، هكذا تأكد أنطونيوس أن الدير سقط في يد يوساب ورجاله، فلأكثر من خمسة عشر عامًا كان باخوميوس هو المسئول عن الاعترف، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من موقعه أو التشكيك فيه، لم يجرؤ أحد على الزعم بأنه أذاع سرًّا واحد لأي من المعترفين، خمسة عشر عامًا وباخوميوس صاحب الرحمة التي ينشدها الجميع، ينصت ويبتسم ويغفر باسم السيد المسيح، لكن الأيام تغيرت، ويوساب أصبح صاحب السر، وفي حجره تسقط جميع الأسرار، يمكنه أن يستغلها كما يشاء، ويمكنه أن يفعل بأهل الدير ما يشاء.

كان أنطونيوس يحدث نفسه كما لو أنه يقذف الهواء بالأحجار، فقد ضاقت الدنيا في عينيه، ولم يعد له من يأتنس به، كل الذين أحبهم تساقطوا واحدًا تلو الآخر، صار الدير غريبًا على خطاه، كما لو أنه زرع له فجأة بالشوك والحصى، تذكر آلام المسيح وأوجاعه، وكيف جمع تلامذته حوله وقسم خبزه ونبيذه بينهم، كيف أخبر يهوذا أنه مسلِّمه، وأخبر بطرس أنه سينكره قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وتساءل أنطونيوس إن كان ما يحدث له مسحةٌ من الآلم التي يشتهيها كل من يرجو أن يكون به نفَس من أنفاس المسيح، أم أنه درب من التيه الذي سقط فيه بنو إسرائيل، لأنهم رفضوا ما قدره الرب عليهم.

تطلع إلى ضوء النجوم المتناثرة في صفحة السماء الصافية، كان ضوء القمر ينزل على الأرض ليكسوها بحلة فضية رقيقة، سمع صوت كلاب

تنبح في مواجهة ذئب يعوي باتجاه الجبل، عادة ما تتسرب الذئاب للمكان طالما غفلت عنه الحراسة، لذا حرص الآباء منذ زمن سحيق على تربية الكلاب وتدريبها، كثيرًا ما أربكت صفوف اللصوص وقطاع الطرق، ونبهت القلوب لخطوات فرق عسكرية أتت لنهب المكان ومن فيه، لكنها كثيرًا ما فشلت في مهامها مع الذئاب، لأن ذئبًا واحدًا يمكنه أن يهزم قطيعًا من الأوفياء، فتكفي رائحته التي تصيبهم بالاشمئزاز، وشعره الذي يوقف أسنانها عن العمل، ولولا الحراسة اليقظة على الدوام لعاثت الذئاب في دير الله.

أغلق باخوميوس قلايته على نفسه منذ أبلغوه الخبر، وأخذ في إعادة قراءة الكتاب المقدس، كان ضوء المصباح الكهربائي ضعيفًا، لكنه يفي بالغرض، والعدسات التي صنعها طبيب عيون زار الدير منذ سنوات لباخوميوس ساعدته على الصلاة والتأمل أكثر من القراءة، حين طرق أنطونيوس بيده الكبيرة على الباب الصغير انتفض باخوميوس عن كرسيه كما لو أنه كان موقنًا بأن ثمة من سيجيئه، حين تذكر أن الأمر ليس على هذا النحو صرخ مرتين بصوت متردد على الطارق، وجاءه الصوت متوددًا:

- أنا أنطونيوس.

مر وقت في أسئلة أنطونيوس عما يرغب في شرابه، وهل هو في حاجة إلى طعام أم لا، وكيف مر اليوم معه. وما الذي جرى في التحقيق، كان أنطونيوس يرد باقتضاب كمن ينهي خطوات لا بدَّ من قطعها للدخول إلى الباحة الكبيرة، لكن لحظات الصمت بين الإجابات والأسئلة كانت ثقيلة، وكان أنطونيوس ينتظر من باخوميوس أن يفاتحه فيما حدث، وفي النهاية نظر قائلاً:

- ذهبت للاعتراف فلم أجدك.

هز باخوميوس رأسه في حزن مستسلمًا:

- طلبت من الأب جورج أن يعفيني، فقد اعتلت صحتي، ولم أعد قادرًا على النهوض بأعباء السر المقدس.

توجه أنطونيوس نحو النسخة المفتوحة من الكتاب الذي أمامه، وأخذ يقرأ من الأصحاح الأول في سفر أشعياء:

"اسمعي أيتها السماوات وأصغي أيتها الأرض، لأن الرب يتكلم: ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا علي، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء".

لم يتوقف أنطونيوس إلا بعدما نهض باخوميوس من مكانه والتقط الكتاب من بين يديه:

– كفي يا بني، فهم يعرفون طريقهم.

كانت عين أنطونيوس تتَّقد كجمرة في موقد مشتعل، كان الغضب يأخذ به كل مأخذ، لكنه لا يعرف كيف يتصرف، وكل ما حوله ينهار ويتداعى، كل ما بناه الأب إيمانويل يتساقط من حوله، ذلك العالم المتسامح الذي آمن به وأتى خلفه لم يعد كما كان، ثمة لون من الحمرة يزدادُ كل يوم، كما لو أن الدير يتَّخذ لنفسه حلة جديدة، ماذا يحدث، ولمَ كل هذه السرية فيما يحدث! نظر في وجه باخوميوس قائلاً:

– في طريقي إلى الدير كنت أحمل سلاحي على كتفي، كان سلاحًا قديمًا لكنه لم يخذلني يوما، حين وصلت إلى الهضبة ونظرت إلى قبابها البيضاء وسمائها الصافية خجلت أن أدخل بيت الله ومعي سلاحي، فخلعته عن كتفي وحفرت في الرمل ودفنته بيدي، كنت أعتقد أن صحبة المسيح تغني عن مواجهة الوحوش، لكنني كنت مخطئًا، لأن الوصول إلى المسيح يلزمه الانتصار على كل الوحوش.

يتمتع باخوميوس ببعض السمنة والروح المرحة، يتمتع أيضًا برحابة صدر واستسلام خالص لإرادة الرب، لا يعتقد من يعرفه أن الغضب وصل في يوم إلى قلبه، منذ دخل هذا الدير ولم يغضب مرة، سنوات طويلة مضت عليه في المكان، مرات قليلة التي خرج فيها منه، إحداها

كانت بصحب إيمانويل الطيب، كانت الكرازة قد رفضت طلب آباء الدير إدارج اسمه في قائمة القديسين، غير معترفة برؤيته للسيدة العذراء، ولا كراماته التي بدأت من شفاء المرضى إلى تحويل قطع من الجبل عن مكانها، كانت كراماته واضحة للكل، لكنهم رفضوا الاعتراف بها، فقرر إيمانويل منعًا للحرج أن يخرج في رحلة للبحث عن الغزالة الشاردة، هكذا قال، نظر الآباء في الدير بعضهم إلى بعض كما لو أنه أصيب بالجنون، لكنهم تعاطفوا معه، فأحضروا عربة تقله إلى السويس، ومنها بدأ جولة طويلة على مختلف الكنائس والأديرة، لم يقل لهم ماذا حدث، فقط كان يسألهم أن يستضيفوه ليصلي للشهداء والقديسين. كان باخوميوس في صحبته طيلة تلك الجولة، عام ونصف وهما يدوران على أديرة من الشرق إلى الغرب، ومن كنائس الجنوب إلى كنائس الشمال، جابا القُطرَ كله بحثًا عن الغزالة الشاردة، لكن باخوميوس الذي لم تسعفه رشاقته في المزيد من التجوال بين القرى والنجوع قرر العودة إلى الدير.

كانت هذه واحدة من المرات القليلة التي خرج فيها، لكنها كانت الأطول، فما حدث فيما قبل أو بعد لم يزد عن زيارات لأديرة لا تتخطى أسابيع أو بضعة أشهر، ومرة خرج يبارك ويصلي في بيوت أهل القرى القريبة، لكنه في العموم كان يحب العزلة والتأمل، يجلس في قلايته بالأيام يحبك حبالاً من الليف وهو يترنم بالأسفار والأصحاحات، قيل إنه تعلم حبك الليف صغيرًا بين أهله في بدو سيناء، وأنها ظلت حرفته في كل مكان نزل به، فعرف بين الرهبان بالحباك، ورغم وداعته مع الجميع فلم يكن له أصدقاء سوى إيمانويل، ويوم تنيُّحه جلس على الأرض رافضًا الكلام، وظل ستة أشهر يبكي في قلايته، حتى ذكَّره أنطونيوس بأن الله كلفه بسر فلا يهمله، فنهض من مكانه ليستقبل اعتراف النادمين على أخطائهم.

وحده أنطونيوس الذي نال اهتمامه ورعايته، فقد أدخله إيمانويل الدير، وطلب منه أن يجعله شماسًا في معيته، فتعلم منه اللغات القديمة، وتعلم من أنطونيوس فلسفة اللاهوت، وبحث في سِير المهرطقين وأفكارهم، وقدم رسالة عن التصورات التي بنوا عليها رؤاهم. كان

إيمانويل يهتم بأمر أنطونيوس كابن له، واعتبره الهدية التي لا يملك سواها كي يأتمن صديقه الأبدي عليها، فصار مرشده الروحي، ووالده في العماد الجديد، وكان الجميع يعتبره جوهرة الدير، لكن الزمان تغير، كبر باخوميوس وتنيح إيمانويل، وأخذ البعض يسعى للتحرش بذلك الذي يعتبرونه لغزًا، ولا يريدونه أن يبقى بينهم، فهل حمل سر إيمانويل في قلبه؟ أم أن إيمانويل هو الذي حمَّله كل هذا الإرث؟

كانت النجوم قد خفتت في السماء، وأخذت ظلال غيوم تتهادى على وجهها، ليس هناك ما يوحي بتغير كبير، لكن الضوء الفضي للقمر تكاثرت عليه السحب من كل جانب، أخذ أنطونيوس بشكل غريزي يستكشف كل ما حوله على الهضبة، على البعد رأى أشباحًا تتقافز بين صفوف القلالي، وتعبر ساحة الدير إلى الجانب الآخر، حيث سفح الجبل ومخزن الكتب ومناطق الورش ومبنى الضيافة، شعر أن شيئًا يدور في المكان، وأنه في حاجة الآن لسلاحه كي يأتنس به، وبغريزة المطارد أخذ يخث الخطى خلفهم، متواريًا في الجدران والظلال، مقتربًا منهم وهم يحفرون ليدفنوا شيئًا في الأرض، شيئًا ثقيلاً تعاونوا جميعًا على حمله بحرص وانتباه شديد.

وقف على البعد يرقب ما يجري، موقنًا أن الدير لم يعد مكانًا آمنًا، وأن ثمة خفافيش تتقافز في الظلام، ضرب بيده من الغيظ على قطعة من الصخر المتآكل فانهارت، وأحدثت صوتًا نبه الخفافيش إليه، رأى أصابعهم تتبادل الإشارات في اتجاه القلالي وسفح الجبل وبوابة الدير، رأى ثيابهم وأقنعتهم السوداء، وحركاتهم السريعة وأطوالهم الواضحة، رآهم وهم يتقافزون في الظلام باتجاهه.

لم يكن أمامه سوى أن يترك لقدميه العنان، كان يقفز من بين الصخور كما لو أنها بيوت واطئة، ويسارع مجاهدًا نفسه كي يستعيد لياقته القديمة، في سباقه مع النور والظل المنبعثين من إطلالة قمر متوار خلف سحب داكنة، رأى على البعد دميانة وهي تسير في طريقها نحو قلاية المنحني، لم يستطع أن يتمالك نفسه من الصراخ عليها، دون أن يعرف إن كان

يستنجـد بها أم ينبهها للخطـر الذي يحيط بهـا، وكان الجبل يردد صدى نداثه من خلفه بفزع:

– دميانة... دميانة!

لكنه لم يستطع أن يكمل ما أراد قوله، فقد وقف في مكانه فجأة، وانبثق شريـان دم من رأسه، ليغرق لحيتـه وملابسه ووجهه بالدماء، ثم يسقط في مكانه مغشيًّا عليه.

-١٨-

في الوقت الذي نشط فيــه أبانوب لبناء الكنيسة التي أرادها ديمتريوس الصغــير في دير الملاح؛ كان رفائيل السكندري قــد حمل رحله على كتفه وخطا أولى خطواته نحو الشمال، سار بحذاء الجبل إلى أن وصل إلى دير الأب أنطونيوس، فدخله لنيل بركاته والتزود بأخبار الرومان وأفعالهم، بعدهــا انطلق إلى كلسيما، حيث يلتقي البحــر باليابسة عبر الخليج الفاصل بينها وبين أرض الفيروز، فقضى في ضيافة رهبان أحد أديرة المدينة عدة أيام، استرد خلالها أنفاسه وتــزوَّد بالأخبار والخبز وبعض الشروحات والرسائــل، كانت كلسيما قد بدأت تنتعش كميناء على رأس البحر المؤدي لبــلاد بونت، وكانت المنطقة قد أصبحت مركــزًا لجذب الرهبان الباحثين عن التوحد بالرب، استمع رفائيل لحكايات الرهبان عن المدينة وصحرائها وبحرهــا، موقنًا أن الجن والملائكة والحيوانــات والبشر يعيشون جميعهم في عالم واحد، دون خلل في نظامه.

حــين انتهــت ضيافته حمــل رحله من جديــد وفتح خطــاه نحو حصن بابليون في منف، ومنه انطلــق نحو صومعة الأب مقاريوس في صحراء الإسقيط، فاستراح في ضيافة بعض الرهبان الذين نزلوا بجانبها، وتزود مــن أخبارهم وبركات قديسيهــم وشهدائهم، ثم أكمــل طريقه نحو المدينة العظيمــة في الشمــال، رحلة طويلة كان من الممكــن ألا تستغرق أكثر من أسبوعــين أو ثلاثة، لكنها امتدت لعدة أشهر بسبب الظروف غير الآمنة، فرغــم أن قسطنطين أعلن أن المسيحية دين البــلاد الرسمي، وأعلنت أمه هيلانة أنها مسيحية، وأمرت ببنــاء كنيسة كبيرة نقلت إليها رفات القديسة المصريــة صوفيــا، إلا أن ذلك لا يعني أن العداء ضــد المسيحية قد انتهى، فضلاً عن الذئاب والسباع وقطاع الطرق الذين لا رادع لهم.

أسلم رفائيل أمره للرب، داعيًا لبؤة الملاح أن تحميه من الأسود والذئاب، ويحميه جبرائيل نفسه من الفتنة التي اجتاحت البرية، فقد استعر الخلاف حول قبول المعترفين أم رفضهم، كان الرافضون من أتباع ميليتوس يرون أنهم أنكروا المسيح ولا يحق لهم العودة إلى شركة الكنيسة، ونشطوا في محاصرة بطرس الأول وأتباعه قبل أن يقنعوا الناس بقبولهم، وسرعان ما نزل ميليتوس برجاله فرسم قساوسة في الإسكندرية، وهو ما اعتبره بطرس تعديًا على سلطاته، فأنذره مرة وأخرى، ولما لم يستجب له أعلن حرمانه، فرد ميليتوس هو الآخر بخلع بطرس وحرمانه، واختلف الناس ما بين هذا وذاك، وانتشرت الفتنة في البر كله.

كان رفائيل ينصت ويتذكر وصية ديمتريوس الصغير:

– لا تكن فصيحًا بين الذئاب.

قالها وهو يودعه قبل نزوله من مخرِّ السيل، فظلت ترنُّ في أذنه طيلة رحلته التي استمرت لسنوات طويلة، وما إن عبرت أول قافلة من صحراء الإسقيط حتى خرج معها إلى الإسكندرية، تلك المغلقة على الرومان واليونان واليهود وقلة من أبناء كيمت، تحدث إلى الجنود الواقفين على البوابات باليونانية والعبرية، فعلموا أنه أحد أبناء اليهود، فتركوه يدخل متسكعًا في شوارعها ودروبها، مستمتعًا بروائح اليود المنبعث من البحر إلى وجهه، وقد اشتد به الشوق لشارع البحر، فأخذ يمشي على شاطئه دون أن يفكر في الذهاب إلى بيته، فأن يعتقد والده أنه مات أو قُتل في غارة للبدو أو تجريدة للجند خيرٌ ألف مرة من أن يطالبه بالعدول عن إيمانه بالمسيح.

في النهاية عبر المكتبة التي بنيت بديلاً عن المكتبة القديمة الشهيرة، التي تمددت بثقلها الكبير الجديد إلى جانب بيت الحاكم، عبر بهو مدرسة الميوزيوم التي أصبحت جزءًا من محيط المكتبة، معلنًا لحارسها اسمه واسم أبيه سائلاً عن كيفية الالتحاق بحلقات الدرس فيها، وما إن علم بالشروط حتى عبر من جديد شارع البحر إلى الشارع الذي يقف بيت أبيه على ناصيته، ليرتمي في أحضان أمه معتذرًا عن هروبه وغيابه.

-١٩-

لم يسأل أنطونيوس الراهبَ إيمانويل عن كيفية صعوده إلى مغارته التي على الصخرة، لكنه ألح عليه في معرفة ما جرى لشيخ البلد، وكلما رسم إيمانويل ابتسامةً على وجهه تصاعد غضب أنطونيوس، حتى أنه شد أجزاء بندقيته مهددًا إيمانويل بإطلاق النار عليه، حينها نظر الراهب نحوه نظرة غضب، لم يعرف أنطونيوس ما الذي جعله يرتجف منها، وشعر أن ذراعه لم تعد قادرة على حمل السلاح، فوضعه إلى جانبه ورفع يديه مستسلمًا، فضحك إيمانويل وزال السحر عن أنطونيوس، يومها أخرج ما لديه من خبز ليباركه له إيمانويل، وبدا أنه يسخر من الرجل ومهنته وزيه، لكنه من الداخل كان ممزقًا بين التصديق والإنكار، فمنذ سنوات وهو يعيش في هذه المغارة، الكل يرغب في بقائه على نقيض ما يدَّعون في مطاردته، فجميعهم يحبون ملاك الموت حين يأتي لغيرهم، لكنهم لا يرغبون في التحليق معه.

كان أنطونيوس قد لجأ إلى هذه المغارة بعدما قام بعض الجهاديين العائدين من أفغانستان بفرض الجزية على مسيحيي قريته، لم تكن حملتهم أكثر من إعلان خروج، لكنها بالنسبة لأنطونيوس وأهله كانت كل شيء، فقد هُددوا في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وذكِّروا بماضٍ لم يرغبوا في عودته. كانت الحرب الروسية الأفغانية قد انتهت، ولم يكن أمام المجاهدين العرب هناك سوى أن يعودوا إلى بلدانهم، فعاد أحدهم إلى قرية مجاورة لقرية أنطونيوس، وعلى الهامش بين القريتين اتخذ لنفسه كوخًا وكون خلية من الطامعين في الجهاد لنصرة الله ودينه، ولم يكن هناك أفضل من جهاد الكفار، وردهم لما كانوا عليه في زمن الخلافة الرشيدة، فجمع رجاله وخرج بهم يدق أبواب الأقباط، لم تكن بيوتهم تزيد عن عشرين في القرية، بعضها متجاور وأغلبها متفرق، فاستيقظوا

في منتصـف الليل علـى نحو عشرة رجال بلحى طويلـة وجلابيب بيضاء قصيرة، بينما أميرهم يصرخ:

– اليـوم هو الإعلان... وبعد أسبوع التنفيذ، فإما خمسون جنيهًا عن كل رأس، وإما الهجرة أو الموت.

كان الاعـلان مفاجئًا لمن استيقظوا ليجدوا أنفسهم في مواجهة الحرب، لكنهـم لا يملكون قدرة على التفوه بغـير الموافقة، قلة حاولت أن تستفهم، واعتـبر الأمير ذلك نوعًا من الجدل، فأنهـاه بضربتين من طرف عصاه على الباب معلنًا:

– الأسبوع القادم... إما الجزية وإما الحرب.

حتـى تلك اللحظة لم يكن أنطونيوس يعلم بما يجري، فقد خطفته المدينة مثلمـا خطفـت الكثير من أبناء القرى، كان حظـه في كلية الآداب، لكنهم لم يسمحـوا لـه بدخول قسم اللغـة العربيـة، فتحمل قـدره ببساطة وقدم أوراقه لقسم الاجتماع، كان من المفترض أن تكون دراسته عن الأرامل والمطلقات حسبمـا كان يعتقد، لكنه فوجئ بأنه يدرس نظريات الفلاسفة وتطبيقاتهـا في الواقع، ومثلما جذبته الدراسـة في القسم الذي لم يتوقعه، كذلـك جذبته المدينة التـي لم يتعرَّف عليها من قبل، جذبتـه الأسر الثقافية والرياضيـة في كليته، لكن فريق الكشافة لم يرحِّـب بوجوده، فقد سيطر عليـه إسلاميـون، ومزجوا بين النشاط والطقوس الإسلامية من خطب وصـلاة وصوم وغيرهـا، ولم يكن من السهل أن يفرض نفسه عليهم، تكـرر الأمر في انتخابات اتحاد الطـلاب، ووقف الجميع يسخر منه حين لم يحصـل إلا على صوته، مما جعله يرحب بالانضمام إلى فريق الكشافة القبطي، لم يكن فريقًا بالمعنى المعروف، لكنه كان أقرب إلى جماعة سرية يتم اختيار أعضائها للمشاركة في أعمال خيرية، كمساعدة رهبان الأديرة في عملهـم، أو الوقـوف على أسـوار الأديرة في الصحـراء لحمايتها من اللصوص، وهـو الأمر الذي كان يستدعي اختيار ذوي القامات الطويلة من أمثاله.

في نهاية العام الدراسـي الثالث كان عليه أن يعود لزيارة أهله قبل أن يبـدأ عمله في بار مـن الدرجة الثالثة، عملٌ وفره له والـد أحد أصدقائه،

لكنه ما إن طرق باب بيتهم حتى انهارت أمامه أمه من البكاء، فقد هددهم المسلمون بالجزية أو الطرد أو القتل، أخذها في حضنه وهون الأمر عليها مؤكـدًا أمام أبيه أن هؤلاء مجموعة مـن قطاع الطرق، والقانون سوف يلزمهم عنـد حدودهـم، ودارت المناقشات في بيوت الأقبـاط عما ينبغي عمله، أغلبهم كانوا يتحدثون بعجز وقلة حيلة، وبعضهم كان متشددًا وهو يعلن أنه سيقتل من يقترب من بيته، وكان أنطونيوس يشد من عزم هؤلاء ويهـدئ من روع هـؤلاء، وفي الصباح التالي اصطحـب ابن عم له إلى مركز الشرطة ليحرر محضرًا بالواقعة ويطلب منهم حماية الأقباط، فأكد له الضابط أن أحدًا لا يجرؤ أن يؤذي مواطنًا في القرى التابعة لمركزه.

خرج أنطونيوس من مركز الشرطة كبطل قومي مثقل بالنياشين، لكنه بمجـرد وصوله لقريته خسر كل شيء، حتى تعاطف الضعفاء الذين قرر أن يحـارب من أجلهم، فما أن ترجل هو وابن عمه من العربة التى تقلهما حتـى ظهر له الأمير بصحبة عدد من رجاله، ووجدها أنطونيوس فرصة ليعلن على مسامعه أن الأقباط في حماية الدستور والقانون، يومها صفعه الأمير علـى وجهه، وأعطى أوامـره لرجاله بأن الـذي سيجمع الجزية بنفسه هو ذلك البطل المغـوار، واليوم وليس في الأسبوع القادم، وتحت وطأة الصفعات التي نالها أنطونيوس أصبح خرقة بالية في أيديهم، فكانوا يجذبونه مـن أمام كل بيت إلى الآخر، كي يطرق الباب إلى أن يفتح أهل البيت، ويسألونه عما يريد، فيرد بأنه جاء لتحصيل الجزية المقررة، هكذا مـروا على بيوت الأقباط جميعًا في قريتـه، بما فيهم بيت أبيه وأمه اللذين ماتـا كمدًا في ذلك اليـوم، وفي النهاية أصدر الأمـير أحكامه أمام الجميع بربـط أنطونيوس في أحد أعمدة النور، وجلده أمام الجميع عشرين جلدة على الأقل، ثم طرده خارج القرية.

هكـذا وجد أنطونيوس نفسه أمام عواء الذئاب ونباح الكلاب وحجارة الأطفـال والسفهـاء. لم يكـن أمامه سـوى أن يجـر أقدامـه ليخرج إلى الصحـراء دون أن يعرف إلى أيـن، كان يأمل أن يصل إلى قرية أخرى قبل أن ينـزل الليل، لكن قواه خارت وسقط علـى وجهه مستسلمًا لقدره بأنها النهاية.

-٢٠-

رسائل أوريجانوس (٢)

تلميـذي وصديقي البابا ديونسيوس، أنا الآن أتذكر ما جرى لي طوال سنواتٍ مضت، كما لو أن قطيعًا كبيرًا من الغزلان يمر أمام عيني، بعضه منتظـمٌ وبعضه شارد، لكن الكل في النهاية يسير كخيط طويل لا ينمحي، أتذكر ما كانت تحكيه أمي عن أن أبي كان يقف بجانبي وأنا نائم، فيعري صدري وينظـر إليه كأن الروح القدس ينام فيـه، وذلك لحفظي للكتاب المقدس كله في هذه السـن، كان شغفي بالتعلم مثـار دهشة للجميع، كنت أشعر كأن نهـرًا ينساب من السماء ليصب ماءه العذب في رأسي، لم أكن أعيـد قراءة قرأتها، فقد انطبعت على ذهني كأنها نقش على صخر، لذا لم أندهشـ مما قالته، كما لو أنها أكدت لي ما هـو مؤكد، لكنني تيقنت أن ما أفعله وما أقوله وما أصل إليه من رؤى ليس من عندي، لكنه من السماء، تلك التي لو أرادت أن يجف نهرها من صدري لفعلت، وحتى الآن أشعر أنني لدي الكثير الذي يريد أن يتدفق نحو الخارج، وأن يصدر على هيئة تفسيرات ورسائل وعظات، أعلم أن البعض يرتبك من تفسيراتي، لكنني ما جئت بها عن هواي، وما تحدث الملاك الذي في صدري بوضوحٍ أكثر من هذا، ما أفسره رمزًا الآن قد يأتي غيري غدًا ليجلو رموزه.

كان ومـا زال هـذا اعتقـادي في تفسـير نصوص الـرب، فلا يمكن التعامـل مع ما يقوله الرب كما نتعامل مع ما نقوله في حياتنا اليومية، تلك المليئة بالتفاصيـل، والتي لا بدَّ من الوضوح الحازم فيها، حياتنا الفانية لا يمكن أن تكـون كحياة الإله، وكلماتنا ليست ككلماته، ولا عشقنا كعشقه، أو أبديتنـا كأبديته، الفارق واسع بين الرب القادر صاحب الاختيار وبين

العبيـد الضعفاء من أمثالنا، وعلــى الكنيسة أن تنتبه إلى هذا الفارق، حتى وإن اختــار الرب أن يمضي جانبًــا من أبديته بيننــا، وفي حياتنا الفانية، فصور الرب جزء منه، واختياراته ككلمته، كلاهما لا ينفصلان عنه.

يــا للهول يا صديقــي، هأنا أعود للرمز من جديـد، أعود للحديث عن التفسير والإيمان القويم، متناسيًا أنني أكتب لك من أجل أن أعترف، نعم صديقي أنا أريد أن أعترف، لذا أرجو أن تعتبر ما أكتبه إليك الآن هو نوع من الاعتراف، أرجــو أن تقبله مني، فضعفي وعجزي الآن لا يسمحان لي أن أقطع المسافات إليك، وأوقن أنك ستصعد فوق قدس الأقداس رافعًا اعترافي قائلاً (يـا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف عبـدك الصغير أوريجانوس، واغفر له جميع خطاياه من أجل اسمك القدوس الذي دعا علينا، كرحمتك يا رب لا كخطايانا).

نعــود إلى طفولتي يا صديقي، فقد كانت الإسكندرية تلك المدينة البديعة محصَّنة بالجنود من كل اتجاه، كان الرومان يرونها الجنة التي عليهم أن يحموها من دخول الأشقياء في الأرض، وكانت بالفعل مدينة الله، وجنته التي حوت من كل شيء، كان جمالها باهرًا، ورخاؤها عميمًا، كلُّ شيء فيهــا كان بهيًّا، والدعوة إلى الله تنتشر بخفة سحابات صيف، كان والدي ليونيدســ حريصًا علــى تعليمي في مدرسته اللاهــوت، وذاع صيتي بين الطلاب كواحد من أفضل المتعلمين، وظن أبي أنه سيجلس في يوم مفتخرًا أننـــي رئيســ هذه المدرسة، لكن هــذا اليوم وإن جاء فــإن أبي لم يشهده، فقـد أراد الرب أن يختبرنــا جميعًا، أراد أن يضعنا تحــت مقصلة الصبر علــى ما نكره ومــا لا نريد، إذ صعـد لعرش رومــا سبتيموس الطاغية، ولأن الإسكندريــة درة التاج فقد قرر أن يزورهــا، ويقدم على مذابحها الأضاحــي للآلهــة، وصحبه الوالي في عجلته الحربيــة ليجوب شوارعها الجميلــة، ويمر على معابدها العديدة، لكــن كاهن السيرابيوم وقف أمامه قائــلاً: كثر الخارجــون على ديانــات الآباء والأجداد، فقلَّــت الأعطيات وكثر الفساد، فانصر آلهتك أيها الإمبراطور.

يومها أقسم سبتيموس لآلهته أن يعيد مجدها، وأمر نائبه في الإسكندرية بــأن يمحــو المسيحية منها، ولم يكــن أمام الأخير ســوى أن يظهر الولاء

والقـوة، فألقـى القبض على كل من هو مسيحـي، وكل من تشكَّك في أنه مسيحي، يومها أغلقت الكنائس، وهرب الرجال إلى الصحارى والجبال، كانـت الجنود تطاردهم بالخيول وهم يفرون علـى أقدامهم الصغيرة، لا يلوون على شيء ولا يسـيرون على هدى، كثيرون سقطوا تحت سنابك الخيـل، وكثيرون لعبت السيوف في رقابهـم، حتى النساء لم ينجين، فقد هاجـم الجند البيوت، ويكفي أن تكون هنـاك ولو إشارة على أن صاحبها مسيحي لتُستباح، فامتلأت السجون بمـن وردوا إليها، وامتلأت المزابل بالجثـث، وفاضت الدمـاء على الأرضـ، كانت أحجـار الطرقات تنز دماء، وتكتسي بجلود مـن سحلوا. الإسكندرية التي كانت جميلة صارت مدينـة الله الكافرة، وظن الجميع أن سبتيموسـس هو المسيح الكاذب، وأن النهاية أوشكت، ولا بدَّ أن ينزل المسيح ليرفع الظلم عن الناس.

في تلك الآونة كتبتُ رسالتـي في الاستشهاد، كنت أحض الجميع على أن يقبـل مصـيره، وأن يوقن أن مـا يمنعه عن ملكـوت السماء هو تأخر نـزول سيـف الجنود على عنقه، كنـت أطالبهم أن يـبرزوا لشهادتهم في أي مـكان، فالشهادة أقصر الطرق إلى الملكوت الأبدي، فمع المسيح ذلك أفضـل، وحين قبض الجنود على أبـي لم أستطع أن أنفذ ما قلته، أعترف يـا صديقي أنني لم أستطع، للحظةٍ خفت، وشعرت أن الموت نهاية سيئة، أن الموت ليس الطريق الحقيقي نحو الخلود، وأن مركب الإله لا تمر عبر نهر المـوت المتدفق في شوارع الإسكندرية، أقـول إنني جبنت وتواطأت علـى منع أمي لي من الخروج، فقد جردتني من ملابسي، انتزعتها عني وجمعت مـا بالخزانة وأحرقت كل شيء، تركتني في غرفتي عاريًا كيوم ولدتنـي كي لا ألحق بأبي، هـذا الذي اكتفيت بأن أرسـل له رسالتي عن الاستشهـاد، وكانت النتيجة أننـي بينما انتقل هو إلى الأمجـاد السماوية، أبي قديس شهيد، وأنا هنا أعاني آلام عذابي، أعاني آثار الطوق الحديدي الـذي صحبني في مقمورتي عامًا كامـلاً، أنا هنا موشك على الموت كعابر سبيل لا يعرفه أحد، بينما روح أبي ترفرف بجناحيها في البعيد إلى جانب الرب. فصلِّ من أجلي يا أخي وصديقي، لأنني جبنت.

-٢١-

قـررت دميانة أن تنحِّـي انجذابها نحـو أنطونيوس جانبًـا وتركِّز في القضية التي طالبها رئيس الدير بسرعة إنهائها، أحضرت مذكرة الاتهام المحولـة إليها مـن الأب جورج، تلك المذكرة التـي كان من الممكن أن يحكم فيها بنفسه، مبديًا لومـه أو تأنيبه لأنطونيوس، لكن الجرم المتهم فيه الأخير فضلاً عن مكانته كأحد التلاميذ المقربين من إيمانويل الفقير، جعل من الحرج لأيٍّ من مسئولي الدير أن يتهمه بشيء، ومن ثم لجأوا إلى المحققة دميانة كي تكون بمثابة القفاز الذي يمكنهم من خلاله تشذيب الشوك دون جراح.

ضحكـت دميانة حين تصورت أنها ستنهي قضيتها بتوصية تطالب فيها بإحالة التحقيق إلى المجلس الملى الذى قد يأمر بعزل أنطونيوس، وفكرت للحظة أنهما من الممكن أن يلتقيا خارج الدير، ويبدآ حياة تليق بآدم وحواء وليس مريم والمسيح، كان شبح ابتسامة قد ارتسم على وجهها وهي تسرح بخيالهـا في مشهد قس يضع إكليل الزواج علـى رأسها، لكنها سرعان ما استفاقت على أنها لن تبنـي بيتها على ظلم رجل تتمناه، فهذه بداية خاطئة تؤدي إلى نهايات خاطئة.

كان أنطونيوس قد أفـاق ليجد نفسـه أمام دميانـة، واستغرق الأمر منه وقتًـا كي يستعيد ذاكرتـه ويستوعب ما حدث، فقد سقـط مغشيًّا عليه إثـر ضربة جاءته مـن الخلف وهو يناديهـا أن تنتبه، لكنهـا حين انتبهت كان قـد نال ضربته، وسقـط أمامها على مبعدة مائة مـتر قطعتها هرولة نحـوه، لم تعرف ما الـذي يمكنها فعله في ذلك الوقـت، ولا كيف يمكنها أن تحملـه أو توقـف نزيفه، فصرخت بقدر ما تستطيـع، وخرج رهبان وشمامسـة من قلاليهم ليلقوا برءوسهم نحو الصوت النسائي نادر السماع

في المكان، للحظة نسيت أنها المحققة التي يخشاها الجميع وانهارت في نوبة بكاء ولطم، وأمام صراخها المتوالي توافد الرهبان نحوها وتعرفوا على أنطونيوس فنقلوه إلى قلايته.

كان ملاك من بين الذين خرجوا مندهشين لسماع صوت نسائي في الدير، قلة هي التي كانت تعلم أن المحققة دميانة لها استراحة فوق مبنى التحقيقات، لكن أحدًا لم يعرف ما الذي أخرجها من استراحتها في ذلك الوقت، هدأ من روعها وجود ملاك على مقربة منها، وحين ذهبت معه إلى قلاية أنطونيوس ظلت متمسكة بوجوده كورقة تسمح ببقائها في غرفة راهب، كان مفتاح العيادة مع الشماس أبانوب، فذهب مع صديق له وأحضرا بعض الشاش والقطن والمطهر، وجلست دميانة وملاك ينظفان الجرح، داعين الله ألا تكون ثمة إصابات في الجمجمة من الداخل، ولم تعرف لم كان عليها أن تظل إلى جانبه حتى يستعيد وعيه، فهدهدت على كتفه بعدها وطلبت من أبانوب أن يرافقها في طريق العودة إلى استراحتها، على أن يتركا ملاكًا معه حتى الصباح.

لم تنم ساعة حتى استيقظت لتكتب مذكرة بما رأت، وفي الصباح ذهبت لتلتقي جورج المنحني في قلايته المجاورة لكنيسة ديمتريوس الصغير، كانت مساحة القلاية لا تزيد عن سبعين مترًا، قسمت إلى غرفتين وصالة وحمام، كانت الصالة مزودة بأنتريه من الأرابيسك ومنضدة زجاجية في الوسط، بينما الغرفة الأولى بها مكتب وكرسيان من الجلد، وعلى الجانب الآخر كانت غرفة نوم مزودة بسرير فردي ودولاب ملابس وخزانة كتب، في المدخل يقف شماس في الخمسين يستقبل القادمين ويجلسهم في الصالون لحين استئذان المنحني في دخولهم عليه. جلست دميانة على كرسي منجَّد بالقطيفة الحمراء في انتظار خروج الشماس، حين عاد أخبرها بأنه يصلي، فأخذت تطالع الصليب الكبير المعلق على الجدار وعلى جانبيه أيقونة للمسيح مصلوبًا، وأخرى للعذراء وهي تحمله في طفولته، لم يمض كثير من الوقت حتى خرج إليها المنحني بصليبه الكبير ومسبحة تتدلَّى منه، مد لها يده بالصليب فانحنت وقبَّلت كلاهما،

رحَّب بها ودعاها للدخول إلى مكتبه، وبعد حشرجة في صوتها انتظمت كلماتُها معلنةً عن رغبتها في أن تقدِّم بلاغًا بأن ثمةً مَن يريد قتل القس أنطونيوس.

كان جورج يهز رأسه الكبير المضغوط في جسده السمين بتكاسل شديد، وعبرت عيناه من أسفل نظارته إلى دميانة عن ثبات لم تعرف إن كان من قلة النوم أم شدة التركيز:

– ما أخبار التحقيق؟

دهشت دميانة من سؤاله، ولم تعرف إن كان عليها أن تضحك أم تصرخ، لكن المنحني وضع ابتسامة هادئة على وجهه قائلاً:

– ولمن نعطي بلاغك للتحقيق فيه؟

شعرت أنها تاهت وفقدت القدرة على التركيز، فهي مسئولة التحقيق ولا ينبغي أن تكون خصمًا لأحد، ولم تعرف كيف سيستقيم الأمر في حال هذا الإجراء، كادت أن تجيبه بأنها "لا تدري"، لكن الكلمات ماتت على شفتيها، وظلت عيناها مشدودتين نحو المنحني، فعاد يكمل:

– أرجو أن تنتهي من تحقيقك.

أدركت دميانة أن عليها أن تختفي من أمامه، فقد أنهى المقابلة بطرفة عين، وألمحت نبرة صوته الأخيرة إلى أن الدير يدفع لها كي تحقق مع الرهبان، لا لكي تقع في غرامهم، فانتفضت مستأذنة في الخروج، ودون أن تنتظر مجيء الشماس ليصحبها إلى الخارج اندفعت إلى الصالة، فوجدت نفسها في مواجهة الأب يوساب، ذلك الذي وقف كعود كخيزران يابس في وجهها، ودون كلمة منه نظر كلاهما إلى الآخر متفاديًا الاصطدام بصعوبة بالغة، لينتهي الموقف بخروجها كما لو أنها جُرِّدت من ملابسها، فراحت تتلمس من تيارات الهواء الناعم أن تدثرها قبل أن يراها الناس.

في هذه اليوم أرسلت إلى ملاك لا ليطمئنها على أنطونيوس ولكن ليخبره أن غدًا موعده في التحقيق، ثم أغلقت على نفسها وأخرجت ملف قضيتها منحِّيةً طيف أنطونيوس وما جرى له كي تتمكن من قراءة المذكرة

بحيـاد تام، لكن وجهه لم يفارق عينيها وهي تقرأ عن القديس أنطونيوس العظيـم، واختلـط في ذهنهـا الزمان والمـكان بدير المـلاح وأنطونيوس الجريح في قلايته الآن، فلم تعرف القديم من الحديث، وظلت في متاهتها حتى دخـل عليها أنطونيوس في الصباح، فعدلت من وضع نظارتها على وجهها متجاهلة الشاش الذي على رأسه، واهتزازه أمامها وهو مقدم على الجلوس، محملة صوتها بكل ما تملك من حياد:

– من الذي كتب مقدمة الكتاب؟

– الأب إيمانويل.

أجاب أنطونيوس بهدوء المندهشـ، وكاد أن يضيف أن اسمه مكتوب في نهايـة المقدمة، لكنه رأى مدى تعكـر وجهها فالتزم الصمت، ودارت بهـا الدنيا ليختلط وجهه بأيقونة القديسـ العظيم، فجالدت نفسها كي ترفع يدها معتذرة، لأنها ستسأله عن أمر خارج القضية:

– هل اخترت اسمك تيمنًا باسم القديس العظيم؟

ابتسم أنطونيوس، وهز رأسه قائلاً:

– اختاره لي الأب إيمانويل حين رسمني قسًّا.

-٢٢-

أعرف أن المحققة دميانة تنجذب كل يوم نحو القس أنطونيوس، لكنني لا أعــرف مــا الذي جعلهــا راغبة في إنهــاء التحقيق على هــذا الوجه من السرعــة، فقد خاطبتني بحــدة لم أرها منها من قبل، قائلة بأن عليَّ إبلاغه أن موعده في التحقيق غدًا، لم تراعِ إصابته، ولم تتذكر من الأساس مدى الرعــب الذي طل من عينيها حين رَأتــه ملقًى على الأرض، أعتقد أنه لو لم تكــن عظام رأسه قوية لَتنيَّح في هذه الليلة، أعرف مثل هذه الرءوس، تبدو من الخارج صلبة كثمرة جوزة هند، ومن الداخل عنيدة لا تلين، ولا يمكنها أن تتكيَّف بسهولة مــع الظروف، لا أعتقد أن هذا الرجل سيناسب هذه المرحلة، وعمــا قريب ربما يصطدم بيوساب أو المنحني، لكن دميانة تختلــف عنه، رقيقة وضعيفة وتلين أمام الضغوط، هي في النهاية امرأة، ولا بــدَّ أنها خافت إن لم تكن ارتعــدت من داخلها، فإيمانها ليس في إيمان أنطونيوســ كي تــرى المسيح أو تظهــر لها العذراء، هــي ضعيفة مثلي، تسكنها الأشباح التي تخيف البشر.

لذا فأنا أكتب هذه الكلمات كي تكون دليلاً على الخطى التي بدأت تتخذ مسارهــا على أرض الديــر، فمنذ انتقلتُ للإقامــة في مخزن المخطوطات مــع الكاتب إدورد حنــا وأنا أفكر في هذا المكان، كما لو أنني أفكر في بداية الخلــق ونشأة الحياة، حين سألته عما يدور في رأسي ابتسم لي وأشار نحو تلال الدفاتر والكتب القديمة.

– لا أفهم!

أجبته بغضب، فرفع رأسه عن كتاب في يده:

– إذا قرأت ستعرف.

كان علـيَّ أن أحسـم أمر تعلمـي للقراءة التي تحول بينـي ومعرفة ما جرى، وتعصمني من أن أكون خادمًا على بوابة الدير كميخائيل، كانت وراثتـي لإدور ومهنته هـي طريقي لتغيير المسار الـذي ينتظر طفلاً يعلم الجميع أن ميخائيل وجده ذات صباح أمام بوابة الدير، لم يسمح لي خيالي بأكثر من ذلك، فلم أفكر في أن أكون راهبًا أو شماسًا، فصرت بوابة بين الرهبـان الذين جاءوا ليعتزلوا الحيـاة في هذا الدير النائي، والقادمين من العالم الفسيح في الخارج، لذا وهبت نفسي لأن أقرأ وأكتب ما جرى.

في البـدء كانـت هضبة الملاح نهايـة العالم، وصلها المـلاح بعد شهور طويلـة من السـير، صعدها تاركًا الحيـاة من خلفـة، دون أن يدري أنه سيكـون قديسًـا يتبرك به الجميع، ويأتـي الناس من أقصـى البقاع إليه، وحـين تـولى ديمتريوس الصغـير من بعـده، رأى حـزن الناس عليه، ورغبتهـم في التأسي به، فأمـر تلامذته أن يضعوا رفـات الملاح ولبؤته وأشبالهـا في المغارة التـي اتخذها مقامًا له، وأن يبنـوا على المغارة كنيسة يصلـي بها المؤمنون، ويقدمـوا على مذبحها أعطياتهـم للرب، متناولين خبـزه وخمره، متلمسـين روحه التي تسـري في أرواحهـم، متذكرين عذاباته على الصليب من أجل خلاصهم، راضين بما يجري لهم وعليهم، مثلما رضي هو بما جرى عليه، رغم علمه به، وقدرته على تغييره.

لم يخيِّـب أبانـوب ظن أستـاذه ديمتريوس، كانت الرغبـة في النجاح تحدوه لعمل المستحيل، غـاب عن الدير عدة أسابيع أو شهور، ذهب فيها للجنـوب، حيث والده الذي ما زال على دينه القديم، سأله عمَّن رمَّم لهم معبـد إيزيس في الجزيرة المقدسة، وحين التقى به جلس أمامه معتذرًا عن سـوء أدبه، فليس مـن الحكمة أن يطلب شخصٌ تحول عـن ديانة إيزيس المعونـةَ مـن أهلها، لكـن البنَّـاء كان حكيمًا، ربـت على كتفه قائـلاً إنها تصاريف القدر، حينها شرح لـه طلبه والمكان الذي يريد بناءه، فأوضح لـه الرجل ما يحتاجه من مـواد وأدوات ورجال. وكان على أبانوب أن يعود لأستاذه كي يفكرا في كيفية تجهيز ذلك.

نـزل ديمتريوس من علـى الهضبة وبدأ في جولة لم يعلـم أنها ستكون مباركة إلى هذا الحد، فقد وجد أن كثيرين ممن عاشوا على صخرة الملاح قد دخلوا المسيحية، ولا ينقص إيمانهم سوى أن يعلمهم كاهنٌ شعائر دينهم، وجـد الجميع راغبًـا في أن يظهر علامـة إيمانه، ولم يكن هنـاك اختبار أفضل من المشاركة في بناء كنيسة للرب، ومن لم يتبرَّع بمال تبرع بجهد ووقت، كان يكفي أن يصل إلى الدير بدابته كي يفرِغ حمولته بجانب مخرِّ السيل، أو يذهب ليسلم نفسـه لأبانوب المتحمس، هذا الذي لم يكن يعرف إن كان سَّلم نفسه للبنَّاء الماهر، أم أن الأخير هو الذي سلمه عقله، فقد عكفا علـى تخطيط المـكان، والاستفادة من المغارة كي تكـون قدس الأقداس، وسرعان ما رفعوا قواعد الأعمدة العالية، فبدت كبهو معبد قديم.

رفضـ ديمتريوس أن تترك الأعمـدة بلا سقف، قال إن كنيسة الله لا بـدَّ أن تكـون مسقوفة، فبيت اللـه سر من أسـراره، وكان على الرجال بعدمـا انتهوا من تجزئة الأحجار وتهيئتها للدخول في البناء أن يبحثوا عن الأخشـاب الطويلة التي تربـط بين الأعمدة، ليبدأ أبانـوب في تعريشها، ووضـع باب لها، وبدأ المؤمنون يصعـدون إلى الهضبة ليحضروا قدَّاس الأحـد، وينصتوا لعظات ديمتريوس، ويقدمـوا أضحياتهم ويتناولوا من خبـز الرب وخمره. لكن لم تمضِ سنوات حتـى أسقطت السيول السقف على رأس المصلين، وذهب أبانوب في جولة جديدة نحو الجنوب، ليبحث عن بنَّاء آخر يمكنه أن يبني سقفًا لا تسقطه السيول.

بعد تأمل طويل للمكان والأعمدة والسقف المنهدم، قال الرجل:

– يمكننا تدعيم روابط الأعمدة وبناء أقبية عليها.

هز أبانوب رأسه قائلاً:

– افعل ما تريد.

من جديد عاد العمال وبدأ نشاطهم في تقطيع الأحجار، وتكوين الملاط مـن ترابها، وارتفعت السقالات، وأخذ البنَّاء العجوز في وضع الأحجار

علـى الدعامات والأربطة علـى هيئة داوئر تضيق كلمـا ارتفعت، حتى انطبقـت في نهايتهـا على نفسها، فكانـت أول كنيسة مقببـة يراها الناس، وبـدت في نظرهم أعجوبة، حتى أن ديمتريوسـ خرج من خلوته ليرى ما تحدَّث به الرهبان.

يومها أفصح ديمتريوسـ لأبانوب عن رغبته في بناء كنيسة أخرى في الطرف المقابل من الهضبة، حيث يمكنها أن تتسع لعدد أكبر من المصلين، وتكون بديـلاً يعتمد عليه حال انشغال الكنيسة الأخـرى، وكان لا بدَّ أن يتحـرك كلاهما لتحقيق الحلـم، فنزل ديمتريوس في جولـة طويلة لم يعد منهـا إلا بعـد عام أو أكـثر، جولة بشَّر خلالهـا بكنيسة الـربِّ التي على الهضبـة، ووعظ في كلِّ تجمع بقرية أو كوم، مطالبًا الجميع بالمساعدة في بناء كنيسـة جديدة للرب، وأخذته جولته نزولا مـع النيل إلى الدلتا سيرًا على الأقـدام، متحدثًا عن بركات الملاح وقداستـه، لم يكن بصحبته غير راهبـين من الدير، وكلمـا سمع الناس بسيرة المـلاح ولبؤته تدافعوا لنيل البركة من رسوله، فكان يجمع بركات كل قرية منها ويبيعه لمن يجده من التجار.

عاد ديمتريوس مـن جولته ليضع ما معه من أموال أمام تلميذه مطالبًا بالشـروع في البنـاء، حينها أحضر أبانـوب البنَّاء من جديـد، ووضعوا الأعمـدة ورسمـوا أركان الكنيسة، تلك التي لم ترتبـط بمغارة ولا قدس أقداس، فتربعت على مساحة كافيـة، وارتفعت لها قباب وأبراج عالية، وحملت جرسًا كبيرًا في برجها الغربي المطل على السفح، حيث الرعاة في الصحراء والمزارعين في الحقول والأجران.

ظل العمل يجري لمدة أعوام ثلاثة، فقد رأى أبانوب أن يستثمر فائض الأمـوال التي أحضرها ديمتريوس في عمل جديد، فألحَّ عليه في بناء عدد مـن القلالي للرهبـان على حافة الهضبة، كي تحميهـم من البرد والمطر، وتكون سورًا يحمي الدير من دخول الذئاب والضواري إليه.

- ٢٣ -

رسائل أوريجينوس (٣)

صديقــي العزيــز ديونسيوس، كما قلت لك في رسالتــي السابقة، أنني مــا أكتب كي تــرد علي، أو أن تنظر في شأني علــى أي نحو، لكنني أريد أن أعــترف، ولا يوجــد الآن أفضل منك كي أعترف لــه، وربما هذا ما جعلنــي أعاود الكتابة إليك من جديد، دون انتظار رد، أو حتى توقُّع لهذا الرد، فأنا أعلــم أن الطرق صارت مكتظة بالكارهين لأبناء الرب، وأن كل حجــر في الطريق أسفله عين تنظر أو سهم ينطلق، لذا لا أتوقع مجيء رسائلك، وألتمــس ألف عذر لك، لكن قلبي مليء بالآلام، آلام أكبر من تلك التي يئن تحتها جســدي، وشوقي للتخلص منها لا يقل شوقًا عن القفز في الهــواء نحو الإسكندريــة وبحرها، حيث صبــاي وتكويني، وخطاي الأولى وأيــام صعودي، هذه السنوات التي لم أحمل سواها معي، التي ما زالت تطاردني حتى الآن:

– لا تغيِّر قلبك بسببنا.

هكــذا أرسلــت لوالدي أحثه علــى الاستشهاد متمســكًا بطريق الرب، وألا يسمــح لضعفه تجاهنا نحن أولاده السبعة الصغار أن يميله عن طريق الحــق، فأن يميل رجــل مثله فهذا يعنــي أن آلاف الرجال مــن الضعفاء سيميلــون من بعده، كنت أتمنــى أن أكون مثالاً لهــم كوالدي، لكن أمي حبستنــي، جمعت كل الأسفــار والأناجيل ورسائــل القديسين فأحرقتها، أغلقــت عليَّ بــاب غرفتي وجلست تبكــي، نعم يا صديقي بكــت، بل إنها مالت علــى قدمي ومسحت وجهها فيها مقبلة وراجيــة ألا آتي لها بمصيبة أخرى بعــد مصيبة والدي، لم أعرف ما الذي يمكننــي فعله، هل أتركها وإخوتــي الصغار كي أذهب فأقول للجنود إننــي على دين المسيح، وإنهم

إما أن يتركوا والدي أو يأخذوني لأقتل معه، أم أرضخ لطلبها وأجلس في مكاني، شعرت لحظتها أن قــواي تنهار، وأن كل الكلمات التي يمكن أن نقولها عن العزيمة والإيمان لا وجود لها.

أعــترف يــا صديقي أنني ضعفــت، وأنني لم أكن مؤمنًــا بحق في هذه اللحظــة، أعترف أنني لم أكن جديــرًا برعاية المسيح لي، لــذا فأنا أتحمل آلامــي وعذاباتي بنفســ راضيــة، وكلما اشتــد أعداء الــرب في تعذيبي وإيلامــي كنت أبتسم، نعم كانت عيني تنزف دمعًا حارقًا وفمي يبتسم، لا لشــيء سوى أنني كنت أعلم أنه كلمــا ازداد ألمي تجاوزَ الرب عن خطئي وضعفي.

مضــت شهــور وأنا لا أخــرج من قمرة أمــي، والحال يــزداد سوءًا كل يــوم عن سابقــه، فقد أتى الجنود وانتزعــوا كل شيء من البيت، ولم يبقوا فيه ســوى حوائط عارية، انتزعوا كل ما كنا نمتلكه، وبالكاد تركوا الحوائــط بعدما بكت أمي وإخوتي أمامهم كــي يتركوا لنا مكانًا نبيت فيه، وتدخَّــل أصدقاء ومعارف والــدي لحاكم المدينة، فأوقــف الجنود أيديهم لكنهــم لم يردوا شيئًا مما نهبوه، فخرجت بحثًا عن رزق لنا، حملت كتبي وأوراقــي وذهبت إلى السيدة أوثاكا نيكيــدا طالبًا أن أقدم خدماتي لتعليمها المسيحية، تلك التي دخلتهــا مؤخرًا ولا تعرف عنها الكثير، يومها حدثتها عن استشهاد أبي، وشعوري أن روحه هي التي تحميني وتحركني، وأنها هــي التي دفعتني لأن أطــرق بابها الآن، كانت سيــدة طيبة القلب، لديها صفــاء يمتزج بطيبة واضحــة، لم أخفِ عنها احتياجــي إلى المال، وأنني كنــت مطلوبًا من قبل السلطــات، وأنني توقفت عن الذهــاب إلى مدرسة اللاهوت بعد مصادرة أملاكنا.

يومها رأيت الدموع تتقافز في عينيها، وفي لحظة احتضنتني، شعرت أنني أمام أمي التي لم تلدني، وأن التي تركتها في البيت ليست سوى أختي التي تكــبرني، حينها أرحت رأســي على صدرها وبكيــت، كان نشيجي يتعالى كلمــا مسحت على رأسي، وكانت صورة أبــي تتحرك أمام عيني كمــا حدثني عنها الجيران، فقــد رأوا الجنود يحنونه رغمًا عنه على خشبة كبــيرة، لينزل السيــاف بآلتها على عنقه، فتتفجر الدمــاء منه كنهر ينهمر

علــى الأرض، بعض الجنود تأفف ساخطًــا حين طالته الدماء، وبعضهم ضحــك ساخرًا وهو يلعن أبــي، وبلا سبب أخذوا يركلونــه، بينما جسده ينتفضــ وهو يمــوت. بكيت في سري وأنــا أروي لها قصتــي، ثم تعالى نشيجي أكثر فأكــثر، بينما أناملها تتخلل شعــري، متمتمة بكلمات يونانية كثيرة، كما لو أنها تطارد الشرير كي يخرج مني.

في بيــت أوثاكا ذات الأربعين من العمــر أمضيت عامًا ونصف أعلمها الصــلاة وبعضًــا مــن فلسفة اللاهــوت وأفسر لهــا آيــات الأناجيل، عام ونصف تكفلت فيه بنفقات عائلتــي ومصروفات إكمال تعليمي في مدرسة الميوزيوم، وبدا لي أن الحياة أعطتني وجهها الباسم، فقد استعدت مكانتي في المدرسة، ومحبة أساتذتي لي، فضلاً عن رعايتي لإخوتي وأمي وبيتنا الذي أخذ يستعيد بعض رونقه، لكن الأيام السعيدة لا تدوم، فقد مر على بيــت السيدة أوثاكا كاهن من أنطاكيا يدعــى بولس، طالبًا أن تمده ببعض المــال لأنه يريد الذهــاب إلى البرية كي يبشر أهلهــا، فاستضافته ليعظها، وطــال مقامه في بيتها، بعدما أقنعها أنهــا لم تعرف تعاليم السيد المسيح كما ينبغي، فقــد جاء من أورشليم، وقد أمضى في معيــة كهنتها شهورًا، علم فيها أن الصلاة بهذه الطريقة ليست على صواب، فقد فهم الكثيرون صلاة المسيح وآراءه على غير ما أراد.

هكــذا تحدث الرجل بطلاقــة فاستجابت له بطيبة قلــب، وشكت في أن كل ما علمتها إياه كان خطأ، وأخذ يعلمها أن الابن ليس الآب، وأنه وإن حمــل صفات أبيه إلا أنه ليس مثله، ولا يمكن أن يحل الأب فيه، فكلاهما منفصــل عن الآخر، وبينهما الروح القدس، ولا يمكن للثالوث أن يكون واحــدًا، فكلٌّ له طبيعتــه، هكذا تحدث، ووجدتها تنظــر لي بوصفي شابًّا لم يعــرف الحقيقة بعــد، وسعت لإرشادي نحو الصــواب كما تصورته، وسعيــت لمناظرة الأنطاكــي، دافعت عن الرب ووحــدة أقانيمه، دافعت عن الامتزاج بين اللاهوت والناسوت، لكنه شككها في حداثة سني، وثقة الآباء الذين علموه الحقيقة في القدس وبيت لحم، ووجدتني غير قادر على أن أكــون في بيت يدنس بالهرطقات، فقد أعدت لــه مجلسًا، وسمحت له أن يلقي تعاليمه الغريبة على ضيوفها، فصرخت في وجهه أن يتوقف عن

حديثه، وصور لي حماسي أنني يمكنني أن ألزمه المنطق بالقوة، فأمسكت بثيابه صارخًا أمامهم بكذبه، فما كان منها إلا أن طردتني من بيتها.

هكـذا عدتُ إلى نقطة البدء، حيث أسرة مكونة من سبعة أفراد لا عائل لهم سواي، وقد صرت منبوذًا من قبل السيدة العطوف علينا، صرت أيضًا مغضوبًـا عليه من قبل الطبقة الثرية، ولم يسمح لي بالدخول إلى بيوتهم، ليس لأنني أحدثهم بغير ما يقوله الأنطاكي، ولكن لأنني لا أراعي اللياقة في الحديـث، وهذه يا صديقي أكبر، لدى الأثرياء، من الهرطقة عشرات المـرات، فهم يغفرون كل ما دونها، ولا يتسامحون مع مرتكبها، خاصة وإن كان من طبقة المستخدمين لديهم.

حينهـا فكرت طويـلاً، وقـررت أن أتوقـف عن تدريـس اللاهوت في البيـوت لأبنـاء الأغنياء، ووجدت أنـني يمكنني أن أتعامـل مع أبناء الوثنيـين، فحصيلتي مـن الأشعار والخطب اليونانية كبـير، ويمكنني أن أعتمـد عليهـا في تدريس الأدب وقواعـد اللغة لهم، يومهـا ارتديت ثيابًا وثنية وأخـذت أدور على بيوتهم طالبًا التدريـس لأبنائهم، لم يكن الأمر في بدئـه سهلاً، فكثير من الآبـاء كان ينظر لي بوصفي طفلاً وليس شابًّا، كانوا يستخفون بي وبقدرتي على حفظ الملاحم، مما جعلني أتحدى أحدهم في تعليم أبنائه، وكان عليَّ أن أنقطع لثلاثة أبناء في أعمار مختلفة لأعلمهم الشعـر والنحو والبلاغـة مجانًا. في البدء وضعت خطـة مبسطة لتحبيبهم في الأشعـار والملاحم، ثـم تدرجت في تعميقها شيئًـا فشيئًا، كانت بديهتي سريعة، وذاكرتي حاضرة، ولساني يتدفق بالحكم والمأثورات، حتى أن الرجل الذي كان ينصت من خلف الأبواب دهش، وتحدث عني لأصدقائه وأصدقائهم، ووجدتني مطلوبًا في بيت كل منهم للتدريس لأبنائهم.

في البـدء كان همي أن أجمع ما ينقـذ أمي وإخوتي من الجوع، ويمنع الدائنين عن مطاردتنا من جديد، لكن ما إن ازداد عدد طلابي حتى بدأت أعـود لكوني مسيحيًّا، وأنني لا بدَّ أن أنشر دين الرب بين عبدة الأوثان، كان ذلك بالنسبة لي مغامرة وسعيًا للاستشهاد من أجل الإيمان، مثلما فعل أبي، ومثلما قلت له "لا تغير قلبك بسببنا"، ولم أكن أريد أن أضعف أو أحيد عـن طريق المسيح، فرحتُ أشرح لهـم الإلياذة والأوديسة لهوميروس،

وقصيدة الأعمال والأيام لهسيود، وما تركه كل من بندار وسافو من قصائد مغناة، وما تركه إيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديز من أعمال محزنة، وما كتبه أريستوفان من أعمال مضحكة، وما حكاه إيسوب على لسان الحيوان، وتركه هيرودوت من أخبار الملوك والدول القديمة، وما وصلنا من خطب ديموستينيس وغيره، وبين هذا وذاك كنت أنشر سيرة المسيح، تارة بوصفه حكيمًا، وتارة بوصفه المخلص، فانجذب لي الكثيرون، كبلوتارخس شقيق البابا هيراكليس، وكلاهما آمن على يدي، وأخذ التعاليم مني، وكلاهما نبغ في العلم وباركه المسيح، لكن بلوتارخس نال إكليل الشهادة، أما هيراكليس فقد خلفني في رئاسة مدرسة اللاهوت، وكان البابا السابق عليك في كرسي مرقس الرسول.

-٢٤-

سيظـل أنطونيوس لسنوات يذكر الليلة التي قضاها إيمانويل في ضيافته بمغـارة الصخرة القائمة على تخـوم القرى، فقد كانت بداية علاقته بكلب السمـاء، هذا الـذي لم يتركه يهنأ بنوم، حتى أنه تـرك الصخرة والقرى وفـر لاهثًـا من مـكان إلى آخر بحثًا عـن إيمانويل ودير المـلاح. لم يكن الديـر معروفًا في الشمال ولا الجنوب، ولم يستطع أي ممن التقى بهم أن يخبره بمكانه، لكنه كلما تكاسـل أو فكر في التكاسل طاردته المخالب ذات الأظافـر الطويلة، وسمع علـى البعد نباحًا يهز كيانه، فـكان يستيقظ من نومه مهرولاً وكأنه لن ينجو من القتل.

الطريـق إلى الدير استغرق عامين مـن البحث، وقادته قدماه للمرور على مختلـف الكنائس والأديرة، كان مساره خاطئًا في البداية، فقد اعتقد أن ديـر الملاح في الغـرب، فقطع الدلتـا سيرًا على حـواف الترع حتى وصـل إلى وادي النطرون، لم يكن يعرف بمَ سيخبر الآباء هناك، ترك سلاحـه إلى جانب خادم البوابة ودخـل ليصلي، لا أحد يمنع المصلين ولا المريديـن من الصلاة، لا أحد يمنـع السائحين من الدخول أو التنسم بهواء الديـر ورؤية قلاليه، لا أحد يمـر دون أن يتطلـع إلى أيقونات القديسين والآبـاء، البعض يشكو همومـه وأمراضه ويطلـب الاعتراف، البعض يطلـب المساعدة وربما الانضمام إلى أهل المكان، البعض يعزي نفسه بأنه في بيـت الرب وبين أبنائـه ومحبيه، لكن أحدًا لم يسـأل من قبل عن دير الملاح، كثير من الرهبان لا يعرفـون، كثير من الآباء ذهبوا إلى الشمال والجنـوب، اعتكفوا هنا وصلُّوا هناك، لكن أحـدًا منهم لم يعرف أين هذا الدير، ولا الصحراء التي تحتويه.

كانوا يبتسمون في وداعة محيلين أنطونيوس إلى آباء آخرين ليسألهم، لكن حظــه لم يسعفه في العثور على من يجيبه، وشعر أن إيمانويل لم يكن سوى الملاح نفســه، وأن الأمر لم يكن سوى مسألة من المجاز، فقرر أن يعود من حيث أتى، لكنه في تلك الليلة، وأسفل جدران دير السريان رأى وجه المسيح، كان منيرًا ومبهجًا ووديعًا إلى درجة تجعل من ينظر إليه لا يفكر في النظر إلى غيره، كان يرتدي جلبابًا من الكتان الأبيض، وله شعر طويل مسترسل على كتفيه، وعينه تبدو كما لو أنها كُحلت للتو، كل شيء كان يؤكد في الحلم أنه الرب، وأنه نزل من السماء من أجل أنطونيوس، أمر واحد هو الذي أرقه في منامه، لم يكن ذلك الأمر سوى الكلب الضخم الــذي وضع المسيح يــده على رأسه، كما لــو أنه أسد روِّضــ ليصبح في وفــاء الكلب، بدا أنه راغب في الانفلات مــن يد الرب والانقضاض على أنطونيوس، لولا أن يد الرب كانت تمسح على رأسه برفق وحزم.

لم يكن أنطونيوس يدرك أن رحلته ستطول، وأنه سيتعذَّب في تطوافه إلى هــذا الحد، لكنــه كان سعيدًا أن الــرب اختاره، وأنه لا بــدَّ أن يكمل طريقــه حتى لو وصل إلى آخر العالم، ليس بحثًا عن الدير ولا إيمانويل، ولكن عن الرب الذي قال:

– ستجدني حيث يجب أن تذهب.

حين استيقظ من نومه تخيل أنه أينما ولَّى وجهه سيجد الرب، وأن ثمة صداقة قــد نشأت بينهما، فخرج من دير السريــان إلى البراموس، ومنه إلى الأنبا بيشوي والأنبار مقار، لم يكن في تلك اللحظة مشغولاً بالوصول إلى شــيء، لم يســأل أحدًا عن الملاح ولا ديره، فقــط رأى أن يتطلع إلى أيقونــات الرب وقديسيه، أن يجلس ليصلــي أمام العذراء طالبًا الرحمة، لم يعــرف لمَ الرحمة منها وليس مــن الأب أو الابن، لكنه كان يدرك في نفســه أنها وجه الله الرحيــم، فهي الرحم الذي تكوَّن فيــه المسيح، جلس أمــام أيقونتها طويلاً كأنــه يحمِّل نفسه فيض الرحمــات، ثم غادر وداي النطــرون متجهًــا إلى الإسكندرية، قائلاً لنفسه إنه لــن يطلب من أحد أن

يدلـه على الدير، لا بدَّ أن يصل إليه بنفسه، فلا ينبغي الوصول إلى الرب عبر وسطاء وأدلاء.

حـين وضع قدميـه في الإسكندرية اتجـه إلى كنيسـة القديس مرقس، حيث الكرازة والكرسي الرسولي، حيث بدأت الدعوة وتوالت الأفكار، وحضـر الإلـه بتجلياته على الجميـع، ليعين المؤمنـين في مواجهة الروم والوثنيين، علم أن مبانيها ليست المباني القديمة، وأنصت إلى شرح طويل مـن شماس مختص بتاريخ المكان، علـم أن هياكلها الثلاث تحمل مرقس الرسـول وميخائيل ومار جرجس، شعر أنها بمثابة الكون المصغر، وأن أضلاعهـا هي أضلاع الحماية من سيفيروس الشرير، لكنه في النهاية لم يسمع بكلمة الملاح ولو لمرة واحدة، فتركها ونزل إلى بلقاس، حيث جلس أسبوعًـا في رحاب كنيسة العـذراء، وتشكك الآبـاء في هويته وسلاحه، ونظروا إليه على أنه يمثل خطرًا، هنالك كان كلب السماء قد انطلق من يد صاحبـه، وخرج يلهث خلفه في منامـه، فانتفض من بين جدران الكنيسة فارًّا من بلقاس إلى سخا، ترك البلدة تغط في هدوئها واتجه إلى العذراء في كنيستها هناك، لكن كلب السماء طارده من جديد إلى القاهرة، فأخذ يلهث حتـى وصل إلى أبوابها، وسقط مغشيًّا عليه أمام كنيسة أبو سيفين، فحمله الشمامسة والكهنة إلى المستشفى القبطي.

كان قـد أصبح شبحًا بلحية وشعر مهوش وجسد ناحل وعينين غائرتين في عظام وجلد محـروق، أمضى أسابيع يتلقَّى علاجًا ينقله من الموت إلى الحيـاة، كان سؤاله الدائم عن سلاحه، قال إنـه خفير في بلده، وأنه جاء لزيـارة أضرحة القديسين، حين سمحوا له بالخروج صلى للرب اعتذارًا عن تأخره عليه، وذهـب إلى كنائس أبو سرجة والمعلَّقة والقديسة بربارة وغيرها دون جدوى، فمال على كنائس الروم والأرثوذكس سائلاً عمن يعـرف دير المـلاح، لكنه لم يجده، وعاوده المرض مـن جديد، فضاقت أنفاسه، وانقبض صدره، وصرخ تحت وطأة الحمى والعرق في السماء:

– أين أنت؟

ظـل يكرر السـؤال كما لو أنه يستولد الرب مـن رحم الصراخ، لكن الـرب لم يلِنْ له، وتركه شهرًا كامـلاً في مصر القديمة يتلمَّس قوت يومه

علــى هيئة متسوِّل، لا يعرف أين تأخذه قدماه، لا يعرف متى سيأكل ولا متى سينام، وحين يجيئه النوم كان يغلق عينيه ويذهب في ملكوته البعيد. كان الناســ يمنحونــه ما في جيوبهــم ويعبرون، بعض الأطفـال أتوا بما في أيديهــم ووضعوه في يده، بعضــ الأمهات رققن لحاله ونزلن لأجله، بعضــ الشباب صفعــوه على رأسه عشرات المــرات ليعرفوا اسمه، وهو يبحــث في صدره عن كلمة الملاح، ظــل يبحث عنها في الأفواه والصدور كما لو أنها مُحيت من الوجود، لا يعرف بمَ يفسر أمره، ولا كيف يحدث الناس عن رجــل زاره في مغارة على مشارف القرى طالبًا منه أن يتبعه لدير الملاح، ولا كيف يخبرهم بكلب ضارٍ يطارده صباح مساء، يريد أن ينهشه في خطفة واحدة لولا أنامل الرب الّتي تمسح على رأسه.

ظــل تائهًــا في الــدروب القديمة شهــورًا وأسابيع، حتــى ظهر له من جديد، جائعًا كما لو أنه لم يأكل منذ سنين، كان صوته يأتي من الأعماق، وأقدامــه تزلزل الأرض، ولم يعرف لم فرح بمجــرد سماع نباحه، فقد انتفض من مكانه صارخًا:

– الرب يتذكرني، الرب يطاردني.

جاء صراخه أمام مسجد قديم، فظنَّه الناس مجنونًا أو مخرِّفًا، وراحوا ينتصرون لله عليه، ولم يتركوه حتى هدَّه التعب، فاستند إلى جدار المسجد وغفــا، فإذ بكلــب السماء ينبح، بينمــا الأرض تهتز من تحتــه، فانتفض أنطونيوســ مهرولاً، ودون أن ينتظر إشــارة الرب كي تخبره بالاتجاه الــذي سيتخــذه، أو بالأرض التي سيحل بهــا، دخل محل حلاق، فطلب من صاحبــه أن يزيل عنه شعــره، ثم خرج للشوارع تــاركًا أمره للسيد ومشيئته.

-٢٥-

أكاد أجـزم أن دميانة أصيبت بلوثة حـين جاءها الأب يوساب غرفتها في مبنى الضيافة، لم تكن تنتظر هذا المجيء في يوم ما، وأدهشها أن تسمع صوتـه أمام بابهـا، لم تعـرف إن كان عليها أن تفتح لـه أم تترك الباب مغلقًا وتحدثه من خلفه، لكن صوته كان حاسمًا في طلب الفتح، كما لو أنه صوت مخبر أو أمين شرطة.

هي تعرف هذا النوع من الأصوات بحكم وظيفتها، تعرفها أيضًا بحكم تاريخ والدها مع الشيوعيين، فقد سجل رقمًا مهمًّا في الذهاب إلى السجن. كان في أسبوعـه الأول بالجامعة حـين أتاه زوار الفجـر بصحبة كلابهم الكبـيرة السـوداء، ثم تعددت زياراتهـم وغيابه، حتى أنـه أمضى ذات مرة عامـين من الغياب في أقبية سوداء، وفي عـام ٦٧ وقف في زنزانته لا يعـرف إن كان عليـه أن يرقـص أم يبكـي، فقد أنهى أخـيرًا دراسته الجامعيـة، لكنه فقد الحلـم وانكسرت البلاد وضاعـت القدس من جديد، خرج مـع رفاقه من السجون يبكون ويعضـدون بقاء ناصر في السلطة، مطالبـين بالصفح والبدء من جديد، لكن هذا الصفح كان من جانبهم فقط، فلـم يمض عامان حتى عادوا إلى الزنازين مـن جديد، ، ليخرجوا باكين منهارين على رحيل ناصر.

في سنـوات السـادات كان النهـر يتجه نحـو المصـب، تراخت قوى صـلاح، وأخذ الشعر الأبيض يظهر على جانبـي رأسه، ونصحه الأهل والأصدقـاء بضرورة الـزواج، وكان علىٍ الجميـع أن يساعده في تلك المهمـة، ظل يحلـم لسنوات أن يكـون بطلاً ولو في فيلـم غرامي قصير، فكل مناضل له رفِيقته، وكل مناضل له قصة حبه التي يعرفها الجميع، ما عداه، لا يعرف لمَ لمْ تقتنع به أيٌّ من الرفيقات، ظل هذا السؤال يطارده حتـى وفاته، ولم يخف عنـه ثقله إلا مكتب المحاماة الـذي فتحه مع زميله

سعد اللــه خليل، فقد نشط في التعامل مع قضايــا البسطاء، وأظهر موهبة في فهم القوانــين والبحث عن الأحكام المعضدة لها، كان ذلك في منتصف السبعينيات التي شهدت زواجه من تريزا التي احترمت محبته للآخرين، هو بدوره أفنى حياته في العمل حتى حقق سمعة جعلت الكثيرين يقصدون بابه، بعضهم كان يريــد تأميمه لصالحهم، وبعضهم كان يريد استغلاله، لكنــه لم يكــن معنيًّا بغير الهروب مــن أسئلته الخاصــة، باحثًا عن ميلاده الجديد وسط ضجيج المحاكم.

مــرت دقائق طويلة على يوساب قبــل أن تفتح له دميانة باب غرفتها، وبين ابتسامة واهنة وعين يملأها التساؤل وقفت تعتذر عن تأخرها، همهم يوساب بكلمات غير مفهومة وجلس على الكرسي المواجه للباب:

– أبونا جورج أمر بأن تأخذي إجازة طويلة.

كان الأمر مفاجئًا بالنسبة لها، فهكذا وبدون مبررات تجد نفسها خارج الديــر، وبدا على يوساب أنه لا يريد مغادرة الغرفة قبل أن تخرج منها، أشــار إليها بجمع أشيائها لأن السائــق ينتظرها أسفل الهضبة، سوف يقلها إلى السويس، ومن هناك تتخذ طريقها إلى القاهرة.

لم تعرف ما الذي عليها أن تفعله:

– لا داعي للمقاومة.

تذكــرت ما حكاه والدها عن هذه الجملــة، فدائمًا ما يبتسم زوار الفجر ويقولونها بأدب جم، ودائمًا ما كان يستوعب الإشارة فيستأذنهم في جمع ملابســه والخروج معهم، تذكرت ذلــك قبل أن تهز رأسها وتبدأ في جمع ملابسهــا بخجل واضح أمــام الرهبان المتطلعين لمعرفــة التفاصيل، كانت تعــرف أن الرهبان طوال القامة الواقفين أمام الباب قادرون على إلقائها من فوق الهضبة، دون أن يسمع أحد شيئًا.

– أنا جاهزة.

قالتهــا باستسلام كما لــو أنها تعــرف المصير الــذي ينتظرها، فنهض الرجل من مكانه:

– ألن تغيري ملابسك؟

بـدا أنها ليلة الصدمات الكـبرى، وبدت المخاوف تتزايـد في رأسها، رأت عينــه تسرح على تفاصيلها، فشدت نفسهــا ونفت رغبتها في شيء، حينهـا هز الرجل يده لتسلُّم مفاتيح الغرفة، وتسليم الحقيبة لطوال القامة، وفي مشهد شبه جنائزي تحرك يوساب ومن خلفه دميانة ومن خلفها ثلاثة من الشمامسة الذين لا تعرفهم، وقبل أن تخرج من البوابة الحديدية وقف يوساب ليودعها:

– لا أظن أنك في حاجة للحديث عن الدير ومن فيه.

صفعتهـا الكلمة، وشعرت أنها موجهة نحو أنطونيوس، فماذا سيحدث معــه، ومن سيكمل التحقيق، كانــت لديها رغبة في السؤال، لكن الخوف ألجمهـا، فكتمت أنفاسها وهزت رأسها وتركتــه دون سلام، فاستدار في اتجاه الكنيسة الكبيرة واتخذ طريقه.

تحركت في اتجاه المنحـدر وأخذت تنزل درجاتــه الرخامية الكبيرة، بينمـا الرهبان طـوال القامة يتبعون خطواتها في سيرهـا، نظرت بعينيها نحـو القباب المحاطـة بكشافات كبـيرة تطلق عليها أضـواء ناعمة، كانت الظلال مـن بين النور والظلمة تمنح أجواء مـن القداسة للمكان، شعرت أنهـا لأول مرة ترى الدير ليلاً من الخارج، وأنه تحفة جميلة، وتساءلت في نفسها عمن يكون وراء هذا الجمال. ربما لو كان ملاك الكاتب برفقتها لأخبرهـا أنه الأب يونان النحاس، ذلك الـذي لم يكن يؤمن برؤية شيء غـير نظيف، فلما تولَّى رئاسة الدير التقــى بالأنبا شنودة وشرح له أهمية المكان وتاريخه، فأوصى الأخير ثلاثة مـن العلمانيين الميسورين بزيارة الدير، وهؤلاء بدورهم فهموا الرسالة ووضعوا خططهم لثلاث سنوات.

شهد المكان ترميمــات واسعة للقباب والقلالي وغرفة الطعام والمذبح، وأصر المتبرعون على أن يكون المدخل قنطرة العبور المقدس من الملكوت الدنيوي إلى الملكوت السماوي، فأمـروا ببناء سور على جانبي المنحدر، ووضعوا الرخـام ورصفوا الأرض المتجهة نحو الـوادي الفسيح، حيث الأرض التي اعتاد الآباءُ زراعتها قمحًا من أجل غذاء الرهبان. كان من

المقـرر أن يصطحب الأنبـا في زيارته جمعًا من الآبـاء والأساقفة لإعادة افتتـاح الدير، لكـن خلافه مع السـادات كان قد تصاعـد إلى حد الإقامة الجبرية في دير الأنبا بيشوي بوادي النطرون.

كانـت المخاوف تمـلأ رأسـ دميانة وتضـرب بجناحـين كبيرين في صدرهـا، فى البدء ظنت أن طـوال القامة الذين نزلـوا معها سيتركونها فور التأكد مـن ركوبها الباص، لكنهم صعدوا معها، وتحرك السائق بها وبهـم. كانت تنظر في كل الاتجاهات في صمت علَّها تفهم ما يجري، لكن السكـون كان قد خيم على كل شـيء، فرفعت عينيها نحو القلالي والقباب صارخة في أنطونيوس أن يأتي لنجدتها.

رأت أن السائـق ليسـ نفسـ السائـق، ولا الطريق نفسـ الطريق، فالذاهـب إلى السويس يمشـي بمحاذاة الجبل، فأين ذهبـت الجبال في هذا الظـلام، رغبت أن تسـأل السائـق، لكنها انطـوت في كرسيها ولزمت الصمت، فما الجدوى من السؤال الآن.

حـين أيقنت أن هذه ليلتها الأخيرة، رفعت عينيها نحو النجوم المتوارية خلـف سحـب خفيفة، رأت القمـر يتسحب من خلف غيمـة داكنة، فتحت النافذة قليلاً ليتسرب هواء رطب لرئتيها، لم تكن تفكر فيما سيجري معها، لكنهـا كانت تفكـر في أنطونيوس، موقنة أن خروجها علـى هذا النحو له علاقة بالتحقيق، فما الذي سيجري معه؟

حين توقـف الباص بدعوى أن ثمـة شيئًا في العجلة الخلفيـة أيقنت أن النهاية اقتربت، لكنها تماسكت وظلت في كرسيها لا تتحرك، رأت الرهبان ينزلون يتداولون مع السائق، رأته يجيئها ليستئذنها في النزول لأن كريك الرفع أسفل الكنبة التي تجلس فيها، استسلمت لطلبه ونزلت لتراهم يفكون الإطـار، كانت الريـح تحمل بعض البرودة وهي تـدوي في الصحراء، شعـرت أنها بحاجة للاحتماء منها، لم تكن هناك غير صخرة على الجانب الآخر، فعبرت الطريـق وذهبت لتجلس بجانبهـا، رأتهم يفتحون الباب الخلفي للباص، يخرجون أشياء لا تعرفها، كان أحدهم يحمل ما يشبه الفأس مبتعدًا عن الباص، وآخران يعاونان السائق بانهماك واضح، تصاعدت

أصـوات الذئـاب في مكان مـا، انتابها الخوف مـن أصواتهـا المتوالية، نظـرت إلى السماء فرأت الغيوم انقشعـت، وأخذت النجوم في الظهور، والقمر ينير ما حوله، فاستبشرت وتراجعت المخاوف، وداعبها النعاس، فأغلقـت عينيها لتسأل أنطونيوس عما حدث، لكنه لم يسمعها، وأخذ يسير بصحبـة رهبان من طوال القامة على الصخرة التي تجلس تحتها، نهضت لتناديـه، رأتهم يحاولون دفعه من الخلف، صرخت فيه بفزع كي ينتبه، فانتبهت إلى أنها كانت تحلم، وأنها جالسة أسفل الصخرة ولا شيء فوقها، رأت السائق انتهى من عملـه، وأحد الرهبان يعبر الطريق نحوها، حين نهضـت من مكانها تجاه الباص لمحت الراهب الثاني يقف خلف الصخرة، فانتفضـ جسدها كمـا لو أن شيئًا تلبَّسها، وأدركـت أنها مقتولة لا محالة، فتراجعـت بخطواتها إلى الخلف، ثم انطلقـت كالريح في الصحراء، بينما الراهبان يهرولان خلفها، صارخين في السائق أن يلاحقها معهما، فظلت تهرول دون أن تدري إلى أين، لكن حركتها لم تسعفها في الابتعاد كثيرًا، فقـد لحقها أحدهما ودفعها على الأرض، بينما هجم الثاني عليها ليصفعها، لكن الراهب الـذي كان في البعيد ناداه فتوقف، وظنت أنه رسول السماء من أجلها، فتقدم بهدوء نحوها ثم ضربها بيده على رأسها فسقطت مكانها.

-٢٦-

في تلك الليلة صمت أنطونيوس ولم يفتح فمه لرفيقه في المغارة بكلمة، كانت الحيرة تكاد تفتك به، فقد صدق الراهب فيما قال، ومات شيخ البلد دون أن تنطلق من بندقية أنطونيوس رصاصة واحدة، بل ودون أدنى حضور له في القضية، ورغم أنه سعى لأن يكشف للجميع عن وجوده وقوته ودوره الذي لم يقم به، إلا أنه لم يفعل أكثر من الإعلان عن دور المسكوتي، فهو الذي استأجر وهو الذي دبَّر، ومن ثم فهو الفائز الوحيد دون خسائر تُذكر، حتى الإحساس بالذنب فلن يصيبه، ربما كان هذا هو السبب الذي دفع أنطونيوس لأن يخرج من مكمنه، وينزل أمام الناس ليسلم على المسكوتي مطالبًا ببقية أجره، ولم يستطع الأخير الاختلاف أو الرفض، فضرب يده في جيبه وأخرج مبلغًا أكبر من المتفق عليه، طالبًا من أنطونيوس الرحيل، فأخذ المبلغ ومال تجاه حقول الذرة، مطلقًا عدة رصاصات في الهواء كي يرعب من يفكر في ملاحقته، هذه الرصاصات هي التي أكدت أن المسكوتي المسئول عن الجريمة التي لم تتم، فدفعته الأكتاف والصدور بعيدًا عن طابور العزاء، ليجلس كشخص منبوذ على دكة بالقرب من الباب، وبعد قليل، وأمام أعين العمدة وأقارب شيخ البلد، خرج باحثًا عن باب بيته، وهناك تلقى الطلقة التي رسخت في صدره، وحين خرج أبناؤه ليستعلموا عما حدث وجدوه ينزف وبجانبه رزمة الأوراق الحمراء ذات المآذن الطويلة.

كان أنطونيوس قد مال وسط الحقول نحو بيت المسكوتي، موقنًا أن العمدة سيقوم بحركة شجاعة مباغتة، لأجل تبرئة نفسه من الارتباط به كقاطع طريق، وبالفعل صدق حدسه، وخرج رجاله إلى حدود القرية مع الصحراء، عازمين على الذهاب لاقتلاع أنطونيوس من صخرته، لكنهم فوجئوا بصوت الرصاص في القرية من خلفهم، فعادوا ليجدوا

المسكوتـــي مضرجًا في دمائه، وزوجته وأبناءه ينوحون من حوله، فدب الضعف في أوصالهم، وتشاغلوا بتجهيز الموتى ودفنهم.

حــين عــاد أنطونيوســ إلى صخرتــه كانــت نجمــة الفجر قــد بزغت بوضــوح، حتى أن السماء التي كانت شبه مظلمة أضيئت كما لو أنها تتهيأ لفــرح ما، وانبلج القمــر على صفحتها في هيئة نصــف رغيف أو أقل، لم يكــن أنطونيوس بحاجــة للتفكير في الطريق، فقدمــاه تحفظان كل حصاة فيــه، تسلق الصخرة صاعدًا عبر شقها الواسع، وتذكر حين لجأ إليها أول مــرة هاربًا من الكلاب والذئــاب، رأى شقها كما لو أنه سلم يصعد به إلى السمــاء، ولم يكن أمامه سوى أن يتسلقه مستكشفًا النهاية، عسى أن يصل لفجــوة يبيت فيهــا حتى الصباح، حين انتهى الشق وجــد نفسه جالسًا على هضبــة تحتمي بصخرة أكــبر، وفي الصخرة ثقب واسع، حين دخله وجد نفســه في غرفة كبيرة تطل على القرى من أمامها، رأى آثار شخص كان يقيــم في المغارة من زمن، فأدرك أن المكان كان صومعة راهب أوً قاطع طريق، فقال لنفسه إن المكان إرث، وقد آل إلى مالك جديد.

مــرت سنــوات عليه وهو مقيم علــى الصخرة، الكل يعلــم بمكانه ولا يرغــب في الاقــتراب منه، الاتفاقــات تأتيه عــبر رجــال اصطفاهم من القــرى، عادة كانوا يقدمــون فروض الولاء من تلقــاء أنفسهم، يجيئون إلى الصخــرة، وينتظرون أسفلها بالساعات كــي يخاطبهم شبحها، عادة ما يظهــر لهم ملثمًا، لا أحد يعرف إن كان هــو نفسه قاطع الطريق الذي سيطر علــى مفارق الطرق أم واحدًا من رجالــه، أم أنه في حقيقة الأمر واحدٌ من أشباح المقتولين على يديه، آلاف المزاعم والهلاوس والخيالات التــي نسجت حــول الصخرة، ولا أحــد يعرف سرها، وحدهــم رجاله هم المسمــوح لهم بالاقتراب منهــا، ينتظرونه أسفلها حتــى يخاطبهم، أو يتجلى لهم، فيتفق على التنفيذ ووقت التنفيذ، لكن أحدًا لم يصعد ولو مرة إلى كفهه.

وحــده الراهب هو الذي صعــد، لا يعرف أنطونيوس كيف ولا متى، فقــد انتبه من نومه ليجده واقفــا أمامه، مبتسمًا في هدوءِ من يتطلع إلى أمر محبَّب إلى نفسه، حين انتفض من النوم رافعًا سلاحه في وجه الراهب وجد

ابتسامتـــه تتسع، وشعر أنه يعرفه، مرَّ بذهنـــه على صور كل من يعرفهم فلم يجــده، ولم ير وجهه في ملــف الذين قتلهــم، ولا الذين هرب منهم، ففتح ملف الأطياف والهلاوس والأحلام، أخيرًا عثر عليه، وجده، كأنه هو، نفس الهدوء ونفــس الابتسامة الفرحة الواسعة، نفس الهدوء المحبب للنفس، كما لو أن طيورًا حطت من السماء لترفرف من حوله، هكذا رآه منذ أيام قائلاً:

– أنا المسيح.

لم يعترضــ أنطونيوســ، ولم يتســاءل عن السبب الــذي جعل الرب يحضر إلى صخرته الفقيرة المنبوذة، لكنه استيقظ من نومه سعيدًا برؤيته، ليســ هناك ما يدعو للسؤال عن سبــب لهذه الرؤية، هو نفسه لا يشعر أن الــرب غاضب عليه، فلديه يقين دائم أنـــه ينفذ مشيئة الرب، وأنه عبد من عباده الصالحين، ورسول مــن رسله، أو واحد من ملائكته، فهل يمكن أن يغضب الرب من عزرائيل لأنه ينفذ عمله؟!

– لو لم يكن الرب راضيًا عن عملي لمنحني عملاً غيره.

هكذا قال ساخرًا حين طلب منه إيمانويل أن يترك عمله ويتبعه، فنظر إلى الأرض وفكر كثيرًا قبل أن يرفع وجهه ليقول جملته، كان يتوقع أن الراهب سيصــاب بالإحباط والفشل، أو أنه سيتمتــم ببعض الأدعية التي تجلب هداية السماء له، لكن الأخير وقف بباب المغارة قائلاً:

– احذر من كلب السماء.

هكــذا تلقــى تهديدًا مشمــولاً بابتسامة لم يعــرف أن كانــت طمأنينة أم سخرية، يمكن القول إنها كانت شبح ابتسامة ارتسم بهدوء نابع من أحشاء الراهــب إلى وجهه، الراهب الــذي حمل صليبه ورحْلــه ونزل من شق الصخــرة ليذوب في الصحــراء مثلما نبت منها، لكنـــه كان قد ألقى بذرته التي أخــذت تنمو سريعًا، فما إن نام أنطونيوس حتى رأى أن كلبًا عظيمًا يحــاول أن ينفلت من تحت أنامل الرب لينطلــق في أثره، ربما كان أسدًا

وليس مجرد كلب، كان يجري منه دون أن يعرف إلى أين، ولا من أين جـاءه هذا الجرم الهائل ذو المخالـب العملاقة والأظافر المسنونة والأنياب التـي تلمع في الظـلام، وحتى إن لم يكن الوقت وقـت ظلام، فهكذا كان يراه، يشق الصخر ويخـرج من أعماق المغارة، كأن جزءًا منها يتحرك نحـوه على هيئة كلـب يقفز باتجاهه وهـو نائم، فينتفضـ أنطونيوس من نومـه هاربًـا، دون أن يعرف إلى أيـن، ودون أن تسعفه سرعته في أن يطلـق الرصاص عليه. في النهاية خرج إلى حافـة الهضبة، فرآه يخرج مـن المغارة خلفه، مجرجرًا ما علق بسلسلته مـن صخور، كانت السلسلة تعوقه لكن صوتهـا والنيران التي تنبثق من جرجرتها على الصخر تجعل أنطونيوس يرتعـد، وخطواته تضيق، فأين يمكنه الذهاب، لم يكن أمامه سوى أن يلتقط سلاحـه وينزلق من شق الصخرة مهرولاً في الصحراء، بينما صوت إيمانويل يرن في أذنه:

- ستجدني في دير الملاح.

-٢٧-

رسائل أوريجانوس (٤)

كنـت قد بلغـت السابعة عشر من عمري، وكان قـد مضى على عملي كمدرس لآداب اليونان عامًا ونصف، لكنني حققت شهرة جذبت الأنظار نحـوي، وأقنعت الكثيريـن بدخول المسيحيـة، فكنت أرسلهـم إلى الأب إكلمندسـ، أستاذي في مدرسة اللاهـوت بالكنيسة، ليلقنهم الأصول التي ما كان بمستطاعي تعليمهـا لهم، لأنني أدرس في بيوت الوثنيين أنفسهم، ولو علموا بأمري ما تراجعوا عن قتلي.

في تلـك الآونـة طلب إكلمندس مـن البطريرك ديمتريوسـ أن أكون مساعـدًا لـه في التدريس بالمدرسـة، فوافقه على ذلـك، كان ديمتريوس يعرفنـي منذ زمن، والحق يقـال إنه شملني برعايتـه وفضله، كان ذلك قبـل أن يدب الخلاف بيننا، وقبل أن يعتبرني مارقًا مخالفًا للتعاليم، وهأنا أكتـب لك الآن عن الأمر وديمتريوس في ملكوت السماء، وكلما تذكرت مـا جرى أشعر بأننا كنا حمقـى، أضعنا أعمارنا في سوء فهم كبير، لكنني أيضًـا أشعر براحة صدر، صدقني.. أنـا الآن لا أحمل في قلبي ذرة حقد أو غضـب عليـه، على النقيض أشعر أنه ما كان لـه أن يفعل إلا ما فعله، فالإنسان ابـن طبيعته هو، ابن أوهامه وأفـكاره ولحظة اتخاذه لقراره، لذا لسـت غاضبًا من ديمتريوسـ، بل على النقيض ممـتنٌّ لما فعله معي، بدءًا من رعايتـه لي، وصولاً إلى تفجيره كل مكامن طاقاتي، لقد صرت العلامة بفضله، صرت صاحب مدرسة بفضله، وجاءت تفاسيري العديدة بفضلـه، لقـد كان بمثابة الإله النقيض، كان شيطـاني الذي يحركني نحو الأمام، يضيق عليَّ الخناق في مكان لأفر إلى مكان أرحب، أنا شاكر له، وأرجو أن يكون نعيم السماء قد طهَّر قلبه من الغضب علي.

شعرت حـين أبلغني إكلمندس بموافقة ديمتريوسـ أن المسيح ينظر لي

من علياء السماء بعينـي الرضا، فظللت أصلي حتى خشيت أمي أن أكون قد متُّ على حالي مثلما مات سليمان على كرسيه، حين أبلغتها بالأمر رقصت كعادة المصريين حين يجيئهم خبرٌ مفرح، فأخذت بيدها ورقصت معها، متذكرًا أبي ولحظة الفرح التي لا بدَّ أنه يشاركنا إياها من ملكوت السماء، كنت موقنًا أنه يرقص بيني وأمي، فقد صار ابنه مساعدًا لرئيس مدرسة اللاهوت، وكنت أنظر إليه بعين الرضا، وكأنني أقول إن عليه أن ينتظر، فأمامي الكثير، وأنا لا بدَّ أن أحقق أكثر مما يتوقع أهلي وأساتذتي جميعًا.

كان كليمنت أستاذي منذ دفع بي أبي إليه لأتعلم على يديه، لم أبتعد عنه إلا في العام الذي حبستني أمي في قمرتها كي لا يلقي الجنود القبض عليَّ، تمامًا كما فعلوا بأبي، هذا العام عملت فيه لدى السيدة ثيكاتا، لكنني حين فكرت في التدريس للوثنيين لم أستطع أن أتخذ هذه الخطوة إلا بعد موافقته، كان عالمًا وقديسًا جليلاً، لعلك تذكر فضله في ضبط تعاليم المسيح بكنيسة أورشليم بعدما ترك الإسكندرية، فحين اشتد بطش سبتيموس ساويرس فر الجميع بأنفسهم، وكان من بينهم إكلمندس الذي قرر الذهاب إلى أنطاكيا، وفي طريقه إلى هناك مرَّ بأورشليم، واستقر فيها حتى تنيَّح.

حين ترك الإسكندرية ظلت مدرسة اللاهوت خالية، لا أحد يرأسها، ولم يكن عدد أساتذتها يتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولا عدد التلاميذ المترددين عليها يتجاوز الثلاثين تلميذًا، فالكل خائف، لأن جنود سبتيموس في كل مكان.

عرض عليَّ ديمتريوس رئاسة مدرسة اللاهوت خلفًا لإكلمندس، ولم أعرف بمَ أجيبه، فأن أكون في الثامنة عشر من عمري خليفة لإكلمندس الفيلسوف والمعلم صاحب "المتفرقات" و"نصائح إلى اليونانيين" فذلك شأن لم أكن أحلم به في هذه السن، وهو مغامرة كبرى، فتعاليم كليمنت تملأ أرجاء الإسكندرية، الفلاسفة في رأيه أطفال ينضجون من خلال الإيمان، ومن ثم فالفلسفة ليست شرًّا، لكنها منحة من السماء، لأن البشر هم الذين يخلطون الحق بالباطل وليس الفلسفة ولا الفلاسفة، هكذا كان يزاوج بين

نقيضين لا يجتمعان، وزاد في الأمر أن قال بأن الغنوسية ليست هرطقة، لكنهـا تمتع بالإعلان عن الله من خلال السيد المسيح المعلم، لذا فغنوسي لا تعني هرطوقيًّا، بل مسيحيًّا مؤمنًا يسلك بروح الرب وينعم بمعرفة الله.

فلسفتـه هذه صارت تمـلأ الآن البر والبحر، وانتشـرت بين المؤمنين كالنـار في الهشيم، فمن الذي سيوقفها، وكيف له ذلك، ومن الذي سيملأ مخيلة الناس بعلمه عوضًا عن فلسفته ومعرفته.

يومهـا قررت أن أكرِّس حياتي لعملـي الجديد كمعلم للموعوظين، في البدء عملـت على إعدادهم وتهيئتهم للعمـاد، لا بتعليمهم الإيمان المسيحي فحسـب، وإنمـا بتقديم التعاليـم الخاصة بالحيـاة المسيحية العمليـة أيضًا، ولم يقـف عملي مع الأعداد المتزايدة على تهيئتهـم لنيل سر العماد، وإنما تهيئتهـم أيضًا لقبول إكليـل الشهادة. وقمتُ بتقسيـم التلاميذ إلى فصلين، جاعـلاً المبتدئين تحت إشـراف هيراكليس، حيث يعلِّمهـم المبادئ الأولى للإيمان، أما أنا فقد عكفت على تعليم المتقدمين اللاهوت والفلسفة، واضعًا الكتـاب المقدس نصب عينيَّ، مؤكدًا للجميـع أنني أعمل من خلال الفلسفة على خدمة النص، وشرعت في تفسير الكتاب المقدس وفقًا لمنهج رمزي، حيث أستنبط المعاني الباطنية للآيات والمواقف والأحداث، ذاهبًا إلى أنه لا يمكـن أن تخضع الكتب المقدسة لقراءة مباشرة، فهذا لا يحدث مع الخطب والملاحم، فكيف يحدث مع مواقف الرب ومقولاته!

على الجانب العملي وظَّفت طاقاتي لتقديم حياتي كمثل للحياة الإنجيلية. مهتمًّا بحيـاة النسك وممارسـة الصلاة كمنهج يساعد علـى تحرير النفس واتحادهـا مع الله، لذا جعلت مـن الصلاة نعمة خاصة مـن قبل الله لفهم كلمتـه، مؤكدًا أن الاتحاد معه لا يكـون إلا بالحفاظ على الحالة البتولية، وأن على الإنسـان أن ينسحب عن العالم وهو لا يزال مقيمًا فيه، مضحيًا بالترف ومحتقرًا المجد البشري، كي يكون حاله كله لله.

ظـل أمري على هذا النحو عامـين أو ثلاثة، والمؤمنون يتزايدون من حـولي كل يوم عـن سابقه، حتـى أن النسوة صرن يتدفقـن من أطراف المدينة لسماع موعظتي، كنت أجلسهن في صف وأجلس الشباب والرجال

في صفــين، كثيرات كــن يسعــين لأن يجذبن انتباهي، كثــيرات تفنن في إلقــاء أسئلة أو حكي مواقف تحــدث لهن، طالبات مني الرد على هواجس الشيطــان لهن، كنت أتحلَّى بالصبر قدر المستطاع وأنا أجيب عن أسئلة ما كان لبني إسرائيل أن يسألوها.

وفي غمار هذه الأسئلة التي لا إجابات لها عندي رأيت ميريت، وقعت عيني عليهــا في ثيابهــا البسيطة ووجههــا الجميل، كان مــدورًا كالبدر، ناعمًا كفراشــة، مضيئًا كشمعة في الظلام، رأيتها وسط أقرانها صامتة لا تتحــدث، ولا تفكر في طــرح سؤال واحد، فقط تجلــس كملاك نزل من السماء ليكــون شاهدًا على موعظتي، توقفت عن الــكلام، ربما خاطبتها في داخلــي أن تنهضــ لتقــول ما لم تفكــر في قولــه، ورددت بداخلي بما كان ينبغــي علي الرد به عليهــا، ربما غازلتها في صــدري، وتمنيت أن أضمهــا إلى قلبي، أو أغزوها بآلتي، فلأول مرة أشعر أن شيئًا في داخلي يتحــرك نحو الإنــاث، وأنني لست حجــرًا لحفظ الــكلام وترديده، أنني إنســان له رغبات وأحلام وخيــالات، ورأيتني أنتفض من داخلي، بينما الموعوظون يهتفون باسمي:

– أيها الأب أوريجانوس.

حين انتبهت إليهم وجــدت ابتسامات على الوجوه، بحثت عن ميريت بطرفي من جديــد، ورأيت احمرار وجهها، فعلمــت أن ثمة شيئًا ما كان ينبغــي أن يكون مخفيًّا، شعــرت أن جبهتي تنزف عرقًــا، فجففتها بيدي وعدت لما كنــت أتحدث عنه، لكنني لم أستطع أن أكمل، فقد تشتت فكري وعقلي، واهتزت قواي مني، فأنهيت الموعظة واعدًا الحاضرين بإكمالها في الغد.

يمكننــي أن أعــترف يا صديقي أمامــك الآن بأنني فكــرت في ميريت بحيوانية مفرطة، فوجهها الملائكــي وجسدها اللدن لم يفارقا مخيلتي، فقد وقفــت أنظرهم وهم يعبرون مــن الباب أمامي في طريقهــم إلى الشارع الواســع، لم أكن أفعل ذلك كثيرًا، لكن الجمــال الهادئ لتلك الفتاة جعلني

أقف مشدوهًا أمامها، باحثًا بعيني عنها بين زميلاتها وجاراتها، بدا لي أن أمها كانت معها، بدا أيضًا أنها شرحت لها الرسائل، فقد وضعت عينها في الأرض، عينها الكبيرة الواسعة ذات الرموش الطويلة السوداء، بينما رفعت يدها ملابسها عن الحصى، فبدت كملكة ترفع إزارها عن الدنس، لا أعرف كيف سمحتُ لعيني أن تمر على صدرها العريض، حتى أنني على البعد لمحتُ منبت الصدر، ونزلت بطرف عيني على الخصر المشوق كعود من بخور، وكفارس يحيي أميرة آن عبورها من أمامه انحنيت، أو هكذا تصورت، مسدلاً رمشي على عيني، بينما شبح ابتسامة صغيرة من فمها يطل عليَّ.

كنت موقنًا في هذه اللحظة أن الرسالة وصلتها، حتى أن أمها نفسها أدركت أنني أريدها أن تؤكد لي على استلامها، وظللت طيلة الليلة مبعدًا كتبي وأوراقي جانبًا، فلأول مرة لا رغبة لدي في الكلام أو القراءة، لأول مرة أشعر أنني أريد أن أجلس على سطح بيتنا لأتأمل النجوم والسحب، نعم فعلت هذا، تركت إخوتي يتسامرون في غرفة المعيشة وصعدت وحدي أرقب وجهها، تارة أراه في قرص القمر، وتارة أراه قادمًا من بين النجوم، حتى غلبني النوم في مكاني، ووجدت أمي توقظني لأعود إلى فراشي، أذكر أنني نهضت دون أن أجيب عن سؤال واحد من شلال أسئلتها المتلاحق.

في الصباح، وكان النوم ما زال ملاصقًا لعيني، ذهبت إلى المدرسة، ظللت أنتظر قدوم ميريت مع أترابها، لكنها لم تأتِ، كدت أجن، ورغبت في أن أسأل عنها، لكن ذلك لم يحدث، شعرت بنوع من التعاسة والضيق، نوع من الرغبة في الثورة والغضب، تشاجرت مع رجل سألني إن كان المسيح ابن الله فمن يكون يوسف النجار، لا أعرف ما الذي جعلني أشعر أن الرجل يهين الرب، وأن هذه الأسئلة قد تفتح أبواب الشيطان، ثرت عليه، محذرًا من أن الشيطان الذي يكمن في التفاصيل، يكمن أيضًا في طرح كل ما ليس مطروحًا، وبغضب أنهيت العظة.

سيطرت عليَّ حالة من الغضب غير المفهوم، لا أمي قادرة على

إرضائـــي، ولا أي من تلامذتـــي قادر على فهمي، حتـــى ارتباطاتي مع القساوسة والآباء اعتذرت عنهـا، وحبست نفسي في حجرتي، مدَّعيًّا أن لدي عملاً أريد أن أنجزه، لكن العمل الوحيد المتاح كان معاقبة نفسي على ضعفها، وانحرافها عن المسار الذي وضعته لها، وأمام رغبتي في عقابها على ما حـدث قررت أن أفعل كمـا قال الإنجيل "يوجـد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السمـوات"، باحثًا بذلك رضا الرب، ملتزمًا بنص حديثه، فبحثت عن الشفـرة التي كنت أحلق بها، وقمت إلى نفسي واضعًا حشوة من قماش في فمي، ثـم أمسكت بخصيتي وجذذتها بالشفرة، مطلقًا صرخـة مدوية من الألم، دخلت على أثرها أمي إلى الغرفة لتجدني غارقًا في بحر من الدماء.

-٢٨-

خرج من القاهرة منتشيًا بأن كلب السماء ما زال يعرف طريقه، وهو مــا يعني له أن الرب لم يهملــه، ولم يحكم بتركه في المتاهة والضلال، فما زال تحت عــين الله، يريــده في الطريق الصواب، لــذا كان يهرول في الطرق متسمعًــا صوت السماء وكلبها، مذكرًا نفســه بوجه الراهب الذي جاءه في المغارة، الراهب الذي لم يبت سوى ليلة واحدة وقلب حياته رأسًا على عقب، فترك مهنتة التي تخيل أنها قدره المحتوم، وأخذ يلهث خلفه في الطرقــات، متخليًا عن الرعب الذي كان يثيره في عيون الناس وقلوبهم، ليتلبَّسه هو الرعب من كلب السماء ومخالبه.

كثيرا ما تمنَّى أن تعود الأيام الخوالي، حيث قريتهم التي على هوامش القرى، والتــي تبدو كما لو أنهــا تركت سوأتها للصحــراء، فجاءها منها أصحــاب اللحى العتــاة، فطالبوا أهلها بدفع الجزيــة، لم يتوقع في يوم أن يكون مختلفًا عن الجميع، ولا أن يطالب الناس بالرفض والعصيان، لكن الجزية إهانة، الجزية إقرار دونية وتبعية، فمن الذي ذكَّرهم بها الآن؟

حــين علم الأمير بأمره قرر أن يجعلــه يطرق على باب كل بيت طالبًا الجزية مــن أهله، كان راغبًا في كسر كرامتــه وزرع الخوف في نفوس الآخرين، وكان الخــوف يغلف الجميع، هم خافوا عليه من الموت، وهو خاف علــى بيوتهم من الحــرق وأطفالهم من القتــل ونسائهم من الهتك، وحــين سمع بأحــكام الأمير وأنه لا يساكنه فيها قــط، أيقن أنه فقد كل من يعــرف، رأى والده يسقط أمامه غمًّــا، ورأى أمه لا تعرف هل تصرخ عليه أم على زوجها، فظلــت تلطم وجهها حتى سقطت بين أيدي الناس، ولم يستطع أن ينحني ليحمل أيًّا منهما، رأى القرية تطلق كلابها وسفهاءها في أثــره، ولم يعرف كم استغــرق في هلعه وخوفه، ولا كم كان عليه أن

يقفز بين الأحجار والحفر خوفًا من النباح والأنياب والمخالب، كان ينظر إلى الخلف ويجري، ينظر إلى الأمام ولا يدري أين سيضع قدميه في الأرض.

ظل الخـوف يطارده حتى انكفأ على وجهه، لا يعرف مـن أين أتته هذه الحفرة ليسقط فيها، فالأرض لم تكن مستوية، لكن لم تكن بهذا القدر مـن الهبوط، كما لو أن أحدًا حفرها بفأسه ويديه من أجله، فظهرت تحت قدميـه فجـأة، فلم يتمالك نفسـه، وسقط فيها على وجهـه، فأظلمت الدنيا عليه، وغاب عن وعيه.

كان موقنًا أنهم اقتربوا بما يكفي لأن يقتلوه، هكذا سمع صراخهم ونباح كلابهم حين استفاق من موتـه، شعر بالتراب الذي أثارته أقدامهم، لكنه ظل كامنًا في مكانه، فهو ميت، وليس هناك ما يستحق النضال من أجله، ظـل منتظرًا أن يأتيه موته على يد شخصـ أو شبح، لكنه لم يأتِ، هدأت الأصوات وخفـت الأقدام وسطع القمر ولم يأت، هاجت الكلاب وعوت الذئـاب ونزل الـبرد دون أن يأتي، كل ما أتى هـو إحساسه بأن جراحه تزيـد عليه، بينما الذئاب تنثر الـتراب عليه، ورائحتهـا النتنة تملأ أنفه، وتخيـل لو أنها نزلت إليه، لكن الرب سـتر، فقد ظهرت جماعة من أهل الليـل، وقرروا أن يطردوا الذئاب بعيدًا عـن غنيمتهم، وبدافع الفضول ألقى أحدهم ضوء كشافه في الحفرة، سطع الضوء على وجه أنطونيوس، فأخـذ يئن بصوت عـالٍ من مكانه، حتى أنهم تصـوروا أن ذئبًا قد أكله، فألقوا إليه بحبل وجذبوه إليهم، فسار معهم إلى حيث التبة التي يأوون إليها في الجبـل، فعالجوه وأعطوه بندقية يتعلـم عليها التصويب وتركوه يذهب ليأخذ ثأره بنفسه.

وضع أنطونيوسـ بندقيته على كتفه ونزل مـن التبة باحثًا عن طريق عودتـه إلى القرية، بدت له الصحراء رغم اتساعها واضحة المعالم، فظل يمشي حتى وصـل إلى قرية الجهاديين من الخلف، كمُن في مكانه منتظرًا أن يعـرف من أين يمكنه أن يبـدأ، كان يعلم أن أصحاب اللحى يتجمعون كل ليلـة في كوخ الأمير على قناة المـاء، فكر في أن يكمن في حقول الذرة منتظرًا مرور أحدهم فيقتله، لكنه عاد وقرر أن يباغت الأمير نفسه. كان

الأخــير في الأربعين من عمــره، ممتلئ بعض الشــيء، حين طرق بابه خــرج رجل آخر، وبدا أنه كان ينتظر رفاقًــا آخرين، وضع أنطونيوس بندقيته في عنق الرجل ودفعه حتى دخل به إلى الأمير، فطلب من الرجل أن يربطه من قدميه، وتحت فوهة السلاح ونظرة الشر التي ملأت وجهه أطاعه الرجل، وما إن انتهى حتى نزل أنطونيوس بمؤخرة البندقية على رأسه، ثم طلب من الأمير أن ينهض، وكان الأخير ينتفض من الرعب، فأطاعــه في كل مــا يريد، حتى أنه خلــع ملابسه ووقف عاريًــا أمامه دون تأخــير، وكان هذا آخر ما طلبه منــه أنطونيوس، فلم يستطع أن يصبر أكثر من ذلــك على قتله، حين ضغط على الزناد وانفجر الــدم أمام عينيه أدرك أنــه الآن أصبح قاتلاً. في البدء ارتجفــت أوصاله، لكن الأمير كان قد مات بالفعل، شيعه برصاصة أخرى ليتأكد عبوره نحو الرغبة الدائمة في القتل.

كان هــذا أول دم يجري على يديه، بعدهــا خرج من الكوخ، وجلس على مقربة منه حتى جــاء أتباع الأمير إلى المكان، كان يعلم أن صاحبهم لم يمــت، وأنه سيخبرهم بمــا جرى، فخرجوا باحثين عنــه، كانت ثالث رصاصــة لــه في رأس الرجل الــذي أبلغهم، وأسقط في يــد الجميع حين وجــدوا أنطونيوســ واقفًــا بينهــم وفوهة بندقيتــه على رأســ أحدهم من الخلــف، طالبًا منهم أن يلقوا سلاحهم في الأرض، بعدها أمر واحدًا منهم بــأن يقيدهم على نحو ما حدث مع الأمير، ثــم وقف ليطلق عظته الأولى على رءوسهم، مهــددًا بأنه لو علم أن قبطيًّا حدث له مكروه في القرية أو غيرها فلن يتورع عن قتلهم في بيوتهم، ثم تركهم وفر إلى حقول الذرة، ذلك الجبل الأخضر الذي يختفي فيه كل شيء.

هكذا علــم الجميع بتحول أنطونيوس من رجل يقــرأ ويكتب إلى رجل يقتــل وينهب، ولم ينس أن يخرج من القرية مثلما دخلها، فلا عزاء لأهله ولا مصافحة لأصدقائه، فقط ظل يهرول في الصحراء حتى وصل إلى تلك الصخرة التي بدت كما لو أنها في انتظاره، كان شروق الشمس وغروبها علــى جلده قد جعله يعرف كيف ينام مغمضًا عينًا وفاتحًا الأخرى، وكان عليــه أن يستيقظ في الصبــاح كي يعلن عن وجــوده كقاطع طريق وقاتل مأجور.

-٢٩-

نعق غراب عجوز على بــاب حجرتي، في البدء لم يشغلني صراخه، فعادة ما تصرخ الحدآت والغربان في المكان، لا جديد في ذلك، هكذا قلت لنفســي حين تعلَّق قلبي بالصوت الزاعق في هذا الوقت من الليل، غير أن أذنيَّ أخذتــا ترهفان السمع، وسرعان ما انتابني إلحاح غريب كي أخرج فأستطلع الأمر، نهضت من فراشي متمتمًا باسم المسيح الحي أن ينقذنا من الشرير.

لم يكــن هنــاك ما يستدعي الريبــة، كل شيء هــادئ وساكن ووديع، حتــى الغراب الذي شعــرت أنه صرخ أمام الغرفة لم تقــع عليه عيناي، بــدا لي أن الدير أصبح مسكونًا بشبح مــا، أو أنني الذي أصيب بالجنون، نظــرت إلى صفحــة السماء العاريــة مستطلعًا نجومها، ورأيــت أن الليل انتصف ولا يمكن لأحد سواي أن يكون مستيقظًا، فركْت يديَّ في بعضهما وقررت العودة إلى فراشي متثائبًا، لكنني ما إن استدرت حتى لمحت على البعــد ضوء غرفة دميانة مضاء، لم يكــن في مبنى الضيافة غيرها في ذلك اليوم، حاولت أن أقنع نفسي أنها ربما ما زالت تقرأ رسائل أوريجانوس للبابــا ديونسيوســ، تلك التي نشرت ضمن كتــاب أثناسيوس عن القديس أنطونيوســ، فقــد ذكرت لي أنهــا غرقت في تفاصيل الكتــاب الذي أحيل بسببه أنطونيوس إليها.

خطفنــي من شــرودي نعيق جديد لطائر أسود عمــلاق رأيته يرفرف أعلــى الجبــل، كان نعيقًا قويًّــا ومؤلمًا، كما لــو أن أحــدًا كان يشد وثاق الغــراب تأهيــلاً لصلبه هناك، صرت موقنًا أن ثمــة شيئًا غريبًا يحدث في الدير، جلست في مكاني أمام مخزن الكتب على أمل أن تهدأ وساوسي أو

يـراودني النوم من جديد، ولم يمر كثير مـن الوقت حتى وجدت راهبيْن مـن المكلفين بحراسة الدير يعـبران باتجاه البوابة، بعدهـا وصل أتوبيس سياحي صغـير وأطلق صافرتـه مرتين أسفل المـدرج الرخامي، واتجه راهبان يتمتعان بطـول القامة نحو البوابة والمدرج، وعاد الحارسان إلى مبنـى الضيافة من جديد، حينها أيقنـت أن ثمة شيئًا ما يحدث، ووقفت في ظل الباب مراقبًا مـا يجري، رأيت الأب يوساب يمشي وخلفه دميانة في حالة من الفزع وخلفها ثلاثة من الرهبان طوال القامة، كان أحدهم يحمل حقيبة ملابسها.

ظللت أرقب المشهد حتى توقف الجميع أمام البوابة، وسمعت صريرها العجوز وهي تُفتح وتغلق، سمعت توسلات من دميانة بالبقاء حتى الصباح، بعدها عاد يوساب متجهًا نحو قلالي الرهبان المجاورة للكنيسة الصغيرة.

أغلقت بابـي وأقنعت نفسي بضرورة النوم، لكـن النوم لم يعرف لي طريقًا، فقد انتابتني الهواجس والأفكار الشريرة، حاولت طردها بمختلف السبل دون جدوى، في النهاية قررت أن أبحث عمن يحمل عني بعض ما أعانيـه، أخيرًا وصلت إلى الشخص الذي يمكن الوثوق به، لم يكن سوى أنطونيوسـ، هذا الـذي يهمه أمر دميانة مثلي، تطلعـت من فرجة الباب إلى مـا يجري في الخـارج، كان القمر قد انـزوى في جانب من السماء، وتكاثفـت الغيوم على وجهه، شعـرت ببرودة جعلت جسـدي ينتفض، وددت لـو أرجع مكاني لأنام حتى الصبـاح ولا ينكشف أمري، لكن كل شيء كان يدفعني نحو قـلالي الرهبان، بينما نعيق الغربان يتزايد في قمة الجبل.

كانت خطواتي تتسارع على الأرض، متسحبًا بجوار الحوائط ومتخفيًا في ظلال المباني، حين وصلت إلى قلاية أنطونيوس أخذت في طرق خفيف على بابها، كان توتري أكبر من طرقاتي على الباب، فالخوف أن يسمع أحـد غيره ويخرج لينظر ما يجري، ناديته بصوت خفيض، صوت كان يدخـل إلى جوفي أكثر مما يخرج منه، ورحت أبتهل إلى الرب بحرقة أن

يوقظــه، ويبدو أن المسيح كان معي، فثمة حركة أخذت في الظهور داخل القلاية، حينها نزعت خوفي وركلت البــاب بقدمي، فوجدت أنطونيوس واقفًا أمامي بملابس نومه.

نحيتــه جانبًا وألقيت بنفسي إلى دخل الغرفة، حين أغلق الباب متسائلاً عمــا يجري أخــذت في إبلاغه بمــا رأيت ومــا سمعت، اشتعــل الغضب في جســده، وكل مــا سيطر عليــه هو أن دميانة في خطــر، وأنه لا بد من حمايتهــا، بدت عليه الرغبة في عمل شيء ما، شــيء ينقذها مما هي فيه، لكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه عمله، قال إنه سيذهب إلى يوساب سائلاً عمــا حدث، حذرتــه من أن ذلــك لا يفيدها في شيء، وربمــا سيزيد من ورطتها ويورطه معها، وهم لن يسمحوا لأحد أن يفضح أمرهم، شعرت أنه يستجيب لكلامي، لكنني في النهاية شعرت أن بقائي أصبح يمثل خطرًا عليَّ أنا أيضًا، فأقنعته بالصلاة من أجلها، ثم تركته عائدًا إلى المكتبة.

في الصبــاح كان كل شــيء هادئًــا كأي يــوم آخر، خــرج الشمامسة والرهبان من قلاليهم وغرفهم مــع إشراقة النهار لتأدية أعمالهم، ونشط الفلاحــون في حرثهم وبذارهم ورعايــة مواشيهــم، وتسامعت أصوات الديكــة وهــي تصيح ككل صباح. كل شــيء بدا معتادًا كما لــو أن شيئًا لم يحدث، وحدي الذي كنت أترقــب أن يقع أمر غير معتاد، أو أن يفتضح الأمر غير المعتاد، ويأتي بتداعياته على الجميع، لكن شيئًا لم يحدث، حتى أنطونيوســ نفسه لم يخرج من مكانه، ورأيته بعد القداس يتجه إلى مركز التحقيقات، بدا لي أنني الوحيد المختلف عن طبيعته، ارتديت ملابسي على عجــل وذهبت خلفــه لأفتح المركــز في انتظار المحققة دميانــة التي أعرف أنها لن تجيء، ألقيت عليه تحيــة الصباح وأعملت مفاتيحي في ثقب الباب معتذرًا عن التأخر، ورد هو أيضًا باقتضاب كما أنه لا يعلم شيئًا، كدت أن أصرخ فيه عما حدث وجعله باردًا بهذا الشكل، لكن الحق يقال إن الرجل كانــت عيناه مرهقتــين كما لو أنهما لم تعرفا معنــى النوم، نظر نحوي في يأســ مشمول بالغضب، فتركته وذهبــت لأحضر له كوبًا من اللبن، لكنه بادرني:

– ألم تأتِ المحققة دميانة بعد؟

مــن جديد نظرت مندهشًا نحوه، فإما أنه أصيب بجنون أو أن ما رأيته بالأمس كان حلمًا، وأمام إصرار عينيه الواسعتين قررت أن أسايره:

– سأرسل في استعجالها.

تركته وأرسلت إبراهيم الساعي ليستعجلها، فقد انتصف النهار ولم نبدأ في أي مــن أعمالنا، ولا أدري مــا الذي جعلني أذهب لعمــل القهوة بدلاً منــه، ربما سعيــت لأن أشغل نفسي بشيء ما، حــين عدت وجدت الأب يوســاب واقفًا أمام غرفة التحقيقات يرقــب أنطونيوس في صمت، وحين رآني سألني:

– لمن تصنع القوة بنفسك يا ملاك؟

تلعثمت قائلاً:

– أرسلت إبراهيم لاستعجال المحققة دميانة، فطلب مني أن أكمل عمل القهوة.

هز رأسه قائلاً:

– المحققة دميانة سافرت بالأمس، فقد أنهى الأب جورج عملها في الدير.

كان يلقــي بكلماته ضاغطًا على مخارج الحروف وكأنه يصبها في أذن أنطونيوســ واحدة تلو أخــرى، حينها أدركت كــم كان أنطونيوس فطنًا حــين تعامل في هــذا الصباح كأنه لا يعرف شيئًــا، ولا أدري لم ارتاحت أعصابــي بعدما كان التوتر سيقتلني، فقد شعرت أن أحدًا فقأ دملاً بداخلي وأخرج صديده من جسدي، فوقفت أنظر للرجلين وكلاهما ينظر في عين الآخر بتحــدٍّ غريب، وحين عنَّ لي أن أنطونيوســ قد يكشف عن غضبه ويتفوه بما لا يجب أن يبوح به، قررت أن أتدخل:

– هل سيتم انتداب محقق آخر؟

ابتسم يوساب وهو ينظر بطرف عينه نحوي:

- لا . . التحقيق مع القساوسة والرهبان سيكون في الأبرشية.

ثم استدار نحو أنطونيوس:

- ومن سيجد المجلس أن أفكاره تستحق الحرمان فلن يترددوا.

حينها رفع أنطونيوس وجهه مبتسمًا:

- هل سيراجعون أفكار الجميع؟

هز يوساب رأسه بغضب:

- ربما.

ثم استدار مشيحًا بيده في وجهي طالبًا إغلاق المكان.

-٣٠-

- أسبوع الآلام هو أقدس أيام السنة يا أنطونيوس.

هكـذا نظر باخوميوسـس إلى تلميذه وراح يتحدث كمـا لو أنه يعظه من جديد:

الملوك والأباطرة كانوا يمنحون الناس عطلة في هذا الأسبوع، يمنحون موظفـي الدولة عطلة ليتفرغوا للعبادة، ثيؤدوسيوس كان يطلق الأسرى والمساجـين ليشتركوا مع باقي المؤمنين في العبـادة، السادة كانوا يمنحون عبيدهم عطلة، لأن الوحي قـال "لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وابنتك، وعبـدك وأمتك وبهيمتك، ونزيلك الـذي داخل أبوابك"، الرب لم يسمح بـأن تكون روحانيات السـادة مبنية على حرمان العبيـد، فالكل للرب، يعبدونه معًا، ويتمتعون بحضـوره في قلوبهم معًا، مظاهر الحزن تكون واضحة على الجميـع، أعمدة الكنيسة تكون ملفوفـة بالسواد، الأيقونات يجللها السواد، وكثير من الجدران والمانجليا، حتى الهواء يتضمخ بألحان حزينة، والنسـاك يمضون أيامه في صلوات ونسـك، جوعًا يجوعون، وظمأ يظمأون، وآلامًا على آلامهم يتوجعون، المؤمنون لا يأكلون سوى الخبـز والملح من مساء الخميس حتى قداسـس العيد، والضعفاء لا يتذوقون حلوًا فيه، لأنه لا يليق بهم أن يأكلوا حلوًا وهم يتذكرون آلام الرب، جميع الأسرار تُعطَّل، ما عدا الاعتراف والكهنوت، فلا معمودية ولا ميرون، لا بخور يرفع ولا قداس يقام، إلا في خميس العهد وسبت النور، لا زواج ولا مسحـة مرضى ولا صلاة تجنيز، من ينتقل في أسبوع الآلام لا يرفع عليه بخـور، وصلوات الأجبيـة تعطل، وتحل تسابيـح البصخة محلها، صـلاة البكور نتذكر فيهـا ميلاد المسيح، صلاة منتصـف الليل نتذكر فيها مجيئه الثاني، وصلاة الثالثة نتذكر حلول الروح القدس، صلاة السادسة تذكرنا بصلبه، وصلاة التاسعة تذكرنا بموته.

بكى باخوميوس حين ذكر موت المسيح، وتوقف عن موعظته التي لم يجد جمهورًا لها غير أنطونيوس، ولم يشأ الأخير أن يحرمه من نشوة الانطلاق في الموعظة، تلك التي اعتاد أن يتجلى بها على الشعب في زمن صديقه إيمانويل، بوجه مبتسم، وجسد ممتلئ كبرميل صغير، لكن روحه كانت تحلق على رءوس الجميع بمرحها المعتاد كفراشة بيضاء، كان باخوميوس أيقونة الآحاد، كثيرون كانوا يشدون الرحال من أجله، الآباء والأمهات والأبناء، جميعهم يتنادون من البيوت في القرى والخيام في الصحارى لأجل سماع موعظته، الآحاد جميعها من أجل باخوميوس، ما من صلاة تمر في هذا اليوم طيلة سنوات إيمانويل إلا وباخوميوس يطلق بخورها، ويدعو الرب من أجل أن يتقبَّل الجميع في ملكوته.

– لم أسموه بالبصخة؟

سأل أنطونيوس في خشوع، كمن يبلغ صاحب الوعظة أنه بحاجة لعظته، فنظر باخوميوسٍ في وجهه مبتسمًا، ثم مد يده وقبض على رأسه ووضعها على صدره قائلاً:

– لأن فصحنا المسيح؛ وقد ذبح لأجلنا. فإننا نتذكر أن دمه كان عوضًا عنا، وأنه لا خلاص بغير الدم.

رفع أنطونيوس وجهه من على صدر باخوميوس:

– ألا خلاص بغير الدم؟!

– هذه مشيئة الرب، ونحن نتمثلها في كل تناول.

هز أنطونيوس رأسه مستسلمًا، وبغير تفكير قال:

– دميانا خطفت، ولا نعرف إلى أين ذهبوا بها.

ظهرت على ملامح باخوميوس صدمة المفاجأة، فرفع حاجبيه وترك عينيه مفتوحتين على الفراغ، فأكمل أنطونيوس:

– رآهم الكاتب وهم يرحلونها في منتصف الليل، كانوا رهبانًا غرباء، وكان يوساب قائدهم.

– هل التقيت به؟

سأل باخوميوس بخوف.

– رأيته في الصباح، قال إن التحقيقات ستتولاها الأبرشية، وستراجِع من ترى أن أفكاره في حاجة إلى المراجعة.

تنفس باخوميوس بحزن، ودار بوجهه باحثًا عن النافذة الصغيرة التي تطل على حافة الهضبة وما أسفلها، بدا أنه يبحث عن وجه صديقه إيمانويل، وسمعه أنطونيوس يقول:

– لماذا تركتنا؟

حين استدار كانت الدموع قد حفرت مجراها على وجهه، احتضنه أنطونيوس مهدهدًا على ظهره حتى تمالك الرجل نفسه من جديد.

– هل نسيت رحمة الرب ومشيئته؟

هكذا رقَّق أنطونيوس صوته وهو يحتضن وجه أستاذه بعينيه، فمد الأخير راحته ومسح بقايا دموعه قائلاً:

– تذكرت إيمانويل، وحز في نفسي ما يجري من بعده.

هز أنطونيوس رأسه:

– لقد عاش محنته، ونحن نعيش محنتنا، نتلمس منه العون، ولا نلومه على شيء.

هنالك مد باخوميوس يده أسفل وسادة قديمة أعلى النملية التي يضع فيها أغراضه، فأخرج لفافة بها بعض الحبوب متناهية الصغر، هز اللفافة أمام عيني أنطونيوس وشبح ابتسامة يرتسم على وجهه:

– آخر الذكريات مع إيمانويل، هو الذي أحضرها لي، كان يأتي ليشرب منها معي.

على ضوء موقد صغير خبأه باخوميوس أسفل سريره جلسا يتابعان الروائح المنبعثة من الحبوب التي تغلي في المياه أمامهما، وعلى مهل أخذا

يرتِّبان تفاصيل الأوراق التي تشابكت وتعقدت في الدير، قالا إن خطف دميانة وترحيلها له علاقة بوضع الدير من جديد على مسار الأبرشية، وأن كلاهما المقصود بمسألة مراجعة الأفكار، ولا بد أننا سنواجَه بأسئلة عصيبة، وتشكيك لا حدود له، وربما لا ننجو من تهم الهرطقة، والحكم بالحرمان.

للحظة شعر باخوميوس أن رفيقه في الغرفة لا يعنيه كل ذلك، وأنه غير مهتم بالبقاء في الدير أو الخروج منه، غير مهتم بحظيرة الرب وما فيها، فأخذ ينظر إليه بتعجب، حتى كشف له أنطونيوس عما في صدره:

– كنت قاتلاً وقاطع طريق، بحثت عن الله في كل كنيسة ودير، حتى هنا، ولم أصل إليه إلا حينما رأيت دميانة، وجهها السمح، جسدها اللدن، صوتها الناعم، أصابعها الصغيرة، كل شيء فيها كان يشعرني بحضور الرب، ويمنحني القدرة على السمو والتعالي، كلما فكرت فيها كنت أدرك أنني موجود وحيّ، كلما رأيتها أدركت أن الحقيقة تكتمل، والوجود لم يأت من عدم، وأن الرب كان لا بد أن يمر برحم امرأة كي نراه، أنا الذي أهرقت كثيرًا من الدماء على الأرض أشعر الآن أن دمي مهرق، وأن أسبوع آلامي قد بدأ.

ربت باخوميوس على كتف تلميذه متنهدًا كمن يخرج قبضة من نار علقت بأحشائه، لم يكن لديه ما يقوله، لكنه كان يوقن أن المحنة ستعبر على خير، وأنه لا بد من الاحتياط في التعامل مع الآخرين، وضع يده في حوض الماء وبدأ يغسل الغلاية والكوبين، وأعاد الموقد إلى مكانه متأكدًا أن النمل لن يزحف على الأرض:

– يمكنك أن تذهب للبحث عنها.

ألقى العجوز بحجر في بحيرة الصمت التي رانت بينه وبين تلميذه، ونظر إلى الشعاع المتدفق من النافذة الصغيرة نازلاً على وجه أنطونيوس، لم يعرف الأخير بم يرد، لكن الفكرة بدت كما لو أنها جذبته:

– كيف؟

طلب باخوميوس منه أن يفتح سحارة الكنبة التي يجلس عليها، حين فتحها وجد لفة كبيرة من حبال الليف التي حبكها باخوميوس في وقت فراغه، قال باخوميوس:

– يمكنك ثقب الجدار والقفز من على الحافة.

كان المكان قد أصبح خانقًا، وشعاع الشمس يتمدد على وجه أنطونيوس، حتى أن بعضًا من قطرات العرق نبتت على جبينه، فرفع كم ردائه ومر به عليها، شعر أن باخوميوس يمر بحالة من الاكتئاب التي أودت به للتفكير في هذه الأمور، فلا يمكن لأحد أن يفكر في الهروب من الدير، وما الذي يجعله يفعل ذلك والبوابة لا تغلق؟

نظر باخوميوس بعينيه المحاطتين بأكياس دهنية وجلد مترهل إلى أنطونيوس قائلاً:

– لا تدعهم يلقون القبض عليك.

بدا لأنطونيوس أن أستاذه جادًا فيما يقول، فرفع حاجبيه موقنًا أن ثمة خطوبًا كبيرة ستقع على الأرض، وأنه سيكون في خطر محدق، ولم يعرف هل يمكنه التجاوب مع تنبؤات رجل في السبعين، أم يعتبرها تخاريف الشيخوخة، فتحرك بعيدًا عن الشعاع المسلط على وجهه، رأى الغرفة كما لو أنها مظلمة، لكنه مع إغماضة عينه مرة وأخرى رأى أن الظلمة تزول، فنظر في عيني باخوميوس سائلاً عن السبب.

– لأننا في حاجة إلى من يدافع عنا.

– لم يلقون القبض عليَّ؟!

قالها أنطونيوس غاضبًا، وانتابه يقين أن أستاذه يعرف شيئًا ولا يريد الإفصاح عنه، لكن الأخير ضحك قائلاً:

– مجرد هواجس لرجل عجوز.

-٣١-

لم يكــن رفائيل يتوقع أن يجد ملاذه في أفكار الرواقيين والأفلاطونيين الجــدد، وجــد نفسه معجبًــا بأفكار زينــون السيشومي عــن أن العالم كل عضــوي تتخلله قوة الله الفاعلة، وإن رأس الحكمة هي معرفة هذا الكل، علمًــا بــأن الإنسان لا يمكنــه أن يلتمس هــذه المعرفــة، إلا إذا كبح جماح عواطفه وتحرر من الانفعال.

انطلــق يتابع أفــكار الرواقيين عن التناغم مــع الطبيعة، والصبر على المشــاق، والأخذ بأهداب الفضيلة كمصدر السعادة، لأنها هي إرادة الله، بينمــا المشاعر الهدامــة كالخوف والحسد والجنس ليســت سوى ضلالات وأحــكام خاطئــة، فالإنســان الذي حقق الكمــال الفكــري والأخلاقي لا يخضــع لهذه المشاعر، ولكــي يحيا المرء حياة صالحة فلا بــد من استيعابه قوانين الطبيعة.

كان الجدل الدائر بين الأساتذة والطلاب ثريًّا، وكان رفائيل كالأرض الظامئة إلى المطر، فأخذ ينصت إلى هؤلاء وهؤلاء، في الصباح يذهب إلى الميوزيوم حيث الرواقيــين والأفلاطونيين، وفي المساء يذهب إلى الكنيسة حيث المطارنة والآباء، ومدرسة اللاهوت التي انطوت بعد أوريجانوس وخبــا ضوؤها، لكنها ظلت تعلــم المبتدئين التعاليــم الضرورية للإيمان، رأى رفائيل أن الآباء في الكنيسة لا يرغبون في الرواقيين وتعاليمهم، فقد أودت بكثــير من المتعاملين معها إلى الإلحــاد، ولا ينبغي التشبه بالوثنيين وكفرهم.

لم يكــن رفائيــل يدخل أرضًا إلا بعدمــا يتحسسها بأصابــع قدمه أولاً، ولا يحــادث أحــدًا عن شيء إلا بعدمــا ينصت إليه فيه، علمــه أساتذته في

الميوزيـوم كيف ينصت، وحين لا يضيف له الإنصـات فيمكنه أن يسأل، كانـوا وهم أهل الجـدل يكرهون الجدال، ويـرون في تلاميذهم الجمهور المرجـو لطرح الأفـكار والنظريات عليـه، وجميعها نظريـات تبحث في تفاصيل التفاصيل، وتستوجب خيالاً نشطًا للتجاوب معها، لأنها تقوم على الفرض غير المتحقق، لكن احتمالية حدوثه واردة بنسبة واحد في الألف.

بعـد فترة التفت رفائيـل إلى القراءة، رأى أنها أفضـل ما يمكن التعلم مـن خلاله، ومن ثم عرفـت قدماه طريق المكتبـة، كان يذهب بعد انتهاء المدرسـة في الصباح، يجلس ليطلب مـن الموظف المتفاني في خدمة الرواد كتابًـا لزينـون أو أفلوطين، وبعد فـترة عرَّفه الموظف بمـا جمعه تلامذة أفلوطـين مـن محاضرات له، قـال إنهـا التاسوعيات السـت، لأنها ستة أجـزاء، كل جزء منها يشتمل على تسعة فصول، مع الوقت صار رفائيل صديقًا لموظـف المكتبة، يخبره بأحدث ما لديه، ويدله على الأساتذة الذين يـترددون على المكان، فأقام صداقات معهـم، وأخذ في سؤالهم عما يعنُّ لـه من أفكار، كان آخر ما يمكنـه أن يسأل عنه هو المسيحية، فقد كانت لا تزال دينًا منبوذًا من الجميع، رغم اعتراف قسطنطين بها.

ظل رفائيل معلنًا أنه يهـودي يتعلم في الميوزيوم، ينام في بيت والده، ويتحصل علـى مصروفه منه، ويذهب للمدرسة والمعبـد والمكتبة بوصفه يهوديًـا، لكنه يـوم الأحد يذهب سـرًّا إلى الكنيسة ليحضـر القداس، ظل أربـع سنوات يمارس حياته على هذا النحو حتى التقى به هناك جار لهم، وفي المسـاء أبلغ الرجل والد رفائيل أنه لمـح شخصًا في الكنيسة يشبه ابنه، كان ذلك بالنسبـة لرفائيل كارثة، فقد ترك والـده عمله وتفرغ لمتابعته، حين وجده يدخل الكنيسة أعد له محبسًا في غرفة خلفية بالبيت، ومنع عنه الطعـام والشراب مؤكدًا أن موته أفضل مـن أن يدنِّس العائلة ويدخل في دين المهرطقـين، كان والد رفائيل متشددًا، لكن أمـه كانت سيدة تعرف أنهـا ليس لديهـا أبناء سوى رفائيل، فأدركت أن حياتـه ولو كان مسيحيًّا أفضل عندها من أن يكون نبيًّا ميتًا، فقررت الإفراج عنه دون علم والده.

شعر رفائيل أنه بحاجة إلى ترك الإسكندرية، فوالده لن يسكت، وسوف يستخدم كل نفوذه من أجل إعادته إلى دينه القديم، فقرر أن يعود إلى الدير، كانت حكمة ديمتريوس في ذلك الوقت أكثر ما يحتاجه، فجمع أغراضه سريعًا، وقبض على ما وفرته له أمه من مال، وأصر على أن يحمل معه هدية لديمتريوس، وليس هناك أفضل من تاسوعيات أفلوطين وشروحات إكلمندس السكندري والمبادئ لأورجانوس، وأعمال الرواقيين.

حين اكتمل ما يريده بحث عن أول قافلة متجهة إلى جنوب القلزم، فخرج معها يحادث من فيها عن اليهودية والمسيحية وعبادة إيزيس، وجد نفسه يستعير مقولات الرواقيين عن السعادة النابعة من الفضيلة، والحساب القائم على العمل، وتجسد الله في كل شيء، وأنه هو غاية لكل موجود. وجد نفسه يمزج ما بين الرواقية والأفلاطونية وآيات الإنجيل، بينما عيون من ينصتون إليه مشدوهة إليه وكأنه صوت السماء.

حين وصل إلى الدير كانت كنيسة الله قد ارتفعت على أرضه، وكان أبانوب قد أسلم قياد نفسه لمهندسه الذي أتى من الجنوب، فأخذوا يحتفلون بأسبوع الآلام مزينين بالجريد الأخضر القلايات وغرف الخدم والعاملين في المكان، كان الجبل قد أصبح كقلعة من الجريد، والرهبان يحتفلون بآلام المسيح كما لو أنهم يجمعون أعضاءه على نحو ما فعلت إيزيس مع أوزيريس.

– أخي أبانوب الطيب.. ما هكذا حدث مع المسيح.

قالها رفائيل بتوسل، خائفًا أن يقع الدير في الهرطقة، فتعاليم الكنيسة واضحة، ولا يجب الخروج عنها، لكن أبانوب لم يكن يرى في المسيح سوى أنه أب للجميع، ولا بدَّ من الاحتفال به على نحو ما يفعل المصريون بآلهتهم، فكيف يأتي العيد ولا يبتهلون إلى النور الذي سينزل ليملأ الوجود، ويرتفع به إلى مملكة السماء!

احتكم رفائيل إلى ديمتريوس، وكان الأخير قد وقع فريسة للمرض، والدير كلــه أصبح في يد أبانوب ورفاقه، فلم يرد أن يفتح باب الانقسام، وجلســ مع رفائيــل يشكره علــى هديته، وطلــب من أبانــوب أن يجهز لرفائيــل مكانًا يعلِّم فيه الرهبان ما حصَّله مــن علوم الكنيسة والميوزيوم، ويضــع فيه ما جمعه مــن كتب خلال رحلته، كان الأمــر بالنسبة للاثنين قسمة العدل، فالعلم لرفائيل، والطقوس لأبانوب، لكن رفائيل كان باحثًا عن مجال أوســع، فقرر النزول من الهضبة والذهــاب بتعالميه إلى حيث يكون الناس.

-٣٢-

لم تكد الشمس تشرق على الأرض حتى وجدت من يطرق باب غرفتي، للوهلة الأولى تخيلت أنهم علموا بأمري، وأنني مقضيٌّ علي لا محالة، انتفضت من فراشي ووقفت خلف الباب سائلاً بذعر عن الطارق، وجدته الشماس روبير، أحد تلامذة يوساب الذين تمت سيامتهم منذ أيام، قال إن الأخير ينتظرني في قلايته، شكرته على المجيء وأبلغته أنني سألحق به.

كان الصباح خارج المخزن وكتبه مختلفًا، وأفضل ما فيه رائحته، دائمًا ما كنت أستيقظ مبكرًا، باحثًا عن رائحة الصباح، متصورًا أن ملكوت الله في الأعالي بهذه الرائحة التي لا أعرف سببًا لجمالها، ربما هي بعض من يود البحر الكامن خلف الجبل، وربما هي بعض من نفحات الصخر النائم أمامنا، وربما أنفاس الله التي يطلقها على الدنيا، ويستقبلها الرهبان بالتسابيح والتراتيل، وتنطلق من أجلها أجراس الكنيسة التي توقظ كل شيء، قبل أن ينبلج النهار وتختفي الظلمة.

تذكرت طفولتي وقدمي تدوس بحذائي القديم على الحصى النائم في الأرض، وشعرت بهمتي في السير من الأنين المتوالي للحصى أسفل حذائي، حين وصلت إلى قلاية يوساب طرقت الباب بخوف وخجل، كانت رأسي تقلب الأفكار كلها وجهًا لظهر، لا أدري ما الأمر الذي جعله يرسل في طلبي، فقد رحلت المحققة دميانة بالأمس، وهو نفسه قال إن التحقيقات ستكون في الأبرشية، فما الذي ذكره بي الآن؟

لم يطل وقوفي أمام الباب، فقد فتح لي روبير ودخلت خلفه إلى غرفة يوساب:

- خذ هذه الأوراق إلى مخزنك.

هكــذا قال يوساب في حسم وهو يشير إلى صــرة من القماش في جانب مــن الغرفة، كانت الفرحة تحملني علــى جناحيها وتطير بي إلى غرفتي، فلــم أصدق أنني خرجت سليمًا معافى، فلو نما إلى علم يوساب أنني رأيته ورجالــه برفقة دميانة لألقى بي من علــى ظهر الجبل، وطيلة الطريق لم أنظر إلى أحد، ولم ألق تحية الصباح على أحد، كنت أهرول كمن نجا من المــوت، مخفيًا وجهي في أعماق الصرة التي وضعتها على كتفي، وما إن وصلــت إلى الغرفة حتى أخذت أصلي شكرًا للرب. ولم يأت في ذهني أن ما حملته هو أوراق دميانة وكتبها.

كانــت الأوراق تشتمــل على التحقيقــات التي أجرتهــا في فترة عملها بالديــر، والتقارير التي رفعتها لرئيس الديــر في نهايتها، فضلاً عن عدد من كتب القانون، وبعض سير الآباء، ونسخة من الكتاب المقدس، وعدد مــن الروايات وكتــب التاريخ، لكن أهم مــن كل ذلك كانــت التحقيقات التي جــرت مع أنطونيوس، والتقرير الذي رفعتــه إلى جورج المنحني، مطالبــة فيــه بفتح تحقيق حــول محاولة اغتيــال أنطونيوســ، فهناك من لمحتهــم يهاجمونه ويفــرون في ضوء القمر الشاحب، كانــوا يرتدون زيًّا موحدًا بالأسود، ليس زي رهبان، ولا عاملين في الدير، وكانوا يغطون وجوههم، مما يثير الريبة في أن ثمة من يسعى لقتل الراهب المسكين.

حين قــرأت التقريــر انتابنــي الفخر لأننــي تعرفت على هــذه الفتاة، وأدركت أنها واجهت نتائج شجاعتهــا، أدركت أيضًا كم أنا صغير لأنني لم أمتلــك شجاعة فتاة وحيدة وغريبة في دير رهبان كهذا، هززت رأسي بأسى متفكرًا فيما قد يكون جرى لها على أيديهم، ولم أستطع سؤال نفسي إن كان بمقدورها الشهادة بما رأيت أم لا، في تلك اللحظة ظهر في مخيلتي أنطونيوس، فهو الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يدفع عمره في مقابل إنقاذها والدفاع عنها، فما بالنا وأنها ذهبت ضحية الدفاع عنه، وقلت لنفسي إنه لا بد أن يقرأ هذا التقرير ليعرف كيف يواجه أعداء يحيطون به ولا يعلمهم.

حين وضعت التقرير في مكانه وجدت دفترًا بغلاف بلاستيكي أبيض، فتحته من منتصفه فطالعت:

منذ رأيت أنطونيوس وأنا أسأل نفسي أين رأيته من قبل، وجهه معتاد لدي، حتى طوله ولحيته وطريقة كلامه، ليس واردًا أننا التقينا من قبل، ففي الوقت الذي كنت أجاهد فيه كي أخرج من نفق الديون التي تركها والدي، كان هو يعيش حياته في الصحراء، سواء أكان قاتلا أم راهبًا، لكنه في كلتا الحالتين كان في أماكن أبعد ما تكون عن حياتي في سانت تريزا، فأين رأيته؟ أعتقد أنه الحلم، حيث تغادر الأرواح أجسادها، وتهيم على وجهها في الملكوت لتتعارف، ولا بد أننا تعارفنا هناك، فوجهه المستدير بعينيه العميقتين ليس غريبًا عني، ولا تلك الطمأنينة التي لا أعرف مصدرًا لها، حتى أنني أختلق الفرص من أجل رؤيته، فأطلب من الكاتب ملاك أن يبلغه بموعد جلسة تحقيق عاجلة، لكن خشيتي من أن ينتبه ملاك أو غيره إلى افتعالي الأمر تجعلني أتراجع فأطلب تأجيل الموعد.

لا أعرف إن كان ملاك انتبه لشيء أم لا، لا أعرف إن كان أنطونيوس يبادلني نفس الشعور أم لا، وحتى لو فعل، فما الذي بإمكان رجل وهب حياته للرهبنة وعزلتها أن يفعل، وهل أكون له بمثابة حواء التي أغوت آدم فأخرجته من الفردوس؟! لا بد أنه لن يوافقني، وأنا نفسي لن أرضى له بذلك، فما الذي يمكنني فعله تجاه ما يجتاحني من عواطف تسد عليَّ منافذ حياتي، فلم تعد القاهرة التي ارتبطت بها روحي تشغلني في شيء، لم أعد أهفو إلى بيتنا، ولا إلى وجه أمي، لم تعد الأيقونات تشغلني، ولا الشموع بشذاها وأضوائها المتمايلة تشدني، لم تعد أصوات الجيران ترن في أذني، ولا صوت تريزا وهي تحذرني من الغرباء، وشباب المسلمين المهووسين بالجنس، وذوي اللحى الطويلة الذين يكرهون أنفسهم، لم يعد يشغلني غير الجلوس في غرفتي لأتطلع إلى القمر في النافذة، حيث الأرنب الذي يطحن في الهون الكبير يتشكل على هيئة وجه أنطونيوس، وحيث زيه الأسود الذي يتحول إلى هالة من البياض الشديد، هالة من المحبة والنور أهيم في رحابها وأنا أتشمم رائحة اليود والنباتات الزكية التي زرعها الرهبان على حواف الصخور.

لكنني في النهاية أستيقظ على واقعي المؤلم، حيث عين الأب يوساب القاسية التي تسعى لاختراقي، لا أعرف لم لا أرتاح لها، شيء ما يتلبَّسني

كلما ألقى الرجل بنظره تجاهي، أشعر كما لو أن الشرير مسني بيديه، أعرف أنني ظالمة، فلم يحدث من الرجل شيء يسيء لي، لكنني أعترف لنفسي هنا على الورق، ولا يمكنني أن أكذب أو أزيف الحقيقة أو أجمِّلها، هذا الرجل يربكني، وبشجاعة كافية يمكنني القول إنني أخافه، وليس هناك شخص واحد يمكنني الاطمئنان إليه في المكان سوى أنطونيوس وملاك الكاتب، الذي لا يملك سوى الجلوس إلى جانب أكوام الملفات التي تركت في عهدته، أكوام ورثها عشرات الكتاب السابقين عليه، ولم يفكروا تجاهها في شيء، مثلما يفكر هو، هذا الرجل رغم عوده النحيل فإن لديه طاقة روحية وافرة، كم أتمنى أن أمتلك بعضًا منها.

حين قرأت ما كتبته دميانة عني شعرت أنني بالفعل شخص مختلف عما أظهر عليه للآخرين، لا أعرف لم جاءني هذا الإحساس، موقنًا أنني رجل يتمتع بطاقة روحية يمكنها نقل الجبل من مكانه. ابتسمت ساخرًا من خيالي الواسع، واستجابتي لكلمة مديح كتبت عني، لكن ذلك لم ينفِ رغبتي في إثبات أنني ذلك النحيل الذي يمكنه أن ينقل الجبل من مكانه.

كانت كلمات دميانة بمثابة طوق كبير نزل من السماء ليحيط بعنقي، فصرت مدينًا لها، وراغبًا في أن أكون عند حسن ظنها فيَّ، صرت أبحث عن مشاركة شخص آخر فرحتي، ولم يكن هناك أيضًا سوى أنطونيوس، ذلك الذي لا يكاد يخرج من قلايته إلا لرؤية أستاذه باخوميوس، فقد أهمل العيادة التي منحوها له، موقنًا أنها لم تكن سوى فخ صنعوه كي يفسدوا علاقته بالناس، لكنها لم تزدهم سوى محبة له، وإبراز لقدراته على شفائهم، رغم تمسكه بفكرة الداء والدواء، والمادة وليس الروح، حين سألته عن ذلك قال إن أحدًا لم يعمِّد بالروح سوى الله، وكل تعميد هو بالمادة، ولو أراد الله لنا أن نعمد بالروح لفعل، فلمَ ننكر عليه إرادته ونزيح عنه غطاءه؟

كانت خطاي تتخذ طريقها على الحصى المفتت تحت أقدام الرهبان ومعاولهم، حين وصلت إلى قلايته طرقت الباب مرتين ولم يأتني صوت، لكنني شعرت أن الباب مفتوح، فدفعته للداخل مناديًا أنطونيوس، لم يأتني صوته، لكن جاءتني صورته وهو مصلوب على الحائط، كان

يعذب نفسه منذ حدَّثه باخوميوسـس بالأمس عن أسبوع الآلام. قال إنه لا بد أن يتمثل آلام المسيح بين أصحابه وهو يعلم أن منهم من سيخونه، يتمثل آلامــه ويعلــم أنه سيصلب مع أحــط الناس وأقلهم مكانــة، موقنًا أن حتى هــؤلاء الأصاغر لن يرحموه، فمنهم من سيهــزأ به، ومنهم من سيبصق على وجهه، وجميعهم سيطالبونه بأن يظهر علامة على أنه ابن الله، فهل يضع الله على قوســ التجربة؟ هل يطلب من الله أن يرسل حمامة بيضاء كي تحمله علــى ظهرها وتلوح لهم بجناحها، أم يرسل ملاكًا يهدم الجبال عليهــم، أم يترك المسيرة التــي خطها الأب الإله بيديــه لتسير في مجراها ليكفر عن خطيئــة آدم، وينقذ أبناءه من جحيم عذابه؟ من أجل ذلك أتى، ومــن أجل ذلك سيتحمل في هــدوء، ومن أجل ذلك علــى أنطونيوس أن يصمت عن كثير مما يعــرف، وأن يمشي في الفلك الذي خطته أنامل الله في كتابه الكبير.

-٣٣-

رسائل أوريجانوس (٥)

صديقــي العزيــز ديونسيوس، هــذه رسالتي الخامســة إليك، كنت قد انتهيــت في رسالتــي الرابعــة إلى الاعتراف بالجرم الــذي ظل يطاردني طيلة حياتي، رغم أنني لم أكن أسعى لارتكاب خطيئة، فقد فعلت ما فعلت تقربًا للرب، فاتخذت نصــ حديثه ونفذته كي أكون أقرب المؤمنين إليه، وكــي أمنع نفسي من الخطيئة أو الضعف، لقــد بترت نفسي بنفسي كي لا أسقــط من عين الله، أو أفقد محبته لي، فالذي يعظ الشعب لا ينبغي له أن يقــع في ضعف، أو أن يكون من بــين الضعفاء الذين يستسلمون لمحاصرة الشيطان، لذا فقد انتظــرت حتى جفت دمائي واحتملت ألمي، وطلبت من أمي أن تحملني إلى ديمتريوس الكرَّام، ذلك الذي أرسل في السؤال عني ثــلاث مرات، وكل مرة كانت تقول لرسوله إننــي ذهبت لبعض أقاربي خارج الإسكندرية.

رآني الرجل فانتفض من مجلسه وقام ليحملني بنفسه عن أذرع إخوتي وأمــي، حــين وضعني أمامه طلبــت منهم أن يخرجــوا، وطلبت منه أن يتقبل اعترافي الآن، وبعد محاولة من التملص والمناورة لفهم هل يستحق الأمر أمانة سر الاعــتراف أم لا اضطر أن يومئ برأسه موافقًا، فأعلنت أننــي سأعترف اعترافًا رسميًّا أمام كاهــن اعترافي الأب ديمتريوس، ثم أخبرتــه بما حدث، وكيف خطفتني ميريت بنظــرة منها، وكيف سرحت عينــي رغمًا عني على جسدها المغوي، وكيف تواطأت أمها على نظراتي نحوهــا، فشبت النــيران في جسدي ولم أحتمل الابتعــاد عن التفكير فيها، وزاحمــت الرب على مكانته في عقلي وقلبــي، فجلست في غرفتي أضغط جمــاح رغبتي، لكنني كلمــا ضغطت على آلتي انتصبــت، وكلما حاولت

خنقــه كان ينــاورني ويتملص مني، وكلمــا دفنته كان ينهضــ من جديد منتصبًــا ومنتصرًا علي، ولم يكن أمامي سوى أن أجلده إلى أن قذف بماء ساخن خــارجٍ جسدي، كان ماؤه يتدفق كبركان، وينفلت في الفراغ كما لــو أن منجنيقًا يلقي بجمره وناره في الفراغ، حين انتهيت شعرت بالذنب والخطيئة، شعــرت كم أنا ضئيل كجرذ غارق في العــار، وكم أنا منبوذ من عينــي المسيح اللتين تطلان من الجدار نحــوي، كان المسيح يحدق فيَّ بعينــين متقدتين بالشــرر، بينما أصوات كلاب تنفلت مــن عقالها مهرولة نحوي، كانت الأصوات تتعالى وتتزايد في اتجاهي، كنت أشعر أن أنيابها ومخالبها تكاد أن تنقض على صدري لتنزع قلبي منه.

بــدت الخطيئة أكبر مــن أن تغتفر، بينمــا أناملي تسعــى لتحسس الماء الــذي برد على ملابسي الخفيفة، تقززت بمــا يكفي من نفسي، وتذكرت أن المسيح يقــول "يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات"، وتــرددت الآية في ذهنــي مرات ومــرات، وكلما وضعــت رأسي على الوســادة وجدت مــن يهتف بها في أذني، فنهضت مــن مكاني وأحضرت الشفــرة التي كان والدي يحلق بها لحيته، وكــدت أن أطيح بآلتي كاملة، لكننــي لم أستطع، وانتهيت إلى الإطاحة بالكيس الجلــدي الكامن أسفلها، فآلامــه لن تكون كآلام الطواش، فجمعت الخصيتين في يدي، وأغمضت عينــي طالبًا من المسيــح أن يغفر لي خطيئتي، وأن يتقبــل مني أضحيتي، وبضربــة واحدة محكمة فصلت بين الآلة كعمــود كبير وبين الكيس الذي انفجــر بالدم المتدفق، حين رأيت الدم انتبهــت إلى أنني فعلت فعلاً كبيرًا، فألقيــت بالشفرة ورحت أصرخ محاولاً كتــم اللون الأحمر، كنت أعوي وبطني تتقلص مني ونصفي الأسفل كله يتجمع في بؤرة انبلاج الدم.

سمعــت صوت أمــي وإخوتي يهرولــون نحوي، سمعــت صراخًا، ومحاولات شتى لإسعــافي، وسرعان ما غبت عن الوعي، لأستيقظ فيما بعــد فأجد لفافة كبــيرة من القماش تحيط بما بين فخــذي، كان الألم كبيرًا لكنه محتمل، وكنت قد صرت هزيلاً بشكل واضح للجميع، هزيلاً وبائسًا وخجــلاً، كنــت أرى آلاف التســاؤلات في عيون من حــولي، لكنني لا أستطيع أن أتحدث في شيء، ولا هم يستطيعون أن يتحدثوا.

في ذلــك اليــوم انتظرت من ديمتريوس أن يقــول شيئًا، الحق أنه ظل لفترة واجمًا، وشعرت من ملامحٍ وجهه بقدر الجرم الذي ارتكبته، لكنه بعد لحظات طرق على كتفي قائلا:

– لقد تقبل الرب أعطيتك.

في هــذا اليوم شعــرت أنني برئت من خطيئتي، وأننـــي أستطيع السير علـــى قدمـــي دون ألم، فقد قبل الرب عطيتي، وصــرت واحدًا من أبنائه الأبــرار، شكرته وعدت مع أهلي إلى بيتـــي، ولم تمض أيام حتى عدت إلى مقعدي في مدرسة اللاهوت، لأعظ المؤمنين وأشرح لهم كيف استقبل الــرب أعطيات كل مــن قايين وهابيل، كنت أتحــدث بصورة تمثيلية عن الرب وابني آدم، ومــا لا أستطيع تمثيله كنت أتحدث عنه رمزًا، متذكرًا طريقــة أستاذي إكلمندس ومنهجــه الباطني في شرح الآيات، كان يغرق نفســه في تصوير رؤيــة مختلفة للنص غــير الرؤية الظاهــرة، ويطالب بالتفكير فيما وراء السطور وما تخفيه عن العيون.

كنــت أجــل إكلمندس كثيرًا، وأقــدِّر منهجه الذي تعلمــت منه الكثير، فلسنــوات وأنا أنهل من كتاباته وآرائه ورؤاه، أحسبه البحر الواسع الذي فاض عليَّ بالكثير من النوات والنسائم، أتأمل أعطياته وأفرح بها، لكنني فيمــا بعد وجــدت أنه من الصعــب أن تكون ثمة رؤية خفيــة طيلة الوقت عــن الرؤية الظاهرة، وأن هذه الرؤية محكومة بتجليات تخص القارئ، لــذا رفضت القــول بالتفســير الغنوصي وحــده، رفضت الارتــكان إلى تصــورات النفس الطيبة عن العالم، فمن الممكن أن تأخذ النفوس الشريرة أشــكالاً طيبة، ومن الممكن أن يودي بنا ذلك إلى الهلاك، أو الابتعاد عن طريق الله.

لكنني أيضا لم أستطع القول بما يقوله لنا ظاهر النص فقط، فحين يقول لنــا أن لصًّا بصق علـــى وجه الرب وهو على الصيلــب، فلا يعني حرفية النصــ، ولكن مــا يرمز إليه هذا الفعل، وهو كــون الناس قد سخروا من عجــز الرب عــن الرد عليه بالطريقــة التي يعرفونهــا، وفي الوقت الذي يريدونــه، ومن ثم كانــت الآلام أكبر وأكثر قوة، فالــرب الخالق القدير

كان يمكنــه أن يزيلهم جميعًا من الوجود، كان يمكنه أن يلقي برحمته لهم فيؤمنوا لــه، لكنه اختار أن يتمثل بشكل بشري، اختار أن يكون في جسد بشري، وأن يتحمل عذابات البشري، وقلة حيلته، وعجزه أمام الجميع، اختار أن يكون آدم وألا يخرج عن طور آدم وقدراته.

وجدت شروحاتي وتفسيراتها برمزيــة الأفعال لا حقيقتها طريقها إلى قلــوب الناس، وصــار من لا يريد التفســير الغنوصي يرتكــن إلى رؤية الرمــز في حضور الآيــات، صار الناســ يطالبونني بكتابة مــا أقوله في برديــات أقدمها لهم، وصــرت أجلس في الظهيرة كي أعــظ في المدرسة وأتدبــر شئونها مع تلامذتي مــن جانب، وأختلط بالآبــاء في الكنيسة كي أسمــع منهم ويسمعــوا مني بعدهــا، وفي المساء أحضــر أوراقي ودواتي وأجلس على ضوء مصباح تملأه أمي كل يوم بالزيت، فأكتب شروحاتي وتفسيراتي، وفي الصبــاح أذهب إلى ناسخ بجانب الكنيسة فأطلب منه أن ينسخها ويبيعها لمن شاء شراءها، هكذا توزعت كتاباتي، ووجدت بعضها بخــط هذا الناسخ في بعض أديرة فلسطين وبحر القلزم وصحراء الإسقيط وجزيرة العــرب، رأيتها بعد سنوات من خروجــي من مصر، وعلمت كم اعتمد الكهنة عليها في مواجهة الغنوصية التي كادت أن تضرب أعمدة الكنيســة في مقتل، وتفتح الباب على اتساعه لمن أراد أن يتحدث بغيب عما جاء في كتاب الــرب، مدعيًا أن روحه ترى ذلك، وأن المعنى الظاهر لا معنى له.

في البدء وجد الأب ديمتريوس أنني أحقق ما تريده الكنيسة في مواجهة الغنوصيين المتأثرين بأفكار أفلوطين وأصدقائه القائمين على شرح مقولات أفلاطــون، فقد تسربت أفكارهم من الميوزيــوم والسيرابيون إلى الكنيسة عبر اليونانيــين واليهود الذين دخلوا حظيرة الإيمــان، وتلاقت أفكارهم مــع شروحات إكلمندس الروحانية للكتاب المقدس، فانتشرت كنوَّة شديدة الوطء علــى ملكوت الرب، في هذه الآونة كانت كلماتي بمثابة الماء الذي يزيل الأدران عن الأذهان، فكنت بالنسبة لديمتريوس ابنه الذي لم ينجبه، كان يباهــي بي الجميع، يقدمني للسادة والرؤساء والأثرياء وكبار الكهنة بوصفــي المعلم، مؤكدًا أهمية شروحاتي للكتاب المقدس، وأنني الدم النقي

الذي يجري في عروق الكنيسة بعد إكلمندس أو كليمنضس كما يقولون.

لم يتوان ديمتريوس عن إرسالي نيابة عنه إلى أسقفية روما في زمن بطريركها زفيروس، فجلست أنصت معه بوصفي ممثل بطريرك الإسكندرية إلى عظة طويلة من القديس هيبوليتس عن كرامة المسيح المخلص، ثم عدت إلى الإسكندرية لأخبر ديمتريوس بحفاوة الاستقبال الذي أعدوه لي بوصفي ممثلاً عنه، ولم يمض عامان حتى سمح لي بالذهاب إلى جزيرة العرب، حيث دعاني ملكهم جفنة بن عمرو لوعظ وجهاء مملكته، كان ذلك بالنسبة لديمتريوس أمرًا مهمًّا، فقد تلقى الرسالة بفرح شديد، مؤكدًا ضرورة توسعة الأرض التي تسيطر عليها الكنيسة روحيًّا، قال إنني يجب أن أخلب أذهانهم، وأن أكون حاضر البديهة للرد على كل تساؤلاتهم، فنحن لم نذهب إلى هذه الأرض من قبل، ويجب أن نجعلها تحت نفوذنا. وفي النهاية زودني بجوادين أحدهما لي والآخر لشماس اسمه بطرس جعله في معيتي، وطلب منه أن يدون كل المواعظ التي أعظ بها، كي يتيحها لمؤمني الإسكندرية وشعبها حين أعود.

قطعنا الطريق شرقًا، حيث عبرنا من أمام البحيرات النائمة ما بين فرع النيل العظيم في الغرب، وما بين صحراء القلزم، وحين انتهينا منها اتجهنا جنوبًا حتى رأينا جبال القلزم العالية، فجعلناها على يميننا وأكملنا طريقنا نحو الشرق، ملتزمين بالطريق الموازي لشاطئ المياه.

استغرقنا ثلاثة أيام حتى وصلنا إلى أورشاليم، ومررنا بالقدس حاملين رسائل من ديمتريوس إلى بعض أصدقائه وتلامذته هناك، فأصروا على أن أعظهم ببعض مما قرأوه فيما وصلهم من كتبي، فطلبت منهم أن يوجهوا لي أسئلتهم وأنا أجيب. هذا يا صديقي أسلوبي الذي تعلمه عني، فأنا لا أحب أن أجلس لألقي العظات بلا سبب ولا هدف، ومن ثم أوظفها في الإجابة على ما يحير عقول الموعوظين.

في هذا اليوم جاءني رجل وفي يده قطعة من الخشب قائلاً:

– أتحب أن أنحت لك الرب؟

لوهلة وقفت متحيرًا لا أعرف بمَ أجيب، لكنني بعد تأمل قلت له افعل، فأخــرج سكينًا من خاصرته وبــدأ في تسوية الخشبة وتشكيلها، كان ماهرًا بشــكل شد انتباه الجميع إليه، فحسدته علــى مهارته وإتقانه لعمله وسرعة إنجــازه، فقد كانــت السكين تتحرك في يده كريشــة في الهواء، بينما بدت الخشبة كما لو أنها زرع أخضر يتشكل بين يديه كما يريد، رأيته يخلق من خشبته رجلاً في صدر شبابه عاريًا إلا من إزار على وسطه، بينما ذراعاه مصلوبــان على صليب قائم على ظهره، فأمسكــت بالخشبة قائلاً إننا لدينا فنــان ماهر في عمله، وأنه يستحق المكافأة على ذلك، وأخرجت من جيبي عدة دنانير ووضعتها في يده.

ثم استدرت إلى الناس قائلاً:

– لكن هذا ليس الرب، ولا يمكنه أن يكون الرب، فالرب وإن كان قد اختــار لنفسه أن يكون على هيئة إنسان، فإننا لا نستطيع أن نمنحه صورة الآدمــي، ولا نستطيــع أن نعتقد أن نحتنا له علــى صورة الآدمي سيجعل بركاتــه تقيم بيننا، فلو أراد الرب أن يبقى بيننا كما كان لفعل، وما تجسده مــن خلال رحم أم الإلــه القديسة مريم العــذراء إلا ليسهــل لأهل زمانه ومكانه رؤيته والتعامل معه، وليضرب مثلاً لا ينبغي لغيره أن يضربه، ومن ثم فلا يجب أن نجســد الإله، فهذه بقية من بقايا ثقافاتنا القديمة، بقية مــن الوثنيــة التي كنا عليها، التــي ما زالت تضــرب في عروقنا دون أن نــدري، فتجسيد الإله توثين له، ونحن نعبــد الله الذي لا يحده مكان ولا زمان، الله القدير، فلا يجب حبسه في خشبة كهذه.

حــين ألقيت الخشبــة في النار منهيًــا عظتي بكل شجاعــة وحماس بين جمــع من المؤمنــين، وجدتهم يهللــون فرحًا بما سمعــوا، وجدت الرجل الذي صنع تمثال الــرب يقف عاجزًا غير مستوعب، وللحظة شعرت أنه يريــد أن يتحدث أو يجــادل، فأشحت عنه بنظري ومــددت يدي للسلام على أصحابــي، هؤلاء الذين زودوني بجواديــن جديدين، ودلوني على الطريق إلى الجابية عاصمة ملك جفنة بن عمرو، هذا الذي ورث مملكته حدود مملكة تدمر العظيمة، لكنه ظل في خدمة الروم، وفي مواجهة أهله

مـن العرب الذين يسكنون وسط الجزيرة وجنوبها، كما في مواجهة أبناء عمومتـه المقيمين في الحيرة، هؤلاء الذين يخدمـون الفرس، في مواجهة بقية بني جنسهم من العرب في الجنوب.

كان أهل تدمر يقيمون في الجبـال، نحت بعضهم بطريقة فائقة المهارة بيوتًـا في واجهات جبالهـم، كان أمرهم يدعو إلى الدهشـة، والإحساس بالقوة، هـذه الجبال منحتهم قـوة ومنعة، فكيف استطـاع الروم انتزاع هـذه المملكة مـن يد الملكة الزبـاء، وكيف نجت قبائل جفنـة بن عمرو من القحـط الذي ضرب سبأ العظيمـة في الجنوب، ليأتي بأهلـه ويصبح ملكًا على الأنباط في الشمـال، علمت أنهم كان لهم في الجنوب سد يخزن الماء حـين تفيض به عيـون السماء، فيزرعون منه الأرضـ بالعنب والنخيل والزيتـون، ظلـوا لسنـوات طويلة ينعمـون برخاء ما بعـده رخاء حتى قرضت الفئران روابط السد وهم لا يدرون، فانهار وكسح الماء كل شيء أمامـه، وفروا من بلادهم إلى البلاد التي تلتها، حتى وصلوا في ترحالهم إلى هنا في الشمال.

استقبلنـي الملك جفنـة استقبالاً يليق بحاكم الإسكندريـة نفسه، وقال إنه قـام ببناء كنيسة كبيرة تقربًا للرب، ولم يرد أن يفتحها بدون دعم روحي مـن كنيسة الإسكندرية وأسقفها، وحين سألت عن أفضل عالم في المسيحية بالإسكندريـة الآن قالوا إنه أوريجانوسـ، معلم المسيحية الأول في مدينة الفلسفة والعلم، فأرسلنا إلى البطريرك كي يسهل مهمة مجيئك إلينا، وكي تكون أول من يجلس ويعظ فيها.

شكرتـه على دعوته، وأخذت في عدد من الدروس لم يغادرها الملك، كان دائـم السؤال عن حقوق المؤمنين، وكان أبعد ما يكون عن الفلسفة أو ما يشغل الناس غير العمليين، فلم يسألني عن تجسيد المسيح، ولا عن كونه إلهًا أم إنسانًا، لم يسألني عن سر الافتخاريا، فقط سألني عن سر الزواج، وحاول معي جاهدًا أن أجد له إجابة تتيح الزواج بأخرى، أو تتيح طلاق زوجتـه والارتباط بغيرها، لكننـي لم أفده بشيء، وأكـدت أن ذلك من

الكبائــر التي لا غفــران لها، فما جمعه الرب لا يفرقــه العبد، وأوضحت أن الجسد هو خطيئة آدم، وكلما قلل المؤمن علاقته بجسده علا وارتفع في ملكــوت السماء، شعرت أن الرجل لم يبتهج بملكوت السماء ولا الارتقاء فيه، وإن أكد أنه مقتنع برسالتي وأمانتي في الوعظ، وأنني صرت صديقًا شخصيًّا له.

حين عدنــا إلى الإسكندرية رويت كل ما جــرى لديمتريوس، وناوله الشماســ بطرس حزمة كبــيرة من الأوراق قائلاً إنهــا مجمل عظاتي في الطريق، فأمر بنسخها وتصنيفها في رسائل، لكن الإمبراطور سبتيموس سيفيروســ كان قد رحل منذ عامــين، وأوصى بعرشــه لولديه كاراكلا وجيتــا، وأمام وصيته اضطر مجلس الشيــوخ الروماني أن يعترف بهما معًــا إمبراطورين على عرش روما، لكل منهما سلطة مكافئة للآخر، إلا أن هــذا الاقرار لم يرق للشقيقين، فقررا أن يقسما الإمبراطورية بينهما، حيــث يتولى كلاركلا الجــزء الأوروبي منها، وتكــون روما عاصمته، بينما يتولى جيتا الجزء الآسيوي وتكون أنطاكيا أو الإسكندرية عاصمته، لكن أمهما رفضت هذا الحل، وأصرت على بقاء الإمبراطورية موحدة، فمــا كان مــن كلاركلا إلا أن قتــل أخــاه أمامها كي تبقــى الإمبراطورية موحــدة، وأسرع فقتل كل رجال جيتا، وكل من كانوا يناصرونه، حتى أنه قتل أكثر من عشرين ألفًا في ليال قليلة، ثم طلب من سينكا الفيلسوف أن يعــد رسالة تبرر أمام مجلس الشيوخ هذا القتل، وأمر القاضي بابنيان أن يفرغ كل ما أوتي من مهارة وفصاحة في سبيل تلمس الأعذار لهذا القتل، لكن بابنيان وقف في شجاعة أمام الجميع قائلاً:

– إن قتــل الأشقاء أهون من تسويغ هذا القتل، فتسويغ قتل النفس ليس أسهل من اقتراف القتل ذاته.

وحــين حــاول كلاركلا أن يظهــر ما فعلــه على أنه مجــرد دفاع عن النفس، قال له بابنيان:

– إن اتهام قتيل بريء بالقتل قتل ثان له.

وكان هذا الرد حاسمًا في أن أشار كلاركلا لجنوده بقتله، فتقدم أحدهم ببلطته ليقيض عليه، فما كان من بابنيان إلا أن ثار في وجه الجندي معنفًا، إذ كيف يقتله بالبلطة وليس بالسيف، فهل أصبح إلى هذا الحد قليل الشرف لا يستحق الموت بالسيف، فاستل الجندي سيفه ثم قتله وهو يبكي من أجله.

كان كلاركلا مهووسًا بالقتل والتعذيب، فما إن استقر له الحكم بعد قتل أخيه حتى قرر أن يجتاح الشرق على نحو ما فعل الإسكندر الأكبر، فانتقل إلى أنطاكيا ليهاجم بارثيا ومنها إلى بقية مدن الشرق، حتى جاء إلى الإسكندرية، هذه التي كما تعلم يا صديقي ديونسيوس مركز الثقافة والعلم والمعرفة في الإمبراطورية، ومن ثم كان مواطنوها على معرفة بكل ما يجري في الشمال، فكونوا رأيهم عن كلاركلا من قبل أن يروه، وكتب أحدهم قصيدة هجاء طويلة سرَّبها إلى فراش كلاركلا، فنهض الأخير من نومه ليقرأ هجاءه بنفسه، هنالك أعلن غضبه على الإسكندرية ومتعلميها، فأغلق مدارسها ومعابدها وكنائسها، وأمر جنوده بمطاردة كل ذي رأي أو معرفة فيها، حتى أنه قتل أكثر من عشرين ألف سكندري في بضعة أيام، ولم يكن أمام الناس سوى الفرار إلى الصحراء أو الخروج من البلاد، كنت ممن اختاروا الفرار إلى فلسطين، حيث أصدقائي الذين استقبلوني كي أكون واعظهم الأول.

-٣٤-

لا أعـرف ما الـذي جعل الأب باخوميوس يخـرج من قلايته في ذلك الوقت المتأخر من الليل ويقف أسفل برج كنيسة الملاح صائحًا:

– طوبي للـذي يقرأ، وللذين يسمعون أقوال النبوة، ويحفظون ما هو مكتوب فيها، لأن الوقت قريب.

كان يجأر كما لو أنه أشعياء وهو يدعو على أورشليم بالهلاك.

– لكن الوقت قريب!

هكذا كـررت الكلمة خلفه سائلاً نفسي عـن أي وقت يعني، وما الذي جعله يتمثل يوحنا اللاهوتي في هذا الوقت من الليل، حيث النجوم ساطعة، والهواء يكاد يحمل الرهبان من على أرض الدير ليلقي بهم أسفل الهضبة، فما الذي جعل العجوز يخرج من قلايته في ذلك الوقت؟

حـين طرحت أسئلتي على أنطونيوس لم يرد، وظل ساهمًا كما لو أنه يفكر في أمر سيحدث، أو بالأحرى، حدث بالفعل، فرؤيا يوحنا من أجل البشارة بزوال الطاغوت وقرب النصر، هي انتصار الله عبر لسان يوحنا الحبيب على الهرطقات التي انتشرت، وكان لا بد أن يعيد الله الدين إلى جادة الصواب، فجاء لعبده يوحنا كي يحمِّله برسالته للكنائس السبع، لتهدأ بـالاً وتطمئن أنها على الصواب، وأن الهراطقة ستغور بهم الأرض عما قريب، فهل رأى باخوميوس في الدير ما يستحق التذكير بما قاله يوحنا؟

كانت الأسئلة تجتاحني، وتعبر من صدري إلى لساني، بينما أنطونيوس صامت في قلايته، ينظر من النافـذة المطلة على سفح الهضبة ولا يطالبني بالصمت أو الكلام، فرحت أسأله:

– لم فعل الأب باخوميوس ما فعله؟

ارتسمت على جبهته تقطيبة كبيرة، وراح يجاهد نفسه من أجل الحديث:

- لأنه يوقن أنهم لن يتركوه.

كان صوته خافتًا كما لو أنه ينبع من تحت أحجار الجبل، وكلماته مبهمة كأنه يلقي بالألغاز، شعرت أن سفر الرؤيا هو الذي يتحدث، وأن حالة من التحذير سوف تتهادى إلى مسامعي، لكنه فجأة نقل الحديث إلى واد آخر:

- هل هناك جديد عن دميانة؟

لم أعرف بمَ أجيبه، فقد كنت أفكر في أن هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها قلايته منذ قام المجهولون بضربه على رأسه، ثم توالت الأحداث على الدير، كنت أفكر في أن الأب باخوميوس فعل ما فعله من أجل أن تجيء وقفتي بجانبه في الحلقة التي ضربت أسفل برج الكنيسة، كلانا كان يسأل بنظره عما حدث، وكان البرد يلسع الوجوه، والهواء يكاد يجرف الناس من فوق الهضبة إلى السفح، حين انتهى باخوميوس من صياحه، كان كل من في الدير قد استيقظوا وخرجوا ليستعلموا عما حدث، وحده المنحني هو الذي لم يخرج لينصت إلى سفر الرؤيا وهو يتدلى بوجع من فم باخوميوس الحبيب:

- وظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر، تحت رجلها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا، وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد، وظهرت آية أخرى في السماء، هو ذا تنين عظيم أحمر له سبعة رءوس وعشرة قرون، وعلى رءوسه عشرة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت، فولدت ابنًا ذكرًا عتيدًا أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه، والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله، لكي يعولوها هناك ألفا ومئتين وستين يومًا.

نبهنـي من جديـد أنطونيوسـ إلى سؤاله عن دميانة، كمـا لو أنه كان يفكـر في نفس الآيات التي وردت في رأسي، فنظرت بنصف وعي إليه، وحاولت الربط بين دميانة الحبلى المتمخضة والتنين ذي الرءوس السبعة والقـرون العشر، تذكرت ليلـة رأيتهم يأخذونها نحـو المنحدر ودرجاته الرخامية العظيمة، وكيف طلبـت منهم أن يتركوها حتى الصباح، لكنهم لم يستجيبوا، تذكرت تقريرها للأب جورج، وما كتبته في دفترها الأبيض ذي الغـلاف البلاستيكـي، كنت أفكـر في كل ذلك، لكن يـد أنطونيوس طرقت على كتفي:

– هل سمعت أخبارًا عن دميانة؟

قلت:

– لم أسمع أخبارًا، لكن لك عندي مفاجأة، فقد أرسل لي الأب يوساب، فاستلمت منـه كتب دميانة وأوراقها التي تركتهـا في غرفة إقامتها، وهي الآن بحوزتي.

حينهـا استـدار أنطونيوسـ عني واتجه نحـو النافذة المطلـة على سفح الهضبـة، كان النهـار قد بدأ يملأ الدنيـا بضوئه الحليبـي، بينما النسمات البـاردة أخذت تتنزل من السماء لتهبط إلى الأرض على قلوب المؤمنين. فتـح أنطونيوسـ صدره ورفع رأسـه ومط وجهه بقوة كما لـو أنه طائر سيعبر مـن النافذة الصغيرة، ثم فجأة أمسك بيـدي وأخذ يدور بي مرتلاً من سفر الرؤيا أيضًا:

– وحدثت حرب في السماء، ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنين وملائكته، ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء، فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله، طـرح إلى الأرض، وطرحت ملائكته، وسمعـت صوتًا عظيمًا قائلاً في السمـاء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه، لأنه قد طرح المشتكي على إخوتنا الذين كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهارًا وليلاً، وهـم غلبوه بدم الحروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت، من أجل هذا افرحي أيتها السماوات والساكنون فيها.

لكنــه توقف فجأة ولسانــه يكاد ينطق الآية الأخيرة مــن تلك الفقرة في الأصحــاح الثــاني عشر، فقـد أدرك أن القــادم ليس خـيرًا، وأن التنين العظيم لن يسكـت على هزيمته، فرأيته يتجمد في مكانــه، بينما يده تسقط من يدي، ولسانه يتعثر في نطقها بحزن وخوف:

– ويــل لساكني الأرضـ والبحر، لأن إبليس نــزل إليكم وبه غضب عظيم، عالمًا أن له زمانًا قليلاً.

كان أنطونيوســ قد ذهب وركع تحت أقدام أستــاذه باخوميوس أسفل برج الكنيسة الصغيرة، طالبًا منه أمام الجميع أن يتوقف عما يفعله بنفسه، ويعــود معه من الــبرد إلى دفء الفراشـ، لكن باخوميوســ الذي كان يحدق نحــو نجم بعيد في السماء دفعه بيده فأوقعــه على الأرض، ثم نظر إليه ونهره بقوة وعنف:

– أنت آخر من يقترب مني.

هكذا نطقها واضحــة وصريحة أمام الجميع، حتى أن الهمهمات بدأت تتعالى وتتسع بأن الرجل يعرف عن أنطونيوس شيئًا، وأن العداوة بدأت بينهما، هنالك تدخل الكثيرون، بعضـ الأيدي ساعدت أنطونيوس على النهوض مــن على الأرض وسحبته بعيدًا عــن الدائرة التي ضاقت حول باخوميوســ، وبعضها أخذ يهدهد على جسد الأخير طالبين منه الانصياع إلى كلامهم، كان الأمر بمجملــه بائسًا، فالصديق لم يعد صديقًا، والتلميذ أصبح عــدوًّا، والغرباء هم الذيــن يجمعون الشمل، بينمــا يوساب ينظر ويرقب ولا يتدخل، وثمة أقدام تهرول في الخفاء نحو قلاية المنحني لتبلغه بما يجري، وتحت وطأة الريح العاصفة والبرد الذي يتنزل على المكان، وإلحــاح الرهبان وشفاعاتهم، قرر باخوميوس أن يعود إلى قلايته، غير عابئ بما جرى لتلميذه القديم.

هنالــك تقدمت وحدي لأهدهد على كتف أنطونيوس، كان يقف كعمود انهار من حوله كل شيء، يقف حزينًا وغير مصدق، وضعت يدي خلف

ظهـره ودفعته نحو الأمام، لم تكن أقدامه راغبـة في الحركة، كما لو أنه غـير قادر على تحريك نصفه الأسفـل، لكنها مع الإصرار زحفت، ومع ميـل الأرض أصبح كقاطـرة كانت معطلة ثم انطلقت. حـين وصلنا إلى قلايته شعـرت أن طاقة من الغضب تمور بداخله، حاولت تسليته بالكلام والأسئلـة، ولا أعـرف ما الذي جعله يربط بين مـا فعله باخوميوس وما جـرى لدميانة، فسـأل عن أخبارها، وسرعان ما تـلا بعض الآيات من رؤيـا يوحنا، كل ذلك وأنا أحسب أننـي استطعت أن أخرجه من حزنه، لكنني وجدته يقول:

– ثمة أمر سيجري الليلة، وقد نهض باخوميوس ليحذرنا منه.

شعـرت أن ثمة نوبـة من الجنون أخذت تجتاح الديـر، فرفعت عيني وحاجبي مستفهمًا، لكنه دفعني إلى الخلف قائلاً:

– علينا أن نلحق به.

فتساءلت وأنا أكاد أسقط على الأرض:

– بمن؟

وكأنه كان يريدني أن أفهم الرسالة بنفسي، فسمعته يقول وهو يهرول في الخارج:

– ولـمـا رأى التنين أنه طرح إلى الأرضـ، اضطهد المرأة التي ولدت الابن الذكر، فأعطيت المرأة جناحي النسر العظيم لكي تطير إلى البرية إلى موضعهـا، حيث تعالى زمانا وزمانـين ونصف زمان، من وجه الحية، فألقت الحية مـن فمها وراء المرأة ماء كنهر لتجعلها تحمل بالنهر، فأعانت الأرض المرأة، وفتحت الأرض فمها وابتلعت النهر الذي ألقاه التنين من فمـه، فغضب التنين على المرأة، وذهب ليصنع حربًا مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله، وعندهم شهادة يسوع المسيح.

-٣٥-

فيما يشبــه رحلة العائلــة المقدسة ارتحل أنطونيوس مــن مصر القديمة إلى المعــادي، حيث زار كنيسة السيدة العذراء بها، وسأل أسقفها إن كان يعــرف طريقًا لدير الملاح أو الأب إيمانويل، لكــن الرجل أجابه بالنفي، وقــال إن صعيد مصر به العديد من الأديــرة والكنائس، ويمكنه أن يكمل طريقه إلى هناك، فربما دله القساوسة على الملاح وديره.

اتخــذ طريقه إلى البهنسا، حيث دير الجرنوس وكنيسة العذراء، بحث عــن عين الماء التي بجوار الحائط الغربــي للكنيسة، حيث قيل إن العذراء شربت منها، فملأ كفه وارتوى متوسلاً إلى الرب في عليائه أن ينهي رحلة آلامه، كمــا أنهى آلام العذراء، واستند بظهــره إلى الحائط طالبًا الراحة مــن السير والترحــال، فما كان من كلب السمــاء إلا أن انتفض نحوه من جديد، عازمًا على ضرب مخالبه الطويلة في وجهه، فانتفض أنطونيوس مــن نومــه حاملاً حــذاءه وسلاحه وهو يهــرول، ولولا فضلــة من عقل لصدمته سيــارة في طريقها، تأسف لقائدها وتأســف ركابها إليه، ودون أن يدري إلى أين سيذهب ركب معهم، كانوا في طريقهم إلى جبل الطير، وكان مولد العذراء قد بدأ، فانقطع طيلة أيام المولد يستمع لحكايات العائلة المقدســة، وكيف أتت إلى مصر، وكيــف كادت الصخرة تسقط عليهم من الجبل، لولا أن الطفل الإله وضع يده فأقامها من جديد.

لكــن أنطونيوس لم ينشغل بالمولد وناسه المتبارين في فرحهم به، وظل يســأل كل مــن يراه عن دير المــلاح، وبدا له أن كلب السمــاء قد نسيه في هذا المــكان، فقد انفضــ المولد وأخذ الناســ في العودة لقراهــم ومدنهم، وأنطونيوســ يصرخ في كلب السماء أن يدله على الطريق، كان ينام من أجل أن يظهر له، وينهض ليبحث عنه بين النجوم والسحب، ولما لم يجده

قــرر أن يبتكر طريقه بنفسه، فترك قدماه تأخذانه كمتسول، يحمل بندقية في كتفه ويطلب من الناس أن يدلوه إلى أقرب دير أو كنيسة.

ظل في سيره حتى أوصلته عربة لنقل الماشية إلى الأشمونين، تلك التي شملتهــا معجزات المسيح بالكثير، فبحث عــن أطلال الكنيسة القديمة فيها، وجلس بين بقايــا أعمدتها الرومانية يبكي من اليأس والتعب، هنالك ظهر لــه كاهن عجوز وفي يده جرة مــاء، لم يسأله أنطونيوس أن يعطيه منها، وهو أيضًا لم يسأل أنطونيوس إن كان يريد أن يرتوي أم لا، لكنه اقترب ومال بجرتــه نحو فمه، فراح أنطونيوس يعب مــن مائها كما لو أنها نبع الحياة، حتى أن الكاهن أسرع برفع الجرة عنه:

– ماذا تريد؟

بصوت ملؤه التعب واليأس أجابه أنطونيوس:

– دير الملاح.

– اذهب إلى دير المحرق، واسأل عن الأب باخوميوس.

لم يزد الكاهن عن تلك الكلمات، وهم بالانصراف، غير أن أنطونيوس الذي دبت فيه الحياة، وكاد يطير من الفرح لأنه وجد شخصًا يدله على من يعــرف المكان، أمسك بثوبه الكاهن طالبًا أمارة لباخوميوس، فمد الكاهن يــده وخلع الصليــب الكبير المعلق في عنقه ودفع بــه لأنطونيوس، فنهض الأخــير على قدميه، وارتدى الصليب مائلاً صدره بالريح والشمس، ثم استــدار ليشكر الكاهن علــى منحته، لكنه لم يجده، ولــولا أن صليبه ظل يتأرجح في صدر أنطونيوس لشك في أنه رآه.

في الطريــق إلى المحــرق كانــت حقول الــذرة الخضراء علــى امتداد البصــر، وكان الــكل يتحدث عن بركــة المسيح التي شملــت كل شيء في المكان، فهنا أقام الرب وأمه ستة أشهر، وهي أطول مدة أقاموها في مكان ببر مصــر، كانت أسوار الديــر عالية وتشبه أسوار القــلاع، والأبواب مشرعة كالجبال التي تسد الطريق، طرق أنطونيوس بيده الباب الخشبي العــالي حتــى انفرج قليلاً، وأطل خــادم عجوز برأسه مــن خلال الفتحة الصغيرة:

– أنا رسول للأب باخوميوس.

سأله الخادم من أين:

أجاب أنطونيوس مستسلمًا، كما لو أن الكلمات هي التي تجري على لسانه.

– من دير الملاح.

تركه الخادم وقتًا ليس بالقليل في الغرفة المجاورة للباب، تلك التي يبيت فيها الخادم ومن يتناوب حراسة البوابة معه، بعدها اصطحبه لقلاية رئيس الدير، كان باخوميوس راهبًا في الخمسينات من عمره، تبدو عليه ملامح السمنة، لكنه يتمتع بعين تلمع على الدوام، دون أن نعرف إن كان لمعانها من البكاء أم الفرح، دفع أنطونيوس بالصليب الذي على صدره في وجهه قائلاً:

– هذه أمارتي.

تهلل وجه باخوميوس بالفرح، ثم نهض واستقبله بحفاوة بالغة، سائلاً إياه عن الصليب وأين وجده، لم تكن لدى أنطونيوس إجابة واضحة، فأخذ يحكي قصة بحثه عن دير الملاح حتى وصل إلى بقايا الكنيسة القديمة في الأشمونين، وقد هدَّه العجز والتعب، فجلس يبكي بين الأعمدة الرومانية، هنالك ظهر له كاهن يحمل جرة ماء رواه منها، ثم دله على دير المحرق والأب باخوميوس، فلما طلب منه أمارة خلع هذا الصليب الكبير من عنقه وأعطاه له، ولم يكد يرتدي الصليب وينتشي به حتى اختفى الكاهن وكأنه لم يكن.

دهش أنطونيوس ورئيس الدير حين علما من باخوميوس أن هذا الصليب يخص أباه في العماد، وأنه كان كاهنًا في دير سانت كاترين، استشهد منذ سنوات، كان باخوميوس يسأل أنطونيوس عن صفته، وتتهلل عينه بدموع الفرح وهو ينصت متشممًا الصليب:

– هو هو، هذه صفاته، وهذا صليبه.

بينما رئيس الدير يضحك مؤكدًا لأنطونيوس أنه سيكون ذا شأن كبير.

كانت هذه آخر خروجات باخوميوس من دير الملاح، وكان هذا أول لقاء له بأنطونيوس الذي رافقه في رحلة عودته بعد أسابيع قضاها معه

في ضيافـة دير المحـرق، في الطريق تعضدت علاقتهمـا معًا، وحكى له باخوميوس عـن علاقته بأستاذه وأبيه في العماد، قـال إن اسمه شنودة، وكان من المحاربين الذين نالوا الشهادة في سبيل الوطن، لم يستسلم لكون اليهود احتلوا المكان، فكون عناصر مـن الشمامسة الذين ذكرهم برسائل الآبـاء الأوائل، ومـا أعده الله لمـن يستشهد من أجل دينـه أو عرضه أو وطنـه، فوافقوه على رأيه، وحفـروا نفقًا من أسفل الديـر إلى خارجه، كانوا يقومـون بعملياتهم ضد اليهود ليلاً ثم يعـودون من حيث خرجوا، دون أن يتعـرف أحد عليهم، حتى اصطدمت قدمـه في ليلة مظلمة بلغم، فتطايـرت أشلاؤه وتناثرت في الهواء، حتى أن وجه باخوميوس أصابته بعض الشذرات من دمه ولحمه، عاد باخوميوس لرئيس الدير معلنًا شهادة شنودة، فرفض رئيس الدير خروج أحد من المكان، وهدَّد بالحرمان من يخالف أوامره، فغضب باخوميوس واستأذنه في الرحيل، وظل لسنوات يتنقل من دير لآخر حتى استقر مع بداية الثمانينيات في دير الملاح.

حين وصل أنطونيوس برفقة باخوميوس إلى المساحة المنزرعة أسفل الهضبـة استحى أن يصعـد إلى الهضبة ومعه سلاحه، فحفـر بيديه أسفل صخرة ناتئـة من جدار الهضبـة، وودع سلاحه بقبلـة وحضن طويل، ثـم وضعـه في الأرض وردم عليـه، وصعد الدرجـات الرخامية خلف باخوميوس المجهـد اللاهث، الـذي يحيل كل شـيء إلى نكتـة حتى ثقله الزائـد، ما إن دخلا من البوابة الكبـيرة حتى وجدا إيمانويل الطبيب يقول لأنطونيوس:

– في موعدك بالضبط.

فرد عليه الأخير:

– لولا كلب السماء ما جئت.

فضحكت إيمانويل:

– ولولا أن الرب كان يحول بينكما لفاز بك.

هنالك رفع باخوميوس صليب أستاذه منبهًا عن نفسه:

– ولولا هذا ما جئتك به.

-٣٦-

رأى أنطونيوس جسد أستاذه باخوميوس الحبيب يتأرجح في فضاء الغرفة المطلة على سفح الهضبة، كان الجسد معلقًا من عنقه في حبل متدلٍ من عود خشبي في منتصف السقف، لم يستطع أنطونيوس أن يكتفي بالفرجة على تيار الهواء وهو يؤرجحه في فضاء الغرفة، هرع إلى جوف القلاية وصعد على السرير محتضنًا إياه، حاول رفعه لتخليص العنق من الحبل المطوق له لكنه فشل، جاهد من جديد مرتين وثلاثًا لكنه لم يفلح في تمرير الرأس من الطوق، وزاد الأمر سوءًا حين سقط به السرير على الأرض، فوقف عاجزًا عن فهم ما يجري من حوله، غير قادر على الوصول لطريقة يُنزل بها أستاذه، ذلك الذي أخذ يدور بوجهه وجسده الممتلئ في الغرفة كما لو أنه موشك على الطيران، رأى أنطونيوس ذلك وأدرك أنه فارق الحياة. نظر إلى صليب الأب شنودة المتدلي من عنق باخوميوس وشعر بأن ثمة ما يحثه على أخذه، مد يده وجذبه فانفلت من عنق باخوميوس إلى يد أنطونيوس، وضعه في جيبه وفكر في إكمال مهمته من جديد، غير أن كلب السماء ظهر فجأة وأخذ ينبح تجاهه.

تجمع أمام القلاية ثلاثة من طوال القامة، كأن الأرض انشقت فجأة عنهم، فأخذوا يتصايحون أن أنطونيوس قتل باخوميوس، وتطوع أحدهم بالإسراع نحو قلاية يوساب كي يخبره، في حين وقف الآخران ممسكين بباب القلاية ليمنعا أنطونيوس من الخروج، لكنه خرج، فقد جذب أحدهما بقوة إلى الداخل ملقيًا به نحو كلب السماء الغاضب، وخرج كوحش ثائر نحو الثاني، ذلك الذي لم ينتظر أن تأتيه النجدة، فقد فر من أمامه ليحتمي بالقلايات المجاورة.

في البدء تخوفت من هيئة أنطونيوس وغضبه، وكنت أقرب إلى الفرار مني إلى متابعة ما يجري، لكنني أدركت أنه لا يعرف إلى أين يذهب، فصرخت فيه بصوت خافت كي يتوجه إلى الكنيسة، كنت أقصد كنيسة الأب ديمتريوس، لكنني وجدته يتجه إلى كنيسة الملاح، تلك التي أقيمت على باب المغارة التي دفن بها الملاح ولبؤته وأشبالها، وأصبحت بمثابة قدس الأقداس، لا يتقدمها سوى غرفتي الهيكل والمذبح، ولا يكاد يدخلها أحد من زمن طويل، وحده رئيس الدير هو الذي يذهب للصلاة أمامها كل عيد، ملتمسًا البركة والعون من الملاح وأسوده النائمين في حضرته.

كثر الصياح فجأة بين الرهبان أن أنطونيوس يهرب، ورأيت شبابا لم أرهم من قبل في زي الرهبان، لكنهم أكثر طولاً ونشاطًا، تدفقوا من أماكن عديدة، متسائلين عن المكان الذي ذهب إليه، ولم ينتظروا ليستفهموا عن أكثر من ذلك، فقد تصايحوا بإشارات مبهمة للذهاب خلفه، كانوا أكثر من عشرة رهبان، تدافعوا فجأة لدخول الكنيسة، حين دخلوا تكاثروا على أنطونيوس وأحاطوا به في نصف دائرة، هو بدوره قبض على خشبة في يده وجعلهم أمامه، فأخذوا يتقدمون وهو يتراجع باحثًا عن جدار يحتمي به، لكن من أين له الجدار وهم يضيقون الخناق عليه، ظل يتراجع بين صفي الكراسي المعدة للمصلين في صحن الكنيسة، بينما هم يتخطون بسيقانهم الطويلة الرشيقة المقاعد في يسر وبساطة، حتى أنهم باتوا موقنين أنه سقط في أيديهم، وأنهم بضربات سريعة سوف يقضون عليه، فظل يتراجع وهم يتقدمون حتى وصل إلى غرفة المذبح، دار حول الحوض الكبير وارتكن بجسده إلى الستارة المدلاة أمام الحوض، شعر أن ثمة تيار بارد يتدفق من خلفها، حين مد يده نازعًا الستارة من مكانها وجد بابًا صغيرًا مزخرفًا بصور القديسين، ورأى الأب يوساب قادمًا ومعه مجموعة جديدة من الرهبان الغرباء، بينما كلب السماء يتقدم الجميع بفم مفتوح تجاهه، وأقدامه تترك بصماتها الواضحة على بلاط الكنيسة.

كان انتباهه إلى خطى كلب السماء وتقدمه للرهبان قد أكد له أنه يسير في الاتجاه الصحيح، فاستدار وضرب قدمه بقوة في الباب الخشبي فكسر

قفله، ودلف منه إلى دهليـز مظلم بارد، لم يعرف إلى أين سيأخذه، لكنه وجـد نفسـه يبتعد فيه، وسمـع أصـوات الرهبان وهم يحاولـون تشجيع بعضهـم للدخول خلفه، بينما يوساب يكاد يجن وهو يصرخ عليهم بسرعة الدخول، لكنهم جميعًا سقطوا على الأرض، وفروا إلى خارج المذبح حين رأوا اللبـؤة وقد مـدت عنقها من الباب الصغير، ثـم زأرت في وجوههم وخرجـت عليهم بصحبة أربعة أشبال يافعين، زأرت من جديد وهي تقفز برشاقـة إلى حوض المذبح لتنام فيه، فتقافـز الرهبان إلى صحن الكنيسة، ودون أن يـدروا ما الذي يفعلونه داسوا بأقدامهم على يوساب الذي تعثر في الممر الفاصل بين صفوف الكراسـي، جميعهم كانوا خائفين من الموت في ذلك المكان الذي لم يجرؤ على تدنيسه أحد سواهم.

الجزء الثانى

دميانــة

ريح الجنون

-١-

كانــت دميانة تعرف أن الربيع سيأتي، دائمًا ما كانت تنتظره ويأتي، لا يخذلهــا في عــام من الأعوام، يتأخــر بعض الشيء لكنــه يأتي، تكسو الأرضــ الخضرة في الريف الذي لم تذهــب إليه غير أيام معدودة، ربما مع والدها في صغرها، وربما مع زملائها في المدرسة، لكنها عشقت شكل الأرضــ الخضراء، والأزهار على الأشجــار، تعشق الروائح الزكية، وتبحث بأنفها عن الــذرات التي تأكل الجيوب الأنفية، كانت تقول لنفسها إنهــا حبوب لقاح تنقلها الريح من مــكان لمكان، كانت تعاني بعض الشيء من حساسية في العــين، تدعس عينيها بيديها وترفع أنفها للريح باحثة عن روائــح الربيع، ذلك الذي يحاصرها برياحه وحبوب لقاحه وربما بعض الأمطــار، لكنها دائمًا ما كانــت تنتظره. تخرج مــن شرنقتها لتقف على باب البيت، الربيع فصــل الأعياد، فيه الصوم الكبير، فيه أسبوع الآلام والبركات، فيه عيد القيامة، الشموع التي توقد للقديسين، والأم العذراء، الربيع فصل النهر الجــاري لغسل النفوس من الذنوب، هكذا كانت تقول لها أمها وهما جالستان في انتظار والدها، والدها صلاح متري، الشيوعي المناضــل الذي آمن بإذابــة الفوارق بين الطبقات، فانتهــى مآله بأن ذاب بينها، ولم يترك لابنته وزوجته غير السيرة العطرة وأبواب الربيع الذي مات في مقدمتــه، فظلتا تنتظران بالسنوات والشهــور، ولما تأكد لهما أن الذي يذهب لا يعود قررتا التفكير فيما بقي من حياتيهما.

هكذا نزلت دميانة مــن برجها الوردي إلى أرض الواقع، ومرت بها السنون وهي تسأل:

– متى يأتي الربيع برجل مناسب؟

الكثير من الذين مروا بباب بيتها لم يناسبوها، لا تعرف لم كانت تراهم ثقيلي الظل، بعضهم كان مثقفًا لكنه ثقيل الظل، بعضهم كان واسع الثراء لكنه ثقيل الظل، كانت مشكلتها أنها تبحث عن شخص تحبه، كانت تريد أن تعشقه قبل أن تتزوج به، رفضت كل ما قالته أمها عن الحب الذي يأتي بالعشرة، والمرأة التي خلقت من ضلع الرجل الحنون، والمودة التي تنبت بين كل ضلعين ناما في فراش واحد، رفضت أن تتزوج دون أن تؤمن:

– لابد أن أرى كي أؤمن.

هكذا قالت لنفسها، لكن رؤيتها تأخرت، وطال انتظارها حتى ظنت أنها لن تأتي، وفي الوقت الذي أوشكت فيه على اليأس من مجيئها، وجدتها أمامها، فرأتها بأم عينها مجسدة في الراهب القس، الراهب المحال إلى التحقيق بسؤال مستبطنٍ عن هرطقته، رأت الحب المحرم، ولا تدري كيف يمكنها أن تعشق رجلاً وهب نفسه للرب، هل تغويه كحواء وتخرجه من الفردوس لتتزوج به، أم تحضتنه وتقفز من فوق جبل القلزم كي يتاح لروحيهما الزواج في عالم الخلود، هل يتسع ملكوت الرب للمنتحرين من فوق الجبل كي يسكنوه، أم أن الله لا يحب ولا يغفر للمحبين، ولا يريد إلا بشرًا يمشون على قضبان من حديد؟

كانت ترغب في الانفجار عشرات المرات بهذه الأسئلة في وجه أنطونيوس، كادت أن تصرخ فيه:

– لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

لكنها لم تسأل، ولم تعرف لم دفعوا بأوراقه إليها، في البدء قالت إنهم محض حمقى، لكنها بعد تأمل وجدت أنهم جنود الرب، وأن أنطونيوس هو هدية السماء، لكن ما الذي ستفعله بهدية محرمة، أهي رغبة في التعذيب أم سعي للخروج من الملكوت، بعد كل هذه السنوات من الصمت والصبر والشموع التي ذابت تحت أقدام القديسين تجيء الهدية على هيئة راهب؟ هل يريد الرب مني أن أدخل إلى بئر الرهبنة، أن أترك الدنيا وملذاتها وأمضي ما بقي من حياتي في رقعة منعزلة عن العالم كهذه، أم أموت كمدًا بحب رجل لا رجاء منه؟

هكذا أمضت أيامها الأولى في التحقيق مع أنطونيوس، الشيء الذي أنقذها من الجنون أنها وجدت نفسها تحب رجلاً مهددًا بالموت، وأن عليها إنقاذه قبل التفكير في إدانته، فالأمر لا يكمن في الجرم الذي ارتكبه، الجرم الذي لا تعرف لم يعاقب عليه، فالكتاب نفدت نسخه، ولم يعترض أحد على ما به، فأين المال المهدر، وما الذي يجعل رئيس الدير متحمسًا لإدانة راهب لا ينافسه في شيء، هكذا كانت خيوط القضية في نسيجها الأولى، قرأت كل ورقة أحيلت إليها، وكل ورقة لم تحل إليها، كانت تنزل المدينة الكبيرة لتبحث في مكتباتها وأرشيفاتها عما يعضد وجهة نظره، كانت تسأل الأساقفة الذين تعرفهم والقساوسة الذين تثق برؤيتهم عما يمكن أن يحدث مع رجل نشر بالخطأ أو العمد مذكرات علّامة مهرطق، كانت تعيد عليهم الأقوال والظروف والملابسات، وتسأل نفسها عما يجري في دير الملاح من صراعات وفتن.

– هل تعرف الأب إيمانويل؟

– ما الذي جرى له؟

– إلى أين كانت رحلته الطويلة؟

كان ملاك بوصفه نصف راهب ونصف فليسوف مرجعها الأول في الإجابة عما يجري، أحيانًا كان يتأمل قبل أن يجيب، وأحيانًا كان يخمن، لكنه في كل مرة كان يتحدث، كان ملاك يسأل الآباء والشمامسة والخدم ويجيب، جميعهم يعرفهم، فهم لا يزيدون عن أربعين راهبًا، بالإضافة إلى الخدم والعاملين في الزراعة والورش، كان ينهي عمله ويذهب ليجلس معهم، يحادثونه عما يعرفون، ويحادثهم عما يعن له، بعضهم كان يرى أنه على حافة الهرطقة والجنون، وبعضهم كان يخيفه بالأب يوساب، لكنه في العموم كان يحب أن تكون بينه وبين القساوسة مسافة، كان يقول لنفسه إنه ليس كاهنًا ولا راهبًا، وأنه لن يكون، فهو في أفضل الحالات شماس مبتدئ، إبصالتوس لا يرغب في مفارقة درجته، هو أقرب للخدم والمزارعين منه إلى الرهبان، لكن وجوده الأزلي في المكان جعله كما لو أنه مالكه، فهو لا يعرف مكانًا غيره، هو كل العالم بالنسبة إليه، مرات

قليلة التي غادره فيها، بالتأكيد في معية أي من الآباء، وبالتأكيد إلى كنيسة أو ديـر مشابه، كان يسير في شوارع المدن التي ذهب إليها خائفًا، محتميًا بجسد وروح الذي معه، لم يحب القاهرة، ولم يتمتع برؤية الإسكندرية، لكنه استطاع التعامل مع السويس، شعر أنها آخر حدود العالم، فعينه لم تتعود على الزحام، وروحه لم تعشق سوى الإيقاع الهادئ للحياة.

كان يعـرف كل حصاة في عالمـه، يعرف تاريخها والقبيلـة التي أتت منهـا، كان يعشق السمـاع وتغريه الحكايات، وحين علـم أن الكتب بها أكـثر مما يمتلكـه الناس قرر أن يتعلم كي يعـرف ما تحتوي عليه، وحين عـرف غرق، واستهواه تنسيق المخطوطـات، استهواه أن يعرف أفضل من السابقين عليه، فأعاد تنظيـم التركة، وطلب من الأب إيمانويل أرففًا كبـيرة ليضعها عليهـا، ولم يرفض الأخير، فذهب مـلاك إلى النجارين واصطحبهم معه، وظلوا عدة أشهر يصنعون المكتبة، أصر على أن يكون هـذا مسماها، وظل يكره أن يقول أحد إنهـا مخزن الورق، كان الجميع يسميها المخزن، لم يكن يشتمل على الكتب ولفافات الورق المربوط بالليف والكتان فقط، لكنه كان مكانًا لكل ما هو قديم ومستهلك، بعد جهد تم فصل كل مـا هو قديم عن كل ما هو ورقي قديم، وأخذ العمال في دهن الحوائط بالزيت قبل أن توضع الأرفف، وقام وحده بتنسيق الكتب والمخطوطات عليها، هنـأه الأب إيمانويل علـى عمله، وتغاضى عـن استغلال علاقته بالنجاريـن كـي يصنعـوا له مكتبًـا دون أن يعلـم أي من الآبـاء، وحده إيمانويل الذي علم وضحك، طلبها ملاك بهمس وتردد، فسمعها إيمانويل وضحك، ثم أومأ أنه لم يسمع، وكان ذلك يعني أن يفعل ولا يخبر أحدًا.

كانـت حياة ملاك ثرية وجميلة ولا يوجد فيها ما ينغصها، لم يكن يظن أنـه في يوم ما سيكـون شخصًا غير الذي كانه، فلم ينـذر نفسه للحب ولا للـرب، لكن ظهور دميانـة فى الأفق قلب الأمـور رأسًا على عقب، هو نفســه كان يود الهروب من قدره، كان يود أن يظل على ما هو فيه، لكن كيف ذلك وهو الكاتب، كيف يمكنه أن يهرب من قدره؟! هكذا وجد نفسه أمـام يوساب الذي أكد عليه ضرورة التعـاون الجيد مع المحققة الجديدة، عرفها بنفسه وجلس أمامها كتلميذ ينتظر أوامرها، كانت التحقيقات المحالة

إليهــا بسيطة وصغيرة، كان غالبًا ما يشرح لها كيفية التصرف فيها، فنقل إليهــا خبرته من المحققين السابقين، حتى أحيل إليها أنطونيوس ومشكلته، تلــك التي يكاد يكون قد اعترف فيها بنشــره أعمالاً لراهب مهرطق، فهم مــن دميانة أنه باعترافــه الكامل سيجردونه من رتبتــه الكهنوتية، وربما يلقى مصــير أوريجانوس ذاته، فهم أيضًا أن ثمــة ضغوطًا تمارس عليها لتنهي التحقيق في الوجهة التي يريدونها، لكنها لن تفعل.

كان مــلاك متعاطفًا مــع دميانة أكثر من أنطونيوســ، بالأحرى كان قــد سقط في حبهــا مثلما سقط أنطونيوس، كانــت في نفس سنه، وفي نفس طبقتــه إن كانت له طبقــة، جمالها ليســ صارخًا، لكــن تناسق ملامحها يمنحهــا ملاحة واضحة، ورغــم الجدية التي تسعى لفرضهــا إلا أن لديها دلالاً لا تستطيــع أن تواريه، أحيانًا تكون كطفلة تريد أن تشاكس وتلعب وتضحك، وأحيانًا تعامل الجميع ككائنات مفتقدة للعطف، فتهدهد على كل من تجــده في طريقها، لكنها في كل الأحوال خلقت للمكان روحًا مختلفة، فسعــى الجميــع لأن يكون على قــدر روحها الجميلة، مــلاك نفسه ضبط نفســه يعيد النظر في مرآته، يحلق ذقنة ويضبط هندامه ويذهب ليجلس في انتظــار تحية الصباح، يوصي الخــادم بقهوتها وبنها المخصوص ويحملها بيديه إليها، يحضر الأوراق والأقلام ويكتب بخط واضح منضبط كي لا تتعــب عيناها في القراءة، يفعل كل ما تتمناه وتحلــم به، لكنها أبدًا لم تنتبه لحبــه، لم تنظر إليه بعين المحبوب، كانت تــراه ملاكًا الكاتب، وربما أخ أو صديق، ربما خادم أو تابع، وربما ليس موجودًا من الأساس، ورغم ذلك كان غارقًا في حبها، في عطرها الهادئ الذي تعودت أن تضعه أسفل أذنهــا، كان يعشقها في صمت، خاصة وأنها تركتــه يحترق كعود بخور جــاف وأخذت تلهث خلف أخبــار أنطونيوس، وكيفيــة تمرير رأسه من حبل المشنقة التي وضعوها حول عنقه.

-٢-

لم يمض يومان على اختفاء دميانة أو إصرارها على الرحيل ليلاً حسبما قـال الأب يوساب إلا وظهر الرهبان الثلاثة الذيـن رافقوها في رحلتها، كانـوا يعبرون أرض الدير كما لو أنهم يسـيرون في مشهد جنائزي، بدا كمـا لو أنهم مقبلـون على الموت أو مساقون إليه، حـين وصلوا إلى قلاية يوساب تفحص وجوههم بعناية قبل أن يفتح فمه:

- ما الذي حدث؟

وقـف الثلاثة ينظـرون إلى بعضهـم وكأن كلاً منهـم يستنجد بالآخر كـي يبدأ، لكن أيًّا منهم لم يتكلم، فاضطر يوسـاب أن يعيد سؤاله بصوت مكتوم لكن به مـن الغلظة والحسم ما يجعل الأحجار ترتعد، وأمام وطأة الصـوت وحدة العيون المسلطة على الوجوه خر الثلاثة فجأة على أقدامهم طالبـين المغفرة، كان ذلك بمثابة وضع مزيد مـن الزيت على النار، فقد ثار يوساب وأخذ في صفعهم كي ينطقوا:

- هربت.

هكذا قال أحدهم باكيًا، فقبض يوساب على ياقة جلبابه:

- كيف؟

وبـدا أن الحجـر الذي كان في فم الراهب قد سقـط، فأخذ يبكي ويدلي بـكل ما يعـرف دون أن يتوقف عن الارتجاف، ليسـ خوفًا من يوساب وما قد يفعله، ولكن رعبًا من اللبؤة وأشبالها، وما قد يحدث بسبب دميانة وما معها من ملائكة أو جن.

كان الرهبـان قد انطلقـوا بسيارتهم من أمام مخر السيـل القديم الذي أصبـح مدرجًا مكسوًّا بالرخام، وقطعوا نحو عشرين كيلومترًا في طريق

الرهبــان، صامتين لا يتفوهون بكلمة عما يجري، في البدء كانت نظرات دميانــة حائرة تحمل عشـرات الأسئلة عن الطريــق ووجهتهم، لكنها مع الوقــت هــدأت واستسلمت، وكلما فتحــت عينيها لتنظر مــن النافذة لم تر سوى النجوم المتوارية خلف غيوم تتحرك في سماء لم تغادر شتاءها بعد، بينما الظلام والرمل ينامان على الأرض بامتداد البصر، فتغمض عينيها وتسند رأسها على الزجاج مستسلمة لقدرها من جديد.

لم يكـد الباص يأخـذ سرعته على الطريــق حتى هــدأ السائق سرعته وتوقف في مكانه قائلاً إنــه لا بد من تغيير الإطار الخلفي، فنزل الرهبان معه وتشاوروا قبل أن يصعد أحدهم ليخبر دميانة بضرورة نزولها، لأن رافع العجل أسفل كرسيها، نهضت باستسلام ونزلت تنظر نحو الإطار، لكنهــا سرعان مــا شعرت بالــبرد وقوة الريــح فقررت عبــور الطريق للاحتمــاء بصخرة علــى الجانب الآخــر، وأخذت تنظـر للنجوم بخوف واضــح وهي موشكة على البكاء، كان السائق قد أخذ يرفع السيارة ويفك الإطــار، بينما فتح الرهبان الثلاثة الباب الخلفي وأنزلوا منه فأسا كبيرة، فأخذهــا أحدهم وابتعد عن الطريــق مسافة مائة متر وبدأ في الحفر، بعدها ذهب أحدهم ليخبرها أن السائق انتهى ويمكنها صعود الباص. كان القمر قــد أصبــح مضيئًا إلى حد كبير، فــرأت الشر في عينــه، ورأت عصا من الحديد في يده، وزميلــه يسعى لتطويقها من الجانب الآخر من الصخرة، فتراجعــت إلى الخلف، تراجعت حتــى أصبحت الصخــرة بينها وبينهم، ثم مــا لبثت أن هرولت في الصحراء، فانطلقــوا متصايحين خلفها، كانت خطاها رشيقة كما لو أنهــا موشكة على الطيران، وكان صراخها مكتومًا وأنفاسهــا متلاحقة، وهم لا يكلون من الجــري، حتى سقطت في أيديهم، فضربها أحدهم بيده على رأسها، فسقطت فاقدة الوعي.

مــا رواه الرهبان ليوساب أنهم ألقوا بها في الحفرة، وكانوا على وشك أن يردمــوا عليها الرمل، لولا أنهم رأوا لبؤة بصحبة أشبال أربع ظهرت كأنها نزلت من السماء أو خرجت من الأرض، وتمطت أمامهم على رأس الحفرة كما لو أنها تستعرض قواها عليهم، ثم ما لبثت أن رفعت عنقها نحو السماء مطلقة صوتها الغاضب، فتقافزوا متراجعين للخلف، جميعهم كادوا ينكفئــون على وجوههــم وهم يهرولون، لم يكن لهم ملجــأ في ذلك الوقت

ولا في تلـك الصحراء الشاسعة غير الباص، ذلـك الذي ارتجف قليلاً قبل أن ينطلـق ليغادر المكان. ظلوا يقطعـون الليل بطوله في طريق لا ينتهي، ومـع انبـلاج الصباح اكتشفوا أنهـم على مشارف أسيـوط، وأنهم لم يعد بمستطاعهم أن يذهبوا لأبعد من ذلـك، فأمضوا يومين كاملين يستجمعون فيه شتات أنفسهم من الرعب قبل أن يفكروا في العودة إلى الدير.

توقـف يوساب عن تأنيبهم وراح يفكر فيمـا يجري، فهذا المكان أنشئ علـى أسطورة لا أحد يعرف مدى صدقها، هو نفسه كان يعتبرها من قبيل الخرافات التـي نسجها الآباء القدامى لحماية الدير من البدو واللصوص، لكن ما يجري هذه الأيام يقول بأن الأكاذيب أصبحت حقيقة، والأساطير لم تعد أساطير، فكيف يمكنه أن يعيد الماضي إلى قبوه القديم.

شعـر الرهبـان الذين كانوا يتوقعـون الموت على يد يوسـاب أنه شرد بعيدًا عنهم، حتى أنه لا يـكاد يشعر بوجودهم من حوله، فنهض الراهب الذي كان يرتجف منذ لحظات ونظـر لصديقيه، هما بدورهما تبادلا معه النظـرات، وحين طال الانتظـار انفرجت الأساريـر وانبسطت الملامح وضاعـت الرهبـة، بعضهـم تلمس مـا اعتبره إشـارة بالخـروج وأومأ للآخريـن بترك الرجـل في حاله، تسحبت أقدامهم واحـدًا تلو الآخر من القلايـة الواطئة عن الأرض، ناظريـن إلى الظلال التي تحركت لتنبسط علـى جانب من الممشى الطويل الرابط بين الكنيستين، بينما جلس يوساب يفكـر وكأن كل مـا خطط له أوشـك على الانهيار، جلـس على الكرسي المجاور لباب الكنيف وكأنه الشماس المكلف بتنظيف القلاية والعناية بها.

-٣-

أســرع الراهب يوحنا إلى قلاية أبانوب ليخبره أن شابًّا على باب الدير يقول إنه رسول البابا ألكسندروس إلى الأب ديمتريوس، فنهض أبانوب مــن فوره لاستقبال الرسول، لكنــه لم يجد شابًّا واحدًا كما قال يوحنا، بل شابين وفي نفس الســن تقريبًا، لكن أحدهما بدا أنه أصيب بضربة شمس، ألقــى أبانوب نظرة على أسفل المنحدر فوجــد جواديهما يأكلان الأعشاب الخضراء، فأشار ليوحنا أن يوثقهما على مقربة من المنحدر.

كانــت الشمســ في ذلك الوقت ساطعــة كما لو أنها قــررت أن تشوي الأرضــ ومن عليها، فألقى أبانوب التحية على الشابين سائلاً عمن يكون رسول البابا، فأشار أحدهما إلى نفسه:

– أنا أثناثيوس... رســول البابا ألكسندروس، وهذا سيلاس، رفيق الرحلة معي من صحراء الإسقيط.

بدا على سيلاس أنه لم يعد قادرًا على احتمال مزيد من السير، فصرخ أبانوب على راهبين في القلاية المجاورة، وسرعان ما احتملاه بين أيديهما ودخــلا به إلى القلاية، ووقفا إلى جانب أثناسيوس ينظران لأبانوب وهو يذيب الملح في الماء ويضعه على رأس سيلاس وجسده.

أبــدى أثناسيوســ إعجابه بالكنيســة الكبيرة التي كانــت لا تزال تزهو بألوانها، وقال إنه لم ير في أي من الأديرة التي مر بها كنيسة كهذه، شعر أبانــوب حينها بالنشوة، وكاد أن يقول إنــه صاحب هذا الإنجاز العظيم، لكنــه تراجــع موضحًــا أن الأب ديمتريوس هو صاحب هــذا العمل، فقد كان الديــر في زمن الأب جبرائيل مجرد مكان لتجمع الباحثين عن حماية الــرب، بعضهم استمر في رهبنته، وبعضهم عاد إلى قراه من جديد، لكن ديمتريوس قرر أن يقيم لهم كنيســة تجمعهم، وبدلاً من القلايات المتناثرة

نظمها في صف واحد بامتداد سور الدير، ورتب شروطًا للانضمام للمكان، لا يسكنه إلا الراغبون حقًّا في العزلة وحياة النسك، أما العابرون من الضيوف فإنهم يقيمون في سفح الجبل.

شرح أبانوب لأثناسيوس النظام الذي وضعه ديمتريوس، ممتلئًا بالفخر لأنه يتحدث إلى رسول البابا، موقنًا أن كل ذرة في هذا المكان له بصمة عليها، وأن من منحه هذا الشرف هو الأب ديمتريوس، لذا كان يذكر اسمه بإجلال واضح، متمنيًا له الشفاء من المرض الذي ألم به، فصدره لا يحتمل الإجهاد، لذا ترك كل شئون الدير في يده وحده ليقوم بها. شعر أثناسيوس أن محدثه يسعى للاستئثار به أو عزله عن رؤية رئيس الدير، ومن ثم أصر على ألا يخبره بالهدف الذي جاء من أجله، وطلب منه أن يعودا لرؤية صديقه سيلاس والاطمئنان عليه، غير أن أبانوب فاجأه:

– لدينا هنا مدرسة للاهوت.

بدا على أثناسيوس الاهتمام، فاصطحبه أبانوب إلى المكان الذي أعده لرفائيل كي يشرح فيه للرهبان قواعد الإيمان وما يعرفه من تفاسير للكتاب المقدس، إلا أن المفاجأة كانت في أن أثناسيوس يعرف رفائيل، فما إن رآه حتى نطق باسمه، بينما نهض رفائيل من مجلسه مندهشًا لاحتضانه، مبادلاً إياه التحايا باليونانية والرومانية على مرأى من الجميع، ولم يكن أبانوب يعرف أن علاقة رفائيل بأثناسيوس غريبة ومدهشة، فقد كان رفائيل معجبًا بأفكار أريوس، كاهن كنيسة بوكاليا غرب الإسكندرية، ومن ثم قاطع أثناسيوس ذات مرة في درسه بمدرسة اللاهوت سائلاً:

– هل الابن خاضع للآب أم لا؟

هنالك نظر إليه أثناسيوس بعينين ملؤهما الغضب، وبعد صمت طويل سأل رفائيل:

– أأريوسي أنت؟

ادعى رفائيل عدم الفهم، وطالب أثناسيوس بالإجابة دون مواربة، فقال:

- بالطبـع لا . . . كيـف يخضع المثيـل لمثيله، فكلاهما متسـاوٍ في القوة والعطاء والتحقق، ولولا هذا ما كان ذاك.

كان رفائيـل بحكم دراسته للأفلاطونيـة والرواقية أقرب إلى تصديق مقـولات أريوس عـن الابن، هذا الذي يـراه خاضعا لـلآب، وأنه جاء من أجل خلاصـ البشرية، ومن خلال بنوته وتضحيته تحقق الخلاص، ومـن خلال الآب اكتسب ألوهيته وقوته، ومن ثم فهو ليس مساوٍ للآب، ووجـوده تابع لوجود الآب. لكن أثناسيوسـ في ذلك اليوم اصطَحبه بعد أن انصـرف الناس في جولـة طويلة بشوارع الإسكندريـة، قال فيها إن المنظور الإيماني يختلف عن المنظور العقلاني، فرؤية العقل تقول بما اعتاد عليـه الناس، كأن يكون الابن تابعًا للأب، وأنه لولا وجود الأب ما كان وجـود الابن، ومن ثم فـالأب يتغلب على الابن، هذا ما اعتاد العقل على قولـه، لكن ما هو فـوق العقل، وما نراه بقلوبنـا ويقيننا وبصيرتنا وليس بصرنا، أن الأب والابـن متساويان، ولا يمكن التفكير في أن الآب كان يومًا بدون الابن، وإلا فكيف كان آبًا، وكذلك لا يمكن أن يكون الابن بلا آب، ومن ثم فحضورهما متلازم متكافئ متساو.

في ذلـك اليـوم شعـر رفائيل أنه بـدأ يؤمـن بقلبه وليسـ بعقله، وأن معرفـة الله تخضع لتصديق القلب وليس فهم العقـل، وأن على العقل أن يبـذل كل جهده لإثبات وجـود الله وقدراته، وليسـ لاختباره والابتعاد عـن طريقه، فأريوس ليس قويم الإيمان، وقـد اختلط عليه إدراكه بعقله البسيط، وما قرأه من فلسفة اليونانيين على نور اليقين والإيمان، ولذا تاه في منتصـف الطريـق، بعدما كان تلميذًا نجيبًا لـلأب بطرس الذي رسمه كاهنًـا، فخرج عليه وانضم إلى أشد خصومه وهو ميليتيوس، ولم يستطع الأب أرشيلاوس، خليفـة الأب بطرس الأول، أن يقف في وجه أفكاره المغلوطة، ورغـم أن الأب ألكسندروس نهى أريوس عن التحدث للناس بالهرطقات، إلا أنه لم ينته.

كان أثناسيوسـ طيلة الوقت في معيـة ألكسندروس العجـوز، متمتعًا بالبلاغـة والفصاحة وسعـة الاطلاع، وكلما سأل أحـد المؤمنين عن أمر يحتـاج لمزيد من الشرح، كان ألكسندروسـ يومئ إلى تلميذه كي يتحدث

نيابــة عنه، حتى أصبح بمثابــة المتحدث الرسمي باسمــه، في ذلك الوقت تعرف عليه رفائيل، وتحول غضــب أثناسيوس منه إلى محبة له، إلا أن الوقت لم يسمح لصحبتهما أن تتســع وتتعمق، فقد انشغل رفائيل بدراسته في الميوزيــوم، وسرعان ما ترك الإسكندرية وعــاد إلى الدير، ولم يكد تستقر أحواله فيه حتى وجد نفسه من جديد أمام أثناسيوس، هذا الذي قطع كل هــذه المسافات كي يدعوه أن يكون رفيقًا لــه في رحلته، فقد قرر البابا ألكسندروس أن يعقد مجمعًا لمراجعة أريوس في أفكاره.

-٤-

رسائل أوريجانوس (٦)

غـادرت الإسكندرية مرغمًـا، أو بالأحرى فـررت بجلدي من أمام جنـود كلاركلا الذيـن هاموا علـى وجوههم باحثين عـن كل من يعرف القـراءة والكتابة، فتحولـت الإسكندرية على أيديهـم إلى حرائق وأشلاء وجثـث، حتى أن روائح الدخان والنـتن كانت تفوح من كل مكان فيها، ولم يكـن أمامي سوى أن أحمل في يدي مـا استطعت حمله والفرار ليلاً، ودعـت أمـي وإخوتـي وتركت رسالـة لديمتريوس أننـي سأذهب إلى أورشليم.

علـى أطـراف الإسكندرية مـن جهة الشـرق اتفقت مـع حمَّار على نقلـي إلى الفرما، فظللنا نقطـع المسافات طيلة الليـل والنهار لمدة يومين، بعدها مكثـت بالفرما حتى أستبـين أمري، فقد خشيـت أن يقبض الجنود على الحمَّـار فيرشدهم إلى مكاني، أمضيت يومـين آخرين في كوخ على مشـارف البلدة، ثم بحثت عـن دليل يأخذني إلى بيـت لحم، فمكثت على ظهر جمـل يومين آخريـن، كانت الريـح والرمل والشمس هي كل ما نعرف، فلا مـكان نأتنس به ولا أناس نسترشد بهم، والخوف من الدليل البـدوي يلازمني طيلة الوقت، فقد بدا عليه أنـه ليس مسالمًا، والصحراء تغـري بما هو سيـئ، وأنا لا أفهم نصـف ما يقوله، لكننـي أخذت أوافقه طيلـة الوقت حتى وصلنا في النهاية، فضاعفت له الأجر كما طلب ورحت أتنعَّـم برؤية الناس وتفاصيل المكان، فهـا هنا ولد المسيح، ومن هنا حملته أمـه وسارت به إلى بلادي، وهنا تكلم ووعـظ وتنبأ، أمضيت أسبوعين في المـكان باحثا عن استرداد أنفاسي، وبعدها ذهبـت إلى القدس، حيث أصحابي الذين تركت لديهم انطباعًا جيدًا عني آن مروري بهم، سواء في

طريقي إلى روما أو إلى جزيرة العرب حيث جفنة بن عمرو.

كانـت المدينـة أهدأ حالاً مـن الإسكندريـة، وكأن كلاركلا نسيها، أو أنهـا سقطت من دفاتره، التقيت بصديقـي ألكسندر الذي أصبح أسقفًا على أورشليـم، وصديقي ثيؤكتستوس الذي صار أسقفًـا على فلسطين، رحَّبا بـي ترحيبا كبـيرًا، وأخذا يسألاني عـن الإسكندريـة وأحوالها، قلت إن الحرائق والسيوف التهمـت أكثر من عشرين ألف نفس، ولم تترك مكانًا دون أن تتصاعـد منه رائحة الموت، تأسفا لما جرى ويجري، ومكثت في ضيافتهما شهرًا أو يزيد، لا أخرج من البيت الذي جهزاه لي، ولا أتحدث مـع أحد خشية أن يكون من عيـون الرومان، وعكفت على بعض الكتب التي أحضراها لأطلع عليها، حتى رأيتهما في يوم من الأيام يدخلان علي إثـر نقاش وجدل حاد، فقد سألهما أحد المؤمنين عن العقل ووجوده، كان السؤال محيرًا ولم تكن لديهما إجابة واضحة، ظلا يتناقشان حتى سألاني، فتأملـت السـؤال وتذكـرت ما تعلمتـه في الميوزيـوم على يـد أمونيوس السكَّاس، وما كان يقوله عن الروح واللوجوس، فقلت إن الله ألقى في بداية خلقه للكون بالعقل، ذلك الذي يعد الصورة المثالية لله الواحد، وهو في نفس الوقت كائن وفكر وفكرة وعالم مثالي، فهو كصورة يتوافق مع الواحد، لكنـه كمشتق يختلف عنه، فهو الفكر النقـي نفسه، وهو العنصر الأكثر أهمية من المثالية، لأنه الطاقة التي تحيل العالم المادي إلى قدرة على الإدراك الحسي.

حين توقفـت عن الحديث ناظرًا في وجهيهما لأعـرف مدى فهمهما لما أقول، وجدت عيونًا مفتوحة على الفراغ، حتى أنني هززت يدي أمامها مرتـين كي يستفيقا مما ذهبا فيـه. حين سألتهما إن كانت الفكرة وصلت أم لا، وجدت ثيؤكتستوس يباغتني بسؤاله:

– ما رأيك أن تجلس لتعظ المؤمنين هنا كما كنت تفعل في الإسكندرية؟

راقتنـي الفكرة، ووجدتنـي أجلس في حجرة بمدخـل كنيسة أورشليم لأشـرح للمؤمنـين مبـادئ الإيمـان، لأنتقل إلى بعضـ أسفـار الكتاب المقدس، ثم بعض المسائل اللاهوتية المتعلقة بالإيمان وكيفية الحفاظ عليه، وتنزيـه الرب عن التعامل معـه كما يفعل الوثنيـون بأربابهم، بدا لي أن

أورشليم كانت في حاجة إلى مدرسة كهذه، فهي مدينة الرب، لكنها خالية من مدرسة تعلم الناس الإيمان الصحيح، بدا أيضًا أن الناس في قرارة أنفسهم كانوا يبحثون عن المدرسة ومعلمها الأول، ووجدتني هذا الرجل الذي دفعته يد كلاركلا بحرائقه وسيوف جنوده ليخالف ما كتبه عن مقاومة الاضطهاد بالاستشهاد، ويفر بجلده إلى القدس، كنت موقنًا أنها مشيئة الرب، فجلست على وسادة بمواجهة الراغبين في الاستماع للوعظ الروحي حسبما قال لهم ثيؤكتستوس، فوجدت الرجل الذي سألهما بالأمس يقف في مكانه ليخبرني بسؤاله، فأجبته بما قلته للإكسندر وثيؤكتستوس، وما إن انتهيت حتى وجدته يقول:

– فما الروح؟

ووجدتني من جديد أتذكر محاوراتنا مع السكاس، هذه التي كنت موقنًا أنها من صحيح الإيمان، لأن السكاس كان مؤمنًا بالمسيح، معظمًا للكنيسة، وقد رافقته في الذهاب إليها مرات، وسمعت منه ونحن في الطريق إليها، ومن ثم عدلت نفسي في مجلسي وقلت:

الروح هي الصورة وناتج العقل الساكن، ومن ثم فهي ليست مادية مثل العقل، وصلتها به كصلة العقل بالوجدان، وموقعها بين العقل والعالم الحسي، مخترقة ومنورة بالسابق، لكنها أيضًا ملامسة باللاحق، ويمكن القول إن العقل هو الروح غير المجزأة، ويمكن لعالم الروح أن يحافظ على وحدته ويبقى في العقل، لكنه في نفس الوقت لديه القدرة على التوحد مع العالم الجسدي، ومن ثم قد يتفتت، والروح باعتبارها جوهرًا مؤثرًا، تولد العالم المادي أو العالم غير الظاهري، هذا العالم يجب أن يمتد من خلال الروح التي يجب أن تبقى أجزاؤها المختلفة في وئام تام، ومن ثم فلا بد لها أن تقتفي خطواتها للعودة إلى الخير الأسمى، ولا يكون هذا إلا بممارسة الفضيلة التي تؤدي الفضائل الإلهية، أما الفضائل المدنية فهي مجرد تزيين للحياة دون رفع للروح. والكنيسة هي مكتب الفضائل المطهرة، حيث تتحرر الروح من الحسية، وتقاد عائدةً إلى نفسها، ومن ثم إلى العقل عبر ممارسات الزهد والتقشف، حيث يصبح الإنسان مرة أخرى كائنًا روحيًّا دائمَ الوجود وخاليًا من الخطيئة. ولا يكفي أن يخلو

الفرد مــن الآثام فقط، بل عليه أن يسعى لأن يكــون "الإله"، أو متوحدًا معــه، وهذه المرحلة يتــم التوصل إليها من خلال نهــج وجداني يبدأ بتفكر الأشيــاء المادية في تعددهــا وتوافقها، ثم الانكفاء علــى نفسها والعودة إلى أعماق كينونتها، ثم تصاعدها إلى العقل (حيث يقع عالم الأفكار)، وحيث لا يــزال صدى ضعيف يــتردد قائلاً "نحن مــن صنعنا أنفسنــا"، لكن في المرحلة الأخيرة من هذا المنهــج الوجداني تنظر الروح في صمت ونسيان مطلق وبتوتر وتركيز شديــد في كل شيء، موقنة بمقدرتها على خسران كل شــيء من أجل رؤية مؤســس الحياة ومصدر الوجود، لأنه أصل كل الأشيــاء وجذر الروح. في هــذه اللحظة تستمتع بأعلــى النعم غير القابلة للوصف، مغتسلة في ضوء الألوهية والاتحاد مع الله.

ما إن أنهيت حديثي الذي لم أدر كيف طال، فقد كان من المفترض أن أرد بكلمتــين علــى سؤال لا يخص المبتدئين، لكننــي وجدتني أتدفق كنهر جــار من أعلــى إلى أسفل، ووجدت محدثــي يغوص بــين أقرانه، بينماً صوتــي ينتظم ويتوالى، وإشاراتي تتضح وتزيــد، فكان الصمت حليفهم والتجلــي حليفي، ولم أنتبه إلى وجود صديقــي ألكسندر وثيؤكتستوس إلا بعدما انتهيت مــن الكلام، فقد وقفا أمام الناس بفخر متحدثين عن الساحر الــذي ساقته يد الله لأورشليم كي يقــدم فيوضاته عن الروح والعقل والله والفضائل ودائــرة الوجود كله، معلنين أنني من اليــوم سأستمر في إلقاء عظاتي على كل من يريد.

شعــرت أنني وجدت نفسي، وكلمــا زاد عدد الوافدين لسماعي زدات رغبتــي في الحديث، وتجلت قدرتي على التخيــل والاستنتاج والتفكير في مسائل أكثر تعقيدًا في أمور الإيمان، وظل الأمر على هذا النحو عدة أشهر قبــل أن تجــيء رسالة غاضبة من ديمتريوس، فكيــف يحق لي أن أجلس لأعظ أمام أساقفة أورشليم دون إذن منه.

لم أشعر بإهانة في حياتي قدر ما شعرت حين قرأت رسالته، فقد تحدث عني كما لو أني عبد يمتلكه، ولا ينبغي لي التصرف في أمر من شئوني إلا بــإذن منه، ألقيت الرسالة غاضبًا ورافضًــا كل حرف فيها، لكن صديقيَّ

رفضـا أن يكون ثمة خـلاف بيني وبين بطريـرك الإسكندرية بسببهما، فأرسلا يعتذران عما حدث، موضحان أنهما لم يريدا غير الخير للجميع، وأنهمـا أوقفا دروسي للموعوظين منذ وصلتهمـا الرسالة. لكنه أرسل في طلبـي، ولم يكن أمـام الرجلين سـوى أن يظلا يحثانني علـى الذهاب، فـأي تأخير سيفهـم أنه من قبلهما، وحرصا على ألا تقـع الفتنة بين أسقفية الإسكندريـة والقدس، فقد جمعت أشيائـي وامتطيت ظهر بغل في صحبة راهبين من القدس، وأخذنا نقطع المسافات متجهين إلى الإسكندرية، لأجد ديمتريوسـس يستقبلنـي بترحاب لا حدود له، موضحًا أنـه لم يقصد إهانتي قـط، لكنه حسب الأعـراف والقوانين الكنسية فإنـه لا يجوز لرجل غير الكاهـن أن يعظ في حضور الأسقف، وأن غضبه كان من صديقيَّ لأنهما لم يراعيا أصول وأعراف الكنيسة التي تربيا وتعلما في أروقتها الداخلية.

-٥-

شعرت دميانة أن يدًا امتدت لتلتقطها من الحفرة التي ألقيت فيها، حين خرجت من مكانها لم تجد أحدًا، حتى الرهبان الذين كانوا يطاردونها رأتهم أشباحًا تفر في البعيد نحو الباص، كان المكان قفرًا والريح تصفر فيه من حولها، نظرت نحو السماء واستحضرت شجاعتها لتخاطب الرب، كانت توقن أنه في الأعالي يسمع ويري، ولا بد أنه الذي أوقف الرهبان عن مطاردتها، وربما هو الذي مد يده ليخرجها من حفرتها، شعرت أن دمعة تنزل على خدها وهي تسأله:

- لماذا؟

كان سؤالها واضحًا ومباشرًا، ولم تكن لدى السماء أجوبة بوضوحه في ذلك الوقت، فظلا كلاهما ينظران تجاه بعضهما في صمت، هي بدورها انشغلت بأضواء النجوم التي تلألأت فجأة، والسماء أخذت في تغيير مصابيحها، من بين الوهج الذي اختطف عيني دميانة ظهر لها راع يسير خلف أغنامه، كان المشهد بالنسبة لها مدهشًا، حين لمحته على البعد شعرت أن السماء تفاعلت مع شكواها، فاندفعت نحو الراعي وأغنامه كسهم انطلق من قوسه، كان القمر مضيئًا بما يكفي لأن يراها القادم من بعيد، والأغنام تسير تجاهها مسرعة كما لو أنها تتشمم رائحتها، بينما الراعي الطويل القامة يضع عصاه على كتفه ويغني كما لو أنه يهتف في الشياطين بالابتعاد عن أغنامه، هرولت دميانة نحوه هاتفة بالنجدة، غير أنها في منتصف المسافة توقفت عن سعيها، فماذا لو أن الرهبان قد عادوا، لكنها تحت وطأة البرد والخوف وأصوات الضواري رفعت وجهها للسماء، وأسلمت أمرها للرب، ثم أكملت طريقها مسرعة نحو القادم بأضوائه المبهرة.

حين سمع الراعي صوتها أوقف شياهه وأسرع لإغاثتها، سألها عما بها ومن أين أتت لكنها لم تجبه، فقد أذهلتها المفاجأة، كيف أتي أنطونيوس إلى هذا المكان في ذلك الوقت من الليل، ومن أين له بهذه الملابس وتلك الأغنام، كادت أن تصرخ باسمه لكن دوارًا أصابها وسقطت في مكانها. حين انتبهت وجدت نفسها في سيارة وسائق يحاول أن يحادثها، أسئلة تلاحق أسئلة، وكلمات لا تفهمها تعبر على أذنها، ما بين الحيرة والسخرية كان السائق يلتفت نحوها ويتحدث راجيًا أن تخبره بشيء، لكنها ظلت كامنة في كرسيها الخلفي لا تنطق بشيء، موشكة على الصراخ في وجهه، ودموع تنهمر من عينيها، فكل ما سيطر عليها أنها الآن تكمل الطريق الذي بدأه الرهبان، وربما عما قليل ستلتقي بهم، وظلت طلة الطريق تستيقظ بنصف وعي لتنتبه إلى بعض كلماته دون القدرة على الرد، ثم سرعان ما تتوه وتفقد وعيها من جديد.

– من أنت؟

هكذا رفعت دميانة وجهها، وضيَّقت عينيها سائلة بخوف واضح، لكن السيدة التي حملت في يدها كوب ماء من الصاج اقتربت من سريرها مبتسمة:

– أنا أسماء يا حبيبتي.

قالتها ودمعة تكاد أن تفر من عينيها شفقةً على الفتاة التي هبطت فجأة عليهم، لتصبح أمانة في عنقها هي وزوجها، تركتها في مكانها دون أن تتجاوب مع كلماتها، واستدارت بوجهها لتنظر نحو الفرن القديم والبط السارح في فناء البيت وصورة الخط العربي المعلقة على جانب من الجدار، بحثت بعينيها عن الراعي الذي أنقذها من الضواري في الصحراء، وتذكرت أنه كان أنطونيوس، فأخذت تردد اسمه كما لو أنها تطلق تعويذة في وجه الشيطان، حينها انتبهت السيدة التي في الثلاثين من عمرها إلى أن ضيفتها تتحدث.

– أخيرا تكلمت.

لكن دميانــة لم تنتبه لسؤالها، واستدارت برأسهــا من جديد لتستكشف المـكان، وتوقفـت بعينيها أمام الآيــة المرسومة بخط كــوفي يحيطها إطار معــدني معلــق على الثلــث الأخير من الجــدار، وبرق في ذهنهــا أنها في آخر مــكان يمكــن أن تتوقع وجودها فيــه، فصرخت فزعــة تتلفت على أنطونيوس، مــرددة اسمه كما لو أنها تتشبــث بالحياة من خلاله. انحنت أسماء من جديد لتهدهد عليها، وتطرد شياطينها بقراءة الفاتحة والمعوذتين على رأسها، وسرعان هدأت دميانة، وسكنت في فراشها، فأحضرت لها أسماء كوب الماء من جديد وهي تبتسم:

– حمد الله على السلامة.

كانت دميانة في حاجة إلى الماء بالفعل، قبضت على الكوب ورفعته إلى فمها، لكنها سرعان ما تراجعت سائلة:

– أنتم مسلمون؟

ند السؤال عنها فجأة كحجر أطلقته في وجه أسماء:

– الحمد لله.

– أين أنطونيوس؟

لاحقتها دميانة بالسؤال، وظهر على أسماء ملامح الشك في جنونها:

– من أنطونيوس؟!

كانت دميانة تتوقع أن تجيبها بأن أنطونيوس في الخارج، وتروي لها كيــف أتى بها إلى هنا، وكيف انتصر على الضواري في الصحراء، وقتل الرهبــان الأشرار، لكنها تشكك فيما تحلم بالوصــول إليه، فكل ما حولها غريب عليها، وهي لا تتذكر شيئًا مما حدث، وكلما أجهدت ذهنها محاولةً الوصول إلى أبعد من صــورة الرهبان وهم يلقونها في الحفرة فإنها تعجز وتشعر بالدوار، فكيف وصل بها الحال لأن تنام في بيت ريفية مسلمة؟

بدا على أسماء أنهــا فهمت ما يدور في ذهن دميانة، فمدت يدها نحوها من جديد بكوب الماء قائلة:

– لا أعرف أنطونيوس ولا غيره.

وكان عليها أن تخبرها للمرة العاشرة أن زوجها رضا وجدها منذ أسبوع أمام البيت، كان في طريقه للعمل، حين فتح الباب وجد فتاة بملابس المدينة مغمى عليها، حاول أن يكلمها لكنها لم ترد، في البدء تصور أنها مقتولة، نادى زوجته لتعرف إن كانت فيها الروح أم لا، حين أتته أسماء فعلت كما يفعلون في الأفلام، حاوت جس نبضها من يدها، ثم وضعت أذنها على صدرها، في ذلك الوقت استفاقت دميانة ونظرت إليها بعينين مجهدتين، لكنها لم تتحدث، حاولا استفسارها عن اسمها أو أي شيء يدل عليها لكنها بدت مصابة بالخرس، وسرعان ما فقدت الوعي من جديد، في ذلك الوقت ظهر أحد الجيران واستطلع ما جرى، تطوع بأن يوقظ الطبيب ويحضره من بيته، ثم عاون رضا وأسماء في إدخال الغريبة إلى بيتهما، فوضعاها على كنبة بوسط الدار.

حين حضر الطبيب كانت القرية كلها قد علمت بأمر الغريبة التي وجدت بين الحياة والموت أمام دار رضا وأسماء، وظل الكل منشغلاً بغرابة الأمر، متعاطفاً مع الفتاة التي دلت ملابسها وهيئتها على أنها ليست من الصعيد، وكتب الطبيب ورقة بعدد من الأدوية والإسعافات المطلوبة، ولم يتركها إلا بعدما سرى الجليكوز في أوردتها. بعدما خرج الطبيب ذهبت السكرة وأتت الفكرة، فقد تشاغل من حضر من الجيران بالصليب الذي لمحوه على رسغها، وبدأت التساؤلات حول ما إذا كان يجوز لمسلم أن يؤوي مسيحية في بيته؟ وقرر البعض أن يذهب ليبلغ النصارى الذين في الجانب الآخر من القرية أن يأتوا لرؤيتها، فربما أتت من أجلهم وضلت الطريق، ولم يكن عدد النصارى في القرية كبيرًا، فهم أربعة أو خمس بيوت متجاورة، وغالبًا جميعهم أقارب. حين ذهب إليهم أهل القرية نهض معهم رجلان وامرأة للتعرف على الغريبة، لكن المرأة نظرت إلى الصليب الموشوم على رسغ دميانة وقالت إنها ليست على ملَّتهم، ومجيئها معهم سيحدث مشكلة لا يرغبون في وقوعها، ثم نهضوا عائدين إلى بيوتهم، وأصبح على رضا وزوجته أن يتقبَّلا بقاءها معهما إلى أن تشفى أو يظهر أي من أقاربها ليأخذها.

تعاون أهل القرية في رعايتها وتوفير علاجها، لكن أحدًا منهم لم يستطع التعرف على من تكون ولا من أين أتت، وظل الأمر لغزًا حتى أتى لرؤيتها حسنين الجرف صاحب السيارة "دوبل كابينة"، التي يذهب بها كل أسبوع مرتين إلى السويس لتخليص أوراق جمركية للشركة التي يعمل فيها، فما إن سمع في اليوم الثالث أن رضا وزوجته أسماء وجدا أول أمس فتاة من المدينة أمام بيتهما فاقدة الوعي، حتى بدأ يسأل عن ملامحها وملابسها، وفي النهاية قرر أن يقطع الشك باليقين ويذهب لرؤيتها بنفسه.

كانت دميانة في حالة دوار دائم، ما إن تنهض من نومها حتى تبحث عن وسادة لتلقي برأسها عليها، ولا تملك أسماء كل عدة ساعات إلا أن تناولها بعضًا من الطعام رغمًا عنها، دون أن تعرف من هي ولا من أين، فدائمًا ما تهذي مع نفسها وكأنها ترى خيالات وشخوصًا تحدثهم، وإذا سألتها عن شيء فإنها تتوه ولا تستطيع الإجابة. حاولت أسماء أن تستمع لما تهذي به ربما تعثر على اسم تعرفه لكنها جميعًا كانت أسماء كتريزا ويوساب والمنحني وملاك وغيرها من الأسماء الفردية التي لا تدل على شيء، مما جعلها تفقد الأمل في معرفة من هي ولم أتت، ولم تعرف كيف يمكنها أن تتخلص من غريبة حطت أمام بيتها في صباح باكر، فاستسلمت في النهاية لفعل الخير مع من تعرف ومن لا تعرف، حتى جاءها حسنين مستأذنًا في رؤية الغريبة التي لديهما.

حين رآها علم أنها الفتاة التي قطعت عليه الطريق وهو مسرع في طريق الرهبان، كان الوقت قد تأخر عليه في السويس، ولم يكن سواه على الطريق، فأشعل الأضواء العالية لسيارته، وأعطى أذنيه لكوكب الشرق وهي تغني (في ليلة من ألف ليلة وليلة)، حين لمحها وسط الضباب الخفيف مسرعة لتقطع عليه طريقه، فضغط على كابح السرعة بقدر ما يستطيع، حتى أن العجل أصدر صوت احتكاك بالأسفلت لا حدود له، وشك أنه صدمها حين اختفت من أمامه، فنزل وأعصابه كلها ترتجف ليجدها مكومة أمام العجلات دون قطرة دم واحدة، حتى دون أثر للاصطدام بها، كان بخار الماء يتصاعد من أنفاسها اللاهثة بشكل متوالٍ، بينما تقول بوهن شديد:

– خذني معك.

حاول أن يفهم منها أكثر من ذلك دون جدوى، نظر حوله بحثًا عمن يطاردها فلم يجد غير صوت الذئاب والكلاب النابحة على بعد، ساعدها على الركوب في الكابينة الخلفية، وعاد يقطع الصحراء الصامتة من حوله مرتجفًا من هول المفاجأة، أغلق صوت أم كلثوم وأخذ يسأل دميانة عن طريقها لكنها لم تجبه بشيء، فقد استسلمت للنوم، ولم تستيقظ إلا بعدما وقف حسنين في موقف السيارات الذاهبة إلى أسيوط، أيقظها موضحًا أنه لا بد أن يذهب إلى بيته، وأنها يمكنها أن تكمل طريقها إلى أسيوط في سيارة أجرة.

كان النهار قد بدأ يلقي بمصابيحه على الأرض، فخفت أقدام الذاهبين إلى أعمالهم خارج القرية، لكن شيئًا ما أشعرها بالخوف، بينما أخذت الدنيا تتأرجح من حولها، فتسحبت بخطواتها، لكنها كلما سارت كانت البيوت تبتعد وخوفها يزداد، فظلت تمشي حتى لم تعد أقدامها قادرة على السير، وشعرت أن العالم كله يغوص من حولها، فأسندت جسدها على حائط ملتمسة منه المساعدة، لكنه سرعان ما مال بها وفقدت وعيها، ولم تستيقظ إلا على صور أشباح يحادثونها، ثم يدخلونها لدفء بيتهم، وسرعان ما علقوا لها محاليل وأدوية.

أكد حسنين أنها هي نفس الفتاة التي ألقت بنفسها في طريق سيارته، لكنه لا يعرف من أين أتت، ولا إلى أين كانت تتجه.

-٦-

كان ظهــور اللبــؤة وأشبالهــا معجــزة بالنسبة للرهبــان، فقد خرجوا متصايحين بظهور أســد في كنيسة الملاح، وسرعان ما عدَّل من يعرفون تاريــخ الدير كلماتهــم بظهور اللبــؤة وأشبالها، وربــط بعضهم بين هذه المعجــزة وبين أنطونيوســ، فمنهم من رأى أنها أتــت لتحميه من يوساب ورهبانــه، ومنهم من قال إنها خرجت لتنتقم منه لقتله أستاذه، وعزز هذا الرأي اختفاؤه.

أخذ صوت يوساب ورهبانه يتعالى وهم يقتربون من الباب الفاصل بين المقبرة والمذبح، بينمــا أخذ قلب أنطونيوس يتقافز في صدره من الخوف، لكــن حرصه على الحيــاة جعله يتخطَّى قبري المــلاح ولبؤته متراجعًا إلى الداخــل في الظلام، حينها شعر أن جدران المغارة أخذت تهتز كما لو أنها تنتفض لأجله، ورأى اللبوة وأشبالها ينسلون خارجين من مقبرتهم واحدًا إثــر الآخر، متجهين إلى الباب الــذي واربه أحدهم محدقًا في الظلام بحثا عن أنطونيوس، بينما يوساب يصرخ فيه أن يدخل خلفه، فإذ باللبؤة تطل عليهــم برأسها كقطة تقــف في المغارة، وبرشاقة بالغــة انسابت من الباب القصير لتقف بينهــم، وقبل أن تكشف عن أنيابهــا كان الرهبان المتلئون بالفــزع قد تدحرجــوا إلى الخلف، وسرعــان ما تقافزوا مــن المذبح إلى صحــن الكنيسة، غير منتبهين إلى يوساب الــذي تعثر في الأرض وسقط تحت أقدامهم، ولا لصراخه بأن يتوقفوا أو يبتعدوا عنه، لأنهم لم يسمعوه من الأصل، ولم ينتبهوا إلا لأن ينجوا بحياتهم، بعدما خرجوا من الكنيسة وقفــوا يطمئنون على أنفسهم، متسائلين عمن غاب ومن حضر، فاكتشفوا أن يوساب هو الوحيد الغائب، وأنه الذي عبروا بأقدامهم على جسده.

كانـت هذه واحدة من المرات القليلـة التي ظهر فيها جورج المنحني بعد توليه رئاسة الدير، فقد هـرع بعض الرهبان لقلايته طالبين منه النجدة، وما إن سمع حديثهم حتى نهض من مجلسه متجهًا معهم إلى كنيسة الملاح، كان الكل يقف على البـاب رافضًا الدخول، وحده المنحني هو الذي رسم بالصليـب الذي في يده ثلاثًا ثم دفع بالبـاب إلى الداخل، وبقليل من صبر العجائـز ووهنهم وجد نفسه بين صفي الكراسـي، بينما يوساب نائم على الأرضـ، غير قادر على الحركـة أو الكلام، حين رأى المنحني رفع يده متوسـلاً أن يخرجه مـن المكان، فأشـار للرهبان أن ينقلـوه إلى قلايته، ويسقوه شيئًا يرد إليه روحه.

بـدا على المنحنـي في ذلك الوقت أنـه يعرف ما لا يعرفـه الكثيرون، فالتزم الصمت واكتفى بالسير على خطى الرهبان إلى قلاية يوساب، وما إن وصـل إلى هناك حتى طلب مـن الجميع تركه وحـده برفقة صديقه، وبعد فترة من الوقت خرج بوجه تملأه سحابة من الظلام، آمرًا الأب مينا المسئول عن أمن الدير بعد يوساب ألا يصعد أحد إلى الهضبة إلا بمعرفته.

أغلـق المنحني قلايته على نفسه ولم يخـرج إلا في صباح اليوم التالي، حيـث ألقى عظة في كنيسة ديمتريوس، مطالبًـا الجميع بالانتباه لأعمالهم كي يرشدهم الرب إلى الصواب، ويمنع عنهم تمثل الشرير فيما يعتقدون، مؤكـدًا أن الشيطان يوهم أصحابه أنهـم قريبون من الرب، وهو يأخذهم إلى الجحيـم، في النهاية أمر الجميع بعـدم الحديث في شيء سوى الصلاة من أجل باخوميوس الحبيب.

بعدها اصطحب ثلاثة من الرهبان القدامى ليتفقد كنيسة الملاح، كان همه إحصاء الأضرار التي وقعت بالمكان، نظر إلى صفوف الكراسي والممشى المـدرج الواصل حتى الهيكل، حيث يلقي عظـة الأحد، كان ينظر بعينين جاحظتـين إلى آثار الأقـدام المتسخة التي هرولت في المـكان، ويشير إلى مساند المقاعد التي تهشمت من الاصطدام بها، استدار لينظر في المذبح، لم يجد ما يستحق عناء البحث، وحده الباب الفاصل بين المذبح والمقبرة، كان

مفتوحًا، ووضحت معالم تهشيمه على الخشب القديم، كانت حية ونابضة كما لو أنهـا تصرخ فيه أن يذهب إليها، وضع يديه على الخشبب الأبيض حديـث الكسر، أخذ نسيلة منـه ووضعها أمام عينه كما لو أنه يحسب عمر بقائهـا على قيد الحياة، ثم همهم بكلمة لم يسمعها سواه، وألقى بالنسيلة إلى الأرض، دافعًا برأسه إلى الداخل حيث مقبرة الملاح ولبؤته، كان الظلام يغلف كل شيء، ووصلت إلى أنفه رائحة رطوبة هواء قديم، وللحظة فكر في أن يرفع قدمه ويعبر عتبة الباب لكنه شعر أن قوته ستخذله، وأن القلب لم يعد لديه طاقة لاحتمـال مزيد من المفاجآت، فأغلق الباب وعاد بظهره إلى الخلـف معطيًا أوامـره بغلق الكنيسة لحين إصلاح مـا تهشم منها، ثم توجـه من فوره إلى يوساب في قلايته، ليخـرج من عنده طالبًا من الأب مينـا أن يشدد الحراسة على أسوار الدير، وبـدء الاستعداد لمراسم جنازة الأب باخوميوس.

لم يعـرف مينا بم يرد على المنحني، فقد وجـدوا باخوميوس معلقًا من عنقـه في حبل بوسط قلايته، وهو ما يستدعـي إبلاغ الشرطة عن جريمة انتحـار إن لم تكن قتلاً، حين قال ذلك للمنحني تغير وجه الأخير، ونظر نحـو السماء كما لو أنـه يلتمس المعونة من الـرب في المصائب التي توالت عليه، وفي النهاية هز رأسه:

- وتدخـل الشرطة لتعيث في المكان، ويفقـد الدير قداسة طالما انتظرها في عهد إيمانويل الفقير؟

شعـر مينا باتسـاع المسافة بين مـا يقوله وما يراه المنحنـي، فلو علمت الشرطـة بالأمـر ستجـيء للتحقيق في جريمة قـد تفقد الديـر هيبته، وبدا للحظات أنه لم يعد يعرف الخطأ من الصواب، فطرق المنحني على كتفه:

- يا بني.. هذه محنة... وعلينا أن نحسن التصرف.

هز مينا رأسه مبديًا تفهمه الأمر، فابتسم المنحني بوهن قائلاً:

- باخوميوس كان مسنًّا وذا قلب ضعيف. دعنا نخبرهم بذلك.

مـن جديد هز مينا رأسه مؤمِّنًـا على ما قاله رئيسه، هذا الذي سرعان ما غير نغمة صوته متسائلاً:

– كيف لم تقبض على أنطونيوس؟!

حملت صيغة السؤال لومًا لمسئول الأمن، فقد شغل نفسه بالمقتول وترك القاتل يتحرك في جنبات الدير بحثًا عن جريمة أخرى، ازدرد مينا ريقه طالبًا المعذرة، فتركه المنحني واتجه إلى قلايته، كان يمشي بانحناءة ظهر تجعله يبدو كرسالة تنطوي على نفسها، كانت خطواته وئيدة على التراب والحصى، بينما الشمس تضرب أشعتها في الصخر لتنعكس على وجهه المترهل، فيلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يطعن بعصاه في وجه الأرض، بينما صليبه يتدلى من عنقه متأرجحًا على صدره مثلما كان باخوميوس يتأرجح مشنوقًا في قلايته.

لم يستطع أنطونيوس أن يتخيل خروج اللبؤة وأشبالها من قبرهم، فشعر أن الدنيا تدور به، وسرعان ما سقط مغشيًّا عليه، فلم ينتبه إلا على دخول المنحني ورهبانه صحن الكنيسة في اليوم الثاني، حينها شعر أن تيارًا باردًا من الهواء يتدفق تجاهه، وجعلته أصوات الداخلين ينتفض من نومه باحثًا عن مكان يختفي فيه، كانت الأصوات لا تزال في صحن الكنيسة، فكتم أنفاسه مبتهلاً إلى الرب ألا يفكروا في الدخول لقبر الملاح، لكنه كلما شعر بخطواتهم تقترب كان يتراجع بظهره، متلمسًا بيديه جدران الكهف في الظلام، تلك الجدران التي أخذت تنحني على جسده الطويل حتى جلس، ظن أن هذه نهاية حدود المغارة، لكن تدفق الهواء البارد جعله يعتقد أن ثمة بقية من فراغ يمكنها أن تطوي جسده فيها بعيدًا عن العيون، فنزل إلى الأرض وتراجع بمؤخرته زاحفًا إلى الخلف، أدهشه أن المسافة التي زحفها كانت أطول مما توقع، فقد دفع بنفسه عدة أمتار في ممر طويل انتهى بحجر، في البدء اعتقد أن هذه هي النهاية، فكمن فيها منتظرًا أن يخرج مَن في الكنيسة، لكن تيار الهواء ظل يتسرب من خلفه، وأدرك أن ثمة خلاء خلف الحجر الذي وراءه، بحث بقدمه عن المكان الذي يتسرب منه الهواء فشعر أن الحجر غير مستقر، فتمتم باسم المسيح والملاح وضرب الحجر بقدمه فسقط، وتدفق مزيد من الهواء المشمول ببعض النور إلى الممر.

في البــدء ارتعد من فكــرة السقوط في هاوية ما، فأخــذ يتحسس بقدمه أبعاد الفــراغ، وأخذ يدفع بنفسه للخلف قليلاً قليــلاً، حتى شعر أن ظهره يــكاد يلامس الصخــر وهو يعبر خارج الممر، حــين اكتمل خروجه وجد نفســه في مغارة جديدة بابهــا على البحر، وأن ما زحف فيه ليس أكثر من ممــر يربط بينها وبين مغارة الملاح، فاستدار بوجهه إلى الباب المضيء، بــدا لــه أن العالم يولد أمامه مــن جديد، فلم تستطع عينــاه احتمال الضوء الصــارخ، وتهادت إلى أذنه أمواج ناعمة لبحــر يكاد أن يكون زاهدًا في كل شــيء، لم يكــد يصدق أنــه أصبح في الجانب الآخر مــن العالم، وأن الجبــل الذي ظل الجميــع لقرون طويلة يعتقــد أنه السد المانــع بينهم وبين البحر يخبئ في باطنه أقرب وأقصر الطرق إلى البحر.

أيقــن أنطونيوس في تلك اللحظة أن المسيــح راضٍ عنه، أيقن أيضًا أن هذا المكان وصل إليه أناس غيره، فلا شيء يحول بيْنه وبين مغارة الملاح ســوى ممر وحجر غير مثبت في مكانه، شكــر الرب على عطيته وجلس يلتقط أنفاسه من الخــوف والتعب، جال بعينيه في المكان فوجده أشبه بقبو كبير يطل على البحر، دقق بعينيه في الجانب المظلم منه فرأى عدة صناديق من الخشــب، عالج أحدها بيديها فوجده ممتلئــا بمخطوطات كتب قديمة، بعضها كان باليونانية وبعضها باللاتينية والديموطيقية، مخطوطات تعود إلى أزمنــة بعيدة، ربما إلى بداية الدير أو المسيحية نفسها، صناديق تحتاج إلى أزمنة لترجمتها ومعرفة ما فيها...

حين طــرق أنطونيوس بابي كدت أموت في جلــدي من الرعب، فقد مضــت ثلاثــة أيام لا أحــد يسمع فيها بشــيء عنه، فتشــ الرهبان في كل مكان، ونظر جــورج المنحني بنفسه في ظلام قبر الملاح ولبؤته، وخرج ومــن معــه من الكنيســة مؤكديــن أن المكان كمــا هو من مئــات السنين، كان غيــاب أنطونيوس قــد أصبح الشغل الشاغل لكل مــن في الدير، فهو العلامة الوحيدة على المعجــزة التي حدثت أمامهم، حيث قامت اللبؤة من موتهــا وخرجت تطارد الجميــع، كان الكل يتحدث في ذلــك همسًا بعدما حــرم المنحني الخوض فيه، وهــدد بعض المقربين منــه بالشلح إن عادوا ليهرطقوا بهذه الأحاديث من جديد، كان المنحني قد تحول إلى عجوز عنيد

لا يـكل من الحركة، مؤكدًا على مينا ضرورة انتباه الرهبان في حراستهم للمـكان، وألا يخرج أحد أو يدخل إلا بإذن منه، حتى لو كان من الرعاة أو الفلاحـين بأرض الدير، فأنطونيوسـس مجرم ولا بد من القبض عليه، حتى وإن تجنبنا إدخال الشرطة في أمرنا.

كانت الأيام الثلاث قـد شهدت إعداد جثمان الأب باخوميوس للدفن، إذ أرسل المنحني إلى الأبرشية في أسيوط، مثلما أرسل إلى رؤساء الأديرة التـي في الشرق والجنوب، مخبرًا الجميع أن باخوميوس الحبيب قد صعد إلى الأمجاد السماوية بعد عمر طويل من الصبر على الآلالم لأجل المسيح، وأن بركاتـه تتنزل على الدير وأهله، وأن من يمر على مقربة من هضبة الملاح سيشعر بنسائم روحه الطاهرة في المكان.

كان ذلـك بمثابة انتصـار للحكمة من قبل جورج الـذي ترك يوساب حبيسًا في قلايته، وأخذ يراجع كل تفصيلة من تفاصيل تهيئة المتنيح للدفن، مؤكـدًا ضرورة تأمـين الدير وعدم الحديث في أمـر القس الهارب، كي لا يصـل إلى آذان أحـد أن الأب باخوميوس مـات متأرجحًا من عنقه في سقف غرفته، فقـام مينا بفتح قلاية باخوميوسـس لتهويتها، وكي يقرأ فيها الرهبـان على جسده المسجـى، وتهيئة الجثمان قبل نقلـه إلى كنيسة الأب ديميتريوس، تلـك التي يمكنها أن تتسع لاستقبـال الضيوف القادمين من الأبرشية والأديرة المحيطـة، فضلاً عن أنها ليس فيها ما يستدعي الترميم وإثارة أسئلة عن أمور لا ينبغي الحديث فيها.

ظـل الديـر بمثابـة ترنيمة صـلاة طويلة على مـدار الأيـام الثلاث، فلأمـرٍ ما كان كل من في الدير قـد أصبح حريصًا على نظافته الشخصية، ومظهرِه العام، وسلوكه أمام الجميع، كان الكل يشعر أن الدير قد عادت إليه روحـه المبهجة في زمـن الأب إيمانويل، حيث الضيـوف القادمون والذاهبـون، وحيـث الإحساس بالقداسـة التي تشمـل كل شيء، روح مـن البهجة كانت تعم المكان، وكان الجميـع موقنًا أن هذه البهجة الجديدة تخصـ الأب باخوميوس، رفيق إيمانويل الطيب في رحلة الحياة، وأول اللاحقين به من أهل المكان.

لم يفكر أحد طيلة المشهد الجنائزي العظيم في شأن أنطونيوس، وبدا أن أحـدًا لا يريـد أن يقلق نفسه بالتفكير فيه، ربما لأن أحـدًا لم يرد أن يذكر نفسه أن باخوميوس الحباك قد مات قتيلاً، فقد منحه الجميع قداسة الشهادة دون الدخول في تفاصيل، وبدا أن اللقب الذي توقف حضوره منذ أزمنة الاضطهاد القديمة كان مفصلاً من أجل باخوميوس وحده، وقف جورج المنحني بين ممثلي الكرازة والأبرشية ورؤساء الأديرة يلقي عظة القداس أمامهم، مانحًا خلالها ألد خصومه لقب الشهادة، مؤكِّدًا أن الدير احتضن علـى مدار تاريخه كثـيرًا من الآباء المقدسين، وأن عطـر هذه القداسة لم ينمـح يومًا من دير جبرائيل الملاح، وأن لبؤتـه وأشبالها ما زالوا قائمين على حماية الدير وأهله، وحراسة نفوس المقيمين فيه من شرور الشرير، وأن باخوميوسـس الحبيب كان واحدًا من نفحـات القداسة على أرض هذا المكان.

كانـت عظة تأثر بها الجميع، وبكوا خلالها مـن أجل باخوميوس، ثم حملـوا جثمانه وساروا بتابوته حتى نزلوا به إلى السفح، حيث المقابر التي اعتاد الدير أن يُنزل إليها جثامين موتاه، فوضعوه هناك وعادوا يطلقون أجراس الكنيسة حزنًا عليه.

وجـدت أنطونيوسـس أمامـي بطولـه الفـارع يطلب منـي الدخول، واستغرق الأمر لحظـات كي أتبيَّن أنه ليس شبحًا، وأنه لم يمت، أخبرته بما جرى في تلك الأيام الثلاث، وحكى لي كيف أنقذته اللبؤة وأشبالها من المـوت، وكيف شفع الملاح لندائه وخوفه، حكى لي عما اكتشفه في المغارة التي على البحر، والكتب التي جلس طيلة تلك الأيام يطالع ما فيها، هازئًا من مخزن الكتب الذي جاهدت زمنًا كي أجعله مكتبة لا يعترف بها أحد، كان يضحـك بفزع قائلاً أن إسرار الأجداد جميعًا في تلك المغارة الخلفية، تلك التي تجمع أعمال القديسين إلى جانب تعاليم المهرطقين.

-٧-

اعتــاد الطبيب المــرور يوميًّا لرؤية مريضته، واعتــاد العمدة وبعض مشايخ القرية المرور أيضًا ببيت رضا وأسماء، بعضهم كان يترك ما تيسر مــن مال لمساعدة الرجــل، وبعضهم كان يذهب ليتفقــد الأحوال ويعرف الأخبــار، لكن أغلبهم كان يتساءل عن جواز إنفــاق المسلم على نصرانية مــن ماله، وحين بلغ الســؤال أذن العمدة أمر رضا علــى الفور أن يغلق بابه ولا يفتحه إلا للضرورة:

- الناس لا يأتي منها إلا التعب.

هكذا همس في أذنه مفسرًا الأمر. فأغلق رضا بابه وأسلم أمره لله.

كان وراء هــذه التســاؤلات بعضــ المشايــخ الذين عــادوا من الخليج تاركين اللحى وحافين الشارب، وقف العمدة يذكرهم بتقوى الله باحثًا في ذاكرتــه عن الآيات التي تعضد موقفه، ولما لم تسعفه ذاكرته تلجلج وتبلبل عقله وشعر أن موقفه ضعيف، بينما تكاثرت الذقون والجلابيب القصيرة عليه كنمل تكاثر على قطعة خبز، اتهموه بأنه جاهل لا يفقه في شرع الله، وبدا الأمر بالنسبة له صفعة لا يمكنه السكوت عليها، جحظت عيناه واحمر وجهــه وأخذ يسمعهم ما يقدر عليه مــن شتائم، فانفضوا من حوله تاركينه يكلــم الهــواء، دون أن يعرف ما الــذي يمكنه فعله، فكل مــا يحتكم عليه هــو سبعة مــن الخفر الموزعين في جنبات القرية ليــلاً تحت مسمى حراسة الأمــن، وهم غير قادرين علــى حراسة أنفسهم أو حتــى حماية بنادقهم، مــلأ صدره بالهــواء الفاسد وزفره أمامه بقوة كمن يطفــئ حريقًا يكاد أن يلتهــم كل شيء، وأسرع إلى التليفون الحكومي النائم على المكتب ضاغطًا على عدة أزرار، وبعد عدة محاولات جاءته الإجابة من عامل التحويلة،

وبعد دقائق رد عليــه ضابط برتبة ملازم، شرح له الأمر مرة واثنتين، ووعده الضابط أنه سيبلغ المأمور.

مضــى يومان قبـل أن يضطر العمدة لمعاودة الاتصــال طالبًا النجدة، فقـد قرر السلفيون تزويــج الفتاة، وذلك منعًا لاختــلاط الزيت بالنار في بيــت رضا، وحين حاول الأخــير أن يسأل عن المقصــود بالزيت والنار لكزه أحدهم بأنه لا يجوز الرد على الشيخ هاشم، فالتزم الصمت متعجبًا، وحين جــاء المساء وجد هاشم برفقة ثلاثة من رفاقه جالسًا على الكنبة التي في وسط الدار، لم يكد يرحب به حتى وجده يقول:

– يا أخ رضا، الأخ هشام يطلب منك يد الفتاة التي عندك.

فنظر إليه رضا باستنكار ودهشة:

– إنها مريضة، وفاقدة للذاكرة والوعي.

فرد الشيخ هشام:

ـ الحمد لله الذي خلقنا على الفطرة، وبفضله تتم الصالحات.

لم يعرف رضا بمَ يجيب، وفي النهاية هداه تفكيره إلى:

– العمدة ولي أمرنا، ولا بد من أخذ رأيه.

وظهر الغضب على وجه الشيخ هاشم:

– تحدثنا معه من يومين، وهو فاسق لا تجوز ولايته.

شعر رضا أن الدنيا تضيق من كل جانب، وأن كارثة ستقع على أرض بيتــه، فهــز رأسه طالبًا أن يمهلــوه للغد كي يفاتحها في الأمــر، وبدا أنهم كانــوا يرغبون في الوصول إلى هذه النقطة، فاستراحت معالم وجوههم، ومضوا طالبين من الله أن يوفق الجميع للخير.

لم يكــد نهــار اليوم التــالي ينتصف حتــى انتفض من بيتــه متجهًا لبيت العمــدة، فقد أشارت عليــه زوجته أسماء أن يبلغه بمــا حدث، حين سمع العمــدة ما جرى فكر كثيرًا، ثــم طلب من رضا أن يحضر دميانة إلى بيته هذه الليلة، وحين يسألونــه عنها يخبرهم أنها هربت، ولهم أن يفتشوا كما

يشــاءون، ثم اتصل بالمأمور راويًا لــه المأساة التي تقبل عليها قريته، لكن الأخــير اعتبره يبالغ في الأمر، ووعده بأن يرسل له غدًا سيارة تحضرها للمركز.

لا أحــد يعرف مــن أين علم السلفيون بما اتفق عليــه رضا مع العمدة، فقد جاءوا بعد صلاة العشاء طارقين بابه، لكنه لم يفتح لهم، وأخبرهم أن زوجتــه مريضة ولا يمكنها استقبال ضيــوف الآن، فأخذوا يطرقون من جديــد بقوة سواعد تجاهد في سبيل اللــه، وزاد بعضهم في الأمر أن اتهمه بأنه يأوي أجنبية في بيته بلا وجه حق، كانت أسماء تسمع وتكتم أنفاسها، بينمــا دميانة تضــع يدها على رأسهــا مرتجفة في ركن بعيــد من الغرفة، موقنة أن الرهبان قد عادوا من جديد، وراحت أصوات الذئاب والضباع تتصاعــد في أذنيها، بينمــا أنطونيوس يمشي خلــف أغنامه مترنمًا بصوته القــوي في الصحراء الفسيحة، فأخــذت ترتجف متمتمة باسمه، كما لو أنه التميمــة التي تطرد بها الشياطين مــن داخلها، ولم يكن أمام أسماء ورضا ســوى حملها بعيدًا والأصوات المتعاليــة، فدفعا بها على السلم تجاه السطح لتختبئ في الغرفة العلوية.

في ذلك الوقــت كان أحد المجاهدين قد حمل قالبًــا من الطوب وضربه في شباك النافذة المطلة على الشارع، فأحدث دويًّا يشبه الانفجار العظيم، وظهــرت في عقبه ألسنة اللهــب المحمول على أعــواد الخشب، صرخت دميانــة، وأخذت انتفاضات جسدها تتصاعد كما لو أنها سمكة خرجت من المــاء، شعرت أسماء أن الفتاة ستموت من الخوف في بيتها، وأنها عاجزة عن حمايتها، فصعدت للسطح وأخذت تصرخ مستنجدة بالناس.

مضــى أكثر من ساعــة قبل أن يصــل العمدة بخفــره إلى بيت رضا، فقد خــرج الناس ليحموا البيت من أفعال المعتديــن، بينما تنادى السلفيون وأتباعهــم لحســم الموقعة، حاملــين عصيًّا وأسياخ حديــد في أيديهم وعلى أكتافهــم، مصرين على حــرق البيت وتطهير القرية مــن الرجس، لكن الناس حالــوا بينهم وذلك، ولم يفتح رضا بابــه إلا للعمدة، فقد استنجد به الناســ، لكنه رفض أن يترك بيته قبــل أن يبلغ المأمور بما يجري، طالبًا قــوة من المركز، ثم خرج بخفره مطلقًا عــدة أعيرة في الهواء، حينها فتح

الناس لــه طريقًا إلى باب البيت، وأخذ ينادي هو وخفره على رضا الذي أطل برأسه من فوق السطوح لمعرفة القادم.

حــين انفتحت ثغــرة في الباب دخل منها العمدة وشيــخ البلد وثلاثة من الخفــر وبعض من كبار القرية، شعر رضا أن البيت قد امتلأ بالضيوف، وجاهد بمساعدة آخرين لإعادة غلــق الباب، في وسط الدار وقفوا جميعًا يستطلعــون الأمر، كانــت دماينة ما زالت ترتجــف في غرفة الضيوف، بينمــا أسماء تلطم خديهــا، ورضا تائهًا لا يعرف من أيــن جاءته كل هذه المصائــب، انتحى بــه العمدة وشيخ البلــد جانبًا، ومنحه أحــد الموجودين سيجــارة ليشعلها، ووضــع الخفر أكتافهم في الباب مــن الداخل، طالبين مــن زملائهم في الخــارج ألا يسمحوا لأحد بالدخــول، وعبث العمدة في هاتفه الصغير مرات عدة للاتصال بالمأمور، لكن الأخير لم يرد، فوضع الهاتف أمامه ونظر إلى رضا بدهشة واضحة:

– أين أهلها من النصارى؟

بدا الســؤال كأنه اكتشاف لحقيقــة أنها مسيحيــة، فالنصارى الذين في القرية على ملة مختلفة عن ملتها.

– لا إله إلا الله يا عمدة.

قالها شيخ البلد وكأنه يطلــب إغلاق ملف لا جدوى منه، فرفع العمدة هاتفه، وكأنه نسي الأمر كله، وأخذ يتصل بالمأمور من جديد، لكن الأخير كان هاتفــه مغلقًا أو خارج الخدمة، فجلس وكأنه سقط في جبٍّ عميق، إلا أن الأصوات التي في الخارج لم تترك لأحد فرصة التمتع بنعمة الصمت، فقــد صدحت مآذن المساجد بأن الفاسق يــأوي الرذيلة في بيته، ولا بد من تطهير القرية منهما، كي لا ينزل الله غضبه على الجميع، فخرج كثيرون من بيوتهم لينصــروا الله، بينما أقسم آخرون لهم بــأن رضا وأسماء من الصالحــين، وأن الفتــاة كانت بين الحيــاة والموت، لكن كيــف تقنع أناسًا بالعودة عن طريقهم وقد رأوا الجنة على بعد أمتار منهم؟!

-٨-

نزل الأب ديميتريوس بعد يومين من خلوته في أعلى الجبل، وأنصت بإجهاد واضح إلى رسالة أثناسيوس، مؤكدًا أنه سيبتهل إلى الرب كي يعينه على الحضور، فشكره أثناسيوس على نشره للإيمان القويم، واستأذنه أن يصحبه في رحلته لأديرة الجنوب صديقه رفائيل، حيث عليه أن يدعو جميع الرؤساء لحضور ذلك المجمع، وافقه ديميتريوس على طلبه، وأشار لأبانوب بتجهيزهما بالزاد اللازم للطريق.

حين نزلا من مخر السيل الرابط بين الهضبة والأرض المنبسطة تحتها قررا أن يقطعا الصحراء الواقعة بين القلزم والنهر في اتجاه ليكوبوليس، حيث ارتاحت العذراء بطفلها في مغارة الجبل الغربي، وحيث تحولت المغارة إلى كنيسة في نهاية القرن الأول من ميلاد المسيح، وما لبث يوحنا الليكوبوليسي في نهاية القرن الثاني أن أنشأ على الجبل ديرًا للعذراء، هو الآن واحد من الأديرة التابعة لميليتيوس المناوئ للبابا بطرس، وما زال الميليتيوسيين يسيطرون عليه، داعمين بحضورهم القوي ما يذهب إليه أريوس في تعاليمه.

كان أثناسيوس يشرح لرفيقه طبيعة الأرض التي يمشيان نحوها، فتلك اللحظة كانت لحظة خلاف وشقاق كبرى، فما إن انتهت الكنيسة من هرطقات الغنوصيين وتأثرهم بفلاسفة اليونان حتى دخلت في آراء أوريجانوس، تلك التي بنى عليها بولس السمساطي آراءه في المسيح، التي استل منها أريوس بعضها وبنى عليه معارضته لبطرس، فصرنا أمام هرطقات تتوالد من بعضها بعضًا، ولا سبيل لوقفها إلا بعودة المسيح نفسه كي يشرح للناس مراده وفكرته.

هكذا تحدث أثناسيوس بحزن من أعماق صدره، كما لو أنه أزاح غطاء بئر الأسى وجلس أمامه، لكن رفائيل الذي لم يسمع بالسمساطي من قبل ألح في السؤال عنه، فتنهد أثناسيوس قائلاً أنه كاهن من مدينة سمساط بين النهرين، كان أبواه فقيرين للغاية، لكنه أصبح غنيًّا للغاية، فقد سيطر بمعسول الكلام على عقل الزباء، فجعلته أسقفًا على أنطاكيا، كان يمشي وأمامه مائة من الخدام وخلفه مائة من الخدام، وعن يمينه امرأة جميلة وعن شماله امرأة جميلة، والزباء لا تثق بشخص سواه، مما جعل عشرات القساوسة والرهبان يفتنون به، فيصيبهم الضلال والعماء.

أنصت رفائيل لصديقه باهتمام بالغ، منتظرًا منه أن يكمل حديثه، لكن الشمس كانت قد اشتدت على رأسه، فأخذ ينظر في الأفق بحثًا عن مكان يقيلان فيه، على البعد ظهرت ربوة بجنب شجرة عتيقة، لكن ما إن اقتربا حتى سمعا راعيًا يغني لأغنامه:

– بحسب إيمان مختاري الله... عارفي الله...

أبناء قديسين. ذوي التعاليم الشرعية الثابتة.. حاصلين على روح الله القدس...

أنا نفسي تعلمت هذا.. من حكمة المشاركين.. السابقين.. عارفي الله..

حسب كل أقوال الحكماء.. أتيت أنا مقتفيًا أثر كل هؤلاء..

وأنا ذو السمعة الحميدة.. متمش بنفس العقيدة..

ومتحمل كثيرًا من أجل مجد الله.. بنفس حكمة الله.

استبشر الرفيقان خيرًا، فكلمات الراعي تمجد الله وتؤكد اتباع التعاليم الثابتة، ألقيا التحية عليه وطلبا أن ينزلا بجانبه إلى أن يزول الحر، فخفَّ الراجل لاستقبالهما، وأخرج لهما بعضًا من زاده ومائه.

بعد الطعام التزم أثناسيوس الصمت وكأنه دخل في صلاة خاصة، بينما تجاذب رفائيل الحديث مع الراعي عن صاحب الشعر الذي تغنى

بــه، فأجابه بأنها أشعــار الأب أريوس، يشرح بها تعاليــم الشريعة التي تلقاها عن الحكماء والعارفين بالله، التي من أجلها تحمل الكثير.

وما إن سمع أثناسيوس هذه الكلمات حتى قطع صلاته سائلاً الراعي:

– هل تعرف أريوس؟

– نعم.

– هل التقيت به؟

– لا.

– ما رأيك في تعاليمه؟

ابتسم الراعي متحيرًا:

– أنا لا رأي لي، هذه أمور معقدة، وأنا راعي غنم.

حينها شعر رفائيــل أن رفيقه سيستعدي عليهما الراعي، وإن نجيا منه فلن ينجوا مــن غيره، فليكوبوليس عاصمــة الميليتيوسيين، وجميعها تسلم بالفكــر والــرأي لأريوس، ومنذ عشريــن عامًا وهم يناوئــون الكنيسة، فاعتــذر للراعي بــأن الشمس أثرت علــى مزاج صديقــه، وشكره على ضيافته. حــين أكملا رحلتهما لم يعاتب رفائيــل أثناسيوس، وفكر في أن يعيده إلى أمر الساموساطــيٍ من جديد، هنالك ارتاحت ملامح أثناسيوس وأرخى العنان لجواده قائلاً:

هذا المهرطق ذهب إلى أن العذراء ولدت يسوع الإنسان، ثم حلّ عليه كلمــة الله عند ولادته، فصــار إلهًا، ومن ثم فهو يــرى أن المسيح إنسان تألَّه، وليس إلهًا تأنَّس، وقال أيضًا إن للمسيح أقنومان يمثلان ابنين لله، الأول بالطبيعة وهو الكلمة، والثــاني بالتبني وهو يسوع. وأنكر أقنومية الروح القدس قائلاً إنها مجرد قوى من قوى الله، مثل العقل والفكر لدى الإنسان. ولأجل هذه الانحرافات حكمت عليه الكنيسة بالحرمان.

-٩-

رسائل أوريجانوس(٧)

كانــت المدينة أهدأ حــالاً عما تركتها عليه، فقد رحــل جنود كلاركلا، وعم الســلام من جديد، وعاد ديميتريوس مــن الصحراء، حيث كان قد هرب أمام الجنود الذين نشطوا في البحث عن الكهنة والواعظين، نشطوا في البحــث عن كل متعلم، فلمــا انتهوا من سجن وتعذيــب المتعلمين صبوا غضبهم على عامة المسيحيين، فكان كل مسيحي هدفًا لهم.

تركت المدينــة وروائح الحرائق والقتل والعطــن تفوح منها، وعدت إليهــا وقد تزينت وعــادت إلى سابق عهدها، الإسكندريــة جميلة وزاهية وبهيــة، حدائقها غناء، وشوارعها جميلــة ومرصوفة بالأحجار، مبانيها عاليــة وشامخــة أمــام الجميــع، لم أدرك أنني متيــم بهــا إلا حينما عدت إليهــا، فأخذت أجوب شوارعها من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمــال، هواء البحر فيها ليس كهواء أي مدينة أخرى، وشعور المرء أنه مــن أبنائها ليس كشعوره في أي مكان آخر، كم يتعذب الذين يكتب عليهم الخروج منها، وكم هم أقوياء الذين تحملوا هذا البعد.

ربمــا كان وقوفي علي بحرها منتشيًا بهوائها المنعش هو ما جعلني أغفر لديميتريوســ إهانتــه لي، هو نفسه اعتــذر موضحًا أنــه لم يقصد إهانتي، فقــط كان يوجــه غضبه تجــاه ثيؤكتستوســ وألكسندر، أسقفــي فلسطين وأورشليــم، لأنهما لم يراعيا تقاليد الكنيسة التي نشآ بها، لم أجادله كثيرًا، واكتفيت بأننــي عدت إلى مدينتي، مدينة الرب عن حق، أو هكذا أشعر، فقبلت عذره وعدت لأبحث عن أمي وإخوتي.

كانـت أمي قد أصيبـت بالرمد وكف بصرها من كـثرة البكاء، وكان أخـي دانيال قد التحـق بعمل في الميناء، قال إنه يدر عليـه مبلغًا يكفيه لأن يفتـح بيتًا ويعول إخوتنا الخمس، وفهمت مـن أمي أنه يرغب في الزواج مـن ابنة رئيسه في العمل، لكنه يخشى الحديث أمامي في الأمر كي لا يثير حـزني، فذهبت إليه وربت على كتفه موضحًا أنني وهبت نفسي منذ زمن للوعـظ وشرح كلمات الرب، وسوف أكـون سعيدًا حين أراه يصطحب زوجته وأبناءه كل أحـد للصلاة، وفي المساء اصطحبته ووالدتي إلى بيت رئيسه، فطلبنا ابنته للزواج من دانيال، وما إن عقدنا نصف الإكليل حتى نشطـت معه في البحث عن بيت يصلح أن يكون بداية لأسرة جديدة، وفي عيـد القيامة التـالي عقدنا له إكليلاً كامـلاً، وزففناه وعروسـه إلى بيتهما الجديـد، في ذلـك اليوم كنت أشعـر أنني صرت والدي، فقـد كانت أمي تتكئ على ذراعي وأختي سارة تسـير أمامي وأنا أتأمل السنوات والأيام التي مرت، سنوات بها الحلـوى الممتزجة بالمرار، شعرت أنني كبرت، صرت بملامـح منحوتة، وظهـر مقوس وحمول كثـيرة، صرت شيخًا رغم أنني لم أتجاوز الثلاثين من عمري.

عـادت مدرسة الإسكندرية من جديد إلى سابـق عهدها، وإن كنت لم أعد متفرغًا لترتيب شئونهـا كسابق عهدي، فقد خصصت للوعظ من بعد الظهيرة حتى نزول الظلام على الأرض، ثم أعود لأجلس إلى منضدتي في غرفـة بيتنا، أطالع الكتب وأسجـل الملاحظات وأدون الشروح، وفي الصبـاح أذهب إلى مكتبة بطليموس فأطالع أحدث ما ورد إليها من كتب، وأشتبك في مناظرات مع أساتذة الفلسفة والتاريخ واللاهوت في الميوزيوم، كان الجـدل الفكري طعامـي اليومي، هـم بدورهم أخـذوا يفردون لي مساحـة بينهم، وكثيرًا ما يدعوننـي لنتناقش حول أمور تخص اللوجوس وطبيعة الرب وأقانيمه وروحه القدس، كان هذا النقاش يشغلني أكثر مما تشغلنـي مدرسة الإسكندرية ذاتها، وكنت كلمـا شعرت بحاجة للرد على مسألة مهمة أجلس لأكتب رسالة فيها، في ذلك الوقت كانت أمي قد عافت الحيـاة، فصارت تراودها الأحلام عن والدي، فتروي لي كيف اختصها بالثـوب الأخضر، وأخذ منها قطـع الجبن الطـري، وداعبها على عدم

معرفتها الجيدة للألـوان، كانت تحكي بفرح تارة وحزن أخرى، تحكي كما لو أنها تمهد لسفر طويل، سفر لم تخبرنا عنه إلا قبلها بيوم واحد، حين نامـت على نفسها تاركـة الطعام يحترق على النـار، أحضرت لها ثلاثة أطباء، جميعهم خرجوا في صمت قائلين:

– أطعموها ما تريده إن طلبت الطعام.

في المساء كانت قد أودعـت أمانتها إلى صاحبها، وأصبحت جثة هامدة بـين أيدينـا، لم تفعل أكثر مـن أن ألقت بمزيـد من التعب علـى كاهلي، أوصتنــي من جديد بأختي سارة وتجهيزها للـزواج، ثم بكت وهي تقول لي إن استطعـت الزواج فتزوج، وإن لم تستطع فاشتر جارية تخلص لك طيلـة حياتك، ربت علـى كتفها وأنا أطلب منهـا أن تبلغ السلام لوالدي، بعدها صعدت الروح كنزع شوكة من فراء، فجلسنا لتلقي العزاء وصلاة القداس، وعدت لأبكي وحـدي، فلم يعد لي غير هـذه الجدران وسارة التي لم تعد صغيرة، وأربعة من الإخوة الأصغر، شعرت أنني فقدت كل جـذوري في الأرض، وأنني صرت اليوم وحيدًا، صرت ريشة تتقاذفها الريـح كيف تشاء، فرفعت رأسي وطلبت من الرب ألا يحدث هذا إلا بعد أن أطمئن على أختي في بيتها، ولتفعل بي الحياة بعدها ما تريد.

مـرت بي خمسـ سنـوات في الإسكندرية، لا أخرج منهـا ولا أذهب إلى غيرهـا، ولا يختلف خـط سيري عن البيت والمدرسـة والمكتبة، لكن فيمـا يبدو أن كتبي كانت تذهب أبعـد من هذا بكثير، كانت تعبر البحر إلى الشمال حيث روما وبيزنطـة، وتسير على البحر في الشرق نحو أنطاكيا وفي الغـرب نحو المـدن الخمس، وتيقنـت أنني صرت شخصًـا معروفًا حين فوجئـت الإسكندرية بالحامية الحربية لوالدة الإمبراطور تنزل على شطآنهـا مستأذنة في التوجـه إلى الكنيسة الأم، فما كان مـن حاكم المدينة إلا أن رحـب بقائدهـا وتقدم برفقتـه طالبًا لقاء البابـا ديمتريوس، كانت المعلومات قد وصلت من القصر أن نائب الإمبراطور سيجيء لمقابلة الأب ديمتريوس، فأخـذ الكهنة يسرعون في إلقاء الأوامـر للخدام والشماسين بتزيـين الكنيسة وتنظيفهـا، بينما أحضر ديمتريوس ثيابـه الرسمية مطلقًا

البخـور بين يديه، وسامحًا للشماسـين بالترنم في حضرته كي يكتمل بهاء سلطانه حين يجيء نائب الإمبراطور للقائه.

دام الانتظـار نحو ثلاث ساعـات قبل أن يتسرب الملـل والضجر إلى الجميـع، وكنـت بطبيعـة الحال مـن بينهم، فقـررت التسلـل والذهاب للغـداء مع سـارة وإخوتها الصغار، لم أستطـع الوصول إلى ديمتريوس لأستأذنه، فأخبرت بعضًا من خدمه وشماسيه أن أختي مريضة ولا بد أن أذهـب لرعايتها، لم يعر أي منهم حديثي اهتمامًـا، وأومأ بعضهم بالموافقة حتـى دون أن ينظـر إليَّ، فخرجـت وأنا ألمح من بعيـد مظهر الجنود وهم يتراصون على جانبي الطريق، بينما على البعد تتحرك العربات الذهبية في طريقها إلى الكنيسة وسط جوقة مـن الطبول والأصوات النحاسية، خففت خطـاي متعجلاً كي لا ألتقي بأي من الآبـاء أو القساوسة فألتزم بالبقاء معه وسـط كل هذا اللهو والصخب، لكنني ما إن خلعت ملابسي واسترخيت في جلستي بالبيت حتى وجدت من يطرق الباب وكأن القيامة قد قامت.

كان حاكم الإسكندرية قد وصل إلى الكنيسة طالبًا لقاء الأب ديمتريوس، وهناك سأله عن المعلم أوريجانوس، فأسقط في يد الجميع، إذ إن أيًّا منهم لم يشغـل نفسه بمعرفة أين ذهـب أوريجانوس، وعلم ديمتريوس أن قائد حامية أنطاكيـا جاء ليطلب مني الذهاب للقـاء الإمبراطورة مامسيا والدة الإمبراطـور ألكسنـدر ساويرسـ، وفي الوقت الذي تنبـه فيه بعض من استأذنتهم في الذهاب إلى البيت كانت خطى البعض الآخر تهرول لتخبرني بطلـب نائـب الإمبراطور لي، ما زاد من صعوبة الأمـر أن قائد الحامية أبلـغ نائب الإمبراطـور أنه لا بد أن يذهب إلى حيـث يوجد أوريجانوس ليبلغـه طلـب الإمبراطورة بنفسه، فمـا كان من الموكـب الإمبراطوري إلا أن اصطحـب ديمتريوس معه باحثين عن الـدرب المتفرع من شارع البحـر، حيث أقيم مع إخوتي الصغار، وما إن ارتديت ملابس خروجي حتـى وجدت البيت قد أحيط بالجنود من كل جانب، وقائد الحامية ونائب الإمبراطور والأب ديمتريوسـ في طريقهم نحوي، فوقفت في استقبالهم وهـم يصرون علـى أن يدخلوا معي إلى البيت، كـي يسلمني قائد الحامية رسالة الإمبراطورة الأم.

دامت هذه الرحلة نحو ستة أشهر، لقيت فيها من التعظيم والإجلال ما لم أشهده من قبل، كانت الإمبراطورة مامسيا قد طلبت من يجيبها عن بعض الأسئلة المقلقة لديها، وخشي الجميع أن يجيب إجابة غير التي تريدها، فتبرع أسقف أنطاكيا بالقول إن في مدينة الإسكندرية علامة لم يفته من العلم شيء، وهو من نتعلم على كتبه ورسائله وشروحه، فطلبت منه أن يكتب بنفسه رسالة باسمها إلى هذا العلامة الكبير تستأذنه فيها أن يكون ضيفًا على قصرها كي يعظها، وطلبت من قائد الحامية ألا يترك الرسالة لأحد، وأن يذهب إلى حيث أكون كي يسلمها لي بنفسه، ولم يجد حاكم الإسكندرية والأب ديمتريوس بُدًّا من اصطحابه لإكمال مهمته، فاستأذنته يومين لترتيب أموري، كنت في حاجة لأن أستدين بعض المال الذي سأتركه لسارة كي تنفق منه، وأن أوصي دانيال بدوام التواصل معها وعدم الانشغال عن إخوته، لكن فكرة الاستدانة فسدت، فكيف يمكن لرجل حضرت الدنيا إلى بيته أن يخرج في الصباح طالبًا المال من الناس، الأدهش أن الجنود لم يتركوا باب البيت، وكاد الحاكم أن يصدر قرارًا بذهابي معه إلى القصر، لولا أنني رجوته أن يتركني على راحتي، فاستأذن وعاد برفقة ضيوفه.

لم تكن الأرض تحمل إخوتي من الفرح، وشعر كل منهم أنه قبض على نجمة من السماء، خاصة سارة ودانيال، كانا يتفاخران بأن بيتهما جاءه نائب الإمبراطور وأساقفة الإسكندرية، وأن أخاهم ذاهب للقاء الإمبراطورة الأم، لم أعرف ما الذي ينبغي أن أقوله لهما، فقد كنت ما بين الدهشة والفرح والخوف، عالم السلطة مدهش وجميل وقاس، ومثلما يعطي فإنه يغدر ويأخذ، بت ليلتي أُخبِّئ خوفي وأفكر في مصيرنا القادم، وفي الصباح لم أشعر بضرورة في تأمين نفقات سارة خلال غيابي، فقد أصر دانيال على أن ينتقل بزوجته ليكون مع الصغار في بيتنا، ووجدتُ سارة راضية بالأمر، فوافقت وبدأت أجهز نفسي للسفر.

كانت أمتع الرحلات التي قمت بها، لم أشهد إجلالاً وتقديرًا مثلما رأيت في أنطاكيا، نزلت ضيفًا على قصر الإمبراطورة مدة ستة أشهر، علمتها فيها المبادئ الأساسية للإيمان، وكلما عنَّت لها مسألة كنت أجيبها عنها

بسلاسة ويسـر، لكنني وجدتني بعد فترة حبيسًـا كطائر في قفص ذهبي، فـلا هو أصبح شيئًا غير كونه طائـرًا حبيسًا، ولا أفاده الذهب في أكثر من كونـه سجنًا له، فطلبت منها أن ألقي بعض العظات للناس، وأن أجري بعض المناقشـات مع الأساقفـة والقساوسة، فعقدت لنـا مجلسًا في القصر لنتناقش أمامها في أمور الدين، كنت أنصت وأنصت ثم أجيب، وفي كثير مـن المناقشات كانت إجاباتي ضافية وواضحة، فكان أسقف أنطاكيا يشعر أنني رفعـت رأسه ولم أخذله، وأنني أسديت لـه معروفًا لم يكن يتوقعه. لكـن أيام الانتظار طويلـة، وكل يوم جديد بمثابة دهر يمر على جسدي، فقـد توحشتنـي الإسكندرية وناسهـا وشوارعها، حتـى ديمتريوس نفسه توحشني، وصار القلق يضرب قلبي على أختي، لا أعرف ما الذي جعل القلق يتزايد عليها بهذا الشكل، فطلبت من الإمبراطورة الإذن بالرحيل، فأصرت على أن تعيدني حاميتها مثلما أخذتني، وما إن وصلت باب البيت حتى فوجئـت بقائد الحرس يضع صندوقًا صغـيرًا من المجوهرات أمامي قائلا:

– هذا هدية من الإمبراطورة من أجل أختك.

-١٠-

أرسل الأب جورج في طلبي، هكذا وجدت الشماس الشاب المنوط به مرافقة المنحني في تحركاته يطرق بابي، أيقنت أن نهايتي قد حلت، وأن ثمة من وشى بي إليهم، أغلقت الباب خلفي وذهبت مع الشماس، كنت ألعن أنطونيوس في سري، فما لي أنا بما يجري من صراعات بين الرؤساء! لم أكن أرفع خطوة أو أضعها على الأرض إلا وأنا أقدس المسيح، طالبًا من العذراء والروح القدس أن يلقيا بمعجزاتهما عليَّ لأخرج سالمًا.

حين وقفت أمام المنحني لم يرفع نظره تجاهي، وظل منشغلاً بقراءة شيء ما في الكتاب المقدس، منقلاً عينيه أسفل نظارته منه إلى كتاب آخر بجانبه على المكتب، لا أعرف ما الذي كان يفعله المنحني وقتها، وما كنت أريد أن أعرف، فقد كنت أبتهل للعذراء في سري أن تضع سترها علي، فلا يراني المنحني ولا يسمع بي، ويبدو أنها سمعت صوتي الذي لم يخرج عن جدران صدري، فقد أنهى المنحني عمله، ووضع نظارته جانبًا:

- هل تعرف دير درنكة؟

كانت كلماته هادئة كما لو أنه ما زال يقرأ في الكتاب الذي أمامه، والحق يقال أنني بحثت في ذهني عن درنكة الذي نطقه بسلاسة واضحة فلم أجده، كانت عين المنحني تطل نحوي من بين الترهلات المتراكمة أسفلها كما لو أنها تتفحص فأرًا جبليًّا غريب الطباع، شعرت أنها تريد الدخول إلى روحي لتتأكد إن كنت سأصلح لما يريده مني أم لا، نحيَّت خوفي جانبًا، وهززت رأسي:

- لا.

أومأت وأنا أحاول قتل شبح ابتسامة بلهاء ندَّت من فمي وأنا أجيب بالنفي، فقد تصورت أنني أفسدت عليه فكرته، لكنه تغاضى عن ذلك مهمهمًا:

– أفضل.

حاولت أن أستوضح ما عنـاه بكلمته الأخيرة، لكنه وضع صيلبه على المكتب ونهض تجاهي:

– حين تذهب أسيوط، تسأل عن دير درنكة.

هززت رأسي باهتمام واضح، لكنه تجاهل وجودي:

– في داخـل الدير كنيسة العـذاراء، حين تصلها ستميـل على الجالس بجانـب الباب سائلاً عـن الأب إسطفانوسـس، ثم تنتظر حتـى يجيء من يأخذك إليه.

كانـت هذه هي المـرة الأولى التي يتكلم فيها المنحنـي معي، وهي المرة الأولى التـي يتم تكليفي فيهـا بمهمة خارج الدير، أذكـر أنني ذهبت مرة في صحبـة باخوميوس إلى أسيوط، كنـت صبيًّا ولا أعرف إلى أين كانت خطـاي تأخذني، ولم يكـن لدي اهتمـام بأكثر من مطالعـة الوجوه التي مـلأت ساحة الاحتفـال بمولد أحد القديسين، في هـذا اليوم اصطدمت بي دراجـة رجل عجوز فطرحتني أرضًا، وسرعـان ما شعرت أن الشمس تضـوي بقوة فوق جبهتي، والدنيا تظلم مـن حولي، وروحي تنسل مني كشعـرة تخرج من لوح عجين، يومها أدخلني باخوميوس إلى خيمة مليئة بالنسـاء، أحضرت لي إحداهن كوبًا من المانجـو المثلج، ما زالت حلاوته حتى الآن على لسـاني، شعرت أن روحى التي انخلعت مني ردت إليَّ، وفتحـت عيني على فتحة صدرهـا الواسعة، ورغبـت في إطالة النظر لما أسفلها، لكني أسرعت بإغماض عيني كي لا تشعر أنني عدت لوعي، وما إن فتحتها من جديد حتى وجدتها تضمني إلى صدرها ضاحكة:

– يا شقي... أنت تمثل كي تظل في حضني.

انفجـرت الضحكات من حولها، ورأيت وجوههن تحدق فيَّ كأني فأر في مصيـدة، فأصابني الخجل، وظننت لوقت طويل أن الذين في الخارج يسخـرون من الغرباء أمثالي، فكرهت الخروج من الدير، لكنني لم أنسَ الكـوب المثلج وحلاوته التي تسربت لروحـي، ولم أنسَ وجه السيدة ولا

حضنهـا الطـري، وما زاد من تذكـر غوايتها لي، هو ظهـور دميانة في حياتي، دميانة التي تشبه كأس مانجو مثلج في شهر أبيب.

كان أنطونيوس قد طرق عليَّ بالأمس بـاب المكتبة، وحين فتحت له كاد أن يغشى عليّ، وأخذت أتطلع فيه لأتأكدا أنه ليس شبحًا ولا معجزة، وكلما أطلت النظر همس في وجهي:

– أنا أنطونيوس...

سمعت منه ما جرى معه منذ دخوله قلاية باخوميوس ورؤيته معلقًا من عنقـه في سقفها، حتى دخوله مغـارة الملاح وهروبه في الممر الرابط بينها والمغـارة التي على البحـر، تلك المليئة بمخطوطـات القديسين والهراطقة على نحو سواء، وكأن من جمعها لم يكن يعاني ما نعانيه الآن.

كان أنطونيوس يضحك ساخرًا من كل شيء، وكأنه يهرب نفسه من مواجهة الحقيقة التي يعيشها، فهو الآن مهرطق ومتَّهم بقتل باخوميوس، ويوسـاب ورهبانه طوال القامة يبحثون عنـه، كان يضحك ولا يعنيه أن يسمعـه طوال القامـة فيقتحمون المكتبة علينا، ظل يضحـك وأنا أهدئ من روعه حتـى سقط في النوم كطفل صغير، ولم أجـد أمامي سوى تحريك دولابـين فارغين مـن الكتب بحيـث يحيطانه من الجانبـين، ثم أسرعت ووضعت عليه بعضًا من الكراتين الفارغة والقماش المستعمل بشكل يضمن ألا يراه أحد، ولا يفكر في الاقتراب من مكانه أحد. كان الخوف يجتاحني مـن أن يكتشفوا وجوده لدي، فالدير كله لا يشغله سوى أمر أنطونيوس، ما بين الباحثين عنه وما بين الحالمين بقدراته ومحبة الملاح له.

في النهايـة دخلـت في فراشي المعتاد بجانب المكتـب ورحت أبحث عن النوم، شعرت أن كل الكوابيـس شديدة السوء أخذت في مهاجمتي، كان أغلبها يدور حول اكتشاف أمري وسحبهم لي كي يلقوني من فوق الجبل، بعضها الآخر كان عن أنطونيوس وهم يقطعونه ويلقون به للكلاب قائلين لـه هذه لبؤتـك وأشبالها، الحلـم الوحيد الـذي راودني كان عن دميانة، كانـت تضحك بوجهها المنـير على جملة قلتها بلهجتي التـي ما بين الصعيد والحضـر، كان ثغرها يشع في الظلمة نورًا ليملأ المكان من حولي، وكان

المـكان غريبًا، لا يشبه الدير ولا يشبــه أماكن المدن، وثمة أصوات ذئاب كانت في الخارج، ذئاب كثيرة تطل بوجهها من النافذة، لكن دميانة كانت تضحــك وتضحك، وأنا أرتعد من الخــوف، والمخالب تضرب في شباك البيت وأبوابه، وأنا أقبض على يد دميانة مرتعدًا، وكلما اشدت الأصوات والطرقات اشتد تمسكي بها، حتى شعرت أنها ستموت في يدي، فانتفضت مــن نومي لأجــد الطرقات على بــاب المكتبة وليس في الحلــم، كان ذلك شمَّاســ المنحني وقد جاء يطلبني، كنت في حاجة لأن أغسل وجهي وأغير ملابسي، لكنني خشيت أن يدخل خلفي بحجة الانتظار، فتركت كل شيء على حاله، وأغلقت الباب خلفي مبديًا العجلة في لقاء رئيس الدير.

حــين عدت من عنــد المنحني إلى المكتبة وتلافيفهــا؛ وجدت أنطونيوس مختبئًــا كفأر كبير بين الدولابــين اللذين أطبقتهما عليــه، فأخذت بصوت خفيض أنبهه لعودتي، موضحًا أن المنحني يريدني في مهمة خارج الدير، لكننــي لا أريد أن أذهــب، فنفسي ترتعد من غوايــة الشرير في الخارج، والرب لــن يحرس الجميع، فهل ألقي بنفسي من فــوق الجبل، أم أشنقها كما فعل باخوميوس الحبيب!

كنت في تلك اللحظة أبحث عن مزحة تزيل عن روحي القلق والخوف، لكنني وجدت وجه أنطونيوس الباسم يتحول إلى ظلام يقفز منه الشرر:

– باخوميوس لم ينتحر، لكنه قُتل.. وهو من الشهداء.

قالها بحدة وغضب واضحــين، حتى أنني تلجلجت، ولم أعرف كيف أعتذر، فالتزمــت الصمت وتصنعت البحث عن مخطوط تركته في درج المكتب، لكنه نبهني من شرودي قائلاً:

– لو قفزت من على الجبل، هل يلحقوا بي؟

كادت ابتسامــة تقفــز مني لــولا أنني أسرعــت في وأدهــا، خشية أن يواجهني بغضبــه، ونظرت إليــه مندهشًا، فرأيت شبــح ابتسامة شريرة يرتســم على شفتيه، بينما يده ترسم الصليب على وجهه وصدره كمن ينهي صــلاة سرية، حين سألتــه عما يعنيه، قال لا شــيء، وأخذ ينظر في كتاب بجانبــه، حينها لا أعرف لم أخبرتــه أنني رأيت دميانة في الحلم، وأن قلبي صــار قلقًا عليها، رأيته ينظــر نحوي باهتمام واضح، طالبًــا أن أعيد عليه

الحلم كما رأيته بالضبط، لكنه بعد أن سمع ما أمكنني تذكره هز رأسه قائلاً:

– الرب معها.

أمنت على كلامه:

– ومعنا يا صديقي.

في المساء استدعاني المنحني قائلاً:

– غدًا في الصباح يأخذك الباص إلى أسيوط.

ثم أعطاني صندوقًا خشبيًّا مربعًا، وبه باب يتحرك من الجنب قائلاً:

– لا تفتحه ولا تعطه لأحد غير إسطفانوس.

خرجت من عنده ومفاصلي ترتعد، لا أعرف لماذا شعرت بالخوف، هل من نظراته أم من الإحساس بأن الأمر مريب، كنت أهرول بين الظلمة وضوء القمر الشفيف، حين عدت إلى المكتبة وجدت أنطونيوس يخبرني أنه عزم على الرحيل.

– كيف؟

تساءلت بفزع، فوضع يده على المكتب وأخذ يشرح خطته:

– لو أن قلاية الأب باخوميوس على حالها، لم يسكنها أحد ولم يؤخذ منها شيء، فالفرصة سانحة للهرب، يمكنني حسبما قال لي باخوميوس أن أزيل حجرين من الجدار، وأربط حبل الليف الطويل، الذي في سحارة الكنبة، بطرف السرير، ثم أنزل من على جدار الهضبة حتى مقابر الرهبان، بعدها أختبئ في المطبعة أو أنطلق في الصحراء.

بدت الفكرة أبسط من التوقف لتأملها، فأدرت رأسي معجبًا بها، ومتسائلاً عن كيفية الوصول إلى قلاية باخوميوس، فسحبني من يدي نحو الباب قائلاً:

– الرب سيحرسنا.

كتمنا أنفاسنا وتسللنا خارجين من المكتبة إلى جانب سفح الجبل، ثم جعلني بجانبه لا أسبقه ولا أتأخر عنه، وانحنى حتى أصبح كما لو أنه ظلى

الــذي يمتد على الأرض، حتى عبرنا من خلف كنيسة الأب ديمتريوس، ثــم ملنا بجانبهــا نحو البوابة، لنعــبر على مقربة من أكــثر الأماكن عيونا وحراســة، لا أعــرف لمَ لم يوقفنا أي منهم، فقد مررنــا أمامهم كراهبين يتناقشــان في شــأن مهم، هــم بدورهم لم يعيرونــا اهتمامًــا وتشاغلوا في الحديث عن عشائهم الذي تأخر، بعدهــا انفصل عني أنطونيوس ليلتصق كخفاشــس في جدار قلايات الرهبان، كان يظهر ويختفي من بين المنحنيات بخفــة مدهشة، في هــذه اللحظة فقط أيقنــت أن أنطونيوســس استعاد وعيه كقاطع طريــق، ولم نلبث حتى وجدته يقف أمام قلاية باخوميوس مباغتًا الراهب الذي يحرسها بطرقة على رأسه، فسقط مغشيًا عليه، بعدها عالج القفل الموضوع على الباب بآلة معه، ثم غاب في الظلام.

-١١-

انتفضت أسماء من مكانها صارخة في العمدة والرجال الجالسين وسط الدار:

- خذوها واخرجوا.

كانت صرختها قوية وواضحة، وشعر الجميع أن الموقف تطور لما هو أسوأ، فنهض رضا من بين الرجال نحوها محاولاً تهدئتها، لكنها كانت حاسمة في موقفها، موضحة أنها لا تريد لبيتها أن يحترق، والعمدة هو الحكومة وعلى الحكومة أن تقوم بدورها. كانت الكلمات تخرج من فمها كمدفع رشاش انطلق في وجه الجميع، وشعر الرجال أن آذانهم غرقت في عمائمهم، فنظروا جميعًا إلى بعضهم بعضًا، بينما مثَّل رضا دور الرجل صاحب الكلمة في البيت، فشتمها أمامهم، ورفع حذاءه ليضربها، فانتفضوا من مكانهم ليمنعوه، وانسحبت هي إلى غرفتها من جديد.

هكذا حركت أسماء المياه التي ظن البعض أنها ستظل ثابتة إلى أن يجيء الصباح، ويذهب كل إلى حال سبيله تاركًا الأمر معلقًا في صدر رضا وزوجته، أو أن تأتي الشرطة من المركز وتخلص الجميع من المشكلة، في تلك اللحظة بدأت العقول تفكر والألسن تتحرك باقتراحات للخروج من الموقف، فقال أحد الجالسين مستسلمًا:

- نخرج بها يا حضرة العمدة.

لكن العمدة الذي وجد نفسه محملاً بعبء أكبر من قدراته جحظت عيناه تجاه القائل، ممسكًا نفسه عن أن يجري وراءه بالحذاء، وبدا على الجميع أن الرسالة وصلتهم، فقرر أحدهم أن يطرح حلاً بديلاً:

- ما الرأي فى أن نأخذها من على السطوح إلى الشارع الخلفي، ومن هناك نأخدها في سيارة إلى المركز؟

بدا أن هذا الحل به نوع من الخيال لكن له وجاهته، فلا أحد سيضار ولا أحد سيتحمل المسئولية، وهكذا يخرج الجميع سالمًا، فتحمس الموجودون، ولزمت أسماء ورضا الصمت، فربما يمكنهما الخلاص مما دخلا فيه، وبدأت الاتصالات تجري بالسائقين ذوي القلب القوي، لكنهم لم يجدوا غير حسنين الجرف، هذا الذي شعر أنها قدره فقرر الاستسلام له.

كانت الاتصالات التي جرت مع السائقين قد نبهت بعضهم إلى أن ثمة ما يجري الإعداد له، وبمجرد أن سرب أحدهم الخبر حتى انتشر كالوباء، فما كان من السلفيين إلا أن بدأوا يعدون ما استطاعوا من قوة يرهبون بها أعداء الله وأعداءهم، فأسرعوا في استخراج ما بقي لديهم من قطع سلاح وعصي حديد، ووضعوا مزيدًا من الخرق المشبعة بالزيت على أطراف أعواد الخشب، وشددوا حصارهم للبيت من كل جانب فيما يشبه استعراض القوة، وفي الوقت الذي أخذت النداءات فيه لنصرة الإسلام ترج أرجاء المكان، كان العمدة ورضا ومن معهما قد جعلوا دميانة ترتدي ملابس أسماء وتصعد معهم إلى السطح، ليقفزوا منه إلى سطح البيت المجاور عبر سلم خشبي، ومنه إلى السطح الذي يليه، لكن حسنين الذي انتابه القلق من تأخر العمدة عليه قرر أن يتصل به، وسمعه أحد المارة وهو يؤكد وجوده في المكان المتفق عليه، فما كان من الرجل إلا أن صرخ بأعلى صوته:

– الكفرة يريدون الهروب.

فتجمع البعض لينظروا ما الذي حدث، وفطن آخرون إلى خطة العمدة وجماعته، فتطايرت الأعيرة النارية في الهواء لمنعهم، وبات العمدة محاصرًا على السطح لا يعرف إلى أين يمكنه الذهاب، بينما تم القبض على حسنين ومصادرة سيارته، وتحت وطأة العصي اعترف بالمخطط كله، وكانت الخطة البديلة أن ينزل العمدة ومن معه ليواجهوا السلفيين، في حين يعود رضا بدميانة إلى بيته من جديد.

ما إن نزل العمدة حتى تجمع حوله عدد من الذين رفضوا الدخول في الفتنة، فنهرهم الرجل على سلبيتهم وعدم دفاعهم عن الحق، حتى أنهم

بجبنهم يهدرون كرامة القريـة ويتركونها لمن يرهب الناس ويعتدي على حرمـات البيوت، كانت كلمات العمدة صادقـة وحارة، حتى أن كل من سمعهـا دبت في عروقه دماء الشجاعة، فضلاً عن أن من سينقذه اليوم لن ينساه العمدة غدًا، فكان كلما مر بدرب تزايد عدد من تجمعوا حوله، حتى أصبحوا كتلة أكبر من كتلة السلفيين وعددهم، وتنادى الصبية والأطفال أن العمدة قادم، فارتبك السلفيون من مواجهة قد تودي بحياة الكثيرين، ومن ثـم قرروا الإسراع في اقتحام بيت رضـا وزوجته لينهوا الأمر ويفوزوا بغنيمتهـم، حمل بعضهم جذع شجرة كبـير وأخذوا يضربون الباب حتى تكسر، ودخلوا ليجدوا أسمـاء وزوجها واقفين أمامهم، ولا إجابة لديهما إلا أن العمدة أخذ الفتاة ورحل، فجن جنون السلفيين، وانتفضوا يهشمون ما تقع أيديهم عليه، وفي النهاية أخذوا معهم رضا ليقيموا عليه الحد.

وصـل الخـبر إلى المركز عبر أطـراف عدة، من بينهـا المحافظ الذي هاتفـه بعض المسئولين سائـلاً عما يجري، ولم يكن هنـاك فضل في ذلك إلا لمواقـع التواصل التـي اشتعلت بالاستغاثة لنجـدة القرية من الاحتراق علـى يد السلفيين، راحت الاتصالات تجري بمدير الأمن المشغول بإعداد كمين لتجار المخدرات في الصحراء، فظل بعيدًا عن تغطية شبكات الهاتف المحمـول، لكنه بمجـرد أن عاد من كمينه وجد عشـرات الأرقام حاولت الاتصال به، علم بما جرى وما هو متوقع حدوثه، وتوجه بالقوة التي معه للقريـة، واستدعى معه قوة أخرى مخصصة لفض الشغب، وما إن دخل القريـة حتى أطلق عبـوات الدخان المسيلة للدموع علـى الجميع، وانضم العمدة ومن معه للرتب التي نزلت بكامل عتادها، وفوجئ السلفيون أنهم أصبحو أقليـة فقرروا الفرار، لكنهم أيضا قـرروا أن يتركوا للحكومة ما يشغلهـا عنهم عدة ساعات، فتركوا المشاعل التي معهم على أسطح البيوت المليئة بالحطب.

كان رضـا قد فكر في خدعة بسيطة حين تركـه العمدة ومن معه يعود بدميانــة إلى بيته، فخبأها وســط كومة من الحطب على سطح بيت مجاور لبيتــه، ونزل ليبلـغ السلفيين أن العمدة أخذها ورحـل، وكان من الممكن لخطتــه أن تسير في مجراها الطيب لــولا أن سارينات الشرطة التي نبهت

السلفيين للتغير الذي حدث، مما جعلهم يلقون بمشاعلهم إلى أسطح البيوت، وما إن وصلت الحكومة لبيت رضا حتى وجدوا أسماء تلطم وجهها، مطالبة الجنود بإنقاذ المسكينة من النيران، ولم يكن أمام النساء والرجال سوى حمل المياه على الرءوس والأكتاف لمواجهة النيران المتصاعدة، باحثين عن دميانة وسط ألسنة النيران، وفي خضم صراعهم الطويل لمحوا دميانة ترتجف من الأشباح التي تحيط بها من كل جانب، لكن لم يمسسها شيء منهم ببركة المسيح والعذراء مريم.

-١٢-

قطـع رفائيل وأثناسيوس مسافات طويلة في الصحراء، لكنهما لم يذهبا إلى ليكوبوليـس، فكلما مرا بجماعة من الرعاة سمعـا أشعارًا لأريوس، وكلمـا جادلهم أثناسيوس شعـر رفائيل أن العيون تتقـد وملامح الوجوه تتلـون، فكان يسحب صديقه ويفر به قبل أن يعتدوا عليه، كان أثناسيوس خطيبًا عظيمًا، ومؤمنًـا صادقًا إلى أبعد مدى، لكنه لم يكن سياسيًّا كبيرًا، كان إيمانـه الصـادق يدفعـه للدخول في جـدل مع أناس ألغـت عقولها، واستسلموا لكلمـات منظومة وأسطورة صنعها مارقـون، وكان رفائيل المثقـف ابـن المدينة يخشى أن يعـود من رحلته جثة هامـدة، وربما تكون طعامًا للذئاب، حينها أبلغ أثناسيوس بمخاوفه، مذكرًا إياه أن ليكوبوليس عاصمة ميليتيوس التي خرج منها على سلطة الكنيسة، وأن أريوس ورث رجاله وكنائسه، فجميعها تدين له، وأهلها لن يقبلوا بمناقشتهما في فكرته، وقد يعرضنا هذا للموت في تلك الصحراء.

تحدث رفائيل بأسى مطالبًا بتغيير الاتجاه إلى طيبة، حيث يمكن دعوة الكهنة هنـاك لحضور المجمع الذي يريده أثناسيوس والبابا ألكسندروس، وتحت وطـأة الإلحاح وتضخيم المخـاوف استجـاب أثناسيوس لرغبته، فتجنبـا السـير في الطرقات المعهـودة أو الدخـول في نقاشـات مع من لا يعرفونـه، ورددا أمام الناس في أماكن الخطر بعضـ أشعار لأريوس. حين وصلا طيبـة وجدا أمرهما أخـف وطأة، فالوثنيـون الذين يعبدون إيزيس كانوا على خلاف مع أساقفـة ميليتيوس وأنصار أريوس، يرون الأول متشددًا، والثاني أقرب لفكر من بقي من كهنة أخناتون.

حين أنهـى رفائيل وأثناسيوس جولتهما علـى كنائس وأديرة الجنوب اتخـذا طريقهما عائديـن إلى الإسكندرية، لم يكن الطريـق هذه المرة من

جـوف الصحراء وفيافيها، فقـد تعبا من الترحــال، وأزف الوقت الذي حــدده البابا، ولديهم أعمــال لا بد من إنجازها. كان البابــا ألكسندروس رجــلاً مسنًّا غير قادر على مواجهة المشكلات التــي تكاثرت على الكنيسة منذ انشقاق ميليتيوس على بطرس، وتضخمت المشكلات من بعده في زمن أرشلاوس، فوجد في أثناسيوس العود الصلب الذي يمكنه الاعتماد عليه، وحــين طرح الأخير فكرة دعوة الأساقفــة والكهنة لمجمع مقدس يؤكدون فيه علــى مبادئ الإيمــان التــي توارثتها الكنيســة عن الآبــاء والقديسين الأوائــل، وجدها ألكسندروس فكرة طيبة للإنهــاء على خصومه بضربة واحــدة، ومن ثم حدد الموعد وترك أثناسيوس يقــوم بجولته لجمع الآباء الراغبــين في المشاركة، إلا أنــه لم يستطع الذهاب لأساقفة ليكوبوليس ولا المحاجر في الإسقيط، واكتفى بأن أرسل لهم عبر الأديرة القريبة منهم كي يحضــروا المجمع، مبلغًا الجميــع أن الموعد هو الأول من شهر توت، ولم يكن قد بقــي على الموعد سوى القليل لاستقبال نحــو خمسة أساقفة وثمانية عشر قسًّا، وعشرة رؤســاء أديرة، ومائة شماس من الرهبان المتوحدين في الجبال.

وقــف ألكسندروس في استقبــال ضيوفه بنفسه، بينمــا كان أثناسيوس بمثابــة المسئول عن تنظيم كل شيء، بدءًا مــن إنزال الضيوف في منازل إقامتهــم، وصولاً إلى أماكن جلوسهــم في المجمع، وترتيب الوفود وبنود المناقشــات ومواعيد الاستراحات، كان هــذا دوره المعلن الذي يرافقه فيه مجموعة من الشمامسة التابعين له، لكن دوره الخفي الذي شعر به الجميع هــو أنه العقل المفكر لألكسندروســس ذي القلب الطيب واليدين المرتجفتين، فــكان أثناسيوســس بمثابة لسانه الــذي يتحدث به، وذراعــه التي يفعل من خلالهــا كل شيء، مما منحه القوة والقدرة على توجيــه أساقفة وقساوسة ورؤساء أديرة أقدم منه في خدمة الرب بزمن كبير.

لكن اللحظات الصعبة لا تمر سريعًا، ففي الوقت الذي تأخر فيه كثير من القساوسة والأساقفة الميليتيوسيين وأنصارهم عن الحضور، ظهر أريوس أمــام الجميع في الجلسة الأخيرة، وكأنــه حضر كشبح من بين الجدران، وبدا علــى أثناسيوســس الغضــب، وارتبك الحضــور جميعًــا، فيما فرح الميلتيوسيين وصفــق بعضهم لدخوله، وكان ألكسندروس حكيمًا، فرحب

بــه ككاهن مجد ومجتهد في كنيسة الرب، وأشار لأثناسيوس أن يجلسه في مكانه بين القساوسة، لكن الأخير اختار مكانًا قريبًا من أنصاره، وبدا من تحفزه في جلسته أنــه يشعر بأنه في محاكمة، وأخذ يداري قلقه بالضحك، قائــلاً لأصدقائه أن المكان الذي يجلس فيه يليق بالمهمة التي انعقد من أجلها المجمــع، فأهمل ألكسندروســس تعليقاته وإشاراته وافتتــح الجلسة بالصلاة وطلــب الهداية مــن المسيح إلى الإيمان القويم، وأخــذ يشرح قائلاً إن هذا المجمــع عقد من أجــل مراجعة مبادئ الإيمــان التي تسلمناها مــن آبائنا، وعلينــا أن نحافظ عليها نقية مبرأة من الهرطقات وزيف الشيطان، فباسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين، نبدأ عملنا اليوم لمراجعة آخر بنود لائحة الإيمان القويم.

كان ألكسندروســس يسعــى للتغاضي عــن المشكلة التي توشــك أن تقسم الكنيســة فكريًّــا، كان موقنًا مــن إيمان غالبية من حضــروا الاجتماع بما اتفقوا عليه في لائحة الإيمان، فقد تناقشوا على مدار عدة أيام حول المبادئ التــي يجب إثباتها في وثيقة يوقع عليها الجميع، وكان من المفترض أن يتم التوقيــع دون جدل أو اعتراض، إلا أن أريوســس الذي ظهر في الصباح رفع يده مقاطعًا وهو يقول:

– إن إيماننــا الذي تلقيناه عن أسلافنــا، الذي تعلمناه منك أيضًا، يقول إننــا نعرف إلهًا واحدًا، وحده غير مولــود، وحده سرمدي، وحده ليس له بدايــة، وحده الذي له الخلود، وحده الحكيــم، وحده السيد الذي جبل الابــن الوحيد المولود قبــل الدهور، الذي به خلــق الأزمان وكل شيء، فالابــن خلق بإرادة الله قبل الأيام والدهــور، ومنح الحياة والأمجاد من قبل الآب، فالله خالــق الكل ليس له بداية، لكن الابن الذي جبل بواسطة الــرب، لم يكن موجودًا قبل أن يخلق، فوحده الله هو الذي كان موجودًا قبل الجميع كخالــق، ومن ثم أيضًا كان موجودًا قبــل الابن، هكذا تعلمنا منك في هذه الكنيسة.

كانــت كلمات أريوس غاضبــة وقوية وبليغة، حتــى أن ألكسندروس الذي تلجلج بدا عليه أنه غير قادر على السيطرة وجذب انتباه الحاضرين،

فاحمر وجهه والتزم الصمت ناظـرًا لأثناسيوس وكأنه يستنجد به، فرفع الأخير يديه طالبًا من الجميع الهدوء، وهو يقول:

– إن أريوس يعرف أن كل ما قاله خطأ، وأنه كذب على الحبر الأعظم البابا ألكسندروسـس، هذا الذي بمحبته للجميع تقبل وجـود أريوس بيننا، علَّـه يكون في حظيرة الـرب، وجميعنا يعرف تاريـخ أريوس ومن أين استقى أفكاره المغلوطة، فهذه ليست تعاليم كنيستنا المؤمنة بأن الله لا يتجزأ ولا ينفصـل، وأن الآب والابن والروح القدسـ أقانيم ثلاثة لإله واحد، جميعنـا يعلم أن أريوس أمونيوس ولـد في إحدى المدن الخمس بالغرب، وتعلـم في مدرسـة اللاهوت، ثـم اجتهد في تحصيل العلـم حتى ذهب إلى أنطاكيـا فأقام بين أساقفتها، وتـاه بين ما قرأه من أفكار الأفلاطونيين وما تحصله من أفكار الأنطاكيين، هؤلاء الذين تأثروا بكتابات أوريجانوس، فجاءتـه أفكار تجزئة الرب وفصـل أقانيمه، مُخضعًـا معجزاته وقدراته لمقاييسـ الفكر والقـدرة لدى البشر، غير قادر علـى التصديق بأن الرب موجـود من قبل أن يولد من العذراء، وغير مدرك أن الآب لا يمكنه أن يكـون آبًا إن لم يكن الابن موجودًا، وأن الابـن لن يكون بحال ابنًا ما لم يكن لـه آب، ومن ثم فالآب آب أزلي، والابن ابن أزلي، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخـر، ولا إخضاع أحدهما للآخر، وما كان حمل العذراء بـه، ووضعها له، إلا تآنسًا مع الصـورة البشرية، وما كانت العذراء إلا معبرًا لهذه الصورة، والكلمـة هو السر الجامع بين الآب والابن، الكلمة هو الروح القدس، والشعاع الـذي بدونه ما كنا سنعرف بوجود الشمس ولا سنرى ضوأها.

كانت كلمات أثناسيوس بنفس قوة كلمات أريوس وقدرتها على التأثير، ولم يتخـطَّ الجمـل الأولى منها حتـى أصبحت القاعة تدين لـه بالصمت، وكأن المـلاك الحارس أخذ يرفرف بجناحية عليها لصالحه، وحين أدرك أريوس أن قضيته خاسرة، انتفض مقاطعًا:

– هـذه الخلافـات لم تناقش في لائحتكـم، خلافات في صلـب العقيدة وطبيعـة الرب، لا أظنكم تريدون مناقشتهـا، فافعلوا ما تشاءون، لكنني لن أعترف لكم بما تريدون.

ثــم حمــل صليبه وخــرج متَّهمًا ألكسندروســ بأنه مريضــ مأفون لا يستحق مكانه، فما كان من الأخير إلا أن رفع يده قائلاً:

– الآبــاء المبجلــون، إننــي أضــع أمامكــم الآن أمر الكاهــن أريوس أمونيوســ، ولكــم أن تحكمــوا في صحيح إيمانــه أو إيماننا الــذي تلقيناه وحفظنــاه عن آبائنا الشهــداء القديسين، ولا يجــب أن ينتهي عملكم الذي سهرتم عليه وقطعتم كل هذه المسافات من أجله دون أن تتموه.

ثم نــزل ألكسندروس من مكانه، تاركًا إدارة القاعة لأثناسيوس، هذا الــذي استدعــى الأب أنطونيوس المعتزل المتوحد في ديــره بجبل القلزم، فنهض من مكانه وجلس حيث كان ألكسندروس على كرسيه الكبير قائلاً:

– باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين. هكذا تعلمنا وهكذا نحافظ على إيماننا.

ثم أشار لأثناسيوس بأن يمر على الآباء المقدسين باللائحة التي نوقشت بنودهــا في جلسات سابقة كي يضعوا أختامهم عليها، فما كان من الأساقفة والقساوســة الميليتيوسيين إلا أن رفضــوا التوقيع، وخرجوا من الكنيسة، فأقرها الآخرون مطالبين بحرمانهم، فطلب أنطونيوس من أثناسيوس أن يبلغ الأب ألكسندروس برغبة المجمع في حضوره وتوقيعه على اللائحة، وحين حضر سألهم من جديد عن إقرارهم بما فيها، فوافقوا ووضع توقيعه عليهــا، هنالك طالبوه بحرمــان أريوس لأنه خارج علــى تعاليم الكنيسة ورافضــ للائحة الإيمان التي أقرها الجميــع. فوافق ووضع توقيعه على وثيقة الخلع والحرمان، وكان ذلك يعني ضمنيًّا طرده من الإسكندرية.

-١٣-

رسائل أوريجانوس (٨)

سيدي وصديقي ديونسيوس، لا أطيل عليك، فهذه رسالتي الثامنة، أرجو أن يكون ما سبقها قد وصلك، فقد أخبرني الصديق الذي يتحمل مشقة إرسالها أنك استطعت الفرار من الجند، وأنك منذ مدة تقيم خارج الإسكندرية، ربما في صحراء القلمون أو الإسقيط، كم هي مشقة كبيرة الخروج من المدن إلى الفيافي والجبال، وكم أصلي من أجلك ألا تسقط في المشقة الأكبر، حيث الجنود المنتشون بقوتهم، الساخرون من ضعف وهزال غيرهم، غير المؤمنين بفكرتك ولا قيمتك ولا جهدك من أجل إضافة سطر أو كلمة لما يعرفه البشر، لقد قضيت حياتي بين هاتين المشقتين، فلم تكد الدنيا تبتسم لي بمعرفة الناس أن قائد حامية الإمبراطورة مامسيا وضع صندوقًا من المجوهرات بين يدي، حتى تكدرت وأظلمت وتغيرت أحوالها، فقد تكاثر الخطاب على باب بيتنا لخطبة سارة التي لم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها، وأنجبتت زوجة أخي دانيال توأمين، وأخذت تلح عليه في أن يحصل على شيء من هبة الإمبراطورة لأختي، كنت مقتنعًا أن المجوهرات كانت نوعًا من المكافأة لي، وأن الإمبراطورة جعلت قائد حرسها يقول إنها هدية لسارة كي لا تشعرني بالحرج، كان الكل يوقن في قرارة نفسه بذلك، بدءًا من الخاطبين الذين تفننوا في لفت انتباهها إليهم، وصولاً إلى دانيال وزوجته وحتى إخوتي الأصغر.

كانت مناسبة إنجاب التوأمين هي الأفضل لطلب المساعدة، قال دانيال إنه يرغب في شراء مركب والنزول به إلى البحر، عسى أن يكون فاتحة خير وتوسعة رزق، وقالت زوجته إن والدها تقاعد ولم يأخذ شيئًا من عمله، وأنه لا بد أن يتعلما من خبرته ودرسه أيضًا، خاصة وأن حملهما

أصبح ثقيــلاً، ولديهما بدلاً من الفم الواحد اثنــين، هززت رأسي متوافقًا مع حديثهما، ونظرت إلى أختي طالبًا منها أن تجيئنا بالصندوق، فقسمت ما به بــين الجميع، فأعطيته جزءًا، وأعلنت أن جــزءًا آخر يخص سارة وزواجهــا، ومــا تبقى فهو للأطفــال الذين تركهما أبــي وأمي معلقين في عنقي.

شعــرت أن سارة أصيبت بخيبة أمل من فعلــي، وأنها في الأيام التالية لم تعــد تتحدث معي، بينما دانيال وزوجته يطيران من الفرح، بعد وقت اكتشفت أن سارة تعرفت على شاب في العشرين من عمره، وأنها تهيم به عشقًا، كان حماس دانيال وزوجته كبيرًا للرفض، فضغطا بكل ما يملكان بوصفهمــا أولياء الأمر، وكان ذلك بالنسبــة لي محزنًا ومقيتًا، حتى أنني شعرت بكم أنا ساذج في نظرهما، فقررت الموافقة عليه استجابة لرغبتها، ونكاية في تصورهما عني، أسرعت بإتمام الزواج منه، وفي مشهد مهيب وجليل قمت بتسليمها مجوهراتها أمام الناس.

بعدهــا كلفنــي ديميتريوس بالذهــاب إلى كنيســة كورنثوس في إقليم أخائيــة باليونان لشــرح بعض الأمور لأساقفتها هنــاك، فظللت نحو ستة أشهــر أمارس عملي بوصفي مندوبًا للبابا ديمتريوس، أفصل في نزاعات وأعيــد شرح نقاط خلافية في الأناجيل، فلمــا انتهيت من عملي عدت إلى الإسكندرية لأعلــم أن الشرور لا تتوقف عن ملاحقة الإنسان أينما كان، فقــد أخبرتنــي سارة أن حقيقــة زوجها على خلاف ما يظهــر، فقد سرق مجوهراتها وفر من البيت، هدهدت عليها وأجلستها برفقتي إلى أن يعود، ومضى زمن قبل أن نعرف طريقًا له، كان ذلك حين ألقت الشرطة القبض علــى دانيال الذي أحــال مركبه الجديد إلى ماخــور دون علم السلطات، وكان زوج ســارة من بين من قبض عليهــم الجنود في المركب، لنكتشف أن زوجــة دانيــال كانت المدبر لأمر الزواج مــن البدء، وأن مجوهرات ســارة لم تسرق، لكنهــا وزوجها دخلا بها في صفقة مــع دانيال، فخسرا كل شيء، وهرب هو من وجه الشرطة التي أخذت في البحث عنه، حتى وجدته ضمن من كانوا على مركب دانيال.

حين أرسلت الشرطة لتسألني في شأنهما، لم أستطع إنكارهما ولا الغفران لهما، لكنني علمت بكل ما فعلاه من أمور سيئة وتجارات رخيصة، علمت أن الجميع مذنب في حق بعضه بعضًا، بمن فيهم أنا الذي ارتضيت للغرور والعناد أن يتمكَّنا منِّي، ولم أختر زوجًا مناسبًا لأختي، في ذلك اليوم جلسا يطلبان مني التوسط لأجلهما لدى الحاكم، فذهبت وأنا أجر أذيال العار إلى الرجل الذي كللني بالفخر منذ سنوات حين زارني برفقة البابا وقائد حامية الإمبراطورة مامسيا، ورغم تعاسة الموقف إلا أن الرجل لم يخذلني في شيء، حتى طلبي المباشر بمصادرة المركب وما وجده الجنود عليه من أموال وذهب، ففعل وهو حزين لأجلي.

كنت حزينًا ومستاءً من إخوتي وما جلبوه لي ولأنفسهم من شرور، وكانت الإسكندرية بكل جمالها قد تكورت على نفسها في عيني حتى أصبحت بمثابة نقطة مظلمة سوداء، فطلبت من ديمتريوس أن يسمح لي بالذهاب حاجًّا إلى أورشليم، حيث أريد أن ألتمس الغفران والصفح من الرب في أرضه المباركة، وكانت أخبار ما حدث قد وصلته، فلم يمانع ولم يجادلني كعادته، جهزت زادي وكتبي وبحثت عن حمَّار يوصلني إلى تل برما، ومنها اتخذت طريق حورس بمحاذاة البحر مع قافلة متجهة إلى أورشليم، حيث مررنا بتلال حبوة والحير والصيفي والبرج والكدوة ووصلنا إلى رينوكورورا، فنزلنا في خيمة حتى صباح اليوم التالي، ثم تزودنا بالماء والطعام من بعض أبناء المكان، وغيرنا ركائبنا وعدنا إلى الطريق في الصباح من جديد، لنكمل مسيرنا إلى أورشليم التي وصلناها بعد أربعة أيام من خروجي من الإسكندرية، لأجد أسقفها صديقي ألكسندر هناك، فأمضي معه فترة من الوقت حاجًّا قبل أن ألتقي بصديقنا ثيؤكتستوس أسقف فلسطين.

في ذلك الوقت لم تكن لدي رغبة في العودة إلى الإسكندرية، ولم يكن لي عمل في فلسطين، فلزمت بيتًا خصصه لي ثيؤكتستوس لا أخرج منه إلا برفقته، لكن خبر وجودي انتشر بين الناس، وجاءني من كانوا يترددون على مدرسة اللاهوت من قبل، حيث كنت أجلس للوعظ وشرح مبادئ الإيمان وبعض الشواهد من العهدين القديم والجديد، وذلك قبل أن يرسل

ديمتريوس في طلبي موبخًا صديقيَّ ألكسندر وثيؤكتستوس، فرفضت دون أن أخبر أحدًا بالسبب، وكلما زاد رفضي ازداد إصرارهم، وألحوا على صديقي في قبول الأمر، في النهاية قال لي ألكسندر أنني لا ينبغي أن أرفض الناس، فقد جاءوني مرة واثنتين، ولا بد أن أجيبهم لطلبهم، فأخبرته أنه لا ينبغي لي أن أجلس للوعظ، لأنني لست كاهنًا، حينها جلس صديقاي يضحكان، موضحان أن هذه أبسط الأمور، وأن أيًّا منهما بوصفه أسقفًا يمكنه أن يقوم بسيامتي في الغد، ولا يوجد ما يمنع ذلك.

حين علم الناس أنني سأجلس من جديد للوعظ في مدرسة أورشليم أوقدوا الشموع على المذابح للرب، وأخذوا يذهبون إلى الكنيسة كل يوم سائلين عن الموعد الذي سأكون جاهزًا فيه للوعظ، وبعد أن تمت كل الطقوس والمراسم جلست لأعظ في صحن الكنيسة نفسه، ولاقت مواعظي حضورًا قويًّا لدى الناس، بل إن الكنائس الأخرى أخذت ترسل في طلبي، فذهبت إلى صور وقيصرية وبيت لحم وأنطاكيا نفسها، تلك التي احتشدت من جديد لسماعي، فألقيت موعظة أمام ما يزيد عن عشرة آلاف مؤمن، وفي تدمر امتدت عظتي لنحو عشر ساعات أمام خمسة آلاف مؤمن.

نسيت في تلك الأيام ما جرى من دانيال وسارة، وفرحت بالسعي بين الكنائس ووجوه المؤمنين وأسئلة الحائرين، ووجدتني أناقش بجرأة وأتعلم بحرية، ووجدت بعض ما كنت أقوله صوابًا وبعضه خاطئًا، في هذه الآونة كنت أتحدث عن الروح والجسد، كانت فكرتي عن الروح القدس أنه موجود منذ الأزل، ومن ثم فالروح موجودة منذ الخليقة، ومن ثم فهي أسبق على الجسد، لذا فالمسيح الابن إله من قبل أن يتجسد في رحم العذراء، ليجيء على هيئة آدمي يمشي بين الناس.

لكن الحديث عن الروح أعادني للأسئلة عن المسيح ذاته، وكان الأساقفة في أنطاكيا يتحدثون عن وجود لله مستقل عن وجود الابن، حيث الله في السماوات والابن في الأرض، لم يكونوا مشغولين بالروح، ولا حضورها، فقط كانوا يتحدثون عن ثنائية الاب والابن، وحاولت أن أفسر الأمر بالحديث عن إيزيس وأوزيريس وحوريس، عن الشمس

والشعاع والضوء، لكنهم ما كانوا مؤمنين بثلاثية تربط السماء بالأرض، السماء لديهم منفصلة، وما بينهما ليس جزءًا منهما، فثمة من يقوم بالتبصر والتكهن، من يعرف بخبر السماء وينقله إلى أهل أرض، هو ليس سماويًّا لكن لديه القدرة على سماع صوت السماء.

عشرات الأسئلة بدأت تمور في ذهني، صرت أسمع من المحيطين بي أكثر مما أكلمهم، ووجدتني في حاجة للعودة إلى كتب الأفلاطونيين وآرائهم، في حاجة إلى التبحر فيما تركه أرسطو واستدلاله المنطقي، وجدتني في حاجة إلى مزيد من العلم، فلم أنشغل بالعودة إلى الإسكندرية، ويبدو أن غيابي طال وأقلق ديمتريوس، فأرسل من يتتبع أخباري قبل أن يطلب عودتي، حينها علم أنني أعظ في الكنيسة، فأرسل غاضبًا وموبخًا لثؤكتستوس، إذ لا يجوز أن يقوم رجل بالوعظ في حضور الأساقفة وهو ليس كاهنًا، فأجابه ثؤكتستوس بأنه ليس هناك ما يبرر كل هذا الغضب، لأن صديقنا ألكسندر قام بسيامة أوريجانوس كاهنًا، وهو الآن يباشر المهمة التي أرسله الرب من أجلها.

-١٤-

فر أنطونيوس ولم يستطيعوا اللحاق به، لكنهم ألقوا القبض عليَّ، قال الرهبان المكلفون بحراسة البوابة أنهم رأوني أسير مع راهب طويل يضع غطاء على رأسه، لكنهم لم يبصروه، ولم يتوقعوا أن يكون أنطونيوس، بينما قال الراهب الذي ضُرب أمام قلاية باخوميوس أن شبحًا طويلا ذا يد ثقيلة كمطرقة هو الذي ضربه، حين أبلغ مينا المسئول عن أمن الدير الأب المنحني بما حدث وقف الأخير متحيرًا، ليس من عودة أنطونيوس إلى الحياة، ولكن من قدرته على المرور من بين الجميع دون أن يراه أحد، نظر بغضب لمينا وكأنه يتمنى أن يلقي به من فوق الجبل، ودون أن ينطق بكلمة واحدة ذهب إلى قلاية يوساب قائلاً:

- أنطونيوس هرب، ولا بد من ملاحقته.

ظهر يوساب في أرض الدير وبرفقته أربعة من الرهبان طويلي القامة، في يد كل منهم عصوان صغيرتان متصلتان بسلسلة من الحديد، وقفوا تحت الضوء الشاحب للقمر أمام الظلال المتعرجة بجانب قلاية باخوميوس، كان يوساب يخاطبهم بصوت هامس، وهم شاخصون كتماثيل نحاسية، وسرعان ما سلم كل واحد منهم شيئًا يشبه الصليب، فدسوه في ملابسهم ودخلوا القلاية ليغيبوا في ظلامها كما فعل أنطونيوس.

كانت فكرة يوساب أن أسرع الطرق لملاحقة أنطونيوس الطريق هي التي اتخذها لنفسه، فترك مينا يرسل رجاله من بوابة الدير والمدرج الرخامي الذي إلى أسفل الهضبة، حيث تقع على يمينه الأرض المنزرعة بالزيتون والخضراوات والنخيل، وعلى يساره تنام المقابر التي تشتمل على عظام الرهبان والقديسين الذين أقاموا في الدير على مدار قرون طويلة، عظام لها جلالها وتاريخها في تلك الجبانات التي أعيد ترميمها مرات ومرات،

وأقيمت لها بوابات وعين عليها حرس وخدام، وخلفها تنام ماكينات الطباعة الحديثة التي تبرع بها أحد المؤمنين الأثرياء، لينتقل عمال الطباعة من صف الحروف إلى الكمبيوتر والمونتاج وألواح الزنك.

حين نزل أنطونيوس بحبله الليف وجد نفسه بين المقابر التي كثيرًا ما جلس بين أشجارها آن عمله في المطبعة، لم يكن يعرف إلى أين يذهب، في البدء فكر في أن يحضر سلاحه من حيث دفنه منذ عشرين عامًا، لكن ما إن بدأت خطاه تسير في هذا الطريق حتى ظهر كلب السماء، رفع في وجهه صليب باخوميوس وقرأ آيات الحماية من الشرير، لكن غضبه لم يتوقف، فأخذ الرعب يجتاح أنطونيوس من أنيابه البارزة وعينه التي تقدح بالشرر، ولم يجد سوى أن يهرب من أمامه، فوجد سورًا قفز من عليه، ووجد نافذة ألقى بنفسه منها فإذا به بين مخلفات الورق المتراكم في حجرة أمام المطبعة، كان المكان مغلقًا والظلام دامسًا ولا أحد سوى البدوي الموكل بالحراسة ويغط في نوم عظيم، حين استقر بين الورق شعر أن لهاث الكلب قد هدأ في أذنيه، فلم يفكر في الهروب واستسلم للدف الذي اجتاحه فغفا في مكانه.

في نومه رأى باخوميوس وإيمانويل يسيران في نفس المقابر التي كان يجلس بين أشجارها، كانت أرضها خضراء كسجادة فرشت لهما خصيصًا، بدا كما لو أن وجهيهما يضيئان في الظلام، كان ينام كما اعتاد أسفل شجرة الكافور بجانب المطبعة، فجلسا يتحدثان بجانبه دون أن يرغبا في إيقاظه، قال أحدهما إنه في أمان، وقال الآخر: لا بد أنه أحبها. ونظرا نحو السماء حيث النجمات القليلة التي أخذت في الظهور، كتم أنطونيوس أنفاسه ليكملا ما بدآه، لكنهما شعرا أن ثمة من يتحرك خلف الأشجار من بعيد، فلزما الصمت في مكانهما، بعد وقت شعر أنطونيوس أن الأطياف رحلت، ولا يعرف لم لم يكمل صديقاه حديثهما، رفع عينيه ليرى ما الذي ألزمهما الصمت، لدهشته كانت دميانة بجانبه، دميانة بعينها الجميلة وشعرها الأسود الطويل وقد تخلت عن وقارها، ارتدت ثيابًا خفيفة أبرزت جمالها أكثر مما يعرف، كانت صفحة صدرها واسعة وكبيرة وبيضاء، بينما نهداها ينحدران بقوة نحو شيء في الأعماق، صانعين واد ناعم وسحيق وبلا نهاية، سعى للوصول إلى النهايات لكن عينه لم تستطع

الوصــول لأكثر من ذلك، رغــم تمددهما أمامه كقطــين بريين في حديقة لا يسترهــا سوى غلالةٍ من بخار، حــين رأت ظمأه وجهده وضعت يدها على يده، ورفعتها قليلاً لتضعها على النهد الطري، كان طريًا كأنه قطعة مــن القطن الأبيض، وكبيرًا ككرة من الماء الدافئ، الماء الذي أخذ ينساب متدفقًا على فخذيه.

انتفض أنطونيوس من حلمه مبلل الثياب، موقنًا أن الشيطان يحاصره مــن كل جانب، لكنه حمــد الله أنه لم يكن في الديــر، ونفض الورق عن وجهــه وهو يسمع صوت المطبعة يغلق من جديد، بينما الحارس يعود إلى غرفتــه لينام، فــأدرك أن رهبان يوساب في الخــارج يبحثون عنه، ظل كامنًا في مكانه حتى أيقن أن الحارس غط في نومه، ومن حيث أتى خرج متسلقًــا السور ليجد نفسه في الصحراء، وكما لــو أن كلب السماء يطارده أطلــق العنان لقدميه من جديــد، كان رهبان يوساب قــد داروا في جولة طويلــة حول الدير والمطبعــة والأرض المنزرعة مفتشــين عنه، ولم يكن أمامهــم غير أن يعــودوا ليؤكــدوا لسيدهم أنهم يطــاردون شبحًا لا يمكن رؤيته، لكن قبل العودة كان لا بد أن يتأكدوا من جديد أن المطبعة خالية، ففتح لهم الحارس وهو يلعن اليوم الذي سمع فيه اسم أنطونيوس، فأمروه أن يظل مستيقظًا ولا يفتح لأحد، فوافقهم وعاد يكمل غطيطه.

كان الوقــت قــد أوشك علــى خروج النهــار من رحم الظلمــة، فأخذ أنطونيوســ يهــرول حتى كلت قدمــاه، ورأى ضوء سيــارة قادمة على الطريــق، ففكــر أن يعود إلى دور قاطــع الطريق، لكنــه انتبه إلى لحيته الطويلــة وثيابه الســوداء وصليب باخوميوس الكبير الــذي يتأرجح على صــدره، فاعتدل في مكانه ورفع يده ملوحًــا للسائق أن يتوقف، ولم يكن لسائق أن يفكر في مخالفة رجل دين، فوقف أمامه بإجلال:

– خذني في طريقك.

هكــذا قــال أنطونيوس، ثم صعــد في السيارة التي شــاءت الأقدار أن تركبها دميانة من قبل.

حــين عاد الرهبــان بفشلهم في العثــور على أنطونيوس قــرر يوساب أن يجــري تحقيقًا سريعًا مــع رجاله عمن شاهــدوه في الدير قبل اكتشاف

الحــادث، فأخــبروه بأسماء أناســ كثيرين كنت من بينهــم، وما إن علم أننـــي كنت خارج فراشـــي في ذلك الوقت حتى برقت عينــاه، ولم يرسل في إحضــاري، لكنه هو الذي حضر وهــم برفقته، وقف في المكتبة يجول بنظــره في المكان ككل، حتى توقف أمام الدولابين الذين طبقتهما كي ينام بينهما أنطونيوس، ثم ثبت عينيه على وجهي قائلاً:

– من كان هنا؟

شعــرت أن أمــري قــد اكتشــف، وأنني آجــلاً أو عاجــلاً سأتهم بقتل باخوميوســ، إلا أنني رفضــت فكرة الركوع على قدمــي والاعتذار أو طلب العفو، فهززت رأسي قائلاً بتعجب:

– أنا.

زم شفتيه كمن يقبل الهواء، وهز رأسه رافعًا حاجبيه:

– أين ذهبت حين مررت بالبوابة؟

هززت رأسي وأنا أعترف:

– كنت في طريقي للأب جورج.

ثم أخبرته بالمهمة التي كلفني بها رئيس الدير، وأحضرت له الصندوق الخشبي الصغير كنوع من التأكيد على حديثي، فوضعه تحت إبطه وطلب منـــي أن أتبعه، أغلقت باب المكتبة وتحركــت بصحبة رهبانه، كان يمشي أمامـــي بخطوات واسعة وقويــة دون أن يعطيني فرصــة للحديث، بينما الرهبان يمشون خلفي كما لو أنهم جدار يحيط بي.

عبرنا بوابة الدير، ونزلنا من على الدرج الرخامي الطويل إلى الأرض الواسعــة أسفل الهضبة، كانت هواجسي تزداد كلما نزلنا إلى الأسفل بأنهم قبضوا على أنطونيوس ويريدوننـــي أن أعترف عليه، وللحظات شككت أن يوســاب مــن الممكن أن يكون مــلاكًا طيبًا وليس كمــا أتخيل، فصليت في سري للعــذراء أن يكون عند حسن ظني، لكنني كلما تلكأت في سيري وجــدت أيدي الرهبان تدفعنـــي للحاق به، فأدركــت أن العذراء غائبة، وأنــه لا يمكنه أن يكون ملاكًا ولو ليوم واحد، وما إن وصلنا إلى حظائر

الماشيــة حتى تأكــد لي أنني ميت لا محالة، فتشبثت قدمــاي بالأرض وأنا أحاول الصراخ، لكن قبضة قوية نزلت على رأسي أخرستني، ولم أستعد رشدي إلا في الصباح، حيث وجدتني في مخزن السماد.

– هل دميانة تحب أنطونيوس يا ملاك؟

هكــذا سألني يوساب بعد حفلة الضــرب والإهانة والتجويع والعطش، ففــي الصباح نزل رجالــه واستجوبوني عن أنطونيوســ وأين ذهب، ثم تركــوني ولم يعــودوا إلا في المســاء، ليكرروا ما فعلوه لمــدة ساعتين، ثم تركــوني كخرقة بين الحياة والمــوت، دون كسرة خبز واحــدة أو شربة مــاء، وفي الليــل جاءوا وحملــوني إلى كنيسة الملاح المغلقــة، ووضعوني أمامهــم على الأرض وهم واقفون في حلقــة من حولي أمام الهيكل، كان الدفــتر الأزرق في يد يوساب الجالســ خلفهم، ولم أعرف بمَ أجيب، فلا بد أنهم فتشوا المكتبة وحصلوا على كل شيء، حتى أنهم قرأوا دفتر دميانة وسخروا من مشاعرها.

– لا أعرف.

هكذا قلت بعد تفكير وبيأس واضح، لكن يوساب الذي نهض من مكانه وتقدم مخترقًا حلقة الرهبان طوال القامة، ضربني بالدفتر على رأسي:

– وهذا؟

ألمتنــي الضربة، وشعرت بالغضب يســري في عروقي، وكدت أقدم علــى فعــل أندم عليــه، لكنني لا أعرف كيــف تمالكــت أعصابي وكتمت غيظي، فنظرت إليه بعين يتطاير منها الشرر دون أن أفتح فمي.

– ماذا لو ألقينا بك الآن من فوق الجبل.. هل سيسأل عنك أحد؟

هكــذا سألني بهدوء شديــد، كان ينطق كل كلمة وكأنــه يتأمل حروفها علــى مهل وهــي خارجة من فمه، فنــزل الوهم على صــدري، وظللت ناظرًا تجاهه بعين تملؤها البلاهة وعدم الفهم، فضحك قائلاً:

– وأنـا أبحـث في أوراق المقيمين بالدير اكتشفت أنـك الوحيد الذي لا أوراق له، لا بطاقة شخصية ولا شهادة ميلاد.

أدركـت حينها أن يوساب ليس مجـرد كاهن في دير ناءٍ، لكنه شخص يتمتـع بالقـدرة علـى التفتيشـ في الأورق، وأن ما يعرفـه يفوق معرفة الكثيرين، وربما لا يكون وحده، فثمة آخرون يمدونه بما يريد، هززت رأسـي موقنًـا أنه يستطيع أن ينفـذ تهديده، لكن قلبي لأمـر ما كان يشعر في تلـك اللحظـة بالثقة، وأنه لن يقدم على جريمـة قتل جديدة في غضون أيام، لزمـت الصمت متمنيًا لو أن اللبؤة تخرج مـن قبوها لتقضي عليه، يمكننـي القـول أنني ابتهلت للمسيـح كي يظهر معجزاتـه الآن، وبدا من صمت يوساب وشـروده المفاجئ أنه يصلي لأمر ما، ربما لأن أخبره بما يريد معرفته عن دميانة وأنطونيوس، لكن فيما يبدو أن صلاتي وصلاته لم تكونا كما تريـد السماء منا، فقطع صمتنا صوت طرق هادئ على باب الكنيسة، وحين التفت يوساب ظهر راهب أبدى احترامًا كبيرًا وهو يقول لـه إن رئيس الدير يريـده. فندت عني ابتسامة فـرح، لكنني سرعان ما قطعتهـا حين أشـار يوساب لرجالـه أن يتركوني الليلة في جحـر اللبؤة، فأدركت أن السماء فهمت دعائي خطأ.

-١٥-

في ديـر العـذراء استعـادت دميانـة بعضًـا مـن عافيتهـا وشعورها بالطمأنينة، فقد خرجت من بين النيران كما لو أن آلاف الشياطين مستها، لكـن الذين وصلـوا إليها أولاً وجدوهـا تردد اسمًا واحـدًا كتعويذة لطرد الأرواح الشريرة:

- أنطونيوس.. أنطونيوس..

كانـت النيران تحيط بها مـن جوانب عديـدة، ولا يفصلها عنها سوى متريـن أو ثلاثة، فقبضت في يد علـى عصاتين متقاطعتين كصليب كبير، وفي الأخـرى على قطعة من الحطب المشتعل على هيئة شمعة تضيء لها، وكلمـا حولت الرياح وجه النار نحوها رفعـت يديها في مواجهتها مرددة اسم أنطونيوس، بدا للرجال الذين صعدوا على الأسطح باحثين عنها أنها فقـدت عقلها، فلفوها في بطانية وحملوها من بين ألسنة النار إلى الشارع، وهناك جاءهم العمـدة ومأمور المركز وعربة إسعـاف وسيارة شرطة، وانطلـق الجميع مـن القرية إلى أسيوط، حيث تلقـت علاجًا في مستشفاها العام. لكن السؤال الذي ظل يطرح نفسه لدى المأمور والعمدة هو:

- من تكون؟

كانـت مواقـع التواصـل الاجتماعي قـد جعلت مـن دميانـة والقرية الصغيرة حكاية أخطأتها حكايات ألف ليلة، وتذكر الأقباط الحوادث التي مرت بهم، منـذ رياض أفندي غالي في عصر الملك فاروق حتى حوادث الزاويـة الحمـراء والكشح وماسبـيرو، وظلت هذه المواقـع تتحدث عما فعلـه السلفيون مع الفتاة القبطيـة دون أن يكون للفتاة صورة واحدة، فقد اصطحبها العمدة والمأمـور وقيادات الشرطة إلى المستشفى العام، وهناك أمـروا بحراسة مشددة عليها، وظل الجميع يتعامل مع الأمر على أنه من

الأسـرار العليا للدولة، حتى وجد المأمـور نفسه مضطرًا لنشر صورة لها علـى أمل أن يتعرف عليها أي من أقاربها. حدث ذلك بعدما فشلت النيابة في الحصـول منها على معلومة مفيدة، فقد ظلت تـردد أسماء أنطونيوس ويوسـاب وملاك وتريـزا وغيرهم، دون جملة واضحـة، ومن ثم أمر وكيل النيابة بنشر صورتها، فعرضـت صورتها ضمن قوائم المفقودين، وتبـارى كثيرون في الإدلاء بمعلومـات متضاربة، مما جعلهم في النهاية يحجمون عن إعادة نشرها.

أصبحـت أسماء وزوجها مـن بين المشاهير، فقد تعامـل معهما مقدمو البرامـج على أنهما جزء من الحدث، فأسرار اللحظات الأولى والأخيرة معهمـا فقط، ومن ثـم أخذا يتنقلان مـن قناة لأخرى كـي يحكيا تفاصيل الملبس والمأكل والنوم والأحلام، وتعايشا مع اسم "أنجيل" الذي منحته لها أسمـاء، في البدء كانا يتحدثان بتحفظ لكن مع الشهرة والمال أعملا الخيال في ذكـر تفاصيل لم تحدث، وأسـرار لا علاقة لهـا بالواقع، وأحضرت إحـدى القنـوات رسامًا جلس على الهـواء مباشرة أمـام أسماء وزوجها ليرسـم ملامح الفتاة التي أحدثـت فتنة الصعيد، هـذه اللوحة التي راجت في وسائـل الإعلام بوصفها الوثيقة المعتمدة من قبل شهود العيان، ورأت الشرطة أن ذلك أفضل لقتل القضية برمتها.

ظلت دميانة في هذياناتها ومخاوفها حتى أيقن الجميع أنها في حاجة إلى طبيب نفسي، وبعد عدة زيارات من الطبيب قررت النيابة حفظ القضية، ولم يجد المأمور كي يخلي سبيله سوى أن يسلمها لدير الراهبات، فجهزت لهـا رئيسة الديـر الأم مريانا غرفة في مبنى الضيافـة، ووقفت بنفسها في استقبـال الضابط المكلف بنقلهـا للدير، والذي أكد ضـرورة ألا يعلم أحد بوجودها لديهم.

عاشـت دميانة في عالمها الخاص، فمنـذ هاجمها الرهبان ليلة خروجها مـن دير المـلاح وقد انفتحت لها نافـذة تنقلها لعالم غير الـذي تعيش فيه، حيـث يمكنها أن تـرى أنطونيوس ومـلاك وتريزا ومدرسـة الراهبات وروب المحاماة ووالدها الشيوعي القديم صلاح متري، وحيث كانت في

أيــام الدراسة تنتظر أعياد القيامة وشم النسيم والخروج للفسحة في النيل، فجلســت في نافــذة غرفتها بمبنــى الضيافــة تتشمم روائح الربيــع وتتأمل الزهور التي تتفتح، متذكرة أيــام طفولتها وعلاقتها الدائمة بالربيع الذي لا يخلــف موعده، وكلمــا رأت وجوهًا لا تعرفها كانــت توغل في نافذتها نحــو من تحبهــم، فتناجيهم تارة وتحذرهــم أخرى، هكذا فعلــت ليلة أن حاصــر السلفيون بيت رضا وأسماء، فوقفت بين النيران وقد تلألأت كل الألــوان في عينيها، كانــت تضحك وتبكي وهي تــرى أنطونيوس يمشي بتؤدة نحوها.

رأت أنطونيوس يمشي بين عدد من الرهبان كما لو أنه رئيس الملائكة، وحــين وقف أمامها أخذ يعرفها بأسمائهم، لكن لم يعلق في ذهنها غير اسم أوريجانوس، كان ملاكًا متأنقًا بوجه طفولي باسم، وأجنحته التي لا تغطي كامــل جســده، بدا لها كطفل وديع فقــده أهله في ساحــة القديسين، شعره الفاحــم كان ينز بالدهن والزيــت المقدس، رغبــت في معانقته والطيران معه، لكــنْ غربان سود ظهــرت في تلك اللحظة، ظهــر الشرير برجاله وأعوانــه وأخذوا يلفونها في قماط طويــل من الكتان، كل شيء تحول في عينيهــا من النور إلى الظلام، فراحت تصرخ، وكلما ترددت الأصوات العالية الغريبــة في أذنها كانت ترتجف وتصرخ، ظلت تصرخ وترتجف حتى فتحت لها المهدئــات النافذة على اتساعها، فرأت العالم ملائكة تتنزل من البياض، فراحت تناديهم بأسمائهم:

– أوريجانوس... أوريجانوس.

كلمــا اختفــى واحد وظهــر آخر كانــت تــراه أوريجانوســ، فتتأمله وتناديــه، وكلما جاءها سألته عــن أنطونيوس، ذلك الــذي يجلس وحده متطلعًــا للصحــراء والنجوم، دون أن يفكر في حبيبتــه. أنا هنا يا حبيبي، هنــا يــا أنطونيوس، أنتظر وحــدي، أنتظر وأبكــي، في كل لحظة تتأخر فيها عنــي، فإنني أنتظر وأبكي، أقطع الفيافي بحثًــا عنك، وأنت لا تنظر نحوي، فلمَ هجرتني يا حبيبي، وتركت الأبواب ترتد في وجهي.

-١٦-

رسائل أوريجانوس (٩)

مـا كان لديمتريوسـ أن يقبل فكرة الخـروج عليـه أو الانتقاص من صلاحياتـه، فقد كان مشغولاً ببسط نفوذه حتى علـى روما نفسها، ومن ثـم فقد رأى أن سيامة كاهن من أبناء كنيسته على يد أسقف آخر هو اعتداء مباشر على سلطاته ونفوذه، فأرسل شماسيه إلى مختلف الأساقفة والكهنة بالإسكندرية والمدن الخمسـ وجنوب البلاد وشرقها عاقدًا مجمعًا مقدسًا. حين جلسوا أمامه أخذ يشرح عدالة قضيته، قال إن أسقف قيصرية ارتكب جرمًا حين قام بسيامة شخص ليس تابعًا لأبرشيته، وزاد من الجرم أنه لم يستأذن أسقفية هذا الكاهن، ولو أنه فعلها لأدرك أن أوريجانوس لا تجوز سيامتـه. ثم فضح مـا اعتبرته سرًّا بيننا، قال إنني قمـت بإخصاء نفسي، وحتـى الآن لا يوجد مـن يمكنه أن يقول بسيامة من قـام بإخصاء نفسه، فلا بـد أن يكون خادم الرب والمتحدث باسمه سليمًا معافى من كل شيء، لا ينقصه العقل ولا تنقصه الخصوبة ولا القدرة على مجاهدة النفس، فهذا ضعف لا يستحق أن نكرمـه بالوقوف أمام يدي الرب كي يتحدث باسمه طالبًا المغفرة للناس.

كان أكثر من نصف الحاضريـن في المجمع المقدس تربطني بهم علاقة صداقـة وود، وعـدد كبـير مـن القساوسة كانـوا تلاميـذ لي في مدرسة اللاهـوت قبل أن تتـم سيامتهم، وهم الآن تحت وطـأة المفاجأة، فالرجل الذي علمهم مبادئ الدين وشروحـات الكتاب المقدس لم يكن قسًّا، بل إنه كان ناقص الرجولة والأهلية للوعـظ باسم المسيح، بعضهم تعاطف معي بوصفي ضحية لقوانين كنسيـة صارمة، وبعضهم حاول أن يقطع المسافة بشكل عملي، فلا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، فطالبوا بمقترحات

ديمتريوس في الأمر، ونظر الأخير إليهم متأملاً وجوههم وهو يقول إنني لا أستحـق التعاطـف من قبل أحد، لأنني مخادع مضـل، فقد أخفيت عن أسقـف قيصرية إخصائي لنفسـي، ولو كنت أعلنت له ذلـك ربما لما أقدم على هذه الفعلة التي يهتـز لها عرش الكنيسة في ملكوت الرب السماوي، ولـذا فلا بد أن يكون العقاب شاملاً، بإلغـاء سيامته، ثم الاعتذار من قبل أسقف قيصرية وتبرير اعتذاره بعدم معرفته، ثم حرق أوريجانوس لأنه أخطأ للمرة الثانية في حق الكنيسة، ففي الأولى جلس ليعظ وهو علماني في حضور أساقفـة فلسطين وبيت لحم، وفي الثانية أخفى عن أسقف قيصرية نقصانه البدني وقبـل بترسيمه كاهنًا، لذا فلا بد من حرمانه وحرقه كي لا يتجرأ غيره على اقتراف أخطاء جديدة في حق المسيح وإيماننا الصحيح.

وجـد الحاضرون أن مطالـب ديمتريوس مبالغ فيهـا، فليس هناك ما يستحـق كل هذا الغضب، والرب نفسه لن يسعـد بقتل إنسان خصى نفسه كـي لا يقع في الخطيئـة، حينها حاول بعض القساوسـة التخفيف من وقع الكلمات، وطالبـوا بالاقتصار فقط على عدم قبولي للتدريس بينهم، وإن كان حضوري الإسكندرية سيثير غضب ديمتريوس فإنهم مع عدم دخولي لها، لكنهم ليسوا مع رفض سيامتي، ولا مع قتلي أو تعذيبي أو حرماني، خاصـة أن المكانة التي بلغتها، والكتب التـي عكفت على إنجازها، ويتعلم منها الجميع المسيحيـة وأفكارها الصحيحة، لن تجعل هذا الأمر سهلاً، إلا أن ديمتريوسـ أصر على اتخاذ قـراره بحرماني وقتلـي، وهو ما جعل أعضاء المجمع يتناقشون معًـا، ساعين للوصول إلى نقطة وسط، وهو ما رفضـه القساوسة، معتبرين أن رئيس المجمع لا يريد الحكم باسم الرب، بقدر ما يريـد حكمه هو، وتخليص ثاراته هو، ومـن ثم رفضوا التنازل عن رأيهم، وقرر بعضهم الانسحاب، فنصح الأساقفة ديمتريوس بتأجيل انعقاد المجمع لوقت آخر، وهو ما استجاب له ديمتريوس.

كان تصعيـد الكرَّام مفاجئًا وسريعًا، وأصبح هذا الأمر الشغل الشاغل للكنائسـ الرئيسيـة في العالم، سواء في رومـا أو أنطاكيـا أو قيصرية أو فلسطـين أو طليطلة، أما أهـل الإسكندرية أنفسهم فقـد شعروا بالذهول، فالرجـل الذي وقفت الإسكندريـة منذ أعوام على قـدم واحدة كي تشاهد

البابا ونائب الإمبراطور وقائد حامية أنطاكيا يسيرون على أقدامهم تكريمًا لعلمه، يريد البابا الآن أن يحكم عليه بالقتل! كانت الصدمة قوية وكبيرة، وكنت في قرارة نفسي أرى أن صديقنا ديمتريوس العظيم يمزح، وربما سيفاجئ الجميع أن الأمر ليس أكثر من سورة غضب، وربما عما قليل سينسى الأمر برمته، ويتركه ليذوب في مياه البحر أو ينطمر في مستنقعات الدلتا، لكن الأمر لم يكن مجرد مزحة، كان إصرارًا بلغ إلى حد العناد، وكأن لعنة تطارد كلانا دون أن نعرف سببًا لها، فقد أسرع من جديد في عقد مجمع مقدس قصره على الأساقفة فقط، ووقف بينهم يقول إن طلبه بالخلع والحرمان الكنسي ليس لضغينة أو حسد كما يردد العامة، فليس هناك ما يجعلني أحمل ضغينة لأوريجانوس، لأنه كان بمثابة صديقي، وابني الذي لم أنجبه، وهو درة الإسكندرية في العلم بعد إكلمندس، لكننا حراس كلمة الرب، ولا يمكننا أن نقبل بالهرطقة في دين الله، لا يمكننا أن نقدِم على هدم تعاليم الرسل في الكنيسة، ونتبع أمورًا لم تحدث، فأوريجانوس نفسه قال إن تعاليم الرسل في الكنيسة هي من مبادئ الإيمان، والخروج عليها نوع من الهرطقة.

في هذه الآونة عدت إلى الإسكندرية متخفيًا لأنظر ما الذي ستنتهي إليه الأمور، لم أكن أريد لأحد أن يتهمني بالهرطقة أو الجبن والهروب، فقلت إن علي أن أواجه مصيري بقوة ووضوح، لكن ذلك لا ينبغي أن يكون عبر تثوير الجماهير، لا ينبغي أن أجمع الناس لأهدد أمن الكنيسة وآبائها، فقطعت الطريق في ثلاثة أيام لا أكاد أنام فيها. حين وصلت إلى بيتنا وجدت أخي دانيال مقيمًا في البيت مع سارة وبقية إخوتي، فقد خسر كل شيء في واحدة من مقامراته الخاسرة، ولم يجد أمامه سوى أن يجيء بزوجته وابنيه ليقيم في بيت أبينا، بينما خسرت سارة زوجها في حادث خارج الإسكندرية، جاءها الخبر وقامت بدفنه وباعت بيتها للعيش من ثمنه.

حين سمعت حديثهما وما جرى لهما لم أعرف هل أواسيهما أم أغضب منهما، فالتزمت الصمت ودخلت إلى غرفتي، كان "المبادئ" واحدًا من الكتب التي انتهيت من كتابتها دون أن أراجعها، فوددت لو أجلس لأنتهي

من مراجعته، لكنني لم أستطع، فكل ما تمكنت من عمله هو اختيار الكتب المهمة ووضعها في أجولة، تلك الكتب التي اقتنيتها على مدار أعوام من أساتذة كبار، ومن نساخ كنت أذهب إليهم خارج المدينة، كتب أخذتها من الميوزيوم ولم أعد متفرغًا لنسخها كما في الصبا، فنسختها لدى آخرين، ويعز عليَّ الآن أن أتركها دون أن أعرف مصيرها أو مصيري، كنت أضع كل كتاب وأنا أتأمل سطوره وفصوله وأتساءل عما يجري وما سيجري، وجمعت ما أريد مراجعته، وما أريد قراءته في تلك الأجولة وأرسلت بها إلى صديقي أمبروسيوس لتبقى أمانة عنده.

في الصباح فكرت أن أذهب للقاء ديمتريوس، وأن أعتذر عن كل شيء، لكن ما وصلني مما قاله عني جعلني أكره لقاءه، فذهبت لألتقي بأصدقاء من الكهنة الذين رفضوا التوقيع على وثيقته بإدانتي، أخبروني أنني لا بد أن أغيِّر مكاني، ولا يجب أن ألتقي ديمتريوس لأن الغضب يملأه، ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما ستنتهي إليه أفعاله، وقد ترك له نائب الإمبراطور حامية من الجند تأخذ أوامرها منه لحماية الكنيسة، ولا نظنه سيحسن التصرف حين يراك. هكذا قالوا بخوف وحزن وغضب، فطمأنتهم أنني سأفعل ما يرونه صائبًا، لكنني لن أقف لأدين ديمتريوس أو أفضح أوهامه، لأنه رغم كل ما يفعله هو البطريرك، وهو صاحب أياد بيضاء عليَّ، حتى وإن خان هذه الأيادي، فإنني لا أستطيع خيانته، ولا تجريده من ثوبه مهما حدث.

ظللت أيامًا معتكفًا في بيتي أراجع "المبادئ"، وشغلت به عن كل ما يجري في الخارج، حتى فوجئت أن ديمتريوس دعا الأساقفة فقط لمجلس مقدس، كنت موزعًا ما بين إنجاز ما أقدمت عليه وبين الغضب والخوف مما قد يحدث، لكنني في النهاية أصبت بعدم الرغبة في متابعة أي شيء، وتساوى لديَّ الموت مع الحياة، والخوف مع اللاخوف، فجلست للكتابة فقط، حتى انتهيت من المبادئ، بعدها فكرت في الخروج، لكن سارة رفضت، قالت إن البابا أرسل لنائب الإمبراطور كي يصدر قرارًا بطردك من المدينة، ولو خرجت وقبضوا عليك فإننا لن نراك.

يومها ملأ الغضب دمائي، وطلبت منها أن تعد لي شيئًا لآكله، وما إن

دخلت حتى خرجت إلى الشارع قاصدًا الكنيسة، كان الجميع يعلم بأمري، ووجدتهم يهتفون باسمي كما يهتفون بأسماء المصارعين، خفَّفت البهجة التي تلقيتها من آثار الغضب على وجهي، وارتدَّ إليَّ وقاري كرجل علم وواعظ للمؤمنين، وشعرت بالسلام يملأ قلبي، وأن ديمتريوس وأساقفته لا يمثلون شيئًا، شعرت أنني انتصرت ولا حاجة لأن أخوض حربًا لا طائل منها، فارتددت من شارع آخر إلى بيتي، لكنني ما إن دخلت البيت حتى وجدت الجند في أعقابي، قال رئيسهم معتذرًا أنه لا بد من القبض عليَّ، فلديه أوامر بذلك، كنت أعتقد أنه أحد الجنود المخصصين لحراسة الكنيسة، لكنني فوجئت به من حامية الحاكم نفسه، أيقنت أن الأمر قد انتهى، وأنه لا بد من الانصياع لأوامره، فقبَّلت سارة ووعدتها بأن كل شيء سيعود أفضل مما كان، وأوصيتها أن تنتبه لإخوتها الصغار، ثم استدرت خارجًا مع الجند من البيت والشارع والميدان والإسكندرية كلها، لأجد نفسي من جديد بعد خمسة أيام أبكي على صدر صديقي ثيؤكتستوس أسقف قيصرية.

-١٧-

كان إيمانويل الطيب حريصًا على أن تعود لدير الملاح سمعته، فقد مرت عليه سنوات لا يكاد يسمع به أحد، وربما تصور الكثيرون أنه أحد الأديرة المنقرضة، فمع انتهاء زمن الاضطهاد لم يعد يتجه للأديرة سوى الراغبين في حياة التقشف والزهد والتأمل، حتى أن الأديرة التي كانت تتراص بجوار بعضها على الجبال وفي بطون الصحراء أخذت تختفي شيئًا فشيئًا، بعضها طُمر كلية وأصبح أثرًا بعد عين، وبعضها اقتصر على عدد من الرهبان المعتكفين في الصوامع والقلالي للصلوات والتراتيل، كان الملاح أحد هذه الأديرة التي قل عدد المتجهين إليها، واتخذ نظامًا صارمًا في انضمام رهبان جدد إليه، كان لا يسمح بانضمام إلا من لديهم رغبة في المعرفة والعلم، حيث يمكنهم أن يكونوا جزءًا من مدرسة يتجة الناس إليها. ولعقود طويلة ظل آباء الدير حريصين على توفير الرقاع والرياش والأحبار والجلوس لنقل معارفهم وما حصلوه من علوم للرهبان الجدد، فاشتهر الدير بأنه دير الشرَّاح، وكثر الرهبان الوافدون إليه من مختلف الأديرة طالبين شرح ما استغلق عليهم فهمه فيما لديهم من كتب، موقنين أن الإجابة دائمًا هنا، في دير الملاح، لكن الأزمنة تغيرت، وفقد المكان وهجه وتألقه.

كان إيمانويل من بين الحالمين بعودة الدير إلى مكانته الشهيرة، فاهتم بتجديد المطبعة وتحديثها، وحين عرض عليه الكاتب ملاك أن يلقي نظرة على الكتب التي في مخزنه، حضر واستمع إلى حديثه الطويل عما في هذه الكتب من معارف وعلوم، وما في مخطوطاتها من وثائق وحكايات وتواريخ، ولم يرفض حين قال الكاتب إنه يرغب في إخراج الكتب والدفاتر من الصناديق ووضعها على أرفف، فطلب من الأب إستيفان تحويل المخزن إلى مكتبة كبيرة. وحين تولى رئاسة الدير فتح أفق الاتصال

بــين الدير والكنيسة الأم، حتى بــدا وكأنه تابع لها مباشرة، ولا علاقة له بأبرشية أسيوط، حيث أسقفها الــذي رفض الاعتراف بقداسة إيمانويل، معتبرًا رؤيته للمسيح خرافــة أطلقها لجذب الاهتمام، وخروجًا عن تبعية الديــر لــه، لكن إيمانويــل لم يقف مكتــوف اليدين، فقد دفع بــكل رهبانه المتميزين للحصول على درجات علمية من كلية اللاهوت، كان من بينهم يوســاب الذي كان مهتمًّا بالأفكار المختلــف عليها لدى أوريجانوس، لكنه لسبب ما لم يستطع الحصول على الدكتوراه، أما جورج المنحني فإنه أحد العلماء الذين لهم مؤلفات مترجمة للعديد من اللغات، إلا أنه دائم الاعتزال وتجنب الناس، مما جعل الدير يسقط في يد يوساب المسئول عن الأمن.

كان يوســاب قــد أمر رجاله بتركي أبيت في قبــو اللبؤة، وهو ما يعني السخرية مني ومن إيماني بالمعجزات، لكنني ظللت موقنًا أن ثمة معجزات تجري علــى الأرض، غير أننا لا نراها، وقد تكون هذه الليلة واحدة من الليالي الأهم في حياتي، فقد تظهر لي اللبوة بأشبالها، إلا أنني لا أعرف ما الذي سيحدث بعد ظهورها، هل ستأتي لتباركني وأصبح قديسًا يتبارك به أبناء الدير، أم أنها ستكشر عن أنيابها وتلتهمني كما التهمت أعداء الملاح. لا يحــدث دائمًا أن تكون المعجزات في صالــح المرء، وهو ما أخشاه، فلو ظهرت هرة وليس لبؤة فإنني سأموت في مكاني من الخوف، ولن يفرحني أنني مت في كنيسة الملاح أو غيره، ولا على يد لبؤته أو مخلب قط.

أخــذت الوساوس تنتابني مــن الموت، وفي سط الظلمــة التي طمرت عينــي بالســواد، لم أجد طريقة لطردهــا سوى التفكــير في تاريخ الدير، برقت الفكرة في عقلــي كمعجزة ظهرت في الظلمة للعيان، وجدتني أقسم الكتــاب إلى أبواب وفصول، وأقسم الصــراع لشخصيات وعهود، كان أوريجانوســ واضحًا في ذهني بقوة، حتى أنني تخيلته يجلس بجاني ليملي علــيَّ رسائله المفقودة لصديقه ديونسيوســ، بينما ثمة شخوص تصيح من حولي كي أكتبهــا، من بينهم رهبان معلقــون في السلاسل على جدران، معترفــين للمسيح بذنوبهم، سمعت منهم من يقول "إنني أوطيخا، أعترف أننــي أخطأت وأصابني الشطط، لكنني كنــت أسعى لخلاص البشرية من الفتن". بينما أريوس يتألم في جانب بعيد على الجدار قائلاً "ربي، أعترف

أننــي أخطــأت، فاسمــح لي أن ألقي بنفسي من فوق الجبــل، كي تنهشني الحيات".

علــت الأصوات في ذهني وتداخلــت، حتى أنني أصبــتُ بالصمم من كثرتهــا، ولم أعــد قادرًا على تمييــز الصواب من الخطــأ، وصارت كل الوجوه ملونة بالدماء، ضاربة رءوسها في الصخر رغبة في التوبة، كان أكثرهــم دهشة لي هــو "ميليتيوس"، ذلك الذي وقف حائــرًا لا يعرف ما الذي يمكن أن يقوله، بينما الرب يسأله:

– هل نقبل اعتراف المخطئين أم لا؟

يبــدو أن الرعــب كان يتملَّكني مــن الداخل والخارج، فقــد أصابتني الحمى وظللت أهذي طيلة الليل، حتى أن رهبان يوساب حين جاءوني في الصباح وجدوا حرارتي تزيد عن الأربعين، بينما العرق يغمرني من كل جانــب، وبدلاً من أن يكملوا مشروعهم في تعذيبي قاموا بنقلي إلى فراشي في المكتبــة، ووجدتهــم يضعون كمادات علــى وجهي، ويغلــون أعشابًا ويسقوننــي، ظللت علــى حالتي هذه ثلاثة أيام أو أكــثر، بعدها استدعاني يوساب وهو يبتسم قائلاً:

– لم أكن أتصور أن قلبك ضعيف إلى هذا الحد.

كنــت منهكًا إلى حد لا يمكنني معه النقاش أو الجدل، فشكرته وقررت الذهاب إلى فراشي، لكنه لاحقني:

– إذا أردت أن تخبرني بشيء فأنا في انتظارك.

هــززت رأسي بالموافقة ثم انسحبــت بهدوء من باب قلايته كما لو أنني طيف لا يــراه أحد. في مدخل المكتبة وجدت راهبين يريدان الدخول بحثًا عن أحد الكتب، فهززت رأسي وسمحت لهما بالدخول، تركتهما يبحثان عما يريدان وارتميت على فراشي أفكر في شأن كتابي عن الدير، تذكرت أن أنطونيوس طلب مني أن أكتب ما أعرفه، وها أنا الآن رغم أنني أتعافى من الحمى فإن صور الذين رأيتهم معلقين على جدار الصخور يصرخون

فيَّ أن أحررهم من خطاياهم، وسـرد ما جرى معهم، أجد الأصوات ما زالـت حية ونابضـة كما لو أننـي أسمعها بأذني، فابتسمـت مُزيحًا صور الرهبـان القدامى، منصتاً للراهبـين اللذين يبحثان في المكتبة عن مخطوط بريدانه، فسمعت أحدهما يقول للآخر إن المحققة دميانة وجدت مقتولة في أسيوط.

حـين سمعت باسم دميانـة انتابتني رعشة كما لو أننـي أصابني المس، ولوهلة تحولت أعضائي جميعًا إلى أذن كبيرة أمام أفواههم، لكن أيًّا منهما لم يقـل شيئًا، وكأنهمـا أصيبا بالخرس فجأة، وانشغـل كل منهما بالبحث في دولاب عـن كتاب غـير الذي جاءا من أجله، وددت لـو أنني أنتفض من مـكاني لأسال الراهب من أين علم بأمر دميانة، لكنني للحظة شعرت أن الأمـر مرتب من قبل يوسـاب، وأنه هو الذي دفع بهما ليلقيا بالمعلومة أمامي، فإذا اشتبكت معهما في الحديث فإنني معني بالأمر، أما إذا التزمت الصمت وكأنني لا أعرف دميانة ولا يعنيني شأنها فهذا أسوأ، لأن يوساب سيعتقـد أننـي شريك لأنطونيوس في هروبـه، فوجدتني متهمًـا في كلتا الحالتـين، ولم أعرف ما الـذي ينبغي عليَّ عمله، خاصـة وأن الراهبين أنهيا بحثهما فجأة وخرجا من المكتبة.

حينهـا طنت في رأسي جملة يوسـاب "إذا أردت أن تخبرني بشيء فأنا في انتظـارك"، فوجدتني أنهض من فراشي كمـن لدغته عقرب، لأقف بباب يوساب قائلاً:

– يقولون إن دميانة وجدت مقتولة في أسيوط.

-١٨-

أرسل رفائيل إلى ديمتريوس الصغير قائلاً إن والده رفض أن يدخل المسيحية، لكنه سمح بعماد شقيقه الأصغر، قال إن هذا التحول في موقف والده جاء بعد أن رأى ما وصل إليه رفائيل، فهو الصديق المقرب لأثناسيوس الذي يراه الجميع الرجل القوي في الكنيسة، ومن ثم يحظى بكل مهابة وتقدير، رغم أنه لم تتم رسامته كاهنًا، إلا أنه خلال سنوات قليلة أثبت للجميع أن رهان ألكسندروس عليه لم يخِب، رآه الأخير يلعب مع بعض أصدقائه لعبة العماد، ويمارس دور الكاهن في تعميدهم، فنال ذلك أعجابه، وطلب من أمه أن تبقيه في صحبته كي يتعلم على يديه، وبالفعل التحق بمدرسة اللاهوت، وتلقى منها مبادئ الإيمان، وتم رسمه شماسًا ضمن المجموعة المصاحبة لألكسندروس، وأظهر أثناسيوس محبة فائقة للعلم، فنهل قدر ما يستطيع من كتب الآباء والقديسين، وكانت أعمال أوريجانوس هي المهد الذي عكف عليه، ليفهم من خلالها علاقة الرب بالعالم، ثم التحق بدير القديس أنطونيوس في جبال القلزم، فصحبه مدة من الزمن، وحين عاد إلى الإسكندرية وجد أستاذه ألكسندروس يعاني ظهور الفتن، سواء الغنوصيين أو من فهموا بعض نصوص أوريجانوس خطأ، أو السابلة الذين قالوا بالأقنوم الواحد للرب، أو الميليتوسيين الذين رفضوا قبول المعترفين بخطأهم، وفي النهاية ظهر أريوس الذي تأثر بفكر الأفلوطينيين من جانب وفكر الأنطاكيين من جانب آخر، فراح يتحدث عن طبيعة المسيح، فاصلاً بين الآب والابن، وذاهبًا إلى أن الابن لم يكن موجودًا قبل أن يولد من العذراء، وأنه بنزول كلمة الرب وروحه القدس عليه ترقى إلى درجة الألوهية، وهو ما رآه أثناسيوس مغالطات تصل إلى حد الهرطقة، فجلس يتصدى لها بالشرح

والتفنيد، مدافعًا عن الإيمان الصحيح حسبما تلقاه من الأباء في الكنيسة، وما درج عليه قديسون وشهداء فقدوا أرواحهم في سبيل الحفاظ عليه.

كان ذلك بداية طريق أثناسيوس لرسالتيه "ضد الوثنيين" و"تجسيد الكلمة"، فقد رأى أن من انحرفوا عن تعاليم الكنيسة يتوهمون أن للشر كيانًا جوهريًّا، وأن ثمة إلهًا غير الإله الحقيقي ربنا يسوع المسيح، وأن هذا الإله هو الباعث للشر، ورأس كل الشرور، وأنه أيضًا بارئ الخليقة، وبذلك يكون لإله الشر القدرة على إخراج الخير من إله الخير، وهو ما يعني العدم، لأنه إذا تساوت القوى فإن الأسمى والأفضل لا يمكن إدراكه، وإذا كان إله الخير موجودًا على الرغم من إرادة إله الشر بالنقيض، فإن إله الشر يكون موجودًا على الرغم من إرادة إله الخير بالنقيض، وهو ما يعني فساد الإرادة وتحقق العدم.

كانت الرسالتان مكتوبتان بأسلوب سهل ومنطق واضح، وكانت فصولهما قصيرة، وجملهما سريعة، مما جعل الكثيرين يقبلون على قراءتهما، وراج طلبهما من النساخ، حتى أن الرهبان في الأديرة والكهنة في الكنائس كانوا يحرصون على تداولهما كما لو أنهم يتعاطون دواء ضد الوباء، مما جعل أثناسيوس محاطًا بهيبة في مجمع ألكسندروس الذي انتهى بحرمان أريوس وطرده من الإسكندرية، لكن الآخر لم يكن مجرد كاهن فرد، ولا رجل يسعى إلى حب الظهور ولو بالخطأ في تعاليم الكنيسة الأم، لكنه كان رأس فكرة تمازجت في بنائها عدة روافد، جانب منها قام على تأويلات خاطئة لبعض رؤى أوريجانوس، حيث كان أهل أنطاكيا وقيصرية يحتفون بما يعضد عدم قدرتهم على فهم معجزة الرب وطبيعته الواحدة، وكان أوريجانوس يعتمد على الرمز في كتاباته، لكن الكثيرين لم يفهموا رمزيته، وهو الخطأ الذي وقع فيه أريوس وغيره ممن اعتقدوا أن الابن تهذّب وتشكّل بهبوط قوة إلهية مجردة على يسوع، وقد مزج أريوس هذه الفكرة بما قاله بولس السمساطي الذي لم يكن يختلف هو وأتباعه عن اليهود إلا في أنهم لا يختتنون ولا يقدسون السبت.

أما الفئــة الثالثة التي جاورها أريوس، وأعاد مزج أحاديثها في فكرته فهــم من رفضوا وجود الابن والــروح القدس من السكندريين، وتحدثوا بألوهيــة الأب وحــده، مؤكدين أن الوحدانية الإلهيــة اتسعت لتحوي كل الموجــودات، ومن ثم فــإن أريوس يعتقــد أن الله واحــد، غير مولود، سرمــدى وحده، ليس له بداية وحده، حقيقى وحــده، له الخلود وحده، ليس بجانبه كائن آخر، وعن طريقه توجد قوة الحكمة والكلمة. وهذه هي المبادئ التي قــال بها بولس السيمساطي في "الوحدانيــة المقتدرة"، ويعتقد أريوس بتأثيرات من الغنوصيين أن الله وإن كان واحدًا فهو لم يكن دائمًا أبًــا، لكنــه صار أبًا عندمــا أراد أن يخلق العالم. فخلــق كائنًا واحدًا. هذا الكائن أسماه الابن، وأحيانا الكلمة أو الحكمة.

كان ديمتريوســ الذي تحسنت صحته قليلاً ينتظر رسائل رفائيل إليه، ليقــرأ ويطالع ويعرف ما الذي يجــري في المدينة، وما الــذي انتهى إليه الآبــاء المقدسون هناك، وشغله أن يعرف من تلميذه رفائيل كيف استطاع أريوســ أن ينشر فكرتــه بكل هذا الاتساع والسرعــة، فالجدل الدائر في العــالم الآن لا يخرج عــن أن ألكسندروس وأثناسيوســ قالا، وأريوس قال، حتــى أن دير الملاح بدأت تصله أهازيج الرعــاة بكلمات أريوس، وصارت أفكاره تبلبل المقيمــين في الدير، فأخذ رفائيل يلقي موعظتين في الأسبوع، حيــث يتابع شئون الرهبان ويسمع منهم، ويرد عليهم، وكلما أعيــاه شــيء أرسل إلى رفائيــل ليجيبه عنه، فلا يمر شهــر دون أن تأتي رسالة من رفائيل أو تذهب أخرى إليه.

وازن رفائيــل بين التزاماته تجاه أهله الذين قبلــوا به بينهم، وبين أن يطلــع ديمتريوس على كل جديد ويلبي مــا يكلفه به أثناسيوس، ذلك الذي أخــذ يعتمد عليــه في كثير من الأمــور، خاصة وأن المعركة بــين الكنيسة وأنصــار أريوس أصبحت علــى أشدها، ولجأ الأخــير إلى أصدقائه ممن تعلمــوا على يد لوكيانوس في أنطاكيــا، وصارت لهم الآن مكانة وحظوة لدى الإمبراطور قسطنطــين، وفي مقدمتهم يوسابيوس النيقوميدي الذي أصبــح مستشارًا للإمبراطور، وسعــى لأن يجعل قسطنطين يضغط على

ألسكندروس لعقد مجمع جديد يلغي فيه قرارات مجمع الإسكندرية، لكن الإمبراطور طالبه بالحصول على قرار من أي مجمع مقدس آخر كي يتدخل، وكان لألكسندروس أيضًا رجاله وعيونه في البلاط، فأبلغوه بما يسعى إليه يوسابيوس، فما كان من أثناسيوس إلا أن خرج من الإسكندرية برسالة إلى بطريرك روما مطالبًا إياه فيها بحرمان أريوس لخروجه على تعاليم الرسل، وإلغاء ألوهية الابن، وجعله مخلوقًا وليس مولودًا، أي أنه ليس من جوهر الآب، ولكن خاضعًا له، فما كان من بطريرك روما إلا أن عقد مجمعًا حرم أريوس فيه بناء عن رسالة ألكسندروس.

ولم تكن أنطاكيا بحاجة لأن تنتظر رسالة من ألكسندروس كي تعلن تنظيف نفسها من أريوس وبدعته، فقد أسرع أسقفها مركلوس بعقد مجمع مقدس أعلن فيه حرمانه أريوس لفساد اعتقاده في المسيح، وسعيه لنشر الهرطقة بين الناس، كان ذلك بعد عامين من مجمع الإسكندرية، لكن في الوقت الذي شعرت فيه الإسكندرية أنها حققت نصرها المؤزر على أريوس وأنصاره من اللوكيانوسيين والميليتيوسيين، كان يوسابيوس قد أقنع أسقف قيصرية بعقد مجمع طالب فيه ألكسندروس بقبول أريوس وعدم حرمانه، وألح يوسابيوس على الإمبراطور أن يفي بوعده، فأرسل قسطنطين رسالة طالب فيها ألكسندروس بوقف الخلاف بينه وبين أريوس، لأن الإمبراطورية تكاد أن تنقسم على نفسها بسببهما.

بدا من رسالة قسطنطين أنه يأمر ألكسندروس ويتدخل في شئون الكنيسة، فراح الأخير يصرخ في وجه تلميذه أثناسيوس (ما لله لله.. وما لقيصر لقيصر)، وفهم أثناسيوس أن الإمبراطور يساوي بين مجمع الإسكندرية ومجمع الرعاع في قيصرية، هكذا أوضح ألكسندروس سبب غضبه، وأخذ الاساقفة والقساوسة الموجودون يهدئون انفعاله، مقترحين عقد مجمع جديد يؤكدون فيه على ما ذهب إليه المجمع الأول، وجلس أثناسيوس يكتب رسالة ألكسندروس إلى قسطنطين، قائلاً إنه لا يعارض ما يراه جلالة الإمبراطور، لكن هذا قرار مجمع مقدس، وسوف يأمر بانعقاد المجمع مرة أخرى لعرض رسالتكم عليه.

وسرعـان ما انطلق أثناسيوس ورفائيل في جولـة جديدة إلى الأساقفة والقساوسـة، جولة لم تختلـف كثيرًا عن سابقتها، سـوى أن رفائيل جاء لرؤيـة أستاذه ديمتريوس، وصديقه أبانـوب، وبدت عليه ملامح النعمة رغـم إرهاق السفر، وأصـر أثناسيوس على المبيت في ديـر أستاذه الأنبا أنطونيوس، وشرح له كل ما جرى من خطوب وأحداث، قبل أن يذهبا للقـاء الأب بولا، ثـم ينطلقا للقاء الأنبا بيشوي والأنبـا شنودة في ديريهما الملقبان بالأحمر والأبيض، ثم يعـودان إلى الإسكندرية من جديد، حيث ألكسندروس الـذي عكف على كتابـة رسائله في الرد علـى الأريوسيين وفرياتهم، آخذًا في مراسلة رؤساء الكنائس كي ينتصروا للرب.

كان وجـه ألكسندروس قد تضاءل أكثر مما هو عليـه، وعيناه غارتا واكتستـا بالهالات السوداء، بينما الإرهاق أخذ به كل مأخذ، وأثناسيوس يعرض عليه نتائج جولته، مؤكدًا أن الجميع مـا زال على تقديسه لوثيقة مبـادئ الإيمان التي وقعوهـا، وأن أحدًا لن يرضـى بالتأخر عن نصرة الرب، ودفع الهراطقة عن الكنيسة وتعاليمها منذ مرقس الرسول.

لم يمضِ أكـثر مـن شهـر ونصف حتـى انعقد مجمـع جديـد، وقرأ ألكسندروس رسالة قسطنطين علـى الرءوس، فهمهمـت الأفواه وكسا الوجـوهَ الظـلام، وما كان منهـم إلا أن رفضوا طلـب مجمع قيصرية، مؤكديـن أن بدعـة أريوس تخالـف كل التعاليم الموروثة عـن القديسين والشهداء، وأنها تنزع عـن الابن أزليته وقدرته، وتجعله جوهرًا مختلفًا عن جوهر الآب، ومخلوقًا خاضعًا له، تنفي أقنومية الروح القدس.

حـين انتهى المجمع مـن صياغة قراراتـه أرسل بهـا ألكسندروس في رسالة مطولـة إلى الإمبراطور، وحرص على أن يكـون أثناسيوس في معيتهـا، كي لا تلتقطها عيـون يوسابيوس فيقومـون بتحريفها أو تقديمها في أجـواء مناقضة. خـرج أثاسيوس من الإسكندرية بحـرًا إلى نيقوميدا حيث يقيـم قسطنطين، وحيث يرأسـ يوسابيوس النيقوميـدي أسقفيتها، وشعـر أن الأرضـ التـي يمشي عليها كارهـة له، وترجو لـو أن آلاف

الشياطـين تتخطفه، لكنه تغاضى عن كل ذلك، وحدث يوسابيوس بهدوء عن الاجتهاد في معرفة الحقيقة، وضـرورة الإيمان بما استشهد من أجله القديسون، وشعـر يوسابيوس أنه من الصعوبة اجتـذاب الشاب الذي لم يتخطَّ الخامسة والعشرين إلى جانبه، كما لن يستطيع أن يسقطه في عداوة تغير قلـب الإمبراطور عليه وعلى ألكسندروسـ في الإسكندرية، وحين فض الإمبراطـور رسالة ألكسندروسـ، شعر أثناسيوسـ أن خيبة أمل ظهـرت على وجهه، فقد كان ينتظر أمرًا غير الذي قرأه، لكنه هز رأسه وأمره أن يبلغ تحياته لبابا الإسكندرية.

شعـر أثناسيوسـ في الطريـق أن الانتصار قـد اكتمـل، وأنه أعطى لخصـوم الكنيسة ضربة ستنهي علـى وجودهم للأبـد، ولم تكذب الأيام شعوره، فقـد أكد عيـون ألسكندروس أن الإمبراطـور احترم قرارات مجمع الإسكندريـة، وانشغل بأمور السياسة، نادمًا على تدخله، واستمر هـذا الانتصار لما يقرب مـن عامين، حتى أن ألكسندروسـ بدأ يشعر أن مهمتـه اكتملـت، وأخـذ يسعى لمكافـأة رجالـه، فرسم بعضـ القساوسة أساقفـة، ورسم بعض الشمامسة كهنة، وبالـغ في الترحيب بأثناسيوس، مؤكـدًا أنه الأولى من غيره بالترسيم، لكن لا بد أن يكون ذلك في مناسبة تليق بمكانته عنده، ولم يكن أثناسيوس مشغولاً بالترسيم، فهو فتى الكنيسة الأول، والكل يشير إليه بالبنـان، ويحسده على حظوته لدى البابا، لكن الأيام الطيبة سرعان ما تنقضـي، فقد استطاع أريوس ويوسابيوس عبر علاقة توطدت بالإمبراطورة الضغط على قسطنطين لعقد مجمع مسكوني يحضره ممثلـون عن مختلف الكنائسـ، لإنهاء كل الخلافـات اللاهوتية المعلقة.

-١٩-

لم يكـن اتجاه السيـارة "دوبل كابينة" هذه المـرة إلى أسيوط، فقد كان حسـين الجرف في طريقـه إلى السويس، حيث مهمته نصـف الأسبوعية في تخليصـ أوراق شحنات شركته من جمـرك السويس، وكالعادة كان عليـه أن يمر مـن الطريق الذي يقطع الصحـراء في اتجاه الشرق، حيث يلتقـي على مقربة من دير الملاح بالطريـق المحاذي لجبال القلزم، ليكمل مسـاره إلى السويـس في الشمال. حين رفع أنطونيوس صليبه ولوح به تجـاه السيارة المسرعة في الصبـاح الباكر كان حسنين يفكر في أنه قد وجد الفتاة المسيحية في هذا المكان، حيث ظهرت أمام السيارة كما لو نزلت فجأة من السماء أو خرجت من تحت الأرض، يومها ضغط على الفرامل مرة واحـدة فأطلقت العجلات صوت احتكاكها القوي بالإسفلت، لم يعرف في ذلـك الوقت إن كانت رأسهـا ارتطمت بمقدمة السيـارة أم لا، لكنه نزل فأجلسهـا بين يديـه وهي شبه فاقـدة الوعي، كان قلبه يرتعـد وكل ما فيه يرتجف، سألها إن كانت بخير فهـزت رأسها بالموافقة، فحمد الله وأطلق زفرة مكتومة وهو يسألها عن طريقها، فقالت:

- خذني معك.

لم يفكر حسنين في شيء سوى الهروب من المكان، فقد راوده شعور بأنه مسكون بالجن، وبمساعـدة منه صعدت دميانة لتركب في الكنبة الخلفية، فالسيـارة من نـوع الدوبل كابينة، ورغم كل التمتمـات التي انطلقت من فـم حسنين لحظتها كرشاش يطارد به فلول الشياطين إلا أنه بعد قليل نسي الأمـر كله، وبدأت عيناه تراقبان الفتـاة النائمة في كرسيها الخلفي، وندم أنه لم يضعها في الكرسي المجاور له، فكر في أن يوقف السيارة متعللاً بأي سبـب ليجعلها تنتقل إلى جانبه، لكنها بدأت تزوم وتصدر أصواتًا غريبة،

أجـزم بأن جنيًّا أصابها، وأن عليه أن يتخلص منها في أقرب مكان، قال إنــه ذاهب إلى أسيوط، فهزت رأسهــا بالموافقة، وأدرك أن ليلته ستكون طويلــة ومزعجة، فالتــزم الصمت وأخذ ينصــت إلى الأسماء التي تهذي بها، وما إن وصل إلى مشارف قريته حتى تخلص منها، وذهب إلى بيته ليغـط في نومــه بقية اليوم، وفي الصباح التالي ذهــب إلى مقر الشركة في أسيوط ليسلم المستخلصات التي لديه.

لا يعرف حسنين ما الــذي جعله يتوقف للراهب، فقد انتبه من شروده على صــورة أنطونيوس وهو يطل بوجهه وصليبه عليه وكأنه سيدخل في زجاج السيارة، ضغــط على دواسة الفرامل في استسلام واضح، كما لو أنه يتقرب إلى إله الشياطين كيلا تصيبه بمكروه، كان أنطونيوس ينظر له من شباك النافذة سائلاً إن كان بإمكانه أن يأخذه معه، فأطلق زفرة طويلة وهو يحاول إقناع نفسه بضرورة خدمة رجال الله من أي ملة أو جنس:

– إلى أين؟

هز أنطونيوس رأسه:

– حيث تذهب.

ثــم فتح الباب وكاد أن يصعد إلى الكرسي المجاور لحسنين، لكنه تذكر أن رجال يوساب ربما يكونون على مقربة من الطريق فيلمحونه.

– هل يمكن أن أرتاح على الكنبة الخلفية؟

هكذا قال، فهز حسنــين رأسه مستسلمًا بالموافقة، صعد أنطونيوس إلى نفســ الكرسي الذي صعدت إليه دميانة، وسرعان ما انحنى بجذعه لينام بوجهــه مثلها على الكنبــة، فأيقن حسنين أن الرجــل متعب ولم يسأله عن شـــيء، لكنه فكــر في أن الفتاة التي ركبت من نفس المــكان نامت أيضًا في نفس الكرسي، وللحظة شعر أن عليه أن ينقل من هذا المكان أناسًا مصابين بالجــن، وأخذ يتابــع أنطونيوس من المرآة عســى أن تظهر عليه علامات الهذيــان أو التشنــج، لكن الأخير التــزم الصمت حتى عــبرا دير الملاح بمسافــة كبيرة، فاعتــدل في جلسته لينظر من النافــذة إلى الصحراء وقمم

الجبال من حوله، وراح حسنين يروي له واقعة الفتاة التي ركبت معه من نفس المكان، وعن مرضها الغريب، وكيف تسببت في كارثة حلت بقريته.

لم يقدم حسنين إشارة واحدة تجعل أنطونيوس يفهم أن الفتاة التي تحدث عنها هي دميانة، وما كان لأنطونيوس أن يتخيل أن دميانة نجت من الموت، أو أنها غيرت طريقها من السيوس إلى أسيوط، أطلق زفرة طويلة وهو يتذكرها، وسرعان ما هز رأسه حزنًا عليها هي وصديقه باخوميوس، طالبًا لهما الرحمة، وود لو أنه يستطيع أن ينتقم لموتهما، لكنه عاد وتذكر أن الرب غفور للجميع.

سأل السائق عن وجهته فقال إنها السويس، ولو أراد أن يوصله إلى أي مكان آخر فسيفعل، هز أنطونيوس رأسه شاكرًا حسنين، وزاعمًا أنها الجهة التي يريدها، ثم سرعان ما فكر فيما سيفعل، فلا بد أن يتأكد أن دميانة على قيد الحياة، وبعدها يحدد موقفه، ومن ثم وضع خطته بالذهاب إلى القاهرة، ثم الوصول إلى بيتها، رغم أن كل ما يعرفه عنها أنها مقيمة في شبرا، وأنها ابنة محامٍ يدعى صلاح متري، فهل يمكن أن توصله هذه المعلومات إليها؟

ما إن وصل حسنين إلى السويس حتى توقف أمام موقف السيارات الذاهبة إلى القاهرة، وما إن أدرك أنطونيوس أنه خرج من الدير بلا مال حتى شعر أنه سيواجه أزمة كبرى، وللحظة فكر في أن يطلب من حسنين أجرة الطريق، لكنه شعر بثقل الأمر على قلبه، فشكره على معروفه، وسأله عن اسم الفتاة التي أخذها إلى قريته، فقال إنها أنجيل.

لم يكن يفكر في الطعام، لكن رائحة متصاعدة من عربة كبدة في الموقف ذكرته أنه لم ينل كسرة خبز واحدة منذ الأمس، وشعر أن أمعاءه أخذت في التحرك، أشاح بوجهه بعيدًا مؤجلاً كل شيء للقاهرة، فقد علمته الرهبنة وحياتها كيف يؤجل رغباته إن لم يستطع قتلها، ومن ثم أطاح بالفكرة ككل وحدق في الشمس التي اشتعلت على الرءوس، كان يرى

العيـون وهي تنظـر إليه تارة بإجلال وتارة بخـوف، فلا أحد يرغب في الاحتـكاك بقس في هذه الآونة، لا أحد يرغب في شبح فتنة تتقافز بمختلف أنحاء البلاد.

فكـر أنطونيوسـ أنه منـذ اجتاحت الثـورة مفاصل البـلاد والحياة لم تعـد طبيعية، وما سمعه من المؤمنين الذين كانـوا يحجون إلى الدير جعله يفكـر ألف مرة في عدم الخروج مـن قلايته، فقد ازدادت إهانة المسيحيين والاعتـداء عليهـم مع فقدان الأمـن، وراح الرعب يجتـاح الكنائس مع صعود نجم الإسلاميين ووصولهم إلى البرلمان، وأخذ الجميع يتساءل عن المصير الذي سيواجهونه، وما إن فاز الإخوان بالحكم حتى شعر الأقباط بالنكبة، واتخذ بعضهـم قراره بالهجرة، لكن ما إن بدأت تلوح في الأفق علامات الخـروج على الإخوان حتى استبشروا خـيرًا، وأخذ الكهنة في الكنائسـ والأديرة يجيبون بأن الكنيسة لا دخـل لها في السياسة، لكنها لا تمنع أحـدًا من ممارسة حقـه في الاعتراض والتمـرد، وكان ذلك إيذانًا بـأن يلقي المؤمنـون رهانهم على أراقم الثـورة، ولم يكن هناك كثير من الأوراق في ظل احتياج الناس إلى الجيش كقوة تحميهم من الميليشيات.

هز أنطونيوس رأسه وهو يركـب سيارة الميكروباس، وشعر بعضهم أنه يلقي السلام عليه، بينما شعر آخرون بالامتعاض، تجاهل أنطونيوس الجميـع ومسد لحيته الطويلة بيديه راسمًا بالصليب على وجهه، لكن ذهنه ظل مشغولا بما آلت إليه الأوضاع حتى بعد سقوط الإخوان، فقد تزايدت الضغـوط وتكاثرت المحن وغاب المسيح برحماته عن الجميع، فلا ندري أي غضـب ينظر به إلينا الآن، وأي خطيئة ارتكبناها كي يحدث لنا كل ما حدث.

مـا إن خـرج الميكروباصـ مـن الموقف حتـى أخذ الـركاب في جمع الأجـرة، ولمـا كان أنطونيوس شـاردًا عما يجري من حولـه فقد اضطر أحدهـم إلى تنبيهه لدفعهـا، وهنالك تذكَّر أنه بلا مـال ولا أوراق هوية، فرقَّق من صوته معتذرًا.

– معذرة... ليس معي.

مـا كان من الرجل إلا أن صاح في السائق بأن القس ليس معه أجرة، هنالك ضغط السائق بقوة على الفرامل حتى انكفأ الركاب على وجوههم، وتجاهل لعناتهم وغضبهم صائحًا فيهم:

– ينزل!

هنالك التفتت كل الأعنـاق نحو القس، متطلعة في وجهه وكأنها تنتظر رد فعلـه، وشعر أنطونيوس بالإهانة، فاعتذر للناس وطلب أن يفتحوا له الباب، لكنه سمع من نهاية المكروباس من يقول:

– لا تنزل.

انتقلت العيون إلى صاحب الصوت، كان شابًّا في الثلاثين من عمره، يحدق بعين قوية في أعـين الآخرين، وهو شاهر ورقة من فئة المائة جنيه أمامه:

– أجرته.

كانت الكلمة مسموعة للجميع بمن فيهم السائق الذي شعر بخطئه، فنكس رأسـه وعاود الانطلاق على الطريق من جديد، لم يكن وحده الذي شعر بالخجل، فقد استدارت العيـون نحو أنطونيوس لتعتذر في صمت، طالبة منـه أن يبادرها بالكلام، لكن الأخـير كان غاضبًا ومصرًّا على غضبه، فظـل صامتًا لا يقبل منهم اعتذارًا ولا يبوح لهم بسر، وحده السائق الذي اعتذر بوضوح، مبررًا غضبه بغلاء المعيشة وأن أجرته في اليوم لا تزيد عن أجرة راكبين، فهز الجميع كتفه مبدين تعاطفهم معه، وخائفين من أن يوقف السيارة أو يعود بهم إلى الموقف.

وجـه الـركاب طاقاتهم نحـو موضوعات شتـى، من بينها مـا كتبته الجرائـد عن الفتاة التي أشعلـت الفتنة في إحدى قرى الصعيد، قال أحدهم إنها مسلمة، وأن أهلهـا رفضوا تسليمها لزوجها فهربت منهم، ورد آخر أنهـا مسيحية لكن السلفيـين اعتبروها غنيمة لهم، كانـت الأفواه تدور في العربة دورة تنتهي من بعيد بوجه أنطونيوس، وكأنها تسأله عن الحقيقة، أو وجهة نظر الكنيسة في الأمر، لكن أنطونيوس الذي لم يكن يعرف شيئًا

التزم الصمت، وحين ضيق عليه أحدهم سائلاً عن رأيه، ابتسم مكتفيًا بهز رأسه، فما كان من راكب آخر إلا أن قال:

- من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

فنظر إليه أنطونيوس نظرة أماتت الابتسامة على وجهه، ويبدو أن هذه النظـرة وصلت إلى الجميع في نفس الوقت، فأصيبوا بالخرس المؤقت، ثم سرعان ما غطوا في نوم أو حكايات ثنائية.

حـين وصلت السيارة إلى نهايـة رحلتها في ميدان رمسيس، لم يكن قد بقي فيها غير بضعة أفراد من بينهم أنطونيوس والشاب الذي تطوع بدفع الأجرة له. توقع أنطونيوس أن يكون قبطيًّا أخذته الغيرة على رجل دين من أهـل، لكنه فوجئ أن اسمه أحمد، وكان في زيارة لعائلته بالسويس، وتملكتـه الرغبة في معرفة من هي أنجيل ومـا الذي حدث معها، فما كان من الشاب إلا أن دعاه لتناول كوبي شاي كي يحكي له ما يعرفه.

لا يعرف أنطونيوس لماذا لم يندهش حين علم أن الجالس أمامه صحفي في جريدة قومية، لكنه فتح له قلبه وأخذ يحكي عن دير الملاح، بوصفه دير الشرَّاح العظيم، لكن الأنظار اليـوم لا تعيره انتباهًا، فمساحته صغيرة، ورهبانـه لا يكادون ينزلون من هضبتـه العالية، وقبابه لا تكاد ترى من على الأرض.

لم يمض كثير من الوقت حتى مد الصحفي يده بورقة من فئة المائة جنيه تجاه أنطونيوس قائلاً:

- هذا قرض سأسترده حين أزورك هناك.

تـردد أنطونيوسـس في رفض القرضـ، إلا أنه تحت وطـأة الاحتياج وعـدم المعرفة اضطر لقبوله، كما اضطـر لأن يكشف عن سره للصحفي الغريب، فأخبره أنه جاء للقاهرة لملاقاة شخص لا يعرف عنه غير اسمه، لا يعرف حتى إن كان حيًّا أم ميتًا، بدت على وجه أحمد علامات الدهشة، لكنه في النهاية نصحه بالاتصال بالدليل عسى أن يصل إلى تليفونه، وحين أدرك أن أنطونيوسـس قادم من مكان لا علاقة له بتقنيات الاتصال، قرر أن يساعده عبر هاتفه الشخصي، في المرة الأولى لم يتوصلا لاسم دميانة،

لكنهما عـاودا الاتصال بحثًا عن صــلاح مترى المحامــي، فحصل على العنوان ورقم الهاتف.

اتصــلا بالرقم ووجدا أنه مرفوع من الخدمة، ولم يكن هناك كثير من الحلـول سـوى الذهاب إلى العنـوان، وسرعان ما نــزلا درجات المترو واتخذا القطار إلى سانت تريــزا، وهناك سألا عن الشارع ورقم البيت، شعــر أنطونيوس أن أحمد ملاك نــزل إليه من السمـاء ليوفر عليه عبث البحــث عن إبرة في كومة قش، حين وصــلا إلى البيت ودعه أحمد تاركًا في جيبه رقم هاتفه.

البيت قديم ومكون من عدة طوابق، رفع أنطونيوس عينه ليعد طوابقه الأربعــة، رأى على الدور الثالث لافتة تراكـم عليها التراب حتى أخفى معالمهـا، دقق النظر فيها حتى لمح كلمة مــترى، وتأكد أن دميانة حافظت كل هــذه السنين على اسـم والدها مرفوعًا على مكتبه، هــز رأسه مطمئنًا نفســه أن الرب معه، وما إن أسلم قدميــه لدرجات السلم حتى ظل يصعد إلى أن وجــد لوحة على الباب باسم صلاح متري المحامي، فطرق بهدوء وخجــل على الزجاج، لكن أحدًا لم يفتح، وخشي أن يرجع من حيث أتى دون أن يــرى وجه دميانة أو يعرف خبرًا عنها، فترك الخجل والزجاج وطرق بقــوة على ضلفة البــاب، وكاد أن يستدير مسلمًــا نفسه للسلم من جديد لــولا أن سمع مزلاجًا يتحرك من الداخــل، فتوقف حتى أطل عليه وجــه سيدة في نهاية الخمسين من عمرهــا، لكنها بدت أكثر عجزًا مما هي عليه، قلبت عينيها في وجهه بدهشة، فما كان من أنطونيوس إلا أن سألها:

– أنت أم دميانة؟

لمعت عيناها بالفرح وهي تقول:

– هل وجدتها الكنيسة؟

وقــف أنطونيوســ لا يعرف بمَ يــرد، وللحظة شعر أنــه لم يعد قادرًا علــى الاحتمال أكثر من ذلك، فانهمــرت من عينيه دمعة بحجم حبة عنب صغــيرة، وأخذت تسيل حتى توقفت على غابــة الشعر النابت في وجهه،

فمسحهـا ونظر متطلعًـا للسيدة تريـزا وكأنه يشم ريح يوسـف، فانتبهت الأخـيرة إلى أن عليها الاحتفاء بالقسـ ثم استجوابه على مهل. أفسحت له كي يدخل البيت، وبدا كما لو أنه كان ينتظر مثل هذه اللحظة منذ سنوات، فقد شعر أنه وصل إلى مصدر الرائحة التي جذبته كل هذا الطريق، وأخذ يتطلـع إلى الجدران والحوائط كأنه يتشمم كل جزء فيها، لاحت له دميانة بثـوبٍ بيـت وردي خفيف، وظهر على فمها ابتسامـة صغيرة موجهة له وحدهً، لاحقته كلمات الأم المندهشة من تطلعه إلى كل ما في البيت.

انتبـه إلى أن عليـه أن يختـار مكانًـا للجلوس كي يطمئـن السيدة على ابنتهـا، فانتهت رغبتـه في التشبع بريـح دميانة، ورفـح حاجبيه مدركًا أن مهمتـه الآن أصبحت ثقيلة، فالسيدة لا تعـرف شيئًا، ويبدو أنها شكت للكنيسة تأخرها، فوعدوها بالسؤال والرد، لكن أحدًا لم يهتم، وعليه الآن أن يبلغهـا بما يثلج صدرها، فأخذ يهيئ صوته لأن يكون أكثر هدوءًا وهو يمارس أول كذبة له بعد خروجه من الدير، فما الذي يمكن أن يقوله لها؟

-٢٠-

مـا إن سمعت مريانا بقصة دميانة حتى أمـرت بتجهيز غرفة لها تطل علـى الطريق المؤدي إلى الدير، وهو واحد من الأديرة القديمة، يقال إن أثناسيوسـس لجأ إلى مغارته هربًا من تعقب الرومـان له، فأقام عدة سنين فيـه، في البدء لم يكن يعرف بأمره غـير صديقه رفائيل، لكن في يوم لجأ أحد الرعاة إلى المغارة، ووجد نفسه وجهًا لوجه مع رأس الكنيسة، فخرج صائحًـا في الناس أنه وجـده، وأخذ يخبر من يـراه أن أثناسيوس مختبئ في مغـارة الزاوية، فتكاثر الناس لرؤية أبيهـم الروحي، طالبين منه أن يعترفـوا بخطاياهم على يديـه، جلس يعظهم من علـى الجبل، ويباركهم بالماء المقدس، ولما رأى على البعد جنود الرومان قادمين نحوه أمرهم أن يصعـدوا للمغارة، ورغم كثرة الناس فإنها اتسعت لهم، حتى لم يبقَ غير الذي دلهم على المغارة، فسأله الجنود عن مكانه، لكنه لم يعرف بما يرد، فقد اختفت بمن فيها، وأصبح الجبل بلا ثغرة تدل على أن أناسًا كانوا هنا، فأخذه الجنود وعادوا إلى ثكناتهم.

بعدها عادت المغارة من جديد، وعاد الناس إليها كل يوم متلمسين رؤية القديسـس أثناسيوسـس، لكنهم مرة يجدونه ومـرات لا يجدون غير النساخ الذيـن صحبوه في رحلته، فكانوا ينتظرونه حتى يظهر لهم، هؤلاء الذين تعـودوا الجلوس إلى باب المغـارة أوجدوا لنفسهم عملاً يفيـد الناس، فقد تعلموا من النساخ أن يكتبـوا عظات أثناسيوس ويبيعوها لغيرهم، فعرف الديـر باسم دير النساخ، وباسم دير أثناسيوسـس، وفيه أملى الأخير على نسَّاخه سيرة أستاذه القديسـس أنطونيوس، ومنه خرجت عظاته للرد على الأريوسيين وهرطقاتهم، وخرجت رسائله إلى رؤساء الأديرة والكنائس لترشد الجميع إلى طريق الإيمان القويم.

نالــت دميانة رعايــة طيبة على يــدي الأم مريانا وبناتهــا الراهبات، وتــردد عليها في الأيام الأولى طبيب نفسي أعطاها عقاقير مهدئة، ونصح مريانــا بمساعدتها على ممارســة الرسم والكتابة، وفَّـرت مريانا بعض الأوراق والألــوان، وألزمت إحدى الراهبــات بمرافقتها، ومع الهدوء والطمأنينــة بــدأت هلاوسها تتراجــع، وذاكرتها البعيدة تعــود على هيئة مشاهــد متقطعة، كان أبرزها التحقيق مع أنطونيوس، كانت هذه لحظاتها الأثــيرة، فكلما هــدأت أعصابها وخلت إلى نفسهــا تذكرتها، ومع الوقت أخــذت توسع المشاهد والذكريــات، حتى فاض بها الوجــد إليه، فأخذت تحكي للراهبات عن حبيبهــا البعيد، وأخذت الكلمات تسري حتى وصلت إلى مريانــا، فشعــرت أن أحجــار الدير العتيق سوف تتهــاوى، فعاقبت الجميع وقررت التخلص من الضيفة غريبة الأطوار.

لم تكــن مشكلة مريانا أن دميانــة تحب راهبًا أو علمانيًّــا، لكن المشكلة تكمن في إحياء المشاعر التي خلفتها الراهبات خارج أسوار الدير، نعم جئن مــن أجل الــرب، وأمضين حياتهن في العمل والعبــادة، متناسيات العالم الخارجي برغباته وشهواته، منتصــرات على مشاعر الجسد واحتياجه، لكنهــن في النهاية نســاء، أقل كلمة قد تحيي بداخلهــن الذكريات، وتشعل نيرانًا كانت قد خمدت في النفوس منذ أمدٍ بعيد، كان ذلك مصدر خوفها، فقررت الاتصال بالمأمور طالبة منه استعادة ضيفته، ولأنها لا تستطيع أن تشــرح له أسبابها، فقد اعتقد أنها لا تود أن تتعاون، وراح يوضح لها كم سيرتبــك نظام الدير أكثر لو أن المتشدديــن فكروا في دخول الدير، حينها وصلت مريانا رسالته، فتراجعت في موقفها، متمتمة لنفسها:

– ربنا لا تدخلنا التجربة.

بعد ليلة طويلة من التفكير رأت مريانا أن تعزل ضيفتها عن الراهبات، وتضعهــا في قلاية بعيــدة منعزلة بأعلى الجبل، ولا يدخــل عليها سواها، موفرة لها كل ما قد يساعدها على الشفاء بالكتابة والرسم كما قال الطبيب، مع الوقت عرفت دميانة مــن جديد طريقها إلى الكتابة، فراحت تسجل ما

تـراه وما تتذكره، وبقليل من الجهد استطاعت أن تتجاوز محنتها بأسرع ممـا توقعت، وانتبهت إلى أن ما تكتبه يخصها وحدها، فعمدت إلى إخفائه في دفتر لا يطلع عليه سواها.

اعتادت مريانا الذهاب لدميانة في قلايتها، اعتادت الجلوس معها بعيدًا عـن هموم الدير ومشكلاته، واكتشفت أنهـا يمكنها أن تحكي عن همومها لفتـاة لا تزيـد عن كونها مجـرد أذن كبيرة، فراحت تحدثهـا عن أن هذا الديـر لم يكـن في الأصل ديرًا للراهبـات، فمنذ لجـأ أثناسيوس الرسولي إلى مغارتـه طالبًا مـن الرهبان الذين معـه أن ينسخـوا رسائله وعظاته للناسـ كي يطلعوا عليها وقد أصبح هذا المكان ديـرًا للنساخ، يجيئه الناس من كل مـكان، طالبين كل جديـد في كتب اللاهوت، ويجيئـه القساوسة والأساقفـة طالبين نسخ رسائلهم وعظاتهـم، هكذا كان الجميع يلتقي هنا، وكانـت الكتب، كل الكتب، حتى الممنوعـة والمحرمة، تنسخ بين جدران هـذا الديـر، يسهر عليها آبـاء تدربوا منذ صغرهم علـى رسم الخطوط، وتفننـوا في صنع أدواتهم من الغاب والبردى، الجميع كان يأتي إلى هنا، يقطعون المسافات ليقتنوا أحدث الأعمـال، ثم يحملوها إلى دير الشراح، طالبـين تفسير ما غمض فيها، دير الشراح ليس بقريب، لكنه على مسافة طريـق طويل في قلب الصحـراء، طريق يبدأ من أسيـوط إلى هضبة في جبـال القلزم، طريق عرف من كثرة الساعين فيه باسم طريق الرهبان، حيـث يجلس آباء أمضوا حيواتهم في قـراءة الكتب الغريبة، مطلعين على الأفكار التي مع المسيح وضده، موقنين أن العلم لا انتماء له، وأنهم ليسوا مـع الكنيسة ولا ضدها، لكنهم مع المعرفة، فجهدهم الذي يعيشون منه منذ وضع الملاح رحله على هذه الهضبة النائية هو المعرفة.

لكن دير النساخ فقد بهاءه حين أغلقه يوساب الثاني في الخمسينات، كان الخلاف قد تزايد بينه وبين "الأمة القبطية"، وكان يعلم أن عددًا كبيرًا من عناصرها يقيمـون هنا، وما إن فشلت محاولتهم في الإطاحة به حتى قرر القضـاء عليهم، فأمر بإغلاق هذا الدير، لكنهم لم يتركوا المكان، كثيرون

منهم ظلوا مختبئــين في الجبل، معتبرين رحيلهم بمثابــة إقرار بخطيئة لم يرتكبوها، وظلوا يضغطون على البابا لإعادة فتح الدير، ورغم استجابته بعــد عامين لهذه الضغوط إلا أنه أصدر قراره لأن يكون للراهبات فقط، موقنًا أن تلك أفضل طريقة للتخلص من الأمة القبطية ومهنة النسخ أيضًا، لكن الرجال ظلوا مختبئين في قلالٍ خلف الدير، آخذين على عاتقهم تعليم الراهبات الصغيرات فنون النسخ التي أصبحت محرمة.

كانــت مريانا تحكي وهي موقنة أن حديثهــا لن يخرج من بين جدران القلايــة، لأن ضيفتها ليست أكثر من أذن لا تتحدث ولا تتذكر شيئًا. لكن دميانــة فاجأتهــا بسؤالها عن مصير النسخ التــي يرسمنها، فتوقفت مريانا عن الحكي، ليس تفكيرًا في إجابــة مناسبة، ولكن لاكتشافها أنها تورطت أكــثر مما ينبغي، وللحظة ساورها الشــك في أن تكون دميانة عينًا عليها، فاصطحبتهــا في جولة بالديــر، قامت خلالها الأخــوات بالبحث في قلاية دميانة عــن أي شيء غريب، ولم يستغرق الأمــر كثيرًا كي يعثرن على الكراسة التي كانــت دميانة تدرب فيها نفسها على استعادة الذاكرة، فكان من بين ما كتبته أجزاء طويلة تخص مريانا وحكاياتها في الدير.

-٢١-

رسائل أوريجانوس (١٠)

الأب المبجل ديونسيوس، أعلم أن ما قيل عن العداوة بيني والأب ديمتريوس كثير، أعلم أن الحديث عما جرى بيننا قد ملأ الأسماع والأفهام في مختلف بقاع الأرض، فقد اشتط ديمتريوس في عقابي على شيء لا أعلمه، ولم يتراجع قيد أنملة عن السعي لإخفائي من الوجود، ولم يكن أمامي سوى أن أنصاع لدفعات الجنود في الشوارع وهم يخرجونني من الإسكندرية، لا تلامذتي ولا أساتذتي ولا حتى نائب الإمبراطور في المدينة العريقة استطاع الشفاعة لي، الجميع وقف مكتوف اليد، بل شعروا بالفخر والنصر أنهم استطاعوا أن ينقذوا عنقي من القطع وجسدي من الحرق، أنا أيضًا شعرت أنني قد آذيت الرجل، وأنه لا بد أن أستجيب لما اتفق الجميع عليه، لا بد أن أنهي هذه الحرب التي بلا معنى ولا سبب، وأن أخرج في هدوء مع الجنود إلى حيث الميناء، فخرجت في حراسة مشددة، وصعدت إلى ظهر مركب مليء بالجنود، جميعهم كانوا ينحنون احترامًا لي، أغلبهم لم يكن مصدقًا ما يجري، فالعالم الجليل الذي بجَّله الجميع يخرج الآن منفيًّا من مدينته بلا مبرر، ويُحرَم من أن يكون قسًّا لا في بلاده ولا بلاد غيره، بعض القادة كانوا يعتذرون لي وهم يأمرونني بالصعود أو النزول، بعضهم كان يبكي غضبًا، والبعض حاول مجاملتي بالسب في ديمتريوس، لكنني رفضت، قلت لهم إنه راعينا باسم المسيح، وإنه يجلس الآن على كرسي مرقس الرسول.

في ذلك اليوم تعجبوا مما أقول، فطلبت منهم أن يجلسوا أمامي، فجلسوا، ولكنني لمحت على وجه بعضهم نظرة هزء وسخرية، إذ إنني سأعظهم رغم كوني مشلوحًا، لكنني تجاهلت ذلك وسألت:

– أتدرون من هو ديمتريوس الكرَّام؟

لكـن أحدًا لم يرد، فقد بدا السؤال مباغتًا لهم، وبدت الدهشة أكبر على الوجوه، فعدت أسأل من جديد حتى رأيت أن نظرة السخرية طارت من أعين المارقين منهم، وانفتحت الأعين والآذان رغبة في المعرفة، فنظرت في وجوههـم قائلاً: حـين اقترب البابا يوليانوس مـن أجله رأى في منامه ملاك الرب يقول له:

– غدًا يأتيك فلاح بعنقود عنب... كنيسة الرب في حاجة إلى عنقوده.

ولـما انتبـه يوليانوس من حلمـه نادى الأساقفـة والقساوسـة وأعلمهم برؤيـاه، متسائلاً عن معناها الذي يعرفه في قلبه، لكن أحدًا لم يخبره به، لأن الجميع ظن أنها هلاوس الحمـى، ظلوا بجانبه يواسونه حتى فوجئوا بفـلاح ذي قامة طويلة، ويدين مشققتين وقدمين حافيتين كبيرتين، يدخل عليهـم، وفي يـده عنقود عنبٍ كبـير، ولم يكن هذا وقت العنـب، إلا أن الفـلاح كان قد قرر زيارة الرِّب في كنيسته ولم يجد ما يحمله إليه، فرأى في منامه من يقول له يا ديمتريوس اذهب إلى كرمك تجد عنقودًا استوى، احمله إلى الرب معك، فلما نزل الحقل وجد العنقود أمامه مضيئًا كأنه من حقل سماوي، فأعجبه منظره واكتمال حباته، فحمله في كم جلبابه وخرج من قريته حتى دخل الكنيسة، حينها تطلعت العيون إلى قامته وهيئته وثيابه المليئـة بالطمي والعرق، تطلعت إليـه بدهشة وهو يخرج عنقوده كمسبحة مضيئة أمامهم، فنظروا إلى بعضهم ثم نظروا إلى يوليانوس معترفين أنه الحق من الرب.

حينها نهضـ يوليانوس من مرقـده، وتجمع الأساقفـة والكهنة حول القادم من الحقول البعيدة بعرقه وترابه، ليجلسوه إلى جانبه، مترفقين به، محضريـن له الماء المبرد الممزوج برائحة الورد، طالبين منه أن يصلي من أجلهـم، كل ذلـك وديمتريوس يزداد تعجبًا في نفسه مـن أمرهم، حتى أنه فكر في النهوض والعودة لحقله البعيد، لكن يوليانوس أمسك بذراعه قائلاً:

– ليس الآن يا بني.

وكلمــا زاد المرض على يوليانوســ بكى ديمتريوس مــن أجله ماسحًا عرقــه بيديه، وصابًّا علــى رأسه ووجهه من الماء، حتــى فارقت روحه جسده الضئيل، واجتمــع الأساقفة ينظرون من سيخلفه في كرسي مرقس الرسول، ولم يكــن أمامهم غير الذي جاء من القرى ومعه تقدمة لا تزيد عــن عنقود كرم سابق لأوانه، فذهبوا إليه وهو جالس في ركن بالكنيسة، ينتظــر كغيره مــن المؤمنين اختيار الــرب، ففاجأوه أنهــم أجمعوا أمرهم واختاروا ديمتريوس الكرَّام ليكون على رأس كنيسة الرب.

نظرت في وجوه الجنود على المركب وأنا أقول:

- هــذا ديمتريوس الكــرَّام، اختاره الرب لأمر عظيــم، فعكف يتعلم القــراءة والكتابة وهو رئيس الكنيسة، لم يخجل ولم يتعالَ ولم يترك أمرًا دون الإقبــال علــى معرفته، الرب نفســه لم يخجله في شــيء، فتح آفاقه وأذنيه لكلماته المقدسة، فحفظ التعاليم، ودرس التفاسير، وصارت أقوال النعمــة تتدفق من فمه وهو يعظ الجميع، حين رأى أن قيامة المسيح تجيء مــع فصح اليهود عز عليه أن يحتفــل بقيامة المسيح في عيد من قتلوه، نظر في السمــاء وأخذ يعد ويحسب الشهور والأيام، حتى وضع نظامًا محسوبًا بدقة الفلاح لمواقيت الصوم والأعيــاد، جاعلاً الأربعين المقدسة وأسبوع الآلام في وقت واحد. وكتب بذلك إلى كل من أغابيانوس أسقف أورشليم ومكسيموس بطريرك أنطاكيا، فاستحسنوه وعملوا بقواعده.

هــذا ديمتريوس الكــرَّام الذي منحــه الله موهبة تخصــه، فحين يكمل قداســه يتقدم لتناول القربان المقدس، فيعطي مــن خبزه كل من يستحق، أمــا إذا تقدم من لا يستحــق فالمسيح يظهرِ له ذنبه، فــلا يسمح له بالتناول حتى يعترف بخطيئته، فيؤنبه عليها قائلاً:

- تنح عن خطيئتك وتب... ثم تقدم بعد ذلك لتناول الأسرار المقدسة.

هذا ديمتريوس الذي تذمَّــر الخطاة وتجمعوا عليه فاضحين السر الذي ستره الرب سنوات طويلة، فقالوا كيف يوبِّخنا على خطايانا وهو متزوجٍ، فلا يصلح أن يكون رأسًا للكنيسة، لكن ملاك الرب أتاه في الليل قائلاً:

- يا كرام لا تطلب خلاصك وتترك غيرك يهلك في شكه.

فبكى قائلاً:

- وكيف أخلصهم من الشك؟

قال الملاك:

- تكشف عن سرك فيزول عن النفوس شكها.

في الصباح أقام القداس الإلهـي، آمرًا الشعب ألا يخرج من الكنيسة، معترفًا أمام الجميع أنه متزوج منذ أربعين عامًا، لكن زوجته حتى الآن بتول، فلم يعرفا بعضهما يومًا مثلما يعرف الأزواج بعضهم. غير أن المزايدين تصايحوا بأنهم لا يصدقونه، فما كان منه إلا أن أمر الشمامسة بإشعال النار حتى تلألأ ضوؤها، فأخذ بيد زوجته ووقف أمام المحراب داعيًا الله أن يحرقهما بنيرانه إن لم يكونا بتولين، ثم ملأ إزاره وإزارها بالجمر وطاف أمام الجميع، طاف بالجمر المشتعل في حجر ثيابه دون أن يصيب جلبابه أثر للنار، طاف وطالب المزايدين أن يلتقطوا الجمر من حجره، فلما فعلوا أكلت النيران أصابعهم، وصاح الجميع باسم الكرَّام مؤكدين أنه اختيار السماء وليس اختيارهم.

حين أنهيت حديثي عن الكرَّام وجدت الكل محدقًا نحوي ما بين متعجب ومتأثر، كانت العيون تكاد تصرخ فيَّ بأن الرجل الذي أتحدث عن مآثره هو نفس الرجل الذي سعى لخلعي والحكم بهرطقتي، لم أقل لهم إن ما حدث للكرام بشأن التشكيك في بتوليته، ونصرة الرب له أمام الشعب في الكنيسة، حوله من فلاح بسيط إلى محارب عنيد، لا يعرف معنى الهزيمة، ويصر دائمًا على النصر، وما موقفه معي إلا واحدة من تلك المعارك، فقد راهن عليَّ في وقت مبكر، وأعطاني المدرسة التي رأسها إكلمندس من قبلي، ذلك الفيلسوف والعلامة صاحب التفاسير الجليلة، وتعجب الجميع أن يوكل مدرسة اللاهوت لصبي في الرابعة عشر من عمره، فتوقعوا فشلي وربما فشله أيضًا، لكنني استطعت أن أملأ الفراغ الذي تركه إكلمندس، كان ذلك بدعم من الكرَّام، اعتبرني ابنه الذي لم

ينجبه، وكان يريدني أن أبقى معه، لم يتفهم رغبتي في الصعود والتحليق بعيدًا، لم يتفهم أن أجنحتي كبرت، وصار دور التلميذ ضيقًا عليَّ، حاول أن يحتويني عبر إرسالي لبعض الكنائس، لكن ذلك لم يكن كافيًا، كان صعودي أسرع من توقعاته، رحلاتي في الشرق كانت مدهشة للجميع، عظاتي كانت تدون وتذهب إلى أفاق بعيدة، كتبي كان النساخ يعملون عليها ليل نهار، الحفاوة التي استقبلتني بها ماميسا جعلت اسمي يضوي في البلدان والآفاق، كنائس روما وطليطلة وأنطاكيا واليونان دعتني لزيارتها، لكنه أخذ في الرفض، كان يقول إنه في حاجة إليَّ، كان يقول إنني ابنه الذي يخاف عليه من الغبار، لكنه في الحقيقة كان لا يريد لي ألا أخرج بعيدًا عنه.

لم أقل لهم كلمة من ذاك، فقد انتحيت جانبًا وتركتهم يعتقدون ما يعتقدون، بعضهم رآني مثالاً للنبل، وبعضهم رأى أنني صاحب خطيئة والكرَّام على حق، وأن ما قلته هو اعتراف بصدق الرجل وهرطقتي، لكنني لم أحبذ الطعن في الرجل الذي رباني، لو رأيته وقد أصبح كهلاً تجاوز المائة، يحمله شمامسته على محفة أمام الجميع، لشعرت بكم يستحق الرثاء، فرغم كل هذا العجز يرى أنني حربه الأخيرة، وأنه لا بد أن يدمرني مثلما صنعني، أشفقت عليه، ورأيت أنه أصبح شيخًا فانيًا، لا ينبغي أن أكسره أمام شعبه، ولا أن أستعرض معرفتي عليه، رأيته وأنا في طريقي إلى قصر الحاكم، كان محمولاً على محفته، وددت أن أستوقف الحراس لوداعه، فرغم كل ما فعل بي أجدني أحبه، وأوقن في قرارة نفسي أنه يحبني، غير أنه العناد والكبر الذي أخرج الشيطان من الجنة، لذا فصلِّ من أجلي ومن أجله، صلِّ كي يخلصنا الله من خطيئتنا، ويمنحنا من عفوه ما تستحقه قلوبنا الرقيقة.

-٢٢-

هز يوساب رأسه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة قائلاً:

- لو تأخرت ساعة واحدة كنت سأشك فيك.

لم أستوعب أنني نجحت في الامتحان، فهززت رأسي بشكره، مؤكدًا أنني خادمه المطيع، ارتسمت ابتسامة أكبر على وجهه وأشار لي بالاقتراب، كان لا يزال جالسًا إلى مكتبه وتحت يده عدة أظرف صفراء، وضع يده في أحدها وأخرج أوراقًا سميكة ملونة:

- تعرف ما هذه؟

أومأت برأسي نافيًا، فأدخل الأوراق وأغلق المظروف، ثم نهض ليدور حولي دورة كاملة، قبل أن يضغط على كتفي كي أجلس على الكرسي المواجهة لمكتبه:

- هذه شهادات ميلاد كل من بالدير، الجميع له شهادات ميلاد أو بطاقات شخصية، شخص واحد لا توجد له شهادة ولا بطاقة، شخص ولد ونشأ بين جدران الدير، ليس معروفًا من أبوه ولا من أمه، وجده خادم أمام البوابة، رباه وكبره دون أن يهتم بإثباته في أوراق حكومية. هل تعتقد أن هذا الشخص لو غاب أو قتل ستنتبه الحكومة لغيابه؟

تحدث يوساب بطلاقة كما لو أنه تدرب على حديثه عشرات المرات، فأدركت أنه عازم على الخلاص مني، شعرت أن حياتي أرخص شيء في هذا المكان، ارتجفت من الداخل كورقة في فصل الخريف، لكن يوساب عاد ليبتسم، أدى دوره وجلس على كرسيه وهو يبتسم، ضم الأظرف لبعضها ومد يده بها نحوي:

- نريد أن نؤسس قاعدة بيانات للدير، لا يصح أن نعرف الأشياء بالصدفة، يمكنك أن تشارك معنا في عمل قائمة بالكتب التي لديك.

سمعت الكلمات كما لو أنني أنصت إلى حكمٍ بالبراءة، فعادت الدماء إلى وجهي وأنا أتسلم المظاريف منه:

- بالطبع... لكن ماذا أفعل؟

استدار بوجهه إلى جهة أخرى كما لو أنه مهتم بالبحث عن شيء أكثر أهمية من الشخص الواقف أمامه، فعدت إلى سؤاله من جديد، حينها استدار نحوي:

- انزل للمهندس عماد في المطبعة، هو ينتظرها، ولا تتأخر في بيانات الكتب.

هززت رأسي واستدرت للخروج من قلايته، لكن صوته لاحقني:

- ملاك... أنت من الآن أحد رجالي، فلا تغضبني.

كانت الجملة الأخيرة بمثابة السيف المسلط على عنقي، فقد صرت من رجاله، وهو ما يعني أنني سأصبح تحت نظره، وقد يطلب مني ما لا أستطيع تنفيذه، لكن على كلٍّ هذا أفضل من قبل، فقد كنت أنتظر الموت في كنيسة الملاح. قضيت ليلة مليئة بالهواجس، في كل لحظة كنت أشعر أن الباب الفاصل بين المذبح ومقبرة الملاح يفتح، وأن اللبؤة تعبر منه في اتجاهي، كانت الظلمة والصمت والأفكار الشريرة هي كل ما أمتلكه في ذلك الوقت، كنت أرى أشباحًا تلعب أمامي على الجدران، أرى قساوسة وقديسين يُقتلون، مشاهد موتهم لا تغادر ذاكرتي، كنت أشعر بدمائهم وهي تتطاير لتستقر على وجهي.

في الطريق إلى المطبعة أسفل الهضبة تذكرت أن أنطونيوس كان المشرف عليها لعدة سنوات، قبل أن يتنيح الأب إيمانويل، وقبل أن يتهم في نشر رسائل أوريجانوس، تذكرت أن عماد كان مساعده في التجهيزات، وأنه الآن أصبح مديرًا لها بعد أن تغيرت الأحوال، تذكرت ما سمعته عن المعركة التي خاضها إيمانويل في بداية انضمامه للدير، معركة كبيرة

أعلن فيها عما يتمتع به من شجاعة وحكمة، كان ذلك في عهد الأب يونان النحاس، حين كثرت غارات البدو على مزرعة الدير ومطبعته، كانت المطبعة في ذلك الوقت ماكينتين تصف في دولابهما الحروف، وتطبع كل منهما ورقة ورقة عبر ذراع يدوي طويل، في ذلك اليوم جمع إيمانويل الرهبان الجدد ومن تطوع من القدامى، ووقف في كنيسة الملاح يحثُّهم على الشجاعة والشهادة، موضحًا أن القديسين نالوا أمجادهم السماوية بتضحياتهم من أجل الآخرين، والآن جاءت هذه اللحظة كي يعلنوا أنهم يسيرون على دربهم.

حين نزل إيمانويل من مكانه واتجه إلى باب الكنيسة كان خلفه نحو عشرة رهبان وثمانية شمامسة، لكن حين وصل إلى أسفل الهضبة لم يجد خلفه سوى عشرة رجال فقط، فانحنى وملأ يديه بالتراب ورشهم به، ثم أكمل سيره، كان البدو مختبئين خلف المطبعة، يطلقون الرصاص على بوابة الدير، لكنهم فوجئوا بالرهبان يقفون خلفهم، ففروا أمامهم من الرعب، وكلما التفتوا وجدوهم يهرولون وراءهم، فكانوا يقعون على وجوههم ثم ينهضون ليهرولوا من جديد، ظل إيمانويل ومن معه يطاردونهم بالعصي والحجارة حتى أبعدوهم عن المكان، وعادوا غانمين بعض أسلحتهم وما كان معهم، في ذلك اليوم كان يوساب واحدًا من الرهبان الذين أظهروا قدرًا من الشجاعة، فرشحه إيمانويل كي يتولى حراسة المكان وحمايته، فاختار رجاله ووزع عليهم الغنائم.

كان عماد يقف أمام منضدة كبيرة عليها لوح زجاجي أسفله لمبات مضاءة، وعليه فرخ من الورق الشفاف، كان يقص ورق الزبدة المليء بالكتابة ويلصقه على وجه الفرخ، سألني دون أن ينظر نحوي عما أريد، هذبت صوتي قائلاً إن الأب يوساب أرسل معي المظاريف التي يريدها، وأنني سأتعاون معه في وضع قائمة بأسماء الكتب التي في المكتبة، رفع نظره نحوي كما لو أنه يعترض على كلمة "سأتعاون"، ثم أمرني أن أضع المظاريف على كرسي أمام جهاز كمبيوتر، حينها صدرت أغنية من جهاز صغير كان بجوار الشاشة:

– هات الموبايل.

لم أستطع سمــاع الكلمة جيدًا، فتحرك بنفسه ورفع الجهاز الصغير في وجهي مرددًا:

– موبايل.. موبايل.

سمعته يتحدث مع شخص آخر، لا أنكر أنني سمعت بهذا التليفون الذي يتحرك مع الناس، لكن هذه كانت المرة الأولى التي أراه فيها، كان يصدر غناء واضحًا لصوت أنثوي جميــل، وكانت على شاشته أيقونة العذراء، وحين تحدث فيه كنت أكاد أسمع صوت من يحدثه، لكنني لم أرد أن أتلقى إهانــة جديدة، فشاغلت نفسي بقراءة بعض من سطور ورق الزبدة الذي علــى الفرخ الشفــاف، كان العنــوان "أبوكريفون يعقــوب" مكتوبًا بخط عريض في ورقة وحده، ليس فيها غير كلمة "نصوص نجع حمادي" التي وضعــت على جانب في أسفل الصفحة، مررت بعيني سريعًا ونظرت إلى التي تليها، فوجدتها تقول:

عليــك الســلام من السلام، والمحبــة من المحبة، والنعمــة من النعمة، والإيمــان من الإيمان، والحياة من الحيــاة المقدسة! بما أنك قد طلبت مني أن أرســل لك كتابًا سريًّا كُشف إلي أنــا وبطرس من السيد، فلا يمكنني لا أن أرفضــ طلبك، ولا أن أكلمك مباشــرة، ولكني كتبته بحروف عبرية وأرسلتــه إليــك ـ لك أنــت فقط ـ ولكن بقــدر ما أنت وكيــل على خلاص القديسين، فتصرف بهمــة وخذ حذرك أن لا تحكي هذا الكتاب لكثيرين، هذا الذي لم يرغب المخلص أن يحكيه لنا كلنا، نحن تلاميذه الاثني عشر. ولكن مُبارك هــؤلاء الذين سيُنقذون بالإيمان بهــذا الحديث. لقد أرسلت لك منذ عشرة أشهر كتابٌ سريًّا آخر كشفه لي السيد، ولكن ذاك عليك أن تعتبره بهذه الطريقة، كما أوحي إلي أنا يعقوب.

نسيــت نفسي وأخذت في قراءة النصــ الغريب علي، كنت أعرف أن أبوكريفــون تعنــي باليونانية الكتابات السرية لــدى بعض طوائف اليهود والمسيحيين، هذه الكتابات تعــود إلى القرنين الأول والثاني، حيث كانت المسيحيــة مستهدفة من الجميع، فلجأ الآباء إلى هذا النوع من الكتابة، كنت

أعرف أن هناك كتابات مرفوضة كإنجيل توما ومريم وغيرهما لما تضمنته من تعاليم وأوامر لا تتفق مع لائحة الإيمان، وأن الإرشادات التي جاءت في تلك الكتب ادعى أصحابها أن المسيح أعطاها لهم بعد قيامته، وهي في غالبها تشير إلى أفعال غير متفق عليها لدى الآباء، كالقول بأن ملاكًا لعب دورًا في حمل مريم، أو أن المسيح تزوج من مريم المجدلية، لكنني للحق لم أقع على أيٍّ من هذه النصوص، وكنت أعتبرها خرافات، لكن ها أنا الآن أمام واحد منها.

حرص عماد على ألا أنصت إلى مكالمته فخرج من الغرفة ليتمشى بين ماكينات الطباعة، مما سمح لي بالاستغراق في القراءة، وكدت أن أقرأ المزيد لولا دخوله عليَّ كما لو أنه رأى عفريتًا في المكان:

- ماذا تفعل؟

لم أستطع أن أخبره بأنني أقرأ المكتوب، ولا حتى بمناقشته في حرف منه، فذهني قد تبلبل، وأخذت الشكوك تراودني حول ما يجري، وما كان يحدث وقت تولي أنطونيوس لأمر المطبعة في زمن إيمانويل الطيب. في النهاية أجبته أنني أستمتع بالفرجة، لكن عماد أزاحني عن المنضدة قائلاً:

- استمتع بعيدًا.

هززت رأسي وأنا أؤكد عليه بتسليمي له مظاريف يوساب، وأنني سأكتب له قائمة بالكتب التي في المكتبة، فهز رأسه وكأنه لا يعنيه ما أقوله، وانشغل من جديد في قص الأوراق الصفراء ولصقها على فرخ ورقي جديد.

-٢٣-

كان لا بد من الاستعداد للمجمع المسكوني الذي سيحضره مئات الأساقفة مـن مختلف كنائس العالم، فلا بد من حسم العديد من القضايا التي أربكت الكنيسة، في مقدمتها بدعة أريوس، وانشقاق ميليتيوس، والخلاف حول موعـد الاحتفال بقيامـة السيد المسيـح، وبتولية الكهـان، كان أثناسيوس يصـر على أن توضع هذه القضايا جميعًا على جدول أعمال المجمع، مغلقًا الباب الذي أطلت منه الفتن والبدع والهرطقات على مدار سنوات، فأخذ يعد لاجتماعات مطولة بين البابـا والأساقفة من جانب، ومراسلة كنائس القدسـ وأنطاكيا وروما وقرطبة واليونان من جانـب آخر، لم يكن ينام لا هـو ولا رفائيل الذي صاحبـه في كل خطوة يخطوها، حتى أن البعض كان يرى أن أثناسيوسـ الذراع اليمني لألكسندروس، ورفائيل الذراع اليمنـي لأثناسيوس. العديد من الاجتماعات عقدت، والعديد من الرسائل أرسلـت، والأوراق المصاحبـة كتبت ونسخت في عشـرات الصفحات، حرصـ أثناسيوس على جمع الآيات والعظـات والشروح التي تفند خطأ أريوسـ وبدعتـه، وأوكل لرفائيل أن يقوم بـدور أريوس نفسه، فيعمل فكـره في عرض أفـكاره ورؤاه، باحثًا عما يعضدها مـن الكتاب المقدس وأناجيل الرسل وعظات الآباء وقصائد أريوس نفسه، حتى أنه كان يشك في بعضـ اللحظات أنه أصبح مهرطقًا، فيستأذن أثناسيوس في الاعتراف بأن بعض أفكار أريوس تترك تأثيرها عليه، لكن أثناسيوس كان يضحك قائلاً:

- إن لم تتقن دور الشيطان فلن نستطيع هزيمته.

في النهايـة خرجـت سفينـة كبـيرة مـن الإسكندرية محملـة بعشرات الأساقفة من مصر والقدسـ وأفريقيا، ومعهم عشرات الشمامسة والخدم

المصاحبين، فضلاً عن الجنود الذين أرسلهم حاكم الإسكندرية ليكونوا برفقة البابا ألكسندروس وحماية موكبه، وهو الأمر الذي حرص ألكسندروس على إظهاره للجميع في نيقية، فهو الأسقف الوحيد الذي يلقبه أتباعه بكلمة بابا، وهو ابن مدرسة الإسكندرية العريقة في السياسة والحرب والثقافة والفن، كان ألكسندروس يعي كل ذلك وهو يفكر في إلقاء الرعب بنفوس أعدائه، فثمة مهام لا بد من حسمها من اللحظات الأولى، ولا ينبغي للرءوس أن تتساوى، ولا للجدل أن يأخذ مجراه طويلاً، الحسم هو العلاج الذي تحتاجه القضايا الكبرى، كي لا تتسرب المياه بفعل الزمن من بين الجدارن.

أرسل رفائيل بعدما عاد من نيقية إلى ديمتريوس الصغير قائلاً:

– ظللنا أكثر من أسبوعين في عرض البحر، قطعنا فيهما بحر الروم إلى الشمال، ومررنا بتكريت وجزر اليونان، لكننا لم نتوقف بها، فبعد يومين دخلت السفينة مضيقًا طويلاً اسمه الدردنيل أو جناكالي، ومنه وصلنا لبحر واسع اسمه مرمرة، فقطعته السفينة كاملاً نحو الشمال الشرقي، وهنالك نزلنا إلى اليابسة، فوجدنا عربات تجرها الخيول في انتظارنا، ظلت الخيول تقطع الأودية الفسيحة الخضراء على جانب بحيرة تتمدد نيقية في طرفها الشمالي، هي ليست مدينة كبيرة بحجم الإسكندرية، لكنها نظيفة وهادئة وبسيطة، لا يسكنها الكثيرون، بها خضرة تكسو كل شيء، وأمطار تتساقط طيلة النهار، كانت مزدانة بالصلبان والأعلام وأيقونات القديسين. وضعتنا العربات أمام الكنيسة الكبيرة، فنزلنا منهكين على نحو واضح، حتى أن بعض الآباء والأساقفة لم يستطيعوا السير، فأحضر الشمامسة المرافقون محفات وحملوهم إلى الداخل، كانت مهمتي أن أكون في معية البابا ألكسندروس، أن أكون عصاه التي يتوكأ عليها حسبما قال أثناسيوس، لا أتركه ولا أعيقه، وأكون عقبة في طريق من يقترب منه دون إذن، كانت هذه هي المهمة الأكثر إرهاقًا، فكثيرون كانوا يريدون السلام عليه، كثيرون كانوا يسعون لنيل البركة منه، ولم يكن أمامي سوى أن أستخدم الفطنة، وإن صعب الأمر فعليَّ أن أشير للحرس المرافق بالتدخل كي يفسحوا الزحام.

صلينـا في الكنيسة صلاة شكـر للمسيح على حمايته لنا طيلة الرحلة، ثم خرجنـا نبحث عن أماكن المبيـت التي أعدها مطران نيقيـة ساؤغنس، لم يكن بالمدينة غير نزُلٍ واحد بسيط، ومن ثم فقد طلب ساؤغنس من الناس أن يفسحـوا لنا أماكنهم في البيوت، ويبدو أنه أمر عددًا ليس بالقليل بترك منازلهم لأجلنا، كان لا بد من أن ينزل كل أسقف بالشمامسة المصاحبين له في مكان واحد، والحقيقة أن البيت الواحد كان ينزل به نحو ثلاثة أو أربعة أساقفة بمن معهم، كان عدد الأساقفة الذين وصلوا على مدار أسبوع نحو ثلاثمائـة وثمانية عشر أسقفًا، معهـم شمامسة وخدم مصاحبون، فنُصبت الخيام في الشوارع وعلى التلال والشواطئ، وظهر بعض الباعة الجائلين، وقد اشتريت كتابين للعلامة أوريجانوس من هناك، وبعضًا من الشروحات الغنوصية لأستـاذه إكلمندس السكندري، وأسرعت بدسها في حقيبتي كي لا يسألنـي أحد عن احتياجي لها، فـلا أحد سيفهم ما أريده من جمع نسخ نادرة من كتب الآباء والقديسين، وإرسالها إلى دير الملاح الآن، هذه الكتب يجب أن تقرأ بعناية وتفنَّـد بعناية وتشرح بعناية للناس، يجب أن يعاد النظر إليها على ضوء ما سيقرره المجتمعون هنا في هذه المدينة.

في اليـوم الثالـث لوصولنا أمرنا البابـا ألكسندروس بدعـوة الأساقفة وجميع الحاضرين لقداس سيرأسه، وأمر أثناسيوس أن يجهز نفسه لأمر مهـم في هذا القداس، لم نعرف على وجـه التحديد ما الأمر، لكن مع بدء انطـلاق أجراس كنيسة نيقية في صباح اليوم التالي أخبرني أثناسيوس أن البابا سيرسمه كاهنًا كـي يحق له أن يعظ في حضور الأساقفة، ولا تكون لأريوسـ وأصدقائه أوسابيوس أسقف نيقوميديا ومارس أسقف خلقدونية وأوسانيوسـ أسقف قيصريـة وثاؤغنس أسقف نيقيـة، حجة الاعتراض علـى مخاطبته لهم أمام الأساقفة. فهمت منـه أنه ليس له دخل في الأمر، وأن الـذي نصح ألكسندروس بذلك همـا صديقاه بفنوتيوس أسقف طيبة، وبوتامـون أسقف هرقلية بأعالي النيـل، فأخبرهما ألكسندروس أنه كان ينتظـر المناسبة اللائقة، وها قـد جاءت، ومن ثم استـأذن أسقف نيقية في إقامة القداسـ، وفي نهايته وأمام جميع الأساقفـة والشمامسة الحاضرين قام بترسيمه كاهنًا.

في اليوم التالي حضر إلى المدينة الإمبراطور قسطنطين، فاستراح يومًا ثم أمر ببدء أعمال المجمع في اليوم التالي، فكان افتتاحه يوم العشرين من مايو، وكان الإمبراطور وأسقف نيقية قد رأيا أن يكون المجمع برئاسة الأنبا أوسيوس أسقف قرطبة، لكن أوسيوس وجد حرجًا في رئاسة المجمع والبابا ألكسندروس موجود، خاصة وأن أغلب الحضور أساقفة الشرق الذين يجلونه، فقد حضر من الشرق نحو ثلاثمائة وعشرين أسقفًا، بينما لم يحضر من أساقفة الغرب سوى ثمانية فقط، فاعتذر أوسيوس مطالبًا الإمبراطور بدعوة ألكسندروس لرئاسة المجمع.

في البدء رأى ألكسندروس أنه لا يجب أن يكون الخصم والحكم، فمن المفترض أن القضية الأولى التي جاء المدعوون لمناقشتها هي الهرطقات التي يقولها أريوس، والحكم فيما إذا كانت من صحيح الدين أم لا، لكن أثناسيوس تحدث أمام الإمبراطور قائلاً إن هذه واحدة من القضايا التي اجتمع الأساقفة من أجلها، فهناك قضايا سيتم النظر فيها من قبل الحضور، من بينها بَتوليَّة الكهان، فهل يحق للكاهن أن يتزوج أم لا، وإذا تزوج فهل يحق له أن يكون أسقفًا أم لا؟ وهل يحق للأسقف أن يرسم كهانًا خارج أسقفيته أم لا؟ وهل تقبل الكنيسة عودة المعترفين بكفرهم في زمن الاضطهاد كما فعل بطرس وأرشيلاوس وألكسندروس، أم ترفضهم كما فعل ميليتيوس وأتباعه؟ وهناك لائحة الإيمان التي اعتمدها أساقفة الإسكندرية في مجمعهم، فهل يعتمدها المشاركون في نيقية لتكون قانون الإيمان الحاكم للجميع أم لا؟

كانت أسئلة أثناسيوس قوية وواضحة، حتى أن الإمبراطور دهش من حضور بديهته، فوافقه هو وألكسندروس، وجلس الإمبراطور في اليوم الأول أمام منضدة كبيرة في مواجهة المجتمعين، طالبًا من أسقف نيقية أن يجلس بجانبه، ثم طالبًا من البابا ألكسندروس أن يجلس بجانبهما، فعاونا ألكسندروس في سيره حتى جلس على يمين الإمبراطور، فألقى الأخير كلمات بسيطة عن السبب الذي دعا من أجله لمجمع مسكوني، موضحًا أن الخلافات قد كثرت بين الكنائس، ولا يريد لها أن تفتت إمبراطوريته،

ومــن ثم فإنه ينتظر من المجتمعــين في نيقية أن يجدوا حلولاً لكل الخلافات الكبيرة، وما ينتهون إليه سيكــون بمثابة القانون الحاسم لكل الأمور، ثم طلــب من الأساقفة أن يعلنــوا عن القضايا التي ينبغــي لمجمعهم المقدس أن يفصــل فيها، وكان ذلــك إيذانًا ببدء النقاش من أجــل إدراج القضايا التي يجــب مراجعتهــا، فقام كثــيرون ووعظــوا وطالبوا بــإدارج العديد من القضايــا، لكــن أريوس ومن معه اعترضــوا على جلوســ ألكسندروس بجــوار الإمبراطور، فما كان مــن أتباع ألكسندروســ إلا أن وصفوهم بالمهرطقــين الذين لا يحق لهم الحديث، فــرد أتباع أريوس بأنهم يستقون أفكارهم من الوثنيين، وأن الوثنية تسيطر على كنيستهم، فعلت الأصوات واختلطت الوجوه، واعتدى أحد الأساقفة على غريم له بالضرب.

كان ذلك بمثابة إهانــة للإمبراطور، وعدم تقدير لحضوره، فما كان منــه إلا أن نهض تاركًا الجلسة، واضطر ثاؤغنســ أسقف نيقية أن ينهي اجتمــاع اليوم الأول، وسرى الخبر بين الجميع أن الأساقفة الكبار ذهبوا إلى خيمــة الإمبراطور معتذرين عما حدث، مؤكدين أن ذلك لن يتكرر، ومــن ثم عاد الإمبراطور في الصبــاح لكرسيه، وبدأت النقاشات هادئة، لكــن حدتها سرعان ما تصاعدت، وشعــر قسطنطين أن الأمور ستخرج عن سيطرة ثاؤغنس من جديد، فنهض من مكانه قائلاً:

– لم أكــن أتوقع من كهنة الرب وأساقفتــه مثل هذا السلوك، عليكم أن تخجلــوا، لأن مــن يعلو صوته في كنيسة الرب فإنــه لا يستحقها، لقد جئنا لننهي خلافات الكنيسة لا لنبدأ خلافات جديدة، ومن كانت لديه هذه الرغبة فإنني أعتــذر لكم، فما يشغلني أكثر من انتصاراتكم لأنفسكم، وعن نفسي أرى أن الاحتفال بقيامة السيد المسيح في وقت احتفال اليهود بفصحهم أمر غير لائق، وأن رئاسة الإمبراطور لمجمع مقدس أمر غير لائق، لذا فمن سيرأس هذا المجمع هو أسقف مدينة الإسكندرية لما لها من مكانة عظيمة في نفوسنا جميعًا.

كان الإعــلان عن رئاسة ألكسندروس للمجمع بمثابة الصاعقة بالنسبة لأريوس وفريقــه، ففي الوقت الذي هلل فيه كثير مــن الآباء ترحيبًا فإن

أريوس وأوسابيوس ثارا معلنين رفضهما، وهو ما أعاد الغضب إلى وجه الإمبراطــور من جديد، حتى أنه أشار لقائــد حرسه بالوقوف على الباب بكامل عدتــه الحربية، فوصلت الرسالة للجميــع، وساد الصمت برهة لم يقطعهــا إلا صــوت ألكسندروس وهو يتلو صلاة الشكــر للرب على نعمه وعطائه لشعبه وبني الانسان.

أدى انتقــال ألكسندروســ إلى رئاســة المجمــع إلى أن وقعــت المهمــة الرئيسية في رفض بدعة أريوس وهرطقاته على كاهل أثناسيوس، فوقف يشــرح ويفنِّد ويرد على كل كلمة يقولهــا أريوس وأعوانه، منتهيًا إلى أن تعاليم أريوس تؤدي إلى أمرين غير لائقين، الأول أنها تنهي على القول بالثالوث المقدس، وتفتح الباب للاعتقاد بتعدُّد الآلهة، إذ إنها تسمح بعبادة المخلوق، أمــا الثاني فإنها تنهي على فكرة الخلاصــ للأبد، لأن المخلص الذي يخلص البشرية يلزمه أن يكون حاصلاً على اللاهوت الكامل، وإذا كان الكلمة قد أخذ على عاتقه أن يؤله الإنسان، فكيف يمكنه أن يقوم بذلك وهــو ليس واحدًا في الجوهر مع الله؟ فالمسيح لم يصر ابنًا لله جزاء لكماله الأدبي، بل على العكس، فإنه هو الذي ألهنا، أي جعلنا إلهًا، ومن ثم فإنه لم يكن إنسانًا ثم صار إلهًا، لكنه كان إلهًا ثم صار إنسانًا كي يؤلهنا.

كان أثناسيوســ يلقي خطبتــه والقاعة تكتم أنفاسهــا، فالكل تحول إلى آذان كبيرة وعيون شاخصة، وحده ألكسندروس كان جالسًا على المنصة إلى جانب الإمبراطور مبتسمًا وهو يهز رأسه موافقًا على ما يقوله تلميذه، ويبدو أن أريوس شعر أن البساط قد سحب من تحت قدميه، وأن أشعاره التــي كان يتغنــى بها هــو وتابعوه لم تعد تجــدي نفعًا، فنهضــ من مكانه مخاطبًــا ألكسندروس في حيلة أخيرة لخلط الأوراق، وإظهار الأمر على أنه من بدئه محض مؤامرة دبرها ألكسندروس، فراح يصرخ فيه:

– لقــد تلقينا إيماننا منك، ومن تعاليمك، ومن عظاتك لنا، فلمَ ترفضها الآن، لمَ تخرجنــا من عباءتك، وتلقي علينــا بغضب الأساقفة والأحبار، وكأننــا لا نريد وجــه المسيح، ولا فعــل الحقيقة، لم ترفضنــا الآن ونحن تلامذتك؟

هنالك ضجت القاعة بالهمهمات، وأخذت الأصوات في التعالي، وبدا على وجه الإمبراطور أن الصراخ موجه له هو، فقطب جبينه وحدق في أريوس بعينيه، لكن البابا ألكسندروس رفع يديه عاليًا، مشيرًا للجميع بالصمت، فخفتت الأصوات من جديد، حتى أن أريوس نفسه أدرك أنه ارتكب خطأ لم يكن في الحسبان، فخفض من حدة صوته، ثم سرعان ما التزم الصمت كالجميع، فما كان من ألكسندروس إلا أن سأله:

– يا أريوس . . . أتؤمن بأن المسيح إله مخلوق وليس من جوهر الآب؟

فقال أريوس:

– نعم.

فساله ألكسندروس:

– وإنه كائن وسيط بين الله الإله الحقيقى (الآب) وبين العالم المخلوق، لأنه لا يليق أن يتصل الله بالخليقة، وأنه أسمى من أن تكون له علاقة مباشرة بها؟

فأجاب أريوس:

– نعم

فسأله ألكسندروس:

– وهل عبادة من خلقنا أوجب أم عبادة من لم يخلقنا؟

فوجئ أريوس بالسؤال، والتزم الصمت، لكن ألكسندرس ألح عليه بالإجابة حتى قال:

– بل عبادة من خلقنا.

فرد ألسكندروس:

– فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تكون عبادة الخالق كفرًا وعبادة

المخلـوق إيمانًـا، وهذا أقبح القبـح، وأنا بـريء منه، لأننـي أؤمن بإله واحد، هو الله الآب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُـرى، أؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن اللـه الوحيد، المولود من الآب قبـل كل الدهور، نور من نور، إله حـق من إله حق، مولود غير مخلوق، مسـاوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء. هذا الذي من أجلنا نحن البشرً، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنَّس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، تألم وقُـبِر وقام من بين الأموات في اليوم الثالـث كما في الكتب، وصعد إلى السمـوات وجلس عن يمين أبيـه، وأيضًا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء. أؤمن بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الآب، أسجد له وأمجده مع الآب والابن، الناطق في الأنبياء. أؤمـن بكنيسة واحدة مقدسة جامعـة رسولية، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفـرة الخطايا، وأنتظـر قيامة الأمـوات وحياة الدهر الآتـي. آمين.. آمين.

-٢٤-

لم يتوقع أنطونيوس أن تسـير الأمور على غير ما فكر فيه، فقد كانت العلاقـة بين دميانة وأمهـا بسيطة وواضحة، دفعتهمـا الوحدة لأن تكونا صديقتـين، حتـى أن دميانة كانـت تحكي لها كل ما يـرد في ذهنها وليس ما يحدث لهـا فقط، حين جلس أنطونيوس على الكنبـة التي في الصالة لم يعرف بمَ يستطيع الرد على سؤال تريزا إن كانت الكنيسة قد وجدت ابنتها أم لا، فنكس رأسـه في الأرض واستجمع قواه كي يقـول إنه من الدير الـذي كانت تعمل فيه، وأنه جاء ليسأل عنهـا بعدما غادرت الدير فجأة. بدا علـى تريزا أنها تتفهم ما يقولـه الكاهن الجالس أمامهـا بثيابه السوداء ولحيتـه الطويلة وصليبة الكبير الذي ينام علـى بطنه، سكتت قليلاً وكأنها تبتلع حزنها، ثم سألت:

- هل تعرف أنطونيوس؟

هنالـك انفرجت أساريره ولمعت عينـاه بابتسامة كبيرة وهو يهز رأسه كطفل صغير قائلاً:

- أنا أنطونيوس.

ردت عليـه بهدوء موضحـة أنها تعلم أن ابنتهـا في ضيق كبير، وأنها رأتهـا في الحلم تعاني من هـذا الضيق، فذهبت لتسـأل عليها في الكنيسة، لكنهم أخبروها أنهم لا يعلمـون عنها شيئًا، ذكرت لهم أن ابنتها تعمل منذ ثلاثـة أعوام محققة في دير الملاح، وأنهـا رأت العذراء في منامها تمد لها يـدًا لتخرجهـا من بئر سقطت فيها، ولا بد أن ابنتهـا التي لم تعد للبيت منذ نحـو شهر تعاني خطرًا ما، ولا بد مـن إنقاذها، لكنهم ضحكوا وظنوا أنها تهذي، وحين ملُّوا سماع حكايتها تجهم أسقف كبير في وجهها قائلاً:

- هذه هرطقة وتجرؤ على العذراء.

حينها لملمت حزنها الذي طرحته أمام الجميع، وخرجت منكسة الرأس تعـزي نفسها، كانت تدرك أن دميانة تعاني أمـرًا يحتاج إلى معجزة كي تنجـو منه، وأنها لا طاقة لها بالمعجزات، فعـادت إلى بيتها، ودخلت إلى الركـن الذي تحمل فيه العذراء طفلها المسيح على ذراعيها، فأشعلت عشر شمعـات وجلست تبكـي، كانت عيناهـا تتفجران بالدمع كما لـو أنه حمم تتدفق من جـوف بركان نشط، ظل وجهها معلقًا بصـورة ابنتها وأيقونة العـذراء والشموع المتلألئة حتـى غلبها النعاس فنامـت في مكانها، حينها رأت أنطونيوسـس، بنفس الهيئة التي يجلس بها الآن، كان طويلاً وصامتًا كملاك أرسله الرب ليقف ببابها، لم تعرف بمَ عليها أن تحدثه، فقط ألقت بنفسهـا أسفل قدميه وبكـت، فقبض عليها ورفعها عاليًـا، كانت تطير في الهـواء وهي تنظر في وجهه المبتسم، ووجهـه المظلم الغاضب يتطاير منه الشـرر، كانت تبكي خوفًا مـن غضبه وتضحك فرحًـا لابتسامته، بعدها أوقفهـا على الأرض وأشـار نحو السماء، كانت دميانـة تسير إلى جانب العـذراء في سحابة خفيفة بيضاء، رفع يديه لتصبـح بالتقاطع مع جسده، وضـرب بقدميه الأرض فاندفع في الهواء نحـو السحاب، وانطلقت معه دميانة إلى عالم بعيد.

كانت تريزا تنتظر أن يجيئها أنطونيوس، فأغلقت بابها على نفسها ولم تخرج، كأنها كانت تخشى أن يجيء في وقت خروجها، حين فتحت الباب ورأتـه طويلاً وفارعًا أمامهـا، أدركت أنه الملاك الـذي كان في الحلم، وأن ابنتها ستكـون من اليوم في أمان، لكنها لم ترد أن يختلط عليها الحلم بالواقـع، فأبعدته جانبًا وتعاملت بالعقـل، سألته إن كانت الكنيسة وجدت ابنتها؟ صمته كان الإجابة الأبلغ، فالملاك لا يكذب ولا يصدم، لذا يفضل الصمـت، رحبت به وأدخلته ليجلس حيثما تجلس ابنتها دائمًا، ومن جديد عاودت السـؤال، لكنها في هذه المرة كانت أكثر تحديـدًا، فسألته إن كان يعـرف أنطونيوس، هذا الاسم الذي تردد طيلة الحلم في أذنها كالصدى، وانتظرت إجابة حاسمة، فالملاك لا يكذب ولا يصدم.

كانـت دميانة قد حكت لأمها عن أنطونيوس الذي رأته في الدير بسمت الملائكة، هادئ وبسيط لكنه في نفس الوقت يعمل قاتلاً مأجورًا، كان ذلك قبـل أن يدعوه إيمانويل الطيب للتخلي عن حياتـه والمجيء خلفه، لم تكن دميانـة تعرف سببًا لحكيها عنه، لكنهـا كانت تدرك أنه سيصبح جزءًا من حياتها، فثمة تآلف بين روحه وروحها، ثمة لهفة عليه، وارتجافة نحوه، ثمة يقين بأنهما سيرتبطان معًا، لكن كيف؟ هذا ما لم تكن مخيلة دميانة ولا أمها قادرتين على تصوره.

لكـن الأيام دائمًا ما تفصحِ عما كانت تخبئـه، فها هو أنطونيوس الحلم والحقيقـة يجلس أمامها بديلاً عن ابنتها، يجلس بخجلِ راعٍ بسيط في نفس مـكان دميانة، وربمـا جاءها بديلاً عنهـا، فالرب أَعطـىَ والرب أخذ، والـرب معنا في الضيـق والفرج. هكذا هزت رأسهـا لنفسها وهي تعد له شيئًا يأكله.

فهمت منه أنه ترك الدير بعد وفاة صديقه باخوميوس، هذا الذي حدثتها دميانة عنه أيضًا، وفهمـت أنه الآن مطارَد وربما متهم بقتله، فأيقنت أنه في نفسـ الجب الذي سقطت فيه دميانة، وراودهـا شعور بأن تحسن إلى ابنتهـا فيه، فعرضت عليه أن يبيت الليلـة بشقتها، حين علا وجهه الحرج من المبيـت في منزل سيدة وحيدة، قالت إنهـا في منزلة أمه، وأنه راهب وهـب حياته كلها للرب، وهذا البيت طالمـا كان مسكونًا بأناس آمنوا بالله على طرائقهم المختلفة، فلم لا يكون واحدًا منهم؟!

في المسـاء جلس في مكتب صلاح متري يقيم صلواته الخاصة، ثم أوى إلى كنبـة بجوار المكتبة ليفرد عظامه عليهـا، كانت عينه معلقة على أيقونة العذراء المعلقة في مواجهته، ظل يتأمل ملامحها التي رأى أنها تشبه ملامح دميانـة كثيرًا، لكن دميانة جاءته باكية، رأى جسدها متعريًا وهي تبكي، وخشـي عليها من الثعابين التي تتقافز نحـو قدميها، صرخ فيها أن تنتبه، ودلهـا على أماكن الخروج، لكنها لم تكن تسمعـه، ولم يكن أمامه إلا أن يلتقط الثعابين بيديه ويلقيها للسماء، وفي غمرة حماسه شعر بلدغة في قدمه فانتفض جالسًا في مكانه.

نهضــ من الفراش ملقيًا اللعنة على الشياطين وأباطيلها، مستجيرًا منها بالسيد المسيح، باحثًا عــن مكان غير جمرة النار التي نهض منها، لم يكن هناك سوى كرســي من البلاستك أمام منضدة عليها شاشة كمبيوتر، لكنه فضــل أن يجلس على كرسي المكتب، باحثــا بعينيه عن شيء يساعده على نسيــان ما رآه، كان المكتب مليئًا بكتب غريبــة، قلب في عناوينها فوجدها جميعًا في القانون، لكن عينه وقعت في النهاية على عنوان كبير "دفاعًا عن أوريجانوس"، كان على مجموعة كبيرة من الورق المطبوع بالكمبيوتر، والموضــوع في ملف بلاستيكي شفاف، دقق بنظــره باحثًا عن مؤلفه ولم يصدق أنه "صلاح متري المحامي" والد دميانة.

مــا إن انتهى من قــراءة ما كتبه صلاح متري عــن أوريجانوس حتى شعــر أنه أصبح شخصًا مختلفًا، فنهض مــن مكانه باحثًا عن النافذة ليلتقط هواء الصبــاح الجديد، كان النهار قد ظهر بضوئــه الحليبي في الخارج، وأخــذت أصوات العصافير تظهر على استحياء في الشارع، وسرعان ما تعالت بعض الصيحــات هنا وهناك، تمنى لو أنه يستطيع الخروج الآن، لكنــه لم يرد أن يكــون ضيفًا مزعجًا، فألزم نفســه بالبقاء في كرسيه حتى طرقت عليه تريزا الباب، وجدها أعدت فطورًا وجلست تناقشه في خطتها للبحث عن دميانة، بعدها نهضا متجهين إلى الكنيسة الأم، حيث الردهات المليئــة بالأساقفة والقساوسة والعاملين في المكان، قالت إنها ذهبت من قبل وعادت كسيرة الخاطر، بعدما شعــرت أنها تتسول الاطمئنان منهم على ابنتهــا، هز أنطونيوســ رأسه مؤكدًا أنه لن يتركهــا تخوض هذه الحرب وحدها من جديد.

مــا إن وصلا للكنيسة حتى غابا في الردهة الكبيرة الطويلة، كان يتلقى التحية بوصفه قسًّا، لكنه من داخله كان يرتعد كهارب في شوارع المدينة، مــا إن وصلا إلى مكتب أسقــف التحقيقات الكنسية حتــى طلبا لقاءه، لكن القس الذي يتولى إدارة مكتبه نادى تريزا:

– كنت هنا من قبل؟

نظرت إليه تريزا بتحد وحزن:

– ابنتي مختفية منذ شهر.

وقبل أن يفتح القس فمه كان أنطونيوس قد تدخل:

– أنا من دير الملاح، وهي مختفية بالفعل.

نظـر الأسقـف إلى أنطونيوسـ طويل القامـة ذي اللحية الكثـة والرداء الكهنوتـي، ثم أمـر أحد العاملـين في مكتبه لإحضار مقعـد للسيدة والقس، متوقفًا في نطقه لكلمة القس وكأنه يتساءل عن اسمه، وبتلقائية شديدة أجابه:

– أنطونيوس.

سـأل تريزا عـن اسم ابنتهـا والدير الـذي كانت تعمل فيـه، ثم سأل أنطونيوس إن كان من رهبان هذا الدير أم لا، وشعر أنطونيوس أنه أمام تحقيـق، وأن قدمه انزلقت أكثر مما ينبغي، ففضل الصمت على الكذب، وتدخلـت تريزا لتجيب نيابة عنــه موضحة أنه ابن أختهـا، ويعمل راعيًا لكنيسة في المنصورة، فهز أنطونيوس رأسه وكأنه يؤكد كلامها.

وضـع مدير المكتـب ابتسامة لزجة على وجهه وهـو يستأذنها للدخول إلى الأسقـف، ولم يستطع أنطونيوس أن يمنع نفسه من الابتسام حين لمحه يتحرك كبرميل صغير نحو الباب الفاصل بين مكتبه ومكتب رئيسه، لكنه مـا إن أغلق الباب خلفه حتى مالت تريـزا منبهة أنطونيوس إلى أنه رجل شريـر، فاشتعلت حواسه، وراحـت عيناه تتنقلان في المـكان، رأى أن الحركة غير عادية، وأن عدد الضيوف المنتظرين قد تضاءل، فأدرك أن ثمـة من يمنع الناس بالباب مـن الدخول، لم يحتج الأمر كثيرًا من الوقت كي يـدرك أنه عما قليـل سيواجه مشكلة في المكان، فطلـب من تريزا أن تسبقـه إلى البيت، وما إن خرجت أمسـك بنسخة من الكتاب المقدس وأخذ يترنم:

– هـا أنت جميلة يا حبيبتي، ها أنــت جميلة، عيناك حمامتان من تحت نقابـك، شعرك كقطيع معـز رابض على جبـل جلعـاد، أسنانك كقطيع الجزائـز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحـدة متئم وليس فيهن عقيم،

شفتـاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو، خـدك كفلقة رمانة تحت نقابك، عنقـك كـبرج داود المبني للأسلحة، ألـف مجن علق عليـه، كلها أتراس الجبابـرة، ثدياك كخشفتي ظبية، توأمين يرعيـان بين السوسن، إلى أن يفيـح النهار وتنهـزم الظلال، أذهب إلى جبل المـر وإلى تل اللبان، كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة.

كان صـوت أنطونيوس رخيمًا وقويًا، وكانت صورة دميانة في عينيه وهـو يتصبـب في حبها، لم يكن يقـرأ بقدر ما كان يستحضـر روحها إلى جانبـه، لم يكن منتبهًا إلى أن الشمامسة والموظفـين والعابرين في الردهة الواسعة قد توقفوا لسماعه، وأن الأسقف الكبير خرج من مكتبه ليراه وهو يتغني بحبيبته الغائبة وسط حلقة كبيرة:

– مـا أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم، دوائر فخذيك مثل الحلي، صنعـة يـدي صناع، سرتك كأس مدورة لا يعوزها شـراب، ممزوج بطنـك صبرة حنطة، مسيجـة بالسوسن، ثدياك كخشفتـين توأمي ظبية، عنقـك كبرج من عـاج، عيناك كالبرك في حشبون عنـد باب بث، ربيم أنفك كبرج لبنـان الناظر تجاه دمشق، رأسك عليك مثل الكرمل، وشعر رأسـك كأرجوان ملـك قد أسر بالخصـل، ما أجملك، ومـا أحلاك أيتها الحبيبة باللذات.

لم يكـن أمام الأسقف إلا أن أخذ يصفق محاولاً إنهاء إنشاد أنطونيوس البديـع، وتفريق الناس من حوله، لكن الأخـير تحرك نحو الباب مكملاً إنشـاده بين مستمعيه، كانت ترانيمه القويـة الباكية المتصببة تزداد روعة كلمـا خطا خطـوة في الردهات، حتى أن الجميع ظـن أنه راهب منجذب بالبتـول مريم، فما بين مـادح وما بين متأسٍّ لحالـه، تركوه يتحرك في الردهـة نحو البـاب الخارجي، ولم يملك الأسقـف ولا أي من رجاله أن يعترضوه، فخرج أمامهم ليذوب في الشارع الكبير.

-٢٥-

ثمــة أمران حالا دون أن تلقي مريانــا بضيفتها من فوق الجبل وتنتهي من أمرهــا، كان الأول خوفها من مساءلة الشرطــة لها، فقد جاءتها عن طريقهــم، وربما كانت عينًا لهــم لمعرفة أسرار الدير، الأمــر الثاني أنها حــين طالعت الكراسة التي وجدتها الأخوات في قلايتها قرأت اسم صلاح متري، وحــين سألتها عنه أخبرتها أنها ابنته، للحظة فكرت مريانا في أن الدنيا قد تكون صغيرة إلى هذا الحد، فصلاح متري أحد المؤسسين لجماعة الأمة القبطية، فهل يمكن أن تكون ابنته حقًّا؟

في سريــة تامــة أرسلت مريانــا في لقاء الأب يؤانس كــي تشرح له ما جــرى، وكان عليها أن تنتظر يومين قبل أن ينتقل من دير درنكة ليجيء قلايته القديمة في الجــزء الخلفي من دير النساخ، فحملت في يدها الكراسة وما بها من حكايات وأسماء، وأمرت بفتح الباب السري الفاصل بين دير الراهبات والجزء الذي اختبأ فيه الرهبان حين أمر يوساب الثاني بإغلاق الدير، لم يكن إيمانهم بفكرة النسخ التي أفنوا فيها أعمارهم هو وحده الذي يلزمهم بالبقاء قريبين من ديرهم، لكن إيمانهم أيضًا بضرورة الحفاظ على رسالتهم في تقديم كل الرؤى، ســواء اتفقت مع الكنيسة أم اختلفت معها، فجميعها تبحث في وجود الله وطبيعته، ولا بد من تدبر أوجه الحكمة فيها.

كانت مريانا في سنوات طفولتهــا قد وهبت نفسها لمهنة النسخ، فجلست تتعلم وتمارس فنون التعامل مع الهوامش والمتون، لكن الدير كان قد فقد الكثير مــن قدراته، وحُرم من الراغبين في شــراء مخطوطاته، وتحول الناس لدير الشراح، حيث أحضر آباؤه مطبعتين وبدأوا في نسخ ما لديهم من أعمال، فأصبح الدير النائم على هضبة في جبال القلزم، قبلة الباحثين عن الأمهات والأصول في الكتب.

حين انفتح الباب ودخلت مريانا إلى الجانب الآخر من الجبل، رأت بعض النساخ القدامى جالسين في قلاليهم يمارسون أعمالهم بنفس الدقة والانتظام رغم تقادم العهد وتقدم العمر، وقفت أمام قلاية تبدو من الخارج متهدمة وطرقت بابها بأدب شديد، سمعت سعالاً وصوتًا يأذن لها بالدخول، كان ذلك صوت الأب يؤانس الذي تجاوز التسعين من عمره، رأته نائمًا في سريره يعاني نزلة برد، لم يكد جسده يتضح من بين ثنيات الفراش، ولولا لحيته الطويلة التي يهذبها بزيت الكافور ما عرفت عيناها الطريق إليه، حاول الاعتدال في جلسته، وهي حاولت مساعدته في النهوض، ثم حكت له ما حدث بدءًا من اتصال المأمور بها حتى عثورها على أوراق دميانة واسم صلاح متري.

ما إن تناول يؤانس الأوراق من يدها حتى كتم سعاله وبدأ يطالع ما كتب فيها، ثم أرسل بعد يومين إلى مريانا كي تعيد عليه كل ما قالته من جديد، أعطاها أذنه وعينه وجلس ينصت باهتمام لا حدود له، وحين أنهت كلامها قبض على يدها طالبًا رؤية الفتاة ليتأكد من بعض الأمور، حاولت مريانا أن توضح أن وجودها في الدير قد يعرضهم لمشكلات ينبغي تجنبها، وأن الحل يكمن في التخلص منها بطريقة لا تجعل الشرطة تطالبهم بها، لكن العجوز هز رأسه مبتسمًا، وفتح عينيه مصرًّا على رؤية دميانة، فنهضت مريانا من مكانها كلبؤة في طريقها إلى فريسة.

تطلع يؤانس في وجه دميانة، ثم طلب منها أن تجلس بالقرب منه، حين فعلت داعبها كجد عجوز، ممتدحًا خجلها وجمال طلتها، وراح يسأل عن تعليمها، واسمها بالكامل، كانت دهشته كبيرة حين تأكد أنها ابنة صلاح متري، وببساطة سألها عن أمها تريزا، فصعقت من معرفته بها، ورأته يضحك حتى سقط طاقم أسنانه من فمه، ثم أومأ لمريانا أن تتركهما معًا، فشعرت دميانة أنه الملاك الذي أرسله الرب لإخراجها من هنا.

– وماذا عن أوريجانوس؟

سألها بدلال كما لو أنه يطلب منها الحديث عن أنطونيوس، فضحكت، وتذكرت ما كتبه والدها في أوراقه، تلك التي بفخر كتبتها في ملف على

الكمبيوتر طبعت منه عدة نسخ، كان واحدًا منها لا يفارق مكتبه. كانت سعيدة بما قرأت فيه، وفخورة بأن والدها شخص مختلف عن أقرانه، لأنه ليس محاميًا للفقراء فقط، لكن كاتب له رسالة، حتى وإن كانت رسالته عن شخص حرمته الكنيسة.

حين لمس يؤانس يدها انتفضت مستيقظة من أحلامها، سألها عن سبب شرودها، فردت عليه بتوجس:

– من أين علمت؟

هز العجوز رأسه وكأنه يسترجع الزمن البعيد:

– كنت مدرسًا للألعاب، وكان والدك تلميذي، كان صغير الحجم ولا يصلح لشيء، أنقذته عدة مرات من أيدي زملائه، لكنه كان كثير الجدل، أحببته لشجاعته وعناده، ورغبته في تعليمه كيف يواجههم، لكنه فشل، رغم ذلك صرنا أصدقاء، وحين دخلت الدير كان الوحيد من بين الذين علمتهم الذي أحضر والده وجاء لزيارتي، لذا حين فكرنا في إشهار الأمة القبطية أصررت على أن يكون من بين المؤسسين، لم يكن يتجاوز الخامسة عشر من عمره، لكنني اعتبرته ابني الذي لم أنجبه، ودافعت عن حقه في الثورة.

-٢٦-

رسائل أوريجانوس(١١)

عزيــزي ديونسيوســ، أرسل إليك هــذه الرسالة وقــد تمكنت الآلام منــي، فأماكن القيود والجلد والكي تحولت إلى قُــرح لا تريد أن تندمل، ولا تشفع معها وصفات المجربين ولا حيل الأطباء، وزاد الأمر سوءًا أن الضلــع المكسور أسفل إبطي تورم وحرمني النوم، حتى أن نومي لا يزيد عــن غفوات وأنا جالســ على حالي، تلامذتي وأصدقائــي يعاونونني في كل شــيء، بدونهم ما كان لي أن أكمل يومًا واحدًا على قيد الحياة، لكنني بحــق أشعر أنني أثقلت عليهم أكثر مما ينبغي، ويبدو أنه لا مفر من الموت لعجــوز منهك مثلي، فالموت سترة، المــوت دواء العظام الهرمة، سيظل الكائــن الوحيد المتاح له أن يدب علــى قدميه ليل نهار إلى أن يفني كل من على الأرض.

صديقــي، لا أعــرف سببًــا واضحًا للكتابــة إليك، فربما لأنــك أبديت رغبتــك في عودتي إلى بلادي، وربما لشعــوري بدنو الأجل، ورغبتي في الاعــترف على يديك، رغم بعد المسافة بيننــا، وربما لأنني أردت أن أترك شهادة مني للجميع بما جرى، فأنا على يقين أن الكثيرين سيختلفون حول ما جرى، وربما يراني البعض قديسًا، بينما سيراني آخرون بمثابة الشيطــان اللعين، لكنني لا هذا ولا ذاك، أنا محض رجل محب للمعرفة، لا يغلق ذهنه على فكرة بعينها، ويوقن دائمًا أنه لا عمل مكتمل، وأنه مهما كنا على صواب، فثمة احتمال وارد بأننا على خطأ، وعلينا أن نحترم هذا الاحتمال وندقق فيه مثلما ندقق في أقوالنا الصائبة، فأنا محض رجل مؤمن بالله وباحث في كل ما يتعلق به، لكنه غير مغلق لذهنه على فكرة أو قول،

مؤمـن بكل ما سبق، ومؤمن بالشك فيه أيضًا، وعدم القدرة على تصديقه كاملاً، لا أدعي القداسة ولا يمكن اعتباري محض عابر في طريق خطأ.

إننـي يا صديقي أراهن علـى الزمن، فحين ينسى الناسـ الخطأ فإنهم يمكنهم أن يروا الأمـور بحياد واضح، وحين يتحررون من الحب فإنهم يمكنهـم أن يروا الأمور بحيـاد واضح، تذكرت أن الخطـأ والوقوع في الحـب يؤديان إلى فقـدان الصواب، وكلا الأمرين حدثـا معي، الكنيسة ومـن بها من رجالك وأصدقائك لن تنسى أنني خرجت عليها، وصرخت في البريـة بخطأ ديمتريوسـ في استبعادي منها، مؤكـدًا أنني لدي الكثير ممـا يستحق النظر إليه، وما أقوله ليسـ هراء ولا هرطقة كما يزعمون، أمـا أصدقائـي هنا في الشرق، هـؤلاء الذين عشت بينهـم، وتعلموا على يدي، فلا يمكنهم أن ينفلتوا من إسار حبهم لي، وما إن أرحل حتى سيتسع الخـلاف، وكل فريق سيكون فرحًا بحكمه، وهو ما سيجعل اسمي يتردد في كل بيـت، ويجلب آخرين مـن بعدي ليكملوا ما قد بـدأت، وسيضيق صـدر الكنيسة بهـم مثلما ضاق صدرها بي، وستلجـأ إلى كتبي ورسائلي ليس للرد عليهم فقط، ولكن لإلزامهم بحدود الإيمان القويم.

أراهن على الزمن يا سيدي، وأعرف أنه سيكون في صالحي، وأخشى ما أخشاه على كنيستنا الموقرة من الثبات والجمود، أخشى عدم فتح أذهانها لاستيعاب الآخرين، هؤلاء الذيـن يشاركونها في البحث عن حقيقة الله، هـم ليسوا كفارًا يا صديقي، هم باحثون مثلنا، ربما أخطأوا، وربما ضلوا الطريق، لكن إسهامهم أضـاء مناطق ما كنا نعرفها، ولا أظن الله بكارهٍ لهـا، لأنها تجعل اسمه يتردد في كل بيت وعلـى كل لسان، يتردد بوعي وليس مجرد ترتيل أو تكرار، هؤلاء لهم شرف المحاولة، فضيلة الخطأ، لأننـا لا نتعلم بغير الخطأ، ولو لم نكن مخطئين ما كنا بشرًا، وما نزل الله ليخلصنا من خطايانا.

في صبـاي كنت أتردد علـى الميوزيوم، وأنصـت لفلاسفة الرواقيين والأفلاطونيين، مثلما كنت أتردد على إكلمندس، ذلك الذي جلس أمامي ذات يوم قائلاً:

– ليســت الغنوصية كل الغنوصية على خطــأ، هي فقط تأثرت ببعض أفــكار الوثنيين واليونانيين، لكنهــا في مجملها ترى الله بعين محب وليس كاره، هــي مــع الله وليست ضــده، فجنوسيس تعني المعرفــة الروحية، وهــي خليط من فلسفات اليونــان والفرس واليهود، وهــي التي حافظت علــى انتشار المسيحية في مهدهــا الأول، وبدونها ربمــا لم يكن للناس أن تعشــق المسيح، كان سيمون الساحر الوارد ذكره في سفر أعمال الرسل، هــو الغنوصي الأول، شرح من خلالها أصل ومصير الروح، فقد كانت في البدايــة في عــالم سماوي منير، لكنها سقطت فجــأة من هذا العالم المنير إلى الأرض، فأصبحت سجينة الجســد الحسي، وتأثّر الإله الأعظم تأثرًا كبيرًا لسقوطها، فأرسل المخلص ليخلصها من هذا السجن، فاتخذ المخلص مظهر الإنسان، لأن الإله لا يمكن أن يتحد بالمادة المرئية، فاستطاع بهذه الطريقة أن يعلن للعارفين أنهم من عالم سماوي.

لم يكــن إكلمندســ يبشــر بالغنوصيــة التــي انتشرت في زمانــه، لكنه تعلــم منها طريقــة جديدة لشرح الكتاب المقدس، طريقــة لرؤية العالم من حولــه، فالغنوسية تؤمن بثنائية الخير والشر، ومــن ثم ينقسم العالم لديها إلى مملكتــين، الأولى مملكة النور، وفيها الإله السامي الذي خرجت منه طاقات متنوعة الدرجات، أما الثانية فهي مملكة الظلام التي يسيطر عليها إبليس برفقــة أعوانه الشياطين. الغنوصيون يــرون أن المادة شر، وكل اتصــال بما هو مادي شر، وإله الخــير بعيد كل البعد عن المادة الشريرة، لذا يرفضون القول بأن المسيح اتخذ جسدًا ماديًّا، ويقولون إنه أخذ مظهرًا جسديًّــا، كان هذا التفسير منتشرًا في زمن يوحنــا الرسولي بأفسس، فرد عليهــم بالآية الرابعة عشر مــن إنجيله قائلاً "والكلمة صــار جسدًا، وحل بيننا، ورأينا مجده، مجدًا كما لوحيد من الآب، مملوءًا نعمة وحقًّا".

إكلمندســ درس لي هــذا، ولم يخَف عليَّ من الوقــوع في الزلات أو الإيمــان بالهرطقات، لأنه كان يؤمن أن الاطلاع على فكر الآخر أفضل طريقة للحماية منه، لم يكن الخوف قد عرف طريقه بعد إلى قلب كنيستنا،

ولم يكـن ديمتريوس الكرَّام أصبح ذلك الشيخ الهرم الذي يؤمن بأن المنع أولى، والتحـريم أفضل، كان لا يزال شابًّــا قويًّا، يفرق بنور القلب بين المخطـئ والمصيب، لكنــه الزمن، هذا الذي أراهن عليــه، هو نفسه الذي يجعل الخلايا تضعف وتتشبث بكل ما كان يرشدها نحو الصواب، تتمسك فقـط بالطـرق المعتــادة والبعيدة عن الرهــان، هذا ما آملــه منك في فترة رئاستك للكنيسة الأكبر والأكـثر وعيًا ونضوجًا بين غيرها من الكنائس، الكنيسة التي تحمل الآن ميراثًا عظيمًا من مواعظ الآباء والقديسين وتقاليد الإيمــان القــويم، هــذا الإرث الــذي بقدر مــا سيحميها من الخطــأ، فإنه سيكبلها، وقد يخرجها من دائرة التفاعل مع الزمن.

صديقــي.. أشعر بمشقة في إملاء الكلمــات، فجروحي تنزف، وألمي يزداد، وصدري يضيــق، ولا أعرف متى سيأتيني الموت، أشعر بمشقة لكننــي أرغب في الحديث معك، لدي كثير مما يجــب أن يقوله عجوز في مثل سني، لو قيض لي أن أتعافى قليلاً، أو أهرب نفسي من الألم على نحو أو آخر، فإننــي سأقص عليك ما جرى لي بعد خروجي من الإسكندرية، فقد ارتقى شأني، وزادت رغبة الناس في علمي، حتى أن كنائس الشرق والغرب صارت تدعوني لألقي عظاتي بها، وصارت رحلاتي نحو بلدان العــرب تزاد وتكثر، وانفتح فكري علــى رؤيتهم للمسيح، فرحت أمزج بين رؤية كنيستنا ورؤية كنائسهم، رؤية أصدقائنا في الشمال وأصدقائهم في الجنوب، باحثًا عن الله، باحثًا عن طبيعته، وموقفه منا، باحثًا في شأن الروح القدس، وجوهره وقدراته وسبب وجــوده، وكلما بحثت كانت الطريــق تنفتح أمامي، حتى أنني لم أعد قادرًا على العودة إلى النقطة التي بدأت منها.

-٢٧-

الحق أقول إنني افتقدت أنطونيوس في المكان، وشعرت بكم أنا وحيد، لا علاقة حقيقية تربطني بأحد هنا، والحق أقول أيضًا إن وحدتي ورعبي ازدادا بعدمـا علمـت أن موتي لن يهـم أحد، فأنا بلا شهـادة ميلاد، ولا وجود لي في أوراق الحكومة، إذا غبت فلن يفكر أحد في غيابي.

كانـت رأسي تـدور بالهلاوس عن طريقة قتلـي، وشعرت أنني ليس أمامـي سوى أن أسايـر يوساب ورجاله في كل مـا يريدونه، فعدت إلى المكتبـة أسجل أسماء الكتـب ومؤلفيها، وأسماء البطارقـة الذين كتبت في عهودهم، كان عملاً مضنيًا تصورت أنني تخلصت منه منذ عدة سنوات، حـين طلب مني إيمانويـل إعادة تصنيف المكتبة، فطلبـت منه عمل أرفف تتسع لتصنيفهـا، وعكفت على توزيعها حسـب الموضوعات والعصور، وأعـددت لنفسي مكتبًا يليـق بكاهن ذي شأن في الديـر، وجعلت فراشي بجانبـه، فصارت المكتبة بيتـي الذي أختفي فيه عـن الناس، ولولا كوني كاتبًا لتحقيقات الدير ما خرجت منها.

انهيت قائمة طويلة بالكتـب المتاحة في المكتبة، وتوجهت بها بعد يومين إلى قلايـة يوساب، محاولاً الإعراب عـن اندماجي في مجموعة التابعين له، مكفرًا عن خطيئة أنني كنت صديقًا لأنطونيوس، وما إن رآني الرجل حتى ابتسم ونهض لاستقبـالي، تفاءلت خيرًا وقلت إنني قطعت مسافة في إقناعـه بإخلاصي، مددت يـدي بقائمة الكتب فأخذهـا وألقاها على مكتبه دون أن ينظر فيها، وكأن الأمر لا يعنيه، أو لم يكن مطلوبًا من الأصل، ازدردت ريقـي وتأسفـت لنفسي وفكـرت في العـودة إلى مكتبتي، لكن

الرجل جذبني من ذراعي ليجلسنـي في الكرسي المواجه له، ثم سألني إن كنت قد خرجت في نزهة خارج الدير من قبل؟ ارتبكت للحظة، وشعرت أنه يفكر في الخلاص مني، ويبدو أنه انتبه من ارتباكي لما فكرت فيه فربت على فخذي قائلاً:

– لا، لا تقلق. . . فقط جد أمر بسيط قد يستدعي ذهابك أسيوط.

عـاد الهدوء إلى نفسـي وتذكرت رسائـل أوريجانوسـس التي أرادني المنحنـي أن أوصلها لصديقه هناك، قلت إننـي ذهبت مرة في صغري مع باخوميوس، ولا أعرف الطرق، فنهض من كرسيه مبتسمًا وهو يقول:

– الأب جورج يريدك أن تذهب برسالة منه إلى بعض أصدقائه، وأنا أريدك في مسألة أكثر أهمية.

ارتسمت معالم الدهشة على وجهي، ولم أعرف بمَ أجيب:

– تحت أمركما.

هكـذا قلت، فاتسعت الابتسامة في وجهـه كما لو أنني كافأته على شيء لم يتوقعه، إلا أنه فجأة أغلق فمه وجز على فكيه كما لو أنه يعاني حالة من التشنج قائلاً:

– تصور أن صديقك أنطونيوس قدم بلاغًا يتهمنا فيه بقتل دميانة؟

وقعت الجملة علـى سمعي كحجر ارتطم في وجهـي، فتركني الرجل أستوعب ما سمعت وأخـذ يتأمل ملامح وجهي، فرسمت كل ما أملك من معـالم الدهشة، وأنا لا أعرف هـل أدافع عن أنطونيوسـس أم أصب عليه اللعنـات، ووجدتنـي كفأر في مصيـدة أحاول المراوغـة والتفوه بكلمات بعيـدة عن مشاعري وما يـدور في ذهني، لكن أيًّا من ذلـك لم يُجدِ، فقد اتخـذ الرجل قراره بأن أذهب إلى أسيوط كي أثبت لمسئولي التحقيق هناك أن أنطونيوس كان قاطع طريق، وأنه المرشح الأول لقتلها.

كنـت أسمع ولا أتفوه، متخيلاً أنني السكين التي ستقطع عنق صديقي،

فظللت أزدرد ريقي، بينما يوساب يهون الأمر ويشرحه بطرق مختلفة، فأهـز رأسي متجاوبًا معه تارة، وشـاردًا عنه تارة أخرى، حتى طالبني بالحديـث. كان خوفي قد منع صوتي من الخروج، لكن عينه تحولت من نظرة الود إلى الزجر، فسألت مستوثقًا:

– هل فعل أنطونيوس ذلك؟

تنفـس الرجل الصعـداء وكأنه كان يتوقع مني الرفضـ، ثم أخذ يقسم بالمسيـح أن هذا ما حـدث، وأن هذه فرصتي كي أثبـت ولائي له وللأب جورج والدير كله:

– هل أنت معنا أم لا؟

فأجبته وأنا شبه منوم:

– معكم.

تركـت الرجل ينـام في قلايتـه مطمئنًـا، وخرجت أبحث عـن نسمة هـواء على حـواف الهضبة، ألقيت بنظري نحو القـلالي المصفوفة كسور مطـل علـى المطبعة والمقابـر في الأسفل، تذكـرت الليلة التـي هرب فيها أنطونيوسـ، تصورته مـا زال يهرول بين المقابـر وأرض المطبعة هربًا مـن رهبان يوساب، ورغمًا عني بحثت عـن قلاية باخوميوس الحبيب، كما لو أنني رغبـت في التأكد من أنها ما زالت على حالها، وللحظة رأيته جالسًـا أمامها كما كان يفعـل ساعة الغروب، حتى أننـي كدت ألقي عليه التحيـة، لكني انتبهت إلى أن القلاية مغلقة وأنـه غير موجود، فاستدرت بوجهي وتسحبت بأقدامي بعيـدًا في طريقي إلى المكتبة، ولم أكد أجلس في مـكاني حتى ظهر على الباب اثنان من رهبان يوساب، كانا طويلي القامة مفتولي السواعد، أومأ لي أحدهمـا برأسه كنوع من التحية، فأجبته بالمثل وأنا أسأل نفسي عن نوع الشر الذي يتدحرج في أقدامه نحوي:

– الأب يوساب يريد محاضر التحقيقات التي لديك.

رفعـت رأسي محـاولاً الاستفسار إن كان يقصـد التحقيق مع شخص بعينـه أو في فترة بعينها، لكنه أكد أنه يريد كل محاضر التحقيق، فنهضت مـن مكاني وذهبـت إلى رف كنت قـد خصصته للدفاتر التـي سجلت فيها

التحقيقات، حين أشرت إليها أزاحاني جانبًا وحملاها بين أيديهما وخرجا.

شعرت أنني مهما حاولت أن أنتمى إلى يوساب ورجاله فإنني سأظل غريبًا عنهم، شعرت أيضًا أن كل ما أخشاه آت لا محالة، فأنا بالنسبة لهم شخص بلا ثمن، ولن يسأل عني أحد حال غيًابي أو اختفائي، لكنني لا أعرف ما الذي يمكنني عمله، أغلقت باب المكتبة على نفسي وجلست أتأمل حالي، كان الضعف يتصاعد بداخلي كفيضان شديد، حتى أن أعصابي انهارت فجأة، وأخذت أعضائي ترتجف كورقة شجر في فصل الخريف، وسرعان ما انخرطت في بكاء أعقبه نشيج طويل حتى فقدت وعيي.

لم أستيقظ إلا في منتصف الليل ناسيًا كل شيء، فقط وجدتني أعاني صداعًا خفيفًا، لكنني على كلٍّ صرت في مزاج أفضل، وطاقة أكثر حيوية ونشاطًا، حتى أنني لم أشعر بالرغبة في معاودة النوم، وأدركت أن جسدي يطلب الخروج لتنسُّم الهواء في فضاء الدير، فجلست أمام المكتبة كما كان باخوميوس يفعل أمام قلايته، كان الهلال يفرش ظلال القلالي على الأرض، فرحت أرقبها متأملاً أطوالها وهيئاتها، لكنني فجأة لمحت ظلاً طويلاً يتنقل من قلاية باخوميوس إلى قلاية يوساب، لم يكن ظلاً واحدًا، فقد تبعته عدة ظلال تتسحب بجوار الجدران، أخذ الفضول يغذي مخيلتي ولم أستطع أن أتمالك نفسي، فنهضت لأعرف ما يجري، ورحت أسير بنفس الطريقة في ظلال القلالي.

كان الدير يغط في نوم عظيم، ولم يكن لأحد أن يتوقع أن ثمة من هو مستيقظ في ذلك الوقت، وبدا أنهم عما قليل سيعودون إلى قلاية باخوميوس من جديد، فقد تركوا الباب مفتوحًا، حاولت أن أقنع نفسي أنني تجاوزت الحدود المسموح بها للتطفل، لكن شيئًا ما كان يدفعني للدخول، دفعت الباب بهدوء ومددت قدمي لأجدني داخل القلاية التي لم أدخلها منذ تنيح صاحبها، كانت الظلمة تملأ المكان، لكن كانت ثمة ثغرة نور قادمة عبر الفجوة التي أحدثها أنطونيوس، وعبر من خلالها بحبال باخوميوس إلى أسفل الهضبة، حين نظرت إليها شعرت أن عيني اعتادت الرؤية بدرجة ما، رأيت السرير في المنتصف، ورأيت في السقف عود الحديد الذي تدلت منه مشنقة باخوميوس، وفي ركن بعيد كانت كومة كتب قديمة تنام على

الأرض، وسرعان ما شعـرت أن ثمة أقدامًا تقـترب، ولم يكن أمامي سـوى الخروج من ثغرة أنطونيوس، حيـث المطبعة والمقابر في الأسفل، تمسكـت بالجدار ودفعت نفسي خارج القلايـة، كانت ثمة مساحة لا تزيد عـن شبرين بين القلاية وحافـة الهضبة، ألصقت نفسـي بالجدار وكتمت أنفاسي وأنا أرتعد خوفًا من أن يعرفوا طريقي.

كان الداخلـون هـم أصحـاب الظلال، عددهـم نحو ثلاثـة أو أربعة رهبان، جاءوا محملـين بكتب وضعوها بجانب الكومة السابقة، وسمعت أحدهـم يهمس لآخر أن يضع الدفتر الذي معه بين الكتب، بحيث لا يرى إلا بعـد البحث عنه، كنت أسمـع همسات تعليماتهم لبعضـ، حين انتهوا خرجـوا وأغلقـوا الباب، فكرت سريعًا في أن أخـرج قبل أن يعودوا من جديـد، لكن الباب كان قد أغلق من الخارج، ولم أشعر بثقل الكارثة التي وضعت نفسي فيها، فقد أخذت أتلمس الضوء الخفيف المتسرب من الفجوة الصغيرة لأنظـر في العناوين، كانت المفاجأة أنهـا كتب تخص الغنوصية والأبيونيـة والماركونيـة والانتحاليـة والسابليـة، وبعضهـا يعـود إلى أوريجانوس كالمبـادئ والتفسيرات، وبعضها يخص أريوس كالأشعار، وفي واحـد منهم عثرت علـى كراسة صغيرة كتب عليهـا بخط قلم جاف "اعترافي الأخير".

لا أعـرف لم أعـدت ترتيب الكتب كما كانت، بينمـا وضعت الكراسة الصغـيرة أسفل جلبابـي، وبدأت أفكر في الخـروج، كان من العسير أن أحـاول فتح الباب، ولم يكـن أمامي سوى ثغـرة أنطونيوس التي أحدثها في الجدار، فمددت نفسي وخرجت منها إلى الفضاء الواسع، كان الهلال قـد انحنى أكـثر في الأفق وبدا أنه يوشك على الـزوال، وقفت إلى جانب الحائـط من الخـارج متمنيًا على المسيـح ألا أموت ميتـة شنعاء، وأخذت أتحرك وأنـا ملتصق بالحائط حتى وجدت جدارًا به نتوء، فشمرت ثيابي وربطهـا على وسطي كفلاح في حقـل، وتسلقت بخوف لا حدود له حتى صـرت فوق النتوء، ومـددت نفسي حتى تلمست سطـح القلاية فتمسكت بـه، وحاولت حتى نجحت في الصعـود، وكان علـيَّ أن أظل في مكاني مختبئًا إلى أن يختفي القمر تمامًا ويسود الظلام.

-٢٨-

عاد الجميع مــن مجمع نيقية وكلهم شعور بالفرح والانتصار، فقد أقر المجمع لائحة الإيمان، وحكم بإدانة أريوس وتعاليمه، وزاد الإمبراطور بأن أمر بنفيه، ويبدو أن غضب قسطنطين عليه كان شديدًا، فقد سيق مكبلاً في السلاسل من نيقية إلى نيقوميديا، ومن هناك تم نفيه إلى الليريا، كان كل ما جرى مرضيًــا لألكسندروس، هذا الذي بقي في نيقية بعد انتهاء المجمع حتى ودع جميع الأساقفة والكهنة وهم في طريق العودة إلى أوطانهم، ثم استــأذن الإمبراطور وأسقف نيقية في العــودة إلى الإسكندرية، فخرجت بنــا السفن في موكب بهجة وســرور، فظللنا ننشد التراتيــل طيلة الطريق فرحًــا بسقوط أشباح الشر، لكن أثناسيوســ كان يقول إن الصعب لم يبدأ بعــد، فقد زرعوا الكثير من الآلام في الطريــق، وعلينا نزع الشوك من الأقدام.

لم يكــن رفائيــل مستوعبًــا ما قاله صديقــه، وبالأحــرى لم يكن مهتمًّا بالتفكــير في ماهية الشــوك والآلام، فقد أغلق على نفســه قمرته بالسفينة وأخــذ يراجع حصيلة الكتب التي جمعهــا، كتب عن الأبيونية والماركونية والبنويونيــة والغنوسيــة والأفلاطونيــة والوثنيــة القديمــة، كتب تشرح رؤيتهــم للعالم على نحــو مخالف لما تقره الكنيسة وتــراه. كان يتسلل من بــين الآباء والأساقفة في المساء ليبحــث عن ناسخي الكتب متفقدًا ما لديهم، وكلمــا وجد عملاً مهمًّا لم يستطع أن يمنــع نفسه عن شرائه سواء كان من أعمــال القديسين أو الهراطقة العتاة، حتــى تحصلت لديه كومة كبيرة من الأعمال وضعها في جوال كبير وحملها إلى قمرته، حين فاجأه أثناسيوس وهو يخبئها قال له أن الإمبراطور لو رآها لحكم عليه بالنفي مع أريوس، فضحــك رفائيل مؤكدًا ضــرورة دراسة الهراطقــة وأعمالهم كي نعرف

علــى أي حجة يستندون، فرفع أثناسيوس حاجبيــه دهشة ثم أغلق القمرة على صاحبه ومضى.

كانــت الآلام والأشــواك التي تحدث عنهــا أثناسيوس تكمن في تطهير الكنيســة من الأريوسيين والميلتيوسيين، ومــن ثم فقد بدأ بإرسال نسخ من لائحة الإيمان إلى رؤساء الكنائس، مطالبًا بنسخها والعمل بها، مؤكدًا أن من يخالفها سوف يحرم وينفى، ولأنه كان عليه أن يتأكد من وصولها إلى الرؤســاء بأنفسهم، فلم يكن أمامه سوى أن يرســل أكثر الناس ثقة وقربًا منــه، ولم يكن هنــاك سوى رفائيل الذي يمكنه أن يأتمنــه على رحلة تبدأ من الإسكندرية إلى الأسقفيات والكنائس والأديرة البعيدة في بلاد النوبة، مرورًا بالمدن الخمس وصحراء الإسقيط والقلمون وجبال القلزم وأرض الفــيروز، فخرج في رحلة طويلة مع ثلاثة من الشمامسة ليسلموا الكنائس نسخهــا، وكانت خطته أن يبدأ رحلته من جبــال القلزم، حيث قرر حمل كتبــه إلى دير الملاح، فهــو المكان الأكثر أمانًا بالنسبــة إليه، وحيث الحلم الــذي تمناه أستــاذه ديمتريوس بــأن يصبح دير الملاح قبلــة من يريدون العلــم، كان ديمتريوس قد ظهر له في منامه صامتًا وحزينًا، حتى أنه قلق عليه، فقرر الذهاب لرؤيته، متخذًا النيل حتى وصل إلى منف، ومنها إلى كلسيما على بحر القلزم، ولم يتوقف في كنيسة أو دير لأكثر من يومين.

كانــت قلالي الديــر تعطي ظهورهــا من علــى الهضبة العاليــة للقادم للمــكان، حتى أن الذي يمر لا يكاد يــدرك أن الهضبة عليها حياة، فحتى مخــر السيل الذي يتسلقه الرعاة في طريقهم إليها جرف الماء الأحجار التي وضعوهــا للصعــود، فوقف أريوســ متأملاً المكان وكأنــه غريب عليه، متفكــرًا في كيفية الصعود، لكن أحد الشمامسة المرافقين له نبهه للبكرة التي ثبتها أبانوب على جانب الهضبة، فتصايحوا باسم أبانوب حتى أطل عليهم بعضــ الرهبان، وجهوا الرافعة نحوهم لتنزل منهــا شبكة في أسفلها لوح خشبي عريض، فوضع رفائيل ورفاقه رحالهم بها وصعدوا.

على الهضبة تلقاهم أبانوب بالأحضان والقبلات، وأخذ يدور بهم على قلالي الرهبان قائلاً:

– هذا رفائيل... صاحب أثناسيوس والبابا ألكسندروس.

كان رفائيل يضحك مؤكدًا أن صاحبه يبالغ، والآخر يقسم إنه يقول الحقيقة، حين سأله رفائيل عن ديمتريوس الصغير أبلغه أبانوب أنه مريض، ولم يخرج من قلايته منذ شهور، فالسعال يلازمه، وصدره يشد عليه من أدنى مجهود، تركه رفائيل وخفَّ خطاه إلى قلاية ديمتريوس، وجده هزيلاً أكثر مما كان، وبدا أن نور عينيه آخذ في الانطفاء، إلا أنه نهض من مكانه فور سماع صوت رفائيل، فقام ليحتضنه ويقبله، وعلى ضوء ما تبقى له من نور في عينيه أخذ يدقق في ملامحه وكأنه يطبع صورة جديدة له في ذهنه، ثم دخل في نوبة سعال طويلة قبل أن يطلب منه أن يحكي له ما جرى في نيقية، فبعض الأمور لم تكن الرسائل توضحها.

مكث رفائيل في دير الملاح نحو أسبوعين، حكى فيهما لديمتريوس عن كل شيء، ثم ذكره بحلمه القديم حين أرسله ليتعلم في الميوزيوم بالإسكندرية بأن يصبح دير الملاح قبلة الراغبين في العلم، قائلاً إنه جمع من نيقية كل ما وقعت يده عليه من كتب مهمة، حتى لو قيل إن أصحابها مهرطقون أو على خلاف مع الكنيسة، فمعرفة أفكار المهرطقين لا تقل أهمية عن معرفة أفكار القديسين لراغبي المعرفة، لأنها ستخبرنا عن الطرق التي يدخل من خلالها الشيطان إلى عقل الإنسان وقلبه، وكيف يمكننا أن نسد هذه الثغرات ونرد عليها، لكن هذه الكتب وما سيتلوها لا ينبغي أن تتاح لحديثي الإيمان، لأننا في محيط من الرعاة الذين كانوا مؤمنين بديانات وثنية، وسوف يجدون فيها ما يفتنهم، فتضل عقولهم وتتشابه عليهم الهرطقة مع الإيمان الصحيح. لذا لا بد من حفظها بعيدًا عنهم، في مكان لا يصل إليه إلا كبار الرهبان ومن يمكنهم فهمها وتبسيطها للناس.

كان أبانوب يسمع ويفكر في الطريقة والمكان الذي يمكنه أن يضعها فيها، فقال متحمسًا لرفائيل أن كل ما يحلم به سينفذ، حتى لو صل الأمر إلى أن ننقب الجبل ونضعها فيه، كانت الكلمة عفوية وصادقة ككل ما يرد على ذهنه، لكن ديمتريوس نظر إلى رفائيل مبديًا إعجابه بالفكرة، وتساءل ساخرًا عن كيفية تنفيذها، فضرب أبانوب على صدره بحماس:

- بمشيئة الرب نفعل.

ضحك رفائيل ونهض باحثًا عن رفاقه، طالبًا منهم أن يجهزوا أغراضهم، لأنهم في الصباح سيقصدون ليكوبوليس وكهنتها الأريوسيين.

أمضى رفائيل ورفاقه أربعة أشهر يجوبون البلاد من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ثم عادوا إلى الكنيسة ليجدوا أثناسيوس في انتظارهم، أبلغوه بكل ما رأوا وما سمعوا، فقد كان الغضب يجتاح كنائس ليكوبوليس والمدن الخمس وأديرة الإسقيط، بينما الفرح يسيطر على كنائس الدلتا والقلزم وطيبة، أما أرض الفيروز فقد انقسمت على نفسها تجاه أريوس وآرائه، لكن أثناسيوس قلل من شأن الغضب مؤكدًا أن شيئًا لن يحدث، وإذا حدث فجيوش الإمبراطورية ترابط على مقربة من الجميع، وافقه رفائيل على ما قاله ثم أوى إلى فراشه باحثًا عن النوم عبر تراتيل المساء التي تهادت إلى مسامعه.

كان الأب ألكسندروس قد دخل في نوبة مرض شديد، حتى أن المحيطين به توقعوا أنه سيفارق مملكة الأرض إلى ملكوت السماء، لكن يبدو أن مملكة السماء رأت غير ذلك، فنهض من مرضه مقيمًا القداس الإلهي، ومتابعًا شئون الكنيسة بقوة وحزم، حتى ظن الجميع أنه أحد الخالدين الذين لن تصيبهم عصا الموت، خاصة أنه أخذ في التشديد على الأساقفة ورؤساء الأديرة بمتابعة عظات الكهان، فمن تفوه بتعاليم أريوس أو غيره من الهراطقة عليهم أن يستوقفوه، ومن خالف لائحة الإيمان يقومون بطرده من كنائسهم، ومضى عام كامل قبل أن يسقط ألكسندروس في مرضه الأخير، ليسلم الروح في وداعة على صدر أثناسيوس، مبتسمًا في وجه الأساقفة والكهان من حوله، وكأنه لم يعانِ ألمًا قط.

أخذ أثناسيوس يدير حركة الكنيسة، فأرسل إلى نائب الإمبراطور مبلغًا إياه بالخبر، كي يقوم من جهته بإبلاغ الإمبراطور، وأخذ يرسل لرؤساء الكنائس الكبرى كأورشليم وأنطاكيا وروما والقسطنطينية وقرطبة نيقوميدا واليونان وصقلية ليعلمهم بالخبر، ونشط الشمامسة من حوله في إبلاغ رؤساء الكنائس والأديرة في مصر، وظل الإعداد للقداس

الجنائـزي ممتدًّا لمـدة شهر، بعدها كان لا بد مـن الدفن بمباركة عشرات الأساقفـة والكهـان الذين حضروا، لكن هذه المـدة لم تخلُ من مشاورات جانبيـة للإجابة عن سـؤال: من الـذي سيخلف ألكسندروسـ في كرسي مرقس الرسول؟ وبدا على السـؤال أنه أصبح محسومًا بعدما علم الجميع أن الإمبراطور عفا عن أريوس وأعاده من منفاه.

نجـح أصدقاء أريوسـ ورفاقه من تلامـذة لوكيانوسـ الأنطاكي في إقناع الإمبراطور قسطنطين بأن صديقهم لم يهرطق، لكنه فهم الأمر من أساتذتـه في مدرسة الإسكندرية على نحو خاطئ، وما إن استوعب الأمر على وجهه الصحيح حتى أعلن قبوله لائحة الإيمان التي أقرها المجتمعون في نيقيـة، ونقلوا للإمبراطـور شهادة مغلوطة مـن أريوس اعترف فيها بصيغـة إيمـان تتشابه مع صيغـة نيقية، حتـى أن قسطنطـين الذي تابع جلسات المجمع بنفسه لم يستطع التمييز بين الصواب والخطأ فيها، فتراجع عن غضبه على أريوس وسمح له بالعودة من منفاه.

جـرى ذلك في الشهور الأخيرة من حيـاة ألكسندروس، تلك الشهور التـي انشغل فيهـا الجميع بمرض الرجـل دون أن يتوقعوا هبوب الرياح بغـير ما تشـاء السفن، ولم يعرف أحـد أن أريوس عاد مـن منفاه إلا مع مجـيء ممثلي أنطاكيا وأورشليم، هنالك بـدا الغضب واضحًا على وجوه الجميع، مما حسم موقفهم في اختيار أثناسيوس ليكمل مسيرة ألكسندروس وأرشيلاوسـ وبطرس الشهيد، فليس هناك أفضـل منه كي يقود الكنيسة في هـذه الأيام الحبلى بالمخاوف، ولم يكن أمام رفائيل سوى أن يكون في معية صديقـه، فقد ترك له ألكسندروس تركة ثقيلـة وصراعًا لا يريد أن ينتهي.

-٢٩-

اتجه أنطونيوس بعد خروجه من الكنيسة الأم إلى رمسيس، لا يعرف كيف وصل إلى هناك، لكنه كان يشعر أن كلب السماء يلهث خلفه، جاءه هذا الشعور بمجرد أن دخل مدير مكتب أسقف التحقيقات إلى غرفة رئيسه، فما مالت نحوه تريزا وهمست في أذنه حتى اقشعر جلده وتهادى إلى مسامعه لهاث الكلب السماوي، فطلب من تريزا أن تسبقه إلى البيت، ثم أخذ في ترنيم نشيد الأنشاد، لم يكن صوته قديمًا بمثل هذه الروعة والجمال، لكنه حين دخل إلى الدير وأصبح أبصالتيوص، كانت مهمته الأولى هي الترتيل والإنشاد، تعلم كيفية ترخيم الصوت، وعشق التنغيم والتأثير في المستمعين، هو نفسه لم يكن يتوقع أن لديه هذه الموهبة، لكن إيمانويل رأى أنه يمكن الاستفادة منه في شئون أخرى، وأوعز لصديقه باخوميوس أن يلزمه بمزيد من الأعباء الكنسية، فعمل في كل شيء، كان يعمل بنفس الروح التي يغني بها، حتى أن العاملين معه ما كانوا يرتاحون إلا على صوته، فيطلبون منه أن ينشدهم من الكتاب المقدس ما يعِنُّ له، فأصبح معروفًا بالشماس ذي الصوت الجميل، وكاد أن يعتقد أنَه لأجله سمح إيمانويل بدخوله الدير، لكن الأخير كان يفكر في كيفية إنضاجه ووضعه على طريق الصواب.

في زحام العابرين بميدان رمسيس وقف أنطونيوس يتطلع إلى الشمس العالية البعيدة في الأفق، كأنه يريد أن يسألها عما يجري له، وأين يمكنه الذهاب، كان يقينه يتزايد بأنه لو عاد إلى منزل تريزا سيلقون القبض عليه، فثمة رابط بين ما يجري في الدير ومكتب أسقف التحقيقات، ثمة من يتواصل مع من في جبال القلزم وخارجها، شعر أنطونيوس أن بعضًا من رجال الرب ليسوا رجال الرب، وأن عليه أن يكتشفهم كي يحذرهم،

فهؤلاء لا يرغبون في إصلاح الكنيسة ولا جمعها على كلمة واحدة، هؤلاء لديهم القدرة على التعامل مع الشيطان من أجل أغراضهم البسيطة.

فكـر في أن يركب قطارًا ويتجـه إلى أبعد مكان ممكن، هو لا يريد أن يصـارع أحدًا، ولا يريد أن يكتشف مسـاوئ أحد، لكن إلى أين، وكيف يمكنـه أن يـترك دميانة دون أن يعلم مصيرها، فهـل رحلت أم ما زالت على قيد الحياة؟ كانت أقدامه قد دخلت به إلى أرصفة المحطة، فجلس على رخامـة كبيرة في انتظار شيء لا يعرفـه، لكنه من جديد شعر بتشمم كلب السمـاء له، فنهض من مكانـه ودار في جولة على الرصيف قبل أن يسأله أحد مفتشي التذاكر عن وجهته، وجد نفسه يقول أسيوط، فأشار له الرجل نحو الرصيف الذي يقف عليه هذا القطار، طالبًا منه السرعة.

هـرول كأي مسافـر اكتشف فجأة أن قطاره سيغـادر الرصيف، وما إن وصل إلى كرسي شاغر حتى ألقى بجسده فيه، موقنًا أنه اتخذ الطريق الصـواب، وما إن أخذت الأذرع الحديدية تتحـرك برتابتها المعتادة بين العجـلات الضخمة حتى تخدر جسده ودخل في نـوم عميق، ولم يستطع المحصل أن يقطع عليه نومه، فتركه موقنًا أن قسًّا ينام نوم الملائكة لا يمكنه أن يغالط الرب في أجرة تذكرة.

حين وصل القطار إلى محطته الأخيرة نزل الجميع، وحده أنطونيوس الـذي استغـرق وقتًا كي يستوعب ما الذي حـدث، كأنه كان يعيد ترتيب ذهنـه ومخيلته، تذكر أنه ألقى بجسده على الكرسي الشاغر وسرح بخياله متفكـرًا في دميانة وما يمكن أن يكون قد حـدث لها، تذكر وجهها الجميل وهـي تجلس أمامـه لتسألـه، لم تكن أسئلتهـا تجيئه بصيغـة المحقق، كانا يبـدوان كحبيبين يتناغمان معًا، كان يتحـدث دون أن يفكر، يقول ما في قلبـه بمحبة وثقة، موقنًا أنها تعاملـه بنفس الطريقة، وأنها مثله تلغي عقلها وتتحدث من قلبها إليه، شعر أن دميانة تترك كرسيها في مكتب التحقيقات وتصعـد، كانت ترتدي قميصًـا أبيض سماويًّا طويـلاً وهي تصعد، كان ينظر إليها بطرف عينه وهي تعلو مخترقة الأسقف والحواجز والقلزم وما حولـه وتصعد، كان صعودها ناعمًا، وخلفـه موسيقى هادئة، وفراشات

وطيور بيضاء وزرقاء، خلفها حديقة مليئة بالورود والروائح الطيبة، وأنطونيوس يغلق على المشهد كي لا تضيع منه مفرداته، أنطونيوس يذوب من داخله، ويشعر أنه ترك جسده على الكرسي كجثة تغط في نومها من أجل أن يحلق خلف دميانة في السماوات السعيدة، وكلما تأرجح القطار وازدادت سرعته حلق أنطونيوس عاليًا، وزادت متعته بالتحليق، ظل في أحلامه السعيدة حتى وصل القطار إلى أسيوط، فتبرع الناس بإيقاظه من أجل النزول.

في أسيوط تذكر أنه لم يأت هذه المدينة منذ سنوات، حين أتى من الأشمونين إلى دير المحرق كي يلتقي باخوميوس الحبيب، ومعه بدأت رحلته إلى دير الملاح، فراوده الحنين لزيارة المحرق والإقامة فيه، ترك خطاه تقوده إلى جبل قسقام، صاعدًا بخطوات متئدة الدربَ الجبلي المؤدي إلى بوابتة العظيمة، وما إن فتح له الخادم حتى سأله عن كنيسة العذراء، مر بالقلايات والمطابخ وأماكن طعام الرهبان، ثم عرج على الكنيسة للصلاة، وكاد أن يخرج منها لولا أن لمح شخصًا يشبه ملاك الكاتب، فاتخذ مكانًا قصيًّا وجلس يصلي من جديد.

كانت عينه ترقب ملاك وهو يصلي، ظل لا يقترب منه ولا يرفعها عنه حتى نهض الأخير من مكانه واتجه إلى الباب، حينها أنهى أنطونيوس صلاته ونهض ساحبًا غطاء رأسه على وجهه، ظل يسير خلفه حتى خرج من الدير، ووجده يصعد باصًا من النوع الذي يستأجره الدير لقضاء أبنائه مهامهم في المناطق البعيدة، فانتظر حتى تحرك الباص، وأشار لسائق تاكسي أن يتبعهم.

وظل صامتًا طيلة الطريق حتى بدأت السيارة في صعود الجبل الغربي، كان مرتفعًا عن الأرض الزراعية من حوله بنحو مائة متر على الأقل، بينما الخضرة تحيطه من كل جانب، كانت السيارة تعاني في صعودها، فابتسم السائق قائلاً إنه دير درنكة، جاءت جملته كما لو أنها اعتذار عن عدم كفاءة التاكسي، ونوع من طمأنة أنطونيوس إلى أنهما يعرفان الآن إلى أين اتجه الباص، ومن ثم فلا قلق من تأخرهما الآن، حين وصلا

الدير كان الباص واقفًا أمام الساحة التي أمامه، جال أنطونيوس في المكان بعينيه بحثًا عن ملاك لكنه لم يره، ولم يعرف إلى أين يمكنه أن يذهب، في النهايــة فتش نفسه حتى وصل إلى المائة جنيه التي تركها له أحمد مع ورقة بها رقم هاتفه، فمنحها للسائق وكاد أن ينزل لولا أن أوقفه الأخير ليعطيه ما زاد عن الأجرة، بحث بعينيه عن مكان يواري نفسه فيه إلى أن يخرج من ملاك ومن معه، فــرأى بجانب البوابة رجلاً يضع قبعة على رأسه، كان يشرح لمجموعة من الأجانب تاريخ المكان قائلاً:

– هذا جبــل درنكة، وهذا الدير يسمى باسمه، لكنــه أيضًا يسمى باسم القديســة العذراء، لأنها جاءت المغارة التي بني عليها الدير، ونزلت بها، جاءتها بعد ستة أشهر قضتها في جبل قسقام، حيث دير المحرق الآن.

رأى ذو القبعــة أنطونيوس يقف مبتسمًا في خلفية الأجانب، وشعر أن الأخير يثمن ما يقوله، فرفع صوته وتحــدث بثقة مستشهدًا بأنطونيوس، فابتسم الأخير كما لو أنه يتواطأ معه على صحة حديثه، وشجع ذلك الرجل لأن يكمل موضحًا:

– حــين قطعت العذراء المسافة من قسقــام إلى ليكوبوليس لم تجد سفينة علــى وشك الإبحار للشمال، فقررت الانتظــار إلى أن تأتي سفينة، لكنها خشيت على نفسها وطفلها والنجار وابنة خالتها من الأذى، فقررت العودة إلى الجبــل، حيث يلجأون إلى إحدى مغاراته، فصعدوا إلى هنا، وأقاموا في تلك المغارة، التي بني عليها الدير فيما بعد، وسمي باسم العذراء مريم.

مضى أكثر من ساعة قبل أن يخرج ملاك وطويلي القامة برفقة راهب آخر، فصعدوا جميعًــا إلى الباص، بحث أنطونيوس بعينيه عن تاكس في المــكان لكنه لم يجــد، ولم يكن أمامه سوى أن يطلب مــن المرشد السياحي أن يلحــق بالباص. كان الأخير قد انتهى من شرحه للأجانب، ويبدو أنه تلقــى مكافأة مجزية، فقــرر أن يعود إلى بيته، لكنه ما إن أعمل المفتاح في دراجتــه النارية حتى وجد أنطونيوس ينقض عليــه، طالبًا منه أن ينطلق خلــف الباصــ وسوف يعطيه ما يريــد، لم يفكر الرجل في المــال بقدر ما

فكـر في أن أنطونيوسـ كان شهمًا معه، فلم يقاطعـه، ولم يفضح أمره، فما هـو إلا مدرس تاريخ بمدرسـة ابتدائية، لا يحمـل تصريحًا بالتعامل مـع السياح، ولا يملك إلا أن يرد له الجميـل، فأردفه خلفه وانطلق على الإسفلت كالرمح.

استسلـم أنطونيوسـ إلى الضجيج المنبعـث من موتـور الموتوسيكل، وصـوت صاحبه وهو يكمل دور المرشـد السياحي متحدثًا عن دير درنكة والمحـرق، لكـن الباص الـذي كان متجهًا في طريقه نحـو مركز الغنائم ترك الطريق الرئيسـي واتجه غربًا نحو قرية الزاوية، هكذا قال مدرس التاريخ الذي استمتع بدور المرشد السياحي، حيث أشار لأنطونيوس نحو الجبل قائلاً:

هذا دير النسـاخ، قديمًا كان يعرف بدير الأنبا أثناسيوس، لكنه تحول إلى ديـر للراهبـات، كان ذلك في زمـن البابا يوساب الثـاني، حين اشتد الخـلاف بينه وبين جماعة تدعـى الأمة القبطيـة، وكان بعض أعضائها مـن أبناء هـذا الدير، فاختطفه خمسـة منهم وأجبروه علـى توقيع تنازل عـن منصبه، وجعل العلمانيين المشاركين في انتخاب البابا أكثر من رجال الإكليروسـ، ثـم أخذوه مـن الكاتدرائيـة إلى وادي النطـرون، حيث احتجـزوه هناك، لكـن حكمدار القاهـرة شك في تنازله بمحضـ إرادته والدخول في عزلته قبل انتخـاب البابا الجديد، فأخذ يبحث في الأمر حتى اكتشـف الجناة، وأعـاده إلى منصبه من جديد، فمـا كان من يوساب إلا أن أمـر بحل الجماعة، وإغـلاق هذا الدير، دير الزاويـة أو النساخ كما يقولون.

-٣٠-

رسائل أوريجانوس (١٢)

كنت قد تجاوزت السادسة والأربعين من العمر حين نزلت فلسطين من جديد، فقد رست بنا السفينة على شاطئ يافا، في ذلك اليوم تذكرت أنني أكملت عامي السادس والأربعين، ترجلت من السفينة وأنا لا أعرف هل أشكر الحراس أم أشيعهم باللعنات، هم أيضًا لم يعرفوا بأي درجة من التقديس عليهم أن يودعوني، في النهاية تبادلت كلمات سريعة مع قائدهم شكرته فيها على حسن المعاملة ونزلت، كنت أتوقع أنني سأكون وحيدًا في بلد لا أعرف عنه الكثير، لكن ما إن وطأت قدماي الشاطئ حتى وجدت صديقي ثيؤكتستوس وألكسندر وبصحبتهما بعض من تلامذتي في أورشليم وقيصرية.

بدا على الوجوه الحيرة في استقبالي، فلم يعرفوا إن كان عليهم أن يفرحوا لوجودي بينهم أم يحزنوا لخروجي منفيًّا من مدينتي، تلقيتهم بترحاب كما لو أنني غريق وجد من يتلقفه من الماء، لكنني لم أستطع أن أزيل الحزن كثيرًا عن صدري ووجهي، فالإسكندرية كانت كل شيء لي، هي ميلادي وحبوي وتعليمي وشهرتي وعظاتي، هي رفات أبي وأمي وشقاء إخوتي وأحلامي الكبيرة، هي السيرابيون والميوزيوم والمكتبة والكنيسة والبحر وأمبروسيوس وديمتريوس الكرَّام، هي كل شيء، وما عداها ليس سوى محطة أعبرها لأعود من جديد إلى مسقط رأسي.

احترم الجميع حزني وغضبي أيضًا، وطالبني بعضهم بالرد على ديمتريوس، لكنني رفضت، فلو شئت ذلك ما خرجت من الإسكندرية، كان بإمكاني حين أخبرتني سارة أن ديمتريوس أرسل لنائب الإمبراطور

كي يصدر قـرارًا بنفيي أن أفر إلى الصحراء أو الجبال، كان بإمكاني أن أجمع القساوسة الذين رفضوا حرماني وأحدث صدعًا في صفوف الكنيسة، لكنني لم أرد، راهنت على أن يستفيق من عناده، راهنت على قلب الأب الذي أعرفه أكثر من غيري، لكنه ظل سادرًا في كراهيته وعنفه تجاهي، فلـم يكتفِ بأن أرسل لمختلف الكنائس يعلمهـا بعزلي وحرماني، لكنه أخذ يشيـع بين الجميـع أنني مهرطق، وأننـي غنوصي تخفَّى في ثـوب أستاذ لمبادئ اللاهوت.

كان كل ما يقوله يصلني، كانـت أصداء رسائله إلى جميع الأبرشيات تـدوي من حولي، فجميعها عقد مجامع مقدسة أقرت فيها قراره، وهو لم يألُ جهدًا في السعي لمحوي من الوجود.

ما إن وصلنا قيصرية حتى طلبت من صديقيَّ أن يستأجرا لي بيتًا صغيرًا أجلس فيه، فلم أرد أن أزيدهما هموما ولا أن أربطهما بي، وتحت ضغط مني اضطـر ثيؤكتستوس أن يستجيب لطلبي، في هـذه الليلة بكيت حتى فقـدت الوعي من البكاء، وكنت أميل لأن أصعـد على سطح البيت فألقي بنفسـي منه كي أموت وأتخلص من همومي، لكنني ما إن سقطت في جب النـوم حتى رأيت أبي يجيئنـي بطعام كثير، وضعه أمامـي قائلاً "كل"، فنهضـت ألتهمه، أحضر لي من جديد فأكلت، وظللت كلما أتي بشيء آكل ولا أشعر بالامتلاء، وكلمـا نظرت إلى وجهه رأيته مبتسمًا، وكلما أكلت ازداد وجهـه فرحًا. حينها نهضت من نومي هادئ البال، أشعر بطمأنينة لا أعـرف سببها، حين أخبرت ثيؤكتستوس بما رأيت قال إن عطية الميت خير، وأخذه شر، وأنني على أبواب منح كبيرة.

ظللـت معتكفًا في البيـت الجديد للصلاة واستقبال الذيـن جاءوا للسلام علي، كان الكثيرون يشدون الرحـال من القرى المجاورة لرؤيتي، كما لـو أنني تحولت في نظرهم لقديس يتبركون به، كان الأمر يبهجني لكنني لم أجـد فيه ثمرًا ليبقى بـين الناس، فقررت أن أخـرج بعيدًا عن المدينة، حينها تذكـرت الإسكندرية وجولاتـي في شوارعها، كلمـا كان يؤرقني شـيء كنت أتخـذ شارع البحـر مسارًا لي، ثـم سرعان مـا أعرج على

الـدروب والحـارات الداخلية، فأتشمم رائحة اليـود، وأتطلع إلى المباني القديمـة، وأنظر إلى السماء ونجومهـا، وأستمتع بمطرها الخفيف، حينها أعود نقيًّا وصافيًا، كأن شيئًا لم يعكر صفوي.

تذكـرت ذلك وأنا أهـم بالخروج إلى حيث لا أعـرف، فتركت قدمي تمشيـان إلى حيـث تريـدان، حتى وجدتني علـى أبواب المدينـة، هنالك فكـرت في أن أذهب في رحلة إلى الجابية للقـاء جفنة بن عمرو، هذا الملك الـذي أكرمني حين ذهبـت إلى دياره، حـين فاتحـت ثيؤكتستوس بذلك طلـب مني أن أنتظر ريثما تمر موجـة الرسائل التي بعثها ديمتريوس إلى الكنائس، فبـدأت أنتبه إلى ما يجري من حولي، وطلبت من ثيؤكتستوس أن يحضـر لي ورقًا وحبرًا كي أشـرح لرؤساء الكنائس موقفي، فوجدته في اليوم التـالي يأتيني بورق ورياش وأحبار وثلاثـة نساخ يجلسون في البيـت، حتى أنني تحرجت من وجودهم، فمن أين سأطعمهم وأنا أمضي أيامي صيامًا كراهب في قلاية على عامود من الصخر.

أحصينـا الكنائس المهمة، وقسمنـا درجة معرفتنـا برؤسائها، ومدى تعاطفهـم معنا ومدى رفضهم لنا، ثم أرسلنا لهم رسائل باسم ثيؤكتستوس شارحًـا لهم الأخطاء التي وقع فيها ديمتريوسـ، فقد رأيت أنني لا ينبغي أن أدخـل في خصومة مـع ديمتريوس، وألا أكتـب للناس في مواجهته، وألا أشرح لهم خطأه، فما بيننـا أكبر من أن تتناوله الرسائل والعظات، في النهايـة وافـق ثيؤكتستوس وأرسـل باسمه للجميع، كنـا نتوقع رفضًا عامًّـا لقرار ديمتريوس، لكـن الأخير مارس ضغوطـه ملوِّحًا بخصومة بينـه وبين من يرفضـ، ولم يكن لأحد أن يعادي بطريـرك الإسكندرية لأجل واحد من شعبه، لكن جهود ثيؤكتستوس لم تذهب هباء، فقد نجح في إقناع كنائس أنطاكيا واليمن وتدمر فضلاً عن أورشليم وقيصرية برفض القـرار، أما كنائسـ روما وطليطلة ونيقوميديا وأثينـا والمدن الخمس فقد رضخت لرغبتـه، وبات واضحًا أنني لم يعد لي غـير فلسطين وصحراء العرب.

لم أعـرف فيمَ سأستفيد من النساخ الذين يجلسون في البيت طيلة اليوم، فأنا لم أحضر أيًّا من كتبي معي، حتى الكتابين اللذين انتهيت منهما، راجعتهما على عجل وتركتهما لأمبروسيوس في الإسكندرية، فقد خرجت بملابسي كما يقولون، من بيتي إلى الشارع إلى البحر إلى قيصرية، كنت في حاجة إلى إعادة النظر في أحدهما أو كليهما، خاصة المبادئ الذي يحتوي على آراء قد تبدو ملتبسة بعض الشيء، إذ عكفت فيه على التفرقة بين الغنوصية المقبولة والغنوصية المرفوضة، شارحًا مبادئ الإيمان القويم، تلك التي نعرف من خلالها ما يجب علينا قبوله وما يجب علينا رفضه، فلا يدخل الشيطان إلى قلوبنا من طرق ملتوية، أما الكتاب الثاني فهو الجزء الخامس من تفسيري لإنجيل يوحنا.

– أظن أن عليَّ أن أكمل الآن هذا العمل الكبير، فلم يبقَ منه حسب خطتي له سوى الجزء السادس، فلم لا أبدأ فيه الآن؟!

هكذا قلت لنفسي، وفي الصباح حدثت ثيؤكتستوس عن عزمي على إتمام شرحي لإنجيل يوحنا، فابتهج كما لو أنه عثر على شيء كان مفقودًا، قال إن هذا أفضل ما سمعه مني منذ وصولي لقيصرية، غير أنني قللت من فرحه حين أخبرته أن من الصعوبة البدء فيه الآن، لأن الناس يتزايدون في المجيء إلى البيت، سائلين عن أمور كثيرة، ولا أستطيع أن أغلق الباب أمامهم، ولا أن أمنع نفسي من الرد على مسائلهم، فأصبح الوقت كله ملكهم، وكلما خلوت إلى نفسي وجدت من يطرق الباب طالبًا السلام والمحادثة.

حينها فكر ثيؤكتستوس طويلاً، ثم سرعان ما فتح عينيه مبتهجًا، وكاد أن يصرخ مثل أرشميدس "وجدتها"، حين سألته عن سبب فرحه، وجدته يسألني:

– ولم لا نفتح مدرسة للاهوت، كمدرسة الإسكندرية؟

بدت لي فكرة جيدة، إذ يمكنها أن تعيد لي عملي السابق، وتنظم لي وقتي، وتدفعني لملاحظة ما يشغل العقول في أمور الدين، غير أنني لم

أتحمس، وأخبرته أن ذلك سيعتبره ديمتريوس تحديًا له، ونحن لا نرغب في زيادة الأمور سوءًا، فهو في النهاية الأب ونحن الرعية.

لم يكن حديثي على هــوى ثيؤكتستوس، فزم شفتيه وتركني على أمل أن أغير رأيي، لكن رأيي لم يتغير إلا بعدما وجدت صديقي أمبروسيوس يرسل لي مــن الإسكندرية قائلاً إنه أعطى للنســاخ كتابي المبادئ والجزء الخامس من إنجيل يوحنا، فقاموا بنسخهما على عجل، رغبة في الرد على ديمتريوســ وما يتحدث به، ويبــدو أن الإسكندرية كلها كانت ترغب في الرد بطريقتها علــى ديمتريوس، فتنافس الناس على الكتابين كما لو أنهما آخــر الكتــب، وعكف نساخ آخــرون في أماكن أخرى علــى توفير نسخ لآخرين، وهكذا امتلأت المدينــة بالكتابين، ولم يعد لها حديث إلا عنهما، حتــى أن ديمتريوس نفسه أرسل من يحضر له نسخــة ويقرأها له، بعدها حدثت الكارثــة، فقد وضع يده على بعض العبــارات والجمل، وأرسلها إلى الأساقفة والقساوسة، طالبًا رأيهم فيها، فقالوا إنها هرطقة، فأمر بعقد مجمع مقدس وأصدر قرارًا باعتباري مهرطقًا.

-٣١-

لا أعــرف كيــف انتهت تلــك الليلة، فقــد التصقتُ بسطــح القلاية التي صعــدت عليها، حينهــا رأيت خلف أرض المطبعــة مجموعة من الرهبان الذين يمارسون تماريــن رياضية، كانوا يقفون في صفوف على مسافات متباعــدة، وأمامهم رجل يعطيهم أوامر بالزحــف أو الركض، وضعت خدي علــى يدي لأحميه من وخــزات الحصى، ورحــت أرقب الظلال وهي تجري على الرمال، لم يمض كثير من الوقت حتى وجدتهم يدخلون في عــراك مع بعضهم بعضًا، كنت أرى خيالات العصي التي في أيديهم، ولم تكــن المسافــة وضوء القمــر الشاحب يسمحان برؤيــة أكثر من ذلك، تأكــدت من حركاتهم المنظمة أنهم يتدربــون على شيء ما، وأن هذا ليس لقاؤهــم الأول، وأصبح السؤال المثار في ذهني: أين يقيم هؤلاء الرهبان؟ فالديــر ليس كبيرًا، وكل مــن على الهضبة أعرفهم منــذ صعودهم إليها، لكــن الوجوه الجديدة بدأت تكثر هــذه الأيام، ولا أحد يعرف من أين أتى أصحابها، تذكرت ما كتبته دميانــة في مذكراتها عن الذين كانوا يرتدون ملابســ سوداء وهــم يهاجمون أنطونيوس، تذكرت مــا قاله الأخير عن الصناديــق التي كانــوا يحملونها بــين أيديهم، أدركــت أن ثمة من يسعى لتحويل الدير الهادئ إلى نقطة مظلمة في جوف القلزم.

حــين خدر الطــل النازل مــن السماء جســدي رأيت نفســي في مدينة مزدحمة بالناس، وثمة شعور أن هناك من يطاردني، لم أكن أرى أحدًا، لكننــي كنت أشعر بلهــاث في إثري، ظللت أهرب مــن طريق إلى آخر، وأتخفَّى بــين جدران الحوائط حتى وجدتني في صحراء تطل على القرى مــن بعيد، كانت دميانة هناك، لكنهــا لم ترني، كنا قريبين حتى أن أيًّا منا لــو رفع نظره لــرأى الآخر، لكننــا لم نفعل، وسرعان مــا أصبح المكان

مزدحمًا بالرهبان، وظهرت نباتات بـردي، رأيت راهبات يضعنها في المـاء، وأخريات يضربنها بعصي طويلـة ويفردنها على طاولات، كنت مفتونًا بالراهبات وهن يتابعـن أعمالهن، بينما دميانة تنظر ولا تشارك، تركتهـا ورحت أبحث عما جئت مـن أجله، وجدتني أمـام أنطونيوس، تخيلته لن يراني مثلها، لكنه اقترب وطعنني في جنبي.

نهضت من نومي متوجعًا، وجدت الظلام حلَّ على الدير، ولا وجود لمستيقـظ سواي، ألقيت نفسي بقفزة هائلة علـى الأرض، وقطعت المسافة الفاصلة بين القلالي وكنيسة الملاح على أطراف أصابعي في غمضة عين، وأنـا أدين للخـوف بالرشاقة التـي تلبَّستني في تلك الليلـة، فما بين ظلال ونتوءات كنت أتحرك كطيف في الظلام، في النهاية وجدتني أمام المكتبة، دخلت ودسست نفسي في فراشي، موقنًا أنني فزت بعمر جديد، لكنني في الصباح نهضت على طرقات رجال يوساب:

– أين كنت بالأمس؟

هكذا قال أحدهم.

– متى؟

– في حدود الحادية عشر.

– ذهبت لأقضي حاجتي في الخلاء.

كان الحوار حـادًّا وسريعًا، ولا أعرف ما الـذي جعلني أتحدث بهذه الجرأة، يبـدو أن شجاعتي في الرد الأول أجبرتنـي على إكمال الطريق بنفس الحدة، هز الرجل رأسه بطريقة أقرب إلى الندم:

– الأب يوساب يريدك.

تذكـرت ما جرى بالأمس، وودت لو أنني أسـأل عن السبب، لكنني أغلقـت المكتبـة وسرت خلفهـم، كانوا ثلاثة، وكنـت أتخيـل أن أيًّا منهم سيستديـر ليحملني على كتفه ويلقي بي من علـى الهضبة، لكنني روضت خـوفي، وقلت إنهم لو كانوا رأوني ما تركوني أنام ليلتي في فراشي، ولو كانوا مضطرين لتركي فإنهم لن يأذوني حتى ينتهوا من حاجتهم.

حـين وصلت إلى هذه القناعة شعرت أنني أستنشق الهواء ملء رئتي، وأنني قادر على مواجهة عزرائيـل، فظللت أقطع الخطى خلفهم وكأنني سأسبقهـم، حتي وصلنا إلى قلاية يوساب. كان ينتظرني وحده، حتى أن الخـادم الذي لا يفارق مكانه بالقرب من البـاب لم يكن موجودًا، وحين طـرق الشماس وجدنا يوساب هـو الذي يفتح لنا، ثم أومـأ لهم فانسحبوا لنصبـح وحدنا. كان قـد تجاوز الخمسين، وبدا علـى وجهه تعب السنين وخطوطهـا، حـاول أن يبتسم لكن التوتر كان غالبًـا عليه، قال إنني غدًا سأذهـب إلى أسيـوط لألتقي محققًا هنـاك، فأسلمـه الأوراق التي تجزم بأن أنطونيوس هو المرشـح الأول لقتل دميانة، تاريخه واعترافاته تشهد بذلـك، بعدها تبدأ المهمة الأخرى، حيث سأسأل عن الأب إسطفانوس في دير المحرق، وحـين أصل إليه أخبره أنني قـادم من قبل الأب جورج، وهو سيتكفل بكل شيء.

كان علينـا أن نذهـب لملاقاة المنحنـي في قلايته، فانتظـرت حتى بدل ثيابه، وخرجنـا نمشي تحت وهج شمس أخـذت في الإعلان عن نفسها، وددت أن أخبره أن الأب جورج أبلغني أن أسأل رجلاً يجلس على باب كنيسة العـذراء في دير درنكة عن إسطفانوسـس، وليس في دير المحرق، لكنني فوجئت بيده تمتد نحوي بالدفتر الذي كنت أدون فيه تحقيقات دميانة مـع أنطونيوس، ما إن رأيتـه حتى كدت أشم رائحتهمـا، قال إنه وضع خطوطًا حمـراء تحت الأجزاء المطلوبة، وأن كل ما عليَّ هو تسليم الدفتر والشهادة بصحة ما فيه.

حين طرقنا بـاب المنحني ظهر خادم عجوز غير الـذي رأيته في المرة السابقة، تأملت وجهه ثم تركته ودخلت خلف يوساب، كان المنحني جالسًا إلى مكتبه ناظـرًا من خلف نظارته ذات العدسـات الصغيرة في صفحات كتـاب قديم، حين رآنا مد يده بصليبـه، فانحنى يوساب لتقبيلهما، وفعلت مثلـه بنفس الحماس واليقين، حينها ابتسـم ووضع صليبه على مكتبه قائلاً ليوساب:

– هل أخبرته بما سيفعل؟

نظر يوساب نحوي:

– ما يخص التحقيق وإسطفانوس.

رسم المنحني ابتسامة وديعة على وجهه من جديد، وأخذ يشرح لي كيف كان دير الملاح قبلة للعلماء والآباء والقديسين، وكيف حافظ الذين تولوا رئاسته منذ ديمتريوس الصغير حتى وقتنا الراهن على تراثه، لكن في السنوات الأخيرة سعت جماعة من الرهبان المندسين على المسيحية لتخريب كل شيء، معلنين أن المسيح منحهم سره وقداسته، هؤلاء الكذبة نشروا في عظاتهم الكثير من الهرطقات، وقاربوا بين ما يريده الرب وما يريدونه هم، للأسف تسلل بعضهم إلى هنا، ووصلوا إلى أماكن متقدمة، ولولا أن الرب كان لطيفًا بنا لانتهى كل شيء، وربما لوصلت هرطقاتهم للكنيسة الأم، لذا ليس أمامنا سوى أن نقاوم البذرة التي وضعها الشيطان، كي نرفع غضب المسيح عنا.

كان المنحني يتحدث بعينين مغرورقتين وصوت باكٍ حزين، حتى أنني كدت أن أبكي معه، معلنًا تصديقي لكل حرف من حروفه، معترفًا بما رأيته بالأمس، لكنني ازدردت ريقي، وظللت لا أفتح فمي ولا أرمش بعيني حتى سمعته يقوله:

– هل أنت معنا؟

أجبته بحماس:

– بالطبع.

فرد بطمأنينة:

– المسيح يحفظك.

ثم استدار وأغلق الكتاب الذي أمامه، كان ورقه قديمًا وغليظًا، وكان المنحني يتعامل معه بحرص شديد، حين أغلقه ظهر لي غلافه المصنوع من جلد الماعز، وتذكرته على الفور، فقد كان في حوزتي ليلة أن فر

أنطونيوس، وأخذه مني يوساب معلنًا تأجيل مهمتي. وضعه المنحني في قطعة حرير أخضر، وأخرج الصندوق الخشبي الذي يفتح من الجنب فوضعه فيه، ودفع به نحوي كمن يسلم علم مدينة منهزمة لمستعمر جديد.

في البدء كنت أشعر أنني أحد رسل السماء لقرية ضالة، ولا بد أن أؤدي رسالتي كما طلبها الرب مني، فلا أفتح الصندوق ولا أقترب منه، أنا فقط حامل رسالة وليس لي علاقة بما فيها، لكن الفضول جعلني لا أنام دون أن أخرجه من مكانه وأنظر في محتواه، في المرة السابقة لم أستطع أن أتأمله، فقد فر أنطونيوس وأمضيت الليل مرتعدًا، أزحت قطعة الحرير ورحت أتطلع إلى ورقه الذي يكاد يتفتت بين الأنامل، كان مرسومًا بخط اليد على ورق كبير ذي هوامش واسعة، حيث وضعت كتابات صغيرة على الجانبين، كان الناسخ الذي كتبه قد رسم عنوانه بعناية ومحبة واضحة، ما إن تأملت العنوان المحفور بالكي في جلد الماعز (الرسائل) ثم اسم المؤلف (أوريجانوس)، حتى تذكرت أنني كدت أعترف وأطلب الغفران من المنحني، وشعرت أنني موشك على الجنون، فما عدت أعرف القديس من المهرطق.

-٣٢-

لم يكن أثناسيوس مــن بين الذين تقدموا بأسمائهم لشغل كرسي مرقس الرســول، لكن ظهــور أريوس في الأفق جعل الجميــع يأتي به من نهاية المشهــد ليضعه في مقدمة الصفوف، هكذا اتخذ الأساقفة والكهنة المجتمعون في كنيسة الإسكندرية قرارهم، ليجــد أثناسيوس نفسه محملاً بعبء تخلى الجميــع عن حمله، وباركوه بأنفس راضية لشــاب لم ينهِ عقد العشرينات مــن عمــره، ليقف في وجه أمــواج لم يتوقعها أكثر المتشائمــين منهم، فقد قضــى نحو أربعــين عامًا من الصراع مع أريوســ وتابعيه، فما إن اتخذ قسطنطــين قراره بعــودة أريوس من منفاه، حتى بــدأ اللوكيانوسيون في الضغط لعودته إلى كنيسته.

كان الأريوسيــون والميليتيوسيــون مــن أتبــاع ميليتيوســ قــد قويت شوكتهم، وتعاظم وجودهم في الشق الشرقي من الإمبراطورية، خاصة أن يوسابيوس أسقف نيقوميديا كان أحد تلامذة لوكيانوس، تعلم على يديه مثلما تعلــم أريوس حين ذهب إلى أنطاكيا، ووجــد يوسابيوس تلاقيًا فيما يطرحه أريوس مع ما ورثه عن أستاذه، وما توارثوه من بعض تفسيرات أوريجانوســ للكتاب المقدس، كان يوسابيوس بمثابة رأس الحربة القوى للأريوسيــين والميليتيوسين، خاصــة أن نيقوميديا كانــت العاصمة الثانية للإمبراطوريــة، مما جعــل لأسقفها مكانــة لدى الإمبراطــور، فاستغلها لإعــادة صديقه من المنفى، وسرعان ما طلب من الأخير أن يعيده لشركة الكنيسة.

أرســل قسطنطين لأثناسيوس طالبًا أن يقبــل أريوس في كنيسته، وبدا أثناسيوســ غير قــادر على الرفض أو القبول، ولم يكــن أمامه سوى أن يجتمــع بالأساقفــة والكهنة ليسألهــم عما يمكن عمله، فقــرروا عقد مجمع

مقدس لحرمــان أريوس من جديد، وفكــروا في أن يهملوا الأمر وكأنهم لم يسمعــوا به، وفي النهايــة انتهوا إلى ضرورة اللجــوء لأصدقاء يمكنهم أن يشرحــوا للإمبراطور خطــورة الأمر وخطئــه، ولم يكن هناك غير يوليوس أسقف روما، هذا الذي تكفل بالتدخل شارحًا موقف أثناسيوس، ومخففًا من وطــأة رفضه طلب الإمبراطور، وبــدا أن قسطنطين لم يكن يشعــر بالعدل في طلبه، فتسامح مــع الرفض وكأنه لم يطلبه من الأصل، وهو ما جعل يوسابيوس وأريوس يشتعلان غضبًا، وفكرا في طريقة تفقد الإمبراطور ثقته في أثناسيوس.

أبحر ثلاثــة أساقفة مــن الميليتيوسيين إلى نيقوميديا ليقدمــوا اتهامًا ضد أثناسيوس بأنه حطم كأســ الأفخارستيا الذي يستخدمه الكاهن أسخيراس في كنيســة ليكوبوليســ، بينما تقدم آخر باتهام قال فيــه إن أثناسيوس قتل الكاهــن أرسانيوس وأخفــى جثته، وما كان مــن أوسابيوس إلا أن حمل عريضتهم على وجــه السرعة إلى الإمبراطور، موضحًــا أن أثناسيوس الــذي يتعاطف معه قاتل ومخرب لبيوت الرب، وأن ما يحدث للمؤمنين منه معلق في عنقك كراع للشعب وكنائسه ومؤمنيه، فما كان من قسطنطين إلا أن استدعــى الأساقفة الثلاثة، وعرضهــم على بعض الحاضرين لديه مــن أساقفة وكهان روما، طالبًا منهم أن يحكمــوا على أثناسيوس قبل أن يحكم هــو عليه، فظلوا ينصتون حتى انتهى الأساقفة من رواية ما حدث، والتأكيــد على أنــه حدث، هنالك قام أحــد أساقفة روما سائــلاً عن كنيسة ليكوبوليســ وموقعها، ثم هز رأسه واستدار نحو الإمبراطور قائلاً إنه لا يجــوز، بحكم المنطق، فلا يمكن لأثناسيوســ أن يكسر كأس الأفخارستيا بكنيســة هذه المدينــة، لأن كهنتها تابعــون لميليتيوس المنشــق على بطرس الشهيد، وكانت عاصمة لهم حتى مجمع نيقية، وهو ما يعني أن هذه المدينة مركز يود أثناسيوس القرب منه، وليس خلق ثورة عليه.

بــدا علــى الإمبراطور تفهمه لمــا قاله الأسقف، لكــن الأمر ظل مجرد إثبات منطقــي، وإن قبل المنطق في هذه الواقعة فلا يمكن قبوله في جريمة قتــل كاهن وإخفاء جثتــه، هنالك تدخل يوليوس أسقــف روما قائلاً إنه لا بــد من أن يرد أثناسيوس بنفسه على هــذه الاتهامات، علمًا بأنها ما زالت

مجرد اتهامات، ومن ثم فإنني أقترح أن نرسل في استقباله ليشرح الأمر على نحو لا يضعنا في مواجهة مع شعبه. تفكر قسطنطين في الأمر، ثم هز رأسه موافقًا على أن تجري الأمور كما طرحها يوليوس، وكان هذا بداية انفلات الأمور من يد أريوس ورفاقه.

أرسل يوليوس إلى أثناسيوس يخبره بما يحاك له، طالبًا منه أن يحضر أدلة قاطعة على براءته، هنالك طلبت من أثناسيوس أن يترك الأمر لي، وأرسلت إلى أبانوب أخبره أن كاهن ليكوبوليس يقول إن أثناسيوس كسر كأس الأفخارستيا في كنيسته، فتحقق من الأمر. أرسل بدوره بعضًا من رهبانه ليتحسسوا ما جرى، فما كان منهم إلا أن نزلوا ففتشوا بيت الكاهن حتى وجدوا الكأس التي أخفاها، فقبضوا عليه وأخذوه لدير الملاح، وهناك أخبره أبانوب أنه لن ينتظر حتى ينظر الرب في عقابه، لكنه سيقوم بذلك بنفسه، فما كان من الكاهن إلا أن انهار معترفًا أنهم أغروه بالمال، وأنه لم يكن ليدَّعي كذبًا على البابا أثناسيوس، لكنه المال والضعف، فقد هددوه بقتل زوجته وابنه إن لم يتعاون معهم، وفي طيات الاعتراف جاء ذكر أرسانيوس الذي سافر إلى صور بصحبة أحدهم.

أرسل أبانوب بما توصل إليه، فانتشينا بالخبر، وطلبت منه أن يجهز الكاهن للسفر معنا على نفس السفينة، بينما طلبت من أثناسيوس أن يبحث لنا في صور عن أرسانيوس، فأرسل إلى أسقفها قائلاً "لي صديق لديكم لا تبلغوه سلامي" ثم ذكر اسم الكاهن، ولم يمض أسبوع حتى جاءه الحمام برسالة تقول "رأيناه ولم نكلمه"، فأبحرت بنا السفينة إلى نيقوميديا حيث كان الإمبراطور هناك، ولم يتحدث أثناسيوس كثيرًا، بل الذي تحدث هو أسخيراس، فقد قدم للإمبراطور الرشوة التي أخذها، وذكر بالأسماء الكهنة الذين أغروه بها، وفضح أمر أرسانيوس المختفي في صور، هنالك وقف قسطنطين لا يعرف كيف يعتذر لأثناسيوس، وقد علا وجهه الغضب.

كنا نتصور أن هذه ستكون نهاية أريوس ويوسابيوس، لكنهما استطاعا الدفاع عن نفسيهما، فليس هناك ما يلصق بهما، ولم يأتِ ذكرهما في شيء، حتى أرسانيوس ادعى أنه لا علاقة له بالأمر، وأنَه كان في

زيـارة لصديق، بينما قال الكاهن الذي قـدم عريضة يتهم فيها أثناسيوس بقتل أرسانيوس أنه أخطـأ في اعتقاده، إذ ظن أن التوتر بين الميليتيوسيين والأثناسيوسيين أودى بحياة صديقه. فأمر قسطنطين بجلدهما وحبسهما، لكنـه لم يجد دليـلاً على الذين فكـروا وخططوا، ومن ثـم لم يمض كثير مـن الوقت حتى عقدوا مجمعًـا مقدسًا اتهموا فيـه أثناسيوس بإفقاد عذراء بتوليتها.

كان أثناسيوسـس في ذلـك الوقت قد شعر ببعضـ الراحة من التهم التي سيقـت ضـده، وقرر أن يقـوم برحلة رعوية إلى الجنـوب، حيث يمكنه أن يخفف من غلواء الميليتيوسيـين وأنصارهم على الشعب، كما يمكنه أن يبسـط نفوذه بنفسه هنـاك، فركبنا مركبًا وسبحنـا في نقيض التيار، حتى وصلنا إلى منــة الرب التي كانت معروفة في زمن الفراعنة بمنعة خوفو، فنزلنا بكنيسة السيدة العذراء التي شيدت في نفس زمن كنيسة القبر المقدس بالقدسـ، فأقام بهـا أثناسيوس قداسًا للشهداء، ورسم عـددًا من الأساقفة والكهـان، ثـم أكملنا طريقنـا نحو مدينـة ليكوبوليس حيـث مدينة الذئب المعروفـة بسيوت، حيث نزلنا بكنيسة العـذراء، وهي المغارة التي نزلت بها السيدة العذراء حين قدمت ليكوبوليس، واستقرت بها حتى جاء الملاك لخطيبها يوسف النجار بالبشـارة، معلنًا أنهم يمكنهم العودة إلى فلسطين، فأقـام أثناسيوس القداس الإلهي، ورسم عددًا من الأساقفة والكهان، كما رسم أسقفًا خاصًّا بأكسوم هو فرومنتيوس الذي لقب بمعلن النور.

في هـذه الرحلـة أبحرنـا إلى أقاصـى الجنـوب، حيث مدينـة الذهب المعروفـة بسوان، وهناك رغـب أثناسيوس في لقـاء الأب باخوميوس، وكان معتـزلاً في جبل وعـر، لكن باخوميوس لم يأت مـع الرسل الذين ذهبوا إليه، فقرر أثناسيوس أن يذهب له بنفسه، فصعدنا الجبل عبر طرق قاسيـة، حتى وصلنا إلى المغارة التي يلازمها باخوميوس، لكننا لم نجده، انتظرنـا ظهوره وناديناه لكنه لم يظهر، حتى أن أثناسيوس شعر بالإهانة وغضـب، وحزن الجميع لغضب البابـا، ونزلوا معه إلى الكنيسة يعدون لقداس الغد، لكن أثناسيوس وجد رجلاً يسأله عن سبب طلبه لباخوميوس، فقال إنه يريد أن يلتمس البركة منه، ويسأله الصلاة لأجله، فنظر الرجل

ثلاث مـرات لأثناسيوس قائلاً: فقط؟ وأثناسيوس يقـول نعم، في النهاية قال الرجل أن باخوميوس هرب في الجبل خشية أن ترسمه أسقفًا أو قسًّا، وهـو لا يريد إلا أن يعبد المسيح كما هو في عزلته. فضحك أثناسيوس قائلاً "له ما يريد، لكن لا يحرمني من رؤيته"، فتركنا الرجل وصعد الجبل، وفي الصبـاح وجدنـا باخوميوس حاضرًا في القداسـ، يرتل مع المرتلين ويتنشق نسمات العطر المقدس.

كنا قـد تعبنا من رحلتنـا وتطوافنا على الكنائسـ والرهبان في القلالي والكهـوف والجبال، لكـن أثناسيوس أبى إلا أن يخـترق صحراء القلزم لرؤيـة الأب بـولا والأب أنطونيوس، وكان كل منهما قـد اتخذ له ديرًا في الجبـل، ما إن وصلنا إلى جبال القلزم حتى تنسمت ريح الملاح والأب ديميتريوسـ، فتركت أثناسيوسـ ومن معه يكملـون مسيرتهم نحو بولا وأنطونيوسـ في الشمـال، وأخذت أصيح على رهبان المـلاح أن ينزلوا لي بكـرة أبانوب، فلما عرفوني أنزلوها، صعـدت أقبل كل من رأيته في طريقي، وكان في مقدمتهم أبانوب الذي أصبح وجهه منحوتًا بقسوة، كأنه قـد صار جزءًا من الجبل، اصطحبني بترحاب وحفاوة لقلاية ديمتريوس الصغير، كانت صحته أفضل، وذكرياته عن الإسكندرية كثيرة، فجلست بصحبتـه ثلاثة أيـام، ثم طلبت منـه أن ينزل معي للقـاء أثناسيوس، فقد تعـب الرجـل ولا أريـده أن يتحمل المزيـد، وكدنا ننزل مـن الدير حين رأينـا أثناسيوس ومن معه يتخذون طريقهم لصعود مخر السيل، فصحت عليـه أن ينتظر، ونزلت مع ديمتريوس وأبانـوب في البكرة للقائه، قال إن الأب أنطونيوسـ عاتبه على عدم المرور بالأب ديمتريوس، فقررت العودة للصلاة في ديره وإقامة قداس بكنيسته.

كنـا مشفقين على الرجل من رحلته الطويلة، فاكتفينا بأن مر معنا على القـلالي يسلم على الرهبان، ويبارك الكنيسـة قبل أن يرسم أبانوب كاهنا فيهـا، ورسم له شماسين من تلامذته همـا ساويرس ولاون، بعدها نزلنا جميعًا لزيـارة الأب أنطونيوس في ديره، هذا الـذي يحمل له أثناسيوس إكبـارًا أكثر من أي راهـب آخر، فظللنا في صحبتـه يومين، عاد بعدهما ديمتريوس وأبانـوب إلى دير الملاح، وأكملنا طريقنا نحو الإسكندرية في

الشمــال، حيث وجدنا رسولاً من يوسابيوس القيصري أسقف صور جاء يدعو أثناسيوس لحضور مجمع مقدس هناك.

أوعــز يوسابيوس النيقوميــدي ليوسابيوس القيصــري أن يدعــو أثناسيوس لحضور مجمعه في صــور، فرتب الأخير أمره للذهاب برفقة عــدد من القساوســة والشمامسة في موكبه، وهناك عاملــه الجميع بتقدير واحــترام كبير، لكن لم يمض يومان على بدء المجمع، وفي ذروة احتدام المناقشــات، إذا بسيدة تدخل صارخة بنجدتها، فقد اعتدى عليها أثناسيوس أسقـف الإسكندرية وأفقدهــا عذريتها، كان الأمر مفاجئًــا للجميع، وثار لغط بين الآبــاء المجتمعين، ولم يعرف أثناسيوس بمَ يــرد، لكن الله ألهم الشماس تيموثاوس أن وقف في مكانه سائلاً المرأة بفزع:

– هل رأيتك من قبل يا امرأة؟

فما كان منها إلا أن قالت:

– نعم، بالأمس هاجمتني وأفقدتني عذريتي، ولن أسامحك.

كانــت جملتها خاطفة وسريعــة، حتى أن الذين أدخلوهــا لم يستطيعوا إنقاذها، فصرخ فيها تيموثاوس:

– أنا؟!

فأعادت تأكيدها من جديد:

– نعم أنت يا أثناسيوس..

فمــا كان من أثناسيوســ إلا أن نهض من مكانه، وخــرج غاضبًا من الكنيسة، وصرخات الأساقفة تطالبــه بالانتظار، وبين خروجه وصياح الأساقفــة المطالبين بمحاسبــة الساقطة، كان يوسابيوســ القيصري قد فقد السيطــرة على الأمور، فأنهى الجلسة وخرج يبحث عن أثناسيوس، لكن الأخير صاح في وجهه:

– أرأيــت ما يريدونــه؟! أرأيت كيف يساعدهــم الإمبراطور؟ إنني لا أريدها حربًا، ولو أردتها لحرمت روما من وصول حبة قمح إليها.

تحدث أثناسيوس بانفعال أمام الجميع، وتوالى الأساقفة يقبلون رأسه، لكنه الشيطان كان حاضرًا بقوة في ذلك الوقت، فأمرنا أثناسيوس بإعداد السفينة لمغادرة صور، فأقلعنا دون أن نعرف إلى أين سنذهب، فقد ظل محدقًا في الماء، فاتحًا صدره للهواء عسى أن يزيل ما به من غضب، وكان الربان يريد أن يعرف إلى أي جهة سيذهب، كنت أتصور أننا عائدون إلى الإسكندرية، لكن أثناسيوس فاجأني برغبته في الذهاب إلى روما، فلا بد من ملاقاة قسطنطين لحسم الكثير من الأمور، خشيت أن ندخل روما وهذا الغضب جاثم على صدره، فتخرج منه كلمة تغضب الإمبراطور منا، فنصحته بالذهاب إلى القسطنطنية، فنستريح ونفكر فيما يجب أن نوضحه للإمبراطور، بعدها نبحر إلى روما.

يمكنني أن أعترف أن أثناسيوس كان على صواب، وأنني كنت على خطأ، فلو كنا قد خرجنا من صور إلى روما كما أراد ربما لتفادينا الكثير من الأمور، فقد شعر يوسابيوس النيقوميدي بالخطر على نفسه ورفاقه، فأسرع بالذهاب إلى روما، حيث التقى قسطنطين قائلاً إن أثناسيوس يهدد بمنع خروج القمح من بلاده إلى روما، فما كان من قسطنطين إلا أن أمر بالقبض على أثناسيوس، فلما أحضر إليه أمر بنفيه إلى تريف، فهاج أثناسيوس صارخًا في وجهه مرات ثلاث:

– الرب يحكم بيني وبينك.

-٣٣-

قـال أنطونيوس إنه حـين رآني في دير المحرق توقـع أنني مختطف، فكمـن بعيدًا يرقب الموقف ويتحين الفرصة كـي يحادثني، لم يكن يعلم أن شيئًا ما جعلني أشعر بحضوره في الدير، ربما كان الحلم الذي رأيته على سطح القلاية قبل أن يتم تكليفي بهذه المهمة، وربما حدس من قبل السماء، علـى كل كان حضوره يتزايد كلما اقترب مني، حتى أنني اضطررت أن أميـل برأسي كي أراه وهو يصلي في كنيسة العذراء بدير المحرق، وحين تركتـه وخرجت لمحته بطرف عيني، لكنني لم أشأ أن ينتبه لوجوده أحد، وحين خرجـت من دير درنكة لمحته أيضًا، كنت في كل حركة أبحث عنه كمـا لو أنني أسعى للتواصل معه بالروح، فأجذبه إلى الطريق الذي أسير فيه قبل أن يضل عني، وأفقد فرصتي في النجاة.

في صباح ذلك اليوم استيقظت على طرقات أحد الرهبان طوال القامة علـى باب المكتبة، أخـبرني أن الباص ينتظرني أسفـل الهضبة، غسلت وجهـي وغيرت ملابسي وحملت صندوق المنحنـي معي، ولم أنس دفتر التحقيقـات ولا كراسة "الاعتراف الأخير"، فقـد وضعتها أسفل ملابسي تحسبًـا لأن يتـم تفتيش المكتبة بعد خروجـي، في الباص وجدت اثنين من الرهبـان يتمتعان بطول القامة، وصلتني الرسالـة ولزمت الصمت طيلة الطريـق، مـا إن وصلنا إلى ديـر المحرق حتى سألت عـن كبير المحققين الكنسيـين هناك، كان أسقفًـا كبيرًا، ما إن عرَّفتـه بنفسي حتى رحب بي وطلـب منـي الأوراق، حاولـت أن أراوغ فسألته عمـا يعنيه، نظر لي بغضـب متسائلاً عن سبب قدومـي، فهمت الرسالـة وأخرجته من أسفل إبطـي، بدوره فتح دفترًا كبـيرا دون فيه بعض الكلمات، ثـم سألني إن كنـت أقر بأن كل ما في هذا الدفتر صحيـح وغير ناقص أو مزور، وقبل أن أجيب كان قد كتب:

- نعم صحيح.

ثم عاد ليسأل:

- هل تشك أن أنطونيوس قام بقتل باخوميوس؟

ولم ينتظر إجابة مني، فقد كتب بصوت شبه مسموع:

- لقد اعتدى عليه أمامي، لكن باخوميوس مات بعدها بثلاثة أيام ميتة طبيعية في قلايته، فقد كان عجوزًا مسنًّا وغير قادر على احتمال الإهانة.

هكذا وجدت التحقيق قد دار عن باخوميوس، لكنه كان يحاصر أنطونيوس من كل جانب، خاصة حين سأل:

- إن كانت المحققة دميانة قد اختفت، فهل تعتقد أن أنطونيوس مسئول عن اختفائها؟

فأجبته سريعًا:

- لا.

رفع وجهه عن الدفتر، ونظر لي بلوم واضح، ثم عاد ليجيب:

- لا أعرف، لكنه كان قاتلاً وقاطع طريق قبل أن يدخل الرهبنة، وقد ذكر لها هذه المعلومات أثناء التحقيق معه كنوع من الترهيب.

وكان سؤاله الأخير:

- ما الذي خشي أن تكشفه دميانة في تحقيقاتها؟

نظر لي كي أهمس ببنت شفة، لكنني لم أستطع التجاوب معه، فعاد ليكتب في دفتره:

- كان يطبع كتب المهرطقين ويوزعها على الناس.

بعدها طلب مني أن أوقع، ثم كتب أسفل توقيعي أن التحقيق تم بمعرفته وقام بالتوقيع. بعدها ضغط زرًّا بجانب مكتبه، ظهر راهب ممشوق القوام مزجج الحواجب، فأمره أن يوصلني إلى الخارج، لكنني التفت إليه سائلاً:

– أين يمكنني أن أجد الأب إسطفانوس؟

نظر نحوي بغضب، ثم أعطى إشارة للراهب بالخروج قائلاً:

– سيخبرونك.

أدركت أن هذا الرجل جزء من حلقة كبيرة، وأنني وهو نسير وفق مخطط اتفق عليه مسبقًا، وليس أمامي سوى الانصياع إلى أن تجيء فرصة لكسر الحلقة والخروج منها.

حين خرجت من مكتبه وجدت الراهبين طويلي القامة ينتظراني، بينما أشار مزجج الحواجب بانتظاره، تركني ودخل إلى الغرفة من جديد، ثم عاد ليستدعي شماسًا كي يرافقنا، لم أشأ أن أسأل عن شيء، فقد تركت نفسي أمشي خلف الشماس، بينما يمشي خلفي طويلا القامة، ظللنا نصعد درجات رخامية وننزل درجات حجرية، وندخل ردهات ونصعد أدوارًا حتى وصلنا إلى سلم في نهاية الدير، أشار الشماس لطويلي القامة أن ينتظرا، وأشار لي بالصعود، أخذت في ارتقاء درجات مظلمة لسلم خلفي يدور حول عمود لا نهاية له، في النهاية وجدت نفسي أمام ردهة مظلمة، فلم يكن أمامي سوى دخولها، انتهت بسلم صغير ينتهي بباب لغرفة بدت كما لو أنها صومعة نُسيت منذ أمد بعيد، طرقت على الباب فوجدته مفتوحًا، واربته ونظرت بنصف عين فوجدت شخصًا تخطى المائة من عمره يجلس في كرسي من جريد، لم أصدق أن كل هذا التعب من أجل الوصول لهذا العجوز، سألت مستفسرًا:

– الأب إسطفانوس؟

أومأ برأسه إيماءة خفيفة، ومد شفتيه إلى الأمام قليلاً، كانت عينه عجوزًا جدًا، حتى أنها لم تكد تظهر من بين التجاعيد التي ملأت جفنيه وخديه، من جديد حرك شفتيه مرتين إلى الأمام والخلف كما لو أنه يجهزهما للكلام، ثم عاد فهز رأسه وكأنه يسألني عن هويتي، ولم يكن أمامي سوى أن أقول:

– أنا من طرف الأب جورج المنحني.

ارتسم شبـح ابتسامة على وجهــه، وهز رأسه مشــيرًا بأنامله الرقيقة نحــوى، فدفعت ما بقي من البــاب ودخلت، كان النور في الخارج قويًّا، حتــى أنني لم أستطع أن أكشف ما بداخــل الغرفة قبل الدخول، ولدهشتي كانت غرفة كبــيرة مستطيلة، على نقيض ما ظهــرت عليه من الخارج، كانت مستطيلة ومبطنة بأرفــف مليئة بالكتب من كل جانب، وفي وسطها دولابان يــتركان مساحة صغــيرة لإسطفانوس كي يتخــذ جلسته المريحة هــذه، ثــم يمتــدان إلى نهاية الغرفــة، كانت رائحــة الكتب التــي أعرفها جيــدًا تتصاعد في أنفــي، فأشار لي إسطفانوســ بالجلوس على كرسي في مواجهته، وهمس بصوت ضعيف:

– ماذا معك؟

أخرجــت الصندوق مــن طيات ملابســي، ووضعته أمامــه، فمد يدًا عجــوزًا مدربة وفتح الغطاء الجــرار، ثم أزاح قطعــة الحرير الأخضر فظهر غــلاف الكتاب، نظر إلى العنوان وهز رأســه ثم أعاد الحرير إلى موضعه وأغلق الدرج في هدوء:

– أبقه معك.

هكــذا قال، ثم سعل مرتين قبل أن يشــير لشماس كان مختفيًا في ظلام الدواليب، فأمره أن يأخذني إلى كنيسة العذراء للصلاة، حملت الصندوق مــن جديد بين ملابسي ونزلــت خلف الشماس، مــا إن وصلت إلى نهاية السلم حتى بحثت عن طويلي القامة فلم أجدهما، لم أصدق أنهما سيتركاني أكمــل الرحلة وحــدي، درت مع الشماســ حول المبنــى الرئيس للدير، وتعجبت مــن قدرة الشماس على القفز والسرعــة في السير، حين وصلنا إلى بــاب الكنيسة جلســت ألتقط الأنفاس وأنا أصلــي، دون أن أعرف ما الذي ينبغــي عليَّ عمله أكثر من ذلك، بعدها جــاءني قس يشرح لي كيف تحملت أم النــور بمشقة هائلة رحلتها من بيت لحم إلى هنا، وأنها رأت في منامها قرب انتهاء أزمتها، لكنها لم تشأ أن تتحدث عن شيء لم يتحدث به المسيح بعد.

– فلا تتعجل شيئًا.

قالهـا وهـو يبتسم في وجهـي، ففهمت أنـه يبلغني رسالـة، وأنه جاء يعاوننـي على الانتظـار، ولا يتركني أتصرف بحماقـة، في هذه اللحظة تذكرت أنطونيوس، وشعرت بوجوده، بدا لي كما لو أنني تمنيت وجوده فظهر، شعرت أنه يدخل من الباب، يقف قليلاً ثم يختار مكانًا ليجلس فيه، كانت عينه تكاد أن تخترقني وهو يحاول التأكد إن كنت أنا أم لا، بدوري كنـت أشعـر أنني جالـس على نار، وأننـي أود أن أتأكـد مما يراودني، فانتهزت فرصة أنني أحاول أن أواري ابتسامتي بعيدًا عن القس ونظرت خلفي، لمحته في أقصى الصحن جالسًا يصلي، شعرت بالطمأنينة والدهشة أيضًا، فقـدت الشعور بالانتظار، ولم أنشغل بمـا يقوله القس، حتى عاد الشماس هامسًا لي بالخروج، فنهضت خلفه خارجًا من الكنيسة.

كنت أدرك طيلة الوقت أنه خلفي، حتى لما ذهبنا إلى كنيسة العذراء في جبل درنكة كنت موقنًا أنه موجود، رغم أنه لم يدخل، وخيرًا فعل، لأنهم لو قبضوا عليه كانوا سيلقون به من فوق الجبل، فقد ظهرت القوة والقسوة بعـد دخول الكنيسـة، كان التفتيش صارمًـا، كما لو أن حدثًـا ما سيقع، حتـى أن طويلي القامـة تم حجزهما بالخارج، فوقفـا يرقبان ما يجري، بينمـا قام القس الذي صاحبني في هذه المرحلـة بالصعود معي إلى الجبل، كانت النباتات الجبلية كثيرة ومتنوعة، شعرت أنهم يزرعونها لأغراض كالطب، وعـبر ممرات ومدقات جبلية دقيقـة أوصلتنا للجانب القديم من الدير، حيث بوابة لا تكاد تظهر للعيان، فوقفنا أمامها وانتظرنا فترة حتى تحركت، وجدنا خادمًا عجوزًا يكاد ينام على نفسه، حييناه برأسينا ودخلنا مـن جهة المطابخ، مررنا من بين الأواني التي يغسلها الرهبان، ومن بين مخازن الغـلال والخضار، وصعدنا سلمًا نحو طابـق أو اثنين، ثم سرنا في ممـر مرصوف بالأحجار ينتهي بسلم يـؤدي إلى غرفة تكاد أن تكون مظلمة، كان الخـادم الجالس على بابها عجوزًا تمامًا، فوقف أمامه القس بإجلال وهو يطلب ملاقاة الأب يؤانس، لكن الخادم الذي تعاطف معنا،

وكأنه يدرك مشقة رحلتنا، قال إنه ذهب إلى دير الزاوية لأمر هناك.

كان آخـر ما يمكن أن أتوقعـه هو أن أرى دميانة في دير الزاوية، فقد عدنـا إلى الباصـ الذي أحضرنا مـن دير الملاح، صعـدت والقس الذي يرافقنـي ومن خلفنـا صعد طويلا القامة، وطلبنا مـن السائق في عجلة أن ينطلـق بنا إلى دير الزاوية. ما إن وصلنا حتـى تركنا الأتوبيس وطويلي القامة عند البوابة، فليس مسموحًا بدخول الرجال إلى دير الراهبات، لكن القس همس في أذن الحارس بكلمات كي يبلغها لإحدى الخادمات، فغابت الأخيرة قليلاً في الداخل قبل أن تخرج إحدى الراهبات المتقدمات في السن لملاقاتنـا، تهامس معها القس بكلمات لم أسمعها، لكنني رأيته يشير بأنامله نحـوي، فتركته وعـادت إلى الداخـل، وبعد فترة ليسـت طويلة عادت لتقودنا في ممر شبه دائري حول الفناء الداخلي للدير، هناك رأيت دميانة، كانـت تمشي خلف راهبة في نفس سنها، وددت أن أناديها، لكنني نظرت نحـو القس المرافق لي وتمالكت نفسي، هو بدوره كان يحث الخطى خلف الراهبة التـي لم تكن تلتفت يمينًا ولا يسارًا، وكـدت من فرط النظر نحو دميانة أن أتعثر في حجر فأنكفئ على وجهي، لكن الرب أنقذني، فأكملت طريقـي وأنا أتساءل عما يجري، في نهاية الطريق وجدنا سلمًا يؤدي إلى ممـر في الأسفل، نزلنا حتى وصلنـا إلى حائط رطب، شعرت أن الظلمة تضغط على نفسي، هنالك جذبـت الراهبة شيئًا في الجدار مرتين، وجدنا جـزءًا من الجدار على هيئـة قرص من الرخام الأسـود يتحرك، عبرنا مـن الثغرة التي انفتحـت ورأينا اثنين من طويلي القامـة يقفان أمامنا، ما إن رفعـت نظري عن جسديهما المتشابهين حتى وجدتنا أمام مجموعة من القـلالي القديمة، أخذتنا الراهبة إلى واحدة منها، حيث جلس راهب مسن في انتظارنا، فمد القس رأسه بأدب شديد نحوه سائلاً:

– الأب يؤانس؟

هز الراهب العجوز رأسه بالإيجاب، راسمًا ابتسامة رقيقة على وجهه.

أضاف القس:

– هذا الخادم من قبل الأب إسطفانوس.

اتسعت ابتسامة يؤانس وهو يشير للراهبة أن تأخذ القس ويخرجا، فطرقت بأنامل قطة عجوز على كتف الرجل، وأشارت له أن يتبعها.

حاولت أن أشرح المهمة التي جئت فيها من قبل الأب جورج، لكن الرجل الذي كتم سعاله بشدة، أشار بأطراف أنامه أن أخرج الكتاب، فما كان مني سوى أن وضعت يدي في طيات ملابسي، ومددتها إليه بالصندوق، ففتح بابه وأزاح قطعة الحرير، ناظرًا إلى الغلاف المصنوع من جلد الماعز والورق القديم المتآكل، ثم عاد فأغلق الصندوق ووضعه أمامه على السرير قائلاً:

– شكرًا لك.

-٣٤-

لم يكن يؤانس مجرد راهب متنسك في دير العذراء، لكنه كان مناضلاً مــن أجل فكرة آمــن بها طوال سنــوات عديدة، فقــد كان مدرسًا للتربية الرياضيــة في المدرســة التي كان يرتادها تلميذه الأثــير صلاح عبد المسيح متري، والد دميانة، وكان صلاح صغير الحجم قليل الكلام، لكنه يمتلك رأسًــا شديدة الصلابة والعنــاد، حتى أنه يدخــل في مشاكسات مع تلاميذ أكبر وأقوى منه، فكان ينال من الضرب ما استدعى تدخُّل يؤانس لإنقاذه عدة مــرات، أعجب يؤانس بعنــاده وأخذ يبسط رعايتــه عليه كي يحميه مــن التلاميذ الأشرار، ولم يلبس أن عاملــه كابنٍ لم ينجبه، وكلما تعقدت مشكلته مع زوجته ازدادت بنوته له.

لم يكــن أحد يعلم أن يؤأنس ذا الجسد العملاق كلاعب سلة، والصوت الهادئ والابتسامة الودود يعاني مشكلة ذكورية، حتى فوجئ الجميع بأن زوجتــه قد هجرته، وسرعان ما ذهبــت إلى كنيسة كاثوليكية ليتم تعميدها هناك، فما كان من الكنيسة إلا أن فرقت بينهما، وكان ذلك بالنسبة ليؤانس أكبر هزيمــة في حياته، ليس لأنه كان يحبها بجنــون، ولكن لأن الجميع تصوَّر أنه غير قادر على القيام بمهامه الزوجية، وعبثًا حاول أن يشرح للكنيســة أن اعتناقها للكاثوليكية مجرد خدعــة للحصول على الأبناء، لكن القساوسة لم يستوعبوا الأمر على النحو الذي شرحه، ولا الناس استوعبوا أن سيــدة جميلة ومؤمنة تذهب باختيارهــا للجحيم بحثًا فقط عن الأمومة. فقــرر بعد مرور عامين من الانفصال الموجع أن تكون العزلة طريقه إلى الله، فحمل أغراضه الخفيفة وذهب ليدق أبواب دير البراموس في وادي النطــرون، طالبًا منهم الانخراط في حياة الرهبنــة، فتم ترسيمه شماسًا، ليبدأ في دراسة اللاهوت ويصبح فيما بعد قسًّا في نفس الدير.

التلميـذ الوحيد الذي حمل والده على الذهـاب لرؤية يؤانس في عزلته كان صلاح متري، يومها فرح يؤانس بلقائهما، واعتبر صلاح ابنه الذي كان يجـب عليه أن ينجبـه، وبمرور الأيام التقى يؤانـس بإبراهيم فهمي هـلال في إحـدى المحاضرات بالديـر، اقتنع بحديثه عـن مؤتمر الأقباط الأول عـام ١٩١١، الذي عقـد في أسيوط عقب اغتيـال بطرس غالي، برعايـة من المحامي أخنوخ فانوس، وطالب هلال يومها بعقد مؤتمر ثانٍ للأقباط، كما طالب بتأسيسس جمعية أهلية باسم "الأمة القبطية" يكون من أهدافهـا إصلاح شئون الكنيسة، وإصـدار جرائد تكون منبرًا للدفاع عن الأقبـاط في مصر والخارج، ويكون شعارهـا الله ربنا، ومصر وطننا، والإنجيل شريعتنا، والصليب علامتنا، والقبطية لغتنا، والشهادة في سبيل المسيح غايتنا.

حـدث إبراهيـم فهمي هلال القسـ يؤانس عن حقـوق الأقباط وعدم تمثيلهـم بما يكفي في المراكز القيادية، وإفسـاح المجال لمزيد من العلمانيين كـي يشاركوا في اختيار البابا وتفسير الكتاب المقدس، كان حماس إبراهيم لإدخـال العلمانيـة إلى الكنيسة كبيرًا، حتى لو استلـزم ذلك فرض الأمر بالقـوة، وكان مشهد تفريق الكنيسة ليؤانـس عن زوجته ما زال حاضرًا في مخيلة الأخير، فوضع يده في يد هلال مبايعًا على إحداث التطوير ولو بالقوة.

حين حصـل إبراهيم فهمي هـلال على ترخيص بإنشـاء الجمعية كان صـلاح متري من مؤسسيها، فقد أصـر يؤانس على وضع اسمه في قائمة المؤسسـين رغم صغر سنـه، ولم يكن لأحد أن يغضبه بعدمـا أسندوا إليه مهمـة اختيار العناصـر الشابة وتدريبها، ولم تمضـ شهور على صدور الترخيص حتى ذهب إبراهيم فهمي هلال بوصفه وكيلاً عن الأمة القبطية ليشـرح للبابا يوساب الثـاني رؤيته للتطوير، لكن البابـا الذي استمع إليه طويـلاً، والذي كان يعاني مـن صراعات كبـيرة في الكنيسة والأديرة، اعتبر أن مـا يقوله إبراهيم محض هرطقة جديـدة، وهدده بالحرمان إن

تحدث بمثـل هذه الأمور، ولم يكـن أمام إبراهيم سـوى أن يبلغ أعضاء جمعيتــه بما قاله يوساب الثاني، فاعتبروا ذلك تهديدًا لوجودهم، واتخذوا قرارهم بتذليل العقبات.

في ذلـك الوقت كانـت الجماعة تعمل علـى ضم شبـاب الأقباط الذي يحمل درجات علمية، ويهدفون إلى النهوض بالشعب القبطي عن طريق الإصلاح من خارج الكنيسة، وكانت مصر متشبعة بالتيارات التي كانت سائـدة في ذلك الوقت كالإخـوان المسلمين والضبـاط الأحرار، فطالبت الجماعـةُ الحكومة بإنشـاء محطة إذاعة خاصـة بالأمة القبطيـة، وإنشاء مقـرات للجماعة بالقرب مـن الأحياء القبطية، وذلـك لتحقيق أهدافها في تقـديم المساعـدات للمحتاجين والعاطلـين، وهو ما وافقـت عليه الحكومة لكنهـا لم تدعمه، ولم يتم دعمه إلا برعايــة من عبد المسيح باشا حين انضم للجماعة، فوفر لها المقرات ومنحها التجهيزات، وسهل اختلاط أعضائها بالأقبـاط في الأحياء الفقيرة، كـي تنتقي منها العناصـر الصالحة لدخول الجهـاز الخاص، هذا الذي ترأسه يؤانس على نحـو ما فعل عبد الرحمن السندي في جهاز الإخوان.

وضــع يؤانس برنامجًا تثقيفيًّا رياضيًّا أسبوعيًّا للشباب، وأخذ في حثهم على زيارة الأديرة والكنائس الكبيرة، قائلاً إن هذا بداية الطريق للشباب المؤمـن، الشباب الذي يحمل فكر الكنيسة ورؤية العلمانية في قلب واحد، لكـن الأمر لم يـأتِ بالنجاحات التي كان ينتظرهـا، خاصة بعدما تصاعد الخـلاف بـين إبراهيم والبابـا يوساب الثـاني، فقد قـرر الأخير حرمان الجمعيـة وأعضائهـا، فخرج إبراهيم من مقر الجماعــة في شارع الفجالة متجهًـا إلى وادي النطـرون، وهناك التقى بيؤانـس شارحًا المأزق الذي تعيشه الجماعة، وأنه لا بـد من تذليل العقبات كي تتمكن الأمة من تحقيق أحلامها.

استيقظـت البلاد يـوم الرابـع والعشرين من يوليو عـام ١٩٥٤ على قيـام خمسة من شبان الأقباط بهجوم مسلح علـى المقر البابوي في شارع كلوت بيك، مقتحمـين بوابة دار البطريركية، شاهريـن مسدساتهم على

عاملي البوابة والنظافة، وجردوهما من عصيهما وملابسهما، وقيدوهما في أماكنهما، ووقف أحد الشبان الخمسة أمام الدار ليمنع أي شخص من طلب النجدة، بينما وقف آخر عند مدخل جناح البطريرك ليمنع أي محاولة للاقتراب من غرفته، وشق الثلاثة الآخرون طريقهم إلى غرفة يوساب العجوز، فاستيقظ على وجوه الشبان الذين أشهروا أسلحتهم في وجهه، مطالبينه بالإسراع في ارتداء ملابسه لأنه سيذهب معهم، وما إن ارتداها حتى وجدهم يضعون أمامه ثلاثة قرارات كنسية ليقوم بتوقيعها، كان القرار الأول هو تنازله عن العرش البابوي، وتعيين الأنبا ساويرس مطران المنيا بدلاً منه، أما الثاني فكان دعوة المجمع المقدس والمجلس الملي العام لانتخاب بطريرك جديد، في حين كان الثالث توصية منه بتعديل لائحة انتخاب البطريرك، بحيث يشترك في انتخابه جمهور رعاياه من العلمانيين.

بعدها خرج الشبان الخمسة ومعهم البابا ليركبوا سيارة وقفت على مقربة من مقر البطريركية، فانطلقت بهم إلى أديرة وادي النطرون، حيث كان يؤانس هناك في انتظارهم، فقام باحتجاز البابا في إحدى القلايات القديمة، وكلف مجموعة من الشبان التابعين له بحراسته ومنع أحد من الوصول إليه، وما إن عاد الشبان الخمسة إلى مقر الجماعة في الفجالة حتى وجدوا إبراهيم فهمي هلال قد بدأ تنفيذ الجزء الثاني من مخططه، حيث أرسل بيانًا إلى مختلف الكنائس والجهات الرسمية في الدولة معلنًا تنازل البابا عن منصبه، وإقراره بوجود فساد مستشرٍ في الكنيسة، مطالبًا الشعب القبطي بانتخاب بطريرك آخر، ومحذرًا الدولة من التدخل في الشئون الداخلية للأقباط.

كانت الدولة وقتها قد فرغت من الاحتفال بالذكرى الثانية لقيام ثورة يوليو وسط أجواء بالغة التعقيد، فقد كان الصراع بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر على أشده، قدم نجيب في تلك الفترة استقالته لمجلس قيادة الثورة، لكنهم أعادوها إليه من جديد، كانت مفاصل الدولة

مشغولــة بالصراع بين الفرقاء علي السلطة، وهــي الفرصة التي اغتنمها يؤانســ وإبراهيم فهمي هلال لتنفيــذ مخططهما بعزل البابا بعيدًا عن أعين الدولة، وهو ما تم لهما بالفعل، وحرصًا من مجلس قيادة الثورة على ألا تتدخل الدولة في شئون الأقباط كما قالت توصية البابا المعتزل فقد أرسلت الحكومــة وزير التمويــن القبطي جندي عبد الملــك إلى المقر البابوي، ولم يكــن أحد يشــك حتى ذلك الوقت في وجود شبهــة جنائية في الأمر، فالكل كان يعتقد أن ما حدث محض خلافات داخلية تخص المسألة القبطية داخل الكنيسة، لكن ما إن التقــى جندي عبد الملاك بإبراهيم فهمي هلال في مقر البطريركية حتى أيقن أن ثمة شبهة جنائية، فعاد على الفور إلى مقر وزير الداخلية ليبلغه بالأمر، فأمر الأخير بذهاب قوة لمهاجمة مقر الأمة القبطية وإلقــاء القبض على مــن فيه، ومع بداية التحقيق اعــترف البعض بمكان وجود البابا، فتحركت على الفور قوة من الشرطة والجيش إلى دير الأنبا بيشوي، وهنــاك ألقت القبض على يؤانس وخمســة وثلاثين من الشباب الذين برفقته، وعادت برفقة البابا إلى المقر البابوي في كلوت بيك.

ألغت الدولة ترخيص الجماعــة، وأصدرت أحكامًا بالسجن تراوحت مــا بين عامــين وخمسة على المقبوضــ عليهم، واستغــل يوساب الحادث في الخلاصــ من مناوئيه، فعــزل مطران المنيا متهمًا إيــاه أنه كان وراء المسلحــين الذين هاجموه، ونشط في نقل عدد مــن رجال الإكليروس من مناطق عملهم، وعــزل آخرين في مناطق بعيــدة ومتفرقة، منهم رئيس دير الأب أنطونيوس، وهو نفس الدير الذي خدم فيه يوساب، كما عزل رئيس دير الملاح الأب فلوباتــير، وأخيرًا أمر بإغلاق دير النساخ متهمًا مــن فيه بترويــج الهرطقة، وإيــواء المناهضين للكنيســة. كانت مجموعة القــرارات التي اتخذها يوساب بمثابــة انقلاب على الجميع، وهو ما جعله في مرمــى كراهية الجميع، ولم يمض عامان على حــادث اختطافه حتى تعرضــ لمحاولة قتل فاشلة من قبل بعض عناصر الأمة القبطية التي لم يتم القبضــ عليها، ثم اجتمع المجلس الملي واتخذ قــرارًا بنفي يوساب إلى دير المحرق مع الإبقاء على رئاسته للكرسي البابوي.

لم يكن هذا كل ما في الأمر، فالحلم بالأمة القبطية تزايد مع وصول الأنبا شنودة إلى رئاسة الكنيسة، خاصة بعدما قام السادات بنفيه إلى وادي النطرون، فاعتمد شنودة على المخلصين لحمايته وتوصيل رسائله ونصوص عظاته إلى الجميع، ولم يكن هناك غير يؤانس ورفاقه، هؤلاء الذين شعروا أنهم ظُلموا وحان الوقت ليعترف الجميع بجهودهم، فأخذت الدماء تتدفق في العروق، ونشط يؤانس في جمع الرهبان الذين يتمتعون بالشباب وطول القامة ومحبتهم لتعلم فنون القتال، كانت الأديرة البعيدة وغير الشهيرة هي مقر معسكراته، وكان دير الملاح صاحب التجربة الأولى، فهو غير معروف وغير مطروق، هنالك بدأت التوسعات في زراعة الأرض، وتبرع عدد من رجال الأعمال الأقباط لتجديده ووضعه على خريطة السياحة، لكن الأمر برمته دخل طي النسيان بموت السادات، فقد اختفى طويلو القامة من الأديرة والكنائس، وتم الاقتصار على الكشافة لتحمل مسئولية الحماية والتنظيم.

كان يؤانس أول المقبوض عليهم في حادث اختطاف الأنبا يوساب، فحكم عليه بخمسة أعوام وتم شلحه من الكنيسة وطرده من الخدمة في الدير، وحين خرج كانت الدنيا قد تغيرت، والجماعة قد وهنت، إلا أنه ظل يحلم بالأمة القبطية وتحقيق أهدافها، ولم يكن وحده الذي عاش الحلم ورفض التنازل عنه، فكل من دخلوا السجن معه لم يرغبوا في الاعتراف بهزيمتهم، وظلوا مؤمنين بتغيير المستقبل، فشرعوا في تجنيد الراغبين مثلهم في التغيير، سواء من الإكليروس أو خارجه، للضغط على الكنيسة من أجل التغيير من الداخل وفقًا لما تقوله مدارس الأحد، لكن العنف الإسلامي أعطى في السبعينات يؤانس ومن معه قبلة الحياة، فعاد لتدريب الشبان الأقباط على حماية الكنائس والأديرة، والظهور بأسرع ما يمكن لنصرة إخوتهم في مواجهة الإسلاميين، وكان حادث الزاوية الحمراء أول ظهورهم، لكن أكبر حضور لهم كان بعد ذلك بسنوات في قرية الكشح.

لم ينسَ يؤانس يومًا تلميذه صلاح عبد المسيح متري، لكن صلاح لم يكن من طويلي القامة، ولم يحتمل التدريب في الصحراء، فظل يتابع دروسه حتى تخرج في كلية الحقوق، وانتظم في سلك المحاماة، واختار طريقه الخاص في الدفاع عن الأمة القبطية، وما إن وضحت معالم طريقه حتى فاجأ يؤانس برغبته في الزواج، فوقف الأخير لا يدري بمَ ينصحه، إلا أنه في النهاية طلب منه أن يصطحب خطيبته إلى المستشفى ليجريا فحوصات الخصوبة، فلا يتكرر معه نفس المصير، لم يكن صلاح قادرًا على مفاتحة تريزا وأهلها في الأمر، مما اضطر يؤانس للنزول من الصحراء كي يلتقي بهم، وهناك رأى تريزا وحكى لها مشكلته القديمة، فتفهمت مخاوفه واصطحبت صلاح لإجراء الفحوصات دون علم أهلها.

-٣٥-

رسائل أوريجانوس (١٣)

لم أكـن قد راجعت كتابـي المبادئ بشكل جيد، فقـد عملت تحت ضغط الأحـداث والرغبة في الهـروب منها، وكان الأمر يحتـاج مني مراجعة ثانيـة، خاصة أننـي أعمل علـى تفند أفـكار الهراطقـة، وكان لا بد من توضيح بعض الفقـرات والجمل بشكل كاف، لكـن الأحداث اضطرتني أن أسلمـه لصديقي أمبروسيوسـ تحسبًا لما هو قادم، وصدق حدسي، فقد فاجأتني قوات نائب الإمبراطور بقـرار رحيلي عن الإسكندرية، ويبدو أن أمبروسيوسـ تصـور أنني انتهيت بشكل كامل مـن "المبادئ" والجزء الخامس من تفسيري لإنجيل يوحنا، فقرر أن يدفع بهما للنساخ في محاولة للدفاع عني.

وكانـت النتيجة أكبر مما توقع، هكذا قـال أمبروسيوس بعد مجيئه إلى قيصريـة، إذ عكف النساخ على نسخ العملين وبيعهما للناس، وبلغ الأمر أن وصلـت ديمتريوس الكرّام نسخـة منهما، فطلب من شماس أن يتفرغ لقـراءة المبادئ عليه، فوجد فيه الفقرات التي كانت تحتاج إلى توضيح كي لا يتصـور القارئ أنني مؤمن بما يقوله المهرطقون، فأرسل من فوره ما قرأه إلى الأساقفة، ولم ينتظـر أن يشرحوا ما قرأوه وما وصلهم منه، إذ دعـا لمجمع مقدس، أخـذ يصيح في أساقفته وآبائـه بالجمل والفقرات التي أخرجها حتى أقروا معه بأنني مهرطق.

كان الخـبر أكثر صدمـة بالنسبة لي عـن خروجي مـن الإسكندرية، فقـد أخـذ ديمتريوس علـى عاتقه نشر قـراره بأسرع ما يمكـن، مرسلاً الفقرات التي توقف أمامها إلى كنائس روما وقرطاجة واليونان وطليطلة

وأنطاكيـا، شعـرت أن الرجـل يحاصرني مـن كل جانـب، وأنه قصد إيذائي بكل الطرق، وزاد مـن سوء الأمر أن العديد من الكنائس اتخذت موقفه، فعقد أسقف رومـا مجمعًا أقر فيه بقرار ديمتريوس، وهكذا فعلت طليلطلـة وقرطاجـة، شعرت أنه لم يبق لي غـير كنائس الشرق، خاصة بعدما رفضت كنيسة أنطاكيا رسالته إليها، وهكذا فعلت نيقوميديا والقدس وقيصرية، فعكفـت أملي على النساخ الذين وفرهـم ثيؤكتستوس رسائل إلى الأساقفة والقساوسة في مختلف الكنائس، شارحًا موقفي لهم، موضحًا أنني أبعد مـن يكون عن الهراطقة، فأنا من نذر نفسه لمحاربة أفكارهم في هذا الكتاب، فهل يختلط على القراء الأمر إلى هذا الحد، وهل يعقل أن يتم الحرمان دون مناقشة صاحب الأمر فيما كتب؟!

لم يخفف عني سوى انتقال صديقي أمبروسيوس للإقامة في قيصرية، قـال إنـه شعـر بالذنب تجاه ما حـدث لي، وأنـه سعى بكل مـا يملك من صداقات ومعارف لدى الأب ديمتريوس كي يخفف من حملته، لكنه كان مندفعًا نحو محوي مـن الوجود، وكأن وجودي كان نفيًا لوجوده، وهو مـا لم أسـع إليه، ولم أفكر فيه من قريب أو بعيـد، لكن هكذا حمل الرجل كل سنواتـه وقوة نفوذه وتاريخه كي يصب لعنته علي، قال أمبروسيوس أنـه حينما أدرك أن ديمتريوس لـن يتراجع عما عزم عليه قرر أن يترك له المدينة، فبـاع كل ممتلكاته وحمل في سفينة كبيرة كل كتبي وكتبه وأتى بها إلى قيصرية قائلاً:

– لم أستطع أن أقيم بينهم وحدي، فجئت لأقيم بعيدًا عنهم معك.

الحـق أننـي أنسـت بوجـود أمبروسيوس معـي، فرغم كل مـا فعله ثيؤكتستوسـ وألكسندر كنت أشعـر بالغربة، لم أدرك هـذه المسافة التي تفصلني عنهمـا إلا بعد مجيئه، فهو ابن مدينتي، وتلميذي الذي أنقذته من السعي خلف الهراطقة، وهو الـثري الذي تكفل بي سنوات طوال، وهو الآن كل أهلـي وتاريخي الذي اختفى من بين يـدي، شعرت أن روحي ردت لي، وبـدأت أفكر بشكل حقيقي في إكمال مشروعاتي التي توقفت، بـدأت أفكر في أن أنتج شيئًـا كي يتربح منه هؤلاء النسـاخ الجالسون بلا

عمل، ولم يكن هناك سوى أن أبدأ في الجزء السادس والأخير من تفسير إنجيل يوحنا، فأخذت أملي عليهم ما يعن لي من إشارات، وأخذ الناس يسمعون أنني أشرح الكتاب المقدس فيتوافدون على البيت الذي أجَّره ثيؤكتستوس، وشعرت بالحرج منهم، فقد تشتت الوقت ما بين الشرح والإملاء، فشكوت لأمبروسيوس ما أعانيه، فما كان منه إلا أن جدَّ في شراء بيت جديد لإقامتي، مقترحًا أن يكون بيت ثيؤكتستوس مكانًا للناس والشرح.

كانت هذه بداية مدرسة قيصرية التي نشأت في بيت من غرفتين وفناء صغير، في هذا البيت أنهيت شروحي وتعليقاتي على إنجيل يوحنا، وشرعت في شروحاتي لإنجيل متى، ثم المزامير، لكن أعظم ما عكفت على إنجازه هو هيكسابلا، وهي سفر عظيم، تكونت فيه الصفحة الواحدة من ستة أعمدة، خصص العمود الأول للأصل العبري، ثم خصص العمود الثاني للأصل الذي بالحروف اليونانية، والثالث لترجمة أكويلا اليونانية للأصل، والرابع لترجمة سيماخوس، والخامس للسبعينية التي ترجمها سبعون حبرً يهوديًّا في زمن بطليموس الأول إلى اليونانية، أما العمود السادس فكان لنسخة ثيودوشن، عكفت على إنجاز هذا السفر في نحو ثمانية وعشرين عامًا، حتى أصبحت النسخة الوحيدة المنقحة والمنضبطة لكل نسخ الكتاب المقدس، فهي المرجع الذي يشتمل على كل المراجع، ويضاهي كل النصوص ببعضها، ويعلق على كل اختلاف، ويثبت كل نقص، ويحذف كل زيادة، فاشتهر بأنه السداسية أو هيكسابلا، وانتقل من كنيسة لأخرى، ومن دير لآخر، وأصبح المرجع الأول للكتاب المقدس في الشرق والغرب، وهو ما رد لي اعتباري أمام اتهامات ديمتريوس، وجعل العالم الذي تسابق على حرماني إرضاءً له، يأخذ في دعوتي لزيارته، لكنني كنت قد حددت بوصلة توجهي، فلم يعد لي غير النساخ الذين أملي عليهم، ولو وجدت جهدًا للحركة فللكنائس التي دعمتني وقت حاجتي إليها، وللبلدان التي لم تخض حربًا ضدي، وربما حملت لي مزيدًا من الود منذ زيارتي القديمة لها في عهد الملك جفنة بن عمرو.

جاءت فكـرة عملي علـى الهيكسابلا حينما بدأت في شـرح المزامير، ووجـدت قلقًا في بعض النسـخ، واختلافات في نسخ عـن نسخ، فتركتها وعـدت إلى التوراة السبعينية التي ترجمهـا شيوخ اليهود عن العبرية إلى اليونانية، فوجدت بعض القلق أيضًـا، فعدت إلى النسخة العبرية نفسها، لكـن بعضـ اليهـود أكدوا لي أنهـا قد دخلهـا الزيف، فوضعـت فوضى النصوصـ والاختلافـات أمامي وجلست أفكر في ضبـط كل هذا النسخ، ولم يكـن أمامــي سوى أن أقسـم الكتاب على ست أعمـدة، أثبت فيها كل نسخـة في مقابل الأخرى، مـبرزًا الاختلافات، ومنقحًـا النصوص من الزيـادات، وهـو عمل بـدا في البدء نوعًا مـن العبث، لكنـه سرعان ما اتضحـت رؤيته بعد الجزء الثاني منه، وتسـارع الناس إلى اقتنائه، وهو مـا جعل النسـاخ يطالبونني بإكماله، ورغم الإرهـاق الذي لاقوه إلا أن حماسهم كان شديدًا، ورغبتهم في إنجاز عمل كبير كانت قوية وواضحة، فكانـوا يطاردونني لأكمل ما بـدأت، وأنا أحاول أن ألتقـط أنفاسي عبر الانشغال بالوعظ، فكانوا يكتبون المواعظ خلفي ويوزعونها على الناس، وكأنهـم يقولـون لهم خذوا هـذه الآن واصبروا، لكننـي في النهاية كنت أنصاع لرغبتهم رغم ما عانيـت من إرهاق في تصحيح النصوص وتفنيد الأخطاء.

عادت لي شهرتي من جديد، وبدا العالم متسامحًا معي أكثر مما توقعت أن يفعل في يوم من الأيام، وأخذ الطلبة يتوافدون على البيت حتى تحول إلى مدرسـة تضاهي مدرسة الإسكندرية، ولم يكن أمامي سوى أن أجعل أحد تلامذتي عريفًا عليهم، حيث يراعيهم حتى أتفرغ لهم، وكان من بين من اعتمـدت عليهم في هذا الشأن هو جريجوريوسـ الذي يعرفه الجميع الآن بلقـب صانـع العجائب، فقد تتلمـذ في مدرستي نحـو خمس سنوات كاملة، لاحظـت نبوغه أكثر من شقيقه، وانتبهـت إلى أنه أشبه بالأرض الظامئـة إلى الماء، فأخـذت أرويه بالعلم كل يوم حتـى اكتملت معارفه، ووقف يلقـي موعظة يوم انتهـاء تعليمه وعودته مـن قيصرية، موعظة ودع فيها زمـلاءه وأصدقاءه، ونصحهم أن ينهلـوا من معرفتي بقدر ما يستطيعون.

كان جريجوريوس وديعًا ومحبًّا للناس والمعرفة، فعهدت إليه أن يكون عريفًا على زملائه، يشرح لهم المبادئ الأولى للإيمان، ويكلفهم بدروس ومراجعات بسيطة حتى أجيئهم، قام بعمله على أفضل ما يكون، وكان واسطة راقية بيني وزملائه، ما زلت أتذكر خطواته الوئيدة الواثقة وهو متجه نحوي في غرفة النسخ كي يبلغني أن زملاءه حضروا، أو أنه سجل في دفتر جديد محاورته لي حول ما قاله أفلاطون وما استفاد منه الغنوصيون في فلسفتهم، كنت أتحدث بإسهاب معه كما لو أنني أتحدث إلى نفسي، ولا ألبث أن أطالبه بالرفق على نفسه، فالفارق بين الإيمان والهرطقة شعرة، والناس عمي لا يبصرون، فكان يضحك دون أن يحدثني بما في نفسه، وكنت أدرك أنه يريد أن يقول إنه لن يكون مثلي، ولن يسمح للناس أن تختلط عليها المعارف مثلما سمحت بذلك في كتبي، فكانت النتيجة أنني محروم من ملكوت السماء وملكوت الأرض.

-٣٦-

كان آخر ما توقعه أنطونيوس أن يكون ملاك شاهد الإثبات في اتهامه بقتل دميانة، لكن هكذا اعترف له ملاك عقب هروبهما من طويلي القامة. كان أنطونيوس قد أقنع مدرس التاريخ الراغب في أن يعمل مرشدًا سياحيًّا بأن طويلي القامة قد اختطفا شقيقه، وأنه يرغب في تخليصه منهما، فجلسا ينتظـران خروج ملاك من دير النساخ، وما إن رأياه اقترب حتى وقف مدرس التاريخ بالموتوسيكل على جانب البوابة، وانتظر إشارة أنطونيوس له نحـو ملاك والراهبين، فتحـرك بالموتوسيكل كمن فقـد السيطرة على سرعتـه، فاصطدم بهم وألقاهم على الأرضـ، هنالك أسرع أنطونيوس لمساعـدة ملاك علـى النهوض، ودفع به في تاكسـي كان بالقرب منهما، وطلـب من السائق التحرك سريعًا، انتبه طويـلا القامة إلى فرار ملاك، وبدلاً من أن يشتبكا مع سائق الموتوسيكل قفزا في الباص الذي ينتظرهما، حاثين سائقه على ملاحقة التاكسي، لكن مدرس التاريخ كان مؤمنًا بعدالة قضيـة أنطونيوسـ وشقيقـه، فراح يلاحـق الباص ويضيق علـى سائقه الطريق مطالبًا إياه بالتوقـف، مما جعل أحد الراهبين يخرج عن شعوره ويوجه عجلة القيادة نحوه، فكاد الباص أن يخرج بهم عن الطريق، لولا ردة فعل سريعة من سائقه أعادت الأمور إلى نصابها، لكنه ضرب بقدمه علـى كابح السرعة بقـوة جعلت العجلات تصدر صـوت احتكاكها العالي بالأسفلت، لتبدأ مشاجرة بينه وبـين الراهبين، فتركهم سائق الموتوسيكل وانطلق ليلحق بأنطونيوس وملاك.

ما إن سمـع أنطونيوس صـوت احتكاك عجلات الباصـ حتى التفت ليتابـع ما يجري، ومـع أول انحنـاءة للطريق طلب من سائـق التاكسي

التوقف، وبحث هو وملاك عن صخرة اختفيا خلفها، وأخذا يرقبان الطريق حتى شاهدا مدرس التاريخ يمر مسرعًا كي يلحق بالتاكسي، ثم سرعان ما شاهدا الباص بنفس السرعة في نفس الاتجاه، فعلما أن عليهما الابتعاد عن الطريق قدر الإمكان، ولم يكن أمامهما غير الصحراء التي يتوه فيها الجميع، فقضيا ليلة طويلة فيها، ولم يكن زادهما فيها غير الذكريات وإعادة ترتيب الأحداث، فلما سأله أنطونيوس عن سبب نزوله من دير الملاح، أخذ ملاك يضحك قبل أن يخبره أنه كان يشهد عليه بأنه قتل باخوميوس ودميانة.

كانت أكثر الأمور دهشة لأنطونيوس أن دميانة المتهم بقتلها تقيم في دير النساخ، لكننا لم نعرف كيف أتت إلى هذا الدير المشتمل على أسرار أكثر مما يتوقع الناس، فخلفه دير مهجور، يقيم به عدد من النساخ العجائز، ظل ملاك يتحدث عما جرى في دير الملاح، وكيف أن يوساب والمنحني لم يستطيعا أن يتهما أنطونيوس بقتل باخوميوس، فقد خشيا أن يصبح الدير ساحة للتحقيقات، واضطر المنحني في عظته لأن يلمح لقداسة باخوميوس وإيمانويل الطيب.

لم يكن أنطونيوس منتبهًا لما يقوله ملاك، فقد هيجه الشوق لدميانة بمجرد معرفته أنها على قيد الحياة، شرد بذهنه في أحوالها، وما أوصلها إلى دير النساخ، شرد في ذهابها إلى بيتها، وإفطاره مع تريزا، وقراءته لكتاب أبيها "دفاعًا عن أوريجانوس"، ظل شاردًا بذهنه حتى كلت قدما ملاك من السير، وشعر أنه على وشك الإغماء عليه، فبحثا عن ربوة عالية وجلسا يتسامران.

كانت أصوات الذئاب قد بدأت تعوي، وشعر ملاك أنها ستهاجمهما في أقرب وقت، فأمسك بذراع أنطونيوس مرتعدًا، وأخذ الأخير يستدعي خبراته بالصحراء حينما كان يعيش فيها وحيدًا، فطالب ملاك بالهدوء كي لا يهيجها بفزعه، وأخذ يبحث عن شيء يساعدهما في الدفاع عن نفسيهما، وجد قطعة من الصاج فطلب من ملاك أن يطرق عليها ليخبر الذئاب أنه

مستيقظ، ظل يسلي نفسه بالطرق حتى غلبه النوم، فتولى أنطونيوس الحراسة والسهر، وعلى أصوات الذئاب وأضواء القمر تخيل أنطونيوس أن دميانة تقوم بدور الأم الراعية لهما، فأخذ يستنجد بقدرتها حتى رآها تجيء على ظهر لبؤة كاشفة عن أنيابها، لترسم حولهما دائرة من نور، ظلت الذئاب تعوي أمامها ولا تقترب منهما، حتى سمع أصواتًا تطن بقوة من حوله، ففتح عينيه ليرى ملاكًا يتحدث مع صبي يرعى أغنامًا أسفل الربوة.

كان الصبي قد رآهما نائمين فقرر أن يوقظهما، زج بأغنامه حتى صعد بعضها نحوهما، فاستيقظ ملاك على تفحص إحداها لوجهه، بينما الصبي يضحك على تقززه منها، فما كان من ملاك إلا أن زجره، هنالك استيقظ أنطونيوس على شجارهما، ولم يمض كثير من الوقت حتى اعتذر الصبي لهما، ثم حلب إحدى عنزاته في إناء قدمه لهما مع بعض من الخبز، ونصحهما بالذهاب إلى القرية المجاورة لأن غالبيتها أقباط، فانطلقا خلف إشارته حتى وصلا إليها.

دون تفكير كبير قرر أنطونيوس أن يعلن أنه يجمع مالاً لبناء كنيسة في الشمال، وقام ملاك بوظيفته المعتادة ككاتب، كان يكتب أسماء المتبرعين والأرقام التي تبرعوا بها مهما كانت صغيرة، بينما أنطونيوس يلقي عظة عن مال الرب الذي يجب أن يذهب إليه، فكان الناس يطالبونه بأن يبارك بيوتهم عبر صلاة قصيرة بها، وملاك يحصي الجنيهات والقروش ويكتب الأسماء، ومع اقتراب اليوم من نهايته كان السؤال الذي يلح عليهما: ماذا بعد؟

مع غروب الشمس كانا يركبان الميكروباص المتجه إلى القاهرة، ومع الشروق كانا على موعد مع نفس المقهى الذي جلس فيه أنطونيوس وأحمد في رمسيس، فتناولا فطورهما قبل أن يتخذا المترو لسانت تريزا، وفي المسافة التي بين المحطة وبيت دميانة فاجأ ملاك أنطونيوس قائلاً:

– هل تحب دميانة؟

لم يكــن لهذا السؤال من قبل وجود في مخيلة أنطونيوس، ربما لأنه لم يتوقــع أن أحدًا سيسأله إيــاه، وربما لأنه لا ينبغي لراهب أمضى أكثر من عشريــن عامًا في الصحراء بحثًا عن الله وإفناء لرغبات الجسد أن يتحدث عن الحب بين رجل وامرأة، فوقف لا يعرف بمَ يرد، فكلمة حب لديه من المفترض أن تسع الجميع، دون تمييز لشخص عن آخر، ورغم أنه ينهار من الداخل بمجرد سماع اسم دميانة، وأن صورتها لا تفارق مخيلته ليلاً ولا نهارًا، وأنه لم يعد يستطيع تغيير ملابسه إلا في الظلمة خشية أن تراه، رغم كل هذا إلا أن خجله منعه من أن يقول: نعم.

فالإعــلان عن الحب يحتاج إلى شجاعة، وربما إلى صفاقة لا تتفق مع الإيمان بالخجل المصاحب له دائمًا.

تفكر أنطونيوس كثيرًا قبــل أن يجيب صاحبه بالنفي، وكلما أعاد عليه ملاك الســؤال كان يرفع رأسه نحو السماء متهربًــا من النظر في عينيه، محافظًا على تماسكه وإصراره قائلاً:

- لا.

حينها فاجأه ملاك من جديد:

- هل تمانع في أن أحبها؟

هــذه المــرة لم يعــرف أنطونيوســ بمَ عليــه أن يجيبه حقًّــا، ولا كيف يتخلصــ من الموقــف مع الاحتفاظ بحقه في أن يحبهــا وحده، تمنى لو أن الصمــت يطــول أو أن ملاك ينســى، لكن الأخير لم ينســ، والصمت لم يطــل، فقد لاحقه بالسؤال كما لو أنه يطلب منه البركة فورًا، فما كان من أنطونيوســ إلا أن توقف في مكانه وفرد صــدره للأمام، ثم سحب قدرًا وافيًا من الهواء قبل أن يقول:

- لا أمانع.

هنالــك علت الفرحة وجه ملاك كمــا لو أنه بشِّر بلقاء المسيح، وضرب على صدر أنطونيوس مكررًا كلمة الشكر مرات، بينما أنطونيوس واقف

في مكانــه كقائد عسكري تنــزع عنه أوسمته ونياشينه، ظـل صامتًا حتى دفعه ملاك ليكمل معه الطريق، دون أن ينتبه إلى أن الحزن جعل وجهه قطعــة فحم. فظلا يســيران، أحدهمــا يتراقص فرحًــا، والآخر يحترق كمــدًا، حتى واجهتهما اللافتة التي ما زالت تحمل اسم صلاح متري، كما لــو أنها ظهرت فجأة لتنقذهما ممــا يغوصان فيه، فتقدم أنطونيوس ليصعد السلالم، وتبعه ملاك بعينين تحتضنان كل ذرة تراب على الجدران، وما إن ضغط أنطونيوس زر الجرس حتى ظهرت لهما جارة دميانة قائلة إن تريــزا أصيبت بنوبة قلبيــة أول أمس، وإن سيــارة الاسعاف نقلتها لمعهد ناصر، وهي الآن ترقد هناك بين الحياة والموت.

الجزء الثالث

مـلاك

إشارة الروح

-١-

لا أعـرف لماذا كنت سأطير مـن الفرح حين أجابني أنطونيوس بأنه لا يحـب دميانة، ولا يمانع في حبـي لها، شعرت كما لـو أنني فزت برؤية المسيح، كنـت أنانيًّا للغاية، فكرت في سعادتي فقـط، ولم أسأل نفسي إن كان بمقـدور دميانــة أن تحبنــي أم لا، هـل يمكن للمحققة التــي ينتظرها مستقبل كبير أن تربط حياتها بشخص ليس لديه ما يثبت وجوده في الحياة، شخصــ في أفضـل الأحوال روح تتجول في أماكــن لا تعرفها، وتتحمل عذابات لم تتوقعها، روح خرجت من رحمها بهضبة الملاح لتعيش معاناة البشـر، ونضالهم اليومي تجاه كل شيء، ولأجـل أي شيء، فكم هؤلاء البشر مساكين، وكم هم جبابرة قساة، فما الذي أدخلني تجربتهم؟

كان علينا أن نذهب إلى معهـد ناصر لرؤية تريزا والاطمئنان عليها، دار بنـا سائق التاكسي نحو ساعتين في شـوارع القاهرة قبل أن يوقفنا في إشارة مرور قائلاً:

- باب المعهد من هنا.

سرنـا على أقدامنا نحو عشـر دقائق قبل أن نصـل إلى الباب، وسألنا عن تريزا أم دميانـا وزوجة صلاح متري، لكنهم طالبونا بمعرفة اسمها بالكامل، ظللنا نحو ساعة أمام الباب نطالب الأمن بالدخول وهم يطالبوننا بالاسـم، في النهاية تحدث أنطونيوس بوصفـه مندوبًا من الكنيسة لزيارة السيـدة تريزا، هنالك لم يسألــه أحد عن اسمه ولا ما يثبت هويته، فقد أخذ الجميـع يبحـث في أوراقه عن اسم تريـزا، ولم يكن هنــاك غير اثنتين، الأولى في الثلاثين من عمرها دخلت في حادث سير، والثانية في الستين، حالة ذبحة صدرية في العناية المركزة.

كانـت تريزا قد خرجت من الكنيسـة الأم والحزن يفيض عليها، فهي لا تعرف أين ابنتهـا ولا مصيرها، حتى الرجل الذي توهمت أنه سيكون عونًـا لها في البحث عنها اتضح أنه مطارَد مـن قبل الأمن، قطعت تريزا المسافـة مـن الكنيسة إلى رمسيس سـيرًا، لا تدري بنفسهـا إلا وهي على مشـارف الميـدان، لم تفكر في أن توقف ميكروباصًـا ولا تاكسى أو حتى تستقل المترو، كانت شبه فاقدة للوعي وهي تسير على قدمين منتفختين من الورم، وما إن وصلت رمسيس حتى ذهبت لدرجات المترو، فألقت نفسها في أول قطار متجه لسانت تريزا، ولم تعرف كيف نجت من السقوط أسفل عجلاتـه، فقد التقطها الناس قبل أن تزل قدمها أمام القطار، وهي تحاول أن تبتسـم في وجوه لا تراها، ولا تـدرك تفاصيلها ولا معالمها، ودت أن تبكـي حسرةً، كانت بالفعل تبكي بداخلهـا، ودموعها تتحول عرقًا يتدفق من مسامها، وأنفاسًا متقطعة في صدرها. أجلسها أحدهم في مكانه، ونبهها لاقتراب محطتها، وبطريقة آليـة صعدت الدرجات، سارت في الشارع ووقفت أمام بـاب البيت تلتقط أنفاسها، ثم زجت بنفسها على السلم متغلبة علـى ألم في كتفها، حين أدارت المفتاح بالباب لم يطاوعها، مسحته بريقها وعـادت تفتح فلم يستجـب، أخيرًا انتبهت إلى أنه ليسـ المفتاح الصحيح، دققـت في مفاتيحها وأخرجت غيره، لكن النفسـ المتقطع كان يزيد، وألم الكتف يصرخ، فاستندت بيدها إلى الباب، واعتدلت بظهرها إلى الحائط، ثـم نزلت لتجلس علـى البلاط، هنالك فتحت جارتهـا سيمون، وحاولت سؤالها عما جرى، لكن تريزا رسمت شبح ابتسامة على وجهها، وزاغت عيناهـا قبـل أن ينفـرط جسدها على الأرضـ، رنت سيمـون بالصوت العـالي، فحضر جـيران آخرون، وحملوهـا إلى معهد ناصـر، وهناك علموا أنها تعاني ذبحة كادت أن تودي بحياتها.

وقـف أنطونيوس أمـام تريزا في غرفـة العناية كما لو أنـه واحد من طـوال القامة، مسح على رأسها وكتفها وهو يتمتم بصلاة طويلة للمسيح، صلاة لم أسمع بكلماتها، لكن تعبيراتها كانت واضحة على ملامحه، فتارة كان يقطـب حاجبيه كما لو أنه يطـرد ماردًا، وتارة كانت ملامحة تنبسط

وأساريــره تنفرج وأسنانه تبين من بين فرجات ثغره، لا أعرف ما الذي جعلنــي أفكر في أنه لا يصلي، لكنه يتواصل مــع دميانة عبر تريزا، كان قابضًــا على يدها وهــو يبتسم، وتريزا ترسم ابتسامــة حقيقية على وجهها رغــم المرض، لم أعرف سببًا لابتسامتها، هــل فرحًا بعودة أنطونيوس، أم شعــورًا بالتحســن، لكن كان واضحًا أنها تشعــر بالسعادة، وأنني شبه غريب في عائلة متآلفة، ففضلت الانسحاب نحو الباب، تاركًا لهما فرصة الإفصــاح عما لا يريــدان لي أن أعرفه، غير أن هذا لم يحدث، فقد ربت على كتفها، وهي هزت رأسها له. حين سألته إن كانت تعلم أن دميانة في دير الزاوية، وجدت كلاهما يومئ برأسه.

خرجنــا مــن المعهد وكل الطرق مســدودة في وجهينــا، لا نعرف إلى أيــن نذهب، تريزا تنام على سرير بارد في مستشفى واسع، ودميانة تقيم في ديــر بجنوب البلاد، لا أحد يدخله ولا أحد يخــرج منه، وكأنه سجنها الأبــدي، ودير الملاح أصبح الجحيم لا المأوي، وفي الكنيسة الأم ينتظرنا أعــداء أكثر من طوال القامــة، فأين نذهب؟ هكــذا تساءلنا ونحن نحصي الأماكــن، ولم نجد أمامنا ســوى أن نعود إلى بيت تريــزا، حيث نمضي الليلة إلى أن يتجلى المسيح على الدنيا بجديد.

في الطريــق إلى البيــت رفضنــا أن نركب تاكسي، فضلنــا السير على الأقــدام كي نتعرف على المدينــة التي لم أنزلها من قبــل، سألنا عن كيفية الوصــول لمحطــة سانــت تريزا، وتركنــا لأقدامنــا العنــان، كان الناس ينظــرون لصليب أنطونيوســ الكبير وهو يتأرجح علــى صدره وبطنه، بينمــا أهرول كي أسير بجانبه، مــا إن وصلنا إلى المحطة حتى تعرفنا على الشــارع الذي سيوصلنا إلى البيت، هنالك رفضــت أن أذهب إلى بيت لا أعرفه والجوع يقتلني، فتركت أنطونيوس على أحد المقاهي وذهبت لمطعم كــي أشتري ما يأكله الناس، ووقفت منبهرًا وأنا أشاهد صاحب المطعم يعد لي طلبــي، ثم أخذ في لفه بأوراق الجرائد ووضعه في كيس حملته وعدت إلى أنطونيوس. حين وضعت الطعام أمامه بدا أنه كان أكثر جوعًا مني،

فأخذنا في التهام الطعام دون أن نفكر في شيء، لكن بعد قليل وقعت عيني على رسم بخط اليد أقرب ما يكون لوجه دميانة، تأملته قبل أن أقرأ العناوين الحمراء (قصة الفتاة التي أحدثت فتنة في الصعيد... السلفيون حاصروا القرية واشتبكوا مع الشرطة بسببها)، الملامح أقرب لملامحها، وتاريخ النشر بعد اختفائها، حينها رفع أنطونيوس يده قائلاً:

- أعرف من يمكنه أن يفسر لنا اللغز.

كان الصحفي أحمد قد منحه ورقة عليها اسمه ورقم هاتفه، فأخرجها وطلب من عامل المقهى أن يتصل به، حين جاءه صوت أحمد تهلل وجهه فرحًا، وأخبره بأهمية لقائه، ثم أعطى الهاتف للعامل كي يخبره بالعنوان واسم المقهى، انتظرنا نحو ساعتين قبل أن يجيئنا، وقبل أن نتحدث في شيء سأله أنطونيوس:

- كيف نصل لكاتب هذا المقال؟

تطلع أحمد للعنوان واسم الكاتب وقال إنه لا يعرفه شخصيًا، لكنه يعرف أصدقاء في نفس الجريدة يمكنهم أن يدلوه عليه.

ثم تساءل عن السبب، فنظر إليه أنطونيوس:

- لأننا نعرف أين هذه الفتاة.

-٢-

- مات أريوس.

هكذا انتشر الخبر في المدينة كما ينتشر الهواء العليل في الصدور، وعلت الوجوه الفرحة والراحة والحبور، ورقصت النسوة في البيوت والآباء في الحانات والكهنة رتلوا الأناشيد وأقاموا القداسات، لكن أين أثناسيوس الآن ليشهد هذا الفرح العظيم، ويعلم أن الرب معه، ناصره ومعمده في فرح النور بالنور، أين البابا الكروز بالعلامة المرقسية في الشرق والغرب، إنه الآن ما زال منفيًّا في تريف منذ غضب عليه قسطنطين، فهل يمكن أن يكون موت أريوس على هذا النحو المهين نهاية لآلام أثناسيوس العظيم؟ هكذا تساءل الجميع.

كان موت أريوس إعلانًا واضح من قبل السماء أن المسيح غير راض عنه ولا عن تعاليمه ولا أنصاره، فقد سعى هؤلاء جميعًا لإعادته لشركة الكنيسة لكن الرب لم يرد، ورفض سعيهم بشتى الطرق، فقد استغلوا نفي أثناسيوس إلى تريف، وتدشين قسطنطين كنيسة القبر المقدس في أورشاليم، تلك التي بنيت على الجبل الذي صلب به المسيح، حيث المغارة التي دفن بها جسده، وحيث قامت قيامته من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من الموت على الصليب، فسميت كنيسة القبر المقدس، كما سميت كنيسة القيامة، هذه الكنيسة التي زين يوسابيوس النيقوميدي وأتباعه من الأريوسيين للإمبراطور أهمية تدشينها عبر عقد مجمع مقدس بها، فوافقهم على الأمر، حيث دعوا أنصارهم من القسوس والأساقفة ليعيدوا مناقشة تعاليم أريوس، معلنين خطأ ما وصل إليه الذين اجتمعوا في نيقية، وأن تعاليم أريوس ليست إلا دفاعًا عن الله، هذا الذي لا ينبغي له أن يلد

ولا أن يولــد ولا أن يكــون له مثيل أو شبيــه لا في الهيئة ولا في الجوهر، وأن أريوســ مجدد وليســ مهرطقًا، ولا ينبغي أن يــترك خارج حدود الكنيسة، إذ لا بد أن يكون في شركتها مع غيره من الآباء والقديسين.

كان قرار المجتمعين في أورشليم بهذا المجمع مطالبًا الإمبراطور بإعادة أريوســ إلى كنيسة الإسكندرية، واستخدم يوسابيوس النيقوميدي علاقته بشقيقة الإمبراطور، تلك التي كانــت مقتنعة بتعاليمه وأفكاره، فضغطت علــى قسطنطين كي يعيد أريوس إلى مكانه بالإسكندرية، فقد أجمع الآباء من القساوسة والأساقفة المجتمعين في أورشليم على أنه مجدد لا مهرطق، وكان الإمبراطور لا يزال غاضبًا على أثناسيوس، راغبًا في كسر شوكته ومحو أنصاره مــن الوجود، ولم يكن هناك أفضل من إعادة أريوس إلى الإسكندرية ليقضي على أثناسيوس وأنصاره، فأمر بسفينة مجهزة بالعتاد والرجــال كي يحرسوا أريوســ ويجلسوه في كرســي أثناسيوس، وكان ذلــك أكبر أعلان للحرب على السكندريــين، هؤلاء الذين تلقوا الخبر كما لــو أن حكمًا بإعدامهم جميعًا وفي لحظة واحدة قــد صدر، وما إن ترجل أريوســ من سفينته، ظانًّا أن القوة المرافقة لــه ستحميه وتمكنه من رغبته في الوصــول إلى كرسي مرقس الرسول، حتــى فوجئ أن العواصف قد اشدت، والأمواج قد هــدرت، بينما الناس خرجوا يعصفون بكل شيء، مشعلــين الحــراق في كل مــكان، مهاجمــين الجند بــأي طريقــة وفكر، محاصرينهــم حيث وجدوهــم، مما جعل حاكــم الإسكندرية ثيوذوروس يأمر بإعادة أريوس ومن معه إلى الميناء، مرسلاً إلى قسطنطين راجيًا منه أن يسحــب أريوس من المدينة كي لا تحترق بمــن فيها، فالشغب والعنف يجتاحهــا منــذ سمع الناس بخبر مجيئــه إليهم، ولا أظنــه سيتوقف قبل أن يخرج منها أو تحترق عن بكرة أبيها.

لم يجد قسطنطين حلاً سوى النزول على رغبة ثيوذوروس، وسحب أريوســ من المدينــة الكارهة لــه إلى المدينة الجديدة التــي يبنيها كي تكون عاصمــة لملكه في الشرق، وأرسل إلى ألكسندروس بطريرك القسطنطينية

بخطـاب يلزمه فيـه بقبول أريوس متـى وصله في شركـة كنيسته، وهو الأمـر الذي شق على ألكسندروس قبوله، وشعـر أنه سيقدم على خطيئة لا تقـل جسامة عن الكفر، وأنه لم يعش كل هـذه السنين كي يقبل مهرطقًا في شركتـه، فلزم في كنيستـه صائمًا مصليًا للرب كـي يخلصه مما ألزمه بـه الإمبراطور، ولما رأى الرب صدق إيمانه استجاب لدعوته، فأصاب أريوسـ بمرضـ الإسهـال وهـو في طريقـه إلى الكنيسة، وظـل يسهل حتـى مـات في مرحاض عام بالمدينـة، فاقتنع قسطنطـين أن رهانه على الأريوسيين كان خاطئًا، وسرعان ما أصابه المرض، فشعر بدنو الأجل، وخشـي من غضبـة أثناسيوس عليه، فاستدعاه من منفـاه واعتذر له، ثم سمح له أن يعود إلى الإسكندرية، فخرجت المدينة عن بكرة أبيها لاستقباله بالأناشيد والأغاني.

لم يكن استدعاء أثناسيوس واعادته إلى كرسيه في الإسكندرية هو الأمر الجليـل الذي أقدم عليه قسطنطين في عامه الأخـير، فقد أقدم على أمرين آخريـن أكثر أهمية وخطـورة، كان أولهمـا هو إعـلان مسيحيته بشكل واضـح وتام، هذا الأمر الذي تأخر فيه منذ إعلانه مرسوم ميلانو، حين أعلـن إلغاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المسيحية، وقام برد أموال الكنيسة إليها، هذا الأمر الذي تأخر نحو أربعة وعشرين عامًا، ولم يشعر بضـرورة حسمه إلا مع سقوطه في مرضه الأخير، فاستدعى يوسابيوس النيقوميدي كي يقوم بتعميده، ليعلـن للجميع انتماءه إلى المسيحية، وليسد البـاب أمـام عودة الوثنيـة إلى الدولة مـن جديد، أما الأمـر الثاني فكان توصيته بتقسيم مملكته بين ابنيه، حيث يحكم قنسطانطيوس الجزء الشرقي وعاصمتـه القسطنطينية التي بناهـا كقلعة مسيحية، بينمـا يحكم قسطانس الجزء الغربي وعاصمته روما بتاريخها الطويل.

كان تعميـد قسطنطين على يـد يوسابيوس النيقوميـدي إعلانًا واضحًا بإيمانه بفكر أريوس وأنصاره، حتى وإن سعى إلى رد اعتبار أثناسيوس وإعادتـه إلى كرسيـه في الإسكندريـة، فقد تسرب إلى أبنائـه شعور بأن

يوسابيوس النيقوميدي على صــواب، ومن ثم سقط قنسطانطيوس حاكم الجــزء الشرقي من الإمبراطورية في التبعيــة الواضحة ليوسابيوس، هذا الذي جــاءت رغبة قسطنطين في أن يتعمد على يديــه بمثابة قبلة الحياة له ولأنصــاره مــن جديد، فبعدما تشــكك الجميع في مدى قبــول الرب لفكر أريوس وأنصاره بعد موته المهين بمرحاض عام قبل أن يقبل ألكسندروس شركته في كنيسة القسطنطينية، ومن ثم فقد انتقل يوسابيوس إلى العاصمة الجديــدة بمجرد انتقال قصر الحكــم إليها، ليتخذ مكانتــه الكبيرة في قصر قنسطانطيوســ، مصــورًا له أن مــوت أريوس لم يكــن إلا نتيجة لطعام مسموم وضعه له جنــود ثيوذوروس على السفينة، وأن أهل الإسكندرية لم يرفضــوا أريوس ولا تعاليمه، وإنمــا كان الأمر حيلة من ثيوذوروس صديــق أثناسيوســ، والراغــب هو وصديقــه في الانفصــال بمصر عن روما، فأثار الشغــب ضد أريوس، ليضع قسطنطين في موضع المنهزم، وليضع العامة على طريق الشجاعة في المطالبة بالانفصال، ومن ثم فلا بد من الإطاحة بثيوذوروس وإرســال فيلاجيوس الكبادوكي القوي عوضًا عنــه، فقد حكــم الإسكندرية من قبــل، ويعرف كيف يخضــع أثناسيوس وأنصاره للإمبراطور.

مــا إن وصل فيلاجيوســ إلى الإسكندرية حتى أصبحــت المدينة ساحة حــرب، فقد تداعى الأريوسيون مــن أنحاء البلاد كافــة ليقوموا بالشغب والعنــف والقتل العلنــي في المدينة، متهمــين أثناسيوس أنــه سرق أموال الفقــراء، وأن عودتــه إلى الكنيســة ليســت صحيحــة، لأنــه عــاد بإذن الإمبراطور وليس بقرار من مجمع مقدس، وهو ما أوحى لقنسطانطيوس أن وجود أثناسيوس في الإسكندرية سينزع عنها السلام الدائم، وأنه لا بد من نفيه، فلم يكن أمامنا سوى أن نستنجد بالآباء الكبار في الأديرة البعيدة كــي ينزلوا لتعضيــد أثناسيوس ووجوده بالمدينــة، فأرسلنا إلى الأب بولا والأب أنطونيوســ والأب باخوميوس والأب ديمتريوس والأب بيشوي في أديرتهم لنصرة الرب، بينما رأى أثناسيوس أنه لا بد أن يذهب ليناور مــن طريق آخر، ولم يكــن هناك غير طريق صديقــه يوليوس بطريرك

روما، فجلسنا نفكر في كيفية الخروج من تلك المدينة التي تعج بالأعداء والكارهين، حتى أن كل حجر فيها أصبح مثيرًا للريبة، لكن أحد التجار المؤمنين بعدالة موقف أثناسيوس قرر مساعدته في الهروب، فأحضر له ملابس تاجر وجعله يخرج برفقة اثنين من عبيده، وما إن ابتعدو عن المكان حتى عرجوا على الميناء فصعدوا إلى سطح سفينة تنتظرهم هناك، وسرعان ما أبحرت بهم حتى وصلت إلى روما، فنزل أثناسيوس في ضيافة صديقه يوليوس، وذكر له ما يدبره يوسابيوس، وكيف أقنع أنصاره الناس أن عودة أثناسيوس إلى كرسيه غير صحيحة، فما كان من يوليوس إلا أن سطر رسالة طويلة إلى يوسابيوس ثم أمر بعودته، وهو أمر سياسي لا علاقة له بصحة معتقد الرجل ولا أحقيته بكرسيه، فما كان من يوسابيوس إلا أن أقنع الإمبراطور قنسطانطيوس بعقد مجمع في أنطاكيا، وأرسل يوسابيوس من القسطنطينية إلى يوليوس في روما بخطاب يسخر فيه من وقوفه في الجانب الخاسر، ولم تمض أربعة أيام على صدور قرار العزل في أنطاكيا حتى وجدنا جريجوريوس الكبادوكي يصل إلى الإسكندرية كأسقف بديلاً عن أثناسيوس.

في روما لم يتوقف أثناسيوس عن العمل على تعليم الناس طرائق الوصول إلى الله، فقد استأذن في الاعتزال في إحدى الصوامع أو القلالي بالجبل، ولم يكن الرومان يعرفون الرهبنة، فشرح لهم كيف يخرج الراغبون في الانقطاع لعبادة الرب كي يقيموا في قلال متناثرة في الصحراء، وكيف تحولت حياتهم من الحالة الفردية إلى الحياة الجماعية، وهذا ما فعله الأب باخوميوس في جنوب مصر والأب جبرائيل الملاح والأب أنطونيوس في شرقها، ثم صعد أثناسيوس إلى الجبل فصعد معه عدد من الراغبين في حياة الاعتزال، فظلوا نحو شهرين في قلاليهم، لا يلتقون إلا ساعتين في النهار، يجمعون فيهما الأشجار التي تكفي لتدفئتهم، ويتقوتون بما توافر بين أيديهم، ثم يعودون لقراءة الأناجيل وتأمل شروحها، ويصلون قداس الصباح وقداس المساء معًا، وينصتون إلى عظة واحدة في اليوم الواحد.

في هـذه الزيارة سمع إمبراطور الغـرب قسطانس بأثناسيوس وحياته وعزلتـه في الجبـال، فطلـب لقاءه والسمـاع إلى سبب العـداء بينه وبين يوسابيوس، فذكر له أثناسيوس ما جرى بينـه وبين أريوس وأنصاره، فاقتنـع الإمبراطـور بموقفه، وزادت قناعتـه حين أعلمـه أتناسيوس أنه علـى استعـداد أن ينظر مجمع مقدس من أساقفة الشـرق والغرب معًا في أمـره، وليس أن تعرض قضيته على مجمـع يشكله يوسابيوس وأنصاره مـن الأريوسيـين، فوجدها قسطانس فكرة صائبـة، فأرسـل إلى أخيه قنسطانطيوس إمبراطور الشـرق في القسطنطينية قائلاً: إن الفُرقة الدينية ستمزق جسد الإمبراطورية، وأن أثناسيوس ليس مجرد أسقف لكنه راع لكنيسـة كبيرة، وله أنصـار وأتباع بلا حصر، ولن يقتنـع أتباعه بعزله في مجمـع محلي بأنطاكيـا، فلم لا ندعـو إلى مجمع عام يحضـره أساقفة الشرق والغـرب لمناقشة قضيته، ويكون قرارهـم ملزمًا للجميع؟ فوافقه قنسطانطيوس على رأيه رغم مقولات يوسابيوس وغيره من الأريوسيين عن أن أثناسيوس هو الذي أثر على قسطانس وخدعه. لكن قنسطانطيوس لم يتراجع عما اتفق عليه مع أخيه، وقرر أن يعقد المجمع في مدينة سرديكا التـي على الحدود بـين الإمبراطوريتين، فجاء انعقـاده بعد نحو عام من زيارة أثناسيوس إلى روما.

كان أثناسيوس ما زال في رومـا مشمولاً برعاية صديقه الإمبراطور قسطانـس، وكان بطريرك روما يوليوس هـو المسئول عن دعوة أساقفة الغـرب للمجمع، بينما كان يوسابيوس مسئولاً عن دعوة أساقفة الشرق، إلا أنـه أصيب بمرض مفاجئ ومات قبيل انعقاد المجمع بنحو شهر واحد، وأصيـب الأريوسيون بصدمة أفقدتهم القدرة على مواجهة يوليوس ومن معهـم، ولم يكن أمامهم من حل سوى الانسحاب من المجمع، فاعترضوا على وجود أثناسيوس وأنصاره، وأصروا على أنه معزول من قبل مجمع أنطاكيـا ولا يجوز حضـوره، وتأكيدًا على موقفهم عقـدوا مجمعًا خاصًّا بهـم في مدينة فيلوبوليـس المقابلة لسرديكا من قبل حـدود مملكة الشرق، وفيه حرمـوا يوليوس وأثناسيوس وعددًا آخر مـن الأساقفة المتضامنين

مـع أثناسيوس في عدم عزله، ثم أرسلوا خطابًا ليوستاثيوس كاهن كنيسة سرديكا يعتذرون فيه عن اضطرارهم للعودة إلى القسطنطينية تلبية لدعوة الإمبراطور قنسطانطيوس الذي عاد منتصرًا من حربه مع الفرس، لكن ذلـك لم يفت في عضد الآباء الذين جـاءوا ليجتمعوا في مدينة سرديكا، فقد عقـدوا مجمعهم الذي ثبَّتوا فيـه أثناسيوس على كرسيـه في الإسكندرية، وحرموا في المقابل أحد عشر أسقفًا أريوسيًّا سعوا لحرمانه دون حق.

لم يـترك الأريوسيون سبيلاً لمنع أثناسيوس من العودة إلى الإسكندرية إلا وطرقوه، فأحكموا قبضتهم على غضب إمبراطور الشرق، هذا الذي لم يصحُ ضميـره إلا مرة واحدة، حـين شعر أن الأريوسيـين بحماقتهم سيشعلـون الحرب بينه وبـين أخيه، فاتخذ عدة إجـراءات سريعة كنوع مـن الاعتذار وإعادة ضبط الأمور في مجراها الصحيح. حدث ذلك حين أتى بعض الأريوسيين بامرأة شريرة ودخلوا بها إلى أسقفين كانا مرسلَيْن من قِبل الإمبراطور قسطانس إلى أخيه إمبراطور الشرق، وحين دخلت المرأة إلى حجـرة أحد الأسقفين صرخت مدعية أنه قـام بالاعتداء عليها، وظلـت تصرخ وتصرخ حتى استيقظ كل مـن في القصر وسمعها كل من في المدينـة، وفتحوا عليهـا بابها وهي تولول بأن الأسقـف اعتدى عليها، لكنهـا لم تكن رأت الأسقف، ولم تتوقع أن يكـون في هذه السن، فقد قيل لهـا إنه شاب في الثلاثينيات من عمره، لذا لم تستطع أن تتدارك خطأها، وأسقـط في يدها بمجرد أن علمت أنها دخلت الغرفة الخطأ، لم تملك سوى الاعتراف بـأن إسطفانوس أسقـف أنطاكيا هو الذي طلـب منها أن تفعل ذلك مـع أسقف يدعى أثناسيوس، لكنها ضلت الطريق ودخلت إلى غرفة منـدوب الإمبراطور قسطانـس. هنالك كان لا بـد أن يتخذ الإمبراطور قنسطانطيوس موقفًا ينقذ من خلاله العلاقة بينه وأخيه. فأعلن غضبه على الأريوسيـين، وأمر بعـودة المنفيين بسببهم إلى بلادهـم من جديد، وكان أثناسيوس في مقدمتهـم، فأرسل له ثلاثة رسائل اعتذار، معلنًا فيها شوقه لرؤيـاه، راجيًا عودته إلى كرسيه الرسـولي، وقبل أن يذهب أثناسيوس إليه قـرر الذهاب إلى صديقه يوليوس أسقف روما، هذا الذي فرح كثيرًا

للعفو عنه، فكتــب إلى شعب الإسكندرية يهنئهم بعــودة أبيهم المناضل إلى كرسيه، بعدهــا التقى أثناسيوس بقنسطانطيوســ في القسطنطينية، وتقبل منــه اعتذاره، وصلى من أجــل غفران خطاياه، ثم خــرج في سفينة من سفن الإمبراطــور محملة بالهدايــا إلى الإسكندرية، ليجــد شعبه واقفًا في انتظاره علــى الشاطئ بالتهاليل والأناشيد تعبيرًا عــن الفرح بعودة أبيهم بعد غياب دام سبع سنوات في بلدان أوروبا وجبالها.

-٣-

وجدت دميانة نفسها فجأة في عالم كبير واسع لم تكن تعرف شيئًا عنه، عالم سري لا يقل ثراء في أحداثه عما تعيشه في العالم المعلن، وكان الأكثر دهشة لها أنها ابنة أحد المؤسسين لهذا العالم، فصلاح متري، المحامي اليساري الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الفقراء هو نفسه العضو المؤسس في جماعة الأمة القبطية، وكان من الممكن أن يكون أحد أفراد تنظيمها المسلح لولا أن بنيته الجسدية لم تساعده، فلم يحتمل التدريب في الصحراء، وآثر أن يكون طابورًا خامسًا للجماعة، يدافع عن حقوقها المدنية، ويكون رابطة العقد بين المتدربين وذويهم في القرى والنجوع والبيوت والحارات، هكذا عهد إليه يؤانس بمهمة جمع التبرعات وتوصيلها إلى من نذروا أنفسهم لخدمة الرب، لكن هؤلاء لم يكونوا على وفاق دائم مع الكنيسة، فهي تارة تراهم خارجين على قانونها، وتارة ترى أنها في حاجة لدفاعهم عنها، ومواجهة القوى الدينية العائدة من الخليج، هم بدورهم لم يكونوا راغبين في هدم الكنيسة، لكنهم غير راضين عن تحفظها، يرون أنه لا بد من توسيع رقعة العمل، وتجديد الدماء والأفكار، بما يتوافق مع القرن العشرين وليس مجمع نيقية.

جلست دميانة تنصت إلى يؤانس وهو يحدثها عما جرى في السنين الخوالي، وكيف استطاع أن يكون جيشًا من المتطوعين لحماية الكنيسة من السلفيين الذين لن يتوقفوا عن مضايقة الأقباط ما لم يجدوا من يصد هجومهم، فقانون الغابة يقول إن توازن القوى هو الذي يصنع السلام على الأرض.

- لكن الكنيسة لم ترضَ بالإعلان عن قوتنا.

قالهـا يؤانس مـبررًا عدم مهاجمتهـم الإسلاميين مثلمـا يعتدون على الأقباط في سيناء وغيرها.

تفهمـت دميانـة ما يعانيـة يؤانس، فحتـى الآن ما زالـت الفكرة التي ترك من أجلها الحيـاة العلمانية ودخل إلى الرهبنة متجردًا من كل شيء، لم تتحقـق، وما زالـت الكنيسة تعيشـ انقسامًا حولها، فالبابـا الجديد مع التقارب مع العالم، والرغبة في الانفتاح على الكنائس الأخرى، والقبول بمعموديـة الكاثوليك، متجـاوزًا خلافات الماضي، فقـد ضعف الجميع، وتكتلـت الضربات على البيت المسيحي، سواء في الشرق أو الغرب، ولم يعد بالمستطاع الوقوف عند حدود العصور الوسطى، وليس أمامنا سوى أن نعيـد النظر في مختلـف القوانين القديمة، ليس أمامنـا سوى أن تكون ديانتنـا أكثر إنسانية ومعاصرة، فالشعب مثقل بالهموم، وبين فكي رحى التطـور الذي يعيشه كل يوم، والثبات الروحي الذي وضعه قديسون في أزمنـة غابرة، فكيف يمكن الوصـول إلى حياة قبطيـة مطمئنة ومبهجة؟ هكـذا يتساءل البابا ورجـال الإكليروس، لكن ليسـ كل تساؤل له إجابة واضحـة، فكل رجال الرب حريصون على إرضاء الرب، إلا أن الرب لم يحـدد لنا طريقـة إرضائه، لذا فالكل يجتهد، والـكل يخطئ ويصيب، وليس لدينـا أوريجانوس الآن كي نهتدي بـه، ولا أثناسيوس كي نرمي بأنفسنا خلفه في البحر.

ظـل يؤانس يتحدث مع دميانة عن ذلك العالم السري الذي لا تعرفه، وعيناها تتسعان دهشة أكثر فأكثر، موقنة أن العالم على شفا حرب مؤجلة، ولـولا الدواعش لقاتل الأقباط بعضهم بعضًا على التجديد والتغيير، لكنها لم تستطـع الربط بين ما جرى معها وما حدَّثها عنه يؤانس، فقد تصورت أن ديـر الملاح بعيد عمـا يجري في المنيا وأسيـوط وسيناء، تصورت أن المـلاح بقعة منعزلـة عن العـالم، وأن أحدًا لم يكن يعرفهـا سواها، حين روت ليؤانس أنها تخرجت مثـل والدها في كلية الحقوق، وعملت محققة في بعضـ الأديرة والكنائس، كان آخرها ديـر الملاح الذي تعرضت فيه لمحاولـة قتل على يد بعض الرهبان، حينهـا انتبه يؤانس لما تقول، وطلب

منهـا أن تعيد عليـه حكايتها في الدير، مظهرًا تعجبه مـن أن يتهم يوساب والمنحنـي تلامـذة إيمانويل بنشر كتـب الهراطقة، فمنذ متـى وهذا الدير يفصل في تعاليمه بين القديسين والهراطقة، تاريخه كله أقرب إلى العلمانية منه إلى الإكليروس.

شعـرت دميانة أن يؤانسـ لم يلتفت إلى مصيبتها بقـدر ما توقف أمام مـا جرى على دير الملاح مـن تغير، وبدا لها أن المـكان أصبح شيئًا أكبر ممـا كانت تظن، فطيلة عامين كانت تراه منفًى حقيقيًّا، ولولا ما يمنحونها إياه من راتب كبير ما ذهبـت إليه، ولولا ظهور أنطونيوس في حياتها ما تذكـرت من أمر الديـر شيئًا. ودَّت لو تحكي له عـن ميلها لأنطونيوس، وعـن صورته التـي تراها في منامها على هيئة راعـي غنم في حقل مليء بالأعشـاب، لكنهـا لم تستطـع، وأغلقت قلبهـا على مشاغلـه وهمومه، وعـادت إلى الغرفة التي جهزوها لها، وظلـت تتشاغل من جديد بالكتابة والرسم عن عزلتها.

لم تمضـ أيـام حتى همست لهـا مريانا أن الأب يؤانسـ سوف يغادر الدير، فثمـة أمور جدت وسيغادر من أجلها، كانت هذه هي المرة الأولى التي بدت فيها مريانـا كأم بالنسبة لها، حين التقت بيؤانس أكد لها الخبر، وسألهـا إن كانـت تريد المجيء معه أم ترغب في البقـاء مع مريانا، لكنها باستسلام شديد هزت رأسها قائلة أنها تريد رؤية تريزا، أمرها يؤانس أن تكتـب خطابًا تشكر فيه مريانا على استضافتها لهـا، وتبلغها بأنها خرجت من دون علم أحد كي لا تقع في أيدي السلفيين.

بعـد يومين أخبرتها مريانا أن الباصـ ينتظرها في الخارج، وودعتها هي وباقي الأخوات قبل أن تستقل الباص، وجدت فيه الأب يؤانس ومعه ثلاثة من الرهبان طويلـي القامة، نظرت في عين أحدهم ورأت أنه ممن سعـوا لقتلها ليلة نزولها من دير الملاح، شعـرت أن جسدها يرتعش وأن كلبًـا ينبح عليها من ركـن خفي بالباص، توقفـت في مكانها وترددت أن تخطـو بقدمها إلى الأمام، لكن يؤانس نظر إليها متعجبًا، ثم مد يده وأشار لهـا بالصعود، لم تعـرف بمَ تجيبه، ونـزل أحد الرهبان ليأخـذ حقيبتها

ويعاونهـا. كان الراهـب الذي شـارك في مطاردتها لا يـزال جالسًا في كرسيـه، كما لو أنـه لا يريد أن يعلن عن نفسه، تـردد في النظر نحوها، تـردد في الاستجابة لطلب يؤانـس، وظل خانعًا في كرسيـه كفأر مبتل، وكان الكلـب السماوي قد مال بعنقه في فتحة بـاب الباص مصدرًا صوتًا أشبـه بالعواء، تاركًا مساحة بالكاد تكفي لمرورها من جواره، كان يعوي كمـا لو أن أحـدًا ركله في صدره بقـدم ثقيلة، حين صعـدت لم تجد مكانًا بجانـب يؤانس، ولم ترغب في الجلوس بجانـب الرهبان الذين احتل كل منهم كرسيًّا يجلس عليه اثنان، فاختارت كرسيًّا فرديًّا وجلست تنظر بعين على يؤانس وعين على الرهبـان، وضعت حقيبتها أسفل قدمها وتذكرت تلك الليلـة التي خرج بها الباص مع الرهبان من أمام هضبة الملاح، كان الخـوف يتملكها إلى حد الفزع، فهل يمكن أن ينجـح يؤانس فيما فشل فيه رهبانه من قبل!

حين تحرك الباص بدا لها أنه اتخذ طريقه نحو الشرق وليس الشمال، لم تكـن تعرف الطريق لكنها أعملت غريـزة الشعور بالاتجاهات، رأت الباصـ يعبر على كوبري طويل، رأته يمشـي في اتجاه الجنوب ويعرج علـى طريـق واسع ليـدور بعيدًا عـن النيل وليسـ في محاذاتـه، رأت الصحـراء تتسع مـن حولها من كل جانب، مدت البصـر بقلق علها ترى ملمحًـا للبيـوت هنا أو هناك، لكنها لم تعثر إلا علـى خيمة لراعٍ أو حجرة صغـيرة في الرمـال، كانت عينها تـرف ما بين يؤانـس والرهبان الذين جلسوا كما لو أنهم تماثيل نحتت على مقاعد، بينما مال يؤانس برأسه على كتفه ونام، كيف لهـذا العجوز أن يأمن على نفسه برفقة رهبان كهؤلاء، في باصـ يقطع صحـراء شاسعة كهـذه؟! ودت لو أنها تذهـب لإيقاظه، لكنها لم تجرؤ علـى فتح فمها أو التحرك من مكانها، استحضرت في قلبها صورتي تريزا وأنطونيوس، وظلت تتلمس منهما الشجاعة على مواجهة المصائر غير المعروفة، وبالحدس أدركت أنها ذاهبة إلى دير الملاح، حين رأت جبلاً يعلو من بعيـد خايلتها صور المقيمين هناك، وحين مال الباص بحذائه أيقنت أنها باتجاه موطئ موتها القديم، ظلت تصلي في قلبها للمسيح وللسيدة العـذراء والقديسة تريزا كي يكونوا معها في هذا اليوم العصيب،

ظلت تردد كل ما تعرفه من أناشيد وآيات ومزامير، وكأنها ذاهبة إلى الموت، مرتجفة تارة وباكية أخرى، بينما الكلب السماوي أصبح فجأة بحجم لبؤة تنام على سلم الباص، لبؤة وضعت يديها إلى الأمام ومالت برأسها عليها، كأنها لا يعنيها ما يدور حولها، حسدتها دميانة على هدوئها في رحلة كهذه، وودت لو أنها تسأل الرهبان إن كانوا يرونها على سلم الباص كما تراها، أم أنها خيالات الصحراء وسرابها، لكنها لم تجرؤ على شيء، فلزمت مكانها وأغلقت عينيها مستدعية أنطونيوس وتريزا وصلاح متري، وحده يؤانس الذي قطع عليها مخاوفها وصمتها، فقد استيقظ فجأة ومال برأسه نحوها سائلاً إن كانت تعرف إلى أين يذهبون الآن، هزت رأسها بالنفي، فقال إنهم الآن في جبل الطير.

حكي لها أن كنيسة العذراء بنيت على المغارة التي لجأت إليها العذراء وابنها المسيح، ويبدو أن عوامل التعرية كانت قد طمرت المغارة، فكلفت الإمبراطورة هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين من بحث عنها حتى كشفها، ثم بنت عليها الكنيسة، كان ذلك في زمن البطريرك أثناسيوس، لم يكن وقتها موجودًا في مصر وقتها، فقد نفي سبع مرات بسبب صراعه مع الأريوسيين، وكان العالم المسيحي منقسمًا على نفسه بسبب هذا الصراع.

ظلت دميانة تنصت لكلماته وهي تصعد بجواره درجات سلم طويل في اتجاه الكنيسة التي تعلو الجبل، كان يصعد درجتين أو ثلاث ويتوقف ليلتقط أنفاسه ويحكي، بدا كما لو أنه يستمتع بتعذيب الرهبان الذين جاءوا معه في الباص، أو حتى الذين ظهروا بمجرد أن وطأت قدماه المكان، بدا أيضًا أنه ملك غير متوج، وأنها يمكنها أن تلعب دور الأميرة، لكن خوفها من الاقتراب من العالم المظلم جعلها تطيح بالفكرة جانبًا وتسأله عن سبب مجيئه إلى هنا، فتأمل خطواته قبل أن يمد يده إلى أحد الرهبان طالبًا الصندوق، فأخرج الأخير صندوقًا صغيرًا فتحه قائلاً:

– انظري.

أومأ برأسه لها كي تزيح قطعة الحرير لترى الكتاب، حين نظرت إلى الغلاف المصنوع من جلد الماعز، أمرها أن تقرأ العنوان:

– الرسائل. . . أوريجانوس!

هكـذا قالت بصوت خفيض، فأعطـى الصندوق من جديد إلى الراهب كي يعيده كما كان:

– هل تعرفين أين كان هذا الكتاب؟

هكذا قال منتظرًا إجابة بعينها، حين أومأت بالنفي ابتسم قائلاً:

– دير الملاح.

ثـم تأمل معالم الدهشة على وجههـا، ويبدو أن هذه اللحظة من الحيرة والارتبـاك التي بدت على وجه دميانـة أصابته بالمتعة، فأخذ يطيل النظر نحوها في هدوء سائلاً:

– هل تعرفين كم يساوي؟

لم يرفـع عينيه عن وجهها، وظل يـردد أنفاسه بهدوء في صدره كمن يعيـد تنظيمها من جديـد، وحين لم تجبـه استدار نحو المـدق الصاعد إلى الكنيسة قائلاً:

– احسبيها بالدولار.

-٤-

رسائل أوريجانوس (١٤)

عزيــزي ديونسيوســس ، علمــت أن الطاغيــة فاليريان أمــر بنفيك إلى وادي خفــرو في منطقــة المدن الخمس بالغــرب ، لا أعرف كلمات يمكنها أن تواسيــك في محنتك هذه ، فالنفي عــن الوطن هو أصعب الآلام التي قد يعانيها المرء ، لكن عزاءك الوحيد أنك تنفى وتعذب من أجل الله ، فعذابك مقدس ، ونفيك مقدس ، وكل فعل تقوم به من أجل شعبك هو فعل مقدس ، فاصــبر وادع الرب أن يضيء طريقك نحو الصواب ، لأن الظلم ظلمة ، وظلمــة الظلم تعمي القلــوب لا الأبصار ، فصلِّ من أجــل أن يُبقي المسيح عينيك مفتوحتين على الطريق الصواب ، فلا تزل ولا تخطئ ولا ترتكب الهفوات .

عزيــزي . . اسمــح لي أن أصلي من أجلــك ، وأن أتلــو التسابيح كي يرفــع المسيح عنك محنتك ، فحين تــولى مكسيميان التراقي الإمبراطورية أمــر بالقضاء على الأساقفــة والكهان المسيحيين ، وكانــت طريقته عجيبة وقاسية ، فقــد أباح دماءهم للشعب ، هنالك خــرج الوثنيون لينقضوا على كل مسيحــي ، وأصبح كل رجل دين مسيحي مستهدفًا ، لأن من سيقتله أو يجرده مــن أمواله أو يحرق بيته لن يناله عقاب ، فهكذا حكم الإمبراطور الذي استمر حكمه نحو عامين وشهر ، ولولا أن أبناءنا الضعفاء في بيوتهم ظلــوا يصلون من أجل نجاتنا مــا كنا سننجو ، هكذا قــرر الجميع أن يغلق بيتــه ويفر إلى الجبــال ، يومها كنــت في قيصرية كيبادوكيــا ، وودت أن أعــود لأكون بــين أبنائي وأحبائــي في قيصرية فلسطين ، لكــن أصدقائي في كيبادوكيــا رفضــوا السمــاح لي بالخــروج من ديارهم ، قلــت لهم إن

الشخص الذي حفز الآخرين على الاستشهاد لا يمكنه أن يتكاسل عن مبادئه، لكنهم رفضوا أن أخرج من بيت جهزوه لي في قلب الجبال، ولم يبق معي في البيت سوى خادم صغير، خادم لا يعي من أمره شيئًا، كان يتمتع بصنوف البلاهة التي تبقيه بجانب شخص مستهدف من كل جانب مثلي، حين انتهت المحنة وعدت إلى قيصرية فلسطين وجدت كيف أباح مكسيميان دماء كهنة المسيح، وكيف أجبر الناس على ترك المسيحية وتقديم الأضحيات للأوثان، كنت أنظر إلى كل ما حولي فأجد آثار الدماء عليه، دماء أصدقائي وأبنائي الذي عذبوا أو قتلوا في بيوتهم، لا لشيء سوى أنهم كانوا مؤمنين.

ذكرتني الحكايات التي سمعتها في قيصرية بما سمعته عن اضطهاد نيرون للمسيحيين، كان ذلك هو الاضطهاد الأول، ولم يكن مضى على قيامة المسيح سوى ثلاثين عامًا، لكن الذين آمنوا به كانوا في ازدياد، وكانت النخب الرومانية لا تخشى على نفسها إلا من تلك القلة المسيحية التي تكثر كل يوم، لذا حين احترقت روما لم يجد نيرون ضحية جاهزة سوى المسيحيين، خطب كعادته في مجلس الشيوخ قائلاً إن هؤلاء الخونة هم الذين حرقوا روما العظيمة، وصدقه النبلاء، صدقوه لأنهم ما كانوا يريدون أن يزعجوا أنفسهم بالحقيقة، صدقوه وصفقوا له رغم يقينهم أنه الذي ترك النيران تشتعل في العشش المحيطة بالسيرك، وأن الريح ساعدت رغباته الشريرة، فجلس قصره يتابع وينظر ولا يأمر بالإطفاء إلا حين تأكد أن النيران أتت على كل شيء، وأنهم مهما أخمدوها فلن تنطفئ، لم يكن نيرون مجنونًا، لكنه كان يحلم بإعادة بناء روما.

لم يكن نيرون الوحيد الذي اتهم المسيحيين كذبًا، ونصب لهم المشانق وشدهم على آلات التعذيب، فبعد رحيله بنحو خمسة عشر عامًا، شن دوميتيان اضطهاده للمسيحيين، حتى أن سمعان، الأسقف الذي جلس على كرسي أورشليم خليفة للقديس يعقوب الرسول، مات مصلوبًا، والقديس يوحنا الرسول عُذِّب بالزيت المغلي، ثم نُفِيَ إلى بطمُس، وهناك رأى رؤياه التي سجلها في سفر الرؤيا، وفي عصر دوميتيان صدر

قانون يقول "لا يُفـرج عن مسيحي أمام المحكمة ما لم يجحد دينه"، وكان يلقي باللوم علـى المسيحيين بسبب أي مجاعة أو زلزال أو وباء يحدث في البـلاد. وبعد نحو عشرين عامًا حـرَّم تراجان المسيحيـة نهائيًّا، وصلب سمعـان أسقف أورشليم وهـو في سِن المائة والعشريـن، وفي نفس السنة استشهـد الأسقف الأنطاكـي أغناطِيوس الرسولي، الـذي خَلَف الرسول بطرس علـى كرسي أنطاكيا، وأُلقِيَ للوحوشـ الضارية في الكلوسيوم، ثـم ازداد الاضطهاد قسوة وضـراوة في عهد هادريـان خليفة تراجان، فاستشهد في عهده نحو عشرة آلاف مسيحي.

كان الاضطهاد يا صديقي موجـات إثر موجات، حتى أن الشهداء في الموجـة الرابعة أثناء حكم أوريليوس أنطونيوسـ كانوا يسيرون بأقدامِهم الحافية فوقَ الأشواك والمسامير، ومن فرط ما شهده المسيحيون في روما والإسكندريـة ونابلسـ وسيسليا وإفريقيـا وآسيا الصغـرى من مطادرة وتعذيب، كانـوا يحفرون السراديب تحت الأرضـ ليختبئوا فيها مقيمين صلواتهـم وقداساتهم بعيدًا عـن القتل، قائلين (يـا رب.. اضطهاد فوق الأرضـ... وصلاة تحت الأرض... أنقذنـا يا الله). بينما أوريليوس يصـر على أن المسيحيـة خرافة مصطنعة، فيأمر جنـوده بمزيد من القتل والإبادة لكل ما هو مسيحـي، حتى ملأت جثث الشهداء الطرقات، ومن بينهم القديس بوليكاربوس أسقف أزمير، وتلميذ القديس يوحنا الحبيب.

ورغم أن الإمبراطور ساويرس كان يعاني مرضًا عضالاً، ولم يُشفَ منـه إلا على يد طبيب مسيحـي كان يكثر الصلاة لأجله، إلا أن ساويرس تنكـر لصلواتـه، وأبـاح دمـاء المسيحيين في عصـره، فعصـف الجنود والوثنيـون بكل ما لـه علاقة بالمسيحية، على يد جنـوده استشهد والدي، كمـا استشهد فيكتور أسقـف روما والقديسة بوتامينـا والضابط الروماني باسيليدسـ الـذي آمن علـى يدهـا بالمسيـح، وإيريناؤس أسقـف ليون، وأسكليباس أسقف أنطاكيا، وكاليستوس وأوربان أسقفا روما.

في كل موجـة كانت عظامي تحتمـل التعذيب والاضطهـاد، لكنها في اضطهـاد ديسيوس خانتنـي ولم تحتمل، ربما لأنني ضجـرت، ولم أعد

قــادرًا على الاحتمال، وربما لأن السنــين استطاعت أن تأكل طبقات من روحــي، فوهنت، واشتدت القيود على معصمــيَّ، وحزت السلاسل في أضلعــي، وتقيحت الجروح، ونزفت الشرايــين والأوردة، نزفت حتى صرت كحشــرة وقعت في شباك عنكبوت، فلم أقــوَ على تخليص نفسي، ولا الهروب من مبادئي، فأنا الذي طالما حفزت الآخرين على الشهادة ما كان لي أن أبحــث عن طريق للهروب منها، لكنها لم تدركني، وتركتني أعاني الموت كل لحظة.

عزيــزي لا أقول لك ذلك كــي تضعف أو تهن، فما زال أمامك الكثير لتقدمــه، فأنت وريث مرقــس الرسول، وأمينه علــى الشعب من بعده، وعلــى الإيمان القويم، أنت البقعــة الصلبة في بحرٍ يمور بالهرطقات، لقد تعبت من مواجهتهــم، تعبت من الشرح والتفســيرٍ والحفاظ على الأمانة التــي منحني اللــه إياها، وها أنــا الآن أشعر أنه قد اقــترب الوقت لرفعها عــن عنقي، وأظنك الــذي سيتسلمها ليكمل المسيرة في وجــه الذين اختلط عليهم الطريق، فانهض ولا تألُ جهدًا، فالطريق لم يبدأ بعد، والهراطقة يحتاجون قديسًا مثلك كي يناهض أكاذيبهم بسيف بيانه.

-٥-

شعـرت أن الحيـاة دبت مـن جديـد في أنطونيوس بعد لقائنـا بصديقه الصحفـي أحمد، فبعدما تواصل الأخير ببعض أصدقائه توصل إلى هاتف زميلهم كاتـب "قصة الفتاة التي أحدثت فتنـة في الصعيد"، واتفقا على أن نلتقـي سويًّـا في الغد، حينها شعـر أنطونيوس أن عليـه أن يترك الرهبنة ويعـود إلى الحياة، حيث يمكنه أن يعـارك الدنيا كما تعاركه، لينتصر في معركة حياة أو موت بالنسبة له.

في ثـورة حماسه وهـو يتحدث عما سيقـوم به أيقنت أننـي لن أقتنص دميانـة منه، فقد عاد ذلك الجبار القديم، ولن يترك ثأره ولن يتنازل عن حبيبتـه، فأنى لي بصراعه! هززت رأسي مؤمنًـا على ما يقوله، ودخلنا محل حلاق في الطريق، فحلق لحيته وهذب هيئته، وأخذتنا أقدامنا لمنطقة أبو العلا القريبة من الجريدة التي يعمل بها أحمد، فاشترى قميصًا وبنطالاً وجاكـت قديمًا، كان يرغب في أن يغير مـن صورته، كما لو أنه سيتنكر للهـروب خارج البـلاد، حين سألته عن السبب قـال إنه بحث عن الله ما يقرب من عشرين عامًا في دير الملاح، وأنه يريد أن يلتقي به الآن كواحد من البشر العاديين الذين لا تميزهم الملائكة بصلبان كبيرة ولا لحى طويلة ولا ثياب سوداء.

لم أعـرف مـن الذي يتحـدث، هل القديس أنطونيوس أم المهرطق أنطونيوس، لكنه في كل الحالات كان لا يـزال مشغولاً بالله، لم يفارقه ولم يرفضـه، يختلف في طريقـة البحث عنه وربمـا في تصوره. لزمت الصمـت وسرت خلفه كملاك يسعى لأن يعرف كيف سيصل البشريُّ إلى ربـه دون منهاج سابـق، وجدته وضع جلباب الرهبنـة والصليب الكبير في كيـس بلاستكي وخرج مرتديًا بدلة وقميصًا وبنطالاً، بدا لي كأستاذ أو

تاجر، لكن كلما قارنت صورته مع المارة كنت أراه كمتسول، البعض كان ينظر إليه مبتسمًا، وما أدهشنا أننا حين كلت قدمانا من السير وجلسنا على الرصيف نستريح وجدنا من ألقى في حجره بعض المال، في تلك اللحظة أدرك أنطونيوس غرائبية ما يرتدي، وأصر على أن يكمل الطريق الذي بدأه، فليس مهمًّا من وجهة نظره كيف يراك الناس، ولكن كيف ترى الناس.

لم نكن نعرف مكانًا يمكننا الذهاب إليه، قررنا العودة إلى بيت دميانة من جديد، متلمسين الاستضافة من قبل أي من الجيران، اتخذنا المترو وصعدنا سلالمه الطويلة واتجهنا في الشارع الطويل حتى استقبلتنا اليافطة الخشبية التي تقشرت ألوانها الزيتية، ولم يبق سوى بقايا كتابة يجتهد القارئ في إكمالها، لم يكن أمامه سوى أن يضغط على جرس الشقة المواجهة لشقة دميانة، حيث السيدة التي أبلغتنا بما جرى لتريزا، حين رأته السيدة سيمون أو أم مايكل، هكذا عرفنا منها فيما بعد، لم تصدق أنه هو، ولوهلة تصورت أنه الرجل الذي يجمع القمامه واستدارت لتحضرها له، لكنه استوقفها شارحًا أنه قريب السيدة تريزا وابنتها دميانة، وأنه خلع زي الرهبنة بعدما اتسخ ولم يعد صالحًا للسير به في المدينة، هزت السيدة رأسها وقد بدا عليها أنها لم تفهم الكثير، لكنني لاحقتها متسائلاً إن كانت تعرف مكانًا نبيت فيه حتى تخرج تريزا من المستشفى، فأوضحت أنها احتفظت بمفتاح تريزا حين نقلوها للمعهد، ويمكننا أن نبيت في شقتها إلى أن تعود. شعرنا أن العذراء والقديسات راضيات عنا، فأخذنا المفتاح وذهبنا لنبيت في تلك الشقة التي بات فيها أنطونيوس منذ أيام، وباتت فيها دميانة طوال حياتها.

تخفف أنطونيوس بخجل من ملابسه ودخل إلى الحمام كي أسمع صوت تدفق المياة، كانت المرة الأولى التي أعرف فيها ما يسمونه الدش، فليس مسموحًا في حمامات الدير بهذه الأشياء، ولم يكن الدير به حمامات من الأصل حتى تم تجديد السور، فقام المهندس ببناء عدد من الحجرات الصغيرة، وبنى فوقها صهريجًا كبيرًا كان الرهبان يحملون إليه الماء من بئر أسفل الهضبة، وكان يوم ملء الصهريج يجيء كل أسبوع مرة، ولم

تكـن الصنابير تفتـح إلا ساعة في اليوم، حيث يملأ الخـادم المعني بنظافة الحمامـات جراكن بيضاء كبـيرة بالماء، بينمـا القلايات نفسهـا فليس بها أحواضـ أو غيره، ولكل راهب ثلاثة لـترات من الماء في اليوم الواحد، كان يشـرب ويغسل نفسه منهـا، ومن يريد الاستحمـام كان ينزل أسفل الهضبـة، حيث يملأ من البئر جركن ماء كبير يذهـب به إلى غرفة خالية ليهـرق الماء على جسـده، وإن وجد شيئًا يدعك به ما على الجسد من صدأ فهو من المحظوظين.

رفضـت أن أستحـم، وحين اشتـدت بي الرغبة في دخـول الحمام لم أعـرف كيف أتعامل مع الكرسي ذي اللون الأزرق الموضوع في الغرفة الصغيرة، قال أنطونيوس إنه الحمام، وشرح لي كيفية استخدامه، وكيفية تنظيـف النفس، فخلعـت حذائي وصعـدت بأقدامي على فوهـة الكرسي المثقـوب ثقبًـا واسعًا وعميقًـا ورحت أتـبرز، هكذا انتهيت مـن معاناتي واجتهـدت في الاغتسال حتى نظفت نفسي، لكنني كنت قد كرهتني إلى حد عدم الرغبة في دخول الحمام من جديد، لكن مع الوقت والتعود أصبحت أستوعب الأمور، وأتعامل كشخص ولد في أزقة المدينة.

في صبـاح اليوم التالي التقينـا بالصحفي أحمد في مقهى بجوار الجريدة التـي يعمل بهـا، بعد قليل من الوقت جاء زميله نائـل صاحب المقال الذي قرأنـاه ونحـن نتناول سندوتشات الفـول، قال إن مقالـه كان عن قضية شهيرة، جاءت في العديد مـن الصحف والبرامج الحوارية، لكن أحدًا لم يستطـع أن يعرف شيئًا كبـيرًا عن الفتاة التي اختفـت بعد مجيء الشرطة وهـروب السلفيين، هنالك بدأ أنطونيوس يروي كيف تعرَّف على دميانة في دير الملاح، وكيف قـام رئيس الدير بترحيلها في الليل، ونظر لي كما لو أنه يطلب مني التأكيد على ما يقول، فتدخلت بالحكي عما رأيته، وكيف نزلـت بصحبة يوسـاب والرهبان، حكيت عن ذهابـي إلى دير الزاوية، ورؤيتي لفتـاة تشبهها في ملابس الراهبات، لكنني لست موقنًا، ولا أملك دليـلاً على شيء، وكل ما أعرفـه أن أنطونيوس متهم بقتلها، وأن أسقف التحقيقات في دير المحرق سعى لانتزاع اعتراف مني بذلك.

كان نائـل يسجـل حديثنـا على جهـاز في يـده، وأحمد يكتـب أسماء الأشخاصـ والأماكن، وفي النهاية قلت إننـا نشك في أن دميانة هي الفتاة التي أحدثت الفتنة، لكننا لا نعرف كيف ذهبت إلى دير الزاوية. قال نائل إنـه لا يستطيع أن ينشر موضوعًا ليس في يده دليل عليه، ظللنا نرجوه أن يعيـد النظر في الأمر، فالنشر هو الطريقة التـي ستضمن بقاء دميانة على قيد الحياة، لكنـه رفض، وبعد تفكير طويل توصلنا إلى أن نزور الكنيسة الأم ونسأل أسقف التحقيقات عنها.

في اليـوم التـالي التقينا في محطة مـترو رمسيس، وذهبنـا إلى محطة غمرة، ومنها سرنـا على الأقدام حتى وصلنا الكنيسـة، كان أنطونيوس الـذي هذب شعـره ولحيته مـا زال مرتديًا الجاكت والبنطـال والقميص الكاروهـات، كان يتمتع بهيئـة متسول حقيقي، ويبدو أنـه لأمر ما أجاد تمثيل هذا الدور، فلم يكن يفرد قامته، وكان يسير كما لو أنه يعاني عرجًا خفيفًا، بينما فمه مفتوح بزاوية كما لو أنه مجذوب أو مصاب بعته، خشيت عليـه من أن يكون القديسون قد غضبوا عليه، فوضعت يدي خلف ظهره لأسنده ولأحتمـي به، عبرنا البوابة بعدما نظر الشرطي في بطاقات أحمد ونائل، بينمـا تركنا نعبر كما لو أنه رأى الصليـب موشومًا على جباهنا، وكما لـو أن كل من يرسـم صليبًا محب للكنيسة، في الردهـة الطويلة بدأ أنطونيوس الذي أصبح خبيرًا بالمكان يقودنا لمكتب أسقف التحقيقات، حيث وصلنا إلى الكاهن المسئول عن إدارة المكتب، تأخر أنطونيوس وتقدم نائل سائلاً عن اختفاء المحققـة التي تعمل في دير الملاح، سأله مدير المكتب عن مصـدر المعلومة، فأجابه بأنهم أهلهـا، رد الرجل بهدوء شديد مطالبًا بأن يحضرهـم، لأنه لا يدلي بمعلومات للصحافة، ولا يتحدث إلا مع صاحب الشأن.

هنالـك حـدث أمر لم يكـن في الحسبان، فقـد سرت جلبـة في الردهة الطويلـة، ودخـل أحد الرهبـان العجائز محاطًا بعدد من طـوال القامة، نظرت من فوق أكتافهم لأتعرف على صاحب السطوة، فرأيت أنه الأب يؤانـس، كان الكاهن قد تحول إلى فأر مذعـور وهو ينحني في استقباله، ولم يتوقـف ليخـبر رئيسه بحضـوره، لكنه أسرع وفتح بـاب الأسقف،

همســت في أذن أنطونيوس أن هذا هو يؤانس الذي أوصلت إليه "رسائل" أوريجانوس، وهو بدوره همس لأحمد ونائل بالأمر، بعدها خرج مدير المكتب معتذرًا وطالبًا من الجميع المجيء في الغد، وخرج من بعده رهبان يؤانســ يطالبون الناس بالخروج مــن المكتب، وأمــام الأجسام الفارعة اضطررنا للخرج، لكن فضــول أحمد ونائل كان قد اشتعل، ورغب كل منهمــا في معرفة ما يحدث، ومن الــذي يلقى عناية كبار الأساقفة، رحت من جديــد أحكي لهم قصــة "رسائــل أوريجانوس"، وكيــف أخذتها من المنحني وذهبت بها إلى يؤانس في دير الزاوية، وهناك رأيت دميانة.

-٦-

كنـت قد ضجرت من الإقامـة في الإسكندرية إلى جوار بطريرك غير مقبـول من قبل الجميع، وما كان لي أن أكـون في معية أحد غير صديقي أثناسيوس، وكانـت الصراعات قـد مـلأت المدينـة، والصدامات بين الأريوسيين وشعبها تزايدت إلى درجة لم تعد محتملة، جاهدت نفسي نحو ستة أو سبعة أشهر على أمل أن يعود أثناسيوس إلى كرسيه من جديد، لكن في النهاية تسرب إلى نفسي اليأس والضعف، فقررت اعتزال الحياة والعودة إلى ديـر الملاح، جمعت ما استطعت حمله من كتب ومخطوطات لفلاسفة وأساتـذة أحبهم، حتـى أنني ذهبت إلى النساخ المقيمـين بجانب الميوزيوم واشتريت منهم ما رغبت فيه من أعمال للأفلاطونيين والرواقيين، فضلاً عـن شروحات الكتـاب المقدس لأساتـذة مثل إكلمندس وأوريجانوس، ولم أعترض على كتابـات المهرطقين كالسابليين والأريوسيين وغيرهم، جمعـت كل ما توافر تحت يدي وقررت أن أعـود إلى دير الملاح، حيث يمكننـي العكوف علـى قراءة كل هذه الأعمال مـن جديد، واتخاذ موقف واضح منها.

تلقـاني أستـاذي ديمتريوس وصديقـي أبانوب بترحـاب شديد، بدت علـى ملامحي معالم الأزمـة التي أمر بهـا، قالا إنني يمكننـي أن أعاود إلقـاء الوعظ علـى الرهبان، لكنني كنت أشعر بثقـل على صدري، كنت أشعـر أنني كجـدار متهدم، ولم تكن لدي رغبـة في النهوض من جديد، تـركاني في قلايتي أستجمع قواي، لم يشـأ أي منهما أن يكسر الخلوة التي أردتهـا أن تطول قدر ما تستطيـع نفسي من احتمال، كأنني كنت أعاقبني علـى ذنـب لم أرتكبه، حتى بـدا أنني موشك على المـوت. حينها وجدت

ديمتريوس المريض يحمله راهبان من الرعاة على نقالة ويأتيان به إلى قلايتي، حين رأيت المشهد أدركت كم عذبت الرجل من أجلي، وحين جلس أمامي وبكى لم أفهم سببًا لبكائه، لكنني بكيت أيضًا، وبدا أن كلاً منا كان يغسل همومه في تلك اللحظة بالبكاء، كنا نتطهر على مذبح الدمع سويًّا، حين جفت عيوننا من الدموع أشار لراهبيه أن يحملاه ويخرجا، ورأيت في عينيه أن أخرج معه، فلم أستطع البقاء من دونه. وضعاه أمام قلايته أسفل شجرة سدر تفنن أبانوب في زراعتها وريها، وجدته يأمر لي بفراش إلى جانبه، فأحضر الرهبان جلد ماعز قديم ووضعوه لي، تبسم وهو يمسح بقايا دموعه عن وجهه، وأسر لي أن أيامه لم تعد كثيرة، وأنه هو نفسه تعب من الحياة، فما رآه من المرض أكثر مما رآه من العافية، لكنه يريد أن يترك الدير في حالة من الوحدة، يريده أن يكمل طريقه منارة للرعاة في الصحراء، يجتذب بأنواره النفوس الضالة، ويهدي بعلاماته الرءوس الشاردة، وليس لذلك سبيل سوى أن يكون أبانوب الرئيس من بعده.

بطبيعة الحال كنت أعلم أنني ابتعدت عن الدير كثيرًا، وأن عالمي في الإسكندرية وربما ما بعدها أصبح أكبر وأكثر اتساعًا، لكنني لم أتوقع أن المحنة تصبح شديدة وكثيفة هكذا، فاستيقظت في يوم واحد لا أجد لي مكانًا في الإسكندرية ولا هنا، فهذا ما لا أستطيع احتماله، وما لا أعرف سببًا لحدوثه في نفس الوقت وبهذه السرعة، مرت على نفسي هذه الأسئلة سريعًا، وربما طفت ظلالها على وجهي رغمًا عني، فوجدت ديمتريوس يبتسم وهو يقول إنها المحنة، لكنني سأترك لك شيئًا أفضل من كل ذلك، سأترك لك هذه الشجرة، وتلك القلاية والجلسة، سأتركك هنا الشارح والمفسر، هذا ما حلمت به منذ أن أرسلتك إلى الميوزيوم، هذا ما أردناه سويًّا، وأظنك الآن اكتسبت ما يكفي لأن تجلس لأجله في هذا المكان، كي تشرحه للرهبان والرعاة الوافدين من الصحراء طلبًا للماء ولقمة الطعام.

لم تمض أيام كثيرة حتى تنيح الأب ديمتريوس، فاضت روحه في قلايته، لازمته أيامه الأخيرة، فلم أتركه لا في جلسته تحت شجرة السدر،

ولا في قلايتــه الفقيرة الخانقــة، تعبت حتى تأقلمت مــع المكان من جديد، وكان ينظر في وجهــي بعينين ملؤهما الوهن والمحبة ضاحكًا، وبدا لي أنه وجـد سلواه من مرضــه في التخفيف عني، كان يـترنَّم بالمزامير بصوت جميـل، ويطالبنــي أن أشرح له معناهــا، كنت أضحك لأنني موقن أنه يعــرف، وهو يضحك قائلاً إنه يحب أن يسمعها مني، وليس هناك أفضل مــن أن تسمع ما تحب بصوت من تحب، كنت أضعف في النهاية وأرضخ لرغبتــه فأبدأ في التفسير، وأمزج بــين مقولات السكندريين والمقدونيين، وأميل برأسي نحــو خيالات الأفلاطونيين وبــدع الرواقيين، وأقول إن هــذه جميعها رؤى متباينــة، لكنها ليست حاسمة، فاللــه أعلم بحاله، وما نحن إلا قراء لآياتــه وأقواله، كان يهز رأسه وكأنه يستشرف ما ستؤول إليــه الأحوال، وفي النهاية أسلم روحه بأمــان ووداعة كأنه طائر وضع قدميه على الأرض ثم رفرف وطار.

كنــت أول مــن أعلــن للرهبان عن تنيُّحــه، وقبل أن يدخــل أحد عليه أخبرتهم بما قاله لي، مؤكدًا أنه أوصى لأبانوب برئاسة الدير، وأن أبقى في قلايتــه وتحت شجرتــه، فأذعن الجميع للوصيــة، وبدأنا نرسل للناس بتنيــح الأب ديمتريوس تلميذ الأب جبرائيل الملاح ورئيس ديره في جبال القلزم، وانتظرنا ثلاثة أيــام في صلوات وتراتيل دائمة على جسده، فلما اكتمل الوقت الذي حددناه للناس حملناه على محفة ونزلنا ببكرة أبانوب، بينمــا لحق بنــا الرهبان من مجــرى السيل الرابط بــين الهضبة والسفح، حيث أقمنا أول قبر أسفل الهضبة، فدفناه فيه، ووضعنا شاهدًا عليه باسمه وأفضاله، ثم عدنا إلى أعلى الهضبة باكين يتملَّكنا الشعور باليتم.

لزمــت قلاية ديمتريوس، وتخليت عن قلايتي لأحد تلامذتي النجباء، قلــت له إن هذه منحة مني، فيجب ألا يفــرط فيها، وكان الدير يقيم قداسًا يوميًّا على ديمتريوس، حتى مضى أربعون يومًا على رحيله، هنالك قال أبانــوب إنه يجب أن نرسم قسين وخمســة شماسين لخدمة المناطق القريبة من الديــر، فالرعاة صاروا يتكاسلون في صعود الهضبة، ونحن لا نملك

من البركــة ما كان يملكــه المــلاح ولا ديمتريوس، وافقته علــى الأمر، وتركــت له فرصة اختيار مــن يريد ترسيمهم، وجلســت أفكر فيما يجب عليَّ في الأيام القادمة.

كان موقــف أثناسيوســ غائمًــا، فقد غــاب في بلاد أوروبــا أكثر مما نتوقــع، ولم نكن نعــرف إن كان سيعود أم لا، تســرب الشك إلى نفوس الكثيريــن، وانتشر أتباع أريوس في كل مــكان، وبدا كما لو أن المؤمنين بقانــون نيقية أقلية في جحور مظلمة، أصابنــي ذلك بالخوف مما سيأتي، وشعــرت أن عليَّ النــزول إلى الوادي كي أعيد نشــر قانون الإيمان من جديــد، وأن أوضح للناس أخطاء أريوســ وأتباعه، وأن المعركة لم تنته بعد، وأن أثناسيوس عائد إلى كرسيه من جديد.

حــين نزلت مــن على الهضبة وذهبــت إلى البدو والرعــاة في خيامهم ومضاربهــم، وإلى الفلاحين في قراهم وبيوتهــم أيقنت أن الناس قد ملت مــن أتباع أريوس، وأيقنوا أنهم مفروضــون عليهم من قبل الإمبراطور ورجالــه، كان التعاطف مــع أثناسيوس كبيرًا، لكنه تعاطــف المغلوب على أمــره، لم أكــن أفعل أكثر مــن أن أجلســ في خيمة لأحكــي للناس ما حدث في نيقيــة، وأبلغهم مــا وصلني من أخبار عن أبيهم الحبيــب في منفاه البعيد، كنــت بالنسبة لهم الطريــق الذي يعرفون مــن خلاله ما يجــري في أوروبا والإسكندرية وما يجريه الأريوسيون من مؤامرات يخزيهم الرب بفضحها.

ضمنــت لي جولاتــي في الوادي الخروج من حــزني على ديمتريوس وغضبــي لأجــل أثناسيوس، هكذا وجدتني أفــرغ همومي في التعامل مع الناس، واكتشفت موهبتي في خطابهم باللين والمحبة، اكتشفت قدرتي على جمعهــم من حولي، فقد أحبوا بساطتي في التعامل، ولم ينسوا أنني صديق أثناسيوســ ورفيقه في رحلة نيقية، كانوا يسمعــون لي ويطالبونني بمزيد من الوعــظ، وأنا أطالبهم بصعود الهضبة، حيــث يمكنهم حضور قداس الأحد وعظــة أبانوب فيه، وحيث يمكنهم أن ينصتــوا لأصوات الرهبان الرائعة وهم يرتلون المزامير والأناشيد، لكنهم كانوا يقولون إن الوقت لا يكفي للرعي وصعود الهضبة.

أوعــزت لأبانوب أن الدير يحتــاج إلى طبيب، ويحتــاج أن نفكر في طريقــة نضمن بها توافــر الغذاء، فلا يمكننا أن نمضــي حياتنا على هبات الرعــاة، فما كان منــه إلا أن أرسل في طلب طبيب يقيــم معنا في الدير، لكن أحدًا لم يرغب في أن يقيم على هضبة عالية قرب السماء، وإذا تورط يومًا أو يومين فإنه لا يحتمل العزلة والحر وقلة الطعام، لا يحتمل مواجهة السماء وجهًا لوجه في الليل وفي النهار.

في النهاية توصلنا إلى أن نرسل راهبين لتعلم الطب، كانت أقرب المدن لنا هــي ليكوبوليس، لكننا لم نرغب فيها، فأتباع أريوس هناك كثيرون، ولا نريد أن يتسرب إلينــا الشك من بين أيدينا، فنصحته أن يرسلهما لمنف في الشمــال، وفي النهايــة أرسلهما لبعضــ معارفه في طيبــة، حيث تلقيا تعليمًــا لعدة شهور في معبــد إيزيس، ثم عادا لا ليقيما في الدير ولكن ليمرا علــى الرعــاة والمزارعين في قراهــم ومرابعهم، حتى أقــر الجميع أنهما قادران على مداواتهم، فعرفت أقدام الناس من جديد طريق الدير، كانوا يقصدونه من أجل العلاج.

في الطريــق إلى الكنيسة كان الناس يجدون راهبًــا جالسًا أسفل شجرة سدر، يقرأ في كتاب ويخط على ورق أمامه، كنت أنا الجالس أمامهم وهم ينظــرون لي، أنادي من أجد عينه متعلقة بما أفعــل ليجلس ويفعل مثلي، هكــذا جذبت أقدامهم نحوي، فكان الفلاحــون يحملون أولادهم إلى الدير كــي يتعلموا الكتابة على يدي، وكنــت أدرس لهم اليونانية والهيروغليفية إلى جانب مبادئ الحساب والرسم.

لكن أبانوب كان بنــاء حقيقيًّا، فقد شحذ همة رجاله نحو زراعة جانب مــن الأرض النائمة علــى جانبي مخر السيــل أمام الهضبــة، فحفر بئرًا ربطهــا بمجــرى السيــل، وجعلها خزانًا يتســع لكميات كبــيرة من الماء، وجلب أشجارًا على عربات تجرها البغال والجياد إلى الهضبة، حيث حفر حفــرًا عميقــة غرسها فيها، ثم نــزح عليها من مياه البئــر، وبدا الأمر في أولــه أنه لن يكلل بالنجاح، فقد ذبلت الأشجــار وجفت أوراقها، لكن من

قلب الجفاف والموت نبعت الخضرة والحيــاة، رأينا أشجار الزيتون التي أتــى بها من أرضــ الفيروز شمال القلزم، وأشجــار النخيل التي أتى بها مــن الأشمونين في الغرب، ومضت سنوات قبــل أن يتعلم الرهبان كيف يستخرجون الزيت من كليهما، لكنهم كانوا قد علموا كيف يخزنون الثمار ويبادلونها مع الفلاحين والرعاة.

مــا إن وصلني خبر اعتذار قسطنطينوس لأثناسيوس، وسماحه بعودة المنفيــين بسبــب الأريوسيــين لبلادهم حتــى تركت ما في يــدي، موضحًا لأبانــوب أننــي ذاهــب إلى الإسكندرية، كــي أكون في استقبــال صديقي حــال وصوله، فلم يمانــع ولم يبارك، لكنه أبدى تخوفــه عليَّ من السير في موكــب البطريرك، هونت من مخاوفــه، وذكرته أن أثناسيوس ليس مجرد بطريرك، لكنه صديق وأخ يصعب التخلي عنه.

-٧-

في كنيســة العــذراء بجبــل الطير قــادت المفاجــأة دميانــة إلى أن تعلم الكثــير عن يؤانــس، فقد شاهدت رجالــه وهم مجتمعــون كجيش صغير من حوله، جميعهــم يرتدون ملابس رياضية ســوداء، جميعهم يحملون في أيديهــم أسلحة بيضاء، ويجــأرون في الهواء كما لو أنهم يصرون على إخافــة الملائكة في السماء، بدا لها أن الجبل الذي تقوم عليه مغارة الكنيسة أصبــح ساحة للحرب، كانوا يعبرون الموانع ويطيرون في الهواء ويلقون ببعضهم بعضًا على الأرض، كانوا يعملون في حمية ويقين لا مثيل لهما، بينمــا يؤانس جالس على كرسي أمــام طاولة يشاهد العرض الذي يجري أمامه.

عكف يؤانس على هذا الأمر منذ تولى مسئولية النظام الخاص في الأمة القبطية، ورغم أن الجماعة انحلت، وأغلب أعضائها سجنوا وشردوا إلا أنه ظــل مؤمنًا بأن الأمة القبطية تحتاج لمــن يحميها، وعلى مدار سنوات طويلــة ظل رقمًا صعبًا في معادلة الإكليروســ والعلمانيين، رقم لا يمكن تجاوزه لدى كثير من الآباء ورؤساء الأديرة، فهو الذي يمدهم بالرجال القائمين على حمايتهــم، يمكن لرجاله أن يصلوا لمن يريدون وقتما يريد، لكن الأمــور لم تجبره على فعل ذلــك منذ فشلت محاولــة اغتيال يوساب الثــاني، فقد ظل حبيسًا بين جدران السجــون حتى نكسة السابع والستين، بعدهــا خــرج في ظل تغــيرات كثــيرة طالــت المجتمــع ككل، ورغم أن الجماعــة أصبحت منحلة أو محظورة إلا أنها ظلت حية في ذهنه، وثمة ما يدعوه للعمــل من أجلها، هذا الهاجس سرعان مــا تحقق مع مجيء زمن السبعينــات، وظهور الجماعات المسلحة التي بــدأت في إرهاب الأقباط،

وسرعان ما دب الخلاف بين الأنبا شنودة والسادات، فأيقن الكثيرون أن الأمة القبطية في خطر وأنه لا بد من نصرتها، فظهر نجم يؤانس كرجل الضرورة الذي لا غنى عنه.

كان مدهشًا لدميانة أنها ويؤانس والرهبان طوال القامة ليسوا المدعوين فقط لصعود جبل الطير، فقد رأت أناسًا يتوافدون ما بين قسوس ورهبان وعلمانيين، شعرت كما لو أن اليوم عيد العذراء، لكنه بلا احتفالات وطقوس، كان مسموحًا لها أن تتحرك كما تريد، فقد بدت كواحدة من المدعوين، ولم يكن ظهورها نشازًا أو غريبًا، فثمة نساء بين الحضور، لكنها كانت توقن أن هناك من يراقب تحركها من بعيد، خرجت من غرفة الضيافة التي نزلت بها لتنظر المشهد ككل، رأت أن الدير يعلو السفح الأخضر الموشوم بالنخيل والمحاصيل المنزرعة أمامه، رأت الكنيسة وهي شامخة في طريقها نحو السماء، ودفعها حنين قديم لرؤية الوافدين عن قرب.

خرجت من مبنى الضيافة إلى ساحة الدير، واختلطت بالسائحين والزائرين العاديين، دخلت إلى الكنيسة التي زارتها في صغرها مع والدها، تذكرت حديثه عن كيف ساعدت الصخور المليئة بالكالسيوم البنائين القدامى على نحت المذبح في قلب الجبل، تذكرت وجه والدها وحركات يديه قائلاً إن هذه الكنيسة من عمر كنيسة القيامة، دارت بعينيها منبهرة بروعة المكان، إلا أنها ظلت خائفة، فثمة شعور راودها بأن الأحجار الكبيرة التي تعلو الممرات ستسقط على الناس.

حين وصلت إلى المغارة التي أوت إليها العذراء وطفلها أخذت تتأمل الأيقونة الكبيرة لهما، وللحظة ساورها السؤال عن كيف يكون الرب طفلاً رضيعًا، وهل كان ربًّا وهو يمارس أفعال طفولته، أم أن الألوهية لم تنزل عليه إلا ساعة تعميده بالماء؟ كانت تحملق في اللوحة ذات الألوان الزاهية وهي مغرقة في تساؤلاتها، للحظة شعرت أنها تجدف بهرطقات لا ينبغي لها أن تطلقها، فمالت لتقبض على الشمعدان القائم أمام الأيقونة المقدسة لتشعل شموعه.

ضمت يديها أمام عينيهــا طالبة من العذراء أن تنقذها، إلا أنها شعرت أن العــذراء لــن تستجيب لها، وأن أنطونيوس سيظــل بعيدًا، وأن تريزا تعيشــ معاناة ما في مكان غريب، لوهلة شعرت أنها غير مؤهلة للصلاة، فنهضــت وأخذت تشعــل شموعًا أخــرى، حتى أن الرف المعــد للشموع المضاءة امتلأ، وبــدا أسفل أيقونة العذراء أشبه بالنجوم المتلألئة في صفحة السمــاء الزرقاء، حين مرت بعينيها على العذراء لم تشعر تجاهها بشيء، ومــا إن نزلت بطرفها علــى وجه المسيح في طفولته حتــى وجدته يبتسم، لوهلــة شعرت أنــه ابنها، وأنه يتحــرك بداخلها كجنين، شعــرت أنها في حاجــة لأن تنجب طفلاً، وأن يكون من بطنها نسل يملأ الأرض بالخير، لم تشعــر يومًا أنها ترغــب في الزواج والإنجاب أكثر مــن هذه اللحظة، فبكت وجلست في مكانها تصلي.

كانــت الأصوات المحيطة بالمكان قد بــدأت تعلو، لم يكن علوها محض ضجيــج فحسب، لكنه كان أقــرب إلى شجار، لم تكن تعرف من أين أتت كل هــذه الضجــة، لكنها كانت شعــرت أنها قريبة، ربمــا لا يفصلها عنها سوى جدار واحد، فمن أين تأتي الضجة، ومن هؤلاء الذين يختلفون في مكان مقدس.

تتبعــت الصوت حتى وصلت إلى صحــن الكنيسة، حينها رأت منضدة بجانب الهيــكل يجلس عليها يؤانس غاضبًا، وعلــى الجانب الآخر أسقف علمت أنه ممثــل الكنيسة الأم، وفي الوســط كان رئيس الدير الذي تكفل بــإدارة الحوار بين المنضدة وجماعات تفرقــت على الصفوف الخشبية في صحــن الكنيسة، تطلعت إلى شعاع ضوء منكسر وهو يغزو المقاعد الخلفية ليسقــط على وجه رجل بدا كما لــو أنه أنطونيوســ، تعجبت من وجوده في هذا المــكان، وودَّت لو أنها تستطيع تخطي كل هذه الرءوس للوصول إليه، لكن الأصوات التي تعالت جعلتها تفكر فيما اجتمعوا من أجله.

مــا إن أخضع رئيس الدير الأصــوات المتعالية للعقل والحكمة والعودة للهــدوء حتى التقــط ممثل الكنيســة المايكروفون موضحًــا أن البابا حزين

لما يحاك ضده من مؤامرات، وأنه لديه غيرة كبيرة على الكنيسة، ولا ينتظر من أحد أن يعلمه مهامه، لأنه منذ جلس في كرسي مرقس الرسول وهو لا ينام من فرط التفكير في هموم الأقباط ومشكلاتهم، ورغم آلامه المبرحة إلا أنه أصر على سماع شعبه والتواصل معهم، ويؤلمه أن يعتقد ابن للكنيسة أنها تظلمه.

لم يتنتظر يؤانس أن ينتهي معضدو البابا من تصفيقهم، لم ينتظر أن يقدمه رئيس الدير للحضور، لكنه انتزع المايكروفون بغضب وهو يقول:

– إن البابا قال إنه يتشاور معنا حول قانون الأحوال الشخصية، ولم يفعل أحد ذلك، ولو فعل لرفضناه من اللحظة الأولى، لأنه هرطقة وخروج على الإيمان النيقاوي، وما آمن به ديمتريوس الكرَّام حين حرم أوريجانوس وهرطقاته، مرورًا بأثناسيوس الذي تصدى للأريوسيين وهرطقاتهم، وثاؤفيلوس الذي حارب الوثنية في كل مكان، هذا القانون يستحق أن ندعو المجمع المقدس كي يتخذ قراره بعزل ذلك الجالس على كرسي مارمرقس، لانحرافه عن صحيح الإيمان، فما بالنا ببدعته في صناعة زيت الميرون المقدس، واجترائه على إباحة الطلاق كالمسلمين، ورغبته في توحيد المعمودية مع الكاثوليك، وكأن ما حدث في مجمع خلقدونية عام ٤٥١ لم يحدث، وأن دماء الشهداء التي سالت على كل أرض هذه البلاد للحفاظ على الإيمان القويم، على مدار كل هذه القرون، لا معنى لها في عقيدته.

كانت دميانة تنقل عينيها ما بين يؤانس ووجوه الجالسين أمامه، رأت أنهم لا يقلون غضبًا عنه، وما إن انتهى من حديثه حتى هاجوا راغبين في التعليق، وأخذ رئيس الدير يطالبهم بالنظام، فقال ممثل لجماعة حماة الإيمان أن من يتعدد فى أسباب الطلاق كالمحرض على عبادة الأوثان والشذوذ، لا بد من شلحه، ورفع أيقونة أثناسيوس هاتفًا "فى انتظار المجمع المقدس لشلح الهرطوقى"، فهتف كثيرون خلفه بشلح البابا، هنالك ارتسمت أمارات الراحة على وجه يؤانس، وطلب الكلمة من جديد:

– اليـوم ذكـرى نياحـة عمود الدين كيرلسـ الأول الـذى جاهد ضد نسطورس وبدعته، لكن الله لا يترك نفسه بلا شاهد –فى كل جيل– يثبِّت شعبـه على الإيمان القويم، والكنيسة دائمًا فى سـلام ما لم يهيِّج الشيطان أحد خـدام الكنيسة ليحرِّف الايمان، فيضطر القديسـون أن يهبوا للدفاع عـن صحة إيمانهم، ويصير فى الكنيسـة انزعاج وانقسام وجدل، ويظن النـاس أن المدافعين عن إيمانهم هم سبب الانقسام، ويتناسوا أن السبب هو الشيطـان وخدامه من الهراطقة، وما أشبـه اليوم بالبارحة، وما أحوجنا الآن إلى أثناسيوسـ العظيـم وكيرلس عمـود الدين وغيرهـم من الآباء القديسـين الذيـن حفظوا دين الـرب من الهرطقات والبـدع في زمانهم، ويحفظوا كنيسة الرب من الأدعياء والمخالفين.

حين صفـق غالبية من في القاعة أغمض يؤانسـ عينيه بانحناءة رأس بسيطـة، لكن بعضًا من الشباب، حيـث يجلس أنطونيوس متابعًا بحذر ما يجـري، هتفوا ضد من يريـدون أن يشعلوا الكنيسـة حربًا، هؤلاء الذين يديـرون المؤامرات، كي تظل الكنيسة تحـت قبضتهم، مدعين أنهم أتباع مثلث الرحمات، ومثلث الرحمات منهم بريء، مؤكدين:

– كنيستنا واحدة، وستظل دون انقسام أو احتياج لأحد.

بطريقـة الساحـر حين يقف علـى المسرح ويخـرج من قبعتـه أرنبًا، وقف يؤانس أمـام المنضدة وشكر الجميع على حسن ظنِّهم فيه، ثم أخرج مـن طيات ثيابه كتابًـا على غلافه صورة القديسـ أنطونيوس، ولوح به للشبـاب الهاتفـين ضده، كانت دميانة تعرف هـذا الكتاب، فقد حققت مع أنطونيوسـ بسببه، نظـرت بعينيها نحـو الأخير في نهايـة الصفوف فلم تجده، عادت بوجهها نحـو يؤانس فوجدته يسأل الجالسين أمامه عن اسم الكتـاب وصاحب الأيقونة، والناس تجيبه بأنه سيرة القديس أنطونيوس، لكنه يفاجئهم بنزع بعض من صفحاته قائلاً:

– ستكون ديانتكم جميعًا كهذه الهرطقات.

حـين ينظـر فيها الحضور يجـدون أنفسهـم أمام الرسالـة الأولى من رسائل أوريجانوس للبابا ديونسيوس، كان ينزع أوراق الكتاب وينثرها عليهم، قائلاً بكل ما أتاح له سنه من غضب:

– هذا ما تطبعه كنيستكم الموقرة الآن، هذه الهرطقات ستقضي على كنيستكم، فاقرأوا كي تعلموا من أين تجيئكم الهرطقات.

حينها نهض الشباب الذين في مؤخرة الصفوف هائجين متهمينه بالتآمر، ونزل بعضهم من أماكنهم متجهين نحو المنصة بغضب واضح، فاشتبكت معهم جماعة حماة الإيمان وجماعة العظام الزرقاء وصخر الكنيسة، والتف طوال القامة حول يؤانس ليحموه، ويخرجوا به بعيدًا عن المعركة التي دارت بالأيدي والأقدام بين الجماعات المقدسة. في ذلك الوقت بحثت دميانة بعينها عن أنطونيوس، رأت ظله وهو يخرج من الكنيسة، وشعرت أن كلب السماء أخذ يلهث في أذنها، فانتابتها قشعريرة خوف واضحة، وتركت قدميها تتسللان من بين الأيدي والأقدام المتشاجرة لتلحق بأنطونيوس.

كان طوال القامة مشغولين بحماية يؤانس، مصطحبينه إلى مبنى الضيافة في الدير، بينما انتشر عدد ممن كانوا في صحن الكنيسة خارجها، كانت دميانة لا تعرف أين يمكنها أن تذهب بعيدًا عن الكلب السماوي، رأت المساحات الواسعة تسحبها للنظر في البعيد، وبوابة الدير تفتح ذراعيها لها، تركت قدميها ونفسها المقبوض يقودانها بحثًا عن الهواء النقي، كانت تسمع الصوت السماوي وهو ينفلت من السلاسل التي قيدته، بينما قدماها تتحركان على الرمل والحصى كما لو أنها تتقافز على سجادة من هواء، عبرت بوابة الدير وأسلمت نفسها للمنحدر المتجه إلى صفحة النيل، وكلما زاد تقوس الجبل وميل المنحدر وجدت نفسها على وشك أن تطير، كانت دموعها تسيل وهي تصلي بداخلها مستنجدة بأنطونيوس، لم تكن تبتهل إلى الله ولا العذراء، لكنها كانت تنتحب من أجل أن يظهر أنطونيوس. حين ظهر بطوله الواضح ولحيته الكبيرة ومسوحه الطويلة كان الكثيرون يهتفون فيها بالتوقف، لكنها كانت كسهم انطلق من قوسه نحو هدفه المنشود.

-٨-

رسائل أوريجانوس (١٥)

كانــت أحوالي في قيصرية قد أصبحــت طيبة، فقد ذاع صيتي أكثر مما كان عليــه في الإسكندرية، وأخــذ الكثير من القساوســة والأساقفة يجيء لسماع عظتي، بعضهم كان يسأل عن أمور لم يكن يعيها جيدًا، وبعضهم كان يأتــي لمحاورتــي، لكن الغالبيــة كانت تجيء لتكون مــن التلامذة أو الأصدقاء أو حتى ممن التقــوا بي وسمعوا مني، كنت أرى كل ذلك نوعًا مــن الوهم أو الحلم الــذي سرعان ما سأستيقظ منه، فقــد كان لديَّ ما هو أكــثر منه في الإسكندرية، وكنت في يوم الرجل المقرب من الإمبراطورة مامسيا، وكنــت أنزل في ضيافة أساقفة روما واليونان، وكثيرًا ما ذهبت في رحلات نائبًا عن البطريرك، كل هذا في لحظة زال وانتهى، وصرت منبــوذًا مــن قبل الجميع، وأصبــح عليَّ أن أدافع عــن نفسي، صرت بلا وطــن ولا بطريرك ولا كنيســة، فما الذي سيفيده لي مجــيء العالم لينام أمام بيتي وأنا بلا بيت؟

تركــت بيتي للنساخ ولمريدي التعلــم في مدرسة قيصرية، وانتقلت من جديــد إلى البيت الذي اشــتراه لي صديقي أمبروسيوســ، كان بيتًا كبيرًا ومتعــدد الغرف، لكن الكتب التي حملها معه مــن الإسكندرية استحوذت عليــه، ففيه مكتبة والدي، ومكتبتي التي كونتها بجهدي طوال سنوات في الإسكندريــة، ومكتبة السيدة أوثاكا نيكيدا التــي رعتني بمالها وعطفها في صباي، وحين حضرتها الوفاة أصرت أن تكون المكتبة التي طالما تركتني أبيــت فيها إرثي منهــا، أما مكتبة أمبروسيوس فقــد كانت مخطوطات بلا حصر، جمعها عن أبيه وجده، فضلاً عن جهده في جمع كل ما عنَّ له.

كانت السفينة التي نزل بها أمبروسيوس حدثًا فريدًا في قيصرية، فلأول مرة يرى الناس سفينة كل حمولتها من الكتب، حين فاجأني بالتلال التي أحضرها جلست أضحك حتى دمعت عيناي، وشعرت أنني لأول مرة أضحك منذ سنوات طوال، لم يكن أمامه سوى أن يبحث عن بيت ليضع فيه كل هذه الكنوز بشتى اللغات التي نعرفها، بينما عكف النجارون على صناعة أرفف تليق بكامل الجدران، حتى لم يبق مكان يقيم فيه، فما كان منه سوى أن تنازل مختارًا لي عن هذا البيت قائلاً إنه يريد أن يتزوج ويتمتع بالحياة، وليس لديه رغبة مثلي في حياة النسك، تفهمت رغبته في الاعتذار لي، وتعويضي بمكتبة عن مدينتي التي فقدت، فهززت رأسي مبتسمًا وشاكرًا في نفس الوقت.

كان أمر المكتبة حدثًا فريدًا، ويصعب عليَّ أن أتركها للحشرات كي تسكن فيها، لذا خصصت لها خادمين لرعايتها، وتركت لمن يريد القراءة أن يقيم ويقرأ، ولمن يريد أن ينسخ منها ما يشاء أن يجلس وينسخ، فصارت قبلة للكثيرين، حتى ظننت أن الناس ما كانت تأتي من أجلي، ولكن من أجل المكتبة وما فيها من معارف وعلوم، ولم أدرك حقيقة الأمر إلا بعدما وجدت الناس تجلس حيثما أجلس لتسألني، فأدركت أنني أستاذ اللاهوت ورئيس المدرسة، وأن المدرسة ليست سوى شخصي، فحيث ذهبتُ ذهبتْ معي، وحيث جلست تصبح المدرسة، وصار تلامذتي يرافقونني في سيري ومقامي طيلة الوقت، حتى أنني كنت أهرب منهم ومن الناس، وأبحث عن مكان أنام فيه، وكلما سمعت بمكتبة في مكان كنت أذهب إليها، فأطلع على ما فيها، ولا أخرج منها حتى أشعر أنني ألممت بكل ما تحتويه، فأتركها إلى غيرها، حتى أن أصحاب المكتبات كانوا يرسلون في استضافتي كي أقرأ ما لديهم، ويغرونني بكل جديد لم أطلع عليه، لأذهب وأقيم ويجتمع الناس حولي هناك، ويبدأ النساخ في كتابة ما أمليه عليهم.

ظلت الحياة على وتيرتها الجيدة حتى جاء ماكسيميانوس التراقي إلى الحكم، وكما تعلم يا صديقي، كان مهووسًا بفكرة محو المسيحية عن الأرض، هكذا قال لأعوانه ورجاله، طالبًا منهم ألا يتركوا مسيحيًّا في

شارع أو بيت، وأن يعذبوا الجميع حتى يقدموا الأضحيات لأرباب روما وآلهتهـا، في ذلك الوقـت كان صديقي فرمليانوس الكيبادوكي قد أصبح أسقفًـا على قيصرية كبادوكيـا قرب البحر الأسـود، كان الرجل قد قطع المسافـات الطويلة وجاء من أجلي في قيصريـة فلسطين، فقررت الذهاب لتهنئتـه، ولم أكـن نزلت كبادوكيا من قبل، وجـدت كنيستها محفورة في الجبـل، لم تكن وحدها التي نحتـت في الجبال، فبيـوت العامة والأغنياء أنفسهـم حفرت في الجبال، وبدت لي في حـد ذاتها آية رمزية إلى ملكوت الله الثابت، فتعجبت من سحرها ومتانة بنائها، وصعوبة الوصول إليها، وقـوة أهلها وبأسهـم في البناء وإعمار المدن، أعجبتهـم إشادتي ببلادهم، وأصـروا أن أبقى معهـم فترة لأعظهم، وليتعرفوا علـى رأيي في بعض المسائل التي تحدث فيها السابليون وغيرهم، فرضخت لطلبهم، ويبدو أن القدير كان قد قدَّر لي أن أجيئهم في ذلك الوقت الذي أمر فيه ماكسيميانوس رجاله بسجـن وتعذيب رجال الدين المسيحيين، وجعـل الشعب كله يقدم الأضاحي للأوثان.

كانت أيامًا عصيبة، ولم يسمح لي فرمليانوس بالخروج من كيبادوكيا، فقـد تفننوا في إخفائي عن الجنود والعيون، وكانت المدينة محض مغارات وسراديب محفورة في الجبال، ومن البدء يصعب الوصول إليها أو دخولها بقوات كبيرة، فكان الجنـود يتجاهلونها كما لو أنها ليست موجودة، ما لم تكـن هناك أوامر واضحة لهم بالقبض علـى شخص بعينه، ولا أعتقد أن أمـري كان يهم الإمبراطور إلى حد أن يرسـل قوة لمطاردتي بين شقوق الجبال، لكنهـم ألقوا القبض على صديقـي أمبروسيوس وبروتوكتيتوس كاهـن قيصرية، فوضعا في السجـن وعذبا عذابًا شديـدًا، ومثلما أرسلت لوالـدي في سجنه برسالـة تحضه على الاستشهـاد، ووضعت كتابي عن الاستشهـاد في زمن اضطهاد الإمبراطور ساويرس كي أحض الناس فيه على التمسك بالإيمان والاستشهاد من أجل المسيح، فقد كتبت رسالة طويلة إلى أمبروسيوسـس وبروتوكتيتوس أوضح لهما فيها أن الاستشهاد هو أحد البراهين علـى صحة الحق المسيحي، بوصفه استمـرارًا لعمل الخلاص،

فمثلما افتدى المسيح بنفسه البشرية من خطيئة آدم، فإن المستشهدين يفتدون إخوانهم بأنفسهم من عذاب الجبابرة الطغاة.

في أيام بقائــي في قيصرية كبادوكيا وصلت إلى فرمليانوس رسالة من إسطفانوس أسقف روما يحــرِّم فيها تعميد التائبين الراجعين إلى الكنيسة. كان فرمليانوسـس يقبل معمودية الراجعــين إلى الكنيسة من الهرطقة، كما يحــدث في كنائس الإسكندريــة وآسيا، وكان ترتليــان فليسوف قرطاجة الشهير قد كتب رسالة كبيرة ضد قبول معمودية الهراطقة، رافضًا عودتهم لكنيســة الرب، هذه الرسالة آمن بهــا إسطفانوس في روما، وأخذ يراسل الأساقفة في الشرق والغرب طالبًا منهم ألا يقبلوا العائدين من الهرطقة.

عرض علــيَّ فرمليانوس الرسالة التي جاءته من إسطفانوس، ووقف الكبادوكيــون ينتظــرون منــي ردًّا يكتبونــه في رسالتهم إليــه، فتعجبت من هــذه القدرة على الحرمان مــن ملكوت الله، كما لــو أن الرب جعلنا أبناءه كي نمنع الناس عن دخــول ملكوته، فرفضت رسالة إسطفانوس، وقــررت أن أكتــب ردًّا على رسالة ترتليان، الــذي لم يسلم من السقوط في هرطقة المونتانيين، فقد ادعــى رئيسهم مونتانيوس أن النبي ليس أكثر مــن آلــة موسيقية يلعب عليها اللــه، ومن ثم فما يخرج مــن فم النبي ليس كلامًــا بشريًّــا، إنما هو وحــي ورؤى إلهية، وزاد في الأمــر فادعى أنه هــو البارقليط الموعود بــه في الإنجيل، وأنه يتمتع بوحــي الروح القدس الــذي ينطــق على لسانــه، وأخذ يتكلم بحالــة من الدهشــة والذهول أمام الناســ كما لو أنه يتحدث برؤى إلهية، مما جعــل أصحابه يحسبونه نبيًّا، هؤلاء المنتانيون وصفهم إكلمندس بأنهم أنبياء كذبة، ووعد بتصنيف كتاب اسمــه "النبوة" للرد على زعيمهم مونتانيوســ وأفكاره، وكنا نتصور أن ترتليان، الفليسوف والمفكر القرطاجي الشهير لن يسقط في حبائل مثل هذا المهرطق وأتباعه، لكنه سقــط فيها، ومن فرط حماسه وقناعته بها طالب بعــدم قبــول من لم يؤمنوا بهــا، بوصفهم مهرطقين، ثم مــر الوقت لنجد إسطفانوســ الآن يتبنى ترتليان، دون أن ينتبــه إلى أن ترتليان خطَّأ قبل موته آراء مونتانيوس وتأليهه لنفسه.

هكذا قلت لفرمليانوس ومن جلسوا ينتظرون مني ردًّا على رسالة إسطفانوس، فكتب إليه منتقدًا تدخله في شئون الكنائس الأخرى، ومطالبًا إياه بالالتزام بوحدة الكنيسة، كان رد فرمليانوس قويًّا وقاسيًا، دون أن يتطرق إلى مزيد من الجدل، أو إعلان رأي واضح، فقد سعى لغلق الباب سريعًا، دون شرح الأسباب والدوافع، وهو ما اعتبرته خطأ في الطرح، لأنه إذا كان يغلق باب الجدل فإنه أيضًا يغلق باب المنطق والعقل، والإيمان لا بد أن يقوم على العقل والمنطق، فما يرفضه العقل ولا يقبل به، لا يمكن اعتباره في صحيح الإيمان، لأن الله لم يخلق لنا رءوسًا كي نحفظ فيها أوامر ونواهي، ولكن للناقش سنة الكون ونتعلم من حكمته وبديع صنعه، والمنطق يملي علينا أن نفتح أذرعنا لكل شارد يرغب في العودة إلى كنيسته، فليس من العقل أن الله خلق الحياة لأجل أن يعذب البشر، ولا أن يتصيد لهم الأخطاء، ولكن لأن يدركوا أنه الإله العظيم القدير، ولو كان يترصد ويتصيد ما افتدى البشرية بنفسه، وما تجسد في هيئة بشري كي يكون مثالاً لهم في الفداء والرحمة، فهل يعقل أنه سيرفض الراغبين في العودة إلى حظيرته؟ كانت هذه الأسئلة بداية ما تحدثت به في كبادوكيا، ورحت أعظ الناس بأن يفتحوا أيديهم للعائدين من الضلال، لأن الله لا يرغب في تعذيب البشر، لكنه يرغب في خلاصهم من الآثام والشرور.

-٩-

كان مــن المفترض أن نخرج من الكنيسة ونعود مــن حيث أتينا، لكن أنطونيوســ الذي عاد إليه حس قاطــع الطرق فرد طوله بملابسه المتسخة ووقف في وجه أحد القساوسة المتعجلين في الردهات الداخلية قائلاً:

- ماذا يفعل يؤانس هنا؟

لا نعرف هل تصــور القس أن أنطونيوس يعرف شيئًا أم لا، لكنه رد عليه في نبرة ساخرة وهو في عجلة من أمره:

- غير مقتنع بالبابا.

كانت هذه الجملة كفيلة بأن ترفع قرون الاستشعار لدى أحمد ونائل إلى عنــان السماء، ونظر كل منهما إلى الآخر موقنًــا أن ثمة خلافًا على البابا الجديد، وربما تصل الأمــور إلى حالة من الانشقاق أو السعي لشلحه من منصبه، شعرت أن كلاً منهمــا مبالغ إلى درجة لا يمكن قبولها، فمنصب البطريرك منحته يد الــرب لصاحبه، ولا ينتزع إلا بيد الرب من جديد، وليس من السهولة الحكم بخلعه دون مجمع مقدس، وهو الوحيد الذي في يــده دعوة المجمع للانعقاد، لكن أنطونيوس أوضح أنه لا يوجد مستحيل، والعــالم علــى حافة الجنون، وكل مــا يحدث لنا هو جزء مــن تفاصيل لم نستطع إدراكها بعد.

قررنــا في ذلك الوقت ألا نمشي مجتمعين وكأننا في حالة تجمهر، وأن نسعى لتلقط الأخبار عسى أن نفهم شيئًا مما يجري، اصطحبت نائل واتجهنا من جديد نحو مكتب أسقف التحقيقات، بينما رغب أنطونيوس في الصلاة بالكنيســة البطرسية، فاصطحب معه أحمــد ليتعرفا عليها، حيث وقفا أمام الحوض الرخامي الــذي في مدخلها، وتطلعا إلى صفــي الأعمدة الكبيرة

المحيطة بصحنها، وفيما جلس أنطونيوس يصلي أخذ أحمد يتأمل جدارية يوحنا المعمدان وهو يعمد المسيح في مياه نهر الأردن، واللوحات التي علت الأعمدة الرخامية، حيث قدم فيها الفنان الإيطالي بريمو بابتشيرولي حياة المسيح والرسل والقديسين، وحين وصل أحمد بخطاه على مقربة من الهيكل، حيث أيقونة المسيح الجالس على العرش وعن يمينه العذراء وعن يساره مرقس الرسول، سمع اسم يؤانس ينطلق بين اثنين من الأساقفة، فأرخى سمعه لتتهادى إليه الكلمات المعبرة عن غضب يجتاح الكثيرين، فلا يمكن القبول بتوحيد العماد مع الهراطقة، والكرازة ليست لعبة في يد أي من كان، ولا بد من وضع حد لانتشار المهرطقين فيها.

كانت الكلمات تتقطع وتتواصل، تخفت أحيانًا وتعلو أحيانًا، لكن الأسقفين كانا منغمسين في حديثهما بغضب، ظلا يتناقشان دون انتباه إلى أن ثمة من ينصت إليهما، وحين ظهر أحد طوال القامة بالباب، لمس أحدهما يد الآخر مومئًا بضرورة تركه، فهز الآخر رأسه بالموافقة ثم اعتدل في اتجاه الهيكل وأخذ يصلي.

اتجه أحمد نحو أنطونيوس وجلس بجانبه قائلاً إن ثمة أمورًا غريبة في المكان، أنهى الأخير صلاته وخرج من الكنيسة ليلحق به أحمد، وبدآ في البحث عني أنا ونائل، كنا قد وقفنا أمام باب أسقف التحقيقات كما لو أننا في انتظار الدخول، لم نكن وحدنا المنتظرين، فكل من أخرجهم طويلو القامة ظلوا واقفين، رأينا أحد المطارنة يجيء مسرعًا وخلفه أسقف وقسيسان، أفسحنا لهم الطريق للدخول، تأكد لنا جميعًا أن الأمر سيطول، انتحيتُ بقس كان في الداخل وخرج معنا، سألته عن الراهب الذي أخرجونا من أجله، قال إنه الأب يؤانس المسئول عن أمن الأديرة، ويبدو أن هناك مشكلة لديه. كان فضولي سيقتلي وأنا أتساءل عما إن كان للأديرة أمن، فنظر لي الرجل كما لو أنني أسعى لاستدراجه كي يفصح عن واحد من أسرار الكهنوت، حاولت أن أخبره أنني لا أعرف سوى الكشافة الذين يساعدون في الاحتفالات، فهز رأسه:

– الدنيا معقدة.

ثــم نظر في الناحية الأخرى معبرًا عن عــدم رغبته في الكلام، أسفت علــى خيط الحديث الــذي انقطع، وعدت بنظري أبحــث عن نائل، كان قــد أغلق كم قميصه علــى رسغيه وأخذ يلقي سمعــه إلى كل ما يتهامس به الآخرون، تركتــه يرسل أذنه حيث يشاء وتفحصت المكان بحثًا عن أحمد وأنطونيوســ، حين رأيتهما قادمين مــن نهاية الممر المـؤدي إلى الكنيسة البطرسية اتجهت للقائهما.

لم يمضــ كثير مــن الوقت حتى انفتــح باب مكتب أسقــف التحقيقات، وخــرج يؤانســ ورجالــه وبعضــ القساوســة والأساقفة، لكــن أسقف التحقيقــات لم يكن من بينهم، ورفض القســ المسئول عن مكتبه أن يُدخل أحدًا، فظل الناس واقفين أكثر من نصف ساعة قبل أن يفتح لهم الباب من جديد، حين عاد نائل إلى مديــر المكتب ليسأله من جديد عن المحققة دميانة التــي كانت في دير الملاح، والتي لا يعرف أهلها عن مصيرها شيئًا، رفع الرجل حاجبيه سائلاً:

– هل تقصد دميانة صلاح؟

– نعم.

أغمض عينًا وفتح أخرى ثم نهض من مكانه قائلاً:

– انتظرني.

غاب مدير المكتب في غرفة أسقف التحقيقات دقائق بدت كالدهر، حتى أن أنطونيوســ همســ في أذن أحمد أنه مرتــاب في الأمر، ثم جذبني من يــدي لنكون على مسافة ونرقب ما يجري من بعيد، فنحن لا نملك أوراقًا ولا حمايــة من أحد، وضعنــا أنفسنا مع المنتظريــن دورهم في الدخول، بعدها خرج المدير طالبًا من نائل وأحمد مقابلة الأسقف، وسرعان ما عاد يسألهما:

– هل كان معكما أحد؟

هز كلاهما رأسه بالنفي، فضغط لهما على أكرة الباب.

وقفنا في الخارج ننتظر ما ستسفر عنه المقابلة، لم يكن لدينا أفكار كبيرة عمـا يجري، وكنا نتصور أن الأسقف سـوف يعدهما بالبحث في الأمر، وربمـا يتصل بالدير لمعرفة الموقـف، فبحثنا عن مـكان نجلس في انتظار خروجهما، كان أحد القساوسة يحمل ورقة ملونة وبها كلمات بالإنجليزية والعربية، حين رآني أتلصص على ما فيها ابتسم قائلاً:

– هذه مواقع إلكترونية ضالة.

لم أستوعـب ما قاله، فراح يشرح لي أنها صفحات على الفيس وتويتر وغيرهمـا، لكنهـا صفحـات ومواقع تهـدف لهـدم الكنيسـة، فأصحابها يهاجمون البابا ويعترضون على سياسته، معترضين على قانون الأحوال المدنية، معتبريه يبيح الطلاق كما يفعل المسلمون، حينها تدخل أنطونيوس سائـلاً القس عن موقفه هو، فرد أن الطلاق ليـس له علة غير الزنا، فما جمعه الرب لا يفرقه الإنسان، ولا يجب التحايل عليه. سألته إن كان يؤيد ما تقوله المواقع الضالة، فنظر نحوي بارتياب قائلاً إنه لا يؤيد أي انشقاق في صفـوف الكنيسة، فالمسلمون ينتظرون خطأ واحدًا كي يدخلوا ويعبثوا في ديننا.

لم نرغـب في إثـارة غضب الرجل أكـثر من ذلك، هو بـدوره شعر أننـا غرباء على المكان، وربما نكـون من جهة ما تراقب وترصد، فجمع أوراقه وأبعدها عن تطلعي، فنظر إليه أنطونيوس وكأنه يتهمه بشيء ما:

– هل يؤانس هنا من أجل ذلك؟

لكن الرجل أغلق الباب كاملاً:

– أنا لا أعرف يؤانس ولا غيره.

هكـذا قالها وهو ينهض من مكانه متجهًا نحو بـاب مدير مكتب أسقف التحقيقات، فتركناه ورحنا نتحدث عن الأسباب التي تجعل رجلاً كيؤانس يترك دير النساخ في الجنوب ليأتـي إلى العاصمة، لكن أنطونيوس الذي شرد بذهنه انتبه فجأة نحوي قائلاً:

– دميانة!

سألتــه عما يعنيه فقال إنه يشعر بوجودها، وهو أمر لم يشعر به منذ كنا في دير الزاوية، كان شعوره يزداد قوة وكأن شيطانًا قد تلبسه، حتى أنه أخذ ينظر بعينيه كما لو أنه سيجدها واقفة أمامه، للحظة تصورت أن عقله قد شــط، أو أنه أوشك على الجنون، لكنني بعد قليل تذكرت أنني شعرت بوجــوده هو حين كنت في دير المحــرق، فهل يمكن أن تكون دميانة هنا، وهــل يمكن أن يكون يؤانس في الكاتدرائية من أجل دميانة، هل يمكن أن يكون يوساب ورهبانه طوال القامة على علاقة بيؤانس؟

كانــت الأسئلــة تتوالى على ذهنــي ويرددها لساني، بينمــا أنطونيوس ينصــت ويشجعنــي بعينيه على أن أكمــل، كنت أحــاول أن أربط بين ما أقوله ومــا سمعته في دير الملاح، لكن جلبة حدثت إثر ارتفاع صوت أحد الزائريــن صارخًا بأنهم يريــدون قتله، وعلى الكنيســة أن تحميه منهم. لم نكــن الوحيدين الذين ذهبنــا لنستطلع ما يحدث، لكننــا الوحيدين الذين وصلنــا شعور بأن الخلافات ازدادت داخل الكنيسة، حتى أن الرجل أخذ يصــرخ بأنه يريد مقابلة البابا، وأنه لن يتحرك من مكانه دون لقائه، مما اضطــر القساوســة الذين تجمعوا للتعامل مع مشكلتــه أن يخبروه أن البابا غير موجود، ولا أحد يعلم متى يمكنه أن يأتي، فقد دخل في نوبة اعتزال وتأمل بأحد الأديرة، ولا يمكن التنبؤ متى سيخرج منها.

ربمــا كان الرجــل يعاني هلاوســ مرضية، وربمــا كان هناك تهديد حقيقي، فالسلفيون يضيقون علــى المسيحيين، والدواعش يستهدفونهم في سيناء، أما ما يجري في الجنوب فهو ما لا يريد أحد الاعتراف به، وليس أمام المسيحيين سوى الصــبر والاحتمال، أو مطالبة البابا بما لا يملك ولا يستطيــع، فهل ساد الجنون الجميــع، أم أن العالم مندفــع للصدام بأقوى وأسرع مما يتوقع أحد. انسحبنا من الحلقة المضروبة حول الرجل، قائلين لأنفسنــا إنه لا يريــد البابا، لكنه يبحث عن يؤانــس، فنظر لي أنطونيوس مؤكدًا أنه لا يستبعد أن يكون يؤانس نفسه هو الذي أرسله، وأن هذا الفعل الجارح لهدوء الكنيسة لا يملكه غير رجل راغب في الصدام، فهل يؤانس يملك هذه القدرة، أم أنه نفسه مجرد مقدمة لرجل آخر ينام في الظل؟

خــرج أحمد ونائل مــن مكتب أسقـف التحقيقات وأخـذا يبحثان عنا، حــين التقينا سألناهما عما حدث، قالا إن الديـر لا يعلم عنها شيئًا، فحسب التحقيقات التي لديهم أن دميانة هي التي طلبت من رئيس الدير العودة إلى القاهرة لأن والدتها مريضة، حتى أن الأب يوساب أحضر لها باصًا، وقام بتوصيلها من غرفة إقامتها إليه، ومنذ ذلك اليوم والدير لا يعلم شيئًا عنها.

بـدا أن الأمـر يحتـاج إلى جلسة لمناقشة مـا سمعـاه، ومطابقته مع ما شاهدتــه بنفسي وما جرى معي في التحقيـق، قررنا الخروج للجلوس في أقرب مقهى للتفكير في الأمر، لكننا على البوابة التي دخلنا منها في الصباح وجدنا أمين شرطة يستوقفنا طالبًـا أوراق هويتنا، تساءل أحمد ونائل إن كان ذلك يحدث أثناء الدخـول أم أثناء الخروج؟ فأجابه ضابط الأمن أن ثمة بلاغًـا بوجود شخص مجهـول الهوية يسعى لعمـل إرهابي، أخرج أحمد ونائل أوراقهما، ووقفت أنا وأنطونيوس لا نعرف بم نجيب. حاول أنطونيوس أن يرسم دور المتسول المجذوب، بينما وقفت أرتعد في جلدي بجانــب نائل، وفي النهاية رفع الضابط عينــه نحوي سائلاً عن أوراقي، فأجابه نائل بأنني ضيفه من أسيوط، وأنني نسيت أوراقي في البيت، فهز رأسه وسمح لي بالمرور، وحين جاء الدور على أنطونيوس، غيَّر الأخير مــن صوته وزاد من اعوجاج فمه ويديــه، متحدثًا بطريقة غير مفهومة، فما كان مــن الضابط إلا أن أشار لمن معه بالقبضـ عليه، حاول نائل أن يتدخـل، لكن الضابــط غيَّر ملامحه وهو يأمرنا بالخــروج، فما كان من الجنود إلا أن اتجهوا نحونا ودفعونا خارج البوابة.

-١٠-

عاد أثناسيوس إلى أرض الإسكندرية من جديد، وخرجت الجماهير الغفيرة لترحب بوجوده بينها، وكأنها كانت تبعث رسالة للإمبراطور بأن أثناسيوس هو الذي يمثلها، وأن ذلك البطريرك الذي عيَّنه لكنيستها لا يمثل سوى نفسه. دامت الأفراح نحو شهر كامل في شوارع المدينة العظيمة، وتفنن النحاتون والرسامون في عمل تماثيل وأيقونات للمسيح والعذراء والباباوات المصريين، تفنن الشعراء في نسج قصص عن أثناسيوس المنتصر ورحلته الطويلة، وجلس الأخير يستقبل في مقر الكنيسة الوفود التي جاءت إليه كما لو أنها ترغب في تجدد إيمانها على يديه.

كان أثناسيوس متعطشًا لإعادة تعميد البلاد وفقًا لقانون الإيمان النيقاوي، فلم يمضِ أسبوع على وصوله الإسكندرية حتى أقام القداس الإلهي في مسرحها الكبير بحضور نائب الإمبراطور وعدة آلاف من الرومان واليونان والمصريين واليهود المتنصِّرين، في هذا اليوم رسم أثناسوس عددًا من الشمامسة قساوسة، وعددًا من القساوسة أساقفة، وعمَّد الراغبين في دخول المسيحية، وعقد إكليل الراغبين في الزواج، ولم تمضِ أسابيع حتى دشن كنيستين بالمدينة، وأعلن عزمه على القيام برحلة للَكنائس والأديرة البعيدة.

تركت أبانوب في دير الملاح ونزلت الإسكندرية بمجرد معرفتي نبأ عودة أثناسيوس، شعرت أن الروح ردت إليَّ، فلم أنتظر أن أركب بكرة أبانوب وهرولت على المنحدر غير عابئ بالأحجار التي تملأه، كان في صحبتي راعٍ تبرع بأن يحضر حصانه ليوصلني للمدينة، وأصر تلميذي جورجيوس علَى أن يصحبني، رافضًا أن أنزل المدينة وحدي، فجهز الراعي حصانين، حملني على واحد، وامتطى هو وجورجيوس الثاني،

وظللنـا نقطع المسافات حتى وصلنا الإسكندريـة قبل نزول أثناسيوس من سفينته إلى شاطئها بيوم واحد.

التقـاني الجميع بمحبة غامـرة، والتقيتهم بوحشة لم أكـن أتوقعها، فقد جعلنـا الفرح في حالة من التسامي لا حـدود لها، وانصهرنا في العمل من أجـل خدمة الآخريـن، حتى أن الراعي ظل عـدة أسابيع غير راغب في العـودة، أما جورجيوس فقد أبى أن يـترك المدينة ويعود إلى الصحراء، قـال إنه يرغب أن يتعلم فيها مثلما تعلمـت، وأن يكوِّن صداقاته بها مثلما كوَّنـت صداقاتـي، فشعرت كما لـو أن شيئًـا مني ينمو أمامـي، فودعنا الراعي وعدنا للعمل مع الآباء والأساقفة فيما كلفنا به.

ظللـت أؤجل رغبتـي في معرفة ما جـرى مع أثناسيوس في أوروبا حتى فاجـأني برغبته في القيام من جديد برحلتنا نحو الجنوب، كان الأمر بالنسبة لي مفاجأة كبرى، فقد تصورت أن السنوات والأحداث قد باعدت بيننـا، وأن هنـاك من هـو أقرب إليه منـي الآن، لكـن الرجل ظل على عهـده ومحبتـه، فأخذت في التجهيـز للرحلة، ومـن سيصطحبوننا ومن سيبقون لأداء المهام الروحيـة، وألححت على أثناسيوس أن يرسل لنائب الإمبراطور كي يعد حامية لحراستنا، لكنه رفض قائلاً:

– كنـت أتحـرك في جبـال أوروبا بمفـردي، فهل أصطحـب حامية لحراستي في بلادي؟!

أبديت له تقديري لفكرته ومشاعره، لكنني كنت أدرك طبيعة الأرض التـي سنتحرك فيهـا، فذهبت لقائد حرس حاكم الإسكندريـة، وأخبرته بأهميـة حماية البابا في رحلته ولو من دون علمه، ثم أرسلت لأبانوب أن يبعث لنا بخمسة من الرهبان القائمين على حماية الدير، وأبلغت أثناسيوس أنهم نساخ سنحتاجهم لكتابة العظات التي سيلقيها على الشعب.

كانـت القافلـة مكونة منـا وثلاثة قسوسٍ والرهبان الخمس، وكان أثناسيوس يؤنبني كلما تأخرنا في حركتنا قائلاً:

– لقد صرنا كالملوك نسير في المواكب.

وكنت أضحك موضحًا أن هذه الأرض سقطت سبع سنوات كاملة تحت وطأة الأريوسيين، وهناك من فرحوا بعودته، وهناك من كظموا غيظهم، ولا بد من الحذر، فكان يسخر من حديثي قائلاً إنه لا حذر يمنع قدرًا، وكنت أسخر من نفسي قائلاً:

– وماذا لو علم أن رجال الحاكم يتابعوننا عن قرب ملابس عادية.

كنت أعرف سيماهم على جسور النيل ومدقات الصحراء، كنت أشعر بأنفاسهم وهم يسيرون أمامنا أو خلفنا، لكني لا أحادثهم ولا هم حدثونني، ولا أخبرت أثناسيوس بأمرهم، ولا هو فكر في سؤالي عن شأنهم.

مررنا بعدد من الكنائس في طريقنا من الإسكندرية إلى منف، حيث ألقى أثناسيوس بعض عظاته ورسم قساوسة وأساقفة بكل منها، ثم صعدنا إلى الأشمونين، حيث الكنيسة الجديدة التي أمرت الإمبراطورة هيلانة ببنائها على المغارة التي لجأت إليها السيدة العذراء وطفلها، وهناك رسم أثناسيوس رئيسها أسقفًا، ورسم معه اثنين من تلامذته قساوسة، ثم صعدنا إلى لكيوبوليس، وهي معقل الأريوسيين والميليتيوسيين، فعقد مجمعًا مقدسًا أعاد فيه كل القساوسة والآباء الذين تم حرمانهم إلى كنائسهم وأديرتهم، أكملنا طريقنا نحو طيبة في الجنوب، حيث يعتزل الأب باخوميوس في الجبال، ومنه علمنا أن الأب أنطونيوس مريض في ديره، فعدنا إلى ليكوبوليس، ثم عبرنا الصحراء شرقًا حتى وصلنا إلى دير الملاح، فارتحنا من سفرنا يومًا بليلة، ثم أكملنا سيرنا نحو الشمال، فصعدنا للقاء الأب بولا في ديره، ولم نبِت معه سوى ليلة واحدة، فقد كنا جميعًا مشغولين بمرض الأب أنطونيوس.

وجدناه يعاني من حرارة وعرق غزير، فجلس أثناسيوس بنفسه يطبِّبه، وما إن استعاد وعيه حتى رسم ابتسامة واهنة كبيرة على وجهه، مخبرًا أثناسيوس أنه كان يصلي لأجله طيلة الوقت، وأنه أرسل لنائب الإمبراطور رسالة طويلة، اعترض فيها على تعيين بابا لا يعترف به الناس، لكن نائب الإمبراطور كان مغلوبًا على أمره، فأرسل معتذرًا ولم يزد عن ذلك كلمة، وقال أنطونيوس إنه كان يجل يوسابيوس القيصري لما كتبه في سيرة أوريجانوس عن علمه وفضله، لكنه لم يستطع فهم موقفه

لا هــو ولا تلامذته الكبادوكيين الثلاثة، وقــد أرسل إلى القيصري مدافعًا عن أثناسيوس وصحيح اعتقــاده في مواجهة اعتقاد أريوس، لكن الأخير وتلامذته كانوا قد قطعوا شوطًا طويلاً في طريقهم.

قــاد أثناسيوســ قداســ الأحــد في الديــر، وصلــى مــن أجــل الأب أنطونيوســ، وظل بجانبه حتى شعر أنه تعافــى، فاستأذنه في العودة إلى الإسكندريــة، وأخذنا طريقنا بمحاذاة الجبال القاسيــة نحو الشمال، حتى وصلنــا إلى ميناء كليزمــا على خليج القلزم، ثم جزنــا ناحية الغرب حتى مررنا بتبيس، وهناك رسم أثناسيوس أسقفًا وقسيسين، ثم أكملنا الطريق نحو الإسكندرية.

تصورنا أن الحياة قد أعطتنا وجهها الحسن، لكن لم تمض شهور حتى علمنا بمقتل الإمبراطور قسطانس صديق أثناسيوس وحاكم الغرب، على يد ماجنتيوســ حاكم روتيا، وهو أحد قادة جيشــه، لكنه تمرد عليه وقتله في إقليــم الغال، قيل إنه اغتصب ابنة أخت قسطانس وقسطنطينوس حاكم الشرق، وأنه أعلن نفسه إمبراطورًا على الغرب، فلما علم قسطنطينوس بالأمــر قطــع حربه مع الفرســ وعاد بجيشــه إلى رومــا، وفي الطريق انضــم إليه كثــير من حكام الغــرب، وعلــم ماجنتيوســ أن روما مالت لقسطنطينوس، فتركها وذهب لبلاد الغال، فتبعته جيوش قسطنطينوس، ودارت الحرب سجالاً بينهما، فلما طالت اتصل قسطنطينوس بقادة جيش ماجنتيوســ، ووقف الأخير ذات صباح يلقي خطبة في قلعة مورسا، فإذا برجاله يهتفون بحيــاة قسطنطينوس، فتركهم وفر بمن بقي معه منهم إلى أقصى بلاد الغال، وهناك انكفأ على سيفه منتحرًا.

كان الأريوسيــون في استقبــال قسطنطينوس فــور عودته من حربه، فأوعــزوا لــه أن أثناسيوس شريك في قتل أخيه، فهــو صديق ماجنتيوس المتمــرد، وقد أرسل له طالبًا الخلاص مــن قسطانس، وحرض الأساقفة في فلســطين على التمرد، وعقــد مجمعًا هناك برئاســة مكسيموس أسقف فلســطين، بغير إذن الإمبراطــور، ورسم أساقفة وقسوسًــا في أبرشيات خارج سلطانه.

جعلت هذه الوشايات قسطنطينوس يعلن الحرب من جديد على أثناسيوس وأتباعه، فأمر بنفي بول أسقف القسطنطينية، وأوصى الجنود الذين اصطحبوه لمنفاه في كبادوكيا بقتله في الطريق، وعين للقسطنطينية أسقفًا أريوسيًّا ملأ السجون بالكثير من المؤمنين، لا لشيء سوى أنهم ليسوا أريوسيين، وخلع مارسيللوس أسقف أنقرة من منصبه وعين بدلاً منه مجرمًا يدعى باسيل، وأمر بأن يلقي بلوسيوس أسقف أدرينوبل في السجن، وأن تعلق في عنقه الرقيق سلسلة ثقيلة من الحديد، فمات في سجنه، أما أثناسيوس فقد نزل الجند للقبض عليه ونفيه، لكن الشعب رفض، ودارت معركة في الكنيسة بين الناس والجنود، معركة راح ضحيتها الكثيرون، وكان أثناسيوس رافضًا لفكرة الهروب، إلا أن رهبان أبانوب خلعوا عنه زيه، وألبسوه رداء راهب منهم، وخرجوا به في أثناء الشغب والحرب الدائرة بين الجميع، واختفوا عن العيون مدة قبل أن يتجهوا به نحو الجنوب.

تخلص الإمبراطور من أعدائه وتفرغ لأثناسيوس، فأمر أساقفة الشرق والغرب بعقد مجمعين في آرل وميلان لعزله ونفيه، فتحمل بعضهم عذاب السجن والنفي، بينما رضخ آخرون موقعين على وثيقة بعزل أثناسيوس، هذا الذي احتمى بشعبه، وظل هاربًا في صحبة الرهبان الخمس مدة ست سنوات، يتنقل من دير إلى آخر، حتى وصل إلى مغارة بالقرب من ليكوبوليس في جبل غرب النيل، فأقام بها ومعه الرهبان الخمسة، يملي عليهم سيرة الأب أنطونيوس، كما يملي دفاعاته عن صحيح الإيمان، ورسائله إلى أساقفة مصر والمدن الخمس والحبشة، وتأملاته وتفنيده لأخطاء الأريوسيين، والرهبان يكتبون وينسخون، والناس يعادون الأسقف جورج الكبادوكي الذي عينه الإمبراطور لهم حتى هرب من الإسكندرية، ويأتون من كل طريق ودرب ليجلسوا أسفل مغارة أثناسيوس في الجبل الغربي، طالبين منه أن يمنحهم رسائله التي تعينهم على صحيح الإيمان، فكان النساخ ينسخون عظاته ويعطونهم إياها، وكلما طلبوا منه أن يشرح ما غمض فيها عليهم، كان يقول لهم:

– اذهبوا لرفائيل على هضبة الملاح.

-١١-

ظهـر كلب السماء لدميانة حين سمعت يؤانس يهـدد بأنه سيتخذ موقفًا من كل ما يجري، وأنه لن يسمح بمرور قانون يتيح الطلاق لأسباب غير الزنا، لأنه التفاف على قانون الإيمان النيقاوي، وخروج على صحيح الدين.

لم يكـن صـوت يؤانس الوحيد الـذي تعالى في الكنيسـة، فقد رد عليه آخـرون بأنه ينفـخ في نار الفتنة، ويريـد أن يجعل الأقبـاط دولة داخل الدولـة، خالقًا شبـح الخوف ليظل مهيمنًـا على الجميـع.. حينها صمت يؤانسـ وقرر الخروج مـن الكنيسة، وبـدا عليه أنه بلـغ أعلى درجات الغضـب، فضغط على فكيـه ونهض من مكانه خارجًـا، دون أن يلتفت لأيٍّ مـن الأصوات التـي راحت تصرخ أو تشـرح، حينها عوى الكلب السمـاوي، وشعرت دميانة بلهاثه في أذنها، وأدركت أن عليها أن تترك المكان قبل أن ينشب مخالبه في جسدها.

لم تكـن تعـرف إلى أين تذهب، حشرت نفسها بـين جموع الخارجين مـن الكنيسة وفرت إلى الفضـاء الواسع، هنالك شعـرت أنها قادرة على التنفس، فملأت رئتيها بالهواء، وتركت لقدميها حرية التجول في الدير. لم يكـن لديها خطة للهروب، ربما لم تكن تفكـر في ذلك من الأصل، فقد كانـت ترى يؤانسـ هدية السماء التـي أنقذتها من الشـرور، كانت تراه جدهـا الذي لم تره يومًـا، جلست تنصـت لماضيه وأسـراره مصدقة كل كلمة فيهـا، ولم تر فيه كل هـذه السطوة والقـوة، كان بالنسبة لها الوجه الآخر من المناضل صلاح متري، لكنه اختار العمل في الصحراء، العمل علـى حراسة الثغور والقلاع البعيدة، فأمضى حياته في البحث عن شباب لتدريبهـم على حماية الكنائس والأديرة، كانت تـراه الرجل الذي أحاط نفسه بكثير من الأساطير كي يحتمل الكثير من الهزائم في الحياة، لكنها لم

تتخيَّــل أنه قادر على مناوأة البابا، واتهامه بالتحايل على قانون الإيمان، وربما السعي لإسقاطه وتنحيته.

مــا إن خرجــت دميانة مــن الكنيسة حتــى خفَّف الكلــب السماوي من عوائه، فالتقطت أنفاسها شاعرة أنها أصبحت في أمان، لكن ما إن اقتربت من بــاب الدير حتى شعرت بمخالبه تخمشــ الأرض، ونباحه ينطلق في الهواء، فارتجفت في البــدء بخفة، وسرعان ما تحركت كما لو أنها ريشة تمر من الباب، دون أن يلتفت الواقفون لمرورها، وما إن وجدت منحدرًا يــؤدي إلى الــوادي المنحصر بين النهر والجبل حتى تركــت نفسها تنحدر معه، رأت على البعد أنطونيوس يقود نعاجه ناحية النهر، فدفعت بقدميها تجاهــه كقطرة مــاء تنحدر على وجه ورقة خضــراء، لكن أنطونيوس لم يكــن يسمع لهاثها تجاهه، وظــل يقود نعاجه نحو السفــن العابرة، فظلت تندفــع خلفه كسهم انطلــق من قناته، منادية إياه، حتــى توقف صوتها في فمها، فبكت من عجزها، وهرولت أكثر لتلحق به، وكلما اقتربت من الماء ناداهــا الناس أن تتوقف، لكنها لم تكــن ترى سوى أنطونيوس، ولم تكن تسمع إلا غناءه العالي خلف النعاج، حتى وجدت نفسها في الماء، وأنفاسها تتقاطع، بينما جسدها ينزل ويصعد على مرأى من الجميع.

بطريقة رجل مــدرب على إنقاذ الآخرين، اتخذ ربــان سفينة سياحية عابــرة عدة خطــوات قبل أن يقفز كسمكــة كبيرة في الماء، ومــا إن شعر بهــا تجذبه معها إلى أسفل حتى ضربهــا على رأسها ضربة أفقدتها وعيها، وسحبها نحو السفينة ليحملها مساعدوه إليها.

ساعدها على خروج المــاء من جوفها، وراح يسألها عن اسمها وسبب رغبتهــا في الانتحــار، لكنها ظلت صامتة لا تتحــدث، وكلما توالت عليها الأسئلــة زادت حالة الخوف والخرس التي انتابتها، حتى أوشكت السفينة علــى دخول بني سويف، وفكر الربــان في أن يسلمها للشرطة كي تعيدها إلى أهلهــا، لكنها انتبهت وأخذت تتجاوب مع مــن حولها، فأخبرتهم أنها كانت نائمة وتحلم بأن ذئبًا يجري خلفها، وأن القاهرة هي وجهتها.

تبرعت بعض السيدات على السفينة بمنحها ملابس عوضًا عن ملابسها المبتلة، وأنزلها الربان في غرفة مساعده كي تبيت فيها حتى الصباح، وحين وصلت إلى القاهرة مع شروق الشمس أصر الأجانب على التواصل معها بوصفها عروس النيل، وتركوا لها أرقام هواتفهم وعناوينهم الإلكترونية، بينما اعتبرها الربان جنية البحر، ومنحها هاتفه وبعضًا من المال كي تصل لأهلها بأمان.

لم يكن معها مفتاح لتدخل، ضربت جرس البيت عدة مرات قبل أن تفكر في الذهاب لجارتها سيمون، فاجأتها الأخيرة أن تريزا محتجزة في معهد ناصر، وأن قريبها أنطونيوس وزميله ذهبا في الصباح إلى الكنيسة الأم لمعرفة سبب اختفائها، فقد قلق الجميع وتصوروا أن شيئًا حدث لها، فطمأنتها دميانة وأخذت منها المفتاح الذي تركه أنطونيوس وزميله لها قبل خروجهما.

كان آخر ما يمكن أن تتوقعه دميانه هو أن يأتي أنطونيوس إلى بيتها، فما الذي أتى به، وكيف جاء؟! هكذا سألت نفسها قبل أن تلاحق سيمون بعشرات الأسئلة عن اسمه وشكله وملامحه، حتى أن سيمون شكت في أن يكون الرجل لصًّا أو قاطع طريق، فتركتها ودخلت شقتها باحثة عما يؤكد صدق ما سمعته، لم يكن هناك غير ملابس الرهبنة التي خلعها أنطونيوس، حين أمسكتها بيدها تصاعد إليها عطر لم تكن تشمه إلا حينما يدخل أنطونيوس إلى غرفة التحقيقات، هزت رأسها موقنة أنه آن لمحنتها أن تنتهي.

كان لا بد أن تذهب للاطمئنان على تريزا التي ترقد بين الحياة والموت على سرير في معهد ناصر، تركت الماء الساخن يناسب على جسدها وهي تفاضل بين صورتي تريزا وأنطونيوس، ارتدت ملابسها وأخذت ما معها من نقود وهرولت على السلم، وما إن انطلق بها التاكسي حتى شردت في السبب الذي جعل أنطونيوس وملاك ينزلان من هضبة الملاح إلى بيتها، وراحت مشاهد الدير وشخوصه تمر على ذهنها حتى توقفت أمام يوساب ورهبانه طوال القامة، تذكرت أن نفس الآلة التي شكلت هؤلاء الرهبان

هــي التي شكلت رهبان يؤانس، وأنهم هم الذيــن اعتدوا على أنطونيوس في الديــر، وأرادوا الخلاص منها في الطريق بعــد خروجهم من الدير، تذكــرت أطوالهم وصمتهم وحركتهم الرياضية الجافة، وأنهم لا يختلفون عن الذيــن قدموا استعراضهم أمام يؤانس علــى جبل الطير، تذكرت أن يؤانس قال بالأمس إنه سينزل غدًا في الصباح للبابا في كنيسته، ولا بد أنه الآن برجاله في الكنيسة الأم.

لا تعــرف ما الــذي جعلها تتذكر سيمون وهي تخبرهــا أن أنطونيوس ومــلاك ذهبا للكنيسة، حينها شعرت بمخالب كلب السماء تخمش في حقيبة التاكســي، سمعت صوته يــزوم وعواءه يتعالى، ووجــدت نفسها تطلب مــن السائق أن يغير طريقه إلى الكنيسة الكبيرة، وكلما أبطأ في سيره كان الكلــب السماوي يضرب مخالبه في مسند الكنبة، السائق ينظر إلى جسدها الــذي يرتجف خلفه، موقنًا أنهــا موشكة على الصراخ مــن الألم، فيزيد مــن سرعته ليسابق الريــح قبل أن تنفجر الصرخات منهــا. ما إن وصل إلى قرب الكنيسة حتى أعطتــه ما معها وهرولت لدخول المبنى الذي طالما دخلــت وخرجت منه، عــبرت من جهاز الكشف عــن المعادن ووقفت لا تعــرف إلى أين تذهب، في البدء بحثت بعينيها عن أنطونيوس، لكنها حين لمحــت واحدًا من طوال القامة أدركت أنها في خطــر، ولا بد أن تتحسس خطاها، مبتعدة عن الأماكن التي يقفون فيها كي لا تضع نفسها في أيديهم.

لم تمضــ دقائق على دخولها من البوابــة الإلكترونية حتى شعرت أن كلــب السماء هدأ وتركهــا تنقل عينيها بين الناس، حــين أدركت أن عليها أن تدخل إلى مــكان بعيد لم يأت على ذهنها غير مكتب أسقف التحقيقات، لكنهــا حين قطعت الردهة المؤدية إليه شعــرت بزمجرة الكلب السماوي، ورأت على البعد راهبين أو ثلاثة من التابعين ليؤانس، حاولت أن تقترب من التجمهر الموجود أمام المكتب لكن فاجأها تدافع الناس وخروج يؤانس غاضبًــا، كان رجالــه يسرعون من أمامــه ومن خلفه، يدفعــون الناس بأيديهــم فاتحين له طريقًــا آمنًا كي يمر مــن بينهم، شعــرت أن عليها أن تختفي من المكان، فتركت قدماها تصعدان أول سلالم وجدتها في طريقها، أحنت رأسها بخشوع وتضرع حين فاجأها عدد من القساوسة في طريقهم

إلى الأسفل، سمعتهم يتحدثون عن يؤانس وما يثيره من مشكلات، قال أحدهم إنه يجب على البابا أن يصدر قرارًا بحرمانه، فلا ينبغي أن يتركه يثير الرعب في نفوس المؤمنين، وقال آخر إن الكنيسة لم تعد مكانًا مقدسًا، فقد باتت تدخلها الأسلحة، لكن أحدهم رد بأن الرجل لم يخطئ، فالمجمع المقدس هو الذي جلب لنا كل هذه المشكلات، وإن حرمه البابا فإنه لن يعدم أن يجد من يقف وراءه ليحرم البابا، وربما ينشئ كنيسة مختلفة.

ما إن سمعت دميانة تلك الكلمات وتخيلت ما قد يحدث شعرت بقشعريرة تسري في بدنها، وارتجف جسدها فجأة كسمكة خرجت من الماء، ولم تجد أمامها غير متابعة ارتقاء الدرجات، حين انتهى السلم وجدت نفسها في ساحة خالية من كل شيء ما عدا غرفتين متجاورتين في البعيد، لم يكن في الساحة سوى كرسي وحيد يجلس عليه أسقف عجوز ممسكًا بعصا كبيرة في يده تنتهي بالمسيح المصلوب، اقتربت أكثر لتتطلع إلى العجوز النائم بعيدًا عن كل ما يجري من حوله، شعرت أنه مثلها يبحث عن مكان يمضي فيه ما بقي من سني عمره بعيدًا عن الصراع والهموم والملاحقة، كانت دهشتها كبيرة حين اقتربت أكثر وتعرفت على وجهه ولحيته الطويلة ويده الكبيرة التي تظهر عروقها كخارطة أسفل الجلد، إنه الأسقف الكبير، هكذا قالت لنفسها وهي تعيد النظر إلى ملامحه من جديد، حتى وجدته يفتح عينًا ويترك الأخرى مغمضة كأنه لا يريد الخروج من عزلته، وقفت غير قادرة على الكلام، رغم أن عشرات الأسئلة كانت تجتاح رأسها، حين رآها متحيرة ولا تعرف من أين تبدأ عدل رأسه وفتح عينه الثانية، وأطلق ابتسامة وادعة من بين ثغره قائلاً:

– لماذا جئت؟

ارتسم على وجهها شبح ابتسامة وهي تحاول أن تبحث عن إجابة سريعًا في رأسها، لكنها لم تجد، فعادت تبتسم وهي تستجمع أعضاءها وأنفاسها، متذكرة أنها تبحث عن أنطونيوس الذي تشم رائحته في كل مكان هنا، لكنها لا تراه:

– أبحث عن صديق.

هز الأسقف رأسه متنهدًا:

– جميعنا نبحث عن أصدقاء.

انتظـر أن توضح زائرته شيئًا جديدًا، لكن صمتها طال، فرفع حاجبه الأيسر قائلاً:

– أين تركتِه؟

شعـرت دميانـة أن الرهبة قـد فارقتها، وأنها يمكنهـا أن تتحدث على طبيعتها:

– لم أتركه، لكننا افترقنا في دير الملاح، أنا محققة وهو راهب، وهناك من حاولوا قتلي واتهامه بذلك، وها نحن نحاول أن نفهم ما يجري معنا.

ندت عن الأسقف ضحكة هادئة:

– وفهمتِ؟

– للأسـف، كلمـا تصـورت ذلك وجـدت الدائرة تتسـع، والخيوط تتشابك، فأتوه حتى عن نفسي.

خرجت كلماتها كمدفع رشاش بطيء، مدفع لا يريد أن يتوقف، لكن لديه رغبة في تأمل كل كلمـة يقولها، كان حزنها واضحًا وهي تترك ما بداخلها يعـبر إلى الخارج، بينما الأسقـف يجلس مصغيًا في انتبـاه شديد. حكت له عمـا جرى معها منذ تكليفها بالتحقيق في دير الملاح وصولاً إلى هروبها من يؤانس، وأوضحت عدم رضا الأخير عن قرارت المجمع المقدس، ورفضه لقانون الأحوال الشخصية وتوحيد المعمودية، حين انتهت من كلامها أشار إليها أن تقترب، ثم وضع يده على رأسها ناظرًا في عينيها:

– هل تحبين أنطونيوس؟

لمعـت عيناها بضوء مـن الفرح، كما لو أنه كشـف عن سرها، فهزت رأسها ولم تفتح فمها.

– الرب القدير يصنع ما يريد. . . ربنا لا تدخلنا التجربة.

هكذا رفــع عصاه وأشار إلى وجهها، ثم أومــأ لها بالنزول، فتسحبت أقدامهــا نحو السلم، ثم توقفــت لتسأل عما يجري، لكــن الأسقف كان قد عقــد يديه على عصاه، وأغلق عينيه سارحًا في ملكوت الرب، ففهمت أن منحتها انتهت، وأن عليها أن تذهب لتكمل طريقها بحثًا عن أنطونيوس.

-١٢-

رسائل أوريجانوس (١٦)

انتهى اضطهاد ماكسيميانوس، وعدت من قيصرية كبادوكيا إلى قيصرية فلسطين، حيث تلقَّاني أصدقائي أمبروسيوس وتيؤكتستوس وألكسندر، قالوا إن رسالتي إليهم في السجن أسعدتهم كثيرًا، وإن وصولها أعطاهم القدرة على تحمل التعذيب، فقد ألقوا بهم في أقبية مظلمة أسفل الأرض، وتركوا عليهم الأفاعي والفئران والخفافيش، كان الرعب يأكل أرواحهم أكثر من ضربات الجلادين وآلاتهم المحمية في النيران، وسط كل هذا الظلام كان بعض الجنود مسيحيين، لكنهم لم يعلنوا عن مسيحيتهم، هؤلاء هم الذين أوصلوا رسالتي إليهم، لا أعرف كيف تم التوصل إليهم، ولا كيف تمت مخاطبتهم دون أن يكتشف أمر من خاطبهم، وكان وصول رسالتي لأمبروسيوس في عمق هذه الأقبية المظلمة دلالة على أن الرب معهم، وأن ما بينهم وبينه ليس سوى الشهادة، فكانوا كلما عذبوا أيقنوا أنهم منتصرون، فإن لفظوا أنفاسهم دخلوا ملكوت الرب، وإن ظلوا على قيد الحياة حملوا الأمل والقوة لمن سيأتي بعدهم.

مررنا على كثير من تلامذتي في بيوتهم وأماكن عملهم، كنت مصرًّا على القيام بتلك الزيارة إليهم، أباركهم وأصلي وأمسح على رءوس من تحمَّلوا التعذيب، مؤكدًا مكانتهم عند الرب، أما من جبنوا وقدموا أضحيات للأوثان فقد كنت أصلي لأجلهم، وآمرهم بحمل أضحيات أكبر إلى مذبح الكنيسة، هكذا وعظت أمام القساوسة والأساقفة، وقلت إن هناك من يرفض توبة المذنبين وغير المعترفين، هؤلاء لا يُسمع لهم، ولا يُأخذ بعظاتهم، فالرب لم ينزل ليخلص البشرية من خطيئتها كي نحرم أبناءه

من الخلاص، الرب أعظم من أن يرد الراغبين في دخول حظيرته، حتى عبـدة الأوثان إن تابوا فإن الـرب يقبلهم، وعبدة الأوثان الذين لم تبلغهم دعوة الـرب فإنهم في ملكوته، أما من تصلهم دعوته ويرفضونها فهؤلاء هـم المحرومون مـن الملكوت، وأمرهـم في مشيئة اللـه، إن أراد قبولهم قبلهـم، وإن رأى رفضهـم رُفضوا، وليس لنـا أن نحكم في أمر الرب، ليس لنا سوى أن نبلغ رسالته لمن لم يعرفها، ونذكر المؤمنين بالعظات كي لا ينسوا ولا يضلوا.

كنـت أرى في بعضـ الوجوه تغـيرًا، البعض لم يكـن يرغب في أن يتساوى مع الذين قدموا أضحيات للأوثان، والبعض يصر على أن عبدة الأوثان مُبعدون عن الملكوت الإلهي، ولا يمكن قبولهم فيه، وكنت أهدهد على الأكتاف موضحًا أننا لا نشترط على الله شيئًا، فلا نقيده بإيماننا، ولا نغـل يده عن تخليصه لبقية البشر مما هـم فيه، لكننا فقط نفرح بأن خلصنا مـن الشرور، وضمن لنـا بقاءنا يوم الدينونـة في ملكوته، وضربت لهم مثـلاً بأنه لو كان للسماء كلـب تطلقه على المؤمنين كي لا يضلوا الطريق، فهـل في ذلـك فضل للمؤمنين على السمـاء، أم أنها هي التـي تتيه بفضلها عليهـم لأنها أرسلت كلبها ليلزمهم الطريق الصواب؟ ظللت أشرح الفكرة مـرات ومرات حتى قبل الناس أن يغفروا للجنود وعبدة الأوثان وكهان المعابـد أنفسهم، موقنين أنهـم بغفرانهم لهم يعملون عمـل الرب، وليس ملائكة الجحيم.

كان الجنـود قد دخلوا مدرسة قيصرية وفتشوا فيها عني، ثم أخذوا كل مـن وجدوه هناك، أما المكتبة فقد وجـدوا فيها أمبروسيوس فألقوا القبض عليـه، وسألوه عني فادعى أنني ذهبت إلى أثينـا، لم يصدقوه وبالغوا في تعذيبه، لكنه رفض أن يعود إلى الوثنية من جديد، وقال لي إنه كان على وشك أن يضعف ويلين لولا أن سلمه أحد الجنود رسالتي، وتركه يقرأ فيها علـى ضوء شمعة حتى الصباح، ثم أخذها منه ليوصلها إلى تيؤكتستوس، حـين مررنا على المدرسة شعرت بالحـزن عليها، فقد حولتها النيران إلى جدران متهدمة، لكنني حين ذهبت إلى المكتبة ورأيت ما حدث فيها شعرت أن قلبي سيتوقف، فقد أظلمت الدنيا ولم أعد قادرًا على الوقوف، قالوا إنها ظلت مدة أسبوع كامل مشتعلة، وأن السكان القريبين منها تركوا منازلهم

وذهبوا إلى منازل أخرى خشية أن تنتقل النيران إليهم، هكذا أتت النيران على آلاف الكتب والمخطوطات، أتت على مجهود سنوات وإرث استلمته مـن عائلات، أتت على كتبي وكتب والدي وكتب أمبروسيوس وكل من عرفتهـم، كانت أعمال بلغات مختلفـة، ومخطوطات نادرة لا يوجد منها إلا في المكتبة الجديدة بالإسكندرية. في النهاية أخذني أمبروسيوس إلى بيته الجديد، وقال إننا سنقيم هنا إلى أن نعيد ترتيب الأمور.

ظللنـا نحو ستة أشهر نرمم المدرسة والمكتبـة وبيت أمبروسيوس الذي نهـب بالكامـل، ودعـا تيؤكتستوس وألكسنـدر المؤمنين للتـبرع لترميم الكنائـس، هكـذا عشنا نجمع تبرعـات من الناس كي نصلح مـا أفسدته يد البطشـ والجـبروت، حتى عـادت الأماكـن إلى سابق عهدهـا، لكن ما فقـد لم يعد كمـا كان. فضلت أن أقيم حيث كانـت المدرسة، في ذلك البناء الصغير المكون من حجرتين وباحة صغيرة، وتركت مكان المكتبة ليكون مدرسـة، كان ذلك تعديلاً غير مرضـ لأمبروسيوس، لكنني أصررت عليه، وفاجأتـه بأنني أفكر في أن أنفذ ما قالـه للجنود عني حين اعتقلوه، حين بدت عليه علامات عدم الفهم شرحت له أنني أريد الذهاب إلى أثينا، لم يكـن في ذهني أكثر من أننـي أريد أن أرد على بابـا روما إسطفانوس بشكل ما، لكننـي لم أشأ الذهاب إلى روما كي لا يصبح تعديًا على سلطاته الروحية هنـاك، لذا فكرت في الذهاب إلى مدينة لها نفس القيمة والمكانة، ولم يكن هناك غير أثينا.

كان علـيَّ قبـل أن أشرع في تنفيـذ رحلتي أن أدعم إعـادة بناء كنيسة قيصريـة، فقد اقترح عليَّ تيؤكتستوسـ أن ألقي بها عظاتي يومي الجمعة والأربعـاء، هززت رأسي وفهمت ما يرمي إليه، حيث يمكنني أن أحث الناسـ على تقديم أضحياتهم لمذبح الرب، والتبرع لله ببعض ما لقيصر، فأخذت أتردد على الكنيسة في هذين اليومين، بينما يجيء الناس للاستماع إلى العظات التي كانت تطول من الصباح حتى ما بعد الظهيرة، كنت أرد علـى التساؤلات، ثم أبدأ في تفسير الكتـاب المقدس، كنت أشعر أن الرب يفتح عليَّ بعبارات لم أستخدمها من قبل، فأتحرى الدقة في استخدامها قدر مـا أستطيع، حتـى إذا عجز ذهني عن الوصـول إلى الكلمة الأكثر تعبيرًا عما أريد قوله كنت أتوقف عن الشرح، وأطلب من الحاضرين أن يصلوا

لأجـل أن يلهمني الرب الكلمة المناسبـة، ودائمًا ما كان الله معي، يوفقني لما أريـده، والناس يفرحون بحالتي، وعدم خجلـي من أنني لا أعرف، فكانوا يدعونني بالأمين في كل شيء.

ما إن انتهينا من إعادة بناء الكنيسة حتى أعلنت لتيؤكتستوس عن رغبتي في الذهـاب لأثينا، حيث سألتقي بأسقفها وأهديه نسخة من كتابي "المبادئ" و"هكسابلا"، كان المبادئ بالنسبة لي هو الأهم، وكنت أود له الانتشار في تلـك البلدان والأسقفيات البعيدة، ففيـه لم أكتفِ بالرد على المهرطقين من الغنوصيين وغيرهم، لكنني حددت طريق الإيمان بوضوح، فلم يعد يكفي القـول بأن الدين القويم ليس كذا ولا كذا، فقد بات من الضرورة أن نقدم للمؤمـن تعريفًا وطريقة إيمانية واضحة، وهو ما أخذت على عاتقي عمله في الأجـزاء الأربعة لهذا الكتاب، فخصصت الجـزء الأول للحديث عن الوحدانية وروحانية اللـه، موضحًا خطأ مرقيون وغيره من الغنوصيين في تمييزهم بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد، كما تحدثت عن الثالوث المقدس وعلاقتهـم بالخليقة، أما الجـزء الثاني فقد تحدثت فيـه عن العالم المادي وخلقـة الإنسان كنتيجة لسقوط الملائكة، وذهبـت إلى أن الإنسان هـو روح ساقطة وليس جسدًا ماديًّا، وفي الجزء الثالث تحدثت عن اتحاد الجسد بالنفسـ، وأن ذلك يعطي فرصة للجهـاد والنصرة، وأن الملائكة تساند الإنســان في هذا الجهاد، بينما الشياطين تقاومه، مما يشعر الإنسان بالحيرة، ولا يحسـم الأمر بين الملائكة والشياطين سـوى إرادة الإنسان واختيـاره، وهو ما ينفـي فكر الغنوصيين عن عدم حريـة الاختيار، أما الجزء الرابع فقد خصصته للتعاليـم الأساسية للمسيحية، وفيه تحدثت عن الكتاب المقدس بوصفه مصـدر الإيمان، وعن الوحي وتفسيراته الحرفية والأخلاقية والروحية.

كنـت أريد لهذا الكتاب أن يأخذ صـداه، لأنه يخاطب العقل، ويشرح المبـادئ الأساسية للإيمان باللـه، ويعطي الإنسان القـدرة على الاختيار وحريـة الإرادة، ولا يجعله مجرد عبد تابع بـلا قوة ولا منطق، فالله لم يخلـق البشر كي يكونـوا عبيدًا ولا أنعام سائمـة في الفراغ، ولكن منحهم

التكليف عبر العقل، وسيحاسبهم على اختيارهم وليس اختياره، وإلا فإنه يقدم على فعل ينافي المنطق ذاته، ويلغي قدرة الإنسان على الاختيار والعمل، وينفي دوره في مجاهدة الشرير والانتصار عليه. كنت متحمسًا لأن أجعل الإنسان مركز الفعل وليس رد الفعل أو تابع لإرادة ينسبها الغنوصيون للرب، لكن حماسي هذا لم يلق قبولاً كبيرًا لدى أساقفة اليونانيين، فقد بدا عليهم عدم القدرة على فهمه، وفي الوقت الذي تحمس له كثير من القساوسة فقد شعر كثيرون أيضًا أن فيه خروجات لم يألفوها.

كانت بثينية رقعة مقدسة بالنسبة للآباء الأوائل، لذا حرصت على زيارتها، والالتقاء بأساقفتها وقساوستها، هؤلاء الذين استقبلوني استقبالاً حافلاً، وأقاموا قداس شكر لوصولي بلادهم، وأصروا على أن ألقي عظة من على منبرهم، تركوني أعظ من الضحى حتى الظهيرة، والناس تطلب المزيد، حتى شعرت بالحرج أن أطيل أكثر من ذلك أمام الأساقفة، فصليت شكرًا لمجيئي إلى بلادهم، وفي الوقت الذي أهديتهم فيه كتابي "المبادئ" و"هكسابلا" أشرت لهم أن اضطهاد ماكسيميانوس أتى بالحريق على المكتبة التي وضعت فيها كل كتبي، فما كان منهم إلا أن جمعوا لي من كل كتاب لديهم نسخة، فتحصلت على مكتبة وضعتها في صناديق من الخشب على ظهر السفينة قبل أن أكمل مسيرتي إلى اليونان.

تركت بثينية ولديَّ مشاعر فرح وحبور، فقد تعامل الجميع معي بإجلال، وحين شرحت لهم ما أردت الوصول إليه في المبادئ تلقوه بمحبة واضحة، بعضهم قال إنني بذلك أقطع الطريق على المهرطقين وأوضح قواعد الإيمان القويم، لكن في أثينا تغير الموقف من الفرح بحضوري إلى بلادهم، والصلاة شكرًا لوجودي بينهم إلى حالة من القلق تجاه أفكاري، فاضطررت أن أجعل أيام بقائي بينهم معدودة، وعدت بما لدي من كتب إلى قيصرية موقنًا أنني في حاجة إلى رحلة جديدة لبلاد جديدة كي أشرح ما قدمته في المبادئ، وكانت بلاد العرب هي الفكرة التي طرحها تيؤكتستوس بدلاً من الذهاب إلى الشمال.

-١٣-

كان مـن المفاجئ لنا أن نجد دميانة واقفة أمـام الكنيسة الأم تبحث عن شـيء ما، كنا قد خرجنـا خلف الجنود الذين أخـذوا أنطونيوس محاولين إقناعهـم أنه بـريء، ولا شيء ضده، لكنهـم لم يلتفتوا إلينـا، في النهاية أخـرج أحمد كرنيه نقابة الصحفيين من حافظـة أوراقه وقدمها للضابط، فتوقف الأخير باهتمام واضح لسماع شكوانا، إلا أنه في النهاية أبلغنا أنه لا يستطيع أن يترك أنطونيوس إلا إذا أبلغه الضابط المسئول عن أمن الكنيسة بذلـك، فهم الذين اشتبهوا به وأبلغونـا بالتحفظ عليه، حينها قررنا العودة لمكتب الأمن في الكنيسة، كي نقنعهم ببراءة أنطونيوس، لكن المفاجأة التي ألجمت لساني أنني وجدت دميانة أمامي، كانت عيناها زائغتين كما لو أنها تبحـث عن شيء ضائع، حين رأيتها لم أصـدق أن الدنيا صغيرة إلى هذا الحـد، فقد رأيتها من قبل في دير الزاوية، فما الـذي أتى بها إلى هنا وفي هذا الوقت؟ لم أعرف ما الذي يمكنني أن أتحدث به، فأخذت أشير لأحمد ونائل بأنها هي، لكنهما لم يفهما ما أريد قوله، وأنا لم يسعفني لساني بنطق أكثر من كلمة هي، وفي النهاية ذهبت لأنظر في وجهها عن قرب كي أتأكد أنني لا أحلم ولا أهذي، وجدتها تنظر لي قائلة:

- ملاك!

هنالـك اتسعت الابتسامة المندهشة علـى وجهي، وشعرت أنني سأطير من الفرح، وكأنني أتأكد لأول مرة أنها حية، وأن كل ما قيل عنها محض هلاوسـ نثرتها الشياطين في رأسـي، أجبتها بأنني ملاك بشحمه ولحمه، وأن الواقفين بجانبي هما صديقان لي ولأنطونيوس، فوجدتها تتجاهل كل ذلك سائلة عن الأخير، بلعت غصة مرت في حلقي وأجبتها بأنه هنا، لكن

الأمن يشتبه به، وعلينا الذهاب لملاقاة الضابط كي يأمر بالإفراج عنه.

توجهنا إلى مكتب الأمن سائلين عن الضابط المسئول، كان شابًّا في الأربعين من عمره، تركنا وأخذ ينظر إلى دميانة، سألها عن اسمها فترددت قبل أن تقول "أنجيل"، استند بظهره إلى الكرسي وأغمض عينيه كما لو أنه يبحث عن اسمها وصورتها في ذاكرته، في النهاية فتح عينيه:

- هل التقينا من قبل؟

أجابته بالنفي، وقبل أن يحول اللقاء إلى تحقيق معها تدخل نائل وسأله عن سبب احتجازهم أنطونيوس، فقال لأننا نشتبه فيه، وهو لا يحمل ما يثبت هويته، وعلينا إذا كنا مهتمين بأمره أن نسرع بإحضار أوراقه، قبل أن تأمر النيابة بسجنه.

تركناه وخرجنا موقنين أن أنطونيوس وقع في بئر عميقة، وعلينا أن نترك المكان قبل أن يتهمونا بأننا خلية إرهابية، فلا أنا ولا دميانة لدينا أوراق تثبت هويتنا. فوقفت أنا وهي بعيدًا عن عربة الترحيلات، وأخذنا ننظر إلى أحمد ونائل وهما يحاولان محادثة الضابط بها، لكن السيارة الكبيرة أغلقت بابها وأخذت في مغادرة المكان.

بكت دميانة وهي تعرف ما جرى لأنطونيوس بعد اختفائها، وأصبنا بالوجوم ونحن نسمع منها ما جرى لها، وكيف فرت من يؤانس ورجاله حتى أتت لتجدهم هنا، ظللنا ننصت بدهشة وهي تبكي تارة وتضحك أخرى، حدثتها عن رؤيتي لها في دير النساخ، لقائي مع يؤانس، شهادتي على أنطونيوس بأنه المرشح الأول لقتلها، كنا نحكي كما لو أننا نعيد ترتيب الأوراق التي اختلطت علينا، وكان نائل وأحمد متحمسين لكتابة ما نقول، لكن دميانة رفضت أن ينشر أي منهما شيئًا عما جرى، قائلة إن هذا الأمر مسألة قبطية، شعرت أن وجوههم تغيرت، وأنهما على وشك الانسحاب، لكنني أصررت على بقائهما، موضحًا أننا لا حماية لنا سواهما، فنحن بلا أوراق ولا طعام ولا مال، فضحكا ونسيا ما قالت.

كنـا قد اتخذنا تاكسـي واتجهنا من فورنا إلى مبنـى قسم الشرطة الذي ستصل إليه سيارة الترحيلات، لكننا وصلنا أسرع منها، فبحثنا عن مقهى نجلسـ فيه، وبحث نائل عن مطعم اشترى منه عدة سندوتشات، وما بين الطعـام والحكي وصليل الملاعـق في أكواب الشاي جلسنـا ننتظر مجيء أنطونيوسـ، وما إن ظهرت السيارة الكبيرة حتـى تركنا نائل وأحمد في المقهـى وذهبا ليسألا عـن أنطونيوس، إلا أن نائل عاد بعـد قليل طالبًا منا أن نعـود إلى البيت، فقد هرب أنطونيوس وهم يبحثون عنه الآن بوصفه إرهابيًّا، أسقط في أيدينا، ولم نملك سوى أن نترك المكان.

كان مـن المفترضـ أننا سننزل في محطـة سانت تريـزا، لكن دميانة أخبرتنـي بأنها لم تـزر والدتها إلى الآن، فاضطررنـا لتغيير وجهتنا إلى معهد ناصر، حيث صعدنا لغرفة العناية المحتجزة بها تريزا، لكنهم أبلغونا أنها خرجت منها في الصباح، ويمكننا رؤيتها في الغرفة.

مـا إن دخلت دميانة الغرفة حتـى ألقت نفسها في حضـن أمها وجلستا تبكيان، بدا لي أنهما في حاجة إلى هذا البكاء، فتركتهما تنزفان ما بداخلهما مـن ألم، ورحت أمشِّي قدمي في الردهة المرصعـة بالرخام، شعرت في تلـك اللحظـة أنني أضعـف شخص في العـالم، فلا أهـل لي ولا بيت ولا أوراق هوية، شعرت أنني مجرد شبح، وإذا اختفيت فلن يسأل أحد عني، لأننـي كما قال يوساب ذات يوم، غير مثبت في أي ورق لدى الحكومة، تمنيت لو أن أحمد ونائل موجودان لأسألهما عن كيفية استخراج مثل هذه الأوراق لرجـل لا أوراق لـه، وتوصلت مع نفسـي إلى أنني يمكنني أن أقتـل أي شخص وأسرق أوراقه، لكـن دميانة وأمها ضحكتا على الفكرة كمـا لو أنهمـا لم تضحكا من قبل، ودعت عليَّ تريـزا لأنني سأوقف قلبها مـن الضحك، شكرتهمـا وطلبت ألا يشغلا نفسهمـا بمشكلتي، لكن دميانة فاجأتنـي بتعاطفها معي، قائلة إنني يمكننـي أن أستخرج أوارق هوية من نوع جديد، كانت لهفتي على معرفة كيفية ذلك كبيرة، فسألتها عن ذلك، غير أنها ضحكت قائلة:

– تنشر كتابًا وتضع عليه اسمك وصورتك.

حينها شعرت أنها تسخر مني، وقلت لها إنها لا يشغلها سوى مشكلة أنطونيوس وحده، فوجدت وجهها قد أظلم، وساد الصمت بيننا، ولم أعرف كيف يمكنني أن أعالج الأمر، فخرجت للوقوف أمام الباب، وتكفلت أمها بالحديث معها، بعد قليل جاءتني قائلة أنها حين تنهي مشكلة أنطونيوس سوف تستخرج لي شهادة ميلاد ورقم قومي، لكن الأهم من ذلك هو المسألة القبطية، فكل ما جرى يجب تدوينه، كل ما حدث في دير الملاح منذ نشأته حتى وقتنا الراهن يجب إثباته في كتاب يحمل اسمك وصورتك، فهذا الكتاب هو الهوية التي يجب أن يراك عليها الجميع.

-١٤-

كانت الرسائل بينــي وأثناسيوس لا تنقطع، يسألني عما يجري خارج المغارة التي لجأ لها، وأنا أسأله عما يقصده في بعض ما يمليه على النساخ، فقد تحول دير الملاح إلى مكان مزدحم بالمريدين، ونشأ درب في الصحراء الشرقيــة يربط ما بين الجبل الغربــي في ليكوبوليس وجبال القلزم، حيث نشطــت الخطى ما بين الديرين، فلا وقت لدى أثناسيوس ليعظ المريدين، ولا يأمــن على نفسه حــال جلوسه للغرباء المتوافديــن، ولولا معجزة من المسيــح حدثت له لكان قد تنيَّح منذ شهوره الأولى في المكان، فقد فرح أحد المؤمنــين بمعرفة مكانه، وأخــبر الناس عنه فتوافدوا عليــه، فما كان من أحدهــم إلا أن أبلغ حامية الإمبراطور في ليكوبوليس، فجاء قائدها للقبض عليــه، لكنه دعا الــرب أن يحميه وأهل دينه، فنــزل الغمام على الجبل، وجــاء الجنــود فلم يجدوا شيئًا، حتــى أن قائدهم اغتاظ مــن الرجل الذي أبلغه الخبر، فأمر بصلبه وقتله، كان من الممكن لولا مشيئة الرب أن يقتل أثناسيوســ في هذه الواقعة، أو يعذب عذابًــا لا قبل له به، لكن الله القدير حماه بمعجزة تخصه.

ولأن الدير لا يتسع للأعداد التي أخذت تتوافد عليه، فقد تركت شجرة ديمتريوســ على الهضبــة ونزلت بجــوار أشجار الزيتــون التي غرسها أبانوب أسفل الهضبة، وشرعت في شرح الكتاب المقدس على النحو الذي قدمــه أوريجانوس في كتبه وتأملاتــه، لم يكن يؤمن بفهم الناس على نحو مــا هو موجود في الكتاب، كان يقول إنه لا بد من إعمال العقل والمنطق، فاللــه لا يقول كلامــه مباشرة في كل الأمور والأحــوال، لكنه تارة يشير وتــارة يومئ، وعلى القارئ أن يكون واعيًــا بالحالات التي تجيء عليها

الآيات، اللــه لا يريد من شراح كتبه أن يكونوا ببغاوات تردد ولا تفهم، لكنه يريد عقولاً تستوعب قبل أن تتحدث.

كان الناس ينجذبـون لهذه الطريقـة في الشرح، ويؤمنـون بأن الله كلفهـم بالعقل، ومن ثـم تقع عليهـم مسئوليات الفعل، ولـو كانوا مجرد ناقلـين دون إعمال للوعـي لأصبحوا حيوانات لا تجـوز عليها المساءلة، ومـا كان اللـه بحاجـة إلى تخليصهـا مما هـي فيه. لاحظـت أن شرحي يجـذب من كانوا علـى طريق أريوس، مثلما يجـذب من هم على طريق أثناسيوس، فتجنبت إعلان الخلاف مع الأريوسيـين، وقلت لنفسي إن أوريجانوس رفض عذاب المخالفين والمرتديـن والوثنيين، فكيف لي أن أركـز على حرمانهم، وهل جاء اللـه ليخلص البشرية ويدخلها ملكوته أم يتفـنن في حرمانها وتعذيبها، فنشطت في قبول كل من يرغب في الجلوس إلى مجلسـي، وتحاورت مع كل من أراد السـؤال عن شيء في الدين أو الفلسفـة، ولم أفصل بينهما، قلت إن العقل هو ميزان التكليف، فإن تنافى الدين مع العقل فسد من تلقاء نفسه.

كان أبانوب قد جهز رجالاً من قبله ليكونوا في الإسكندرية، فيطلعونه على كل جديـد هناك، أما تلميذي جورجيوس فقد آثر أن يبقى في الكنيسة الكبـيرة كي يكـون على اطلاع بكل مـا يجري من البابـا الجديد جورج الكابادوكـي، ويراسلنا بكل جديد هناك، فهـو أسقف أريوسي عنيد، أخذ علـى عاتقه تغيير ديانة المصريين بالقوة، ومـا كان المصريون ليستسلموا ولا أن يقبلـوا دينًا غير دين آبائهم، فتحملوا أذاه وسجنه وتعذيبه وأساقفته وقسوسـه، لكنهـم لم يخضعوا له، وهاجمـوه في كنيسته وبـين رجاله، وفشـل الجنـود في حمايته أكثر من مـرة، حتى أنه اضطـر للهروب من الإسكندرية، تاركًا البلاد بلا بطريرك سوى أثناسيوس المختفي في أديرة الصحراء.

كنـا نرسل لأثناسيوس بـكل جديد حيثما كان، فقـد كان يتنقل من دير لآخر ومن مغارة لأخرى، لا يصحبه سوى رهبان أبانوب ومن في مثل أمانتهم عليه، ورسائله تذهب إلى كل الأساقفة والكنائس والرؤساء، فكتب

مقالاته ضد الأريوسيين، ورسائله لسيرابيون أسقف تمى، وخطاباته عن الروح القدس، وكتابه المجامع، وعبر البحر من جهة الغرب إلى سردينيا في الشمال، رغم أن الإمبراطور قنسطانطيوس كان جادًّا في طلبه.

ظـل أثناسيوس مختفيًـا حتى مـات قنسطانطيوس، وتـولى من بعده يوليانوس إمبراطورًا في روما، فأمر بعودة المنفيين لبلادهم، هنالك أظهر أثناسيوس نفســه، وعاد إلى كرسيه من جديـد، وبصحبته لوسيفر أسقف كلاديوس، وأوسابيوس أسقف فرشيلي، اللذين كانا منفيين بالصعيد، ثم عقــد في العام التالي مجمع القديسين والمعترفـين، فكل من حضروه كانوا في المنفــى والسجون، وتصور الجميع أن الإسكندرية فرضت كلمتها على الكل، وشعــر يوليانوس بخطورة ذلك، فأرسل لنائبــه على الإسكندرية موضحًــا أنه أمر بعودة المنفيــين إلى بلادهم فقط، وليــس إلى كراسيهم، فثارت ثــورة الشعب، ورفضوا إبعاد أثناسيوســ عن كرسيه، لكن ذلك لم يضعــف يوليانوســ، ولم يجعله يتراجع، بل أرسل قــرارًا جديدًا بنفي أثناسيوســ إلى خارج بلاده، فاعتبر الشعــب الدفاع عن بطريركه قضية حيــاة أو موت، ورفض أن يصل الجنــود إلى أثناسيوس، واختبأ الأخير في مقــبرة أبيه ستة أشهر، حتى تمكن من الفرار إلى الحنوب، ومن هناك عبر طريق الرهبان إلى هضبة الملاح، حيث أقام معنا نحو عام لا يعرف عنه أحد شيئًا.

كان قد أرسل لى في دير الملاح بأنه لا يعرف أين يمكنه أن يذهب، فقد ضيق الرومان عليه الداخل والخارج، ولم يعد يأمن على نفسه، فالعيون قــد كثرت من حوله، وجدت أبانوب يتســاءل عن السبب الذي يمنعه من المجــيء إلى دير المــلاح، فهو آخــر الأماكن التي يتوقــع الرومان مجيئه إليهــا، قلت إن الديــر صغير، ويمكن تفتيشه في دقائــق، وليس له امتداد في الصحراء كي يتمكن من الهروب فيه، فكيف يمكننا أن نخفيه عن الجنود إذا حضــروا! قال إنه بالفعل كذلك، لكــن لا يمكن اقتحامه، فليس له سوى مدخل واحد عبر مخر السيل، وإذا صعد الجنود إلى الهضبة، وقلبوها رأسًا على عقب، فلن يجدوا غير الذي نريدهم أن يجدوه، فللملاح معجزاته.

حين تساءلت مندهشًا عما يعنيه، أخذ بيدي ودخل إلى الكنيسة التي أقيمت على مغارة الملاح، حيث دفن فيها رفاته ورفات اللبؤة وأشبالها، دخلنا إلى المذبح ثم عبرنا الباب الفاصل بينه والمقبرة، كان المكان مظلمًا، وبالكاد يظهر القبو الذي فيه جسد الملاح وبجواره القبو الذي وضع فيه رفاة اللبؤة وأشبالها، كانت رائحة الرطوبة والظلام يكادان أن يصيبا صدري بالاختناق، لكن أبانوب أحضر شعلة أضاءت المكان:

- ما رأيك؟

عدت بنظري إلى المغارة وقد امتلأ جوفها بقطع من الأحجار والصخور، فأبديت امتعاضي من أن نستضيف بطريرك الإسكندرية في مقبرة، وإن كانت الظروف قد أجبرته على اللجوء لمقبرة أبيه، فإنه لا ينبغي لنا أن نفعل ذلك، ترك أبانوب الشعلة في يدي ودخل في عمق الكهف، والكهف يضيق وينحني أمامه حتى جلس على قدميه، ثم نبش بعضًا من الرمل والحصى الموضوع في نهايته، فظهر ممر أشبه بسرداب في باطن الجبل، نام على بطنه وزحف بخلفيته كقط يتراجع إلى الوراء، حتى أنه اختفى عن عيني، فتقدمت بالشعلة حتى رأيته في نهاية السرداب يرفس بقدمه حجرًا، حين سقط الحجر من مكانه تهادى إليَّ نور ونسيم ووشيش بحر، بينما اختفى أبانوب من أمامي ولم أعد أراه، غير أنني سمعت صوته يناديني أن أترك الشعلة، فأسندتها على قبر الملاح وزحفت في السرداب حتى وصلت مغارة أكبر وأوسع من جهة البحر.

- كيف توصلت إلى هذه؟

هكذا سألت أبانوب، فأجابني:

- في إحدى المرات التي غاب فيها ديمتريوس بخلوته أعلى الجبل، تصورنا أنه تنيح دون أن نعرف بأمره، فأخذت بعضًا من الحبال والرهبان وتسلقنا الجبل، لكننا ضللنا المكان الذي اعتاد ديمتريوس الاعتزال فيه، وظللنا نفتش عنه حتى وصلنا إلى قمة الجبل، فأخذنا نشاهد البحر العظيم وهو يتدفق من أسفل القلزم الشامخ، ذاهلين عما يجري

حولنـا، حتى أن قدم أحد الرهبان زلت عن الصخر، وبدلاً من أن يسقط من فـوق الجبل إلى المـاء في الأسفل تعلق جسده بنتـوء في الجبل، وكان علينا أن ننزل لننقذه، فتعلقنا في الحبال التي معنا ونزلنا حتى وصلنا إليه، وبينمـا نربطه في الحبال كي يجره الرهبان إلى أعلى، إذا بأعيننا تقع على تلـك المغارة، فنزلنا إليها مرات ومرات، وفكرنا في موقعها والمسافة التي تبعدهـا عن مغارة الملاح، وفي نهاية الأمـر فكرنا في حفر سرداب يربط بـين المغارتين، ورحنا نجرب إمكانية الحفـر في الصخر، حين اتضح لنا أن الأمـر ممكن فعدنا إلى قبر الملاح، وذهبنـا إلى عمق مغارته، وأخذنا في الطرق على الصخر وتفتيته، حتى استطعنا أن ننقب سردابًا يربط بين المغارتين.

جلسـت وأثناسيوس في المغارة التي على البحر أكثر من عشرة أشهر، أكمـل خلالهـا كتابه عن القديسـ أنطونيوسـ الذي تنيَّح بعـد شهور من زيارتنـا له، وأكلمت قراءتي لرسائل أوريجانوس التي كان يرسلها للبابا ديونسيوسـ، لكن الحظ لم يسعف الأخـير في قراءتها حال وصولها، فقد كانت تصـل إلى دانيال شقيق أوريجانوس، هذا الذي لم يستطع أن يصل إلى ديونسيوسـ في منفاه، فما كان منـه إلا أن أخذ يحتفظ بها حتى كونت لديه ما يشبه الكتاب، فسلمها لناسخ وأخذ منه مقابلها مبلغًا من المال، فمان كان مـن الناسـخ إلا أن عمل عليها ليل نهار، حتـى أن نسخها وأصبحت منتشـرة أكثر من الكتاب المقدس ذاته، فوصلت إحداها إلى ديونسيوس في منفـاه، فلمـا قرأها بكى، وحين فكر في أن يرسـل في دعوة أوريجانوس للعـودة إلى الإسكندرية، كان المرض قد اشتد به، وانتقل من قيصرية إلى صـور، وهناك انتقلـت روحه إلى الأمجاد السماويـة، فبكي ديونسيوس وبكت الإسكندرية وربما العالم المسيحي ككل.

لم نكـد نصدق مـا أرسلـه لي تلميـذي جورجيوس، فقد كتـب قائلاً: مات الإمبراطـور يوليانوس وتولى الإمبراطـور جوفنيان، وورد من الأخـير خطاب لنائبه في الإسكندرية يطلـب منه الاعتذار رسميًّا إلى البابا أثناسيوس، ويعيـده إلى كرسيه البابوي، ومن ثم فالإسكندرية كلها الآن

تبحث عن البابــا أثناسيوس ولا تعرف طريقه. حين قرأ أبانوب الخطاب علينا كدنا أن نطير من الفرح، وودت لو أخبر جورجيوس أن أثناسيوس لدينا في دير الملاح، لكن أثناسيوس رفض قائلاً إنه لا ينبغي أن يعرف أحد بهــذا المكان، فلا أحد يعرف تقلبات الزمــن. أمَّنا على كلامه، مستسلمين لرغبته في أن يعود ســرًّا إلى الإسكندرية مثلما خرج منها، وهناك يحتفل به الشعب كما يريد.

كان جوفنيــان يعرف قدر أثناسيوســ، وكان أميل إلى قانون الإيمان النيقاوي، فأرسل لنائبه مؤكدًا عــودة المنفيين جميعًا ليس إلى بلادهم فقط ولكن إلى كراسيهم أيضًا، فشعرت الإسكندرية أن عصرها الذهبي قادم، وأخــذ الناس يحتفلون بعودة أبيهم إليهــم، وزاد في الفرح وصول دعوة جوفنيــان إلى أثناسيوس لزيارته في روما، فأسرع أثناسيوس بعقد مجمع مقدســ أعاد فيه التأكيد على قانون نيقية الأول، وأرسل خطابات لمختلف الكنائســ والأديرة بلائحة الإيمان القويم، وأن من يخرج عنها فقد خرج عن صحيح الدين.

ركــب أثناسيوســ البحر واتجــه إلى رومــا حيــث كان الإمبراطور جوفنيان في انتظاره، فاستقبله في احتفال مهيب كواحد من أعظم باباوات الإسكندريــة والعالم، وطلب منــه أن يقود القداســ الإلهي الذي حضره الإمبراطــور ووجوه دولته ورجاله، ثم عــاد إلى الإسكندرية على ظهر سفينــة محملة بالهدايا لشعب الإسكندريــة، لكن لم تمض أسابيع قليلة حتى مات جوفنيان، وتولى من بعده الإمبراطور فالنتينيان، وسرعان ما ولى الأخير أخاه فالينس على القسم الشرقي من الإمبراطورية، وكان فالينس أريوسيًّــا متعصبًا، فأرسل منشوراته لمختلــف أنحاء الإمبراطورية بعودة جميع الأساقفــة الذين نفاهم يوليانوس إلى أماكــن نفيهم من جديد، فحمل أثناسيوســ رحله ونزل إلى أعماق الدلتا ليقيم بين الفلاحين في بيت ريفي صغير.

كان أثناسيوس في هذه المرة منكسرًا ومستسلمًا إلى أبعد الحدود، فلم يشأ أن يقاوم أو يخالف الأمر، لم يكن راغبًا في مزيد من التصعيد، ربما لأنه

اقـترب من السبعـين، وربما لأنه روحيًّا كان قد ضعـف، ولم يعد قادرًا على ركوب الأمواج العصية، لكن شعب الإسكندرية كان على النقيض، فقد رفض أن يكون مجرد تابع لهوى الأباطرة الذين يتعاقبون على روما والقسطنطينيـة، رفض أن تحدد له دينه أهـواء الجبابرة الذين لم ينظروا يومًا في وجه فلاح بسيط، فخرج المصريون رافضين القبول بأي بطرك تسوقـه الإمبراطوريـة، وحين أمـر فالينس بعودة جـورج الكابادوكي إلى كرسـي الإسكندريـة لم يمكنه أحد من دخولهـا، وظلوا يطاردونه في الشـوارع حتى عاد برجاله مـن حيث أتى، وفي الطريـق قتله الوثنيون الذيـن طالهم ظلمـه، وظلت الثورة مستمرة في الشـوارع أشهر طويلة، فشلـت خلالها قوات الرومان في قمـع المتظاهرين، حتى أن الإمبراطور فالنتينيان أرسل إلى أخيه في القسطنطينية آمرًا بعودة أثناسيوس لكرسيه، فعاد ليتوج ثورة شعبه بالفرح، فعقد مجمعًا مقدسًا ضم تسعين أسقفًا، أعلن فيه تجديد إيمان الجميع وفقًا لقانون الإيمان النيقاوي.

-١٥-

كان لقــاء دميانة مــع الأسقف الكبير أشبه بنقطــة الانطلاق نحو الأفق الأعلــى، فقد شعرت أنها ليســت الوحيدة التي تعــاني، وأن معاناتها من الممكــن أن تكون تجربة كبــيرة أرادها لها القدير، كــي تصنع من خلالها رسالتها في هذا الحياة، آمنت دميانة أن ما تعيشه من آلام يعني أنها جاءت لتصنع شيئاً، فأخــذت تتعافى سريعًا من غضبها، وأخذ ذهنها يحسب لكل خطــوة حساباتها العديــدة، وشعرت أن الخير يحتــاج إلى بعض الأظافر كــي يظل خيرًا، فالنقاء ليس موجــودًا في طبيعة البشر، والخير والشر لا يشبهان سوى فعل الولادة، حيث الألم والفرح لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

جلســت دميانة في غرفة والدتهــا تتأمل ما جرى لها، لأول مرة تشعر أن عليها أن تأتي بفعل كبير، لكنها لا تعرف ما هذا الفعل، هي الآن موقنة أن يؤانســ ورجاله وراء كل ما يجــري لها، لكنها لا تدري إن كان ذلك محضــ صدفة أم عن قصــد، لا تعرف أين كان من الممكــن أن تصل بها رحلتهــا مع يؤانس لــو لم تقدها خطاها إلى الهرب مــن رجاله، وأين من الممكــن أن يكون أنطونيوس الآن، وهل أخذتــه الشرطة بالفعل أم أن ما جرى كان مجرد حيلة لتسليمه ليوساب؟

كان ذهنها في حالة عصــف لا تهدأ، حتى أنها كانت تخشى على نفسها من الجنون، وتردد في سرها أنها ما زالت عاقلة، وأنه لم يؤثر فيها أي من كل ذلــك، فهي التي ادعت الجنون كمهرب، وهي التي تمسكت بالصمت كحائــط صد، وهي التي تعــرف أن القدير يرعاها، تسمــع أصوات كلبه وضربــات أقدامه، تعــرف الاتجاه الذي يريدهــا أن تمشي فيه، وتدرك بالحدســ أنها كانت على صواب، لكنهــا لا تعرف السبب، فقط تشعر أن عليها أن تسير حيث يرشدها قلبها، وقلبها يقول إن أنطونيوس يحلق الآن

بعيـدًا، فهل تحرر مـن جسده أم أن الكلب السمـاوي يطارده ليذهب إلى مكان أبعد مما تتوقع.

كانـت تريزا قـد استندت في جلستها على سريرهـا وهي تنصت إلى ما حكتـه دميانة عما جرى لها، ولم تفعل سوى التنهد والصلاة، وفي النهاية احتنضتهـا باكية ومقبلة رأسها، وكأنها تعتذر عما فعلته شرور العالم بها، لكن دميانـة التي بكت، كما لو أن بكاءها كان مؤجلاً إلى أن تلتقي بأمها، جففت دموعها ونظرت في عين تريزا سائلة:

– ما رأيك في أنطونيوس؟

لم تستطـع تريـزا أن تمنع نفسها عـن الابتسام، فابنتها تفكـر كغيرها من البنات، لكنها عادت وتنهدت ثم صمتت، وحين أعادت دميانة سؤالها أجابتها:

– راهب!

استوعبـت دميانة الرسالة، وفهمـت أن البحث في قلبها عن رجل نذر نفسـه لملكـوت الرب أمر قاسـ وفاسد، وأنها لا ينبغي لهـا أن تقع في هذا الأمـر، لا ينبغـي لهـا أن تفكّر في منافسـة الرب على قلـب شخص ما، فاضطجعت على الكنبة المواجهـة لسرير تريزا وأغمضت عينيها بحثًا عن النوم.

تأملـت تريزا نوم ابنتهـا على كنبة صغيرة بجـوار النافذة، وتذكرت وجـه يؤانس حين جاء ليقنعهـا بإجراء الفحوصات الطبيـة، كانت يومها مخطوبـة لصـلاح مـتري، وكان يؤانسـ رافضًا لهـذه الخطوبة، كان يخشـى أن تتكرر مشكلته مع زوجته، تلك التي اضطرت لتغيير ملتها كي تحصـل على الطلاق من الكنيسة، لم يكن حديثه مقنعًا، لكن تجربته كانت حزينة، وصـلاح كان متأثرًا به، وللحظة شعرت أنهـا قد تفقد خطيبها، فهـزت رأسها وأومـأت أنها ستفعل مـا يريده، وفي الصبـاح ذهبت مع صـلاح إلى المستشفى، وأجريـا التحليلات التي ظهـرت نتيجتها بعد عدة أيام، كان خوفها خلال هذه الأيام واضحًا، لكنها تماسكت وصلَّت للقدير ألا يكسر قلبها، ذهبت إلى الكنيسة وأشعلت الشموع للرب وللأم العذراء، ولم تتمالـك نفسها حين علمت أن النتيجة جيـدة، فرقصت وغنت بصوت

واضح أمام أهلها الذين لم يعرفوا بما حدث، لكنهم سعدوا لسعادتها، بينما اعتذر لها صلاح مرات ومـرات، وشعرت أنها ترغب في رؤية يؤانس كي تخبره أنه ليس أكثر من شيطان يزرع الشك في القلوب.

ورغم أنها حين رأته فيما بعد أخبرته بأنه حموها الفعلي إلا أنها لم تكن تحبـه، ظلت طوال ما بقي من عمـر صلاح تحترم ذكره أمامها، وتخفي وساوسهـا تجاهـه، فقـد كانت تحب صـلاح بجنون، وتقدسـ شخصيته الوديعـة، موقنـة أنـه المسيح الجديد الـذي يهدر حياته مـن أجل خلاص الآخريـن، ولم تسعها الدنيا من الفرح حين علمت أن زوجها أصبح على خـلاف مع يؤانس وجماعتـه، فأخذت تخفف عنه وتوضـح له الفوارق بينهمـا، قالـت إنه يهرع لنجـدة الناسـ في أي وقت وأي مـكان، يرفع القضايـا ويسهر على كتابة المذكـرات ويضيع وقتـه في الجري بردهات المحاكـم للدفاع عن أناس لا يعرفهم دون أجر، أمـا يؤانس فإنه لا يؤمن بغير القوة والقتل والتفريق بين الناس بتشدده، كانت الحياة في بيت تريزا تـدور بالكاد، لكنها كانت مليئة بالحـب، وكانت دميانة التي تأخر مجيئها كثيرًا هي خلاصة المحبة التي جمعتها بصلاح مترى.

تأخرت دميانة في مجيئها، وكأنها كانت تريد أن تقول لأبيها إن الحذر لا يمنع قدرًا، وإن الله محبة وليس طبًّا وفحوصات، وكأنها أيضًا لم تكن راضيـة عن يؤانس وشروطه، وكانت تريـزا كلما مرت السنوات دون أن تنجب لا تذكر زوجها بما حدث، ولا تخبره أن الله لا يقبل أن يُشترط عليـه، هو أيضًا لم يكن يسألها عن السبب، ولم يفكر للحظة أن يطلب منها الذهاب لطبيب، قال إنه راض بمشيئة القدير، وليس هناك شرط على الله.

حين تـوفي صلاح ظهـر يؤانس، قـال إن صلاح كان ابنـه الذي لم ينجبـه، وإن له في عنقه الكثير، ولابنته حقـوق والدها عليه، لكن تريزا التي أمنت على كلامه لم تفكر للحظة أن تلجأ إليه، كانت توقن طيلة الوقت أنه ليس أهلاً للخير، وأن قلبه مات من القسوة بين ضلوعه.

حين حكت لها دميانة عن يؤانس الذي قال إنه صديق والدها وأستاذه، شعـرت تريزا أن قلبها الضعيف غير قادر على احتمال مزيد من الأسى، كانت دميانة تحكي وتريزا تصلي للمسيح أن ينقذ قلبها من الخوف والألم،

ومـا إن انتهت من الحكي حتـى احتضنتها وبكيتا معًا، ظلتـا تبكيان حتى جفـت من عيونهما الدموع، وفجأة وجـدت تريززا ابنتها الوحيدة تسألها عـن أنطونيوس. من كل قلبها كانت تود أن تنهض من سريرها وترقص فرحًا، فقد طال انتظارها لهـذه اللحظة، وكل أمنياتها أن ترى دميانة في ثوب الزفاف، ترى البنات يرقصن حولها والقس يعقد إكليل زفافها، لكن عقلها تذكر أنهـا تحدثها عن راهب، كيف يمكن لها أن تتزوج برجل نذر نفسه للحياة البتولية، كيف يمكنها أن تجرؤ على ذلك؟

عادت تريزا بنظرها نحو ابنتها النائمة على الكنبة المخصصة للمرافقين وتمنت أن يرزقها الله بأفضل الرجال، ثم أغمضت عينيها لتسرح بخيالها في زوجهـا الراحـل منذ سنوات، زوجهـا الذي طالما حدثهـا عن العمال والثـورة ثم مـات قبل أن يشهد أيًّـا من أحلامه تتحقق، كانـت تتمنى أن يكـون معها الآن، يمسح على رأسها ويقبل جبينها قائلاً إن أحدًا لا يجرب القدير، فأين هو الآن ليأخذ ابنته في جولة عبر النيل ويحكي لها المزيد من قصص القديسين والشهداء، أين هو ليحميها من يؤانس ورجاله؟!

في الصباح نهضـت دميانة منشرحة الصدر، ممتلئة بالتفاؤل، لم تكن تعـرف سببًا لدبيب الأمل في روحها من جديد، لكن والدتها رأت ذلك في عينيها ووجهها، شعرت بإقبالها على الحياة، ورغبتها في تجاوز ما جرى لهـا، احتضنتها بـود وأخذت تصلـي للمسيح والعـذراء، وعلى الفطور أخـذت تذكرها بالصلاة التي كان والدهـا يقولها على الطعام كل صباح، بالـكاد تذكـرت دميانة بعض الكلمـات منها، لكن تريـزا كانت ما زالت تذكر كل حرف فيها (ربنا أعطنا خبزنا كفافنا، وبارك لنا في أرواحنا من اليأس والهم والعطب، وأعطنا قلوبًـا منفتحة على العالم، وعقولاً قادرة علـى الاتساع لمعاني كلماتك ومعرفة وجوهك، ربنـا إنا أخطأنا واعترفنا بخطئنـا، فاقبلنا في ملكوتك مع الطيبين، وباعـد بيننا وبين الشرير، باعد بيننا وبين الخطيئـة والزلل، واحفظ أجسادنا وألسنتنـا من أفعال الشرير وأتباعه، ربنا آمين آمين آمين).

كانت تريزا تتلو الصلاة التي تعلمتها من صلاح متري، قائلة إنه وجدها ذات يوم في كتاب عن العلامة الكبير أوريجانوس، حينها دهشت دميانة وسألتها عما تعرفه عن أوريجانوس. أوضحت تريزا أنها لم تكن تعرف شيئًا عنه حتى تزوجت صلاح، بعدها رأت اهتمامه بكل شيء عنه، وجدت كتبًا له في مكتبته، وأوراقًا عليها اسمه وصوره، حين سألته عنه قال إنه علامة كبير، لكن حظه كان سيئًا، فقد لعن وحرم وطرد من مدينته، لأن ديمتريوس الكرَّام غار منه، لكن حضوره كان قد تخطى حدود المدينة، وأصبح معروفًا في العالم المسيحي كله، كانت تريزا تحكي بأسى وكأنها تتذكر زوجها وحياته وفكره، لكنها في الحقيقة كانت تشعر من داخلها أن خطيئة ما أصابت زوجها بسبب حبه لرجل حرمته الكنيسة، حاولت طوال السنوات التي عاشتها معه أن تتغاضى عن هذا الأمر، لكنها في قرارة نفسها كانت تشعر بخطيئة ما، كانت تصلي للمسيح كي يتجاوز عن ذلك، ويقبله في ملكوته، ولا يجعله مع المحرومين.

كان عليها أن تجري اتصالاً من موبايل تريزا بنائل كي تطمئن عليَّ، وحينها فكرت في أن تشتري موبايل لها وآخر لي، وتمنت لو كان لأنطونيوس موبايل كي تتمكن من الاتصال به، كان عليها أن تفكر في كيفية دفع حسابات المستشفى، فجميع أوراقها فُقدت في الليلة التي تم ترحيلها فيها من الدير، لا تذكر كيف فقدت لكنها وجدت نفسها بلا وثيقة واحدة توضح هويتها، وهو ما جعل رضا وزوجته يمنحانها اسم أنجيل، لا تعرف لمَ اختارا هذا الاسم، لكنها انصاعت للتعامل به خلال وجودها معهما، وحتى بعد أن ذهبت إلى دير النساخ، لم تتخلص منه إلا بعد لقائها بيؤانس.

ما إن ظهرت صورة يؤانس في مخيلتها حتى تذكرت تعامله الرقيق معها، وكيف أصبحت تتمتع بمكانة في الدير بسببه، وكيف كان الرهبان طوال القامة يحرسونها طيلة الوقت، تذكرت أنهم لم يوقفوها في جبل الطير، ولم يسعوا لملاحقتها حين ألقت بنفسها هرولة نحو النيل، ولا حتى ملاحقة السفينة التي أقلتها مع ركابها إلى القاهرة، فهل كان كل ذلك صدفة؟

فجـأة ظهر هذا السؤال في مخيلتها وهي تعيـد ترتيب الأحداث، كانت تريد أن تعـرف إن كان يؤانس معها أم ضدها، فحسم ذلك الأمر سيحدد الخطوات التي عليها أن تتخذها الآن، في هذه اللحظة اتصل بها نائل ليخبرها أنه وأحمد وملاك على باب المستشفى، فدعتهم لرؤية والدتها التي تنام في حجـرة خاصة، ولم تمض دقائق حتـى كانت الغرفة تمتلئ بمشاعر المحبة والخجل والدعاء والشكر، بعدها نزلنـا للجلوس على كافيتريا المستشفى، قال نائل وأحمد أنه لا بد من إبلاغ الشرطة عن أن أنطونيوس تم اختطافه مـن قبل رجال يوساب ويؤانس، لكن دميانة قالت إنه هرب من الشرطة نفسهـا، وفي حـال غيابه العـادي فإننا لا نملك الإبلاغ عـن غيابه إلا بعد مـرور ثمانية وأربعين ساعة، ثم أوضحت أن الحل يكمن في نقل المعركة إلى بيتهم، أي أن تقوم هي باتهام يوساب والمنحني بمحاولة قتلها.

كنـت أنظـر إليهـم وهـم يتبادلون الخطـط والأفـكار وكأننـي لست موجـودًا، فقط أتأمـل حماسهم ورغبتهم في سد الثغـرات، ولم يفكر أي منهم أن يسألني عن رأيي، حتى أنني اضررت في النهاية لأن أرفع يدي في وجوههم طالبًا الكلام، حينها انتبهوا لي:

– صحيح.. ما رأيك يا ملاك؟

سألتنـي دميانة بحماس واضح، فرسمـت ابتسامة ساخرة على وجهي وأنا أقول:

– نتهمهم بقتل باخوميوس، ونشر أعمال منافية لتعاليم الكنيسة؟

بدا على وجوههم أنهم لم يستوعبوا، وأخذوا يسألونني عن أدلة ذلك، فرحـت أحكي عن شنق باخوميوس، وعـن القصاصات التي قرأتها حين نزلـت للمهندس عماد في المطبعـة، ما إن سمعـوا ما أقولـه حتى تلونت وجوههم وزاغـت عيونهم، وبدا كما لو أنهم مقبلـون على حالة حرب. تحـدث أحمد عن أهمية أن يعرف الرأي العام مـا توصلنا إليه، لأن ذلك يفسـد عليهم ما يخططون له، لكن نائل هذه المـرة هو الذي قال إن كل ما

يجـري في دير أو غيره مسألة قبطية، ولا ينبغـي للمسلمين التدخل فيها، فأكـدت دميانة أن الشرطـة هي الحل، لكن تشريح جثـة باخوميوس يعد إهانـةً لمكانته، وفي حال ثبوت أن الدير تجري بـه أعمال مخالفة للكنيسة فإنه سيغلق.

بدا الأمـر كما لو أننا أمام معضلة لا حلول لهـا، فوضع الجميع رأسه بين يديه وجلسوا كما لو أنهم في حالة حداد على عزيز لديهم، مرت دقائق علـى هذا الحال قبل أن يفتح نائل موبايلـه مستطلعًا آخر الأخبار، وكانت المفاجـأة التي ألقـى بها علينا، أن يوساب أصبـح رئيسًا لدير الملاح، بينما المنحني أصبح أسقفًا لأبرشية أسيوط.

-١٦-

رسائل أوريجانوس (١٧)

عزيـزي ديونسيوس، أعرف أن رسائلـي قد كثرت، وأن الأصدقاء الذين يتكفلـون بحملها إليك قد تضرروا من كثرتها، أعرف أنهم يرونني الآن عجوزًا مصابًا بالجنون، ويتمنون إبلاغي أن أحدًا لا ينتظر رسائلي، لكننـي كما أخبرتك، أشعر أنني أريد الاعتراف على يديك، وليس أمامي سـوى هـذه الرسائل لأقـول كلماتي الأخـيرة، كنت أتمنى لـو كتبت لي الشهادة ككثير ممن عرفت في حياتي، توقعت أن ذلك سيحدث في ظلمات السجـن، توقعته وأنا أئن أسفل الطـوق الحديدي الملتف على عنقي، بينما قدماي مثبتتان بشـكل زاوية منفرجة على لوح خشبي بالأرض، في هذه اللحظات كنت أشعر بما شعر به المسيح منذ أمد، كنت أدرك آلامه ووهنه، وأرى رسـل السماء تلوح براياتها البيضاء علـى الجدران المظلمة، بينما ترتيلها لنشيد الأنشاد يتهادى إلى أذني:

في الليل على فراشي طلبتْ من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته

إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته

وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسي

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه، حتى أدخلته بيت أمي، وحجرة من حبلت بي

أحلفكـن يا بنـات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقـل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

كنـت أغني مع الرسل على أنغام لا أعرفهـا، وأتوقع أنني عما قريب سأصعـد، لأنهم واقفون في انتظـاري، كنت كلما اشتـد الوهن أشعر أن لحظـة الشهادة قد اقتربت مني، تلك التي نالها أناسـ أقل محبة لها، نالها عبيد وإمـاء وعاملات في الحقول، نالها رجـال أمضوا حياتهم في عبادة الأوثـان وتقديم الأضاحي، حتـى الجنود الحمقى الذيـن عذبوا الأرض ومـن فيها نالها بعضهم، هؤلاء لم يروني أهلاً للشهادة، فما كانوا يصبون الزيـت المغلـي على رأسي، واكتفـوا فقط بجلدي وكـي أضلعي برءوس قضبـان متلألئة في النار، كانوا يطفئـون ضوأها في جلود المصلوبين على عرائسـ خشبية كما كان المسيح في يـوم عرسه، كنا ننزف ونشتم حرائق أجسادنـا ونضحك، نغنـي مع الرسـل المتمايلين على الجـدران السوداء المظلمة ونضحك، نمسح جلودنا المحترقة في الجدران المطلية بالقار الأسود ونضحك، نمســح أرواحنا المتساقطة ونغني ثم نضحك، منتظرين اللحظة التي سيرفع الرسل فيها راياتهم، ويحملون أرواحنا عنا، لكنهم لم يفعلوا، الجنود الذين كانوا يبكون لأجلنا لم يفعلوا، الجنود الذين كانوا يزغردون كلمـا مات واحـد منا لم يصبـوا الزيت على الرءوسـ، ولم يمنحونا حق الموت المكلل بالشوك على أيديهم.

كنـت قـد اتفقت مـع أمبروسيوس علـى أن نذهب إلى بـلاد العرب، فخرجنـا متجهين نحو الجابية، تلك التي التقيـت فيها منذ سنوات بصديقي الملـك جفنة بن عمرو، حـين نزلنا بمدينته لا نعـرف كيف وصله الخبر، فوجدنـا عربة بجوادين ناصعي البياض تقف بمحاذاتنا في أحد شوارعها، نزل منها رجل يشبه جفنة لكنه ليس هو، كان ابنه عمرو بن جفنة، قال إن والده أرسله لاستقبالنا، حينها رأيت آثار الفرح على وجه أمبروسيوس، شكرتـه على جميل صنعه، وذهبنا برفقتـه إلى القصر، كان جفنة ما زال قويًّـا يخيف مـن لا يعرفه، لكنه كـريم، طيب القلب، وفي لمـن يثق به، أبـدى ترحابه الشديـد بنا، وكان صادقًا في فرحه، فمـا زال يتذكر لقاءنا القـديم، يتذكر ما سمعـه من عظات، حتـى أنه كان يعيد علـى مسامعي بعضـ مقاطعها، لا أعرف كيف لرجل حـربٍ مثله أن تحتفظ رأسه بكل

هـذه الكلمات، ضحكت وأنا أنصـت إلى طريقته مقلدًا حديثي، أمضينا في ضيافته عدة أيام، حضرنا فيها قداس الأحد بكنيسة الجابية، ووعظت فيها مرتـين أو ثلاث، ثم تركـت له نسخة من كتابي هكسابـلا، واستأذنته في الذهـاب لمملكة تدمر المجاورة، لمحاورة المهرطقين بها، وعظة الناس من السمـاع لهم، فزودنا بجوادين، وأرسل معنا واحدًا من قادة جنده، حتى جاوزنا حدود بلاده، فتوقف قائلاً:

– أذينة ملك كريم، لكن مزاجه غادر، فتوخيا الحذر.

شكرنـاه على نصحه وكرمه وتركنا بـلاده المنحوتة في الجبال مكملين طريقنـا نحـو الشرق، حيـث تدمر الجميلـة وملكها العربـي، فرحب بنا في كنيستهـا أسقفهـا مارجيلوس، وسمح لنا أن نعـظ في وجوده مرتين، واصطحبنـا لنلتقي ببعض المقيمين خارج المدينـة، وكان بعض الكهان قد سمـع بوجودي في بلادهم فأتى يسألني عن أمـور تختلط عليه، فلما تعدد مجيئهم للسؤال عن طبيعة الرب، وإن كان أقنومًا واحدًا أم ثلاثة، سألت أسقف المدينة عن سبب تكرار هذا السؤال، فقال إن أسقفًا يدعي كريسبوس جاء من أنطاكيا وأقام في بعض القرى البعيدة في الجبال، فأخذ يعلم الناس أن الـرب أقنوم واحد وليس أقانيم ثلاث، وتمثل بالزهد والورع في كل شيء، حتى أن الناس كانوا يتركونني ويذهبون إلى الجبال ليسمعوا منه، فطلبت من مارجيلوس أن يعقد مجمعًا كنسيًّا لأساقفة بلاده وكهانها، ومن بينهم كريسبوس، كي نتحاور فيما يقوله وما نؤمن به.

كانـت أفـكار الهراطقة منتشـرة في كل مـكان، وكان علينـا أن نعيد الأذهان إلى مواضعها في الرءوس، فتركنا مارجيلوس يعد لمجمعه المقدس وأخذنا ندور على القرى نسمع من الناس ونعظ من نجده في طريقنا، بعد نحـو أسبوعين كان قد اجتمع نحو ثلاثـة أساقفة واثنا عشر كاهنًا في كنيسة تدمر، ووقف مرجيليوس أمام الهيكل معلنًا للجميع فرحه بوجودي بينهم كعلامـة تدور الاجتماعـات في مختلف الكنائس لمناقشـة آرائه وتفسيراته للكتاب المقدس، وأنهى حديثه بأنه في الآونة الأخـيرة سمعنا من قال إن الـرب أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم، هنالك وقـف الأسقف كريسبوس

مشيحًــا بيده في وجه مرجيليوس، معلنًا أنه رجل دين وليس مهرجًا، ولا يحــق لأي من كان أن يطلب منه عرض أفكاره على رجل لم يرسم حتى كاهنًــا، بل إن أستاذه ديمتريوس حرمه وقام بطرده من كنيسته، وأرسل لجميع الكنائس مطالبًا بحرمانه.

بدا علــى وجه مارجليوس الغضب، وشعرت أنــه يتمنى لو ينزل من مكانه فيصفــع كريسبوس على وجهــه، لكنني وقفت في مــكاني مبتسمًا، وأخذت أنظــر في وجوه الحضور الذين تعالــت أصواتهم غضبًا في وجه كريسبوس، ظللــت أبتسم مطالبًا إياهم بالهدوء، وحين شعرت أن صحن الكنيسة أصبح صامتًا في انتظار ما سأقوله، عاودت الابتسام من جديد قائلاً إن الأب كريسبوس على حق، وإنني ما جئت إلى هنا لأعظ الأساقفة، فلا يجــوز لعلماني أن يعــظ رجل دين من الإكليروســ، وأظن الأب المبجل أساء فهم كلمات الأب مارجليوس، وحدث بهذا السبب لغط يحتاج منا أن نتوقــف اليوم للصلاة من أجله، ونبــدأ اجتماعنا غدًا، فما جئت إلا لأسمع وأتعلم وأقول، إن فتح الرب عليَّ بشيء من نور معرفته، بدا أن الجميع فوجئ بكلماتــي، فلم أقف لأعظ أو أرد ما قالــه كريسبوس، فقط طالبت بتأجيل الاجتماع إلى الغد، ثم أومأت مبتسمًا لمارجليوس، فطلب منهم أن يوافقوا على طلبي فوافقوا.

كان أمبروسيوســ يود لو يصل إلى عنــق كريسبوس ليمزقها، لكنني أمسكــت بيده قبل أن أنهضــ طالبًا الحديث، وزاد غضــب أمبروسيوس حــين وجدني أبتســم مؤكدًا صــدق حديــث كريسبوس، لكنــه كتم غيظه والتزم الصمت حتى يرى خطتي، ولم يكن لدي أكثر من أنني شعرت بما شعر بــه كريسبوس، فالنصيحة على الملأ تعني إدانة للأبد، وكان الأخير يخشى أن يقر أمــام الجميع بأنه كان على خطأ، أو أن يصر على عناده، فيتخــذ المجمع قرارًا بحرمانه، لذا فضلــت أن أبقيه منتصرًا وأحفظ له ماء وجهه، وجلست في البيت الذي أعده مارجليوس لضيافتنا، أؤكد أن سوء الفهم هو الــذي أحدث هذا الخطأ، وأن الرجل لم يفتئت عليَّ، فما قاله هو مــا حدث بالضبط، وإن كنت أرى أن ذلك محنة واختبارًا لي من الرب، فإن الرجل لم يحكم إلا بما علم.

بعد الظهيرة سألت عنه فقيل إنه ترك المجمع وعاد إلى قريته، فقلت لهم دلوني على مكان إقامته، فقالـوا إنه في الجبال، ويصعب الوصول إليه، قلـت إنني لن أنام في مكان قبـل أن أذهب وأتناقش معــه، فأحضروا لي ولأمبرسيوس بغلين وخرجنــا نتبع خطى أحد الشمامسة، حتى وصلنا في الظـلام إلى بيت كريسبوس بعد سفر مجهـد وطويل، كان الليل قد أوشك على الانتصاف ونحن نقرع الباب، ولم تصدق امرأته أننا قطعنا كل هذه المسافة لنتناقشـ في شئون الدين، وأنه لا طعام ولا شراب قبل أن يقنعني أو أقنعه بحجته أو حجتي.

في البدء قلت له إنني سأقبل اعتذاره عما قاله لي أمام الأساقفة والكهان هـذا الصباح، وسأعتذر له لو أقنعني بحجتـه، وسأمشي في ركابه حاملاً حـذاءه في يـدي عشرة أيام كاملـة، حتى يعلم جميع الناسـ أنه على حق وأننــي على خطأ، أما إن اتضح لــه خطأ قوله وتعاليمه فعليه أن يعتذر لي أمام الناس غدًا، ثم طالبته بالحديث أمام زوجته وأمبروسيوس والشماس الــذي اصطحبنا، كي يكونوا جميعًا شهودًا علينــا، أخذنا ننصت إليه وهو يتحـدث عـن الآب بوصفه مصدر الحياة، وأنه أعطــى الابن قدرته على الخلــق حين خلقــه، وأن الروح القدس لم يكن لــه دور في عملية الخلق. حين انتهى مــن حججه من الكتاب والمنطق والاستــدلال بالعقل، صفقت لــه، وقلت أتعني أن هناك مسافة في الزمن بين وجود الله ووجود الابن؟ فقــال نعم، فعدت أسأله أو تعني أيضًــا أن الابن مخلوق خلقه الرب؟ قال نعــم، وأنه لا وجود للــروح القدس إلا كرسول بــين الآب والابن؟ قال نعم، قلــت وأن الآب أنزل ابنه كي يفتدي بــه الخليقة؟ فأجاب نعم، قلت فكيف يغفر الابن الخطايا، وكيف تعبد مخلوقًا وتترك الخالق، وأين كان العــالم قبل أن يخلق الرب الابن؟! وأخــذت أحاصره بأسئلتي عن العلاقة بين الأقانيم الثلاث ووحدتها، حتى شعر أن ما يطرحه من تعاليم لا يمكنها أن تســد الثغرات التي تفتحها، وضحكت زوجته وأمبروسيوس، واحمر وجه الشماس وظهرت عليه علامات عدم الفهم، فأخذت أرتب له أفكاره من جديــد، وأوضح لــه أن الآب والابن والروح القدســ أقنوم واحد،

لا يمكــن الفصل بــين أي منهم، جميعهم من أصــل واحد، وقوة واحدة، وطبيعة واحدة، جميعهم الله، وليس أي منهم يمكنه وحده أن يكون الله، لأن الله ليس وجهًا واحدًا للحياة.

ظللــت أشرح وأعظ، وهــو يسأل عما خفي عنه حتــى ارتفعت شمس اليوم التالي عــن الأرض، وشعر بضحالة علمــه، وعدم معرفته، فأخذ يعتذر عما بدر منه في اجتماع الأمس، وبينما أحضرت زوجته طعامًا لنا أخذ يتجهــز هو كي يعود معنا إلى المدينة، فيعلن اعتذاره لي أمام الجميع، لكنني رفضت، قلت إنني لا أحتاج منه سوى أن يراجع نفسه في تعاليمه، فإن أدرك أنــه على خطأ فعليه أن يكفر عن خطئه بتصحيحه لدى تلاميذه ومــن أخذوا عنه، أما الاعتذار لي فسوف أبلغ مارجليوس وبقية الأساقفة والكهان أنــك متوعك، وهذا سبب انسحابك دون رغبة في إقلاق أعضاء المجمع.

وقــف كريسبوس وزوجته في وداعنا فرحــيْن شاكرين، بينما أقسمت أمامــه علــى أمبروسيوس والشماســ المرافق ألا يتفوهــا بكلمة عما حدث أمامهمــا، وأن يذيعــا أمام الجميع أنــه مريض ويبلغهم تحياتــه، وما إن وصلنــا في المساء حتــى شاع خبر مرضه، فتصور الــكل أن غضبي عليه كان سببًــا في ذلك، بينمــا لم يتطرق أحد إلى أفــكاره ولا تعاليمه، ونسيه الجميــع خلال اليومين اللذين انعقد فيهما المجمع، وكان دوري أن جلست أرد على أنواع البدع التي علموا بها أو لم يعلموا، مؤكدًا أن الكتاب المقدس لا يفســَّر بطريقة تفسير كلام البشر، ولا يتعرضــ له إلا رجل يتدبره في عقله ليل نهار، أما هؤلاء الذين يأخذون بعضه ويتركون بعضه، فهؤلاء يضلــون أنفسهم قبل أن يضلوا غيرهم، ولا يزيــدون الناس إلا فتنة على فتنهم.

-١٧-

كان علــى أنطونيوســ في سيارة الترحيلات التي تم الــزج به فيها أن يفكــر في المصير الذي ينتظــره والماضي الذي هرَّبه منــه أستاذه إيمانويل الطيــب، فتذكر كونه قاطع طريق يجلســ على صخرة في الصحراء على هوامشــ القرى، مثلما تذكــر نشاطه في الجامعة، تذكــر كيف انضم إلى فرقة الكشافة القبطية حين التقى به اثنان من زملائه مادحين جسده الفارع وسلوكه القويم، قالوا إنهما يمكنهما أن يدرباه ليصبح رياضيًّا مهمًّا، فلديه الإمكانيات لكنه يحتاج إلى عناية أكبر.

لم يكــن أنطونيوســ مهتمًّا في يوم أن يكون لاعبًــا رياضيًّا، لكنه أمام الكلمــات والاهتمــام المبالغ فيــه شعر بنوع مــن الزهــو، وكان عليه أن يستجيــب لصحبــة زميليه كي لا يفقــد ما يراه في عيونهمــا من حفاوة، لم يمض أسبوع حتى وجد نفسه في أوتوبيس يقطع الطريق إلى بني سويف، حيــث التقى هناك بعدد أكبر من الشباب طــوال القامة الذين توافدوا على الديــر، أمضى أسبوعًا كامــلاً هناك. كان الأمر في بدئــه أشبه بنوع من تأديــة الخدمة العامة، وسرعان ما تحــول إلى نوع من الجندية والالتزام الواضح بالتدريبات القاسية، كانت رغبة أنطونيوس واضحة في التفوق، حتــى أنه حقق أرقامًا قياسية في السرعــة والقوة ودقة الملاحظة، في نهاية الأسبــوع سمــع أن الأب يؤانســ سوف يجــيء لزيارتهــم، لكن هذا لم يحدث، فقد اعتذر لانشغاله بالسفر.

علــم أنطونيوســ أن هــذا المعسكر بمثابــة اجتماع يعقــد كل شهرين، فيجيء الأعضــاء لتمضية وقت معًا، وسماع عدد من العظات المهمة التي تحضهم على الدفاع عن دينهم القويم، وأن من يرغب في إكمال تدريباته

الرياضيـــة فإن قائد الكشافة يتكفَّل بذلـــك، شريطة أن يكون التدريب على لعبة يحتاجها الفريق، دهش أنطونيوس أنه أيضًا سيحصل على مقابل عن كل يوم أمضاه في المعسكر.

كان حماســ أنطونيوســ كبــيرًا للانضمام إلى الجماعــة، حدث ذلك في العــام الثاني من الجامعــة، واستمر مدة عامــين يواظب على حضور تدريبات المعسكر التي تعلم فيها حمل السلاح، كانت المرة الأولى في حياته التـــي حمل فيها سلاحًــا، ووقف في العام الجامعي الثالــث خدمة لحراسة الدير، أما حمل العصا فقد تكفلت به تدريباته على الكونغفو في الساحة التي اشترك بها، وبقدر ما سمع عن الأب يؤانس إلا أنه لم يلتق به، وبقدر ما بذل من جهد في التدريب بقدر ما جاءته رسائل برضا الأب يؤانس عنه، وفي نهايــة العام الثالــث أصبح قائدًا لمجموعة، وعاد مــن معسكره سعيدًا بمــا معه من ترقية ومــال، لكنه فوجئ بأهله يندبــون حظهم، إذ ظهرت جماعــة سلفيــة في القرية وراحــت تطالبهم بالجزية، كان مــن الممكن أن يدفــع أنطونيوس ما معه ويفتدي نفسه وأهلــه، لكنه كقائد وطالب جامعي مــا كان له أن يخضع لمنطق الإذلال، فقــرر أن يلجأ إلى الشرطة لحمايته وأهلــه، فمــا كان من الضابــط إلا أن طمأنه، موكــدًا أن عمله هو تحقيق دولة القانون، في ذلك اليوم خســر أنطونيوس كرامته وسمعته وحياته، فقد تحول من طالب جامعي إلى قاتل وقاطع طريق.

هــز أنطونيوســ رأسه مؤكــدًا لنفســه أن منطق البلطجة هــو القانون الحاكــم، وتذكر الكارثة التـــي يعيشها، وما ينتظره مــن اتهامات، شعر برائحـــة كلب السماء وهي تتصاعد مــن أحد أركان العربة الضخمة، كان صندوقهـــا الكبير أشبه بزنزانة متنقلـــة، نظر في وجوه الذين معه فوجدهم مــن المتسولين وأطفـــال الشوارع، وضع يده في فمـــه وأخذ يحرك لسان اللهـــاة لديه حتى تقلصت أمعاؤه وأفرغت ما بها، وراح يطرق على باب السيـــارة مؤكدًا أنه يموت، ومع قليل من التشنج تأكد الحارس الجالس في الخـــارج أن ثمة مصيبة نزلت على رأسه، فمـــا كان منه إلا أن فتح الباب ودخـــل ينظر ما يجري، لكن الـــذي كان يموت جذبه من سترته وضرب

رأسه في الأرض، ثم قبض على مسدسه وطلب منه أن يفك قيده، وما إن حدث ذلك حتى قفز من السيارة، وانحرف بسيره في الشوارع الجانبية.

كان أنطونيوس يدرك أنهم لا يعرفون اسمه ولا شيئًا عنه، ومن ثم فمجرد هروبه من بين أيديهم سيجعل الأمر كما لو أنهم لم يروه من قبل، وكان عليه أن يغوص قدر ما يستطيع بين الناس، فقفز في أوتوبيس لا يعرف وجهته، وتكفل أحد الركاب بدفع تذكرته، وما إن سمع المحصل يعلن عن محطة رمسيس حتى وجد نفسه يتحرك مع النازلين، ليتوه في الميدان الكبير، ويقف لا يعرف أين يمكنه الذهاب، ولا يعرف لم لاحت في ذهنه صورة أستاذه باخوميوس، وشعر أنه موزع بين الهروب من الشرطة والعودة إلى بيت تريزا لارتداء جلبابه وحمل صليب باخوميوس.

شعر بالعجز حين بحث عن مال معه فلم يجد، وللحظة رأى الدنيا مظلمة من حوله، فلا مال ولا أوراق ولا قدرة على اختيار المصير، جلس بجانب جدار المحطة يتذكر ما يواجهه من صعاب، صعبت عليه نفسه وما آل إليه كمشرَّد في طرق لا يعرفها، فأخذ يبكي، لكن رائحة كلب السماء لاحت من جديد، كانت زمجرته ضعيفة وناعمة كما لو أنه أيضًا يبكي لأجله، شعر أنطونيوس هذه المرة أنه ليس مطلوبًا منه أن يجري، فأغمض عينيه واستسلم للخدر الذي بدأ يسري في جسده.

شرد بذهنه في دميانة، وكيف هي الآن، كان آخر خبر سمعه عنها أنها في دير الراهبات بالجبل الغربي في أسيوط، هل يمكن أن تقرر البقاء في الدير، هل يمكن لفتاة مثلها أن تقتل جسدها على نحو ما فعل أوريجانوس؟ تصور أنه يرى أوريجانوس العظيم ومن حوله المشاعل المضيئة، من حوله جماعات تتوافد بأضوائها المشتعلة، كانت عينه تبحث عن دميانة بينهم، لكنها لم ترها، تقدم بخطوات بطيئة ليسأل العلامة الكبير عنها، لكن الأخير هز رأسه بالنفي، وأشار نحو الأفق، حيث السحب التي تمر من فوق الجبال، وحيث السهول الفسيحة، كان أنطونيوس يهرول كما لو أنه يريد أن يلحق بدميانة قبل أن تسقط السماء في بيتها الليلي، كان يجري كما لو أن كاميرا سينمائية تجري به، حين وصل إلى المغارة التي

في باطـن الجبل وجد دميانــة تسجل بقلم كبير في دفتر عظيـم، سألها عما تفعل وأجابت بأنها تكتــب حكاية رجل وفتاة أحبا بعضهما دون كلمة حب واحدة، وكلما تفرقا عن بعضهما تعمقت المحبة في قلبيهما، ردد الجملة في فمه كما لو أنه يتذوق ثمرة تين.

استفاق على أنه نائم على الأرض، وأن بين يديه أموال لا يعرف من أين أتته، دهش من وجود هذا الكم من الجنيهات، فأخذ في عده وترتيبه، زاد المبلــغ عن مائة جنيه، وضعه في جيبه وشعر أنه في حاجة إلى طعام، نهضــ من مكانه بحثًا عــن شيء يساعده على التماســك والتفكير بهدوء، أخذ يتناول سندوتشات الكبدة بلذة لم يشعر بها من قبل، وذهب إلى المقهى الــذي جلس فيه مع أحمد طالبًا شايًــا، تطلع إلى كل الوجوه آملاً أن يكون من بينها صديقاه أحمد ونائل، لكن ذلك كان من الخيال.

جلســ يرتــب أوارقه من جديد، كان عليه أن يبدأ مــن لقائه بإيمانويل الطيــب، حين فوجئ بــه في المغارة التي تحصن بهــا أربع سنوات، دون أن يتمكــن أحد من دخولها، فكيف صعد إليها؟ هــذا السؤال الذي لم يجبه إيمانويــل، وترك كلــب السماء يطارده في كل مكان حتــى أدخله الدير، جلســ عامين قبــل أن يصبح شماسًــا، كان الجميع يتصــور أنه لن يطيق الحياة في الدير، لكنه استطاع أن ينتصر على نفسه، وأن يروضها لتعيش في حــدود عالمها الجديد، بعدها حدثه إيمانويــل عن أوريجانوس، وكيف جاهــد ضد الصعاب التي واجهته حتى أصبح علامة كبيرًا، لكنه لم يستطع أن يمحو لعنة الحرمان، كان إيمانويل يتحدث بفتنة عن ذلك الرجل الذي لم يستطع أن يكون راهبًا ولا رجل دين ولا حتى علمانيًّا عابرًا في سبيله، ورغم ذلــك وضع الأسس التــي عمل عليها الجميع، حتــى أن الهراطقة خرجوا مــن عباءته، والقديسون أيضًا خرجوا من عباءته، يومًا بعد يوم تسرب إلى أنطونيوس الاهتمام بــه، وشعر أنه يمكنه أن يبدأ دراساته في اللاهــوت من خلالــه، ولنحو سبع سنــوات كاملــة كان أنطونيوس عبدًا في معبــد أوريجانوس، ولم يسمع في يوم بكتاب لــه أو عنه إلا وأحضره لــه إيمانويــل، كان ذلك سرًّا بينهمــا، لكن باخوميوســ كان دائمًا يخبره

أنهـا أعمال محرمة، ولا ينبغـي التعرض لها بالتقديس ولا المدح، وفي الضرورة يمكن ذكرها بحياد تام.

كان أنطونيوس يمارس حياته كشماس بسيط، لكنه في الواقع كان الابن المقرب لإيمانويل وباخوميوس، كما لو أن سرًّا ما يجمعهم معًا، يتناقشون في أوريجانوس كما لو أنهم يتحدثون عن رئيس الدير، يحللون كل كلمة قالهـا علـى وجوهها العديـدة، واضعينها في سياقها وزمنهـا ومشكلاته، متلمسـين أثرها فيما أتي من صراعات على الكنيسة، كانت مهمة إيمانويل أن يشـير وأنطونيوس يبحث، وباخوميوس يتابع، مع الوقت اكتشف أنه ليس الوحيد الذي يبحث في كتب المهرطقين، فثمـة آخرون بنفس الدأب والسرية يعملـون، وإيمانويل مشغول برعايتهـم أيضًا، وكان يذهب في جـولات طويلة مـن أجلهم، كان يزورهم في كنائس وأديرة بعيدة، فقد اتسعـت سلطاته بعدمـا رفضت الكنيسـة الاعتراف بقداستـه، كما لو أن السلطة جاءت بديلاً عن القداسة.

حين أنهى أنطونيوس دراسته في كلية اللاهوت تم ترسيمه قسًّا، يومها فـرح باخوميوس كما لو أن شيئًا كبـيرًا رُفع عن عنقـه ليوضع في عنق شخص آخر، وأخذ ينسحب يومًا بعد يوم ليعيش حياة العزلة، بينما خطى أنطونيوس تتقدم حتى أصبح مسئولاً عـن أخطر ما في الدير، حيث نشر الكتب التـي تعضِّد إيمان الشعب، لكن في الوقت الذي كان إيمانويل يدفع به للأمام، كان ثمة آخرون يدفعون بأنفسهم من طريق آخر.

لم يكن مفاجئًـا لأنطونيوس صعود يوسـاب وتمركز كل السلطات في يده، لكـن المفاجأة كانـت في السرعة التي حدث بها ذلـك، كانت الثورة التـي ضربـت الشوارع قد خلطـت الأوراق كلها، ولم يكـن مطلوبًا من الكنيسـة أن تبدي موقفًا واضحًا، شعـر أنطونيوس أن السياسة طالت كل البشـر، بمن فيهم آباء الكنيسة أنفسهم، وكان موقفه مختلفًا عن ذلك، كان يرغـب في أن يعلن موقفًا من النظام الذي أوصل الأقباط إلى هذه الحال، وأن الكنيسـة يجب أن تكون حيث يكـون الشعب، فهي خلاصه ومرشده الروحـي، لكن إيمانويل كان يعرف أن مـن في الكنيسة الأم يعرفون في

شئون السياسة أكثر مــن الساسة أنفسهم، وأن الاتجاه الذي اختاروه قائم على توزان القوى، وليســ مستحبًّا أن تتم معاداته في ظل ما حصل عليه إيمانويل وتيــاره من مكاسب، يكفي أنهم يتحدثــون عن أوريجانوس في قاعــات الدرســ، وأجبروا البابــا على أن يعظ عنه أكــثر من مرة، لكنه رفضــ قبوله في كنيسة الــرب لأنه لا يستطيع أن يخالــف الآباء السابقين فيمــا ذهبــوا إليه، كانت جملته رغــم بساطتها إلا أنها محبطــة للتيار الذي قــاده رجل علمــاني بسيط، رجل وهب حياته للدفاع عــن حياة الأقباط، مطالبًــا بقانون أحوال شخصية لهم، مطالبًا بإعادة النظر في أوريجانوس وحرمانه، رجل مات قبل أن تتحقق أي من أحلام ثورته.

-١٨-

مــات أثناسيوســ . هكذا بلغني الخبر وأنا في مــكاني على هضبة الملاح أدرس مبادئ الدين، مات أثناسيوس وتركني وحيدًا لا أعرف ماذا أفعل مــن بعده فيما تبقى لي من عمر، مات ولم أره، فما إن استطعت التوصل إلى عربــة يجرها جواد كي أصــل إلى الإسكندرية حتى وجدت المدينة بلا موطئ قدم لزائر جديد، فما بين حراس وجنود ورهبان وقساوسة وأساقفة وشعب ينام في الشوارع وعلى الأرصفة وشواطئ البحر، جميعهم كانوا في انتظــار وداع رئيسهــم وأبيهــم، نزلت في صحبة أبانــوب الذي كان يغالب الحمى، لكنه أصر علــى أن يأتي لوداع أثناسيوس، كان الرهبان يحتلون كل مكان بزيهم الأسود، بينما الشعب يحمل السعف في يديه مرتلاً خلف القراء والمنشدين أجزاء من نشيد الأنشاد. تلقانا تلميذي جورجيوس بحزن واضح، ودخل بنــا إلى صحن الكنيسة لنلتقي بعشرات الوجوه من كبار الرهبــان والأساقفة في الشرق، بالكاد سمح لنا الآباء المسئولون عن تجهيــز أثناسيوس لرحلته الطويلة بالدخول لوداعه الأخير، فطفنا به وهو نائــم في صندوقــه الخشبي، قبلته علــى لحيته التي تفوح بمــاء الورد وأنا أبكــي، بينما أبانوب يغالــب مرضه ويمنعني من الانهيــار، حتى وجدته هو الذي ينهــار مني فجأة، فصرخت في الشمامسة الواقفين على الأبواب لحمله من بين يــدي، فأسرعوا وأخرجوه من بين الصفوف والزحام إلى خــارج الكنيسة، لم أعرف هــل أبقى مع صديقي الــذي فارقني أم ألحق بصديقي الموشك على فراقي، ولم يكــن أمامي سوى أن أترك أثناسيوس مسجــى في صندوقــه لألحــق بأبانوب بين أيــدي الرهبــان، حينها جاءنا جورجيوس وصديقان له، طلبت منه أن ينقله لمكان يرتاح فيه، أخذنا إلى دار كانت نزلاً لوالد أحد أصدقائــه، وضعناه على سريره وجلسنا بجانبه

إلى أن أتانا الطبيب، أعطاه شربة هدأت من تصاعد الحمى، وجعلته يستفيق من هذيانه وشروده عنا، وحين دقت أجراس الكنيسة معلنة بدء القداس الجنائزي توكأنا على عجزنا ونزلنا كي نلقي لصديقنا بتلويحة الوداع الأخير.

حين مات أثناسيوس تصور الأريوسيون أن حجر العثرة في طريقهم قد زال، فتجمعوا حول رجل يدعى لوسيوس، كان قد سيم أسقفًا خارج البلاد بطرق غير شرعية، فأحضروه لينصِّبوه بطريركًا للشعب، لكن الناس ما إن علموا بعودته حتى طاردوه إلى أن فر عائدًا للقسطنطينية، وأسرع الآباء والأساقفة باختيار بطرس الثاني، هذا الذي سيم على يد أثناسيوس، وكان أمينًا لأسرار الكنيسة في سنواته الأخيرة، وقيل إن أثناسيوس هو الذي أشار عليهم في مرضه الأخير باختياره من بعده، فالتف الأساقفة من حوله، ورسموه بطريركًا للإسكندرية وشعبها، قاطعين الطريق على لوسيوس الأريوسيين والذين معه.

شعر الإمبراطور فالينس أن اجتماع الأساقفة واختيارهم لبطرس الثاني تحديًا له، وما إن وصله الخبر حتى عين أوزوسيوس الأريوسي بطريركًا على الإسكندرية من قِبله، وأرسل معه كتيبة من الجند على رأسها أمين خزينته القائد ماجينوس، فهاجم الأخير الكنيسة للقبض على بطرس، لكن الشعب والرهبان الذين نزلوا من أديرتهم لوداع أثناسيوس لم يكونوا قد غادروا بعد، فحالوا دون وصول الجند لأبيهم، وبمحبة من الله ظهر المؤمنون على الأريوسيين، فتراجع ماجينوس بجنده للخلف، وطور المؤمنون موقفهم من الدفاع إلى الهجوم، حتى أن أوزوسيوس اضطر للهروب، فظن الجميع أن الأمر قد انتهى، لكن رد الإمبراطور كان قاسيًا، إذ أمر نائبه بتنصيب لوسيوس من جديد في كرسي الإسكندرية.

كانت حالة أبانوب قد تحسنت قليلاً، فرأيت أن نغادر الإسكندرية وهو متماسك، ذهبت لأستأذن البابا الجديد في العودة إلى هضبة الملاح، فهو صديق قديم، أعرفه منذ سامه أثناسيوس كاهنًا، لكن السفر والترحال لم يتركا لي فرصة لتوثيق العلاقة به، قلت فلأذهب لأستأذنه في العودة،

لكنــه رفض قائلاً إنه ينوي الذهــاب إلى روما ويريدني معه، نظرت إلى سنــه وهو في الأربعينيات من العمر، وسنــي وقد شارفت على السبعين، فعلمــت أن الشراكة التي كانت بينــي وبين أثناسيوســ لا يمكنها أن تنبت مــن جديد، فاعتذرت لســوء حالتي الصحية، وأكــدت أن ابني وتلميذي جورجيوســ أكثر فائدة مني في الحل والترحال، فإن أذن فله أن يقبله في وفده، ويعتمد عليه في حركته.

تركت معــه جورجيوس الذي سعــد بتقديمه ليكــون في صحبة البابا، وعــدت أنا وأبانوب عجوزين متهالكين علــى عربة تشبه السفن الكبيرة، لكنهــا تسير على دوائر خشبية، وتجرها خيول أوشكت على الموت، حتى أن عجلاتها كلما غاصت في الرمال كنا ننزل نجرها مع الخيل، هكذا ظللنا نعمل في خدمتها حتى أقسمنــا بالمسيح ما نعود من جديد لركوبها، فأعطينا صاحبها أجره وعدنا نبحث عمن يكرينا جوادين إلى دير الملاح.

رفعنــا الرهبــان ببكرة أبانــوب إلى الهضبــة النائمــة في حضن الجبل الشامــخ، التفتُّ لأبانوب كي أعرف كم هــو سعيد بمنجزه، لكنني وجدته شــارد الذهن، منهك الجسد، سألته عن سبب شروده فقال إن ديمتريوس والمــلاح توحشــاه، هدهدت على كتفــه وواريت دمعة فــرت من عيني، لم تكــن الحمى مــا هاجم أبانوب، لكنــه الاتصال بــأرواح السابقين، فقد كانت روحــه ترفرف على عتبات الملكوت السمــاوي، ولم يأتِ الصباح حتــى وجدناه فــارق الحياة، شعــرت بالهزيمة ومرارتهــا، فمنذ شهور أثناسيوس، والآن أبانوب.

أمــرت الإخوة في الديــر بإرسال الخــبر لرؤساء الأديــرة والعشائر والبطــون، وأرسلنا من يبلــغ أسقف ليكوبوليس برحيــل الأب أبانوب، وحددنــا موعدًا للدفــن في رسائلنا بعد ثلاثة أيام، وأمــرت الرهبان بدق الأجراســ وبدء التراتيل الجنائزية، ووقفنــا نستقبل المعزين، تركت أمر تجهيــز أبانــوب إلى الآباء العالمين بهــذا الأمر، وجلســت أتابع ما يجري بنفســ منكسرة، وعظام هدهــا الحزن، وفي النهاية حملنــاه ونزلنا أسفل الهضبة، حيث بنى الرهبان مقبرة له إلى جانب مقبرة ديمتريوس.

انتهـت المراسم وودعنـا الضيوف، جاءني ساويرس وشنودة اللذين رسمهما أثناسيوس شماسين لأبانوب، قالا إن الأخير أوصاهما بأن أكون رئيسًا للدير من بعده، فنظرت إلى سنهما وعلمـت أن فارق الزمن بيننا يزيـد عن الضعف، ونظرت إلى نفسي فعلمـت أن السنين جرت عليَّ بما يكفـي، ولم تعد لدي طاقة لشيء، فقلت لهما أن ينتخبا من يرونه مناسبًا، فردَّا بأن هذه وصية أستاذهم، ولا يمكن مخالفتها.

لم تكن لدي طاقة على الفعل أو الكلام، فقررت أن أعتزل في قلايتي، وأن أهرِّب نفسي من الحزن بالكتابة، ولم يكن هناك أمر أفضل من كتابة ما جـرى من جبرائيل وديمتريوس وأبانوب في بناء هـذا الدير، فلبثت في عزلتـي شهورًا لا أخـرج من قلايتي، حين خفَّت وطـأة الحزن عني أدركـت أنني صرت مسئولاً عن الديـر، وأن ثمة أمورًا تنتظر كلمتي في الخارج، ففتحت بابي ونظرت للجبل الشامخ أمامي، حين رآني الرهبان بـدوا كما لو أنهم رأوا شبحًا، في البدء أخذوا مني، لكن الفرح ما لبث أن دب في أوصالهـم وهم يرونني أمشي بينهم، طالبًا منهم أن يطلعوني على شئونهم.

كان جورجيوس قـد انطلق في معية بطرس الثـاني إلى روما، حيث قوبـل بحفـاوة بالغة، كنت قد قلت لـه أن يطلعني عـبر الرسائل على كل مـا يجري، ورتبـت معه طريقة لوصولها إلى الديـر، على نحو ما رتب معـي ديمتريوس قديمًا، وبالفعـل جاءتني رسائله تشرح كيـف استقبلهم داماسوس أسقف رومـا بكل تبجيل، وعقـد مجمعًا مقدسًـا لأساقفته كي يطلعهم علـى ما جرى من الأريوسيين، فاتخذ المجلس قراره بحرمانهم، وأرسل قراره إلى مليتوس أسقـف أنطاكيا، فعقد بدوره مجمعًا أقروا فيه حرمان الأريوسيين.

استغل لوسيوس غياب بطرس في روما واقتحم الكنيسة بمعية الجند، وجلس في الكرسي البابوي بالقوة، وسرعان ما أمر بنفي الأساقفة الذين تصور أنهـم يحرضون الشعب على مقاطعته، وأمـر الجند بالقبض على الرهبـان الرافضين له في الأديرة، وراح يرسـم أساقفة من الأريوسيين

ليحتلوا أماكن المنفيين، وظل يعيث فسادًا في شئون الكنيسة خمس سنوات كاملة، حتى شاءت الأقدار أن دخل فالينس حربًا جديدة مع الفرس، فانشغل بها عن الإسكندرية وأهلها، فعاد بطرس الثاني من روما إلى الإسكندرية، وفر لوسيوس إلى القسطنطينية، لكن السماء كانت قد صرفت نظرها عنه، إذ إنه فور وصوله القسطنطينية فارق فالينس الحياة.

جلست تحت شجرة السدر التي زرعها أبانوب، ورحت أشرح للرهبان ما جرى من الميلتوسيين والأريوسيين ضد البابوات السابقين، بطرس وأرشلاوس وألكسندروس وأثناسيوس، وأطلت في الحديث عن حرب أوريجانوس مع المتشددين من جانب والهرطقة من جانب آخر، وقلت إنني لو كنت أمتلك من القوة لعكفت على كتابة سيرة أوريجانوس مثلما كتب أثناسيوس سيرة القديس أنطونيوس، لكنني سأكتفي بشرح ما جاء في رسائله لصديقه وتلميذه البابا ديونسيوس.

كنت أتحدث عن المهرطقين، وجدت شابًّا صغير السن يسألني عن أيهما أحب إلى قلبي، أريوس أم أوريجانوس؟ فوقفت متحيرًا لا أعرف بمَ أرد عليه، ثم طلبت منه أن يرافقني لمدة أسبوع، وبعدها يخبرني بمن أحبه منهما، كان الشاب يدعى بنيامين، وهو ابن ليهودي يعمل بالتجارة، لكنه لا يعرف في حياته غير السعي وراء المال، فعاقبته السماء بأن جذبت ابنه للمسيحية واعتزال الحياة، وألقت به على هضبة الملاح، دون أن يدري أي منا أنه هدية السماء لي كي أملي عليه كتابي، وفي غمرة انشغالنا بالكتابة كانت رسائل جورجيوس تتوالى لتخبرنا بما يجري في العالم.

تولى الإمبراطور ثيؤدوسيوس خلفًا لفالينس، فأرسل إلى بطرس الثاني كي ينقذه مما يجتاح القسطنطينية من هرطقات، فذهب واجتهد في إصلاح الكنيسة وأساقفتها وكهانها، وتوصل إلى أن جريجوريوس النزينزي هو أفضل من يتولى شئونها، وكان جريجوريوس زاهدًا في الأمر، لكنه استجاب في النهاية لرغبة بطرس الثاني أن يكون في كرسي القسطنطينية من يطهرها من الأريوسيين ويعيدها إلى الإيمان القويم، وكانت هذه آخر الأعمال الجليلة لبطرس الثاني قبل تنيُّحه.

-١٩-

لم تتوقـف المفاجآت عند تولي جورج المنحنـي أبرشية أسيوط، وتولي يوسـاب رئاسة دير الملاح، فقد فاجـأت تريزا ابنتها في المساء بأن صلاح متري سعى لتأسيس جمعية باسـم أوريجانوس، وأنه أمضى سنوات من عمره في طرح فكرته على العديد من الآباء في الأديرة البعيدة، ظل يقوم برحـلات متوالية في أنحاء مصر من شمالهـا إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، أقنع نحو عشرين راهبًا وقسًّا فضلاً عن العلمانيين المقتنعين بفكرته لتأسيـس الجمعية، وعقد لهم اجتماعًـا ذات مساء في بيته، فتح المكتبة على الصالـة وغرفة السفرة، وجمع كراسي من مختلف الجيران، قال إن هذا هو الاجتماع التأسيسي، وأخـذ توكيلات باسمه من مختلف الحاضرين، بعدهـا حدثت لقاءات لم يحضرها أكثر من خمسة أو عشرة أعضاء، كانوا يتناقشون معـه في أمر الجمعية التي رفضت الحكومـة الموافقة عليها، فقد تقدمـت الكنيسة بشكوى قالت فيها إن أوريجانوس تمت إدانته بالهرطقة، ولا يجـوز السمـاح بنشر أفكاره وتعاليمه التي تخالـف الإيمان القويم. لكـن ذلك لم يثن صلاح عن فكرته، فقد ظـل يجتمع على فترات بأعضاء جمعيته، موقنًـا أنهم يمكنهم إعادة الاعتبـار لأوريجانوس، فهو المخرج الوحيد من حلقة التشدد التي سقطت فيها الأمة القبطية.

قالـت تريـزا أن يؤانس ثـار وغضب حين علم بسعـي صلاح لإقامة جمعيـة باسم أوريجانوس، لكـن صلاح كان قد أصيـب بخيبة أمل حين علم بخطف يوساب الثاني، ورأى أن الأمة القبطية ليست المشروع الذي يحلـم بالمشاركة فيه، لأن حجر أساسها قـام على العنف، وهو طريق لن يـؤدي إلا لمزيد من العنف والتشـدد، حتى وإن رفعت شعارات التحديث والتمـدن، فأخـذ يبحث عن فكـرة يمكنها أن تحقـق التحديـث بعيدًا عن

العنـف، ولم يهده فكره لغير أوريجانوس، فظـل يتحدث عنه حتى مات تـاركًا عشـرات التوكيلات والمسـودات والمذكرات، كل هـذه الأوراق اعتبرتهـا تريـزا الخطيئة التي أخـذت منها زوجها وحياتـه، فجمعتها في صندوق وأغلقت عليه دولاب ملابسها.

كانت دميانة تسمع بانبهار شديد عن والدها وجرأة تفكيره، ولم تعرف مـا الذي يمكنهـا أن تقوله عنه، لكنها فكرت قبـل كل شيء في العودة إلى البيـت وفتح هذا الصندوق للتعرف على الوجه الـذي أخفته عنها تريزا، كـي لا تتمثل به ولا تسـير في طريقه، لكن ما دام الحـذر لا يمنع القدر، وما دامـت دميانة قد دخلت هذه المتاهة، فلا بد مـن رواية كل شيء لها. هكـذا قالت تريزا لنفسها وهي مقدمة على فضح ما خبأته في صدرها، ولم يكن أمام دميانة سوى أن تتركها ترتاح من ثقل السر الذي حبسته كل هذه السنين، كي تعود إلى البيت فترى كل شيء بنفسها.

نامـت دميانة على سريـر أمها ومن حولهـا الوثائق التـي حبست في صندوق خشبي نحـو خمسة وعشرين عامًا، كانت الأوراق تحتوي على ظـرف أبيض كتب عليه بخـط كبير "جمعية أوريجانوسـ"، حين فتحته وجـدت به توكيلات من نحو خمسين شخصًا لصلاح متري، وتوقيعاتهم علـى وثيقة مبـادئ الجمعية وأهدافهـا، أخذت تطالـع الأوراق وتراجع أختـام التوكيـلات وأسمـاء أصحابهـا، لم يكـن الأمر يحتـاج إلى تفكير كبـير، فغالبيتهـم كانوا أسماء مشهـورة، يحتلون مراكـز مرموقة سواء داخـل الكنيسـة أو خارجها، كان أول مـا نبهها إلى التدقيـق فيهم توكيل باسـم إيمانويل مراد يوسـف، شماس بدير الملاح، حـين طالعته شعرت كمـا لو أن أحدًا ضربهـا على رأسها، أخذت عيناهـا تتسعان وهي تتخيل قدر اتساع الشبكة التي يمكنهـا أن تطلب منها المساعدة، فجميعهم أصدقاء والدهـا، وجميعهم مؤمنون بفكرته، ولوهلـة أدركت أنها أمام جماعة ما زالت قائمة حتى وإن لم تقبل أورقها في المحاكم.

مـن جديد توقفت أمـام اسم إيمانويـل الطيب، وتذكـرت أنطونيوس وعلاقتـه بأستاذه، وتساءلـت في نفسها إن كان يعرف بأمـر الجمعية أو

له علاقــة بها؟ أخذت تعيد النظــر في الأسماء والتوكيــلات ومحال إقامة أصحابهــا، لم تجد اسم أنطونيوس بالطبع، لكنها قــرأت اسم باخوميوس سعد إبراهيم، شماس بدير سانت كاترين، تذكرت ما حكاه ملاك الكاتب عــن الأب باخوميوس، وأنه في الأصــل أحد رهبان دير سانت كاترين، وبعد مشكلة كبيرة مع رئيس الدير ترك المكان وتنقل لعدة أديرة أخرى، ليستقر أخيرًا في دير الملاح، فعادت بذهنها من جديد إلى أنطونيوس لتتذكر علاقتــه بإيمانويل، وكيف أقنعه الأخير بالنزول عــن صخرته التي على هوامش القرى كي يتبعــه إلى دير الملاح، ليحوله من قاتل وقاطع طريق إلى متخصص في مذاهب الهراطقة.

في الحلــم كان أنطونيوس سعيدًا بما توصلت إليه دميانة، وبدا عليه أنه غير مبــال بثورتها في وجهه، بدا كما لو أنــه يضحك وهو يعتذر لها، في الحلم أيضًــا رأت والدها بصحبة إيمانويل الطيب، لم تكن رأته في الحقيقة مــن قبل، لكنها عرفته من تلقاء نفسهــا، وخاطبته باحترام وتقدير لم تكن تتوقع أنهــا ستظهرهما له، هو أيضًا كان بهيًّــا وجميلاً، تفوح منه رائحة جعلتهــا تنجــذب إليه، مــا أدهشها أنــه كان يمشــي وراء صلاح متري، مثلمــا يمشي خلفه كثيرون، بعضهم كانت تعــرف صورهم في الإعلام، وبعضهــم كانت ترى وجوههم علــى صفحات الجرائد، ومــا أيقظها من نومهــا أنها رأت كلــب السماء وهو يزمجر خلف الجميــع، لكنه بدا وديعًا وهو يسير بجــوار شاب في مطلع الثلاثينيات من عمره، لا يرتدي سوى جلبــاب من كتان أبيضــ، لحيته ليست طويلة ولا قصــيرة، لكنها سوداء ولامعــة مــن أثر الزيت الــذي دهنها به، وفي يده عصــا راع يتكئ عليها تارة، ويلوح بها لكلبه السماوي تارة أخرى، حين رفعها وأشار بها نحو دميانة رأت كلب السماء يقفز نحوها كسهم خرج من قوسه، فانتفضت من نومها تلملم الأوراق لتضعها في صندوقها الخشبي.

-٢٠-

رسائل أوريجانوس (١٨)

كان علينـا أن نتخذ نفس الطريق الذي اتخذه أستـاذي بنتينوس، هذا الذي ذهب إلى الهند فكرز ووعظ هناك، كان وفد من تلك البلاد البعيدة قد حضر إلى الإسكندرية، بعدما علم بشأن المسيحية ودعوتها للسلام والمحبة، فجلسـوا كمبتدئين ينصتـون إلى دروس بنتينوس في مدرسة اللاهوت، وكان أول من درّس بها، وحين جاء وقت رحيلهم رفضوا أن يعودوا إلا بصحبته، كي يعظ ويكرز أهليهـم هناك، فما كان من ديمتريوس الكرَّام إلا أن وافـق، ولا نعلم حتى الآن إن كان قـد رسم بنتينوس كاهنًا أم لا، فقد أباح لـه أن يعظ ويكرز مؤمنين جدًا، وهو الأمر الذي لم يرضَ لي بأقـل منه، لكنه في العموم كان يحب بنتينوس، كان يجله ويعرف قدره، فبنتينوس الذي درس مع الرواقيين في الميوزيوم هو الذي تصدى لتفسير الكتـاب المقدس بدءًا من سفر التكوين حتى سفـر الرؤيا، لكن تفسيراته لم يبق منها الكثير، لأنه لم يكن يملي على أحد، ولم يفطن إلى أهمية النساخ.

استخـدم بنتينوس لغة لم تكن معروفة، وضـع فيها الحروف اليونانية إلى جانـب حـروف لا يعرفها إلا أبنـاء الإسكندرية ومـا يتبعها من قرى ومـدن، هذه اللغة ارتبطت بالكنيسة وأبنائها، وأصبحت لغتهم السرية في التعامل بعيدًا عن الرومان وعيونهم، فانتشرت بانتشار الاضطهاد، وكل الفضل في وضعها يعود لبنتينوس المحب للخير والجمال كما علمه أساتذه، فالرواقيـون يحسبـون الخـير الأعظـم في الفضيلة، ويؤمنـون بناموس الطبيعـة وناموس الضمير والواجب. ويـرون في الله الطاقة المتغلغلة في كل شـيء، بها خلق العـالم الطبيعي وبقي محفوظًا فيـه، هكذا كان يعلمنا

بنتينوس ونحن نتردد على دروسه في الصغر، منه تعلمت حب الفلسفة، وأدركت كم تفتح لقارئها ملكات الخيال ورؤاه، وكم توسع مداركه وقدرته على الاستنتاج، لكن أحدًا لم يأخذ على بنتينوس محبته للفلسفة بقدر ما توجسوها مني.

ذهب معهم في رحلة طويلة إلى الهند، فاتخذوا طريقهم إلى الجنوب في البحر، حتى نهاية بلاد العرب، ثم غابوا في بحر لا حدود له حتى وصلوا إلى بلادهم، مكث معهم نحو عام يعظ ويكرز، وبنى لهم كنيسة كبيرة يقيمون فيها الطقوس والأسرار، ثم عاد بنفس الطريقة إلى بلاد سبأ وحضرموت، فجلس عدة أشهر يبشر ويعمد من يتبعه، ثم بنى لهم كنيسة يقيمون الأسرار والطقوس فيها، وتنقل مع الساحل يبشر ويكرز، حتى وصل إلى الأرض الواقعة على المحيط والخليج، فوجد أناسًا ينصتون لدعوته، فعمَّدهم وأقام لهم كنيسة، ثم تركهم وصعد مع خليج الفرس، حتى وصل بلدة يقال لها بصرى عند ملتقى الماء واليابسة، فجلس مدة يدعو أهلها، وكانت له طريقة تفتن الحجر، فتبعه كثيرون، فبنى لهم كنيستين، ورسم لكل كنيسة كاهنًا، وبصرى كما تعرف تتبع اللخميين بالحيرة جنوب فارس، ثم أكمل طريقه في اتجاه الشمال، حتى دخل أنطاكيا، وتحصل على نسخة من إنجيل متى الرسول بخط يده، أعطاها له واحد من أثرياء المدينة، طالبًا منه أن يسلمها لديمتريوس الكرَّام، تعبيرًا عن تبجيل أنطاكيا وأهلها لبطرك الإسكندرية وشعبها.

بعدما انتهيت من مشكلة كريسبوس في تدمر، أردت أن أمر بالطريق الذي اتخذه بنتينوس في عودته، لكن أمبروسيوس رفض، قال إنه لا يمكنه أن يترك تجارته مدة أطول من ذلك، لذا يجب أن نعود إلى قيصرية كي يتابع شئون حياته، هززت رأسي موضحًا أنني أيضًا أصبت بالإجهاد، ولم تعد لي قدرة على متابعة السير والانتقال من مدينة لأخرى، فقد تسربت الشيخوخة إلى جسدي، ضحكنا وقفلنا عائدين إلى قيصرية من جديد، رغم أنني كنت أتمنى أن أطوف بلاد العرب مثلما فعل بنتينوس، لكني لم أرد أن أشعر أمبروسيوس أنه بدلاً من أن يكون عونًا

لي أصبــح ثقلاً عليَّ، فأقنعته بعجزي ورغبتي في الأمر، وعدت معه إلى ثيؤكتستوس وأسقفيته في قيصرية، وألكسندروس في أورشليم، وجلست أملــي على نساخي كتابًا جديدًا في الرد علــى الهراطقة، فقد أحصيت أكثر من عشر هرطقات جديــدة يتناولها الناس، بعضها نتاج هرطقات قديمة، وبعضهــا استحــداث من قبــل الشيطان الــذي يبيض ليل نهــار في أذهان ضعــاف النفوســ، وإن كنت ظللت أقلب أقوالهــم في ذهني طيلة الوقت، فلــكل قول منطق وفكر، ولا يجب أن نغلــق أذهاننا وقلوبنا على ما منحنا الله من فكر فقط، فقد منح الآخرين عقولاً، وهي تعمل مثلما تعمل عقولنا وأكثر، لذا كنــت أمنح نفسي فرصة التفكير فيما يقولون، وأسعى للتوفيق بين ما نؤمن وما يؤمنون به، ما دام سعينا للخير، ورغبتنا في معرفة الله حــق معرفته، الحق أقول أيضًا إنني لم أرغــب في أن أكرر معهم ما فعله ديمتريوس الكرَّام معي من قبل.

لم يمضــ عام علــى رحلتي إلى بــلاد جفنة بن عمــرو ومملكة جذيمة الأبرشــ في تدمر، حتــى جاءني رسول من أقصى شــرق بلاد العرب، حيــث مدينة بوسترا التي قــرر أسقفها عقد مجمع مقدســ موسع لقساوسة وأساقفة بلاد العرب، ليناقشوا أسقفًــا يدعى بريليوس يعلم بأقوال وأمور لا تتفــق مع تعاليم الكنيسة الأم، كان ذلك عام أربعة وأربعين بعد المائتين مــن ميــلاد السيد المسيح، فوجــدت أن الرحلة التي قصــرت في قطعها قد جاءتنــي من جديد، وأنــه يمكننــي الآن أن أذهــب إلى أقصى الجنوب، فاستأذنت ثيؤكتستوســ وأمبروسيوس في السفر، لكن الأخير قال إنه لن يتركنــي أتحرك وحدي، فقد قطعنا في رحلة العمر معًا ما يكفينا لأن نكمل مــا بقي منها معًا، فوافقته على طلبه وبدأنا في سفرنا، وما مررنا بقرية أو مدينة إلا واجتمع لنا أهلها طالبين أن نعظهم في بعض أمورهم، كنا نمكث معهــم وقتًا قبــل أن نكمل رحلتنا مــن جديد، حتى أننا أضعنــا وقتا طويلاً في سيرنــا، فوصلنــا إلى بوســترا والمجمع موشك علــى الانتهاء، شرحنا أسبــاب تأخرنا وعــدم القدرة على مجافــاة الناس، فعلــق بنيامين أسقف بوســترا أنه نفسه ما كان سيتركني لو مررت بأرضه، فضحكت وشكرته

علـى كرمه، وجلست أنصت لما جرى في المجمـع قبل مجيئنا، ففهمت أن الأسقـف بريليوس انحـرف عن تعاليـم الكنيسة، وقـال إن الرب أقنوم واحد، ورفض أن ينصاع لما أجمع عليه الآباء المبجلون في المجمع، وأنهم أجمعوا على حرمانه ونفيه.

كانـت جملتـه الأخيرة قـد نزلت كالزيـت المغلي على رأسـي، لكنني أغمضـت عيني وابتلعت لعابي في جوفي محتويًا رغبتي في الغضب، حتى أن بنيامين شعر أنه أخطأ، ولم يعرف كيف يتجاوز خطأه، فطلبت منه أن يدلنـي على مكان بريليوس، حين اقتربنا من المكان طلبت منه أن يتركني وحدي معه، فلما جلسنا بمفردنا سألته عما يعتقده في الرب، فتجاسر على القـول بأن مخلصنا وربنا لم يكـن موجودًا من تلقاء ذاتـه قبل حلوله بين البشـر، وأنه ليس فيه أى شيء من اللاهـوت بذاته، فما لديه هو لاهوت حلول الآب فيه.

جلست أنصـت إلى بريليوس مثلما فعلت مع كريسبوس في قرى جبال تدمر، حتى لم يبق في جوفه كلام، ثم أخذت أستوثق منه ما يعنيه بقوله، حتـى وصلت به إلى أنه الآن يعبد مخلوقًا وليس خالقًا، فهل يستقيم هذا في منطقـه، حينها بدأ يتراجع في حديثـه، وبدأت أزيد من شرح سوء فهمه، حتـى أيقن بالكلية أنه قد انحرف بفكره عن فكر الكنيسة، ثم تركته وعدت إلى المجمـع، باحثًـا عـن الأساقفة الذين ظلـوا في انتظار عودتـي إليهم، فطلبت مـن بنيامين أن يقيـم قداسه، ويوزع علينا خبـز الرب وخمره، وجلسنًـا ننصـت إلى عظتـه، فإذا به يتوقـف عن الـكلام، وإذا بنا نلتفت إلى الوراء لنجـد بريليوس واقفًا بباب الكنيسـة باكيًا، فنهضت من مكاني وأخذت بيده وذهبت إلى حيث يقـف بنيامين أمام الهيكل، واستدرت إلى النـاس قائلاً إنني أعرف شخصًا سعـى إلى أن يطبق ما قاله الرب بالكلمة في كتابه، فمـا كان منه إلا أن دفعه إيمانه الشديد إلى أن تخلص من منحة الـرب في جسده، فخصى نفسه كـي يكون عبدًا مخلصًا لا تساوره الرغبة ولا التفكـير في غـير الله، فهل كان على حـق؟ لا لم يكن على حق، لكن الخطـأ كل الخطأ أن نحاسبه على رغبتـه في الإخلاص للرب، الخطأ أن

نحكم بحرمانه لأنه كان يسعى لأن يكون مؤمنًا أكثر من كل المؤمنين، هذا الرجل لو لم يجد أبًا حكيمًا يتفهم خطأه لما أصبح الآن بينكم أستاذًا ومعلمًا.

لم أفسر أكثر من ذلك في عظتي الصغيرة، وتركت بنايمين يمارس دور الأب الحكيم القوي الرحيم، تركت كل الآباء والأساقفة يحتضنون بريليوس ويقبلونه، بينما هو يقبلهم ويعتذر عن خطئه، هنالك أشرت لأمبروسيوس بضرورة أن ننسحب، فجهزنا في الغد رحلنا وودعنا بنيامين والآباء الآخرين وتركنا بريليوس دون أن نخبره، وما إن خرجنا من المدينة حتى فوجئنا برجل يركب جوادًا مسرعًا في أثرنا، حتى أننا خشينا أن نكون قد سرقنا شيئًا من متاع القوم، لكن ما إن أماط الفارس لثامه عن وجهه حتى رأيناه، كان ذلك بريليوس الذي عز عليه أن نتركه ونمشي دون أن يقول لنا شكرًا، فربَّتُّ على كتفه بأنه لا شيء، فكلنا في طريقنا نخطئ، وطوبى لمن أخطأ في طريقه إلى الرب وعاد إليه.

حين عدنا إلى قيصرية أخذ أمبروسيوس يحدث الناس بما جرى، والناس تأتي لتسألني عما قلته للمهرطق حتى عاد إلى رشده بهذه السرعة، فشعرت أن أمبروسيوس يفتن الناس بي دون سبب، فما وفقني إليه الرب لا يجب أن يتسرب إلى نفسي بالفرح، فهذه منحة منه وليس اجتهادًا مني، وغضبت من أمبروسيوس قائلاً إنني لن أصطحبه في رحلة لي فيما بعد. وبدا أنه تأثر بما قلته، فتركني وعاد إلى بيته، وسعيت طيلة الليل أنحي غضبي عني فلم أستطع، لكنني في الصباح تمكنت من هزيمة نفسي، وذهب إلى بابه باكيًا طالبًا مغفرته، إلا أنه رفض أن يفتح لي، ظللت أعود إلى بيته في اليوم الواحد ثلاث مرات على الأقل، وأطلب من كل من أعرفه أن يرقق قلبه عليَّ، حتى أن نساخي توقفوا عن عملهم، وتلامذتي صاروا يجالسونني ولا أحادثهم، ولم يخرج من بيته حتى جلست أمام بابه ساعات طوال، وكلما مر أحد جلس، حتى أن قيصرية كلها جلست معي أمام بيت أمبروسيوس، فما كان من جارية له إلا أن تشاجرت معه، وفتحت لي الباب قائلة أدركه قبل أن يموت من البكاء.

لم يكن أمبروسيوس وحده الذي يبكي، فقد بكيت وبكى أهل بيته وبكت قيصرية كلها معنا، وجلست أحدثهم عن أمبروسيوس الذي التقيته بعد

مــوت والدي بشهــور، كنت وقتها مسئولاً عــن أم وستة إخوة لا أعرف ماذا أفعل من أجل إطعامهم، فقــد صادر الرومان أملاك أبي ليونيدس، ذلــك الذي مات شهيد اضطهاد وسجون سبتيموس ساويرس، فلم يتركوا لنا ســوى مكتبته التي لم يقــدروا أهميتها، فما كان منــي إلا أن أخذت في عرضــ كتبها على الأثريــاء العاشقين لامتــلاك الكتب، في هــذه الآونة تعرفــت على السيــدة أوثاكا نيكيدا التي اهتمــت برعايتي، كنت أشرح لها مقولات اليونـــان وقصائد شعرائهم مقابل مبالــغ ضمنت لي الإنفاق على أسرتــي وإكمال تعليمــي في الميوزيوم، لكن الخطــوة الأهم كانت تعرفي علــى أمبروسيوس بعد ذلــك بعام واحد، كان كما اعتدتــه دائمًا ثريًّا، لا يمكــن القول إنه في يــوم ما عاش فقيرًا، لكن لا يمكن القــول أيضًا إنه في يوم ما عاش لنفسه، كان دائمًا ما يعيش من أجل الجميع، حتى ظننت من فرط كرمــه أن الرب أرسله لي وحدي، وأنه رســول المسيح كي ينقذني مــن فقري الدائــم، ويمكِّنني من مواصلة حياتــي بعزة، وحين اضطررت لترك الإسكندريــة وضعت إخوتي أمانة في عنقــه، وحين اضطر للحاق بــي ترك لهم ما يعينهم على العيش حيــاة كريمة، وهو الأمر الذي لم يقله حتــى لي حــين أتى إلى هنا، لكننــي علمته، لذا فهو لا يعلــم قدره عندي، وشعوري أنه ملاكي الحارســ، وشقيقي الذي لم ينجبه أبي، إنه روحي التي تلهمني الحياة.

حينهــا توقــف أمبروسيوس عن البــكاء، ونهض في مكانــه قائلاً إنني لســت وحدي الذي يعــرف كيف يعظ، فهــو واعظ أجمــل مني، فهتف فيــه الناس أن يعظهــم، قال إنه حين التقاني في صغرنـــا كنت بالفعل فقيرًا وأسعى لبيع بعضــ الكتب له، يومها اشتريت منه بعضها شفقة عليه، ولم أره لمــدة عام كامل، هو نفسه نسيني خلاله، حتى أنني حين التقيته وكلمته لم يعرفني، في ذلك اليوم طلبت منه أن أشتري ما معه من كتب، فرفض قائلاً إنها ليست للبيع، لأنه يدرسها، وكان ذلك مصدر اهتمامي به، فهذا الصبي يدرس ويقرأ هذه الكتب الكبيرة، بعد عام آخر وجدته يتردد على الكنيســة ومدرسة اللاهوت، ولم أصدق نفسي حين وجدته أصبح مدرسًا

بهـا خلفًا لإكلمندس، يومها ذهبت لأتناقشـ معه، كنت ممن اختلط عليهم طريق الإيمان، وضللت سبيلـه القويم بسبب بعض الغنوصيين، فوجدته يحـاورني كعالم كبـير، يسألني وهو يعـرف الإجابة، يسـأل وأنا أجيب حتـى أصل بنفسي إلى مـا يريد قوله من البـدء، لم يهزمني، لكنه تركني أفكـر وأفكر حتى وصلت إلى الحقيقة بنفسي، لم يقل إنه قال، لكنه تركني أشعر أنني الذي فعلت، يومها أدركت أنه ساحر، وأنني كنت على خطأ، فارتبطت خطانا معًا.

سعدت بمغفرة أمبروسيوس لي، وانشغلت في عملي وكتبي وتلامذتي دون أن أدرك أن أمبروسيوسـ يتسـرب كالمـاء من بين يـدي، فلم يعد يـتردد كثيرًا علـى المدرسة، ولم يعـد يسير كظلي في كل مـكان، لم يعد يطلـب مني أن أبارك عمله في المال كـي لا تأخذه الشياطين، وكان يتعلل بأمـور كثـيرة وأنـا لا أرغب في مطاردتـه، قلت كفى أننـي أخطأت في حقـه مرة، وهكذا فعلت حـين أتى رسول من بلاد اليمـن في جنوب شبه جزيرة العرب، داعيًا لحضور مجمـع لأساقفتها وأساقفة البلاد المجاورة في إثيوبيا وعمان، لمراجعة مـن يتحدثون بهرطقة عن النفس وموتها مع الجسـد، وعدم قيامتهـا إلا يوم الدينونـة، وهو ما يشـكك في قيامة السيد المسيح، فوافقت علـى الحضور، وذهبت فرحًـا لأمبروسيوس كي أبلغه أننا لدينا دعوة للبلاد التي كنت أتمنى الذهاب إليها منذ أمد بعيد، وعلينا أن نتجهـز من الآن، لكنه بدا غير راغب في الذهـاب، حاولت أن أعتذر له وأستسمحـه أن يوافق، لكنه قال إنه متعب ولا يملك القدرة على الخروج مـن قيصرية. شعرت أنه لم يغفر لي، وأن التاريخ الذي بيننا لم يشفع لي عنـده، وربما يشعر بفخـره علي لأنه الذي يمتلك المـال لتجهيز الرحلة، فحملتهـا في نفسي، وتركتـه وأخذت في تجهيز رحلتـي، لكنني لم أتخيل أن هـذه ستكون آخر مـرة أراه فيها، فما إن عدت من رحلتي التي طالت شهورًا في الصحارى المقفرة حتى صفعني أمبروسيوس بخبر استشهاده، فشعرت بمرارة اليتم وهو يجتاحني من جديد.

-٢١-

جـن الليل على أنطونيوس وهو في مقهى محطـة رمسيس، كان يفكر فيمـا جرى معه منـذ التقائه بجماعة الكشافة في الجامعـة حتى وفاة أستاذه إيمانويـل، وحين أصابته رعشة من البرد فكـر في العودة إلى بيت تريزا ودميانة للحصـول على ملابس الرهبنة وصليب باخوميوس الكبير، لكن كلـب السمـاء ظهر له فجأة، وأخـذ يزمجر غاضبًا كما لو أنـه يؤنبه على تأخـره عن شيء ما، فانتفض يهـرول أمامه، حتى وجد نفسه أمام قطار آخذ في الانطلاق فقفز بين ركابه.

كان القطـار متجهًـا إلى الإسماعيلية، ولم يكـن لأنطونيوس حاجة في الذهاب إليها، لكنه ما إن شعر أن لهاث الكلب السماوي هدأ في أذنيه حتى أيقن أنها الوجهة التي عليه الذهاب إليها، بحث عن أحد الكراسي الشاغرة وألقـى بجسده فيه، وعلى إيقاع صوت العجـلات الرتيب شرد بذهنه في دميانـة التي ارتبط مصيره بها منذ أول يوم رآهـا فيه، مر بذاكرته على عدد اللقاءات التـي جمعتهما معًا، كان أغلبها في مكتب التحقيقات بالدير، وفي وجود ملاك الكاتب، حيث كانت تسأل عن آلية نشر الكتب في مطبعة الدير، ومن الذي يختار الكتب، ومن آخر من يوقع عليها للطباعة، كانت اللقـاءات كلها أسئلة، وكانـت دائمًا هي الجانب القـوي، ودائما كان هو الجانب الضعيف، لكنه تعلق بهـا، ولم تعد صورتها تفارقه، مرات قليلة التـي رآها فيها خارج مكتبهـا، أكثرها تعلقًا في ذهنـه حين ضربه رجال يؤانـس علـى رأسـه فأغشي عليه، وحـين فتح عينيه ووجدهـا تطببه في قلايتـه، فهل يمكـن أن يكون ذلك هـو الحب، الحب الـذي لم يدركه في سنـوات الجامعة؟ وهل يمكن أن يتأخر حب الرجـل للمرأة في ركن بعيد بقلبه كل هذه السنوات، وهو لا يدري؟ وهل يكبر الحب بين رجل وامرأة يركب كل منهما قطارًا في اتجاه معاكس؟

ظل أنطونيوس يعدد في ذهنه المواقف والتفاصيل التي جمعت أو حالت بينهما، حتى تذكر ذهابه إلى بيتها، ونومه في مكتبة والدها، ولمع في ذهنه اسم المخطوط الذي قرأه على المكتب، "دفاعًا عن أوريجانوس"، تذكر أن ملاك أخبره ذات مرة أنها ابنة محام أمضى حياته للدفاع عن الفقراء، وأن إيمانويل كان أول من نبهه إلى قيمة أوريجانوس وأهميته، تذكر أيضًا أن إيمانويل حكى له ذات مساء عن محام كتب عنه رسالة بعنوان "دفاعًا عن أوريجانوس"، كانت في الأصل مذكرة للدفاع في ردهات المحاكم عنه، لكنه طورها إلى كتاب لم يتمكن من نشره، كان محاميًا فقيرًا ويعيش في شقة ورثها عن أبيه في القاهرة، لكنه امتلك شجاعة عالم أو فليسوف، لم يقل عن نفسه سوى أنه محام محب للفقراء، ومهنته هي الدفاع عن المظلومين، ومنذ قرأ في صباه عن أوريجانوس وهو يدرك أنه ظلم، وكلما توسع في قراءته أيقن أننا في حاجة لاستعادته من أجل الثورة والتجديد.

لوهلة شعر أنطونيوس أن الرجل الذي جذب إيمانويل إلى طريق أوريجانوس من الممكن أن يكون والد دميانة، وأدرك كم المسافات قريبة، فإيمانويل هو الذي استدعى دميانة لتكون محققة مساعدة له في الدير، كان يرغب في أن يبقيها قريبة منه، وربما يرد لها بعض فضل أبيها عليه، لكن هل كانت تعلم بذلك، وهل كان مخططًا لهما أن يلتقيا على نحو غير الذي تعارفا من خلاله، أم أنها الصدفة التي حكمت كل ما جرى؟ شعر أن خيوط الحكاية عادت لتتعقد في ذهنه، وأنه لم يعد قادرًا على التفكير، فأغلق عينيه شاعرًا بخدر يجتاح أعضاءه، وسرعان ما تمطى على بساط النوم ذاهبًا مع سحابة الأحلام.

رأى دميانة ممسكة بشمعة وفي طريقها لأن تضعها أمام أيقونة العذراء، كانت العذراء تحمل طفلها كما لو أنها تقدمه لدميانة، بينما الأخيرة تتقدم تجاه الضوء المنبعث من الأيقونة كأنها تريد أن تدخل فيه، كان أنطونيوس يدرك أنه يحلم، وأن دميانة جزء من الحلم، لكنه شعر أن الأيقونة أصبحت بوابة تنفتح لها، وأنه سيفقدها للأبد إذا تقدمت أكثر من ذلك، فراح يصرخ فيها أن تتوقف، يصرخ وهي تسير نحو البوابة

التـــي تتسع كلمـــا اقتربت منهـــا، رأى نفسه يهرول حتى اقــترب منها بما يكفـــي، ومد يده ليمنعها من الدخول، لكــن ما إن رفع يده حتى انتبه على مــن يهزه من كتفه، حين فتــح عينيه وجده المحصل ينبهـــه إلى أن القطار وصل محطته الأخيرة.

جلــس على مقاعــد الانتظار لا يعرف أين يمكنـــه الذهاب، كان يتوقع أن كلــب السمــاء سيظهر من جديــد ليطارده نحو الطريــق التي يريدها، لكن ذلك لم يحدث، وطـــال انتظاره دون جدوى، فقرر أن يترك قدميه تتسكعان علـــى الأرصفة، وسرعان ما خرجتا به مــن المحطة ليتمشى في الطرقات الجانبية، ظلت التقاطعات تقوده إلى أخرى حتى وجد نفسه أمام كنيسة صغيرة، نظر إلى الصليب الواقف أمامه وتذكر باخوميوس بصليبه الكبير، تمنـــى لو أنه كان يرتدي زيه الكهنوتـــي ويحمل صليبه في عنقه، كان سيدخـــل معززًا على رئيسها طالبًا منه مكانًا يرتاح فيه، لكنه الآن لا يملك سوى الدخول من الباب كأي مسيحي علماني، هز رأسه بأسى وقال إنها التجربة التي كتبها عليه الرب، ولا بد أن يتقبلها بنفس راضية.

طأطـــأ رأسه ودخل مــن البـــاب دون أن يسأله أحد عمـــا يريد، جال بنظـــره في المكان باحثًا عن صحن الكنيســـة، ارتقى عدة درجات رخامية ووقــف أمـــام الباب، كان القس بجـــوار الهيكل يلقي عظـــة أمام عدد من الشخوصـــ الذين لم ينتبهوا لدخوله، وحده القســ نظر نحوه وهو يجلس في الصــف الخلفي، أومـــأ للقس كما لو أنه يستأذنه فأومـــأ له الآخر مكملاً عظتـــه، عاد بظهره إلى المسند الخشبي الممتد خلفه وأخذ ينصت كمن يؤدي واجبًـــا علميًّا، لكن أذنه بعد دقائق أخـــذت تضيق وتتسع كما لو أنها تتشمم شيئًـــا بين الكلام، كان القس يتحدث عن الفتنة التي ظهرت في زمن الأنبا ثاؤفيلوس، فقـــال إن الأخير كان رافضًا لتجسيـــد الرب كأوريجانوس، وتشـــدد في تنفيذ ما آمن به، فالله ليس ماديًّا، وليســـ مكونًا فزيقيًّا، ومن فهم نقيض ذلك من آيات الكتاب المقدس هم من قرأوه قراءة حرفية، وهم متأثرون بالوثنية وتجسيدها للآلهة.

كان ثاؤفيلوس متحمسًا لمحاربة الوثنية وما يمكن أن يتسرب منها إلى الدين الصحيح، مقتنعًا أن ما قاله أوريجانوس صحيحًا، ومن ثم أرسل إلى الرهبان في نتريا والإسقيط مشددًا على محاربة تجسيد الله في أديرتهم، لكن رسائله لم تخلق سوى مزيد من الفتنة، فقد رفضها الكثيرون، حتى أن أحد الرهبان انهار باكيًا، لأنه باختفاء التماثيل شعر أن الله ذهب من قلبه، فألقى بنفسه على الأرض صارخًا:

– إنهم يحرموننا من الله.

كانت كلمات الراهب حارة ومثيرة للشفقة، حتى أن صرخته وصلت لمختلف الرهبان في البراري، وكان رهبان آخرون في نتريا والإسقيط غير قادرين على انتزاع صور الرب من مخيلتهم، فقرروا النزول من الجبال والصحارى لملاقاة ثاؤفيلوس، كان عددهم كبيرًا، وحماسهم عظيمًا، مما أدى إلى اضطراب أحوال المدينة، وراح بعضهم يفكر في اغتيال البابا، فانتبه الأخير إلى الوجه الغاضب للرهبان، موقنًا أنه بتمسكه بما يعتقده سيفقد القوة التي ورثها عن أثناسيوس وبطرس الثاني، فقرر أن يلتقي وفدًا منهم، وما إن دخلوا عليه حتى قال "إنني أرى نور الله في وجوهكم"، وسرعان ما انقلب على أوريجانوس وأفكاره، وحارب كل من رفض التجسيد.

كان أنطونيوس يجلس في نهاية الصفوف مبتسمًا، وكأن إيمانويل الطيب بعث أمامه من جديد ليتلمس خطى أوريجانوس وآثاره، موضحًا كيف لجأوا إلى أفكاره ثم عادوا لينكروها، فظهرت الفتن التي قالوا إنه مصدرها، فمع تراجع ثاؤفيلوس عن رفض التجسيد كان الرهبان الذين آمنوا بالرفض قد أصيبوا بخيبة أمل، ومن بينهم الإخوة الطوال الذين خاضوا حروبًا لرفض التجسيد، فلما تراجع ثاؤفيلوس عن موقفه لم يستطيعوا التراجع، فأرسل قوة من الجيش لانتزاعهم من أديرتهم، وحين قرروا النزول لعتابه رفض لقاءهم، قائلاً إنه اجتثهم بمنجل النبي.

-٢٢-

قمت برسم ساويرس وشنودة قسين، وعينت ساويرس للقيام بالطقوس ورعايــة الديــر ومن فيــه، وكلفت شنودة بعظــة بقية الشعــب في القرى والــبراري، ورسمت أربعــة شمامسة جددًا هــم لاون ويوحنا وبنيامين وتواضروس، وزعــت عليهم مهامهم أيضًــا، وأبديت رغبتي في تجديد سقــف الكنيستــين كي لا يسقطا تحت وطأة المطر، ثــم جلست أسفل شجرة السدر أقرأ الكتب وأفسرها للرهبــان، وحين أرسل تلامذة أبانوب الذين كانــوا في صحبة أثناسيوس يسألوننــي عما ينسخوه للناس، أرسلت لهم في مغــارة الجبل الغربي بعدد من الرسائل والعظات التي كنت سأعكف على شرحهــا، وطلبت منهم نسخها وإعطاءها للناســ، وأن يخبروهم بما قاله أثناسيوس قديمًا، أن من غمضــ عليه شيء في رسائله وكتبه فليذهب إلى دير الملاح، هناك سيجد من يفسرها.

أرســل جورجيوس يخبرنــا أن الأب بطرس الثاني تنيَّــح، وأن أخاه تيموثاوســ قد تولى كرســي الكرازة، كانت تربطنــي بتيموثاوس علاقة أقــوى من علاقتي ببطرس، وما زلــت أذكر موقفه في مجمع صور حين ادعــت امرأة على أثناسيوس أنه زنى بها، وكادت المكيدة أن تنجح وتأتي بنتائجها الوخيمة، لولا أن تيموثاوس نهض من مكانه وكلمها أمام الناس على أنه أثناسيوس: فردت عليه بتبجح أنه أثناسيوس الذي أفقدها عذريتها بالأمس.

تذكرت ذلك وأنا أملي على الشماس بنيامين رسالة تهنئة لتيموثاوس، متمنيًــا له فيهــا النصر على الهراطقة، ويبدو أنــه كان أكثر حظًّا من أخيه بطرســ، فقد قضى في كرسيه ست سنوات دون نفي أو مطاردة، ودعاه الإمبراطور ثيؤدوسيوســ لرئاسة مجمع مقدس لمناقشة هرطقة بطريرك القسطنطينيــة مقدونيوس، ورفضه ألوهية الروح القدســ، قائلاً إنه أقل

مـن المسيح، ولا يمكن تأليهـه. لكن تيموثاوس رد عليـه، وبيَّن له فساد رأيـه، فاتخذ المجمع قرارًا بحرمان تعاليمه لتنافيها مع الإيمان النيقاوي، كمـا حرم هرطقة سابيليوس القائل بأن الله أقنوم واحد وليس ثلاث، فهو الآب حينمـا خلـق، والابن حينما خلص، والـروح القدس حين يقدسنا. وحـرم هرطقـة أبوليناريوس الذي نفى عن المسيـح جانبه الإنساني، كي لا يكـون شخصـين، أحدهما إنسـاني والآخر إلهي، مخالفًـا بذلك قانون الإيمان.

لكـن تيموثاوس عاد حزينًا مـن هذا المجمع، فقد أعطـى الإمبراطور امتياز الشرف بعد كنيسة روما لكنيسة القسطنطينية، وهي المكانة التي كانت تتمتع بها الإسكندرية، فشعر تيموثاوس ومن عادوا معه أنهم يحملون على أكتافهـم عار العالم، فقد التزم الصمـت مقابل رضا الإمبراطورية وعدم الدخول في صـراع جديد، لكنه استغل ذلك في مد نفوذه على الرهبان في الصحراء، ساعيًا لتوحيدهم تحت رئاسته، والخلاص من الأريوسيين في المشرق والمغرب، إلا أنه سرعان ما فارق الحياة.

أرسـل لنـا جورجيوسـ سعيـدًا بترسيمـه قسًّا علـى يد البابـا الجديد ثاؤفيلوسـ، هذا الذي قال عن نفسه أنه ولد لأب وأم كانا وثنيين، وأنهما ذات يـوم تركاه وشقيقته في عهدة خادمة حبشيـة، فخرجت بهما للصلاة بمعبـد أرتميس، ومـا إن دخل المعبد حتى اهتـزت التماثيل وسقطت على الأرضـ، وفي اليـوم التالي كانا في طريقهما لحديقـة عامة، فوجد رجلاً يقول له إنه رأى ما حدث بالأمس، وإنه سيكون له شأن عظيم في تطهير البـلاد من عبادة الأوثان. حين سأله عـن اسمه قال إنه أثناسيوس كروز الديـار المصرية، فانجذب للنور المنبعث من وجهـه، وتبعه هو وشقيقته، حيث رسمـه أثناسيوس شماسًا، وأرسل شقيقتـه لتقيم في دير للراهبات، حتى بلغت سن الزواج فخرجت منه، وتزوجت وأنجبت طفلاً.

تركـت جورجيوس سعيـدًا بقوة ثاؤفيلوس الـذي لم ألتقِ به من قبل، وأدركت أنني صرت عجوزًا بما يكفي ألا أتابع كل ما يجريَ من حولي، لم أعد قادرًا على السماع أو الكلام بما يكفي، وساويرس وشنودة يبذلان

كل ما بوسعهما من أجل الدير، أما بنيامين فإنه يلازمني طيلة الوقت، وهو المسئول عن صناديق الكتب التـي خصصنا لها مخزنًا أسفل جدار الجبل، حيـث يطل جزء منه ليحميهـا من المطر، كما أنه الواسطـة بيني والنساخ في ديرهـم بالجبل الغربي، أما تواضروسـس ولاون فإنهما يجلسان أسفل شجـرة السدر، يجيبان على أسئلـة المبتدئين، كنت أمضي معهما المساء في شـرح ما استغلق عليهما فهمه، حتى أصبحا قادرين على البحث في بطون الكتب وحدهما.

لم تمض شهور على تربع ثاؤفيلوس على كرسي مرقس الرسول حتى أرسل خطابًا يثني على سيرتي في صحبة أثناسيوس، وكوني رئيسًا لواحد مـن أقدم أديرة القلـزم، طالبًا مني الحضـور للتشاور بشـأن ما يحتاجه الديـر. علمنا أن أديرة أخرى جاءتها خطابـات مشابهة، ولم يكن أمامنا غـير جورجيوس لمعرفـة ما يجري في الإسكندريـة، لكن الأخير كان قد أصبـح مشغـولاً، فثاؤفيلوس كان راغبًا في توسعة نفـوذه، وبدا أن لديه رغبـة في جعل المسيحية الدين الوحيد في البلاد، فـراح يبدي استياءه من المعابد الرومانيـة واليونانية، وسرعان ما أرسـل للأديرة رافضًا تجسيد المسيح، لأن ذلك من أفعال الوثنية.

أنصتُّ لبنيامـين وهو يخبرني بأمر الشجار الـذي دار أسفل الهضبة، فقـد تجمَّع عشرات الراغبـين في السؤال عن تجسيـد الرب، مختلفين مع بعضهـم إلى حد التشاجر، سألته عن رأيـه هو فقال إنه مع عدم التجسيد، وإن كان شنودة وساويرس مـع التجسيد، وقد وعظا الناس بأن التجسيد تذكير بقيامة الرب مـن بين الأموات، كنت أدرك أن شنودة وساويرس أبناء خلصـس لثقافة هذه البلاد، حيث التاسوع الإلهـي الذي يربط السماء بالأرضـ، ويمجد إيزيس في جمعها لأعضـاء زوجها، الذي ينهض من بين الأموات ويهبها ابنهما حوريس، فقلت لنفسي إن زمن الفتن قد بدأ.

لم يمض كثير من الوقت حتى أرسل جورجيوس قائلاً إن الإسكندرية شبـه محتلـة، وأن البابا محاصر لا يعرف كيف يخرج مـن الكنيسة، فقد نـزل الرهبان مـن أديرة نتريـا والإسقيـط والقلمون والقلـزم يجوبون

شوارع الإسكندرية، منتظرين اللحظــة المناسبة لينقضوا فيها على البابا. بعدهــا جاءتنــا رسالة تقــول إن البابا تراجــع عن رفضــ التجسيد، وإنه سيحصد بمنجل النبي من يردد مقولات أوريجانوس.

بدا أن بنيامين كان مستاء من رسالة البابا، فبعدما أظهر فرحًا بالتجسيد في مواجهة ساويرس وشنودة وجد البابا يغير موقفه ويرحب بالمجسِّدين، أدركت أن الديــر في حالة انقسام حقيقي، وأن مــن يجلُّون أوريجانوس سيعيشــون أيامًا عصيبــة، هززت رأسي وأنا أطلب مــن بنيامين أن يبلغ ساويرســ رغبتي في رؤيته، حين جــاءني سألته عن موقفه فقال إن البابا مــع التجسيد، سألتــه عن رأيــه في أوريجانوس، قال إنــه يجله، لكنه لا يتفــق معه في كل ما ذهب إليه، نظرت في عينيه قائــلاً إن هذا الدير أمانة تحملناها من أبانوب وديمتريوس والملاح، هنا أقام أثناسيوس وأقر كل ما فيــه، لدينا كنوز تخص كل أصحاب الــرؤى والفكر، ومنهج منفتح على الجميــع، ولسنا تابعين إلا لربنــا القدير، فعلينا أن نحفــظ أنفسنا بعيدًا عن الانحياز لأحد، وأن نبحث لكنوزنا عن مكان يحفظها من عبث اللصوص والمتنطعين. فهز رأسه مؤمنًا على ما قلته، وموقنًا أن عليه تنحية انحيازه لجمــع الكل تحت عباءتــه، حينها طلبت من بنيامــين أن يجمع الكتب التي يصعب على العامة فهمها، وأن يضعها في صناديق وحدها.

-٢٣-

لم تعرف دميانة ما الذي يمكنهــا أن تفعله بوثائق والدها، شعرت أنها أمام كنز يجب أن يعلم بأمره الجميع، لكنها لا تعرف ردة فعلهم، فهل ما زالوا على إيمانهم بفكرته أم أن الزمن مال بهم إلى طريق مخالف.

نهضــت من مكانها وقررت الذهــاب إلى المستشفى كي تتابع إجراءات خــروج أمها، كان نائل وأحمد قد اتفقا على إقراضها المبلغ الذي تحتاجه، حــين التقت بهما أخبرتهما بشأن جمعيــة أوريجانوس وأعضائها، وقالت بفــرح واضــح أن إيمانويل وباخوميوســ كانا من المؤسســين، وأن ثمة أعضاء يحتلون الآن مراكز مهمــة في الكنيسة وخارجها. نزلت الكلمات علــى وجوهنا بمزيج مــن الفرح والدهشة، وضاع وقــت في التفكير فيما يمكن عمله، وفي النهاية قرروا تأجيل الأمر لحين خروج تريزا.

ذهبت مــع دميانة إلى المستشفــى، وعاد نائل وأحمــد إلى عملهما، في الطريق سألتنــي إن كان أنطونيوس كان يعلم بأمر الجمعية أم لا، ظننت أننــي أستطيع الجــزم بأنه لم يكن يعرف، لكنني تــرددت، لم تنتظر مني ردًّا، فقد أخذت تتحدث عن اجتماع عقده يؤانس في جبل الطير، حضره عدد من الجماعات المناهضة للبابــا الجديد، جميعها ترى أن أوريجانوس مهرطــق، جميعها يحركها رجال ينتمــون إلى الماضي، ولا يرغبون في التنــازل عن مكاسبهم. وما إن وصلنا معهــد ناصر حتى تركتني قائلة إن عليها الذهاب للكنيسة، فثمة ما يجب أن تستوضحه من الأسقف الكبير.

عشت ما يقرب من ساعتين في دوامة إنهاء الأوراق المطلوبة للخروج، بعدهــا أحضرت كرسيًّا متحركًا وأنزلت بــه تريزا من الأسانسير الكبير، ثــم اتخذنا تاكســي إلى البيت، في الطريــق سألتني عن دميانــة، أخبرتها بأنهــا ذهبت للقاء الأسقف الكبير، عسى أن يساعدها على مواجهة يوساب

ورجاله، فهزت رأسها قائلة ويؤانس أيضًا. علمت أنها تعرف عن يؤانس ما لا نعرفه، فسألتها إن كانت تراه خيرًا أم شريرًا.

– وما الخير والشر؟

هكـذا أجابتنــي سـؤالاً بسؤال، ولم أعـرف بم أرد عليهـا، فالتزمت الصمـت باحثًا عن إجابـة مناسبة، حين طال صمتي قـررت هي التدخل لإنقـاذي، قالت إن أحـدًا لا يعرف ما هو الشر ولا ما هو الخير، فالجميع يتصـور أنه يسعى لمنع السماء من السقوط على الأرض، دون أن يدري أنـه مـن أجل ذلك يقتـل في طريقـه كل الذين رفعـت من أجلهـم السماء وخلقـت لهم الأرض، الكل لا يرى إلا ما يعتقده فقط، بينما الخير والشر متلازمان في جسد واحـد، هكذا كان صلاح متري يتحدث وهو يقرأ من كتـاب لأوريجانوسـ، كان يشرح لي لمـاذا يتمسك بموقفه بينمـا يؤانس متمسك بموقفه، لكن الفارق بينه وبين يؤانس أنه رافض للقتل، لا لشيء سوى أنه لا يعلم تمام اليقين إن كان على صواب أم خطأ، وحتى لو كان على صواب فإنه لا يعلم إلى أي مدى سيستمر هذا الصواب، فالحياة تتغير والبشر ليسوا قطع شطرنج ولا قطارات تسير على قضبان ثابتة.

حين امتدحـت لتيريزا ثقافتها نظـرت لي مبتسمة، ثم شـردت بذهنها قائلـة إنها حاصلة على دبلـوم تجارة في زمن كان المتعلمـون فيه يعدون علــى أصابع اليد، كما أنها كانت بمثابـة سكرتيرة لصلاح متري، تعد له القضايـا، وتكتب المذكرات علــى الآلة، وتتابع معه مـا يجري في البلاد من أحـداث، وحين توفي أخـذت تعطي دروسًا لأبنـاء الجيران، "هكذا كانوا يتعاونون معي في تربية دميانة، وهكذا نجونا من الموت، فما زرعه والدها ما كان ليضيع هباء".

شعـرت أن تريزا تتمتع بحكمة كبيرة، وحسـدت دميانة لأن لديها أمًّا مثلهـا، وتساءلت بحزن في نفسي عـن أبي وأمي اللذين تركاني على باب ديـر في صباح بـارد، أخفيت ألمي في نفسـي ووقفت أساعـد تريزا على النــزول من التاكسي، حين رآها الجيران تدافعوا للسلام عليها، أخبرتهم أنـه من المجهد لهـا أن تصعد السلم علــى قدميها، فتطـوع بعض الشباب

بإحضــار كرســي وصعدوا بها، هــي بدورها أخبرتهم أننــي ابن أختها، وأننــي منذ اختفاء دميانة أقوم برعايتها والتردد على بيتها، أكدت كلامَها جارتهــا سيمون أم مايكل، وكانت شهادتها حاسمة في أمر الترحيب بي، واعتباري واحدًا من بينهم.

مــا إن استراحت في بيتها حتى طلبت منــي أن أذهب لغرفة المكتب كي أبــدأ فيما اتفقت عليه مع دميانة، حين ترددت نهضت من مكانها وأخذتني إلى الكرســي الجلد العتيــق قائلة هنــا كان يجلس صــلاح، وأشارت إلى منضدة بالقــرب من باب البلكونة قائلة وهناك كنــت أجلس أنا، حيث آلة الكتابة التي باعتها دميانــة واشترت طابعة كمبيوتر، ومدت يدها إلى زر تشغيــل الجهاز النائم أسفــل المنضدة، حين أخبرتها أننــي لا أعرف كيفية التعامل معه، جلست وفتحت صفحة بيضاء قائلة:

– اضغط على هذه الحروف وسوف تظهر أمامك على الشاشة.

كان نائــل قد أحضر لي هاتفًا، حين سمعت صوت صفيره وقرأت اسم دميانــة عليه فتحته على الفور، قالت إن ثمة تفجيرًا مريعًا وقع في الكنيسة الكبيرة، وعلينا أن نفتــح التلفاز لنتابع ما يجري، ثم طمأنت أمها إلى أنها في مكان آمن، وأن هناك من يبلغها سلامه، فارتسمت على ملامح تريزا ابتسامة شاحبة وهي تغلق الخط.

كان مشهــد التدمــير كبــيرًا ومرعبًــا، وكان الجــيران الذيــن يأتون للاطمئنان علــى تريزا يتحدثون برعب واضح، قالــت إحدى الزائرات إن أختهــا كانــت في الكنيسة ولا تعرف مصيرها حتــى الآن، ثم سرعان مــا طلبت منــي أن أذهب لأم مايكل طالبًــا منها أن تأتي لتعــد لنا طعامًا، فأخبرتهــا أنني كنت أمارس الطبخ في الديــر سرًّا، ولدي أكلات رائعة، هزت رأسها مستسلمة، فنهضــت أبحث عن شيء يصلح للطبخ، لكن كل ما استطعت التعرف عليه كان البطاطس.

في الليــل عادت دميانة وتحول مكتب صلاح متري إلى غرفة اجتماع لنــا، فقد أنهى نائل وأحمد عملهما وأتيــا للاطمئنان على تريزا، جلسنا في نفــس المكان الذي كان يجلــس فيه أعضاء جمعيــة أوريجانوس القدامى،

وأخذنا نتداول الأخبار، قالت دميانة إنها كانت في غرفة الأسقف الكبير، وإن حديثها معه هو الذي أخره عن موعد عظته الأسبوعية، ولا تعرف إن كان هو المقصود بالتفجير حقًّا، أم أن التفجير كان مجرد رسالة، قالت أيضًا إن الأمن وجَّه التهمة إلى داعش التي لم تتبنَّ الحادث بعد.

السؤال الذي طرأ على أذهاننا فجأة كان عن أنطونيوس، فقد ظهرت صورته على إحدى صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وسرعان ما تداولها الناس بصيغة التساؤل عن ماهيته، وفهمنا أن ثمة من يسعى للزج باسمه بوصفه الفاعل، أو طرف خيط يمكن من خلاله الوصول إلى الفاعل، تساءل نائل بدهشة إن كان من الممكن أن يكون لأنطونيوس علاقة بالأمر، وأخذ أحمد يتجاوب مع فرضياته، لاحظت أن وجه دميانة كان يتلون بشتى ألوان الطيف، بينما عيناها تغوصان في محجريهما وهي على وشك الصراخ، لم يكن أمامي سوى أن أنهض إلى حيث وضعت عباءة أنطونيوس الكهنوتية السوداء، وصليب باخوميوس الكبير الذي ورثه عنه أنطونيوس، فرفعتهما على يدي قائلاً:

- كيف يفجر الكنيسة بهذه الملابس وهي هنا؟

كان سؤالي بمثابة وضع النقاط على الحروف، ففتحا عينيهما بدهشة، وراحا يعيدان التساؤل نفسه، بينما نهضت دميانة من كرسيها لتحدثهما عن أنطونيوس، هذا الذي لا يعرفانه، ولا يمكنه أن يفكر في عمل كهذا، أنطونيوس الذي ظهرت له العذراء، وحاربه الجميع في دير الملاح كي لا يعترفوا له بالقداسة، كيف يمكنه أن يسهم في قتل نفس واحدة.

كانت كلماتها سريعة وأسئلتها كطلقات الرصاص المتوالي على الرءوس، حتى أنني نفسي وقفت صامتًا لا أستطيع النطق بكلمة، وتأكد لي أن دميانة تعشق أنطونيوس، وأنني مهما فعلت فليس لي نصيب منها سوى الأخوة على أفضل تقدير. هززت رأسي وابتلعت أفكاري في جوفي وأنا أشاهد أحمد ونائل منبهرين بذلك القديس، وفي النهاية تساءلت دميانة عن الوقت الذي التقطوا فيه صورة له بهذه الملابس، فقلت إنه كان

قد ذهب مع تريــزا إلى الكنيسة، فتركتنا وذهبت لأمها. قالت تريزا إنهما ذهبــا لأسقف التحقيقات ليسألاه عن سبــب غياب دميانة، لكن أنطونيوس طلــب منهــا أن تتركه وتخــرج، بعدهــا رأت عددًا من طــوال القامة في طريقهــم للدخول عليــه، ورأت أنطونيوســ بملابسه الســوداء وصليبه الكبير يترنم بصوت واضح وجميل نشيد الأنشاد، حتى أن الكثيرين كانوا يــرددون معه، ويمشون في معيته وكأنهــم يحرسونه، فلم يستطع طوال القامة الاقتراب منه، حتى وصل إلى باب الكنيسة، وبعدها لا أعرف أين ذهب، حتى رأيته من جديد في غرفة العناية المركزة.

-٢٤-

رسائل أوريجانوس (١٩)

استشهـد أمبروسيوسـ وفقدت المحبـة التي كانـت في حياتي، لم يكن استشهـاده من أجل مال ولا نساء، لكنـه كان من أجلي، فقد سمع شرطيًّا يصفني بالمهرطق فاشتعل الغضـب في جسده، وأمسك بالشرطي وصفعه علـى وجهه، قائلاً إن النعـل الذي أرتديه أصدق منـه ومن رئيسه ومن ملكـه وإمبراطوره، حملهـا الجندي وذهـب إلى قائده، فخـرج الأخير بكتيبـة من الجند في كامل عتادها، كما لو أنهـم اكتشفوا فجأة الوجهة التي يكمـن فيها الأعداء، فدهسوا كل شيء في طريقهـم من أجل الوصول إلى بيـت أمبروسيوس، لم يطرقـوه ولم يستأذنوا في دخولـه، لكنهم أعملوا فيـه أدوات نقـب الحصـون والقـلاع حتى هدمـوه على رءوسـ العبيد والنساء، بعدها وجـدوا أمبروسيوس جالسًا في مكتبته العملاقة كما لو أنه في انتظارهم، وهـو يقرأ في كتاب المبادئ، نزعـوه منه، وصفعوه على وجهـه حتى أغشي عليه، ثـم جروه خلفهـم إلى أن أخرجوه مما بقي من البيت، وأشعلوا النـيران في الشجر والحجر، فظلت ألسنتها تطلق دخانها علـى رءوس أهل قيصرية أسبوعًا كامـلاً، دون أن يجرؤ أي منهم على الاقتراب منها.

لم يكن السجن في انتظار أمبروسيوس، لكنه العذاب الأليم، فقد احتفلوا بـه بينهم مدة أيام، تناوبـوا عليه بشتى صنوف العـذاب، قصوا له لسانه بمقراض حوافر الخيل، وخلعوا أظافره من أنامله، وصلبوه على صليب كبـير من الخشب، ثـم نسلوا عروقه من جسـده، وفي النهاية أخذوا جثته وألقـوا بها على قارعـة الطريق، فحمله عبيـده إلى الكنيسة، حيث انتشر الخـبر وعم الحزن في المدينة، فجاء ثيؤكتستوس لينظر إلى الرجل الكريم الذي بذل حياتـه من أجل أن يرد كلمة عني، بكـى ثيؤكتستوس، وبكت

قيصرية كلهـا، ووقف الجميع في القداس يتضرعـون إلى الرب أن يقبل أمبروسيوس مع الشهداء والقديسين.

لم أكـن أعرف بمـا سيجري، لم أكن أعلم أنني فـور دخولي قيصرية ستنظر العيون في وجهي وتبكي، دون أن يخبرني أحد بشيء، حتى أنني فكـرت في مختلف النوائب التي يمكنهـا أن تقع على رأسي، ومن بين كل الأماكن والشخوص خفق قلبي لصورة أمبروسيوس، وشعرت أنه أغلى ما يمكـن أن تصيبني الدنيا فيه، فلم أذهـب إلى بيتي، وقررت المرور به أولاً، هنالـك رأيت بيته الذي كان قبلة للجميع وأصبح ساحة للخراب، لم أستطع الوقوف من هول ما رأيت، شعرت أن روحي تنسل من ضلوعي كفـرعٍ شوك عفي، وسقطت على الأرض كخرقـة بالية، كل شيء كان محترقًا، حتى ما بقي من الجدران والحوائط والرمال، كل شيء اشتعلت فيه النار حتى تهدم على نفســه، شعرت بالنار والأسى ينزلان على قلبي ككومـة من الصخر، سألت عـن أمبروسيوس ولم يجبني أحد، كنت كلما سألت كانـوا يبكون ولا يخبروننـي بشيء، في النهاية جـاء ثيؤكتستوس فاحتضننـي وبكـى، صددته مرات وأنـا أصرخ في وجهـه عما حدث، ولطول بكائه وصمته وضعـت وجهه بين يدي، وأنا أنظر في عينيه بقوة سائلاً بخوف واستنكار عن آخر ما يمكن أن يحدث:

- هل مات أمبروسيوس؟

فبكـى، وصرخت وأنا أفترش الأرض غائبًا عن الوعي، وحتى الآن ما زلت أشعر بوخز في قلبي كلما تذكرت ثيؤكتستوس وهو يطأطئ رأسه بالإيجـاب، لم يهـزني حزن مثلما هـزني رحيـل أمبروسيوس، وظللت أسابيع ما بين الحياة والموت. كانت رحلتي لبلاد العرب طويلة ومجهدة، وجزائي فيها كان رحيل أخلصـ أصدقائي وأقواهم وأحبهم، شعرت أن الإسكندريـة قد رحلت منـي إلى الأبد، وأن آخر الأهـل قد ولى، وحين علمـت كيف مـات ولأي سبب مات زادت حسرتي عليـه، تركت نفسي للحـزن حتى هدني ولم أستطيع القيام من فراشي، كنت أبحث عن طريقة لا تغضـب الرب لكنها تعجِّـل بي كي ألحق بصديقـي، تذكرت ما جرى

منــي، وما جــرى منه، وكيــف كان الشجرة التي كنــت أستظل بها طيلة حياتي، فأي حياة بعده إذن؟

أهــدر ثيؤكتستوس كثيرًا مــن الوقت في إنقاذي مــن الموت، وما بين أطبــاء ورهبــان وقساوسة وأمــراء توافــدوا للعــزاء، كان ثيؤكتستوس المسئــول عن كل شيء، وأنا لا أدري أي عزاء يمكنني أن أتلقاه في رجل استشهــد من أجل أن يرد كلمة عني، ولا أي جزاء يمكنني أن أوفيه إياه، فتركتهــم يمارسون عزاءهم لبعضهم بعضًا ورحت أترنم من أجل روحه بنشيد الأنشاد:

في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته.

إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع، أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته.

وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت أرأيتم من تحبه نفسي.

مضــت شهور وأنا لا أخرج من بيتي، حتــى أن النساخ تفرقوا عني، لكــن تلامذتي جاءوا مــن كل مكان، وجلسوا أمــام البيت، كل منهم معه قائمــة بأسئلة يريــد إجابتي عليها، بــدا لي أن ثيؤكتستوس هو الذي أرسل إليهــم. في البدء تصورت أن أحدهم لديه مشكلة في معنى آية التبس عليه، فأخــذت أتجاوب معه وأشرحها له، لكننــي لاحظت أنه ما إن يغادر حتى يحضــر غيره، وجميعهم يطرحون أسئلــة تحتاج لمزيد من الشرح، فقلت أريــح نفسي وأخرج للجلوس في مدرســة اللاهوت، وما إن فتحت الباب حتى وجدت عشــرات التلاميذ يجلسون أمام البيــت، جميعهم جاءوا من بلــدان بعيدة، أيقنت أن الأمر ليس عفو الخاطر، وان هناك من دبر ذلك وربما سيدبر غيره.

فتحت أبــواب المدرسة وجلست أنصــت إلى الأسئلة بوهن وربما بعدم رغبــة في الــكلام، فثمــة ضعف يكــبر في داخلي، وحــزن جعلني كبيت مهدم، لكن إصرار التلاميــذ الذين لم يعودوا تلاميذ دفعني لأن أتحدث، محاوراتهــم وجدلهم جذباني من الجــب المظلم كي أعود معهم إلى الحياة،

فأنخـرط في شرح وتفسير ونقاش وقراءة، ومـا إن علم النساخ بعودتي لعالمهم حتى جاءوا فجلسوا بجانبي، وتنافسوا على الكتابة خلفي، ثم أخذوا ينبهونني إلى الكتب والرسائل التي شرعت فيها ولم أكملها، فأخذت أعود إليهـا وأملـي عليهم، ومن بينها كتـاب كنت قد قطعت شوطًـا كبيرًا فيه، حيث أحصيت كل ما سمعته من هرطقات، وأقمت تصنيفًا بها وبأصحابها وبلدانهـم وأساتذتهم، ثـم أخذت في الرد على كل هرطقـة منها، وتبيان فسادها، ومغالطتها للنفس والروح والعقل وما ورد في الكتاب المقدس.

في الحقيقـة يا صديقـي ديونسيوس فإنـه لا يمكن للناس فهـم الكتابات الفكريـة في الديـن بعيدًا عن الصلاة، فلا بد من خِـبرة الاتصال بالله من أجل فهم الكتابـات المقدسة، فالدرب الأمثل للتعـرّف إلى الله هو المحبّة، ولا يمكن الوصول إلى معرفة المسيح حقيقةً دون الولع به، لذا فقد أوصيت تلميذي جريجوريوس في رسائلي إليه قائلاً:

– كرِّس نفسـك لِقراءة الكتابـات الإلهيّـة؛ وانكبّ على هـذا بثبات. والتـزِم بالقراءة بقصد الإيمان بالله وإرضائـه، وإذا وجدت نفسك أثناء القـراءة أَمام باب مُغلـق، فاقرع الباب وسيفتح لـك ذاك الحارس الذي قال فيه يسوع "الحارس سوف يفتحه له"، وفي انكبابك هكذا على القراءة الإلهيّة، ابحـث بصدق وثقة بالله لا تتزعزع عن معنـى الكتابات الإلهيّة التـي يتوارى فيهـا بشكل كبير، لكـن لا ينبغي لك أن تكتفـي بقرع الباب والبحث، فكي تفهم أموراً الله لا بدَّ لك من الصلاة، فلم يقل لنا المُخلِّص فقط "اطلبوا تجدوا"، و"اقرعوا يُفتَح لكم"، بل زاد على ذلك: "اسألوا تُعطوا".

أكـدت كثيرًا لتلامذتي في مدرسة اللاهـوت بقيصرية على قيمة المحبة وضرورتها بين البشر، فلا يعرف أحدنا فعليًّا الآخر بعُمق إلا إذا توفّرت المحبّـة وانفتحت القلوب. لذا حين يتحدث الكتاب المقدس عن الفعل الحميم في الحب فإنه يقـول "وعرَفَ آدمُ حَوّاءَ امرأتَـه فحمَلت"، فالمحبة معرفة وتزاوج، والمحبة توحد وتوالـد للمعرفة الأكثر أصالة. فمثلما أنّ الرجل والمـرأة "اثنان في جسدٍ واحد"، هكـذا يُصبح الله والمؤمن "اثنان في روحٍ واحِد". بهذه الطريقة تبلُغ الصلاة أعلى مستوى لها.

فالمعرفة يا صديقي صلة، والصلاة يمكنها أن تتطور لتصبح حوار حب حقيقي، إلى أن يتملّك الحبيب الإلهيّ الإنسان بكليّته، فيرتعش بلمسة الروح، ويستسلم بثقة بنوته لقلب الآب.. لكن مثلما جاء في سفر اللاويين، حيث حظر الله على هارون دخول قدس الأقداس بعد موت ابنيه، فإنه إذا دخل أحد إلى الهيكل دون الاستعداد اللازم، ودون ارتداء الثياب الحبريّة، ودون تحضير التقدمة المُتوجِّبة، وجعل الله راضيًا عنه، فَسوف يموت... هذا الأمر يَعنينا جميعًا، فالله يأمَرنا أن نعلم كيف نحضر أمام مذبح الله.

و"نار الذبيحة" يا صديقي هي الإيمان ومعرفة الكتابات المُقدسة، تلك النار التي لا يجب أن تُطفأ أبدًا على مذبح مَن يمارس الكهنوت، وفي داخل كلّ واحد منّا أيضًا، ليس النار فقط؛ بَل الذبيحة أيضًا، ومن ذبيحته يُشعل كل منا المذبَح، لكي يتّقدَ دومًا. إذا ما تخلّيت أنا عن كلِّ ما أملك وحملت صليبي وتبعت المسيح، فإنّي أُقدّم ذبيحتي على مذبح الله؛ وإذا أسلمتُ جسدي لِيُحرَق، وكانت فيَّ المحبَّة، ونلت مجد الاستشهاد، فإني أقدِّم ذبيحتي على مذبح الله.

-٢٥-

كانـت سمـاء المدينة ملبدة بالغيـوم، بينما أنطونيوس والقس يسيران في خطـين متوازيين أمـام البحر، يتحدثـان عن أوريجانوس وكتاباته وأفكاره، مندهشان من قدراته على تحمل المشاق التي واجهته، ومختلفان حول علاقة ديمتريوس الكرَّام به، قال أنطونيوس إنه كان يغار منه، وقال القس إن الكرَّام كان يريد أن يفرض مزيدًا من النفوذ على الكنائس الأخرى، فاستغل ما حدث من أوريجانوس وأخذ يراسل الجميع، موسعًا من نفوذ كنيسته، وزيادة سطوته على الآخرين.

كان أنطونيوس قد انتظر في نهاية الصفوف منتبهًا لكل كلمة تخرج من فم القس عن ثاؤفيلوس، وما إن انتهى من عظته وتفرق الموعوظون من حوله حتى لحق به سائلاً:

- هل كان أوريجانوس على حق؟

بـدت كلماته كما لو أنها مجـرد سؤال عابر، لكن القسَّ توقف ناظرًا في عينيـه متفحصًـا إيـاه، فابتسم أنطونيًوس وهو يخبره أنـه من محبي أوريجانوس، ويبحث عمن يدلُّـه على الحقيقة، هنالك بدأ القس يتحدث، وكلمـا تحدث زادت الفتنـة والحماس في كلماته، حتى أنـه لم يشعر أن خطـاه ابتعدت عـن الكنيسة، وأنهما يسيران أمام البحـر كما لو أنهما من خفر السواحل، نبَّهه أنطونيوس إلى هذا الأمر فتوقف وضحك، ثم سأل أنطونيوس عن بلـده ولهجته وملابسـه، فضحك الأخـير وروي له ما جـرى معـه في دير الملاح، وكيـف انتهى به الأمر لمشـرد لا يعرف أين تأخذه قدماه.

كان القس يدعى صاموئيل، وكان يرأس هـذه الكنيسة الصغيرة منذ خمس سنـوات، قبلها كانـت خدمته في دير سانت كاتريـن، حيث يوجد

في الجبال كثيرٌ ممن يحبــون أوريجانوس، حين علم أنطونيوس أنه ليس وحده شعــر أن الهواء بدأ يدخل رئتيه، وأن صدره يتسع وقامته ترتفع، وعينيــه تنظران للبعيد. حكى أنطونيوس عن أستاذه باخوميوس، وكيف مات معلقًا من عنقه في سقف قلايته، وأنه لم يملك سوى أن يتسلَّم من عنقه صليبه الكبير ويهــرب من الدير، دون أن يتمكن من تأدية واجب العزاء لأحد، أو حتى قبوله من أحد.

تأثر صاموئيل بما رواه أنطونيوس، وحكى له أنه تعلم على يد راهب يدعى دانيال، وسمع منه أنــه كان له صديق يدعى باخوميوس، يمكنهما الذهاب للقائه في دير سانت كاترين، فهو لا يزال يعيش هناك منذ أربعين عامًــا، رافضًــا السيامة في الكهنوت، قائــلاً أن أوريجانوس كان معلمًا، ولــو أراد أن يصبح قسًّــا ما اختار أن يخصي نفســه، فلا يمكن لرجل في قامتــه وعلمه ألا يدرك أن الإخصاء أمر رمزي وليس فعلاً واقعيًّا، وأنه حــين سمح لأصدقائه أن يسيموه قسًــا في قيصرية لم يكن إلا من باب رفع الحــرج عنهم، فقد طالبتهم العامة بــأن يعظهم، وكان ديمتريوس قد نهاه عــن ذلك لأنه ليــس قسًّا، ورغبــة في ألا يعرف الناس ســره سمح لنفسه بالسيامــة، وتحمَّل عن طيب خاطــر عقابه طيلة أربعــين عامًا، معلنًا في رسائله لتلميذه وصديقه البابا ديونسيوس أنه صفح عن الجميع، وأنه يحب الجميع، ولا يرى أن الله خلق الناس كي يتفنَّن في تعذيبهم، حتى أنه يوقن أن الشياطين نفسها ستخلص.

بدت رغبة أنطونيوس واضحة لصعود جبال سانت كاترين، والتعرف علــى الأب دانيال، عسى أن يكون على معرفة بباخوميوس الحبيب، فقد كان شماسًــا هناك قبــل أن يذهب في رحلة طويلة انتهــت بالإقامة في دير الملاح، تفهــم صاموئيل أحــزان أنطونيوس، ورغبتــه في الوصول لمن يمكن تقديم واجب العزاء له، فربت على كتفه قائلاً إنه سيذهب إلى سانت كاتريــن الأسبوع القادم، ويمكنــه المجيء معه، أمــا الآن فعليه أن يعود لكنيسته قبل أن تقرع أجراسها لقداس المساء.

لــزم أنطونيوس جدران الكنيسة طيلة الأيام المتبقية على موعد الذهاب لسانــت كاترين، كان يجلس طيلة اليــوم في المكتبة يقرأ ويتأمل، حتى أن

سعـدًا المسئول عـن المكتبة تصور أنــه سيكون بديلاً عنــه، وأبدى بعض الارتيـاب في أمره أمام صاموئيل، فطمأنه الأخـير بأنه قريبه، وسوف يذهـب معه لقضاء بعضـ الأمور التي تخصــه، هنالك أخـذ سعد يساعد أنطونيوسـ فيما يريده، لكـن ليس كل ما يحتاجه، فثمـة أمور كان لا بد أن يرتبهـا صاموئيل بمعرفتــه، كالصليب والملابسـ الكهنوتية، فالعبور إلى سينـاء يحتـاج إلى خطة، والشرطـة تحترم ملابسـ الكهنوت، لكن الإسلاميين الذين يظهـرون من تحت الأرض مطالبين السائقين بالتوقف بحثًا عـن الجنود، لا يمكن التكهـن بأفعالهم، وعلاقتهـم بالمسيحيين أكثر قسوة من علاقتهم بالشرطة، ففي الشهور الأخيرة مروا على القرى التي بهـا مسيحيون، وطالبوهم بدفع الجزية أو الرحيل، وكان ذلك سببًا كافيًا لأن يخرج الكثيرون من بيوتهم عابرين إلى مدن القناة في الجانب الآخر.

شرح صاموئيـل خطته، موضحًـا أنهما سيرتديان ملابسـ القسوس ويعـبران مـن نفق الشهيد، طالبًا مـن أنطونيوس ألا يتحـدث مع أحد في شـيء، تاركًا التعامل مع الشرطة له، فهـو يمر عليهم مرتين في الشهر، هـم يعرفونه وهو يعرفهم، وفي الجانب الآخر من النفق سيغيران ملابس القسوس إلى زي مدني بسيط يتشابه فيه المسيحي مع المسلم.

ما إن بـدأت الرحلة إلى الدير حتى سأل أنطونيوس إن كان يؤانس له سلطة هنا أم لا، ضحك صاموئيل موضحًا أن سانت كاترين لا يتبع كنيسة أو مجمعًـا مقدسًا، فمنـذ وضعت الإمبراطورة هيلانـة أساسه وهو يتمتع بحالـة خاصة، في البـدء كان كنيسة تجمع حولها عدد مـن الرهبان حتى عـرف باسم دير طور سينـاء، لكن حين توفيـت الإمبراطورة ثؤدورو زوجـة الإمبراطور جستنيان، وأراد الأخـير أن يكرمها فبنى لها كنيسة أكبر في المكان الذي تجلى فيه الرب لموسى، فعرفت بكنيسة التجلي، وبعد سنـوات رأى أحد رهبـان الدير في منامه أن القديسـة كاترين تأمره بأن يصعد هـو ورفاقه الجبل ويحضـروا رفاتها ليدفنوه بديرهـم، فلما فعلوا عرف الدير باسم دير سانت كاترين.

كان أنطونيوسـ يعـرف الكثير عن المكان وتطـوره، لكن صاموئيل كان يتمتـع ببراعة في الحكي، حتى أنه ظل ينصـت طيلة الطريق بدهشة

واضحة، وما إن اقترب الباص من مشارف الطور حتى ارتديا ملابسهما الكهنوتية من جديد، وترجَّلا مع الداخلين للمكان، وراحت عينا أنطونيوس تطالــع السور العالي، وكأنه بني ليكــون قلعة في قلب ملتقى الجبال. كان جبــل الطور واقفًا بشموخه المدهش مطلًّا علــى الرهبان من قبيل السماء، فاردًا عليهــم ظلاله المقدسة، تطلــع أنطونيوســ إلى الكنائس المنتشرة في الديــر، وراح يحصي ثمانية منهــا في المركز وثمانية على الجوانب، وفي الخلف القلالي، بينما كانتا كنيستا القيامة والتجلي إلى جانب مقبرة القديسة كاترين، كان بوده أن يتفقد كل شبر في المكان، لكن صاموئيل قبض على ذراعــه وانتحى به جانبًا كما لــو أنهما سيخرجان من الديــر، لكنهما التفا مــن خلف الكنائس والقلالي حتى وصلا إلى ما يشبه دشمة قديمة من زمن الحرب، فنزلا ثلاث درجات حجرية قبل أن يصلا إلى بابها الخشبي.

طــرق صاموئيل الباب برفــق من يتحسس قلب رجــل مريض، ولم يدخــل إلا بعدما سمــع حركة خفيفة عليه مــن الداخــل، كان أنطونيوس مندهشًــا كمــا لــو أنــه لم يكن راهبًــا ولم يعشــ في قلال من قبــل، وكان الأب دانيــال جالسًــا في صمت تام علــى كرسي من جريد، بــدا لهما أنه مستغــرق في صلاة خاصة، فجلسا على حافة السرير المصنوع من الحجر في انتظــار انتهائه منها. شــرد أنطونيوس بعينيه مــع الخيط الواصل بين السرير والكرسي والسقاطة الخشبية في الباب، أدرك أن دانيال حين يشد الخيــط تتحرك السقاطة فينفتح الباب، بعدها شعر بنسمة هواء تسري على وجنتيــه، دار بعينيه بحثًــا عن مصدر ذلك الهــواء المنعش، لم يجد سوى نافذة وحيدة يتأرجح فيها شعاع صغير من الشمس الموشكة على الغروب، تذكــر قلاية أستــاذه باخوميوس، وكيف كانت دائمًــا عامرة بهواء مشبع براوئــح النعناع، تذكــر أيضًا المشهــد الأخير له وهــو يتأرجح في فضاء قلايته، وتمنى لو يلتقي بأي من أهله كي يقدم لهم واجب العزاء فيه.

حــين انتهى دانيال مــن صلاته ركع صاموئيل أمــام كرسيه مقبلاً يده وصليبــه، تأمــل أنطونيوس ذلــك الصليــب الكبير المصنــوع من خشب الصندل، الموشَّى بالصدف على الجانبــين، شعر أنه نفس الصليب الكبير

لباخوميوس، وشرد بذهنه لذكرى قديمة، حيث الأب شنودة الذي ظهره له بــين أعمدة وأطلال ديــر الأشمونــين ليرويه بالماء الــزلال، ويمنحه صليبــه الكبير كأمارة منه لباخوميوس في ديــر المحرق، بدا لأنطونيوس أن الصليب الكبير هو كلمة السر في حياته، وانتابه يقين أن رحلته الطويلة قد أوشكت على الانتهاء، فنزل من مكانه مقبلاً يد دانيال قائلاً:

– تعبت.

هز دانيال رأسه، وألقى بنظره نحو الجالس أمامه باكيًا، ثم رفع يده في هدوء شديد ونزل بها على الحبل الواصل بين الكرسي والسقاطة فتحركت من مكانهــا، وانفتح الباب على طاقة كبيرة مــن النور القابل لابتلاع كل شــيء، ففهم صاموئيل أنه آن له أن يترك ضيفه وحده، فنهض من مكانه مسلمًا نفسه للنور.

-٢٦-

رغب ثاؤفيلوس في تقوية نفوذ الكنيسة على الأديرة والرهبان، وكانت الأديرة القائمة في الصحارى البعيدة قد تأثرت بديانات الوثنيين الذين دخلوا المسيحية، فاستبدلوا المسيحَ بآلهتهم، وأخذوا يجسدونه على أشكال شتى، ما بين تماثيل من صخور وأحجار وما بين رسومات على الأبواب والجدران، وكان ثاؤفيلوس دارسًا لكتابات العلامة أوريجانوس ومحاوراته مع الهراطقة، فرفض تجسيد المسيح، موقنًا أن ذلك تشبُّه بالوثنية، وأرسل إلى صديقه إيسيذوروس ورفاقه المعروفين بالإخوة الطوال بعزمه على محاربة التجسيد، طالبًا أن يعضدوه في موقفه، فأرسل إليه إيسيذوروس بأنه سيبدأ من الآن في تطهير ديره والأديرة المجاورة من التجسيد والمجسِّدين.

خاض إيسيذوروس ورفاقه طوال القامة حربًا للدفاع عما آمن به صديقهم، لكن الحرب كانت لها نيرانها التي طالت الجميع، فقد رفض الرهبان التنازل عن مجسدات الإله وصوره، ووقف بعضهم غير قادر على تصور نفسه وحيدًا دون شيء يعضد إيمانه بالله الغائب، حتى أن أحدهم صرخ بحرقة:

- إنهم يحرموننا من الله.

هذه الصرخة التي تناقلها الرهبان من بعده في مختلف الأديرة، وخرجوا من قلاياتهم رافضين رسائل ثاؤفيلوس بالتزام الإيمان القويم، وزادوا في الأمر أن أصبحوا جماعات، وقرروا أن ينزلوا إلى المدينة كي يعلنوا للبابا عن رفضهم ما آمن به، كانت حشودهم تزيد وتكثر، وصرخاتهم تتواصل مع بعضها بعضًا رغم المسافات والصحارى والوديان والجبال، ووصل الأمر إلى دير الملاح، حيث كان شنودة

وساويرس مع التجسيد، فقـررا النزول للمشاركة فيمـا دعا إليه رهبان نتريا والقلمون والإسقيط، كانت الصحراء ممتلئة برهبان يتحركون على الرمـال كما لو أنهم قرروا أن يغطـوا وجه الصحراء بلون ثيابهم، ما إن وصلوا إلى المدينة حتى توقفوا في الشوارع المحيطة بالكنيسة، منتظرين أن يخرج إليهم ثاؤفيلوس، كانت الحشـود تزيد وتكثر حتى امتلأت الميادين والشوارع والأزقة، وفقد حاكمُ المدينـة قدرته على ضبط الأمن وحماية الناس.

في البـدء كان ثاؤفيلوس رافضًا ملاقاتهـم، فأرسل نائب الإمبراطور إليه قائلاً:

– كثر الرهبان في المدينة.. وقل الأمن.. وتعطلت مصالح الناس، لا بدَّ من وضع حدٍّ لهذا.

لكن ثاؤفيلوس ظل على عناده، غير راغب في قبول نصائح المخلصين له، بمن فيهم جورجيوس الذي أصبح مسئولاً عن حماية الكنيسة، فأرسل إلى الأديـرة الرافضـة للتجسيد كـي تمده برهبان يواجهـون من يفكر في دخـول الكنيسة، لكنه في إحدى الليالي غير المقمـرة هبطت الأرض بأحد رجالـه، وعلم أن الرهبان المحاصرين للكنيسـة يحفرون أنفاقًا لدخولها، وسرعان ما وقع واحد منهم فى يده ليكشف عن خطتهم في قتل البابا.

نقـل جورجيوس الأمـر إلى ثاؤفيلس، وأخبره أنـه لم يعد قادرًا على حمايتـه، فالإسكندرية محتلة برهبان غاضبين، يهيمون على وجوههم في الشوارع صارخين باستعادة الله، ولا يمكن التكهن بأفعال أناس خرجوا لنصـرة ربهم، ومـن ثم فلا بد مـن سماعهم والتفاوض معهم، فأدرك ثاؤفيلوس أن ثورته فشلت، وليس أمامه سوى أن يميل مع جهة الريح، فأرسـل لجورجيوس كـي يخبرهم أنه على استعداد للقـاء وفد منهم، فلما دخلوا عليه استقبلهم قائلاً:

– إنني أرى نور الله في وجوهكم.

كان ذلك إعلانه الأول عن تغيير موقفه، فهدأت الأنفاس واستبشرت الوجـوه، وما لبـث أصحابهـا أن خرجوا من الكنيسـة راضين فرحين،

ليعلنــوا أن البابا يبارك كل مــن وطأت أقدامه أرضــ المدينة حفاظًا على الإيمان القويم.

غضب رفائيل مــن رسالة ثاؤفيلوس إليه، وأبدى رغم سنوات عمره التي تجاوزت التسعين ثورةً عارمة، حتى أننا وقفنا عاجزين عن تهدئته، والتزمنا الصمت غير قادرين على فتح أفواهنا بشيء، وبعدها دخل قلايته وأغلق بابها على نفسه، لتكون هذه بداية انسحابه من شئون الدير، تاركًا الأمر كله في يد ساويرس وشنودة.

وجــد ثاؤفيلوســ ضالته في المجسِّديــن الذين التقى بهــم، فحوَّل إيمانه مــن أوريجانوس إلى جعله الشيطان اللعين، فعضــد صداقته بالمجسدين، وأرســل لرؤساء الأديــرة الأخرى مهــددًا بحرمان من يتحــدث بتعاليم أوريجانوســ، وكان رفائيل أحد الذين اختصهــم برسالة شديدة القسوة، مؤكــدًا أنه لن يسكــت على نشر الهرطقات مجــددًا، وأنه سيحصد بمنجل النبي كل من يخالف الإيمان القويم.

عزَّت علــى رفائيل نفســه، وغضب مــن محادثــة ثاؤفيلوس –الذي لم يسمــع به في زمــن أثناسيوس– بهذه الطريقــة، متجاهلاً قدره ومكانته وكونه أحد الذين خطــوا لائحة الإيمان بأيديهم، فراح غضبه يتصاعد في داخلــه، وكلما تحدث تصاعد حتى كاد أن يغشى عليه، غير قادر على أن يتصور أن هناك من يمكنه أن يهدده، أو يعلمه صحيح الإيمان، وكأنه لم يسمــع بأثناسيوس وهو يقول للناس ما غمض عليكم في عظاتي فاذهبوا به إلى رفائيل. كانت الكلمات تخرج من جوفه حارَّة كحمم بركان لا يهدأ.

ظللنــا ثلاثة أيام غير قادرين على الدخــول إليه، كل يوم نجلس تحت شجــرة السدر منتظريــن خروجه إلينــا، مناقشين أمر الرسالــة وما فيها وكيفيــة الرد عليها، كان غضبي كغضب أستــاذي رفائيل يتصاعد ويزيد كلمــا أعدنــا قراءتهــا، لكنني كنــت أقلل من حنقــي علــى ثاؤفيلوس أمام ساويرســ وشنــودة، فكلاهما مع التجسيــد، ولا أريــد أن أخلق فتنة في الديــر، وكان ساويرس وشنودة يعيشان موقفًا صعبًــا، فهما مع التجسيد

وضد أوريجانوس، وهما مع رفائيل وضد ثاؤفيلوس، في نهاية اليوم الثالث نهضت من مكاني وتسحبت بخطاي نحو باب القلاية، ما إن طرقت عليه حتى وجدته يتحرك، دفعته فوجدته مفتوحًا، واربته ونظرت إلى الداخل فوجدت رفائيل نائمًا على الأرض ووجه في الرمل والحصى، ناديت ساويرس وشنودة فرفعاه معي على فراشه.

قلت لرفائيل وأنا أبكي حزنًا وغضبًا من أجله إننا لن نسمح لمتشدد كثاؤفيلوس أن يحتكر الله، ولا بد أن نرسل للمؤمنين بتنزيه الله عن التجسيد كي يتوحَّدوا للرد عليه، لكن ساويرس قال إن كل ذلك ممكن، لكن الأفضل ألا نتحمل أعباء حرب لا تخصنا، فثمة آخرون خاضوا حروبًا من أجل الدفاع عن عدم التجسيد، ولا يمكنهم أن يرفعوا راياتهم البيضاء فجأة لأن البابا غيَّر موقفه.

أثبتت الأيام فطنة ساويرس ودهاءه، فقد رفض الإخوة طوال القامة رسائل صديقهم ثاؤفيلوس إليهم، واعتبروه ينقلب على تعاليم أوريجانوس التي آمن بها معهم، وأرسل إليه زعيمهم إيسيذوروس قائلاً كيف يمكننا بعد كل ما فعلناه لمحاربة التجسيد أن نتراجع معتذرين فجأة عن خطأ اعتقادنا؟ كان إيسيذوروس حين تحول إلى المسيحية ثريًّا للغاية، فقرر أن ينفق أمواله الطائلة على الأديرة لمساعدة الرهبان، وكان ثاؤفيلوس صديقه الأكبر، حتى أنه رشحه ليكون أسقفًا على القسطنطينية، لكن أساقفة المدينة فضلوا عليه يوحنا ذهبي الفم، فعاد إلى ديره بصحراء الإسقيط مناصرًا لثاؤفيلوس في حربه على التجسيد، إلا أن الأخير غيَّر قناعته متحالفًا مع المجسدين، وتاركًا صديقه إيسيذوروس ورفاقه طوال القامة في موقف لا يحسدون عليه.

كان غضب طوال القامة أكبر من غضب رفائيل، وثورتهم على صديقهم ثاؤفيلوس أكبر من ثورته عليه، حتى أنهم رفضوا تسلُّم رسائله، فطلب الأخير من نائب الإمبراطور أن يرسل جنوده ليقتلعهم من أديرتهم، حدث ذلك في الوقت الذي قرروا فيه النزول من الصحراء

إلى المدينــة ليراجعوا صديقهم، لكن ثاؤفيلوس رفض استقبالهم، وهددهم بالحرمان والنفي.

كان إيسيذوروس حتى تلك اللحظة يتصور أن ثمة خطأ ما، وأنه من الممكن تداركه بقليل من التحاور، لكنه فوجئ باستدعاء ثاؤفيلوس للشرطة كي تلقي القبض عليه، فما كان منه هو ورفاقه سوى أن يخرج من المدينة مسرعين، ودون تفكير طويل وجدوا أنفسهم متجهين نحو الشرق، حيث ينتشر المؤمنون بأوريجانوس وتعاليمه في الجبال، مروا بالفرما ومنها إلى دير الوادي المقدس، فمكثوا مع رهبانه حتى وصلهم الخبر بأن ثاؤفيلوس عقد مجمعًا مقدسًا حرمهم فيه، وأن جندًا في طريقهم إليهم الآن، لم يكن أمامهم غير الخروج إلى فلسطين، لكن أسقف أورشليم نصحهم بالذهاب إلى القسطنطينية، فهي المكان الوحيد الذي لا يمتد إليه نفوذ ثاؤفيلوس، حيث يوحنا ذهبي الفم الذي لا يخشى لومةً في قول الحق.

عضد ثاؤفيلوس تحالفه مع الرهبان المجسدين من أجل القضاء على الوثنية، وكان السيرابيوم هو رمز الوثنية المتجذرة بما يشتمل عليه من آلهة رومانية ويونانية في مقدمتها الإله سيرابيس، وكان لا بد من هدمه كي يؤكد ثاؤفيلوس للجميع أسطورة أنه محطم الأوثان، فأمر ببناء كنيسة على مقربة منه، وأثناء الحفر اكتشف الرهبان أن المكان كان مذبحًا لأحد المعابد الوثنية القديمة، فأمرهم أن يعرضوا كل ما وجدوه للناس، ووقف يعظ المارة بأن المسيح نصره على الضلال، ولا سبيل للخلاص إلا بدخول المسيحية وتناول خبز الرب، كانت كلماته بمثابة صب الزيت على النار بالنسبة للوثنيين، فتجمعوا وقرروا أن يخلصوا أدواتهم من أيد ثاؤفيلوس ورجاله، بدأت المناوشات بين الفريقين، وتلقى رهبانه هزيمة واضحة، حتى أنهم أغلقوا على أنفسهم كنيستهم ثلاثة أيام، وحين خرجوا منها وجدوا الموضع الذي حفروه رُدم كما كان.

نصح جورجيوس أستاذه ثاؤفيلوس بأن يفعل شيئًا كي لا تكون هذه نهاية المسيحية في المدينة، فذهبت رسائله لمختلف الأديرة كي ترسل له

بكل مـن يمكنه نصرة الرب، فنزل شنودة ومعـه عشرة رهبان من دير الملاح، وفي المدينة التقوا بجورجيوس الـذي أوكل إليه ثاؤفيلوس مهمة توزيـع القادمين علـى الأماكن والمهام، وكانت خطتـه هي افتعال شجار يعيـد الحرب لما كانـت عليه، فأخذ بنائيـه ومساعديهم للحفـر من جديد، وانتفض الوثنيون ليمنعوه، فهجـم عليهم جورجيوس وطاردهم برهبانه حتـى دخلوا السيرابيـوم وأغلقوا علـى أنفسهم، فأشعل النـيران فيه، ثم أخذت المعاول في هدمه.

وقـف نائـب الإمبراطـور في الإسكندريـة عاجزًا عـن ردع رهبان ثاؤفيلوس، وشعر أنه ليس أمامه سـوى مهادنة تلك الكائنات التي نزلت المدينـة لتهـدد حياة المقيمين بهـا، بينما أعلـن ثاؤفيلوس أنـه سيبني مكان السيرابيـوم كنيسـة باسم النبي دانيـال، وأطلق دعوتـه لرؤساء الأديرة بالتـبرع لبناء كنيستين باسم يوحنا المعمـدان والنبي دانيال، وبدلاً من أن يعود الرهبان لأديرتهم نزلت عدة آلاف أخرى منهم لينالوا بركة البناء، فأصبحـت الإسكندريـة حظيرة من أمضوا حياتهـم في بطون الصحراء، وكان علـى جورجيوس أن يوفر للقادمين مـن أديرتهم البعيـدة أعمالاً ينشغلـون بها، ومـن ثم فما إن انتهوا من بنـاء الكنيستين حتى أوضح لهم خريطـة المعابد التي يجب تطهير المدينة منها، وكانت خطته هي إقامة دير علـى مقربة من كل معبد، ثم افتعال شجار ينتهي بهدم المعبد وإقامة كنيسة في مكانه.

اعتـزل رفائيل الحياة في دير الملاح، وتـرك الأمر لساويرس كراع وأب للجميـع، وتـرك لي أن أستكمل ما كان يمليه عليَّ في كتابه، فرُحتُ أكتـب ما يرد إلينا من أخبار عما يجري في المدينة البعيدة، وما يتوارد إلى أذهـان الرهبان العائدين من حكايـات عما صنعوه في معابد الوثنيين، فقد شـارك شنـودة بإيمان حقيقـي في كل ما حدث، وكنـت ولاون من أكثر الذيـن نظروا إلى ثاؤفيلوس بوصفه من أطلق ريح الجنـون، بينما كان أتباعـه يرونه روح اللـه التي خفقـت بجناحيها لتحطـم الأصنام وتطهر البلاد.

أظهـر ساويرس حكمة بالغـة في إدارته للدير، إذ أرسـل مع شنودة عشـرة رهبان ليشاركـوا في نصرة الرب، ورسـم شمامسة يبشرون في القرى والقبائل المجـاورة، طالبين من الناس التبرع لبناء كنائس الرب، كانت سطوة الكنيسة قد أصبحـت قوية وواضحة، وكانت هزائم الوثنيين في الشمال تصـل أخبارها لمختلف البلاد، فتظاهر الأغنياء أنهم لا يعلمون شيئًـا، وبحنكـة السنـين اندفعوا للدخـول في مظلة الرب قبـل أن يستدير ثاؤفيلوسـ نحوهم، ضمنًّا المزيد من المؤمنين الجدد، ورحنا نرسل كغيرنا رهبانًـا لم يجلسـوا في الدير أكثر من شهور، كنا نوصيهـم باتباع ما يراه جورجيوس، ونحملهم السلام لشنودة ومن سبقوهم.

مـا أزعج ثاؤفيلوسـ هو لجوء الإخوة الطـوال إلى يوحنا ذهبي الفم، فقـد أرسل لـه الأخير مطالبًـا بعودتهم إلى أديرتهم كـي لا يرفع شكواهم إلى الإمبراطـور، كانـت هذه الرسالـة بمثابة صب الزيـت على النار، فقـد استشـاط ثاؤفيلوس غضبا، وأرسـل لأصدقائـه في القسطنطينية أن يمنعـوا إيسيذوروس مـن الوصـول للإمبراطـور أركاديوس، وكانت زوجـة أركاديوس على خلاف مع ذهبي الفـم، فقد حرمها من الاستيلاء على حديقـة لأرملة أحد النبـلاء، فلما علم ثاؤفيلوسـ بهذا الخلاف نزل مـن الإسكندرية إلى قصر الإمبراطور شاكيًا تدخـل ذهبي الفم في شئون كنيستـه، وتشجيعه طوال القامة للخروج على سلطته، فأمر الإمبراطور بعقـد مجمع مقدسـ لمناقشة شكـواه، في ذلك الوقت تنيـح إيسيذوروس، وانكسرت شوكة الأخوة الطوال من بعده، وعمل ثاؤفيلوس وأودوكسيا علـى أن تكون غالبية المجمع مـن أنصارهما، فجاء قراره بحرمان ذهبي الفم ونفيه.

-٢٧-

وصلت دميانــة إلى الأسقف الكبير في غرفته بأعلــى الكنيسة، وجدته كمــا تركته في المرة الأولى مكتئبًا وحزينًا ولا يرغب في الحديث مع أحد، انحنــت على يده وصليبه فقبلتهما، ثم أخبرته أنها جاءت إليه من الماضي، منذ نحو ثلاثين عامًا على الأقل، حيث شقة قديمة في منطقة سانت تريزا، وضعت عليها لافتة كبيرة تحمل اسم صلاح متري المحامي، وحيث غرفة مكتبــه التي تطل على الشارع، وقــد تحولت إلى مقر كبير لاجتماع أناس يؤمنــون برسالة أوريجانوســ في المحبة والخلاص للجميــع، حتى وإن كانــوا من المردة والشياطين، تلك الأمنية التــي أطلقها في رسالته لصديقه ديونسيوس قائلاً: وما ذنب الشياطين كي تعذب؟!

كان الأسقــف يسمــع وكأنه يــرى صلاح مــتري واقفًا أمامــه بقامته القصــيرة وعينيه المتسعتــين وابتسامته التــي تحتضن كل مــا حوله، وما إن انتهــت دميانة مــن حديثها حتى فتح ذراعيه مومئًــا لها بالدخول تحت جناحه، فارتمــت بين أحضانه آخذة في النشيــج، هدهد على كتفها ومسح على شعرها قائلاً:

- ابنة صلاح متري لا تبكي..

شعرت دميانة كما لو أنهــا استعادت أباها للتو، موقنة أن رحلة آلامها أوشكت على الانتهاء، مسحــت دموعها والتقطت أنفاسها وأخذت تروي له ما جرى معها. كان الأسقف ينصت وكأنه يعلم ما تتحدث عنه، ينصت ويهــز رأسه بحــزن واضح، في النهايــة هدهد عليها موضحًــا أنها ليست وحدها، فثمة كثيرون مثلها، يؤمنــون بما تؤمن به، وما غرسه أبوها لم يذهب جفاء، ولا بد أن يؤتي حصاده.

أعادت كلمــات الأسقف الكبير اليقين إليها بأنها ستنتصر على الظلام، لكــن المبنى الذي كانــت تقف أمام أعلى جــزء منه اهتز فجــأة إثر انفجار عظيم بالكنيسة المجاورة، وتعالى الصراخ والغبار والفزع في كل مكان، بينما اهتز الأسقف في كرسيــه، وتمايلت دميانة في مكانها كمبنى قديم آيل للسقوط.

تركــت دميانــة ملامح الأسقــف تتغير مــن الخــوف إلى الغضب إلى الصلاة من أجل الشهداء والمصابين، واتصلت لتطمئن على خروج تريزا مــن المستشفــى، أخبرتُها أننــا الآن في البيت، وأن تريــزا بصحة جيدة، وأخبرتني بالحادث الذي هــز أركان الكنيسة، وفي النهاية طمأنتْ تريزا على نفسها، وأنها مع الأسقف الكبير.

ما إن أنهــت حديثها معنا حتى وجدت العديد مــن الأساقفة والقساوسة يهرعون إلى السطح، جميعهــم كانوا راغبين في الاطمئنان على الأسقف الكبير، مؤكدين أن تأخره عن عظته معجزة أنقذته من الموت، كانوا جميعًا منشغلــين به أكثر من أي شيء آخر، حتــى أنها شعرت أن أحدًا لا يرها، وكأنهم أصيبوا بالعماء تجاهها، فتسحبت في هدوء من بينهم إلى الخارج، حيث غيرت وجهتها عدة مرات قبل أن تصل إلى الشارع الكبير، فتذوب بين مئــات البشر الذيــن توافدوا للاطمئنــان على ذويهــم، ولتصل بيتها بعد معانــاة طويلة، وتقضي نصف ليلها الأول في عــزاء من استشهدوا، والنصــف الآخر في اجتمــاع عاصف مع أحمد ونائل، ثــم مساءلة تريزا عــن زيارتها مع أنطونيوس للكنيسة، ومع تباشير الصباح باغتت الجميع بأنها ستذهب للإبــلاغ عن أنطونيوس، ليس بوصفه مفقودًا ولا بريئًا من التهم الموجهة إليــه، ولكن لتأكيدها، موقنة أن هــذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يقدمون على اقتحام الدير وتفتيشه.

لم نكن راضين عن فكرتها، وبدا لنا أنها أصيبت بنوبة جنون، لكن أمام إصرارهــا وافقنا على خطتها، فذهبت مــع أحمد ونائل إلى قسم الشرطة، وجلستُ مع تريزا نحكي عن صلاح متري وشغفه بالحياة، لكن بعضًا من جاراتهــا جئن لها، فتركتهن يعددن الحوادث التــي راح ضحيتها أقباط،

مقتنعـات أن ثمـة مؤامرة تجري لتهجيرهم من البـلاد، مؤكدات أن من يترك بيته لمحتل فهو خائن.

جلس الضابط الكبير ينصت ويدوِّن في ورقة أمامه الأسماء والأماكن التي تذكرها دميانة، ثم نهض من مكانه وسلم عليها مؤكدًا أنهم سيتصلون بها ساعة القبض عليه، فتحت عينيها متسائلة إن كانوا لن يذهبوا إلى الدير الآن؟ فابتسم بقسوة وهو يخبرها أنهم سيبحثون في الأمر، لم يستطع أحمد ولا نائل التفوه بكلمة، والتزما الصمت كما لو أنهما لا يعرفانها.

في الطريـق أصرت على أن تعود وحدهـا، كان غضبها منهما لا يقل عـن غضبها مـن نفسها ومن الضابـط الكبير، رضخـا لرغبتها في السير وحدهـا، لم تكـن تعـرف إلى أين ستذهـب، لكنها كانت تريـد أن تكون وحيدة، فأخذت تمشي من شبرا إلى سانت تريزا عبر طرق جانبية، بدت لها المدينة وقد تغيرت تمامًا، بدت خطواتها ثقيلة وتائهة، لكنها كانت تعبر من بين السيارات في الطريق الواسع المتقاطع، وتنظر إلى قطارات المترو المعلقـة في الهواء، وتتطلع إلى أجواء السمـاء الخالية من السحب، زافرة بضيق واضح، بدت الدنيا في عينيها ضيقة وسوداء، ولا أمل في الخلاص لأحد، تساءلت في نفسها:

- كيف يمكن لإله أن يعذب من خلقهم؟!

مـا إن انتهت من جملتها حتى وجدت أحـد الرهبان طوال القامة واقفًا أمامهـا، تطلعت إليه برعب واضح وتمنت لـو بإمكانها أن تصرخ طالبة الشرطـة للقبض عليه، لكن شيئًا ما أوقـف قدراتها على التفكير، الراهب نفســه كان مهذبًـا للغايــة معها، وقف أمامهـا كما لو أنــه خرج من تحت الأرض هامسًا بحزم شديد:

- أبونا يؤانس يريد رؤيتك.

وقبل أن تفتح فمها بالرفض أو القبول كان قد أفسح لها الطريق مشيرًا نحو سيـارة سوداء تقف علـى بعد أمتـار منها، هزت رأسهـا باستسلام واتجهـت نحوهـا، فأسرع فاتحًا لهـا الباب الخلفي كـي تركب، وأسرع

للجلوس بجانب السائق، لم تكن دميانة تتوقع أن تجد يؤانس في السيارة بانتظارها، لكنها كانت تشعر أنها في حاجة للقائه، فثمة أمور لم تستطع فهمها، وثمة تفاوض لا بد أن يجري.

حين انطلقت السيارة بها جلست صامتة تطالع أوجه المحال والعمارات والباعة المتجولين والمارة الغارقين في هموم الحياة، كانت تفكر فيما يمكن أن تقوله ليؤانس، كانت أيضًا تفكر فيما يمكن أن يحدث لها، لكنها أزاحت كل هذا جانبًا وهي تغالب رائحة عطر رشه الراهب نحوها، فأخذت تحاول التمسك بالصور التي تمر في ذهنها دون جدوى، وسرعان ما غابت عن الوعي، فلم تستيقظ إلا على يد يؤانس في غرفتها بدير الملاح:

- حمد الله على السلامة.

هكذا قال يؤانس مشيرًا لرهبانه بالخروج، فاعتدلت في جلستها ونظرت من النافذة نحو سحابة داكنة في السماء، كانت تدرك أن فصل الربيع أوشك على الانتهاء، لكن المناخ لم يعد واضح المعالم، فلا الصيف صيف ولا الشتاء شتاء، لم تستبعد أن تجد هذه السحابة قد تحولت إلى مطر غزير:

- الله يسلمك.

لم ترد أن تتخذ الخطوة الأولى في الاشتباك معه، ولم تعرف سببًا لأن يعيدها إلى دير الملاح، ولا ما الذي يخبئه رجاله لها، لذا كان عليها ألا تثير غضبه، وتذكرت الحيلة التي مارستها مع رضا وزوجته في الصعيد، وكيف ظلت تمارس دورها كفاقدة الذاكرة:

- أين نحن؟

مسح يؤانس على وجهه بلكتا يديه وأظهر ابتسامة باردة:

- لماذا ذهبتِ للأسقف الكبير؟ وأين أنطونيوس الآن؟

هكذا تحدث يؤانس متجاوزًا عن حيلتها وما فكرت فيه، مثبتًا عينيه على وجهها كجمرتين من نار، كادت أن تقول إنها لا تعرف، لكنها شعرت

أن هذه الإجابة ستجعله يتركها لرهبانه، شعرت لأول مرة بالخوف منه، ورأت أن أنطونيوس هو الذي أنقذها من الرهبان ومن السلفيين، فأين هو الآن ليحميها من يؤانس.

هكـذا حدثت نفسها وهي تنظـر في جنبات الغرفة بحثًـا عن إشارة من أنطونيوس، نظرت في النافذة من جديد نحو السحابة الداكنة، لم يكن لونها ينبـئ بخير، تذكرت أن الشتاء انتهـى، وأن هذه السحابة في غير أوانها، تذكـرت أنها منذ صغرها لا تحب الفاكهة التي في غير أوانها، كانت تراها نبتًا شيطانيًّـا، ولا أحد يحب الشيطان، وحـده أوريجانوس الذي حاول أن يوجـد له مخرجًا من العذاب، ذاهبًا إلى أنه لو فعل ما فعله دون إرادة الرب فإن ذلك يعني أن له قوة وإرادة غير إرادة الرب، وهذا لا يكون.

– هل أوريجانوس أفضل أم الشيطان؟

نطقـت دميانة سؤالهـا دون أن تفكر فيه، حتـى أن يؤانس فتح عينيه وارتـد برأسـه للخلف، ليس لأنهـا فقدت عقلها، ولكن لأنـه لا يمكنه أن يجاريها في حديثها، فقديمًـا لم يستطع أن يجاري صلاح متري، وها هو الآن يجد نفسه أمام نفس الأسئلة بنفس الطريقة، فما الذي يمكن أن يقوله؟

– الرب أعلم.

نطقها وكأنـه يطهِّر نفسه من دنس سيلحق بـه، طيلة حياته كان ينظر لنفسـه بوصفه جنديًّا للـرب، ورسالَته التي أمضى سنـي حياته من أجلها تكمـن في حمايـة المؤمنين مـن الضلال، لكنـه في السنـوات الأخيرة لم يعد يعـرف من الذي يجب عليـه أن يحميه وممن سيحميـه، فقد تقاربت الخيوط وامتزجت الألوان ببعضها، ولم يعد بمقدوره معرفة المؤمنين من المهرطقين، الكل أصبح مؤمنًا ومهرطقًا في نفس الوقت، الجميع أصبحوا ديمتريوسـ وأوريجانوسـ في نفس واحدة، يتحدثون عـن رؤية المسيح والعـذراء، كما يتحدث إيمانويل وأنطونيوسـ، ويدافعون عن الشيطان وأنصـاره، كما يدافعـان بالضبط، جميعهـم يدافعون باسـم الشيطان، ويهرطقـون باسم الرب، فارحمنا يـا قدير، ودلنا كيف نحميك من أنفسنا الشريرة.

-٢٨-

رسائل أوريجانوس (٢٠)

عزيزي ديونسيوس، لم يعد الكثير لأعترف به لك، فقد قضيت أيامي بعـد أمبروسيوس كأنني شخص ميت، فقـدت كل رغبة في الحياة، كنت أمارسـ أيامي باعتياديـة شديدة، أستيقـظ لأجلس في المكتبـة أو مدرسة اللاهـوت، أردُّ علـى أسئلة تلامذتـي بفتور شديـد، لا أرى جدوى من أي شيء، صرت أتأمـل دائمًا أيامي الماضية، لم أعد أراني الأستاذ الذي اختلف مع رئيس كنيسته، وقرر أن يتحمل ضريبة هذا الاختلاف، رأيتني شخصًا مثيرًا للمشكلات، أينما ذهبت أثير المشكلات، وكل الذين ارتبطتُ بهم نالوا نصيبهـم من حظي العاثر، جميعهم نالوا نهايات عصيبة، أولهم أبي، ليونيدس، وليس آخرهم صديقـي أمبروسيوس، وما بين الرجلين عشرات المآسي التي مرت بي دون أن أنتبه لحضورها، طالما أقنعت نفسي أننـي شخص قوي، مَـن حولي كانوا يرونني ذلـك الشخص الفولاذي، ويلقبوننـي بأوريجانوسـ أدمانتيوس، لقوة حجَّتـي، ومضاء عزيمتي، وإصـراري على النهوض رغم العقبات والكبوات التي واجهتني، لكنهم لم يروني من الداخل، كنـت دائمًا مهزومًا خائفًا متوحدًا بنفسي، أمارس شططي كيفما أريد، ليس رغبـة في الشطح والشطط، ولكن تحسبًا لأسوأ الفروضـ، فماذا لو أننا نعيش حلمًا طويـلاً! أو أننا في دورة من دورات الحيـاة، ماذا لو أن الله لم يخلقنا بعد، وأننـا ما زلنا محض فكرة في ذهن الخالق؟!

جميعها أفكار لم أحدث بها سوى نفسي، لأن العامة لن تتقبل القول بأن الله سيخلِّص الجميع، تجسد في هيئة بشرية، ووقف على الصليب ليبارك العالم، ويطلب الغفران للجميع، العامة لن تتقبل القول بأن الآب يحتضن

الخليقــة كلها، أما الابن فيهتــم بخلاص الخليقة العاقلــة وحدها، والروح القدس يعمــل في القديسين فقط. العامة تريد أن يكون الخلاص مكافأة لها وحدها فقط، على معاناتها في الحياة، دون أن تدري أن الكل يعاني مهما كان، فقد ولــد الجميع في المعاناة، ليس مهمًّا النظــر إلى جسد الملك، ذلك الملفـوف في الحرير والموشى بالذهب، فالأجـدى النظر إلى الروح، تلك التــي تشعر بالضيق، ولا تنام من كثرة الأرق والتفكير في المهام، العامة يــا صديقي لن يتخيلوا أن العذاب في الآخــرة سيكون للروح فقط، وليس للجسد، فالجسد فانٍ، أما الروح فإنها خالدة.

الــروح يا صديقــي هي الأمر العصي على الفهــم، خلقها الله أولاً، ثم سجنهــا في الجسد بسبب خطاياها في حيــاة سابقة، هي الجوهر الذي يجعل منا أشرارًا وأخيارًا، وهي التي أشعرتني بالغيرة من تلميذي ياروكلاوس حين رسمه الكرَّام قسًّا، بينما اعترض على رسامتي في فلسطين، هي التي جعلتني أظهر للعامة بعض تأملاتي وأنا أشرح سفر التكوين بالإسكندرية، فانزعــج الكرَّام وطلب عدم العــودة إلى تفسيره، هي التي جعلتني أصف خروجــي من مصر على نحو خروج موسى منها، وكأنني النبي والكرَّام الطاغيــة، وجعلتني أقول إن الشيطان إذا كان قد سقط بإرادته الحرة فإنه سيخلص بإرادته الحرة أيضًا.

ما إن بلغني خــبر وصول الإمبراطور ديسيوســ للحكم حتى شعرت أننــي سأخلص عما قريــب، وأن ما انتظرته طيلــة حياتي سيحدث، فعما قريــب سأنــال الشهادة التــي نالهــا أمبروسيوس، وأصعــد لألتقي به في ملكــوت السماء، بدأت حركتي تنتظم رغمًــا عني، كما لو أنني عدت إلى شبابي من جديد، وأخذ ذهني يصفو وينتبه إلى كل ما حولي، ونشطت في جمع نساخي ورحت أملي عليهم المتفرقات، كنت أتحدث في كل الأمور، وكأننــي أريد تسجيــل موقفي من كل شيء، تحدثت عــن الروح والنفس والخلــود والآب والابن والروح القدس، ووظيفة كل منهم، وكنت أميل لأن أضع لهم ترتيبًا، لكنني خشيت أن يُحدث ذلك فتنة بين الناس، فألمحت لما أريده بين السطور، وتركت الأمر للعلماء كي يستنبطوه، قائلاً إن الابن لم يأخذ جســدًا، ولكنه روح نزل من السمــاء، وأن المسيح احتمل الآلام

حتى من أجل الشيطــان! وأننا لا نستطيع الصلاة للابن إنما للآب، فجسد القيامــة قابل للفســاد، والملائكة لها غذاء روحــي، ودرجاتهم هي حسب السقــوط والعودة، والروح القدس محــدود في إمكانياته، والسيرافيم هم الابن والروح القدس المحيطون بالآب.

حين أعلــن ديسيوس أنه سيعيــد البلاد إلى عبــادة الأوثان من جديد، نكســ الناس رءوسهــم، وشعــروا أن مصيبة حطت عليهــم، وأن عهد ساويرســ سابتيموس قد عاد، لكنني شعــرت بالفرح وقرب الخلاص، وكثفت من جولاتي لأعظ الناس في الشوارع، حتى أنني كنت أعظ الجند أمام رؤسائهم، حين ألقوا القبض عليَّ وجدت معي في نفس القبو صديقي ثيؤكتستوس، كان القبو مظلمًا ومليئًا بالروائح النتنة، وكان الجنود لديهم أوامر بالقســوة الشديدة على كل من لا يسرع في تقديم الذبائح في المعابد، حــين سألني أحدهم إن كنت سأقدم أضحيتي للإله أم لا ضحكت، وأخذت أرفــع صوتي بالضحكات ساخرًا من طلبه، حتى أن من في القبو عرفوني مــن صوتي، فنــاداني ثيؤكتستوس من آخر المــكان، عرفته من صوته، وطلبــت منه أن يخبرهم من أكون، كي يعرفــوا الأضحية التي سأقدمها، فانهالــوا عليَّ ضربًا بجلود بها مسامير، لكن الذين يعذبون في القبو أخذوا يصيحون فيهم حتــى تركوني وأخذوا يضربونهم، كنــت أعرف أن هذه حيلة، فلا الجنود يريدون قتلي، ولا الذين كنت أعظهم بالأمس يريدونهم أن يستمــروا في ضربي، وفي النهاية جاء قائــد الجند وأغلق طوقًا حديديًّا ثقيلاً علــى عنقي، فوجدتني مشدودًا منه إلى جانب الحائط، فعلمت أن ما تمنيته ما زال بعيدًا عني.

جلست في السجن خمسة أشهر، لا أعرف الليل من النهار إلا من تغير وجوه الجنود المكلفين بالحراسة، كان التعذيب يجيء كالوجبات في أوقات ثابتــة، والجنود يتغــيرون في مواعيد ثابتــة، وعملهم يبــدأ بدفقة تعذيب وينتهــي بأخرى، طلبت منهــم أن يضعوني بجوار صديقــي ثيؤكتستوس لكنهــم رفضوا، وزادوا في الأمر أن عذبوه ليلة كاملة لأجلي، فعلمت أن ثمة مــن نصحهم بعدم القسوة علــيَّ، كي لا أموت بــين أيديهم، فما كان

منــي إلا أن رفعت صوتي، وكأنني أحــدث ثيؤكتستوس، واعظًا كل من في القبو عن فضل الاستشهاد، وعــن المسيح الذي ضحى بنفسه، والآلام التي تطهرنا مــن الخطايا، وتقربنا من ملكوت السمــاء، وتمنحنا القداسة التي ينالها كل شهيد، كنت أتحدث كما لو أنني في مدرسة اللاهوت، حتى أن كل المعلقين بالسلاسل علــى الحوائط أوقفوا تأوهاتهم وأخذوا يرهفون السمع لما أقول، وما إن ظهر الجنود حتى شعروا أن ثمة تغيرًا قد حدث، فقد كان المسجونيون يطالبونهم بمزيد من الضرب والكي، كانوا يتعذبون ويضحكــون، وأنا أحثهم على اتخاذ الرب قدوة، فلو كان العذاب شرًّا ما ارتضــاه لنفسه، فطريــق الفردوس هو طريــق الآلام، ولا بد من قطعه حتى النهاية.

في ذلــك اليوم اغتــاظ الجنود، ووضعوني علــى صليب خشبي كبير، وثبتوا يديَّ عليه، كنت أشعر أن روحي تنسل مني، وفقدت الوعي مرتين أو ثلاثًــا، واستيقظت في كل مرة على كــيٍّ في منطقة جديدة من جسدي، أمضيــت ليال معصوب العينين موشكًا علــى الشهادة، كنت أرى الملائكة وهي تحفُّني بثيابها البيضــاء، منتظرة أن تخرج الروح مني كي تعطرها وتحملهــا إلى قدس الأقداس، لكن الــربَّ لم يقدِّر لي الفــوز بالشهادة، وتركنــي أيامًا شبه فاقد للوعي، غير قادر علــى الحركة أو الكلام، أحلم أن تنطفئ النــيران المشتعلة في جسدي، وأن تتوقف جروحي عن النزف وأضلعي عن الأنين.

في هــذه الأيام راودتني أحــلام غريبة، من بينهــا أن البشرية عاشت في زمــنٍ ما حياةً تشبه حياة القبو الــذي نعيش فيه، وأن المخلوقات العاقلة كانت في ذلك الزمن مخلوقات غير مادية، لكن أرواحها عوقبت وسجنت في هذه الأجساد، رأيت أيضًا أن الملائكة من الممكن أن تصير بشرًا، وأن البشــر من الممكــن أن يصيروا شياطين، فهكذا تتغــير الطبائع، فقمت من نومــي أعظ في القبو بأن العذاب ليس عذاب الجسد، لكنه عذاب الروح، فالجسد فانٍ، أما الروح فإنها خالدة، وعذابها خالد.

-٢٩-

توقفــت الحافلات على مسافة من دير سانــت كاترين، وأخذ الرهبان يصعــدون إليهــا كما لو أنهــم ذاهبــون إلى القدس، مؤتمريــن بإشارات أنطونيوس وتوجيهاته، مصريــن على إقامة عزاء للشهيد باخوميوس في الدير الذي أمضى به أغلب رهبنته، وأمام القلاية التي أسلم الروح فيها، مقيمــين قداسًا جنائزيًّــا خاصًّا به، غير عابئين بما يمكــن أن يواجههم من عقبات.

كانــت تلك أول مــرة يخرج فيها كل هــذا القدر مــن الرهبان من بين جبــال سانت كاتريــن، دون أن يعلم أحد بوجهتهــم الحقيقية، كان الأمر مثيرًا للانتباه ودهشة السلطات التي تراقب كل شيء بين الجبال، لكنها لا تستطيــع أن تمنع تحرك الحجيج إلى أديرتهم، حين سألوا أنطونيوس عن الوجهة والسبب، قال إنهم ذاهبون لأداء واجب العزاء في أخ لهم.

كانت عيون الأمن قد رصدت منذ أسبوع حركة غير عادية لعدد الزوار القادمــين إلى سانت كاتريــن، أغلبهم جاء بسيارات عاديــة وأوتوبيسات سياحيــة، جاءوا لزيارة الدير لكنهــم لم يخرجوا منه، وأكدت العيون أن الدير وما حولــه أصبح بمثابة ميدان كبير يعتصــم فيه المتظاهرون، كان الأمر مقلقًا للأمن، لكن هذا ما أراده أنطونيوس ودانيال.

حكــى لدانيال ما جــرى معه منذ جاءه إيمانويــل الطيب على الصخرة التي على هامش القرى، حتى التقائه بالقس صاموئيل، وكان دانيال يهز رأسه راسمًا شبح ابتسامة خفيفة، وكل فترة يمد يده ليضبط السماعة المعلقة علــى أذنــه، وفي النهاية هدهد علــى كتفي أنطونيوس قائــلاً أن يؤانس لا يؤمن بغير القوة، ولا بد من مواجهته بالقوة. ظن أنطونيوس أن الراهب العجوز يواسيه ببعض الكلمات، فنظر إلى وجهه المليء بالتجاعيد، وجلده

الذي أصبح رقيقًا ككيس من النايلون، وخطر على ذهنه أن يسأله إن كان يعرف دير النساخ، لكن دانيال هز رأسه مبتسمًا:

– كنت أحد الذين خرجوا من دير النساخ.

علم أنطونيوس أيضًا أن دانيال كان أستاذًا لباخوميوس، وأن صلاح متري التقى به وشرح له فكرته عن أوريجانوس، فعرفه دانيال على باخوميوس وإيمانويل، كان الأخير في زيارة للدير، فجلسا مع صلاح، واقتنعا برؤيته في التغيير، لكن الكنيسة رفضت فكرتهم، وثار جدل بسبب ذلك، حتى أن البابا قدم عدة عظات امتدح فيها أوريجانوس ومكانته، لكنه رفض قبوله في شركة الكنيسة، لا لشيء سوى أن الباباوات الذين سبقوه رفضوا، ولا يمكنه مخالفتهم.

لم يفهم أنطونيوس الكثير من إيماءات الأب دانيال، لكنه شعر أن ثمة من يقف معهم في خندقهم، هدهد عليه الأخير ووضع يده على الخيط الرابط بين الكرسي والسقاطة الخشبية فانفتح الباب، خرج أنطونيوس من القلاية ونظر إلى النجوم المرتسمة على صفحتها كوشم على جسد لا تشوبه سوى الغيومٍ، وقف لا يعرف إلى أين يذهب في ذلك الوقت، لكن غربته لم تدم طويلاً، فقد كان القس صاموئيل جالسًا بجانب من القلاية، فصحبه إلى غرفة بمبنى الضيافة.

في الطريق تذكر مبنى الضيافة الذي كانت تنزل به دميانة يومين أو ثلاثة في الأسبوع، تذكر كيف كان يتطلع بنظره لغرفتها مترقبًا ظهورها من الشرفة أو النافذة، كان يقر في نفسه أن ما يفعله إثمًا سيعاقَب عليه، لكنه حين اعترف لباخوميوس بسره ضحك قائلاً إن بعض الأخطاء يحبها الرب، ومن بينها الحب غير المدنس، فالحب الذي تبحث فيه الأرواح عن بعضها، وتتعذب في طريقها للقائه، هذا الحب هو بعض من آلام الرب في طريقه للصعود إلى الفردوس، فقد كان بإمكانه أن يصعد دون آلام، لكنه أراد أن يخبرنا أن طريق الفردوس هو طريق الآلام، وليس أمامنا سوى أن نحب ألمنا، لأنه طريقنا إلى الصعود.

أخذ أنطونيوس يصلي ما بقي من الليل في الغرفة التي نزل فيها بصحبة صاموئيل، وحين نام كان النهار قد أوشك على أن يملأ الدنيا بضوئه

الحلبيـي، شعر أنه لم يعد قـادرًا على الاحتمال، فجسـده مهدود ورأسه مشتـت، مـال بجذعه علـى السرير نحو الوسـادة الوحيدة وتـرك نفسه للأحـلام، كانت دميانة تناديه وهي جالسة علـى صخرة عالية، شعر أنه يعـرف المكان، فأخذ يدقق فيه حتى تذكـر أنه الصخرة التي على هوامش القرى، سألهـا عن سبب انتظارها في البرد أمام المغـارة، أجابته أن ثمة ذئبًا يـأكل الناس بها، حين نظر في عينيها اطمأنت، وانحنت برأسها على صدره، فمسح بيده على شعرها المجعَّد، ورأى شعرات بيضاء في رأسها، فحزن ورأى ذلك غير حسن.

مضـى وقت قبـل أن يـترك أنطونيوس دميانـة وحدها علـى حافة الصخرة، كي يواجه الذئب الذي كان ينهش أجساد الناس، حين سد عليه باب المغـارة وجده أصبح ذئابًـا كثيرة، وكلما ألقى بواحـد منها من على الجبـل ظهر لـه آخر، حتى أنه لم يعـد قادرًا على الوقـوف، فرفع عينيه للسماء قائلاً بضعف واضح:

– تعبت.

هنالك تلاشت الغيـوم، وبرقت السماء، وشعر أن طاقةً جديدة سرت في روحـه، فنهض من مكانه ليكمل حربه مـع الذئاب، لكنه لم يجد غير الذئب الذي ارتعدت دميانة منه، وصرخت فيه من جديد أن ينقذها، كان ضخمًـا وقويًّا وله عينان تقذفان بضـوء كالنار، فبحث أنطونيوس بنظره عن شـيء يساعده على مواجهتـه، لكنَّ الأخير كشر عـن أنيابه وانطلق فجـأة كالسهم تجاه دميانة، ودون أن تفعل شيئًـا عبرها وألقى بنفسه نحو الهاوية، كما لو أن شياطين الأرض كانت تقوده نحوها.

استيقظ على صوت ناعم يناديه من الخارج، كان خادمًا أسود البشرة له صـوت ناعم كأصـوات الحريم، أبلغـه الخادم أن دانيـال ينتظره في قلايته، ولا بد من سرعة النزول إليه، أمضى أكثر من ساعة وهو ينتظر خـروج دانيال من صلاته، حـين انتهى منها ابتسم في وجـه أنطونيوس موضحًا أن معاناتـه أوشكت على الانتهاء، فقد شعر الآباء بالحزن لأجل باخوميوس، وقرروا أن يتلقوا فيه العزاء أمام قلايته.

حـــاول أنطونيوس أن يشرح خطورة ذلـك، فرهبان يؤانس مدربين علـى القتال، ولن يسمحوا لأحد أن يحيي ذكرى باخوميوس وإيمانويل، فهز دانيال رأسه مبتسمًا:

– ماذا لو كان المعزُّون أربعة آلاف؟

دهشـ أنطونيوس مـن الرقم، ولم يستطع تخيـل مشهدهم على هضبة المـلاح، رآهم جالسين أسفل هضبة المـلاح، مغلقين الطريق على أي من يفكـر في الدخول أو الخروج، تذكر صديقيـه أحمد ونائل، وما يمكن أن يكتبـاه عن ثورة كهـذه، تصور لو جـاءت الشرطة وأحاطـت بالهضبة وطالبـت بفتح الأبواب ودخـول المعزين، وكاد أن يقبِّل يـد دانيال على فكرتـه المدهشة، لـولا أنه تذكر موقع الدير علـى الهضبة الحصينة، وأن الثغـرة الوحيدة التي بـه من جهة البحـر، حيث المغارة المليئـة بصناديق الكتـب، تذكَّر الممـر الرابط بينها وبين كنيسة المـلاح، ورفع عينيه لوجه الأب دانيال:

– وأين دور قاطع الطريق؟

لم يفهـم الراهـب العجوز ما يرمـي إليه تلميذه الجديـد، فمال بحاجبه مستفسـرًا، رسم أنطونيوس جبال القلزم وعليهـا هضبة الملاح، وأمامها الصحـراء الشرقيـة يقطعها طريـق الرهبان حتى دير النسـاخ، قائلاً إن الحافـلات ستتخذ الطريـق الموازي للجبال لتصل بالمعزِّيـن إلى الهضبة، لكن من الـذي سيسمح لهم بالصعود، هز دانيال رأسه منتظرًا أن يكمل، فذكَّره بدور قاطع الطريق الذي يفاجئ الناس من حيث لا يتوقعون.

– وماذا يريد قاطع الطريق؟

قالها دانيال بحماسٍ واضح، فابتسم أنطونيوس قائلاً:

– زورق وخمسة رجال يجيدون تسلق الجبال.

حين اكتمل ركـوب الرهبان في الحافلات أعطـى أنطونيوس إشارته لهـم بالتحـرك، فخرجوا على الطريـق في مشهد نادرِ الحـدوث، فليس معتـادًا أن تشهد الصحراء نحو خمسين حافلـة محمَّلة بالرهبان وتسير في

قطار واحد، وهو الأمر الذي جعـل رجال الأمن يتساءلون عن وجهتها وسبب خروجها، وكانـت إجابات أنطونيوس غامضة ومقتضبة، فهو لا يريد أن يثير حنقهم، وكل ما يحتاجه منهم هو بعض الخيال غير الضار، فسوف يبلغون رؤساء رؤسائهم، ويتصلون بالكنيسة الأم التي سيزعجها الخـبر، وسوف يراهـن الجميع على الحـذر واتخـاذ الازم، بما يضمن حمايـة الموكـب، حتى يصـل في أمـان إلى هضبة الملاح، حيـث اللوحة الكبيرة المكتوب عليها: "هضبة الملاح ترحب بالزائرين".

-٣٠-

تنيَّــح الأب رفائيــل في عامه الخامس بعــد المائة، تــاركًا فراغًا كبيرًا في الديــر، رغــم أنــه كان قد اعتزل الحيــاة منذ سنــوات طويلة، وترك ساويرســ يدير شئون الدير باقتدار، بينما التحق شنودة وأكثر من خمسة عشــر راهبًا بالإسكندريــة، تلبية لدعــوة جورجيوس الــذي طالبهم بأن يظهروا إخلاصهم للمسيح، كانوا قــد تركوني في صحبة رفائيل كي أقوم على خدمته.

أرسلنــا لرؤساء الأديرة القريبة والبعيــدة بالنبأ، محددين موعد تشييع الجنازة، لكن أصــداء حرب ثاؤفيلوس على أوريجانوس وأنصاره ألقت بظلالهــا، فقد خشي الكثــيرون من حضور جنازة راهــب يخالف البابا، الجميــع كان موقنًا أن ثمة عيونًا للكنيســة، ولا يريدون أن يكونوا منفيين عن أديرتهم كطــوال القامة، فاكتفوا بالصلاة لأجله في قلاليهم، ولم يكن أمامي أنا وساويرس وثلاثة من الرهبان العجائز وبعض الخدم سوى أن نجهزه لسفره الطويل، ونقيم له قداسًا جنائزيًّا فقيرًا، ثم نحمله وننزل إلى مقابر الرهبان، لندفنه بجانب أستاذه ديمتريوس.

شعــرت بعدها أن رسالتي انتهت، ولم يعد لي ضرورة في الحياة، فقد مــات الرجل الذي كان المنارة التي توضــح أفكار السابقين، وصار الدير مكانــا للأشبــاح، ولم تعد هناك أهميــة لشيء، فرفائيــل العظيم تنيَّح ولم يحضر جنازته سوى خمسة أو ستة رهبان، رفائيل المفسر الشارح يموت عاجــزًا عن قول كلمة حق في وجه بطريرك يهدد الجميع بالحرمان، فما جدوى وجودنا على الأرض؟ كان ذلك سؤالي لساويرس الذي لم يتمالك نفسه مــن البكاء، وأرسل لشنــودة ولاون قائلاً أنه يخشــى أن أفعل شيئًا ضــد مشيئة اللــه، فأرسلوا له أن يبعثني إليهم، حينهــا كلفني بحمل رسالة إلى جورجيوســ في الإسكندرية، مطالبًا إيــاه بإعادة شنودة ورهبانه إلى

الديـر، فقدْ فقَدَ المـكان رائحة الحياة. صدقت الرسالـة التي أملاها عليَّ، وختمهـا بالشمع ووضعها في خرطوش يحميها من التلف، فتركته ونزلت متخذًا طريقي إلى الشمال.

كانـت الإسكندرية قـد أصبحت بمثابة دير كبير، ثمـة رهبان يمشون في الشـوارع كما لو أنهم يسـيرون بين القلالي والكهـوف، بدت المدينة العريقـة كأنها تصحَّرت وماتـت بها مظاهر الملك التـي طالما سمعت بها، المدينـة الزاهيـة التي لا ينقضي عيد فيهـا حتى يبدأ عيد آخـر لم تعد سوى ديـر كبير، شوارعها تحولت لساحات يعسكر فيها الرهبان، البعض يقوم بحراسة الآخرين كما لو أنهم في حالة حرب، لا أثر لاحتفال ولا زينة أو موسيقى، لا تجمهر إلا للرهبـان بملابسهم السوداء، الأمر الوحيد المبهج هو ذلك الموكب الذي انطلق من الميوزيوم إلى بيت الحاكم، تتوسطه عربة حربية زاهية الجمال، تتقدمها جماعات من الحرس وتتلوها جماعات من العبيد، تجلسـ فيها سيدة وعلى مقعد كأنه العرشـ، تلوح بيدها للعابرين الذين ما يلبثون أن ينحنوا تبجيلاً لها.

تصورتُ أنها زوجة الإمبراطور أو نائبه، لكنني حين سألت عنها قيل إنهـا من كبار المعلمـين في الميوزيوم، تلك المدرسة التـي تعلم فيها رفائيل في صغـره، وتعلم فيهـا أوريجانوس على يد أمونيوسـ السكاس وغيره مـن الرواقيين والأفلاطونيين الجدد، أيقنت كـم كان رفائيل عظيمًا، فلو استمـر به الحال في هـذه المدرسة ربما لأصبح في شهرة هـذه السيدة التي يقـال لهـا هيباتيا، التي يحق لهـا وحدها الدخـول في أي وقت على نائب الإمبراطور.

كان البابـا ثاؤفيلوسـ قـد عاد منتصرًا علـى غريمه ذهبـي الفم، هذا الذي مـات في منفاه في صحراء الإسقيط، وكأن مـن قسوة الزمان عليه أن جعله يموت في أرضـ الرجل الذي أصر على حرمانه ونفيه، وحتى الآن لا يزال رافضًا إعادة إثبات اسمه في قائمة الآباء المطوبين، رغم أن الرومان والأنطاكيين فعلوا ذلك.

كانـت البـلاد في حالة من الهـدوء الذي لا يسيطر عليـه سوى ظهور كيرلس ابن شقيقة الأنبا ثاؤفيلوس، تلك التي قيل إنها كانت مع ثاؤفيلوس

يوم سقطت الأوثان تحت قدميه، وأنها دخلت الدير حتى أصبحت في سن الـزواج، فتزوجت وأنجبت كيرلس الـذي تربى في رعاية خاله، فصار قسًّا ينوب عنه في كل شيء، بينما اعتكف ثاؤفيلوس تاركًا كل شيء في يده هو وجورجيوس.

وصلـت إلى شنـودة ولاون بمجرد أن قلت إنني مـن دير الملاح، فقد وزع جورجيوس الرهبـان حسب الأديرة التي جـاءوا منها، وأمر كل جماعـة أن تقيم بجانب معبد للوثنيـين، وما إن ينهدم المعبد حتى يبدأوا في تشييـد كنيسة مكانـه باسم أحد الشهداء أو أنبيـاء العهد القديم، كان رهبان الملاح يوجدون مع رهبان دير الأب باخوميوس أمام كنيسة النبي دانيال المقامة على أطـلال السيرابيوم، تمنيت لو أنني جئت في زمن رفائيل كي أرى هذا المكان وهو قبلة لمختلف الأديان، هززت رأسي ولم أعلق لمرافقي علـى شيء، لكنني ما إن التقيـت شنودة ولاون حتى سقطت في نوبة بكاء طالما أجَّلتها، فجلسـا يعزياني في رحيل أستاذي، موضحين أن أثناسيوس لو كان حيًّا ما وسعه إلا البكاء.

حين التقينا بجورجيوس رأيته قـوي البنية متَّقد العينين حازم الرأي، فقـد اعتاد أن يأمر والكل يجيب، بدا كملك لقبيلة من البدو الرعاة، سلمت عليـه بحياد وأنا أسلمـه رسالة ساويرس، فأعطاهـا لراهب يمشي خلفه، وسألنـي عمًا بها، قلت إن ساويريس يريـده أن يعيد لدير الملاح رهبانه، فقـد أصبح مكانًا للريح والأشباح، أعجبته جملتي فابتسم ساخرًا، ثم طلب مني أن أفكـر في أمري وحدي، واستدار لشنودة قائلاً إنني من مظهري وملمس يدي لا أصلح لا للحراسة ولا للبناء، فأكدت كلامه بأنني أمضيت حياتي في صحبة أستاذنا رفائيل، أغمض عينيه وهز رأسه طالبًا له المغفرة من الـرب، وحين انتهى من صلاتـه السريعة مازحنـي متمنيًا ألا تكون هرطقاته قـد مست رأسي بشيء، بدا على وجهـي الغضب، لكنه ضمَّني سريعًا إلى صدره وهو يقول:

– كنت تلميذه أكثر منك.

لم يتركنـي جورجيوس أدخـل في المعارك ولا أعمـل في الحفر، فقد طلـب من كيرلس أن يضمنـي شماسًا قارئًا بالكنيسـة، فهز الأخير رأسه

ورسمني بعد أسبوعين شماسًا للخدمة بصحبته، لتبدأ حياتي التي لم أتوقعها ولم أخطط لها، ولأصبح شاهدًا على أحداث لم يشهد مثلها سوى رفائيل في صحبة أثناسيوس، فلم يمض عامان حتى تنيَّح ثاؤفيلوس، واختار الأساقفة كيرلس ليكون في كرسي الكرازة من بعده، لكن حاكم الإسكندرية أوريستوس لم يكن راغبًا في أن يكون كيرلس خليفة لخاله.

كان التوتر يسود المدينة بين اليهود والمسيحيين، فقد حمَّلهم الأخيرون خطيئة صلب المسيح، ورد أحبارهم بأن يسوع بن يوسف النجار، وليس ابن الله، وأن المسيح لم ينزل بعد. فاشتعل الرهبان غضبًا، شاعرين أن إيمانهم قد أهين، فأعطى جورجيوس أوامره لهم بالإغارة على حي اليهود، اشتعلت النيران فيه، وتلألأت سماء المدينة ومياهها بألسنة أضواء بيضاء وحمراء ودخان كثيف، ونهض أوريستوس على صرخات استنجاد اليهود به، فقد تهدمت معابدهم وبيوتهم، وصاروا مطاردين في الشوارع، وعبثًا حاول الجنود حمايتهم، فقد كان الغضب جامحًا، وجورجيوس يريد أن يحدد مسارًا لما هو قادم، فكيرلس ليس ضعيفًا، وإن كان ضعيفًا فإن من حوله ليسوا ضعفاء.

وصلت الرسالة جلية إلى الحاكم أوريستوس، فألقى القبض على راهب يدعى أمونيوس، كان رئيسًا لفريق من أبناء ديره، وقد نشطوا في مطاردة اليهود والوثنيين كما لو أن السماء ستنطبق على الأرض بسببهم، فلما تمكَّن الجنود منه رغب أوريستوس أن يرسل من خلاله لكيرلس رسالة مفادها أنه لن يرحم أحدًا، ومن ثم أمر جنوده بتعذيب أمونيوس أمام الجميع، فراحوا يجلدونه بقسوة حتى مات بين أيديهم. حين علم كيرلس بوفاته أعلن على الفور أنه شهيد، وأمر بكتابة اسمه في سجل الشهداء، مما جعل الرهبان يوقنون أنهم يقاتلون في سبيل الرب، وأن من يموت منهم سيكون مع القديسين في ملكوت السماء.

– لم أعد قادرًا على حفظ الأمن، ولن أكون قادرًا طالما ظل كيرلس في كرسيه.

هكـذا أرسل أوريستوس للإمبراطور، لكـن الأخير لم يهتم برسالته، نظـرًا لجهود أصدقـاء ثاؤفيلوس وكيرلس في التقليل مـن شأنها، وما إن علـم جورجيوس بالأمر حتى أرسـل خمسمائة من رجاله لمهاجمة موكب أوريستوس، فحاصروه وهو عائد إلى قصره، وقاموا بتعنيفه وسبه أمام الناس، حتى أن أحدهم قذفه بحجر فشج رأسه، بعدها أرسل أوريستوس لكيرلـس قائلاً إنه لـن يتحدث عن تجـرؤ الرهبان على موكبـه، لكن ما يجري لليهود لا بد أن يتوقف، فرد كيرلس:

– إكرامًا لكم فإنهم يعودن إلى بيوتهم هذا المساء.

كان كيرلـس راغبًـا في أن يحتـل المكانــة التـي تحتلهـا هيباتيـا لـدى أوريستوسـ، فدائمًا ما كانت تقطع شـوارع الإسكندرية بموكبها وعربتها المزينــة بالفضــة والذهـب، وكان أبنـاء الإسكندرية يعاملونهـا كملكة غير متوجة، وأوريستوسـ لا يؤخر لها طلبًا، ويتباهى بصداقتها أمام الجميع. رغـب كيرلس في هـذه المكانة، فـترك اليهود يعـودون لبيوتهم، وأوقف زحـف الرهبان على معابد الوثنيـين، آملاً أن يشفع له ذلك في صداقة قوية مع أوريستوس، لكن الأخير رغم كونه مسيحيًّا فضَّل صداقة هيباتيا عليه، وكلما أمعن كيرلس في تقربه إليه أمعن أوريستوس في تبجيلها هي. حتى أن الرهبان شعروا بالإهانة من أجل سيدهم، وغذى جورجيوس فيهم الشعور بأن هيباتيا تحول بينهم وبين أن تكون الإسكندرية مدينة الرب الأولى.

تعامـل الرهبان مع كراهية جورجيوس لهيباتيا بوصفها رغبة المسيح، ولم يعترضـ كيرلس، فراح البعض يفكر في طريقة يخدم بها الرب على الوجـه الأمثل، وكان من بينهم قـارئ في الكنيسة يدعى بطرس، طالب أصدقـاءه بتطهير مدينة الرب من دنس هيباتيا المتباهية بكفرها، ونصحهم بـأن أفضل طريقة لذلك هي كسـر كبريائها، فاتفقوا على أن يكمنوا لها في طريق عودتها مـن الميوزيوم إلى بيت الحاكم، وجلسـوا بانتظارها حتى ظهـر لهم موكبها، ألقوا بالأخشاب في طريقه، وأخذوا يقذفونه بالأحجار مـن كل جانب، حتى هـرب الخدم وفـر الحرس وسقطـت العربة على الأرض، وجرتها الخيول بفزع على الطريق المرصع بالأحجار، فراحوا

يطاردون الخيل حتى انكسرت العربة وانفصلت عنها، فأخرجوا هيباتيا المرتعدة منهم، وتنادوا في المدينة أن الله نصرهم على شيطانة الكفر، فتجمع المزيد منهم، ومن فرط حماسهم جروها في الشوارع ليدخلوها الكنيسة، معتقدين أنهم سيجعلونها تؤمن بالمسيح رغمًا عنها، لكنها كانت قد فقدت وعيها، فجن جنون بطرس، وقرر أن يجردها من ملابسها ويلحق بها العار، وفهم البعض أن تلك إشارة الانتقام، فأمسك أحدهم بحجر وراح يقتل الشياطين التي في رأسها، وانتابت الجميع رغبة جارفة في التقرب إلى الله، فأخذوا يحضرون قطع الرخام ويضربونها بها، حتى أصبحت فطيرة من اللحم الممتزج بالتراب والدم والعظام المهشمة.

-٣١-

اتصلتُ بدميانة أكثر من مرة، لكن هاتفها كان مغلقًا، اتصلت بأحمد ونائل لأعرف سبب تأخرهما، وعلمت أنها أصرت على العودة للمنزل وحدها، مررنا على المستشفيات وأقسام الشرطة، وظللنا طيلة الليل نطمئن أنفسنا أنها بخير، لكن كلما لم نجد اسمها في مكان يزداد الشك في قلوبنا، كنا خائفين من العودة إلى تريزا، فماذا يمكن أن نقوله عن غياب ابنتها؟! واتفقنا في النهاية على القول بأنها ذهبت إلى دير الملاح مع الشرطة.

كانت تريزا في انتظارنا، جلسنا كالمهزومين في حرب طويلة، لم نعرف من أين نبدأ الكلام، لكنها وفرت علينا كل شيء، وقالت ووجهها مخضب بالدموع إنها تعرف ما حدث، اتصلوا بها وأخبروها أن دميانة معهم، حاولنا التخفيف عنها ببعض الكلام، حاولنا التهوين من قدرتهم على فعل أي شيء لها، لكنها رفعت يدها في وجوهنا بأن نلزم الصمت، ثم تحدثت وكأنها تجزئ الهواء بيدها، موضحة أنها في السابق لم تكن تعرف مكان ابنتها ولا سبب غيابها، وتجاوزت المحنة، فهل الآن وهي تعرف كل شيء لن تستطيع تجاوزها؟!

ظلت دميانة حبيسة مبنى الضيافة في دير الملاح، لا أحد يدخل غرفتها ولا يخرج منها، حتى النافذة التي تطل على سماء الدير وأرضه أغلقت، وصارت تتلقى طعامها مرتين في اليوم عن طريق خادم عجوز.

كان يؤانس قد وقع في نوبة من الضحك المختلط بالبكاء حين علم أنها كانت مع الأسقف الكبير يوم أن انفجرت القنبلة، وأن وجودها هناك هو الذي أخره عن النزول للعظة، حينها وضع يده على وجهه وأخذ يضحك ويبكي ضاغطًا على عينيه ومقدمة رأسه، حتى أنها ظنت أنه أصيب بنوبة من الجنون، وتمنى لو أن يهشم السرير والغرفة كلها عليها، لكنه انتفض

مـن مكانه صارخًا في رهبانه ألا تغيب عـن عيونهم، بعدها جاء الرهبان وأغلقوا النافذة والباب وتركوها تعاني هلاوس خوفها.

لم تعـرف سببًـا لغضب يؤانس بهـذا الشكل، حتى أنهـا لم تستطع أن تواجهــه بالأسئلة التي كانت تدور في رأسهـا، وظلت ليلتها الأولى تتوقع أن يدخـل عليها رجاله فيمزقوا ملابسهـا ويعتدوا عليها، أو يقذفوا بها من فوق الهضبة وينتهي أمرها، لكن حين غلبها النوم رأت أنطونيوس يمشي أمـام شياه كثيرة، واضعًا عصاه الكبيرة علـى كتفيه ويغني، ظلت تناديه حتى انتبه لها، حين سألها عن سبب وجودها في هذا المكان لم تجبه بشيء، ووقـف متحيرًا لفترة قبـل أن يضع الصليب الذي علـى صدره في الباب ويفتحه، أمسك بيدها وهـرولا في الصحراء، رأت أغنامه أناسًا، ورأت أمهـا تحتضنها وتبكـي، وأحمد ونائـل يهرولان خلفهما علـى الطريق، ومـلاك واقفًا بين قساوسة كثيرين ينظر في صحف قديمة، جميعهم رفعوا عيونهم عن صحفهم ونظروا نحوها وهي تهرول بين الرمال والكثبان.

جلسنا نحـن الأربعة على منضدة الطعام في بيـت تريزا كما لو أننا في مجمـع مقدس، كان الحـزن والضيق والعجز يمـلأ صدورنا، فكرنا في المـكانٍ الذي يمكـن أن يأخذها إليهـا يؤانس، كل الأماكـن كانت متاحة، فكرنا في جعله مضطرًا للحفاظ على حياتها، ولم يكن أمامنا سوى أن نعيد للأذهان قصة أنجيـل التي حدثت بسببها فتنة في الصعيد، وتساءلت تريزا عمـن قال إن ما يجـري لابنتها مسألة قبطية، موضحـة أن الدولة ملزمة بتوفـير حماية لها ولـو في أعماق القـلالي والكهـوف، ولا علاقة للدين بذلك، حينها تشجع نائل واستأذنها في الكتابة عما يجري، بينما طلب منها أحمد أن تصحبه لمقر عمله، حيث يمكنها أن تلتقي برئيس التحرير، وتقنعه بالكتابة عن الموضوع ولو في صيغة إعلان مدفوع الأجر.

توجهنا في الصباح إلى مبنى الجريدة التي يعمل بها أحمد، حين دخلت تريزا على رئيس التحرير انحنت على يده قائلة:

– أنقذوا ابنتي.

فوجئ الرجل ببكائها ورغبتها في تقبيل يده، فانتفض من مكانه ليجلسها في الكرسي المواجه له، حكت له ما جرى مع دميانة منذ تخرجت في كلية الحقوق، ورغبتها في أن تعمل محققة بالنيابة الإدارية، واستعانتها بأصدقاء قدامى لوالدها، ساعدوها على أن تعمل محققة في بعض الأديرة والكنائس، حتى عملت في دير الملاح الذي حاولوا قتلها فيه.

أوضح رئيس التحرير أن الكنيسة من بين المناطق المحرمة، فلا الكنيسة تتحدث عن مشكلاتها، ولا أحد يملك أن يتحمل مسئولية إحداث فتنة بين المسلمين والأقباط، ومن ثم فالجميع يعتبره شأنًا داخليًّا، لذا فأقصى ما يمكن عمله هو نشر صورة لدميانة مع مناشدة لإنقاذها، عسى أن يحدث ذلك ارتباكًا لمن قاموا بخطفها.

كانت جريدة نائل أخف حركة وأكثر جرأة، فقد سمحت بأن يكتب مقالاً كبيرًا يذكر فيه الناس بالفتاة التي أثارت فتنة في الصعيد، متسائلاً عن مصيرها وسر اختفائها، وتوافق مقاله مع الصورة التي نشرتها جريدة أحمد تحت عنوان "أنقذوا ابنتي"، وتوقع أحمد ونائل أن القيامة ستقوم، لكن لم يحدث شيء سوى أن امتلأ بيت تريزا بمزيد من الجيران والأقارب الذين جاءوا يواسونها في محنتها.

كان الإحباط قد بدأ يتسرب لنا، فقد مرت ثلاثة أيام بلا حس أو خبر، لكن نائل في اليوم الرابع فوجئ برئيس تحريره يطلب منه إجراء تحقيق موسع عن الفتاة وما جرى لها، هنالك جلس يكتب عدة حلقات نشر أولها في اليوم التالي على نصف صفحة، ورأيت صورتي إلى جانب صور دميانة وتريزا والبورتريه القديم الذي نشر لفتاة الصعيد، وأخذ يربط بين "أنقذوا ابنتي" و"فتاة الصعيد"، وذكر أحداثًا وتواريخ وأسماء كثيرة، من بينها يؤانس وأنطونيوس ويوساب وإيمانويل وصلاح متري والأمة القبطية وجمعية أوريجانوس. حتى أن الأمر بدا كما لو أنه صراع في الكنيسة.

كنا نتابع أصداء ما يكتبه نائل على صفحات التواصل الاجتماعي، موقنين أن يؤانس وصله الخبر، وأنه لن يستطيع أن يؤذيها، فقد أصبحت

شخصيــة يبحــث عنها الجميــع، وتوقعنا أننــا في لحظة أو أخــرى سنفاجأ باتصال منها، لكن الأمر سار في اتجاه مغاير، فقد استدعت الشرطة نائل لسؤالــه عن مصادره، وكان عليه أن يستشهد بــي كأحد شهود العيان في ديــر الملاح ودير المحرق، لكن الشرطــة رأت أنني شخصية وهمية، فلا أوراق تثبــت هويتي، ولا شاهد واحــد على أنني من أبنــاء الدير، وكاد الضابط المسئول أن يأمــر بسجني أنا ونائل لولا أن الأخير اتصل برئيس تحريره، فأظهر الرجل نوعًا من التعاطف وأفرج عنا.

لم نكــن نعرف إلى أي مدى أصبنا الهدف، فقد كنا مرتبكين وخائفين، ولقاؤنــا مع الضابط المسئول لم يكن يبشر بالخير، جلسنا نعيد حساباتنا من جديد، قلنا إننا أشعلنا النار في الفتيل، وليس أمامنا سوى الانتظار عسى أن يحــرك الطرف الآخر قطعة خاطئة هنا أو هناك، ويبدو أن ذلك ما حدث بالفعــل، فقد شعر يؤانس ورجاله أنهم أصبحوا تحت الإضاءة، حتى أنهم لم يستطيعــوا تحريك دميانة من مكانها، وبدلاً مــن أن يفكروا في إطلاق سراحهــا فكروا في القضــاء عليها، لكن أنطونيوس ظهــر في المشهد بحيل لم يتوقعهــا أحد، حتى الكنيســة التي كان يؤانس يتخيــل أنها عدوه الأول فوجئت بالزحف المقدس من سانت كاترين إلى هضبة الملاح، كما فوجئت السلطــات أن ثمة ما يحدث على الأرض أكبر مــن توقعات رجالها، فلم يكن أمامها سوى أن تلاحق الحدث وتتحرك برجالها إلى المكان.

-٣٢-

رسائل أوريجانوس (٢١)

عزيزي ديونسيوس

لست نادمًا على شيء، وأشهدك أنني غفرت للجميع، بمن فيهم ديمتريوس الكرَّام الذي فعل كل ما يمكنه لنفيي من مدينتي وكنيستي المحببة، وتلميذي ياروكلاوس الذي علمته وقدمته عليكم جميعًا، فجعلته خليفتي حال غيابي على مدرسة اللاهوت بالإسكندرية، ولا تعلم كم فرحت حين علمت أنه سيكون خليفة الكرَّام في كرسي الكرازة، تصورت أنه سيعقد مجمعًا مقدسًا يعلن فيه للجميع براءتي مما لطخني به الكرَّام، وأنني لا أستحق هذا النفي الروحي والمكاني، كنت كل يوم أتوقع أن يجيئني رسول منه ليعيدني إلى الإسكندرية، أو رسالة تشهد بقبوله لي في كنيستي الأم، لكنه أمضى ثلاثة عشر عامًا على كرسيه دون أن يذكرني بشيء، لقد تجنب حتى ذكري بالسوء، وكأنني لست موجودًا، أو أنه لم يجلس أمامي يومًا ما، ولم يتلقَّ علمه على يدي، ولم أشرح له مبادئ اللاهوت لدى الرواقيين والأفلاطونيين، ولا مبادئ الحساب لدى اليونانيين.

أشهدك أنني منذ تنيح الكرَّام وأنا لا أذكر الإسكندرية إلا بالخير، ولا أغضب من أحد فيها، وأنني بتنيح أمبروسيوس فقدت لذة العيش، وحتى القدرة على الغضب، فغفرت للجميع، حتى الحراس الذين وضعوا المسامير في يدي، وثبتوني على الصليب هازئين بي أن أقتدي بالمسيح في صلبه، وحتى حين رفعوني عنه ووضعوا المسامير المحماة بالنيران على جسدي كي أعود إلى الوعي، ووضعوا لي طوقًا مسننًا في عنقي، وثبتوني في الحائط بالسلاسل، طالبين مني أن أعظ ما استطعت، أشهدك أنني

حاولت، لكن صوتي لم يكن يخرج مني، وشعرت أنني مهدود ولا طاقة لي بشيء، شعرت أن الطوق يحز في عنقي، وأنني غير قادر على حمله، وكلما حركت رأسي كانت سنونه تمزق جلدي، والدم ينزف مني، وأنا لا أقدر على شيء سوى رؤية الملائكة وهي تنشدني:

اسندوني بأقراص الزبيب

أنعِشوني بالتفاح فإني مريضة حبًّا

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني

أحلِّفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول

ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

حين خرجت من السجن لم أكن أعرف أين أنا، ولا ما الذي جرى لي، فقط كنت أرى وجوهًا تحيط بي، وتضع لي الماء في فمي، تضع الزبيب والعسل الجبلي، وأنا أنشد مع الملائكة نشيد المحبة والخلاص، وأرى أن المسافة ضاقت والخطى اقتربت، ولم يبق بيني وأبواب الملكوت الواسع في السماء سوى قبلة، ربما كانت القبلة التي لم أنلها في يوم ما من ميريت، الفتاة الوحيدة التي ضعفت أمامها، فقررت أن أوقف ضعفي وأخصي نفسي كي أكون عبدًا أبديًّا للمسيح، أنا الخصي الأبدي من أجل ملكوت السماء.

أُشهدك يا صديقي أنني لم تعد بي حاجة للمغفرة من أحد، فلا أحد بيده المغفرة لسواه، كل المحبة ها هنا في القلب، كل الرحمة ها هنا، ولا أحد يملك أن يمنح مغفرته لأحد، لأن أحدًا لن يعذب، فما ذنبه كي يعذب، ما ذنب الشياطين كي تعذب، هل كان بوسعها ألا تخطئ، هل كان يمكنها أن تكمل مسيرتها في غواية آدم وأبنائه لو لم يكن الرب راغبًا في ذلك، هل يمكن للحياة أن تستمر دون شيطان يغوي ورب يغفر، فما ذنب الشياطين أن تعذب؟!

أعـرف أن الكثيرين سيرونـني مهرطقًا، لأن عملهـم جميعًا سينتهي بمجـرد أن يـدرك الناس أن اللـه سيمنح عفوه للجميـع، وأن المهرطقين والوثنيـين ومن نجهد أذهاننا في تخيـل شكل الجحيم من أجلهم لن يعذبوا، فما حاجة الله بأن يعذب أحدًا، ربما لو أن له حاجة في شيء فهي أن يغفر لهم، فلا رب دون غفران ورحمة.

صديقي ديونسيوس

لا عليك مني، لا تشغل نفسك بعودتي إلى الكنيسة، فكنيسة السماء الآن تفتح ذراعيها لي، أراها محفوفـة بالملائكة وربات الشعر والموسيقى وهم ينشـدون لأجلي نشيد الأنشـاد، أنا الآن لا أنتمـي إلى هنا، لكنني هناك، أنـا أصعد يا صاحبي، أرتقي درجـات في الهواء وأصعد، لا شيء يحول بيني ورحمات الرب، قدس أقداسه يتسع للجميع، البر والفاجر، القديس والمهرطـق، الملاك والشيطان، قدس أقداسـه واسع، ورحماته تتنزل، ولا أرى جحيمًا لأحد، إلا من حبس نفسه بيديه في ترهات الجحيم.

-٣٣-

ألقى موت هيباتيا بظلال كئيبة على المدينة ككل، حيث استفاق الرهبان من جنونهم وشعروا بالخزي، فقد اعتدوا على امرأة لا تحمل سكينًا ولا حجرًا في يدها، فسحلوها في الطرقات وجرَّدوها من ملابسها ومزقوا أعضاءها، كانت الجريمة بشعة، ولم يملك كيرلس الدفاع عنهم، فتبرأ منهم جميعًا، وأمر جورجيوس أن يخرج الرهبان من المدينة، ساعيًا لتهدئة الأجواء بين المسيحيين والوثنيين، مرسلاً إلى الإمبراطور بأن هذه الفئة الضالة لا تنتمي للكنيسة ولا رجالها، لكنهم بعض الذين أضلهم الشيطان عن الإيمان القويم.

لم يكن الوثنيون في حالة تمكنهم من إعلان الحرب، ولم يكن الحاكم قادرًا على مواجهة الرهبان الذين يحتلون المدينة، فآثر الحزن على صديقته في صمت، متقبلاً العزاء من الجميع ما عدا الكنيسة ورهبانها، معلنًا الحداد في البلاد على روح هيباتيا، فتوقف الميوزيوم عن العمل مدة أسبوع كامل، وتوقفت المكتبة عن استقبال ضيوف، وجلس الكل في الشوارع أمام ما بقي من المعابد مشعلاً الشموع ومصليًا للآلهة كي تتقبل هيباتيا في نعيمها الخالد.

تحمل كيرلس شعوره بالخزي تجاه ما حدث، وجلس ينصت لنصائح جورجيوس ورجاله بضرورة إكمال تطهير المدينة، لكنه رفض أن يثبت التاريخ عليه رغبته في قتل الفليسوفة الشهيرة، فأعلن أن مدرسة اللاهوت ستدرس كتب هيباتيا، لكن أحدًا لم يأخذ الأمر على محمل الجد، وظلت العزلة تلف المكان أكثر من عام، عاد فيه نصف الرهبان إلى أديرتهم، ورأيت شنودة ولاون يطالبونني بالعودة معهما، لكن جورجيوس رفض، فقد أثنى عليَّ أمام كيرلس، فوجدتني أحد الذين يملي عليهم الأخير رسائله وعظاته، ووجدتني على مقربة من الأبواب جميعًا، علمت

أن جورجيوس يريد أن يهدم معبد إيزيس، لكنه ليس كغيره من المعابد، فمريدوه كثر، والذين يتبركون به يأتونه من روما واليونان وطليطلة، والمصريون يرونها أم الإله الذي يمنحهم القوة في مواجهة الأعداء، ومن الصعوبة استعداؤهم.

رأيت جورجيوس يقنع كيرلس قائلاً:

– إذا كانت إيزيس عذراء وأم إله، فإن مريم عذراء وأم إله.

انتفض كيرلس في مجلسه سائلاً جورجيوس عن مصدر هذه التعاليم، ومن الذي قالها له، فرد بخوف إنها تعاليم أوريجانوس، وأنه سمعها من أستاذه رفائيل، حينها سألني كيرلس إن كان رفائيل تحدث بذلك أمامي، فهززت رأسي بالإيجاب، لكنني خفت أن يعتبر ذلك هرطقة، فيأمر بقتلي أو نفيي، أسرعت بالقول إن رفائيل أخبرني أن أثناسيوس قالها أيضًا، هنالك هدأ كيرلس في كرسيه، وأخذ يتأمل الكلمة من جديد، ثم عاد ينظر في وجهي سائلاً إن كان أثناسيوس قالها، فأسرعت بالتأكيد أن ذلك ثابت في عظاته أمام مغارة الجبل الغربي في الجنوب.

وضع كيرلس مع جورجيوس خطته للتضييق على معبد إيزيس ورواده، فأمر بنقل رفات القديس أباكير على مقربة من المعبد في مينوتيس، وأعلن أنه من شهداء عصر دقلديانوس، وأن له بركة في الشفاء وتوسعة الرزق، فراح فقراء المسيحيين يتهافتون على التبرك به، حتى أنه أصبح ينافس إيزيس في عدد من يتبركون بها، لكن إيزيس هي العذراء الأعظم، وهي أم الإله عند الجميع، ولا يمكن سلبها هذه المكانة.

أخذ جورجيوس يبني كنيسة باسم العذراء تشتمل على رفات أباكير، وحين انتهى من بنائها دعا كيرلس نائبَ الإمبراطور ووجهاء المدينة وشعب المؤمنين لحضور القداس الإلهي فيها، وفي عظته قال إن مريم هي العذراء الأبدية، وأنها أم الإله، وأن من يحج إلى كنيستها كأنما التقى بها، ونال البركة من يدها. فتردد الناس على الكنيسة في انتظار بركتها، ورغم أن شيئًا لم يحدث إلا أن كيرلس حرص على أن يشيع لقبها الجديد

بين الناس، في منافسة واضحــة بينها وبين إيزيس، حتى أن الناس سعوا لتلمس المنافسة بين أمهات الآلهة.

توســع كيرلس في وضع كلمــة "أم الإله" بدلاً من "مــريم" في رسائله لرؤســاء الأديرة والكنائس، مما جعــل المجسدين يتأكدون أنه في صفهم، ولــن ينقلب على نهج ثاؤفيلوســ، فأغلبهم جاء من ديانات وثنية، وبحث عــن أدواته القديمة في دينه الجديــد، وكان التجسيد من بين الأدوات التي يحنــون إليها، وجاء تلقيب مريم بأم الإله تعويضًا عن حضور إيزيس في ثقافتهــم الأصلية، مما جعــل كيرلس الأب الروحي لرهبــان الصحراء، فانضوت أغلب الأديرة والكنائس تحت رايته، فأعلن بدوره حربًا جديدة علــى أوريجانوس، قال فيها إن من يعظ بــأن القيامة ستكون بالروح لا بالجســد، لأن الجسد يبلى ويفنى، فإن تعاليمه فاسدة، وصاحبها مهرطق منبوذ، فالرب قام من بين الأموات بالروح والجسد معًا.

كانــت رسائــل كيرلس وعظاتــه يتداولها الرهبــان في الصحارى كالماء الزلال، فجميعها تخاطب انتماءاتهم القديمة، حتى أنهم كانوا يشعرون أنهم مؤمنــون بالفطــرة، وأن الكهنة هم الذين يضلونهم ليعبــدوا آلهة غير الله، كان الكل يتحدث بفخر عن أصوله السابقة، مقارنًا بين ما في ديانة آبائه وما يقولــه كيرلس، حتى أن الوثنيين بدأوا يشكــون في دينهم وصحة تعاليمهم، متسائلــين عــن الفارق بين إيزيــس ومريم، موقنين أن ما قالــه أجدادهم لا يختلف عمــا يقوله كيرلــس، وأخذ الجميع يحــج إلى مريم متــبركًا بإشعال الشموع وتقديم الذبائح لها، مثلما يفعلون مع إيزيس في معبدها القديم.

لكــن الريــاح لا تأتــي دائمًا بمــا تشتهى السفــن، فقد وصــل لكرسي القسطنطينيــة أسقــف مــن أنطاكيــا شديــد الحجة علــى الهراطقــة يدعى نسطورســ، أخذ يعلم الناس أن العذراء مريم ليست أم الإله، ومن يقول بذلــك فتعاليمه فاسدة، إذ كيف لامرأة من البشــر أن تلد الرب؟! ومن ثم فالصحيح أنها والدة يسوع الإنسان، لأنها المرأة التي اختارها الله كي يمر عبرها للناس في صورة بشرية.

حـين وصلت هذه التعاليـم إلى الرهبان في صحـارى الإسقيط ونتريا والقلمون والقلزم تمتعت ببعض القبول، فليس من المنطق أن تلد امرأة من البشر الإله المتعـالي اللامحدود، فأعلى أدوارها أن تكون معبرًا لظهوره فقط بصيغة بشريـة. وراح البعض يرسل إلى كيرلسـ طالبًا التوضيح، وشعر الأخـير أن البساط يُسحب من تحت قدميه، وأن المعركة من جديد تأتيـه من القسطنطينية، ولا بـد أن يغلق باب الشك بكل قوة قبل أن تتبلبل العقول وتتقلب القلوب، فرد على رسائل الرهبان برسائل أطول وأكبر، معتمـدًا على مقـولات لأثناسيوسـ وألكسندروسـ وديديموس الضرير وأوريجانوس نفسه، فجميعهم استخدموا لقب "أم الإله" في كتاباتهم.

كان انزعـاج كيرلس واضحًـا، ودفعته كثرة الرسائـل إلى أن يكتب رسالة مطولـة إلى عموم رهبان مصر، قائلاً إنـه لم يزعجه سوى سعي البعضـ لتحطيـم إيمان البسطـاء بإثارة أسئلـة حول أمـور دينية دقيقة، مطالبينهم بالرد على إذا ما كانت القديسة مريم هي أم الله أم لا؟ وأنا أقول لكم مـا قاله آباؤنا وقديسونا، العذراء مريم هـي أم الله، والقول بأنها أم يسوع الإنسان فقط، يعني أن الله له طبيعتان، أحداهما بشرية والأخرى إلهية، وهذا مخالف لما آمن به المجتمعون في مجمع نيقية، وما أقره قانون الإيمـان القائل بأننـا نؤمن بإله واحد، ولأنه إلـه حقيقي وملك بالطبيعة، ولأنـه المصلوب قد دُعي رب المجد، فكيف يمكن لأحد أن يتردد في تسمية القديسـة العذراء مريم "أم الله" الذي نعبده كواحد، ولا نقسمه إلى اثنين، ولا نقـول بأن الكلمـة تغيرت طبيعته عندما أصبح جسـدًا، ولا أنه تحول إلى إنسان كامل من نفس وجسد، ولكن نقول إنه باتحاده بجسده أقنوميًّا، وبنفس عاقلة، صار بطريقة لا يمكن وصفها أو فهمها إنسانًا.

لم تتوقـف رسائل كيرلس إلى الرهبان المصريين الذين رغب في حسم الأمـر معهم بشكل واضح، كما نشط في مراسلة أساقفة الشرق والغرب، مركزًا على لاون أسقـف روما، فخصه برسائل مطولة ربط فيها بين ما يقوله نسطورس وما قاله أريوس، مؤكدًا أن العذراء هي أم الإله، ولابد مـن عدم السماح للهراطقة بالعـودة إلى القلوب والصدور، وسرعان ما

طالـب بعقد مجمع مسكوني مقدس للرد علـى نسطورس، وعقد الأساقفة المصريـون مجمعًـا أحصوا فيه اثنتـي عشرة مقولة تستحـق الحرمان في تعاليـم نسطورسـ، وأرسل كيرلس بنتائج مجمعـه إلى لاون في روما، وإلى نسطورس نفســه في القسطنطينية، وكلما شعر أن دفة الأمور مالت لصالحه ركّز ضرباته على ضـرورة حرمان نسطورس، ساعيًا لتحقيق انتصـار حاسم يشبه انتصار ثاؤفيلوس علـى ذهبي الفم، وهو ما تحقق له حـين شعر الإمبراطـور ثيؤدوسيوس الثاني بـأن الإمبراطورية ستنقسم على نفسها مثلما حدث بين أريوس وأثناسيوس في زمن قسطنطين الكبير، فأمر ثيؤدوسيوس بعقد مجمع مسكوني في مدينة أفسس.

كنـت بطبيعة الحـال في الوفد الذاهب إلى أفسـس، فأنا أحد الذين يملي عليهم البابـا رسائله وعظاته، والوفد كان كبـيرًا للغاية، يضم العديد من الأساقفـة ورؤسـاء الأديرة المعروفـين في الشرق، فضلاً عـن الرهبان الذيـن زحفوا مـن الإسكندرية إلى القسطنطينية ثم أفسـس، وهناك التقينا بكثيريـن ممن يناصرون كيرلس، ويؤمنون بتعاليم الإسكندرية وآبائها، فضلاً عن أصدقائه الذين يجعلونه على علم بكل كبيرة وصغيرة في البلاط الإمبراطوري، ويردون عنه كيـد حاكم الإسكندرية ووجهاء الوثنيين، كل هذه الجماهير جعلت البابا والأساقفة المصاحبين له يشعرون أن القضية حسمـت لصالحهم مـن البدء، خاصـة وأن الإمبراطـور أعطى كيرلس حقه التاريخـي في رئاسة المجلس، كما أن نسطورسـ وأنصاره رفضوا الحضور، مخالفين قرار الإمبراطور.

وكان كيرلسـ حريصًـا على أن ينهي هـذه القضية سريعًـا ليعود إلى الإسكندريـة منتصـرًا، لكـن يوحنا أسقـف أنطاكيا والوفـد المرافق له لم يصلـوا، فضلاً عـن أن لاون أسقف روما لم يستطـع الحضور، وسمعنا أنــه أرسل وفدًا في الطريق، فاتفق الحضور على تأجيل انعقاد المجمع مدة أسبوعين، وانتهـى الوقت المحدد ولم يحضر يوحنـا ولا وفده، وشاعت أخبـار أن أمامهـم أسبـوع على الأقل للوصـول، أما وفد رومـا فأمامه أسبوعـان، وبدأ الأساقفة يلحون على كيرلس أن يعقد المجمع في موعده، وأمـام إلحاحهم ورغبته في حسم القضية أمر بانعقاده، فأدانوا نسطورس وعزلوه بإجماع آراء مائتي أسقف.

شعر كيرلس أنه أنهى على غريمه بضربة واحدة، كما فعل ثاؤفيلوس مع يوحنا ذهبي الفم، لكننا لا ننزل البحر مرتين، فقد حدث ما لم يكن يتوقعه كيرلس من صديقيه لاوون ويوحنا، فما إن وصل الأخير وعلم أن المجمع انتهى من أعماله حتى استشاط غضبًا، فقد قطع كل هذه المسافات كي يدلي برأيه في قضية لاهوتية مهمة، لكن أحدًا لم ينتظره، ولم يشعر أنه في حاجة لمعرفة رأي كنيسته، كان شعوره بالإهانة شديدًا، وهو نفس الشعور الذي أصاب لاون في روما، فقد أبلغه وفده الذي وصل متأخرًا عن المجمع أن صديقه كيرلس لم يحترم خروجهم من روما، وقطعهم كل هذه المسافات لحضور المجمع، كان غضب كلا الوفدين كبيرًا، وشعورهم بالإهانة لا حدود له، ومن ثم قرروا التبرؤ من نتائج المجمع الذي ترأسه كيرلس، عاقدين مجمعًا خاصًّا من قبلهم، مدينين فيه كيرلس ورافضين حروماته الاثنتي عشرة.

بدا الأمر من وجهة نظر الإمبراطور ثيؤدوسيوس نوعًا من العبث، فأمر بإلغاء نتائج المجمعين، وعقد مجمعًا آخر في مدينة خلقدونية القريبة من عاصمة إمبراطوريته، فاستضافت المدينة نحو مائتن وخمسين أسقفًا للتحاور على مدار ثلاثة أشهر حول تعاليم نسطورس وحرومات مجمع الإسكندرية لها، كانت كل الوفود غاضبة وتشعر بالإهانة، وسعى الإمبراطور لحل الخلافات بينها، خاصة أن نسطورس تخلى طواعية عن كرسي القسطنطينية وعاد إلى حياة الرهبنة، لكن العلاقة بين الإسكندرية والقسطنطينية كانت قد دخلت في حالة من الفتور، فلا هي عداء واضح ولا محبة واضحة، واستلزم الأمر نحو عامين من تقريب المفاهيم وتوضيح الرؤى كي تعود العلاقة بين أنطاكيا والإسكندرية لما كنت عليه، ولتوقع الكنيستان على وثيقة "إعادة الوحدة"، وليتنيح كيرلس في العام التالي لتوقيع هذه الوثيقة، بينما لقي نسطورس مصيرًا لم يتوقعه أشد أعدائه كراهية له، فقد غضب عليه الإمبراطور وأمر بنفيه إلى البتراء على تخوم العالم الروماني، ثم إلى الواحات في الصحراء المصرية، ليموت غريبًا عن بلاده وحيدًا في منفاه بين أناس يمجدون العذراء، رغمًا عنه، بوصفها أم الإله.

-٣٤-

عــبر واحد من المؤمنــين المترددين على كنيسته توصــل صاموئيل لمن ينقــل أنطونيوس وخمسة ممن يجيدون تسلق الجبال إلى دير الملاح، وما إن عــبر موكب الرهبــان النفق الرابط بين سينــاء والسويس حتى توقفت الحافــلات في أول استراحة هنــاك، حينها صعد صاموئيــل في زي بائع ميــاه ونزل أنطونيوس من الحافلة بنفس الزي، وتحرك بصحبة صاحب الــزورق والرجال الخمســة إلى السويس، وانطلقــوا بالزورق في اتجاه الجنــوب، متتبعين الخريطة على القمر الصناعــي حتى وصلوا إلى موقع الدير بعد عدة ساعــات، فانتظروا إلى أن تأتيهم إشارة تأكيد الصعود من صاموئيل.

كانــت الإشــارة المتفق عليها مجموعــة من صواريخ الألعــاب النارية التــي ستضيء المكان وتحــدث أصواتًــا يسمعها القلزم كلــه، فكان عليهم أن ينتظروا لحــين وصول الباصات مع أول المســاء إلى أرض الهضبة، لينــزل الرهبان منهــا طالبين الإذن بدخــول الدير لتأديــة واجب العزاء في أخيهــم باخوميوس، لكن المشهد بدا غير مألــوف لهؤلاء الذين أمضوا حياتهــم في عزلــة عن الجميع، حتى أن بعضهم لم يخــرج من الدير طيلة حياتــه فيه، وبعضهــم لم ير وجهًا غير وجــوه هؤلاء الذيــن أقاموا على الهضبــة أو تحتهــا، كان نزول الرهبــان مدهشًا وغريبًــا، فلم تكن هناك معلومة عن مجــيء زوار بهذا القدر، ولم يكن يؤانس في المكان ليخبرهم بما يجــب عليهم عمله، حاول يوساب أن يتصل بــه ليخبره أن الصحراء بمــن فيها انقلبت عليهــم، وأنه لا يعرف من الــذي أحضر كل هؤلاء وما السبــب، وظل هاتفه خارج الخدمة، فاضطــر يوساب للاتصال بالمنحني

في الأبرشيــة سائـلاً عما يحدث، ولم يكن لدى الأخـير علم بشيء، فأمر بالتمســك باللوائح والقوانين، وأنــه لا يحق لأسقف أن يتدخل في الكنائس والأديرة التابعة لأسقف آخر.

كانــت أولى الخطوات التي قـرر يوساب اتخاذها هــي إغلاق البوابة وعـدم السماح لأحـد بالدخـول دون إذن من الأبرشية التــي يتبعها، ثم أمـر رجاله بحمل السلاح والانتشار علــى السور والقلالي، وكانت آخر الخطوات وأهمها هــي التخلص من دميانة، لكنه لم يكن يعرف أين يمكنه الذهــاب بهــا في ذلك الوقـت، هداه تفكـيره في النهايــة إلى أن يضعها في كنيســة جبرائيل المـلاح المغلقة للترميم، وبالتحديد في المغــارة التي تشتمل على قبر المـلاح ولبؤته وأشبالها، واضعًا يده علــى قلبه من أن يتكرر ما حــدث يوم أن دخلهــا أنطونيوس، فقد خيل للرهبــان أن اللبؤة قامت من قبرهــا لتهاجمهــم، ووجد يوســاب نفسه تحت أقدامهم وهــو يصرخ فيهم بالتوقــف دون جدوى، يومها لم يكن يعلــم أن المغارة بها ممر يؤدي إلى مغــارة أخرى على الجانــب الآخر من الجبل، فوقــف كتمليذ بليد ينصت للمنحني وهو يوبِّخه على فزعه أمام رجاله، فأكد أسطورة لا وجود لها، لكــن يوســاب كان مصدقًا، ويحلــم أن يجد الشجاعة التــي تكفيه لمحو هذا التصديق.

لم تكن دميانة تعلم ما يجري حولها، فقد استسلمت للأحلام والكوابيس، والقيام من النوم للدخول في نوم جديد، لكنها فوجئت أن ثمة مجموعة من طوال القامة يفتحون الباب ويدخلون غرفتها، أدركت أن ما كانت تخشاه قد أتى، وانطلقت تصرخ في فزع يشبه فزعها يوم أن حاصرها السلفيون في بيت رضا وزوجته، وما لبثت أن فقدت الوعي وسقطت أمامهم مغشيًّا عليها، فما كان منهم إلا أن لفوها في مفارش السرير ونزلوا بها من مبنى الضيافة.

كان الليل قد حل علــى الأرض والسماء، وفشل الرسل الذين صعدوا للتفاوضــ على الدخول في مهتمهم، فقد رد عليهم يوساب أن المقابر أسفل

الهضبة، والصحــراء تتسع لعزاء الجميع، ولا يمكنه فتح البوابة إلا بإذن مــن الأبرشية، هنالك أطلق صاموئيــل صواريخه لتحيل سماء القلزم إلى نجوم متفجرة وأضواء متلألئة، علم أنطونيوس أن ساعة العمل قد بدأت، فأخذ ومن معه يعملــون أدواتهم في جدار الصخــر، ساحبين أنطونيوس معهم إلى أعلى، ولم يستغــرق الأمر كثيرًا من الوقت، إذ وجدوا أنفسهم أمــام المغارة المليئــة بالصناديق القديمــة، تلك التي بــدا أن بعضها قد فتح مؤخــرًا ونهب ما فيه، لكن أنطونيوســ نحا غضبه جانبا وبحث عن الممر المؤدي لمقبرة الملاح.

حمل طــوال القامة دميانــة في مفارش السرير وعــبروا بها بعيدًا عن البوابــة والقلالي إلى كنيسة الملاح، وأشعلــوا المصابيح التي معهم ليدخلوا بهــا إلى المذبح، كانت أوامر يوســاب أن يضعوها في المغارة من الداخل، لكنهم سمعوا حركة وأصــداء أصوات غير مفهومة في الظلام، فارتجفت أوصالهــم وأيقنوا أن المكان مسكون، وحين أعملوا مصابيحهم خلف باب المغارة لم يجدوا شيئًا، فعادوا يتداولون والرعب يملأهم حول من سيدخل المغارة ومن سيبقى في الخارج، وفي النهاية قرروا أن يبقوا جميعًا خارج الباب ويدفعوا بها إلى الداخل، وما إن هموا بفعل ذلك حتى فاجأهم ضوء قوي يتحرك نحوهم، فصرخ بعضهم أن اللبؤة قامت من قبرها.

تــرك الرهبــان الخائفــون لأقدامهم العنــان حتى صلت بهــم إلى باب الكنيســة، صائحــين أن اللبؤة قامت من قبرها، وأنهــم رأوا ضوء عينيها يتحرك نحوهم، بحث البعض عن يوساب ليبلغه بالأمر، وطلب آخرون النجــدة من الحراســ الواقفين علــى القلالي، ولم تمضــ دقائق حتى عم الظــلام الهضبــة ككل، وارتعد الجميع موقنًا أن مــا حدث هو غضب من المــلاح ولبؤته، وعبثًا حاول يوساب أن يسكتهم ليفهم ما يحدث، لكنهم لم يفعلــوا، حتى أنه قرر أن يتقدمهم إلى الكنيسة ليؤكد أن ما يقولونه محض أوهام في رءوسهــم، لكن ما إن وصل إلى الكنيسة على أضواء الكشافات الصغيرة حتى سمع حراس البوابة يصرخون بأن اللبؤة هاجمتهم.

كان أنطونيوس قد شرح لمن معه خطته، وأوصاهم قبل الزحف داخل الممـر بالحفاظ على رءوسهم منخفضة، ثـم تقدمهم كقط كبير حتى وصل إلى مغـارة الملاح ومقبرته، هنالك فتح ضوء الكشاف الذي معه ليطمئنهم ويرى ما أمامه، فتساءل رجال يوساب بفزع عن مصدر الضوء، وحين سمعهـم أنطونيوس تأكد من وجودهم في الكنيسـة، وأنه لا بد أن يباغتهم قبـل أن يتجرأوا علـى الدخول، فأسرع بتقليد زئـير الأسد ناثرًا الحصى بيديـه نحوهم، هنالك أصابهم الهلع، موقنـين أن اللبؤة نهضت من قبرها لتحرقهم.

لم ينتبه أنطونيوس إلى أن دميانة تنام فاقدة الوعي في ركن المذبح، فقد فتـح الباب وخرج يطارد المرتعدين أمامه، وبخفة قاطع طريق التف بمن معـه خلف الكنيسـة، سائرًا في ظلال الجبل نحو العيـادة وورش الحدادة والنجـارة ليعطـل محول الكهرباء، ثـم ينطلق من أمـام المكتبة إلى بوابة الدير ليهاجم الحراس المكلفين بالحفاظ عليها.

حـين شعر يوساب أنه فقد السيطرة على الدير، أخرج مسدسه وأطلق عدة رصاصـات في الهواء كي يعيد الانضباط على الهضبة، وبدا لهؤلاء المنتظريـن أسفل الهضبـة أن هذه هي الإشـارة المتفق عليهـا، فتسارعوا يتقافزون على الدرجات الرخامية المؤدية إلى البوابة العالية، وفي الوقت الـذي صرخ فيه يوساب لرجاله أن يطلقوا النيران على من يدخل الدير، كان بعضهم قد سلم سلاحه بالفعل لمن اقتحموا البوابة في حماس شديد، ومع تدفق الأعداد الصاعـدة إلى الهضبة ضاق الخناق على يوساب ورجاله، فأخـذوا يلقون بأسلحتهـم ويدخلون القلالي مع الرهبـان المتنسكين، وفي النهاية وجد يوسـاب نفسه وجهًا لوجه مـع أنطونيوس في الظلام، وقبل أن يفكر في رفع مسدسه كان أنطونيوس قد ضربه بقبضة يده على رأسه، وقبل أن يضربه من جديد كان صاموئيل ومن معه قد قبضوا عليه معلنين أنه سيخضع لحكم مجمع مقدس.

-٣٥-

رسمنـــي البابا كيرلس قسًّا قبل رحيلــه بعام واحد، وذلك بعدما أعجب بما بذلتــه من جهد في إعادة الوحــدة بين كنيستــي الإسكندرية وأنطاكيا، فقــد فشل مجمــع خلقدونية الأول في إنهــاء الخلاف بين كنيستــي أنطاكيا وروما مــع الإسكندرية، وإن كان لاون أسقـف روما قد سعى للتقارب ونسيــان ما اعتبره إهانة لــه ولوفده، لكن يوحنا الأنطاكــي رأى أن ثمة خطأ فيمــا يطرحه كيرلس، إذ إن القول بأن المسيــح ليس له سوى طبيعة واحدة ستلغي إنسانية المسيح، حاول كيرلس في خلقدونية على مدار ثلاثة أشهــر أن يشرح وجهة نظره بأطروحات متعددة، مؤكدًا في كل مرة أنه نشــأ وتربى في بيــت خاله البابــا ثاؤفيلوس، وأنه تشــرب تعاليم الإيمان القويم المتوارثة عــن الآباء الكبار للكنيسة المجيــدة بالإسكندرية العظيمة، هــؤلاء الذين دفعوا أرواحهــم ثمنًا للحفاظ عن التعاليــم الحقة، وأنه حين يرفضــ تعاليم نسطورس عن أن مــريم هي أم يسوع المسيح فقط، وليس أم الإلــه كمــا نقول، فذلك وفقًا لمــا توارثناه من تعاليم عــن آبائنا المبجلين أمثــال أثناسيوس وألكسندروســ وحتى أوريجانوســ، فجميعهم أطلقوا على العذراء مريم لقب أم الإله.

كان كيرلســ حادًّا وقويًّا في عظاته أمام أعضاء المجمع، وفشل الجميع في إثنائــه عن رأيــه أو تغيير موقفه، وفشل الإمبراطــور نفسه في تقريب وجهات النظر بينه وبــين يوحنا الأنطاكي، خاصة أن لاون أسقف روما كان يعضــد آراء يوحنــا مناوءة لكيرلس، في النهايــة انتهى المجمع إلى لا شيء، وعادت الكنائس الثلاث أقــرب إلى الانفصال عن بعضها بعضًا، وكان لا بــد أن نعيد النظــر فيما حدث، فعقد كيرلســ مجمعًا مصغرًا من أساقفــة الإسكندريــة ورؤســاء الأديرة الذيــن حضروا مجمعــي أفسس وخلقدونيــة، كان الهدف هو تقييم ما جرى، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى هذه الخسائر الكبرى، فرغم أن نسطورس تنازل عن رئاسته لكرسي

القسطنطينيــة، مفضــلاً العــودة إلى حياة الرهبنة، ورغم مــا سمعناه عن غضب الإمبراطور عليه ونفيه إلى حــدود الإمبراطورية الرومانية، إلا أن مجمع خلقدونية رفض اعتماد حرومات كيرلس الاثنتي عشرة لتعاليم نسطورس، كما أن الانشاق بين الإسكندرية وأنطاكيا لا يقدم سوى عزلة للإسكندرية، وتوسعة نفوذ روما والقسطنطينية، وهو ما يعد خسارة تؤلم أغلــب من حضروا مجمع كيرلس لحدوثهــا، ومن ثم اتخذ الأخير قراره بتشكيل وفد للذهاب إلى أنطاكيــا، والسماع من يوحنا الأنطاكي وأساقفته وقساوسته، ونقل وجهة نظــر كيرلس إليهم، ثم إعادة ضبط الكلمات بما يعبر عن الإيمان القويم الذي يؤمن به آباء أنطاكيا والإسكندرية معًا.

كنــت من بين الذين اختارهم كيرلس في وفــده، قال لي ستكون عيني وأذني، أريــدك أن تفكر في الجــدل وفحواه، وتصل إلى مــا يمكننا قوله دون أن نخسرهــم، كانــت المهمة ثقيلــة، لأنني كان علــي أن أنصت إلى جميــع الأطراف، وحين أعود إلى الإسكندرية أشرح لكيرلس ما جرى، كنــت أعلم أنه كلف آخرين بنفس المهمة، وأنــه ينصت إليهم بنفس القدر، لكننــي حاولــت أن أعمل عقلي قدر مــا أستطيع، مباعــدًا بيني وبين اللغة وتحديداتهــا، فهــي أمر يخص الآبــاء الكبار، أما أنا فــدوري أن أوضح الثغــرات، وأبحث عن نقاط الالتقاء، ويبــدو أن كيرلس أعجب بشرحي لوجهــة نظرهم ومــا يتخوفون منــه، فرسمني قسًّا، وحملنــي رسالة إلى يوحنــا الأنطاكــي، طالبًا منــي أن أقلل من مخاوفــه، وأن أستخدم تعبير "طبيعــة واحدة متجســدة للكلمة"، مؤكدًا أن الكلمــة المتجسد هو الشخص المميز المفرد مصدر الحياة لعمله التكفيري عن الإنسانية، وأن الإسكندرية ترحب بإيجاد صيغة مشتركة مع أنطاكيا حول خصوصية كل من ناسوت المسيــح ولاهوته، وهو مــا عملنا عليه، وأنجزنــاه في وثيقة إعادة الوحدة بين الكنيستين، لتعود أنطاكيا إلى أحضان الإسكندرية وآبائها من جديد.

تنيــح كيرلس تــاركًا الإسكندريــة شبه خالية مــن الوثنيــة بعدما هدم جورجيوس معبد إيزيس وأقام في مكانه كنيسة للعذراء، فاجتمع الأساقفة والرؤســاء واختــاروا ديسقورس، رئيس مدرســة اللاهوت، بطريركًا للإسكندرية من بعده، كنت على خلاف دائم مع ديسقورس، ففي الوقت

الـذي سعيت فيه لتقريب وجهات النظر بين الإسكندرية والأنطاكيين كان ديسقورس مصرًّا على مفردة الطبيعــة الواحدة، دون تغيير أو مهادنة، وزادت الفجوة بيننا حين رسمني كيرلس قسًّا، وأرسلني برسائله إلى يوحنا الأنطاكي، وتوقعت أنني بعد جهدي في توقيع اتفاق إعادة الوحدة سأكون أقـرب مَن في الإسكندرية إلى كيرلـس، إلا أنني لمست إهمالاً منه لشأني، وأخذ يسمــع لديسقورس وجورجيوس الذي تجـاوز السبعين، لكنه ظل محاربًـا يبحث كل يوم عن ميادين جديدة للصــراع، فقاد مع ديسقورس فيالق الرهبان لهدم معبد إيزيس، مصطنعًا مشاجرة مع مريديه، ثم آمرًا رجاله بإشعــال النيران فيه، ومطاردة المؤمنين بــه في الشوارع، بعدها عــادوا فنقضوا أحجاره وبنــوا بها كنيسة قريبة منه، ومــا لبثوا أن أعلنوا رغبة الرب في إقامة كنيسة جديدة، لتطهير المكان من أدران الأوثان.

علمــت أنني لن يكون لي مــكان في معية ديسقورســ، فطلبت منه أن أعــود إلى ديــر الملاح حيث أتــوق إلى حياة الرهبنة، لكنــه طلب مني أن أتولى مسئولية مدرسة اللاهوت بدلاً منه، دُهشت من طلبه، وتوقعت أن المسئوليــة غيَّرته، وأخذت أعمل في إعادة إحيــاة المدرسة كي تتقبَّل جميع الآراء، وتنفتــح علــى الفلسفة والفكــر ودراســة الآداب والعلوم، لكنني وجدته يعارض كل ذلك، فرضيت بأن أعيش على ضفاف الأحداث آملاً أن تتغير الأيام، لكنها كانت تسير نحو الأسوأ، فقد تنيح ساويرس، وأقر ديسقورس شنودة رئيسًا للدير من بعده، وسرعان ما أصيب جورجيوس بمرض جعل أطرافه لا تتوقف عن الارتعاش، فلم يتحمل مرضه وحزنه على نفسه فلحق بساويرس، وأرسل لي شنودة أربعة من الرهبان صغار الســن طالبًا أن يتعلموا في مدرسة اللاهوت، كي يكملوا المسيرة التي بدأها ديمتريوس في الدير.

رأيــت في ذلك عطيــة السماء لي، واتخذت بيتًا واسعًــا يضمنا جميعًا، ومــا لم أستطع شرحــه في المدرسة كنت أقدمه لهم، كانــوا يحملون أسماء أنطونيوس وهادريــان ومرقس ولامسون، وكان أنطونيوس أحبهم إلى قلبــي، كانت تساؤلاته لا تنقطع، ورغبته في المعرفة لا حدود لها، فعلمته اللاتينية واليونانيــة والديموطيقية، وبعضًا من الرياضيات ومسائل الفلك

وفلسفات الرواقيين والأفلاطونيين وما وصلنا عن أوريجانوس وأريوس وما اختلف فيه نسطورس مع كيرلس، وأطلعته على سري الأعظم، وهو الكتاب الذي أدوِّن فيه ما أشهده من حوادث وتغييرات، جريًا على عادة أستاذي رفائيل فيما كتب عن الدير وما جرى في الإسكندرية والمجامع المقدسة، فأخذ يقرأه بنهم ويناقشني في كل ما جاء به، فأوصيته أن يخفيه عن الناس، وأن يكمل ما بدأه رفائيل كما أكمله أنا، فسوف يجيء زمان يصبح فيه ما نكتبه الآن الشاهد الوحيد على الحقيقة.

تولى كرسي القسطنطينية من بعد نسطورس رجل يدعى ماكسيميانوس، ولم يكن يحب الجدل في مسائل اللاهوت، فسعى إلى تهدئة الأجواء مع الإسكندرية التي أطاحت بنسطورس ومن قبله بيوحنا ذهبي الفم، لكن خليفته فلافيانوس كان على نقيضه، فقد انشغل بتعاليم راهب يدعى أوطاخي، كان رئيسًا لأحد الأديرة القريبة من القسطنطينية، وكان قد آمن بتعاليم كيرلس عن طبيعة المسيح الواحدة، ووعظ بأن من يقول بوجود طبيعتين للمسيح بعد الاتحاد فإنه مهرطق وضد قانون الايمان، لأنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما يدل على طبيعتين للرب، ولم يقل المجتمعون في مجمع نيقية بما يدل على ذلك، فهب فلافيانوس للدفاع عن نفسه من تهمة الهرطقة، وقال بما قاله من قبل يوحنا الأنطاكي، مؤكدًا أن القول بطبيعة واحدة للرب يقضي على إنسانية المسيح، مما أحيا الخلاف القديم بين كيرلس ونسطورس، وسرعان ما انضم لاون أسقف روما إلى فلافيانوس معضدًا موقفه، وعقد الأخير مجمعًا في القسطنطينية قام بإدانة أوطاخي وحرمانه لسوء فهمه وتشويهه تعاليم كيرلس اللاهوتية.

كانت الإسكندرية بعيدة كل البعد عن هذا الجدل القديم الذي رحل جميع أطرافه، والذي تجدد على يد أوطاخي، لكن ديسقورس أرسل يسألني عن رأيي، فأجبته بأن فلافيانوس ومجمعه بالقسطنطينية يجلُّون تعاليم البابا كيرلس، وقد اتهموا أوطاخي بسوء الفهم، ووصفه لاون بأنه أحمق كل الحمق وجاهل كل الجهل، فهل ندخل في صراع مع روما والقسطنطينية من أجل راهب جاهل؟ تلون وجه ديسقورس كما لو أن تهمة الجهل أصابته هو، فنهض قائلاً:

- لكنني أرى أنه على حق.

كان لأوطاخي نصير متنفذ في بلاط الإمبراطور ثيؤدوسيوس، وهو أمين البلاط كيرسافيوس، هذا الذي بدعم من رجال ديسقورس في البلاط حصل على موافقة الإمبراطور على عقد مجمع مقدس للفصل بين أوطاخي وفلافيانوس، ومنح ديسقورس شرف رئاسة المجمع مثلما كان كيرلس رئيسًا لمجمع أفسس الأول، ورغبة منه في عدم الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه كيرلس سعى إلى حسم الأمور من الجولة الأولى، فأرسل عشرات الرهبان من الإسكندرية إلى القسطنطينية كي يعضدوه، واصطحب معه وفدًا كبيرًا ضم عشرات القساوسة والأساقفة ورؤساء الأديرة، وانعقد المجمع في ظل وجود حرس إمبراطوري، وفضلاً عن التأييد الواضح لديسقورس وآرائه قام الرهبان المتجمهرون خارج الكنيسة بمحاولة الدخول، فاشتبك معهم الحرس، وحدث شغب كبير في شوارع أفسس، ورغبة في تهدئة الأجواء المتعصبة من قبل الرهبان في الخارج اتخذ المجمع قراره بتبرئة أوطاخي وإدانة فلافيانوس.

كنت من بين من صحبهم ديسقورس في موكبه، وكان ينظر لي وكأنه يقول أن هكذا يجب أن تحسم الأمور، لكنني كنت أعلم أنه ارتكب نفس الخطايا التي ارتكبها كيرلس في أفسس الأول، فقد تعنت في حكمه على أسقف القسطنطينية، ولم ينتظر بعض من وجَّه لهم الإمبراطور دعوته للحضور، وتأكدت ظنوني حين عدنا إلى الإسكندرية، فقد سمعنا عن إقرار أرسله لاون أسقف روما كي يقرأه رئيس المجمع على الحاضرين، لكن إقرار لاون تم إخفاؤه ولم يظهر، خاصة أنه يعارض تعاليم أوطاخي ويناصر فلافيانوس في موقفه، هذا الإقرار سلمه وفد روما لديسقورس بوصفه رئيسًا للمجمع، لكن الأخير لم يعرضه على الأساقفة والآباء المجتمعين، فغضب لاون غضبًا شديدًا، ووصف المجمع بأنه مجمع اللصوص، وسعى لدى الإمبراطور لإلغاء ما اتخذ فيه من قرارات، لكن الإمبراطور كان يجل ديسقورس ولا يرغب في معاداته، فآثر الصمت وعدم فتح بوابات الجدل.

لم يمض كثير من الوقت حتى انقلب السحر على ديسقورس، فقد مات ثيؤدوسيوس في العام التالي، وكانـت ابنته الإمبراطورة بوليخاريا تجل لاون، ومـا إن وصلت إلى العرش حتى أمـرت بإبطال قرارات أفسس الثاني، والدعوة لمجمع مقدس جديد في خقلدونية القريبة من القسطنطينية، وفيه تمت إدانة أوطاخي وعزلـه، وكذلك عزل ديسقورس ونفيه، لأنه حاول أن يقطع لاون ويعزله عن بقية المؤمنين المجتمعين في أفسس الثاني، ورأى المجمع حسم الجدل حول طبيعة المسيح يعتمد على ثلاث وثائق هي: إقـرار لاون "طومس لاون"، ورسالة كيرلـس الثانية إلى نسطورس، واتفاق إعادة الوحدة بين كنيستي أنطاكيا والإسكندرية. ليؤكد المجتمعون أن العـذراء هي "أم الإله"، وأن المسيح له طبيعتان بلا تشويش ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال.

-٣٦-

لا نعــرف كيف تجمعنــا معًا في عربــة واحدة، كنت قــد نزلت لشراء بعضــ احتياجات البيــت لتريزا، فوجــدت من يسألني عــن بيت صلاح متري المحامي، أشرت لــه إلى اللافتة التي اهترأت بفعل الزمن، وسألته إن كان يريد شيئًا، فأومأ لي برأسه ثم طلب مني الركوب معه، كانت ثمة سيــارة ميكروباص تقف على مبعدة من مدخل البيت، وجدت نفسي أمام أحمــد ونائل، وسرعان مــا رأينا تريزا بصحبة أمــين شرطة، لم نعرف سببًا لتجميعنا بهذه الطريقة في ذلك المساء.

علمت أنهم أحضروا نائل من الجريدة، وأحمد من أمام بيته، وأدركنا أن الشرطــة بــدأت في الانتباه لما يجــري، فقد ربطت بــين إعلان تريزا وصورة دميانة، وبين ما كتبــه نائل عن دير الملاح وفتاة الصعيد، وبين المحضــر الذي تقدمت به دميانة لاتهام أنطونيوســ بتفجير الكنيسة، هكذا انتفضــ واحد من كبــار الضباط وهو يلقي الأوراق التــي أمامه في وجه ضابــط أصغــر منه، ثم طلب منهــم أن يحضروا لــه كل الأسماء التي في الملف.

لكــن الضابط الكبــير بعد ساعتين على الأقل اضطــر إلى ترك القاهرة كــي يتابع ما يجري من الرهبان في الصحراء، فقد تناقلت الهواتف مشهد الحافــلات التي تُقل رهبانًا من سينــاء وكأنهم في مظاهرة من نوع جديد، وسرعــان ما اتصلــت الشرطة بالكنيســة تستعلم عما يجــري، وكان رد الأسقــف الكبير بأن ثمة ثورة بــين الرهبان، وهو ما جعل مسئولي الأمن يعيدون قراءة كل ورقة بها اسم شخص قبطي، وكانت النتيجة تجميعنا في سيــارة واحدة، وبدلاً من الذهاب بنا إلى قسم الشرطة خرجت بنا السيارة مباشرة إلى طريق السويس، ومنه إلى طريق رأس غارب، وسرعان ما قرأت بعض اللوحات الإشارية عن المسافة المتبقية على الجونة والغردقة،

لكننــا لم نصــل إلى أي منهما، فبعــد سباق طويل مع الجبــال القائمة على اليســار وكثبان الرمــال النائمة على اليمين وصلنــا إلى طريق الرهبان، حيث كانــت الحافلات قد أخذت مواقعها على جانب الطريق، بينما آلاف الرهبان يتجمهرون أسفل الهضبة.

رأيــت المطبعة ومقابر الرهبان على يمين المتجــه إلى السلالم الرخامية العاليــة، وعلى يسارها قطعــة الأرض التي يزرعهــا الرهبان منذ مئات السنــين، رأيــت المزرعة التي طالمــا نزلت إليهــا وأحضــرت بعضًا من خضارهــا، ورأيــت ما تبقى مــن بكرة أبانــوب التي يرفع بهــا الرهبان كبــار الســن والعجائز، رأيت مخــر السيل الذي تحــول إلى سلم رخامي طويل له سور حديــدي على الجانبين، ومزدان بعدد من أعمدة الإضاءة التــي وضعها من رممــوا الدير في سبعينات القــرن الماضي، رأيت بعضًا مــن رجال يؤانســ ويوساب وهم يقفون على الأســوار ملوحين للرهبان بأسلحتهــم، محذرين أحدًا من مجرد التفكير في تسلق الهضبة أو الاقتراب منها.

كنت أشرح لنائل وأحمد كل مــا أراه، وأطمئن تريزا على ابنتها قائلاً إنهــم لــن يفكروا في إيذائهــا وسط كل هذه الجموع، لم تكــن لدي بالطبع معلومــة مؤكــدة عن شيء، حتى الذيــن أحضرونا إلى هنــا لم تكن لديهم معلومــة عما يجري في الداخــل، لكننا سمعنا اســم أنطونيوس يتردد، لا نعرف ممــن بالتحديد، لكن أذني التقطته من راهــب عجوز وهو يتحدث إلى رهبان أصغر، كانوا يتحدثون عن الإشارة والهجوم.

في غرفــة عمليات أقامها بعض الضباط المكلفين بتأمين موكب الرهبان جلسنــا ننتظر الضابط الذي أمر بإحضارنا إليــه من القاهرة، حين سألني عما أعرفــه أخبرته أنني من أبناء الدير، وليس هناك مداخل ولا مخارج غــير هذه السلالم، نظــر إليَّ بخيبة أمل واستمــع إلى تريزا، حين طالبته بإنقــاذ ابنتها سألها إن كانــت متأكدة أنها في الدير، فأجابته أنها لا تعرف، في النهايــة سأل نائل عن مصادره فيما كتب، فأشار نحوي وكأنه يسلمني لهم، أخذت أشرح له كل ما أعرفه، وتحدث أحمد عن معرفته بأنطونيوس وكيــف التقى به، فأخذ الضابط يرسم نقاطًــا على ورق أبيض، ويوصل

خطوطًا بينها، متسائــلاً إذا كان أنطونيوس هو قائد هذه الثورة، فأين هو الآن؟ لكــن تساؤلاته لم تطل كثيرًا، فقد أظلمت الهضبة فجأة، ولم يمضِ كثــير من الوقت حتــى سمعنا صوت إطلاق رصاصــ، بعدها انفتح بابَ الديــر وخرج شخص ينادي الجميــع بالصعود، وقبــل أن يفكر أحد فيما ينبغي عليه عمله، كان بعضــ الرهبان الشباب قد تقافزوا على الدرجات الرخاميــة وكأنهم يتسابقون للوصول إلى بوابة السماء، ثم تلاهم آخرون وآخــرون، وأصبح السلم الرخامي الطويل بمثابة وريد يربط بين السماء والأرضــ، بينما الرهبان ليسوا أكثر من نمل يصعد عليه، أو كريات دم تتدفق فيه.

في خروجنا من السيارة التي حوَّلها الضابط الكبير إلى غرفة العمليات لمحنا عددًا مــن السيارات السوداء على الطريق، وثمــة أساقفة ومطارنة كبار ينزلون منها، وقفنا على جانب الطريق مفسحين لهم ولمن يهرولون حولهــم، كانت تريــزا تتساند عليَّ وهي تنظر نحــو العابرين في صمت، وإذا بالأسقف الكبير يتوقف فجأة في طريقه، وينحي الحراس والشمامسة الذين حوله جانبًا، ليتقدم نحونا قائلاً بصوت هادئ وقور:

– كيف حالك؟

انحنــت تريزا على يــده وصليبه فقبلتهما، فمسح علــى رأسها مبتسمًا، بعدها رفعت وجهها ونظرت إليه بحزن وغضب:

– دميانة يا أبونا... دميانة.

ربت على كتفها واستدار ليكمل طريقه، ووقفت في مكاني أنظر بدهشة لما يجري.

كان كل الذيــن أسفل الهضبة قد صعدوا إليهــا، حتى الرهبان العجائز أُحضــرت لهم محفــات لنقلهم، وأرسلــت الشرطة مزيدًا مــن السيارات التــي تقل الجنود، فاحتلوا المكان الــذي كان الرهبان يقفون فيه، لكنهم لم يفكــروا في الصعود، فقط كانــوا يعاونون من يحتــاج إلى المعاونة، بينما أجهزة اللاسلكي تملأ المــكان ضجيجًا وأسئلة، كان أحمد ونائل قد انفصلا عنــا، وصعدا مع أوائل الصاعدين، فلــم يريا سلام الأسقف على تريزا،

ولم يكونــا معي لمعاونتها علــى الصعود، لكن الضابــط الكبير أمر رجاله بإحضــار محفة وحملهــا إلى أعلى، حين دخلنا الدير شعــرت أنني أسترد روحــي التي سُرقت مني، شعرت بالحنين إلى كل ما فيه، ووددت لو أقبل الحوائــط والأبواب، لكننــي لم أر المكان عظيمًا كما كنــت أراه من قبل، ربمــا لأن المدينة واسعة ومبانيها أكبر، وربمــا لأن عالمها غني وسريع، لكننــي انسقت مع الجموع نحو قلاية يوســاب، حيث علمت أنه تم القبض عليه هناك، وأن أنطونيوس هو الذي اقتحم المكان برجال معه، لم أعرف أين هو، ولم أعرف إن كانت دميانة موجودة أم لا.

درت بنظــري بحثًا عن أي مــن أصدقائي الرهبــان في الدير، رأيت أحدهــم جالسًا يبكي، سألتــه عما يبكيه فقال إن الديــر دنِّس، وجرت فيه الجرائم، وعلمت منه أن المحققة دميانة محتجزة في مبنى الضيافة، ويبدو أنهــا قتلت، هنالك لم أتمالك نفسي من الصراخ، كنت أصرخ كما لو أنني أرفع السماء عن الأرض بصوتي، وكان صراخي يتعالى وأنا أبعد الناس عــن طريقي، رغم أنني لم أكن أعــرف إلى أين أتجه، وفي النهاية هداني ضعفــي وقلة حيلتي لأن أنــادي أنطونيوس، فظللــت أصرخ باسمه حتى رأيتــه أمامي، قلت لــه إن دميانة هنا، ولم أخبره بمــا جرى لها، فقبض علي ذراعي وجرني للبحث عنها معه.

كان الرهبــان يفتحــون لــه الطريــق حيــث أراد، فصعدنــا إلى مبنى الضيافــة، وهنــاك التقينــا بشماس عجوز قــال إنهم أخذوهــا في مفارش السرير إلى كنيســة الملاح، نزلنا نهرول بجنون، وبــدا على أنطونيوس أنــه تذكر شيئًا ما، فأخــذ يقفز الدرجات كأنه شبــح، ويزيح الرهبان من أمامه مهــرولاً باتجاه الكنيسة، والرهبان يهرولــون خلفه كأنه دليلهم في شــيء ما. حين وصلت إلى الكنيسة لم أعــرف كيف أدخل، لكنني سمعت بهمسات أنهم وجدوها، هنالك جاءتني طاقة لا أعرف مصدرها، وأخذت أدفــع نفسي بــين الرهبان حتى وصلــت إلى المذبح، كان بعضــ الأقوياء يقفون على بابه يمنعــون الناس من الدخول، فصحت بأعلى صوتي على أنطونيوس، ودفعت نفسي بينهم فمر نصف جسدي إلى الداخل.

رأيـت أنطونيوس وقـد أخرج وجـه دميانة مـن مـلاءات السرير ومفارشه، رأيته يسندها على ذراعه ويطلب من الناس أن يفسحوا المجال لبعض الهواء، ناديته فأشار نحوي بالدخول، قال إنها ما زالت حية لكن الهـواء قليل، درت برأسي بحثًا عن مصدر للهواء، كيف يمكننا أن نزيح كل هـؤلاء الرهبان من أجـل الهواء، فجأة تذكرت ما حكاه لي عن مقبرة المـلاح والممر الرابط بينها وبين مغارة البحـر، فقلت له البحر، وأجابني متسائـلاً كيف، ثم سرعان ما انتبه إلى أنـه صاحب هذا الطريق، فانحنى وحملها لمغارة المـلاح ولبؤته، عبرنا المقبرتـين المتجاورتين واقتربنا من نهايـة المـكان، وجدنا الهـواء يتدفق تحـت أقدامنا من الممـر، فوضعناها ورحنـا نهزهـا بهدوء، كنـا نضرب وجههـا ضربات بسيطـة متسارعة ونحن ننادي باسمها، في النهاية قلت لها إن تريزا في الكنيسة وأنطونيوس إلى جـوارك، وبدا لي أنها سمعت هذه الكلمـة، فكررتها وأنا أهزها كمن يستعيدهـا من المـوت، ففتحت عينيها إلى وجهـي، ولم أعرف من فرحي كيف أخبرها بوجود أنطونيوس، فأخذت أشير إلى وجهه.

حين خرجنا من المقبرة كان المذبح ممتلئًا بكثير من الأجساد، طلبنا منهم أن يفسحـوا لنا طريقًا كي نخرج، وحملهـا أنطونيوس على يديه، رافضًا أن يعاونـه أحد، كان الرهبـان يتدافعون للخروج مـن الكنيسة مفسحين الطريـق له، على الباب كانت تريزا تجلس بين أحمد ونائل باكية، فنبهت أنطونيوس لوجودهم، فوقف لطمأنتها على ابنتها قبل أن يكمل طريقه إلى مبنـى الضيافة، حيث كان الأساقفة وكبار رجال الأمن قد احتلوا المكان، فوضعناها في غرفة وحدها وجلسنا نبحث عن راهب طبيب، فتذكرت أن أنطونيوس هو صاحب العيادة، وأنه الذي يمكنه مساعدتها.

-٣٧-

كلّفني أستاذي بنيامين، المتنيِّح في العام التاسع والخمسين بعد الأربعمائة مـن ميلاد السيد المسيح، بأن أكمل من بعده كتابة تاريخ ديرنا وما يجري مـن حوادث جسـام في حاضر أمتنـا القبطية، قائـلاً إنه لـو كان للكتاب والشراح من أمثالنا صلاة خاصـة بهم فإنها تدوينهم للحقيقة كما يرونها، وسوف يأتي زمان على الناس يحتاجون فيه إلى كل كلمة نتركها كي يقفوا علـى ما جرى لأسلافهم، وكيف واجهوا طغـاة الهراطقة، وها أنا بعدما طالعت ما دوَّنـه أستاذي بنيامين في كتابه، وما دونـه أستاذه رفائيل من قبل في كتابـه، أحضر ريشاتي وأحباري وما لدي من ورق البردي كي أكتب معاناة القبط في مواجهة اضطهاد الروم وكنيستهم الملكانية.

توقـف كتاب أستاذي بنيامين عند ما حدث في مجمع خلقدونية، ويبدو أنـه عز عليه أن يكتب عما جرى بعد ذلك، فقد أمر الإمبراطور مارقيان وزوجته الإمبراطورة بوليخاريا بنفي ديسقورس إلى جزيرة غنفرا بآسيا الصغـرى، وأرسل لاون أسقف رومـا إلى أستاذي بنيامين طالبًا منه أن يتولى كرسـي الإسكندرية، موضحًا أنه يعرف مكانته بين أساقفتها، وأنه هو الـذي أعاد الوحدة بـين الإسكندريـة وأنطاكيا، ويحق لـه أن يكون أسقـف الإسكندرية بدلاً من ديسقورس، لكن بنيامـين الذي عانى الكثير مـن تهميش ديسقورس له، رفض أن يتولى كـرازة الإسكندرية في قلب ثورة الأرثوذكس على الخلقدونيين، فأرسل إلى لاون قائلاً "أيرضيك أن يكـون ديسقورس في قائمة الآباء المباركين الذين عانوا من نير الاضطهاد والنفـي مثلـه مثل ديونسيوسـ وبطرسـ وأثناسيوس، ويدخـل بنيامين لكرسـي الإسكندرية مجلـلاً بالعار على عجلة حربية مـن قبل الملك؟ إنني أفضـل أن أمضـي ما بقي مـن حياتي صامتًا بين أهلـي في دير الملاح ولا أكون بطريركًا على عجلة الملك".

كان الرهبــان والأساقفة الذين ذهبوا إلى خلقدونية الثاني غير مصدقين ما يجري، فقد حرم رئيسهم ديسقورس وأدينت تعاليمه، وتم إرساله إلى نهايــة حدود الإمبراطورية الشاسعة الأطــراف ليمضي ما بقي من حياته هناك، كانــت الصدمة كبيرة وهم غير قادرين علــى استيعابها، ولم يكن في مخيلتهــم سوى أن الإمبراطور وزوجته قدما ديسقورس على مذبحهم من أجل إضعاف الإسكندرية، كي لا تفكر في الانفصال عن بيزنطة، ولا تحظى بشرف السبق على عاصمة الإمبراطورية، لأجل هذا نصروا الاون على ديسقورس، وانتفضوا يتهمــون الأساقفة الخلقدونيين بالعار، وبذل دينهــم من أجل تملق الملــك، وسرعان ما تدخل الحرســ الإمبراطوري ليحــول بينهم، فتشاجروا معه، واتسع الشغب ليملأ المدينة كلها، حتى أن الإمبراطور أمر بإحضار قوات من القسطنطينية لقمع المشاغبين.

عدنا من طرق متفرقة إلى الإسكندرية، فقد تعامل الجند بقسوة مع كل الرهبان والقساوسة والأساقفة الرافضين للمجمع، كانوا يضربون بإفراط وقســوة، وكأنهــم يبلغوننا أن ما حدث صفحة وطويــت، وعلينا أن ننتقل لغيرهــا، وكان غيرها بالنسبة لهم جاهــزًا، فقد تفاوضوا مع أسقف يدعى بروتيريوســ، كان مساعدًا لديسقورســ في أفسس الثاني، ثم انقلب عليه في خلقدونيــة، فرضي أن يأتي إلى كرسي الإسكندرية في حماية عسكرية مــن قبــل الإمبراطور ونائبه، لكــن الشعب لم يرض، وســاد الشغب في المدينة العريقة، وظل الكل رافضًا أبوة بروتيريوس، متهمينه بالبطريرك الملــكاني، ومتهمين كنيسته وأعوانه بالملكانيين، حتى أنه اضطر في النهاية للهروب من المدينة.

كان علينــا حسبما رأى بنيامين أن نعتــزل الفتنة ونعود بكتبنا وأوراقنا إلى ديــر الملاح، حيث يمكننا أن نغلق على أنفسنا من مطاردة الجنود لكل رافض لقــرارات خلقدونية، فحملنــا ما استطعنا حملــه وعدنا إلى هضبة المــلاح، لكن لامسون لم يعد معنــا، وانضم إلى رهبان من دير الملاح في أبــو كير، كان شنودة قــد تركهم في معية الرهبــان الباخوميين المرابطين هناك، قال لامسون إنه يفضل أن يبقى في المدينة كجزء من الأحداث ولو

مجـرد شاهد عليها، عن أن يكون شارحًا لكتابات آباء في دير على هضبة في جبـال القلزم النائية، تفهمنـا رغبته في الانضمـام للباخوميين، حيث انتشـرت أفكار رفائيل عبر تلامذته الذين كانوا في صحبة شنودة، وحيث يمكنه أن يجد المجد الذي يبحث عنه في ظل سلطة مؤمنة بالطبيعتين، وبكل ما جاء في قرارات خلقدونية الثاني.

لم يمضـ كثير من الوقت حتى تنيح البابا ديسقورس في غنفرا، ورأى الرومان أن الفرصة جاءتهم من السماء كي يثبتوا بروتيريوس التابع لهم، فأعـادوه إلى الإسكندرية في حراسة مشددة من جديد، وظن الإمبراطور مارقيان وأسقف روما لاون أنهما كسرا أنف القبط، لكن ذلك لم يحدث، فقد اتفقت إرادة الجميع على اختيار تيموثاوس القط، وكان تلميذًا ومساعدًا لديسقورسـ، كي يكون خليفة له، وتكتـم الجميع الأمر وهم يتدفقون إلى الإسكندريـة ليرسموه في كنيسة مريم العـذراء أسقفًا لكنيسة الإسكندرية، وليحتفـل الجميع بأبيهم الروحي على كرسـي أسلافه المباركين من حفظة الإيمان القويم، فاستشـاط الرومان غضبًا، مؤكدين أن بروتيريوس هو أسقـف الإسكندرية المعترف به، ونزل الجنود متوقعـين أن بإمكانهم أن يقمعوا الشعب، ويجلسوا بروتيريوس على كرسي ديسقورس بالقوة.

اشتعلت الشـوارع بالغضب، ونزل الرهبان من الأديرة ليدافعوا عن تيموثاوسـ القط، وكثر الكـر والفر، ولم يستطع الجنـد ضبط الأمور، وأصيـب منهم الكثير، فاضطروا أن يتركوا موقعهم متخاذلين عن حماية بروتيريوس، هذا الذي وجد فيما بعد قتيلاً في أحد الشوارع الجانبية.

لم يصـدق لاون أن بروتيريوس قد قُتـل، وأن الإسكندرية أصبحت في يـد تيموثاوسـ القـط، ومن ثـم راح يصرخ بـأن القط هـو من أمر بقتلـه، وأخذ يصفه في عظاتـه بالبربري الطاغية قاتـل والديه، وأرسل للإمبراطور الجديد، وكان يدعـى لاوون، مطالبًا بالتدخل لإنقاذ كنيسة الإسكندريـة مـن العبوديـة المزرية، وموحـدًا كل الكنائسـ التي وافقت على قرارات خلقدونية في مواجهة مـن رفضوها، ناعتًا الرافضين بأنهم أصحـاب الطبيعة الواحدة. ظـل يردد نداءاتـه للإمبراطور حتى رضخ

الأخـير لصياحه وبكائه، وأمر بتعيين أسقف جديـد للإسكندرية من أبناء ديـر أبو كير، هذا الدير الذي برز نجمه كديـر خلقدوني، وكان الأسقف يحمل اسم تيموثاوس أيضًا، فلقبه الناس بذي القلنسوة البيضاء، تفريقًا بينه وبين تيموثاوس القط.

في هـذا العام تنيح أستاذنا بنيامين، فأقام لـه الأب شنودة رئيس الدير قداسًا جنائزيًّا كبيرًا، حضـره أساقفة مـن الشمال والجنـوب والشرق والغرب، ولقبـوه بالعلامة الكبير، رئيس مدرسـة اللاهوت، وصديق البابـا ديسقورس وثاؤفيلوس ورفيق درب البابا تيموثاوس القط، وحين انتهـت مراسم العزاء أجلسنـي شنودة في مكانه أسفل شجـرة السدر التي غرسهـا أبانوب لصديقـه ديمتريوس، فجلست لا أعرف مـا الذي ينبغي علـيَّ فعلـه، لكنني وجدت شنودة يأتينـي بكتاب باللاتينية قائـلاً انقله إلى الديموطيقيـة كي نرسل به إلى الدير الغربـي، فثمة نساخ يحتاجون إليه، كان الكتاب ملفوفًا في قطعة مـن الحرير، وموضوعًا في صندوق خشبي مناسـب لحجمـه، فتحت الصنـدوق وأزحت الحرير فوجـدت غلافًا من جلد الماعز نقش عليه عنـوان "الرسائل"، وأسفلها اسـم "أوريجانوس"، فشعـرت أن شيئًا ما مسني، حتى أنني ارتجفـت، وشهقت حابسًا روحي عن مفارقـة جسدي، حين سألني شنودة عمـا أصابني، رفعت عيني إلى وجهه قائلاً:

– ألستَ مجسدًا؟

فابتسم، وهز راسه قائلاً:

– يا أنطونيوس.. هذا الدير له تقاليد تسلمناها عن آبائنا المباركين، ولا يمكننا أن نخونهم.

-٣٨-

ابتسمت دميانة حين سمعتني أقول لأنطونيوس إنه صاحب العيادة، ولمحت ابتسامتها الواهنة، لكنها كانت إشارة على انتباهها لما نقول، فأخذت أصيح كالأطفال وأنا أشير لأنطونيوس نحو ابتسامتها، قائلاً إن عليه معالجتها الآن، حينها علا وجهيهما نوع من الخجل والارتباك، لكنه نظر لها قائلاً:

– حمد الله على السلامة.

قالت له:

– أتعبتك.

وبدأ الحديث يسري بينهما، ربما كانت العيون تقول أكثر مما تقوله الكلمات، لذا انسحبت إلى نهاية الغرفة، تاركًا لهما الفرصة ليقولا ما لم يقولاه في لقائهما الأول. جلست صامتًا حتى سمعت صوت هرولة وخطوات في الطريق نحو الغرفة، خرجت أنظر ما يحدث فإذا بي أجد الأسقف الكبير أمامي، انحنيت على صليبه فقبَّلته، وكان صليبًا كبيرًا مزخرفًا بالصدف على جانبيه، وللحظة تخيلته صليب أنطونيوس الذي ورثه عن باخوميوس الحبَّاك، لكنني تذكرت أننا تركنا صليب أنطونيوس في بيت تريزا معلقًا على صورة صلاح متري.

أفسحت الطريق للأسقف الذي دخل برفقة راهب عجوز، سلم عليه أنطونيوس وناداه بالأب دانيال، بينما اتجه الأسقف نحو دميانة التي حاولت النهوض من سريرها، فمنعها وانحنى مقبلاً رأسها، سائلاً عن السيدة تريزا، حينها انتبهنا أننا تركناها على باب كنيسة الملاح برفقة

أحمـد ونائل، فهـرول رهبان وشمامسة لا أعرفهـم لإحضارها، وغمز دانيال العجوز لأنطونيوس قائلاً:

- هل هذه دميانة؟

فهـز الأخير رأسه، وبدا عليه الخجل، بينما اتجه دانيال هامسًا في أذن الأسقف الكبير، فعاد الأخير بوجهه نحو أنطونيوس مبتسمًا:

- هل كنت قاطع طريق حقًّا؟

لم يعرف بما يرد، أنا نفسي أسقط في يدي، لكن الأسقف أضاف:

- إيمانويل حكى لي عنك.

اطمـأن قلب أنطونيوس إلى أنه ليس متهمًا، وارتسمت ابتسامة خجلة علـى وجهه، بعدها انسحـب الأسقف ودانيال قائلـين إن لديهما ما ينبغي إنجازه.

علمنا فيما بعد أن الأسقف الكبير عقد مجمعًا مقدسًا من الأساقفة والرؤساء للتحقيق في نشر رسائل أوريجانوس ومقتل باخوميوس وخطف دميانة. وكان علينـا أن ننتظـر إعلان المجمع قراراته كي يقـام القداس الجنائزي لباخوميوس بحضـور الجميع، لكن النقاشات طالـت واحتدمت وامتدت إلى مئـات السنـين إلى الـوراء، وكان أوريجانوس محـور الجدل الذي لم ينتـه، وكان من الصعوبـة أن يأخذ التيار المؤيد له قـرارًا بإعادته إلى الكنيسة، أو حتى السمـاح بنشر أعماله في مطابعها، ونظرًا لما فعلته قديمًا قـرارات الإدانة والحرمان من آلام ما زال جسد الكنيسة يعاني منها، فقد رأى الآبـاء المجتمعون في دير الملاح أن يتقدم جـورج المنحني ويوساب وأنطونيوس باستقالة من مناصبهم والخروج من حياة الرهبنة.

كانت هذه القرارات بمثابة صيغة تحافظ على وحدة الكنيسة وأطرافها، لكـن ذلك لم ينـفِ حق المجتمع، فقـد ألقت الشرطة القبضـ على يوساب والمنحنـي وعدد من طوال القامـة بتمهمة قتـل باخوميوس، ونشطت في

البحث عن يؤانس الذي اختفى من جديد في دروب الصحارى والجبال، ووقـف الأسقف الكبير مشرفًا على القداس الجنائزي الذي حضره أساقفة ورهبان ضاقت بهم هضبة الملاح، فنزلوا إلى الصحراء الفسيحة يترنمون بالمزامير ونشيد الأنشاد.

جلسـت أصور الكتـب التي أريدها من المكتبة، تلـك التي كانت مخزنًا هائـلاً للكتب، لكـن الأب إيمانويل استجاب لطلبـي فصنعنا لها الأرفف، وأعـدت تصنيف الأعمال ووضعها عليهـا، جلست إلى المكتب الذي أعده لي خفيـة المعلـم نقولا النجـار، متأسيًا علـى خبيئة الكتب التـي صادرتها الكنيسة، ورحت أكمل صلاتي الخاصة، فقد آمنت بما قاله بنيامين لتلميذه أنطونيوس أن كل كتابة هـي صلاة خاصة لكاتبهـا. وفي النهاية أرسلت نسخـة من عملي الذي انتهيت منه مؤخرًا إلى أنطونيوس ودميانة في بيت تريزا وصلاح متري.

الكاتب في سطور

صبحي موسى

– شاعر وروائي مصري من جيل التسعينات، ولد عام ١٩٧٢.

– حصل على ليسانس الآداب، قسم الاجتماع عام ١٩٩٤.

– عمل في الصحافة الأدبية منذ عام ١٩٩٢ حتى الآن.

– عمل مديرًا عامًّا للنشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة.

– عمل رئيسًا لمجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة.

– يعمل مديرًا للمكتب الفني بالمجلس الأعلى للثقافة.

المنح والجوائز:

ـ منحة التفرغ من وزارة الثقافة المصرية لمدة ثلاثة أعوام لكتابة رواية "أساطير رجل الثلاثاء".

ـ منحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون "آفاق" لكتابة رواية "الموريسكي الآخير".

ـ الجائزة المركزية لقصور الثقافة عن روايته "صمت الكهنة".

ـ جائزة أفضل عمل روائي في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٤ عن رواية "أساطير رجل الثلاثاء".

ـ جائزة "نجيب محفوظ" من المجلس الأعلى للثقافة عن رواية "نقطة نظام".

ـ وصلت روايته "الموريسكي الأخير" إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد عام ٢٠١٦.

صدر له:

- يرفرف بجانبها وحده شعر على نفقة الكاتب، ١٩٩٨.
- قصائد الغرفة المغلقة شعر سلسلة "إبداعات" الهيئة العامةلقصور الثقافة ٢٠٠٠.
- هانيبال شعر سلسلة "كتابات جديدة" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١.
- لهذا أرحل، شعر، دار الحضارة ٢٠٠٦.
- في وداع المحبة، شعر ، دا الحضارة٢٠١٠.
- صمت الكهنة، سلسلة "أصوات" الهيئة العامة لقصور الثقافة رواية ٢٠٠٢.
- حمامة بيضاء، دار ميريت للنشر والتوزيع رواية ٢٠٠٥.
- المؤلف، رواية، الدار للنشر والتوزيع ٢٠٠٨.
- أساطير رجل الثلاثاء، رواية، سلسلة "كتابات جديدة" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣.
- الموريسكي الأخير، رواية، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع ٢٠١٥.

يحيا المرؤ بأصدقائه

خالص الشكر والتقدير لكل الأصدقاء الذين دعمونى خلال كتابتى هذا العمل، سواء بمراجعتهم أو آرائهم أو نصحهم، وأخصُّ بالذكر:

د. جابر عصفور
د. رشا صالح
د. حسن هند
أ. زينب عفيفى
د. عفاف عبد المعطى

